

سَبِيلُ الْمُهْدَى

وَالشَّكَاذِ

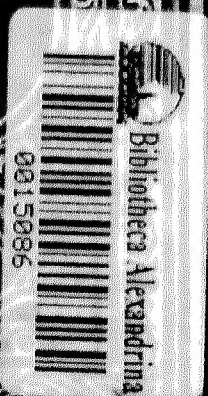
سيرة خير العباد

للمؤلف محمد بن يوسف القضاة الشامي
الترجمة سنة ٩٤٢ هـ

تحقيق وتعليق
الشيخ عادل الجريسي المبرور
الشيخ علي محمد موصوف

الجزء الثالث

مكتبة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



سَبِيلُ الْهَدْيِ وَالرَّشَادِ فِي سِيَرَةِ خَيْرِ الْعِبَادِ

لِلإمام محمد بن يوسف الصّالحي الشّامي
المتوفى سنة ٩٤٢ هـ

تحقيق وتعليق
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود الشيخ علي محمد معوض

الجزء الثالث

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلکس: Le 41245 Nasher

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاکس: ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢/٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

جماع أبواب معراجہ

صلی اللہ علیہ وسلم

قد كنتُ أفردتُ كتاباً حافلاً في هذا الباب سَمَّيْتُهُ: «الآيات البَيِّنَاتِ في معراجِ سيد
أهل الأرض والسموات»، ثم ظَفِرْتُ بِأَشْيَاءَ لَمْ يَتِمَّشِرِ الْوُقُوفُ عَلَيْهَا إِذْ ذَاكَ، فَجَمَعْتُ
كتاباً آخرَ سَمَّيْتُهُ: «الفضل الفائق في معراج خير الخلائق»، فاجتمع فيه فوائد ونفائس
لا توجد مجموعة إلا فيه، فرَأَيْتُ أَنْ أَذْكَرَ هُنَا خِلَاصَتَهُ:

في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى...﴾

الباب الأول

في بعض فوائد قوله تعالى

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا خَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء ١].
الكلام على هذه الآية من وجوه:

الأول: في سبب نزولها: قال الإمام العالم العلامة أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغوثايطي - بفتح الغين المعجمة وسكون الراء وبالطاء المهملة - في تفسيره المسمى بالنهر: «سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما ذُكر الإسراء به كذبوه، فأُنزلها الله تعالى».

الثاني: في وجه اتصال هذه السورة بما قبلها: قال الإمام فخر الدين الرازي، والبرهان النسفي: «وجه الإتصال بما قبلها أن في تلك السورة ذُكر الخليل عليه السلام وذكر أوصافه الشريفة، وتشريعاته العلية من الحضرة الأزلية، والأمر باتباع ملّة الحنيفية، والاقتداء به في العقائد الدينية، وفي هذه السورة ذكر من أتبع ملّته بالصدق، وأقام شُنته على الحق، وفي آخر تلك السورة أُمِرَ نبيُّنا ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل ١٢٥]. وأمره بعد ذلك بالصبر فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل ١٢٧] والصبر هو التحمل للمكاره، والتحمل من جملة ما يؤدّي إلى التَّحَمُّل، ومنه ما ذُكر في أول هذه السورة.

الثَّالث: لما أمره الله تعالى بالصبر، ونهاه عن الحزن عليهم، وأن يَضَيِّقَ صَدْرَهُ مِنْ مَكْرِهِمْ، وكان من مكرهم يشبّثه إلى الكذب والسُّخْر والسُّغَر وغير ذلك مما زَمَوْهُ بِهِ، فَأَعْقَبَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِشَرْفِهِ وَفَضْلِهِ وَاحْتِفَائِهِ بِهِ وَعَلَوْ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ.

الشيخ رحمه الله تعالى في مناسباته: «هذه السورة والأربعة بعدها من قديم ما نزل، روى الشيخان عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال في سورة بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي».

الثَّلاث - بكسر المثلثة الفوقية وتخفيف اللام أي مما حُفِظَ قَدِيمًا، وهذا وجه في ترتيبها، وهو اشتراكها في قَدَمِ النَزول وكونها مَكِّيَّات، وكلها مشتملة على القصص.

وظهر لي في وجه اتصالها بسورة النحل أنه سبحانه وتعالى لما قال في آخرها: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل ١٢٤]. فَشَرَفَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ شَرِيعَةَ أَهْلِ السَّبْتِ وَشَأْنَهُمْ، فَذَكَرَ فِيهَا جَمِيعَ مَا شَرَعَ لَهُمْ فِي التَّوْرَةِ.

كما روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «التوراة كلها في خمس

عشرة آية من بني إسرائيل». وذكر عصيانهم وفسادهم وتخريب مسجدهم، ثم ذكر استفزازهم النبي ﷺ وإرادتهم إخراجه من المدينة وسؤالهم إياه عن الروح. ثم ختم السورة بآيات موسى التسع، وخطابه مع فرعون. وأخبر أن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فأهلك. وأرث بني إسرائيل الأرض من بعدهم. وفي ذلك تعريض بهم أنهم كما استفزوا النبي ﷺ من المدينة، فسيخرجون منها ويترثها هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم. وقد وقع ذلك أيضاً. ولما كانت السورة مُصدِّرة بتخريب المسجد الأقصى افتتحت بذكر إسرائ سيدنا محمد المصطفى إليه، تشريفاً لحلول ركابه الشريف وجبراً لما وقع من تخريبه. انتهى.

الثالث: في حكمة افتتاحها بالتسبيح:

ابن الجوزي في زاد المسير: الحكمة في الإتيان به هنا وجهان: أحدهما: أن العرب تُسَبِّح عند الأمر العجيب، فكأن الله تعالى عَجَّبَ خَلْقَهُ بما أسدى إلى رسول الله ﷺ من الإسرائ به.

الثاني: أن يكون خرج مخرج الرد عليهم، لأنه ﷺ لما حَدَّثَهُمْ عن الإسرائ به كَذَّبُوهُ، فيكون المعنى تَنَزَّه الله تعالى أن يَتَّخِذَ رسولا كَذَّاباً.

القاضي تاج الدين السبكي في تذكرته سأل الإمام: ما الحكمة في افتتاح سورة الإسرائ بالتسبيح والكهف بالتحميد؟ وأجاب بأن التسبيح حيث جاء قُدِّم على التحميد نحو: ﴿فَسُبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر ٣] سبحان الله والحمد لله.

وأجاب ابن الزمِّلَكَاني - بفتح الزاي واللام -: [أن] سورة سبحان لما اشتملت على الإسرائ وكَذَّبَ المشركون به النبي ﷺ، وتكذيبه تكذيب الله تعالى، أُنِيَ «بِسُبْحَانَ» لتنزيه الله عز وجل عما يُنْسَب إليه من الكذب، وسورة الكهف لما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخير الوحي نزلت مُبَيِّنَةً أن الله تعالى لم يقطع نعمته على نَبِيِّهِ ولا على المؤمنين، بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة.

الرابع: في الكلام على سبحان الله:

محمود الكرماني في «برهانه»: «كلمة استأثر الله تعالى بها، فبدأ بالمصدر في بني إسرائيل ثم بالماضي في الصَّفِّ والخَشْر لأنه أسبق، ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في الأعلى استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها»، انتهى.

وقوله: «فبدأ بالمصدر» أي بالاسم الموضوع موضع المصدر.

في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى...﴾

وروى الحاكم أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، سأل رسول الله ﷺ عن معنى «سبحان الله»، فقال: «تنزيه الله من كل سوء».

وروى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله تعالى عنهما، قال: «سبحان الله، اسم يُعَظَّم الله تعالى به نفسه ويتحاشى به عن السوء».

الماوردي رحمه الله تعالى: «هو ذِكْرُ يُعَظَّم الله تعالى به لا يصلح إلا له».

وأما ما ذُكِرَ في قول الشاعر.

«سبحان من علقمة الفاخر».

فعلى سبيل الشذوذ.

صاحب النظم^(١): «السُّبْح - في اللغة - التباعد، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل ٧]، أي تباعداً طويلاً. فمعنى سبح الله تعالى بعده عما لا ينبغي. وللتسبيح معانٍ أخر ذكرتها في كتاب: القول الجامع الوجيز الخادم للقرآن العزيز.

الإمام موفق الدين بن يعيش رحمه الله تعالى في شرح المُفَصَّل: «اعلم أنهم قد علقوا الأعلام على المعاني فأطلقوها على الأعيان، فمن ذلك قولهم: سبحان، وهو عندنا عَلمٌ واقع على معنى التسبيح، وهو مصدر معناه البراءة والتنزيه وليس منه فِعْلٌ، وإنما هو واقع التسبيح الذي هو المصدر في الحقيقة، فجعل عَلماً على هذا المعنى فهو معرفة لذلك، ولا ينصرف للتعريف وزيادة الألف والنون. وأما قول الشاعر: «سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانَا يَعُودُ لَهُ»، ففي تنوينه وجهان: أن يكون ضرورة، والثاني: أن يكون أراد الفكرة».

الضياء بن العُلج رحمه الله، في البسيط: «لفظ المصدر لأنه مصدر سَبَّحَ إذا قال: سبحان الله، ومدلول سبحان التنزيه لا اللفظ».

قلنا: التسبيح بمعنى التنزيه أيضاً لأن معنى سَبَّحْتُ نَزَّهْتُ الله تعالى، فتطابقا حينئذٍ على معنى التنزيه، فصَحَّ تعليق سبحان على التسبيح، واستعماله عَلماً قليلاً، وأكثر استعماله مُضَافاً إما إلى فاعله أو إلى مفعوله. فإذا أضيف فليس بعَلم لأن الأعلام لا تُضَاف.

قال: وقيل «سبحان» في البيت مضاف لخليف المضاف إليه للعلم به وليس بعلم».

(١) أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني القاضي بهرجان ثم بالري ذكره الشيخ أبو إسحاق في طبقاته فقال: كان فقيهاً أديباً شاعراً وفيه يقول الصباح بن عباد:

إذا نحن سلمنا لك العلم كله قدع هذه الألفاظ ننظم شذورها
انظر شذرات الذهب ٥٦/٣، ٥٧.

أبو عمرو بن الحجاج^(١) رحمه الله تعالى في أماليه: «الدليل على أن سبحان علم للتسبيح قول الشاعر:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا جَاءَ بَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مِنْ عِلْقَمَةِ الْفَاجِرِ^(٢)

ولولا أنه علم لوجب ضربه لأن الألف والنون في غير الصفات إنما تمنع مع القلمية. الشهاب السمين رحمه الله تعالى في إعرابه: «قيل هو مصدر لأنه شمع له فِعْلٌ ثلاثي، وهو من الأسماء اللازمة للإضافة. وقد يُفْرَد، وإذا أُفْرِدَ مُنِعَ من الصرف للتعريف، وزيادة الألف والنون كما في البيت السابق. وقد جاء مُنَوَّنًا كقوله:

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا يَمُودُ لَهُ وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودِيُّ وَالْجُمُودُ^(٣)

ف قيل ضرورة وقيل هو بمنزلة قبل وبعد، إن نوى تعريفه بقي على حاله، وإن نُكِّرَ أُعْرِبَ، منصرفاً. وهذا البيت يساعد على كونه مصدراً لا اسم مصدر لوروده منصرفاً. ولقائل القول الأول أن يجيب عنه بأن هذا نكرة لا معرفة. وهو من الأسماء اللازمة للنصب على المصدرية فلا تنصرف. والناصب له فِعْلٌ مُقَدَّرٌ لا يجوز إظهاره.

أبو شامة رحمه الله: «حيث جاء منصوباً نصب المفعول المطلق اللازم إضمار فعله، وفعله إما فعل أمر أو خبر. وهو في هذه السورة مُخْتَمِلٌ لِلْأَمْرَيْنِ أَي سَبَّحُوا الذي أسرى بعده أو سُبَّحَ الذي أسرى بعده، على أن يكون ابتداء ثناء الله تعالى على نفسه كقول (الحمد لله رب العالمين)».

القرطبي رحمه الله تعالى: «العامل فيه على مذهب سيبويه الفِعْلُ الذي من معناه لا من لفظه إذ لم يَجِءْ من لفظه فِعْلٌ، وذلك مثل تعدد الْقُرْصَاءِ واشتمل الْعُصَاءِ. فالتقدير عنده أُنْزِلَهُ اللهُ تَعَالَى تَنْزِيهاً، فوق «سبحان الله» مكان^(٤) قولك تنزيهاً. انتهى.

الزمخشري رحمه الله تعالى: «سُبْحَانَ عِلْمٌ للتسبيح كعثمان لرجل وانتصابه بفِعْلٍ

(١) عثمان بن عمر بن أبي بكر بن بونس، أبو عمرو جمال الدين بن الحجاج: فقيه مالكي، من كبار العلماء بالمرية، كردي الأصل. ولد في أسيا (من صعيد مصر) وشأ في القاهرة، وسكن دمشق، ومات بالإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ. وكان أشهر ساحراً فُتِفَ به. من تصانيفه «الكافية» في البحر، «الشافية» في الضرف، و «منتهى السؤل والأمل» في علمي الأصول والحدود. انظر الأعلام ٢١١/٤.

(٢) البيت لأعشى بروجي

أَبُو بَرْزٍ لَمَّا جَاءَ بَنِي فَخْرِهِ سُبْحَانَ مِنْ عِلْقَمَةِ الْفَاجِرِ

انظر لسان العرب ١٩١٤/٢.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت انظر لسان العرب ١٩١٥/٢

(٤) في أ: فهو بمنزلة.

في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى...﴾

مُضْمَرٌ [متروك إظهاره، تقديره] أَسْبَحَ الله سبحانه. ثم نزل منزلة الفعل فَسَدَّ مَسَدَهُ وَدَلَّ عَلَى التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله.

الطبيعي رحمه الله تعالى: «وذلك في جلب هذا المصدر في أصل هذا التركيب للتوكيد، وهو أَسْبَحَ تسبيحاً ثم أسبح سبحانه، ثم في حذف العامل وإقامته مقامه للدلالة على أن المقصود بالذات هو المصدر، والفعل تابع، فيفيد الإخبار بسرعة وجود التنزيه».

ورؤي عن الكسائي أنه لجعل مُتَادَى تقديره يا سبحانك، وأباه الجمهور.

السفاقي والسمين^(١): «وَرُدُّ بَأَنَّهُ لم يُشْمَع دخول حرف النداء عليه، وزعم بعضهم أن لفظه لفظ التثنية ومعناه كذلك كَلَيْتُكَ. وهو غريب. ويلزمه أن يكون مُفْرَدُهُ شُبْحاً وألا يكون منصوباً بل مرفوعاً، وأن نونه لم تسقط بالإضافة وأن فتحها يلزم».

ومن الغرائب أيضاً ما حكاه الماوردي عن أبان بن تغلب - بالمشناة الفوقية والغين المعجمة - أن سبحان كلمة أصلها بالنبطية «شبهانك» فُعْزِيت «سبحانك». والذي أضيف إلى سبحان مفعول به لأنه المُسَبَّح، ويجوز أن يكون فاعلاً لأن المعنى تنزه الذي أسرى بهبه.

الخامس: في الكلام على «أَسْرَى»:

البرهان النسفي: قال أهل اللغة: أَسْرَى وسرى لغتان. زاد غيره: يختصان بتثنية الليل.

السمين: فيكون سَرَى وأَسْرَى كسقى وأسقى. والهمزة هنا ليست للتعدية، خلافاً لابن عطية، وإنما المُعْدِي الباء في «بعبه». وتقدم في البقرة أنها لا تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول عند الجمهور، خلافاً للمبرد. وبسط الكلام على ذلك هنا وفي البقرة.

السفاقي: الباء للتعدية وترادف الهمزة عند الجمهور خلافاً للمبرد والسهيلي في أنها تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول في الفعل بخلاف الهمزة حتى قال السهيلي: إذ قلت قَعَدْتُ به فلا بُدَّ من مشاركة ولو باليد. وُرِدَّ عليهما بالآية: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة ١٧] لأن الله لا يوصف بالذهاب مع النور. وُرِدَّ عليهما أيضاً بقول الشاعر:

(١) أحمد بن يوسف بن محمد، وقيل: عبد الدائم، العلامة شهاب الدين أبو العباس الحلبي ثم المصري، النحوي المقرئ الفقيه، المعروف بابن السمين. قرأ النحو على أبي حيان، والقراءات على ابن الصائغ، وسمع وولي تصدير إقراء النحو بالجامع الطولوني، وأعاد بالشافعي، وناب في الحكم بالقاهرة، وولي نظر الأوقاف بها، وصنف تصانيف حسنة، منها تفسير القرآن مطول، وقد بقي منه أوراق قلل، قال الحسيني: في عشرين سفرأ، وإعراب القرآن سماه الدر المصون في أربعة أجزاء، ومادته فيه من تفسير شيخه أبي حيان إلا أنه زاد عليه، وناقشه في مواضع مناقشة حسنة وقد قمنا بتحقيقه، وأحكام القرآن وشرح التسهيل شرحاً مختصراً من شرح أبي حيان، وشرح الشاطبية. قال الإسوي: كان فقيهاً بارعاً في النحو، والتفسير، وعلم القراءة، ويتكلم في الأصول خيراً دبتاً. توفي في جمادى الآخرة، وقيل: في شعبان سنة ست وخمسين وسبعمائة بالقاهرة. ابن قاضي شهبة ١٨١٣.

دِيَارُ الْتِي كَانَتْ وَنَحْنُ عَلَى مِئِي تَحُلُّ بِنَا لَوْلَا نَجَاءُ الرُّكَائِبِ^(١)
أي تحلنا فالباء هنا للتعدية، ولم تقتض المشاركة لأن الديار لم تكن حراماً فتصير حلالاً،
ولكون الباء بمعنى الهمزة لا يُجتمَع بينهما، فلا يُقال أَذْهَبْتُ بزيد.

وَجَزَمَ ابْنُ دُحْيَةَ - بفتح الدال وكسرهما - وابن المنير، بما قاله المُبَرِّدُ فقالا: «يُؤْخَذُ مِنْ
قَوْلِهِ: «أَسْرَى بَعْدَهُ» مَا لَا يُؤْخَذُ إِنْ قِيلَ: بَعَثَ إِلَى عَبْدِهِ، لِأَنَّ الْبَاءَ تَفِيدُ الْمَصَاحِبَةَ، أَيْ صَحْبَتَهُ
فِي مَشْرَافِهِ بِالْإِلْطَافِ وَالْعَنَايَةِ وَالْإِسْعَافِ». زَادَ ابْنُ دُحْيَةَ: «وَيَشْهَدُ لذلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ
الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ».

ويؤخذ من ذلك أن من قال: اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أُحْجَّ بِفُلَانٍ، يلزمه الحَجُّ معه، بخلاف ما لو
قال: لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ أُحْجَّ فُلَانًا، فإنه يلزمه أَنْ يُجْهِّزَهُ للحج من ماله. والفرق بين الصورتين ما تعطيه
الباء من المصاحبة. انتهى. وتقدم رُدُّ ذلك.

الحافظ: «أَسْرَى مأخوذ من السَّرى وهو سَيْرُ اللَّيْلِ، فقول العرب أسرى وسرى إذا سار
ليلاً، هذا قول الأكثر».

وقال الحوفي: أسرى سار ليلاً، وسرى سار نهاراً.

قال الحافظ في موضع آخر: «وقيل أسرى سار من أول الليل، وسرى سار من آخره»
وهذا أقرب. ولم يختلف القراء في أسرى، بخلاف قوله تعالى في قصة لوط: ﴿فَأَسْرَى
بِأَهْلِيكَ﴾ [هود ٨١]. ففُتِرَ بالوصل والقطع، وفيه تعقيب على من قال من أهل اللغة: إن
أسرى وسرى بمعنى.

قال السهيلي: «السرى من سَرَيْتُ إِذَا سِرْتُ لَيْلاً، يعني فهو لازم. والإسراء يتعدى في
المعنى، لكن حُدِفَ مفعوله حتى ظُنَّ من ظُنُّ أَنَّهُمَا بمعنى واحد، وإنما معنى «أسرى بعبده»،
جعل البراق يُسْري به، كما تقول: أَمْضَيْتُ كَذَا أَيْ جَعَلْتُهُ يَمْضِي، لكن حُدِفَ المفعول لقوة
الدلالة عليه، والاستغناء عن ذِكْرِهِ، إذ المقصود بالذكر المصطفى لا الدابة التي سارت به.
وأما قصة لوط فالمعنى: سِرُّ بِهِمْ عَلَى مَا يَتَحَمَّلُونَ عَلَيْهِ مِنْ دَابَّةٍ وَلِحَوْهَا، هذا معنى قراءة
القطع. ومعنى الوصل: سِرُّ بِهِمْ لَيْلاً، ولم يأت مثل ذلك في الإسراء، إلا أنه لا يجوز أَنْ يُقال:
«سَرَى بَعْدَهُ» بوجه من الوجوه».

قال الحافظ والنسفي: «الذي جزم به هو من هذه الحيثية التي قَصَرَ فيها الإشارة إلى أنه
سار ليلاً على البَرِّاق. والآن لو قال قائل: سِرْتُ بزيد بِمَعْنَى صاحبه لكان المعنى صحيحاً.

في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى...﴾

السادس: في الكلام على العبد:

أجمع المسلمون على أن المراد بالعبد هنا سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وهو لغة المملوك من نوع مَنْ يَغْلِق. قال في المُحَكَّم: «العَبْدُ الإنسانُ حُرّاً كان أو رقيقاً، لأنه مملوك لبارئه». وقال غيره: «إنه مُشْتَقٌّ من التَّعَبْد وهو التَّذَلُّل».

قال ابن الأنباري: «العبد الخاضع لله من قولهم: طريق مُعَبَّد إذا كان قد وَطِّقَهَا الناس».

وللإمام جمال الدين بن مالك^(١) بيتان في جموع عبْد، وذُيِّل الشبيخ رحمة الله عليهما بمثلهما ووطاً قبلهما بيت، فقال:

جُحُوعٌ لِعَبِيدٍ لِإِنِّ مَالِكٍ نَظَّمَهَا وَزِدْتُ عَلَيَّهَا مِثْلَهَا فَاسْتَفِيدُ وَجُدُ
عِبَادٌ عِبِيدٌ جَمْعُ عَبْدٍ وَأَعْبُدُ أَعَابِدُ مَعْبُوداً مُعَبَّدَةً عُبْدُ
كَذَلِكَ عُبْدَانٌ وَعِبْدَانُ أُلَيْيَا كَذَلِكَ الْعَبْدِيُّ وَاعْبُدْ أَنْ يَشْفَتْ أَنْ تُمْدُ
وَقَدْ زِيدَ أَغْبَادٌ عُبُودٌ عِبْدَةٌ وَخَفَّفَ بِفَتْحٍ وَالْعِبْدَانِ إِنْ تَشُدْ
وَأَعْبِدَةٌ عُبْدُونَ تُكْتَبُ بَعْدَهَا عِبِيدُونَ مَعْبُوداً بِقَصْرِ فَخْدُ تَشُدْ

الإسنوي^(٢) رحمه الله تعالى: «قال سيبويه: العبد في الأصل صفة، ولكنه استعمل استعمال الأسماء».

الشيخ زكريا^(٣) رحمه الله تعالى في فتح الرحمن «قال تعالى: ﴿يَعْبُدْهُ﴾ دون نبيه أو حبيبه لئلا تُضِلُّ أُمته أو لأن وصفه بالعبودية المضافة إلى الله تعالى أشرف المقامات».

(١) محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجعاني، أبو عبد الله، جمال الدين: أحد الأئمة في علوم العربية. ولد في جيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. أشهر كتبه «الألفية» في النحو، وله «تسهيل الفوائد»، و «شرحه له» توفي سنة ٦٧٢ هـ. الأعلام ٢٣٣/٦، بُيِّنَةُ الرَّحْمَةِ ٥٣، وغاية النهاية ١٨٠/٢.

(٢) عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن إبراهيم، الإمام العلامة، منقح الألفاظ، محقق المعاني، ذو التصانيف المشهورة المفيدة، جمال الدين أبو محمد القرشي، الأموي، الإسنوي المصري. ولد بإسنا في رجب سنة أربع وسبعمائة، وقدم القاهرة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وسمع الحديث، واشتغل في أنواع من العلوم، توفي فجأة في جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، ودفن بترته بقرب مقابر الصوفية. ومن تصانيفه: جواهر البحرين في تناقض البحرين والتناقض على التصحيح - وشرح المنهاج للبيهقاري وهو أحسن شروحه وألفها - والهداية في أوامير الكفاية - والمهمات - والتمهيد - وطراز المحافل في ألغاز المسائل - ومن تصانيفه أيضاً: كافي المحتاج في شرح منهاج النووي. انظر الطبقات لابن قاضي شهبة ٩٨/٣، ٩٩، ١٠٠، والبدر الطالع ٣٥٢/١، والعقد المتذهب لابن الملقن ٢٨٧، والأعلام ١١٩/٤، وشدرات الذهب ٢٢٤/٦.

(٣) زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي، أبو يحيى: شيخ الإسلام. قاض مفسر، من حفاظ الحديث، ولد في سنيكة (بشرقية مصر) وتعلم في القاهرة وكف بصره سنة ٩٠٦ هـ. نشأ فقيراً معدماً، له تصانيف كثيرة منها «فتح الرحمن في التفسير»، و «تحفة الباري على صحيح البخاري» و «فتح الجليل» تعليق على تفسير البيهقاري، و «شرح لإساعوجي» في المنطق، و «شرح ألفية العراقي» في مصطلح الحديث، و «شرح شدور الذهب» في النحو، و «تحفة نجاة العصر». توفي سنة ٩٢٦ هـ. الأعلام ٤٦/٣.

الأستاذ أبو علي الدقاق^(١) رحمه الله تعالى: «ليس للمؤمن صفة أتم ولا أشرف من العبودية، ولهذا أطلقها الله تعالى على نبيه في أشرف المواطن، كقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف ١]، ﴿فَأَنزَلْنَاهُ إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم ١٠]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان ١].

الشيخ عبد الباسط البلقيني رحمه الله: «ومن هنا يؤخذ الجواب عن وصفه ﷺ بذلك ووصف يحيى عليه السلام بالسيادة في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا، وَحَصُورًا﴾ [آل عمران ٣٩].

الأستاذ أبو القاسم القشيري^(٢) رحمه الله: «في معناه أنشدوا:

يَا قَوْمِ قُلُوبِي عِنْدَ زَهْرَاءَ يَغْرِفُ السَّامِغُ وَالرَّائِي
لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي»

العوفي رحمه الله: «والسبب في ذلك أن الإلهية والسيادة والربوبية إنما هي في الحقيقة لله عز وجل لا غير. والعبودية في الحقيقة لمن دونه. فإذا كان في مقام العبودية فهو في رتبته الحقيقية، والرتبة الحقيقية أشرف المراتب إذ ليس بعد الحقيقة إلا المجاز، ولا بعد الحق إلا الضلال».

البرهان النسفي رحمه الله: «قيل لما وصل النبي ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المجرج، أوحى الله تعالى إليه: يا محمد أشرفك؟ قال: يا رب تنسبني إلى نفسك بالعبودية، فأنزل الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الآية.

وأقوال القوم في العبد والعبودية كثيرة، والألفاظ مختلفة معانيها، وكل أحد يتكلم

(١) الحسين بن علي بن محمد، الأستاذ أبو الدقاق النيسابوري، الزاهد العارف، شيخ الصوفية. تفقه بمرور عند الخصري، وأعاد عند القفال وبرع في الفقه، ثم سلك طريق الصوفية، وصحب الأستاذ أبا القاسم النضرابادي، وأخذ الطريقة عنه، وزاد عليه حالاً ومقالاً، واشتهر ذكره في الآفاق، وانتفع به الخلق، ومنهم أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة، وحكى عنه أحوالاً وكرامات. مات في ذي الحجة سنة ست وأربعمئة، وقيل: سنة خمس. انظر طبقات ابن قاضي شهبة ١٧٨/١.

(٢) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد، الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري. أحد العلماء بالشريعة والحقيقة. أخذ الطريقة عن الشيخ أبي علي الدقاق وأبي عبد الرحمن السلمي، ودرس الفقه على أبي بكر الطوسي حتى فرغ من التعليق وقرأ الكلام على أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الأسفرايني وبرع في ذلك، وحج مع البيهقي وأبي محمد الجويني. ذكره الخطيب البغدادي ومات قبله، وقال: كتبنا عنه وكان ثقة، وكان يقصر، وكان حسن الموعظة، مليح الإشارة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي، وقال ابن السمعاني: لم ير أبو القاسم مثل نفسه في كماله وبراعته، جمع بين الشريعة والحقيقة. وقال ابن خلكان: صنف أبو القاسم التفسير الكبير، وهو من أجود التفاسير، وصنف الرسالة في رجال الطريقة، وذكر له الذهبي مصنفات أخرى. ولد في ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلاثمئة، وتوفي في ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمئة عن تسع وثمانين سنة، ودفن إلى جانب أستاذه أبي علي بالمدرسة. ابن قاضي شهبة ٢٥٤/١١.

في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى...﴾

بلسان حاله على قدر مقامه، فقال أبو حفص النيسابوري رحمه الله: «العبد هو القائم إلى أوامر سيده على حدّ النشاط حيث جعله محل أمره».

ابن عطاء^(١) رحمه الله: «العبد الذي لا يملك له».

البحريري - بفتح الجيم -: «حقيقة العبد هو الذي يتخلّق بأخلاق ربّه».

رؤيم رحمه الله تعالى: «يتحقق العبد بالعبودية إذا أسلم القياد من نفسه وتبرأ من حوله وقوته، وعلم أن الكل له وبه».

عبد الله بن محمد رحمه الله: «خُزّت صِفَةُ العبودية إن كنت لا ترى لنفسك يملكاً، وتعلم أنك لا تملك لها نفعاً ولا ضرراً. ورحم الله من قال:

وَكُنْتُ قَدِيمًا أَطْلُبُ الْوَضْلَ مِنْهُمْ فَلَمَّا أَتَانِي الْجُلْمُ وَازْتَفَعَ الْجَهْلُ
تَبَيَّنْتُ أَنَّ الْعَبْدَ لَا مَطْلَبَ لَهُ فَإِنْ قَرَّبُوا فَضْلًا وَإِنْ أَبْعَدُوا عَدْلًا
وَإِنْ أَظْهَرُوا لَمْ يُظْهِرُوا غَيْرَ وَضَفِيفُهُمْ وَإِنْ سَتَرُوا فَالْشُّعْرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَحُلُو

الإمام الرازي رحمه الله، دل قوله بعبده على أن الإسرائ كان بهجسد رسول الله ﷺ، لأن العبد اسم للجسد والروح، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩، ١٠].

السابع: في الكلام على قوله تعالى: «لَيْلًا».

الحافظ رحمه الله تعالى: «ليلاً ظرف للإسراء وهو للتأكيد، وفائدته رفع توهم المجاز، لأنه قد يُطلق على سائر النهار أيضاً، ويُقال بل هو إشارة إلى أن ذلك وقع في بعض الليل لا في جميعه، والعرب تقول: سرى فلان ليلاً إذا سار بقصبة، وسرى في ليلة إذا سار في جميعها. ولا يقال أسرى ليلاً إلا إذا وقع سريته في أثناء الليل، وإذا وقع في أوله يقال أذلج، ومن هذا قوله تعالى في قصة موسى وبنى إسرائيل: ﴿فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا﴾ [الدخان: ٢٣]، أي من وسط الليل».

أبو شامة رحمه الله تعالى: إنما تُنسب السرى إلى الليل لما كان السرى واقعاً فيه كقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، أي يُبصر فيه، فهو من باب قوله: «لَيْلٌ نائم وساهر، أي يحصل فيه النوم والشهر، وهذا باب من أبواب المجاز معروف».

(١) أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، ابن عطاء الله الإسكندري: متصوف شاذلي، من العلماء. كان من أشدّ شعوم شيخ الإسلام ابن تيمية. له تصانيف منها «الحكم العطائية - ط» في التصوف، و«تاج العروس - ط» في الوصايا والمطالعات، و«لطائف المنن في مناقب المرسى وأبي الحسن - ط» توفي بالقاهرة. وينسب إليه كتاب «مفتاح الفلاح» وليس من تأليفه.

واستشكل كثير من الناس كون «ليلاً» ظرفاً للإسراء. ووجه الإشكال أنه قد تقدّم أن الإسراء هو سِرُّ الليل، فإذا أُطلق الإسراء فهم أنه واقع ليلاً، فهو كالصَّبُوح في شُرْب الصباح، لا يحتاج إلى قوله: شَرِبْتُ الصَّبُوح صباحاً.

وجوابه أن الأمر وإن كان كذلك إلا أن العرب تفعل مثل ذلك في بعض الأوقات إذا أرادت تأكيد الأمور. والتأكيد نَوْعٌ من أنواع كلامهم وأسلوب منه. والعرب تقول: أخذ بيده، وقال بلسانه. وفي القرآن العزيز: ﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ الشَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، وقال جرير:

سَرَى نَحْوَهَا لَيْلاً كَأَنَّ نُجُومَهُ قَنَادِيلُ فِيهِنَّ الذُّبَالُ الْمُقْتَلُ^(١)

الذُّبَال: جمع ذُبَالَة - بضم الذال المعجمة وهي الفتيلة.

الجوهري^(٢): «وإنما قال ليلاً، وإن كان السرى لا يكون إلا بالليل للتأكيد، كقولهم: سِرْتُ أَمْسَ نهاراً والبارحة ليلاً.

الزمخشري: [فإن قلت الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل؟ قلت]: أراد بقوله ليلاً بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه وقع السرى في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة «من الليل» أي بعض الليل كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] يعني الأمر بقيام الليل في بعض الليل.

قال أبو شامة: «وهذا الوجه لا بأس به، وقد زاد شيخنا أبو الحسن - يعني السخاوي في تفسيره أيضاً وتقريراً، فقال: وإنما قال: «ليلاً»، والإسراء لا يكون إلا بالليل، لأن المدة التي أُسِرَ به فيها لا تُقْطَع في أقل من أربعين يوماً، فُقِطِعَتْ به في ليل واحد المعنى سبحان الذي أسرى بعبده في ليل واحد من كذا إلى كذا، وهو موضع التعجب». قال: «وإنما عُذِلَ عن لَيْلَةٍ إلى ليل، لأنهم إذا قالوا: سَرَى ليلة، كان ذلك في الغالب لاشتيعاب الليلة، ف قيل: ليلاً أي في ليل».

وتعقّب صاحب الفوائد كلام الزمخشري بكلام تعقّبه فيه الطيبي، ثم قال الطيبي:

(١) انظر ديوان جرير (٣٤٣).

(٢) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر. لغوي، من الأئمة. وخطه يذكر مع خط ابن مقلة. أشهر كتبه «الصحاح» - وله كتاب في «المروض» ومقدمة في «النحو» أصله من فاراب، ودخل العراق صغيراً، وسافر إلى الحجاز فطاف البادية، وعاد إلى خراسان، ثم أقام في نيسابور.. توفي ٩٩٣ هـ الأعلام ٣١٣/١.

في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى...﴾

«ويمكن أن يراد بالتنكير التعظيم والتفخيم، والمقام يقتضيه، ألا ترى كيف أفتتحت السورة بالكلمة المثنيّة عنه؟ ثم وصف المُسْرَى به بالعبودية، ثم أردف تعظيم المكانين بالحرام وبالبركة لِمَا حَوَّلَهُ، يُعْظَمُ الزمان ثم يُعْظَمُ الآيات بإضافتها إلى صيغة التعظيم، وَجَمَعَهَا لتشمل جميع أنواع الآيات، وكلُّ ذلك شاهدٌ صِدْقٍ على ما نحن بصدد، والمعنى ما أعْظَمَ شَأْنُ مَنْ أُسْرِيَ [به] يُنْ حَقُّقٌ له مقام العبودية، وَصُحِّحَ له استنهاله للعناية السرمدية ليلاً، أي ليل له شأن جليل.

ابن المنير رحمه الله تعالى: «ولإنما كان الإسراء ليلاً لأنه وقت الخَلْوَةِ والاختصاص غُرفاً، ولأنه وقت الصلاة التي كانت مفروضة عليه في قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢] وليكون أَتْلَعَ للمؤمن في الإيمان بالغيب، وَفِتْنَةً للكافر».

ابن دحية رحمه الله: «كرم الله نبينا ﷺ ليلاً بأمر منها: انشقاق القمر، وإيمان الجِنِّ به، ورَأَى أصحابه نيرانهم، كما في صحيح مسلم، وخرج إلى الغار ليلاً. والليل أصل، ولهذا كان أول الشهور، وسواده يجمع ضَوْءَ النَّصْرِ، ويُجَدُّ كليل النَّظَرِ، ويُشْتَلَّدُ فيه بالسَّحَرِ. وكان أكثر أسفاره ليلاً. وقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم - بالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطَوَّى بالليل». والليل وقت الاجتهاد للعبادة. وكان ﷺ يقوم حتى تَوَزَّمت قدماه. وكان قيام الليل في حَقِّهِ واجباً، فلما كانت عبادته ليلاً أَكْرَمَ بالإسراء [به] فيه ليكون أَجْزُ الْمُصَدِّقِ به أكثر، ليدخل فيمن آمن بالغيب دون من عاينه نهاراً، وَقَدَّمَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وتعالى اللَّيْلَ في كتابه على ذِكْرِ النَّهَارِ، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات».

وصَحَّحَ أَنَّهُ ﷺ قال: «يُنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وتعالى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يُسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، الحديث^(١).

وهذه الخَصِيصَةُ لم تُجْعَلْ للنهار، ثَبَّهَ بِهَا ﷺ لِمَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ سَعَةِ الرَّحْمَةِ وَمُضَاعَفَةِ الْأَجْرِ وَتَعْجِيلِ الْإِجَابَةِ، وَإِبْطَالِ كَلَامِ الْفَلَّاسِفَةِ أَنَّ الظُّلُمَةَ مِنْ شَأْنِهَا الْإِهَانَةُ وَالشُّرُّ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْرَمُ أَقْوَاماً فِي اللَّيْلِ بِأَنْوَاعِ الْكِرَامَاتِ كَقَوْلِهِ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] الآية. وفي لفظ بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ

(١) أخرجه البخاري ٦٦/٢ (دار الفكر) ومسلم ٥٢١/١ (٧٥٨-١٦٨) وأبو داود (١٣١٥-٤٧٣٣) وابن ماجه (١٣٦٦) والبيهقي في السنن ٢/٣

الليل ﴿هود: ٨١﴾. وفي موسى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] ونجاه ليلاً، وأمره بإخراج أهله ليلاً.

بعض أهل الإشارات: «لما محا الله آية الليل، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] انكسر الليل، فَمَجِرَ بَانَ أُسْرِيَ فيه بمحمد ﷺ». انتهى.

أبو أمامة بن الثَّقَاف رحمه الله: «ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر في حق النبي ﷺ، وليلة القدر أفضل في حق الأمة، لأنها لهم خَيْرٌ من عَمَلٍ أكثر من ثمانين سنة ممن كان قبلهم. وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف، ولذلك لم يُعَيَّنْها النبي ﷺ».

ويؤخذ من قول الإمام البلقيني رحمه الله في قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ :

أُولَٰكَ زُؤَيْتُهُ فِي لَيْلَةٍ فَضُلْتُ لَيْلِي الْقَدْرِ فِيهَا رُوبٌ أَرْضَاكَ

أن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر.

قال في الاصطفاء: «ولعل الحكمة في ذلك اشتغالها على رؤيته تعالى التي هي أفضل كل شيء، ولذا لم يجعلها ثواباً عن عمل من الأعمال مطلقاً، بل مَنْ بها على عباده المؤمنين يوم القيامة تفضلاً منه تعالى.

تنبيه: اختُلف هل الليل أفضل من النهار؟ فَرَجَّحَ كُلاً مُرَجِّحُونَ. وقد أَلَفَ الإمام أبو الحسين بن فارس^(١) اللغوي كتاباً في التفضيل بينهما فذكر وجوهاً في تفضيل هذا ووجوهاً في تفضيل هذا.

الثامن: في الكلام على قوله تعالى (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ):.

«مِنْ» ههنا لا بتداء الغاية.

الزركشي رحمه الله في كتابه: «إعلام الساجد بأحكام المساجد»: «المَسْجِدُ لُغَةً مَفْعُولٌ بالكسر اسم لمكان السجود وبالفَتْح اسم للمصدر».

(١) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب. قرأ عليه البديع الهمداني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان. أصله من قزوين، وأقام مدة في همدان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها سنة ٣٩٥هـ، وإليها نسبته. من تصانيفه «مقاييس اللغة - ط١» «المجمل»، و«الصاحبي» في علم العربية، ألفه لخزانة الصاحب بن عباد، و«جامع التأويل» في تفسير القرآن، أربعة مجلدات، و«النيروز»، و«الإتياع والمزاوجة» و«الحماسة المحدث» و«الفصيح» و«تمام الفصيح» و«متخير الألفاظ» و«ذم الخطأ في الشعر» و«اللامات» و«أوجز السير لخير البشر» والأعلام ١٩٣/١.

في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى...﴾

قال أبو زكريا الفراء^(١): «كل ما كان على فَعَل يَفْعُل كَدَخَلَ يَدْخُل، فَاَلْمَفْعِل منه بالفتح إسماً كان أو مصدرًا، فلا يقع فيه الفرق مثل دَخَلَ مَدْخَلًا. ومن الأسماء ما ألزموها كَشَر العين منها: الْمَسْجِدَ وَالْمَطْلِعَ وَالْمَغْرِبَ وَالْمَشْرِقَ وغيرها، فجعلوا الكَشَر علامةً للاسم، وربما فتحه بعض العرب. وقد رُوِيَ الْمَسْجِدَ الْمَسْجِدَ وَالْمَطْلِعَ الْمَطْلِعَ».

قال: «والفتح في كله جائز وإن لم نسمعه».

قال في الصحاح: «وَالْمَسْجِدُ بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود».

وقال أبو خفص الصُّقْلَى - بفتحتين - في كتاب تثقيف اللسان «ويقال مسجد بفتح الميم، حكاه غير واحد، فتحصلنا فيه على ثلاث لغات».

والمسجد بكسر الميم الحُجْرَة بضم الخاء المعجمة وهي الحَصِير الصغير، قاله العسكري.

وأما عوزاً فكل موضع من الأرض لقوله ﷺ: «سُجِّلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا». قلت وسيأتي الكلام على هذا الحديث في الخصائص.

ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقُرْب العبد من رَّبِّه اشتُقَّ اسم المكان منه، فقليل مسجد، ولم يقولوا مَوْكِع. ثم إن العُزف تَخْصُص المسجد بالمكان المُهَيَّأ للصَّلوات الخمس حتى يخرج المُصَلِّي المُجْتَمِع فيه للأعياد ونحوها، فلا يُعْطَى حُكْمُه، وكذلك الرُّبُط والمدارس فإنها هُيِّئَتْ لغير ذلك.

التاسع: في الكلام على قوله: الحرام.

أبو شامة: أصل الحرام المنع، ومنه البيت الحرام، وفلان حرام أي محرم وهو ضد الحلال، وذلك لما تُنْع منه المُحْرَم مما يجوز لغيره، ولما تُنْع في الحرم مما يجوز في غيره من البلاد.

الماوردي رحمه الله في كتاب الجزية من حاويه: «كُلُّ مَوْضِع ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَالْحَرَامُ بِهِ الْحَرَمُ، إِلَّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فَإِنَّهُ أَرَادَ بِهِ الْكَعْبَةَ».

الحافظ رحمه الله تعالى: «لفظ المسجد الحرام في الأصل حقيقة الكعبة فقط، وهو

(١) يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد (أو بني منقر) أبو زكرياء، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. من كتبه «المقصور والمسدود»، و «المذكر والمؤنث»، وكتاب «اللغات». واشتهر بالفراء. ولما مات وُجِدَ «كتاب سيبويه» تحت رأسه فقيل: إنه كان يشيع خطاه وتَقْتَدُّ مخالفته. توفي سنة ٢٠٧ هـ انظر الأعلام ١٤٥/٨، ١٤٦، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٨٨، وغاية النهاية ٣٧١/٢.

المَغْنِي بِقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ بَنَاءً مَبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وبقوله ﷺ لما سأله أبو ذَرٍّ عن أول مسجد وُضِعَ في الأرض فقال: «المسجد الحرام». واستعمله بعد ذلك في المسجد المحيط بالكعبة في قوله: «صلاة في المسجد الحرام بكذا وكذا صلاة»، على وجه التغليب المجازي. وفي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] على قول من يقول المراد به مكة، لأنه كان في بيت أم هانئ. وفي دور مكة والحرم حولها في قوله: «ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام». كل ذلك من باب التغليب المُسَوِّغ للمجاز المُتَوَسِّع فيه ولا لِيَرْمِ الاشتراك في موضع لفظ المسجد الحرام، والمجاز أولى منه، وكيف يقال بالاشتراك؟ والفهم ما تبادر عند الإطلاق إلى الكعبة، أو إليها مع المسجد حولها، ولا يتبادر إلى مكة كلها إلا بقرينة». انتهى مُلَخَّصاً.

العاشر: في الكلام على الأقصى.

البرهان النسفي رحمه الله: «اتفقوا على أن المراد به مسجد بيت المقدس، وشيء بالأقصى لبعده المسافة بينه وبين المسجد الحرام».

الزمخشري رحمه الله: «سُمِّي الأقصى لأنه لم يكن وراءه مسجد».

الكفيل: فَبَيَّنَتْ له هذا الثُّغْت وإن كان وراءه بعد^(١) مساجد هي أقصى منه، لأن العَلَمِيَّة إذا أُثْبِتَتْ لسبب لم يَضُرَّ زَوَالُ السبب».

ابن دحية رحمه الله: «وهو مَعْدِنُ الأنبياء من لدن الخليل ﷺ، ولذا جُمِعُوا له هناك كلهم، وأنهم في محلّتهم ودارهم، ليدل ذلك على أنه الرئيس المُقَدَّم، والإمام الأعظم ﷺ». أبو شامة: «هو بيت المقدس الذي عَمَرَهُ نَبِيُّ الله سليمان ﷺ بأمر الله عزَّ وجلَّ، وما زال مُكْرَماً مُخْتَرِماً، وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تُشَدُّ الرِّجَالُ شرعاً إلا إليها، أي لا تقصد بالزيارة والتعظيم من جهة أمر الشارع إلا هذه الثلاثة. وكان أبعد مسجد عن أهل مكة أو من النبي ﷺ، والأقصى أفعل من القَصِيّ والقاصي هو البعيد».

ابن أبي جَمْرَةَ - بفتح الجيم وبالراء - رحمه الله: «والحكمة في إسرائه ﷺ أولاً إلى بيت المقدس، لإظهار الحق على من عاند، لأنه لو غُيِّرَ به من مكة إلى السماء، لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح. فلما ذكر أنه أسرى به إلى بيت المقدس سألوه عن أشياء من بيت المقدس كانوا رأوها وعَلِمُوا أنه لم يكن رآها قبل ذلك. فلما أخبرهم بها

(١) في أ: كانت بعد وراءه

في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى...﴾

حصل التحقق بصدقه فيما ذكر من الإسراء به إلى بيت المقدس في ليلة. وإذا صَحَّ خَبَرُهُ فِي ذَلِكَ لَزِمَ تصديقه في بقية ما ذُكِرَ. انتهى.

وقيل: ليحصل له العروج مستوياً من غير تعويج لِمَا رُوِيَ عَنْ كَعْبٍ أَنَّ بَابَ السَّمَاءِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ مَصْعَدُ الْمَلَائِكَةِ يُقَابِلُ بَابَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، قَالَ: وَهُوَ أَقْرَبُ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ بِثَمَانِيَةِ عَشَرَ مِيلًا.

الحافظ: «وفيه نظر. وقيل ليجمع بين القِبْلَتَيْنِ، لِأَنَّ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ كَانَ هَجْرَةً غَالِبَ الْأَنْبِيَاءِ فَحَصَلَ لَهُ الرَّحِيلُ إِلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ لِيَجْمَعَ بَيْنَ أَسْبَابِ الْفَضَائِلِ. وقيل لِأَنَّهُ مَحَلُّ الْخَشَرِ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ تَطَّأَهُ قَدَمُهُ لِيَسْهَلَ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَوْفُهُمْ بِبَرَكَةِ أَثَرِ قَدَمِهِ. وقيل أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُرِيَهُ الْقِبْلَةَ الَّتِي صَلَّى إِلَيْهَا مَدَّةً، كَمَا عُرِفَتْ الْكَعْبَةُ الَّتِي صَلَّى إِلَيْهَا. وقيل لِأَنَّهُ مَجْمَعُ أَرْوَاحِ الْأَنْبِيَاءِ فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُشَرِّفَهُمْ بِزِيَارَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقيل لِتَفَاوُلِ حَصُولِ التَّقْدِيرِ لَهُ جِسًّا وَمَعْنَى.

ابن دحية: «ويحتمل أن يكون الحق سبحانه وتعالى أَرَادَ الْأَنْبِيَاءَ تَرْبَةً فَاضِلَةً مِنْ مَشْهَدِهِ وَوُطْئِ قَدَمَيْهِ، فَتَمَّ تَقْدِيسُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ بِصَلَاةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ فِيهِ. فلما تمم تقديسه به، أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ لِأَنَّهُ مَوْلَدُهُ وَمَسْقُطُ رَأْسِهِ وَمَوْضِعُ نُبُوتِهِ، وَمَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، لِأَنَّهُ مَحَلُّ هَجْرَتِهِ وَأَرْضُ تَرْبَتِهِ، وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، لِأَنَّهُ مَوْضِعُ مَعْرَاجِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

رموز الكنوز: «فإن قيل الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة، فَهَلَّا أَخْبَرَهُمُ تَعَالَى بِعُرُوجِهِ إِلَى السَّمَاءِ؟ قلت: استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء أولاً، فلما ظهرت أمارات صدقه، وَصَّحَّتْ لَهُمْ بِرَاهِينُ رِسَالَتِهِ، وَاسْتَأْنَسُوا بِتِلْكَ الْآيَةِ الْخَارِقَةِ، أَخْبَرَهُمْ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا وَهُوَ الْمَعْرَاجُ، فَحَدَّثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سُورَةَ النَّجْمِ».

الإمام الرازي والبرهان: «اعلم أن كلمة «إلى» لانتهاء الغاية فمدلول قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى ذَلِكَ الْمَسْجِدِ، وَلَا دَلَالَةَ فِي اللَّفْظِ عَلَى أَنَّهُ دَخَلَ».

قلت: قال المحققون: إذا كانت «إلى» لانتهاء الغاية، فإِنْ دَلَّتْ قَرِينَةٌ عَلَى دُخُولِ مَا بَعْدَهَا عَمَلٌ بِهَا، نَحْوُ قُرْآنِ الْقُرْآنِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ. فَالْقَرِينَةُ هُنَا ذِكْرُ الْآخِرِ وَجَعْلُهُ غَايَةً. وقيل القَرِينَةُ هِيَ كَوْنُ الْكَلَامِ مَسْبُوقًا لِحِفْظِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ، وَذَلِكَ مُتَّافٍ لَخُرُوجِ الْغَايَةِ، فَتَعَيَّنَ دُخُولُهَا، أَوْ دَلَّتْ الْقَرِينَةُ عَلَى خُرُوجِ مَا بَعْدَهَا عَمَلٌ بِهَا نَحْوُ: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. والقَرِينَةُ فِي آيَةِ الْإِسْرَاءِ الْعِلْمُ لَا يُشْرَى بِهِ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَلَا يَدْخُلُهُ وَصُرِّحَتْ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ بِمَا اقْتَضَتْهُ الْقَرِينَةُ مِنْ دُخُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ.

الحادي عشر: معنى قوله: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾:

الراغب رحمه الله: «الْبَرَكَةُ ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمُبَارَك ما فيه ذلك الخير».

المصباح: «البركة الزيادة والثَّناء، وبَارَكَ الله تعالى فيه فهو مُبَارَك، والأصل مُبَارَك فيه».
 النموذج: فإن قيل: كيف قال: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، ولم يُقَلِّ بَارَكْنَا عليه أو فيه، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المسجد وحوله، خصوصاً المسجد الأقصى؟ قلنا أراد البركة الدنيوية كالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وذلك حوله لا فيه. وقيل أراد البركة الدينية فإنه مقر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومُتَعَبِّدْهُمْ وَمَهْبِطُ الْوَحْيِ والملائكة. وإنما قال: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، لتكون بركته أَعَمَّ وأشمل، فإنه أراد بما حوله ما أحاط به من أرض الشام وما قاربه منها، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس، ولأنه إذا كان هو الأصل، وقد بَارَكَ في لواحقه وتوابعه من البقاع كان هو مُبَارَكاً فيه بالطريق الأولى بخلاف العكس. وقيل أراد بالبركة: الدينية والدنيوية وَوَجْهَهُمَا ما مرَّ.

وقيل المراد: بَارَكْنَا ما حوله من بَرَكَةٍ نشأت منه، فَعَمَّتْ جميع الأرض، لأن مياه الأرض كلها أصل انفجارها من تحت صخرة بيت المقدس». انتهى.

الكفيل: «فإن قيل إذا كانت البركة حول المسجد الأقصى فماذا يتميز عليه المسجد الحرام؟ قلت: البركة حول المسجد الأقصى باعتبار الدنيا ورفاهيتها وخصبها، والبركة حول المسجد الحرام باعتبار الدين والفضل وتضعيف الحسنات فيه للطائفين والعاكفين والمواطنين والوافدين، لأن الأجر يكون على قدر التَّصَبُّب، وهو واد غير ذي زَرْع، نَزَّهه الله عن خصب الدنيا وسعتها، لئلا يكون القصد إليه ممزوجاً بقصد الدنيا، فهذه البركة الدينية أفضل من تلك البركة الدنيوية». انتهى.

«وحَوْلَهُ» منصوب على الظرف أي أوقعنا البركة حَوْلَهُ، وقيل تقديره: بَارَكْنَا ما حوله.
 أبو عبيد الهَرَوِي رحمه الله تعالى: «رَأَيْتُ النَّاسَ حَوْلَهُ وَحَوَالِيهِ وَحَوَالِهِ وَيُجْمَعُ أَحْوَالاً».
 الراغب: حَوْلَ الشيء جَانِبُهُ الذي يمكن أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَيْهِ والضمير راجع إلى المسجد الأقصى».

الثاني عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

السَّيِّمِينَ وابن عادل^(١): «قرأ العامة بنون العظمة، جَزْئياً على «بَارَكْنَا»، وفيه التفات من

(١) عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، أبو حفص، سراج الدين: صاحب التفسير الكبير، الباب في علوم الكتاب، توفي سنة ٨٨٠. انظر الأعلام ٥/٥٨٠.

في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى...﴾

الغيبية في قوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ إلى التكلم في «باركنا» و«لثريته»، وقرأ الحسن «لثريته» بالمشناة التحتية أي الله تعالى.

وعلى هذه القراءة في الآية أربع التفاتات، لأنه التفت أولاً من الغيبية في «أَسْرَى» إلى التكلم في «باركنا». ثم التفت ثانياً من التكلم في «باركنا» إلى الغيبية. «لثريته». ثم التفت ثالثاً إلى التكلم في «آياتنا». ثم التفت رابعاً إلى الغيبية في ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. الزمخشري: «وطريقة الالتفات من طرق البلاغة.

الطبيبي: «وذكر أن قوله: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» يدل على مسرّاه من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فهو بالغيب أنسب. وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ دال على إنزال البركات وتعظيم شأن المنزل، فهو بالحكاية على التفضيم أخرى. وقوله: «لثريته» بالياء إعادة إلى مقام السر والغيبوبة من هذا العالم، فالغيبوبة بهما أليق. وقوله: «من آياتنا» عوداً إلى التعظيم على ما سبق وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إشارة إلى مقام اختصاصه بالمنح والرفق وغيبته شهوده في عين «بي يسمع وبني يُبصر» فالعود إلى الغيبية أولى» انتهى.

ومعنى الرؤية هو ما أرى تلك الليلة من العجائب والآيات الدالة على قُدرة الله تعالى ومنها ما ذكره في القصة.

أبو شامة: «من» هنا للتبعيض، وإنما أُتي بها هنا تعظيماً لآيات الله، فإن هذا الذي رآه محمد ﷺ وإن كان جليلاً عظيماً فهو بعض بالنسبة إلى جملة آيات الله وعجائب قدرته وجليل حكمته. والآية العلامة الظاهرة على ما يلازمها، فمن عِلْم ملازمة العِلْم للطريق المنهاج، ثم وجد العِلْم على أنه وجد الطريق، وكذا إذا وجد شيئاً مصنوعاً، فإنه يعلم أنه لا بُد له من صانع، فأية الشيء علامته الظاهرة، ثم غلب ذلك على صدق الرسل، وعلى الإلهية وكرامات الأولياء وما أشبه ذلك».

البرهان النسفي: «فإن قيل الآية تدل على أنه تبارك وتعالى ما أراه إلا بعض الآيات وقال في حق إبراهيم عليه السلام ﴿وَكَذَلِكَ لُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، يدل على أنه تعالى أراه جميع الآيات، فيلزم أن يكون معراج إبراهيم أفضل من معراج محمد ﷺ، فنقول: ملكوت السموات والارض بعض آيات الله أيضاً بعضاً مخصوصاً، والبعض المطلق أفضل من البعض المخصوص، إذ المطلق يُصَرَّف إلى الكامل. والجواب المشهور عنه هو أن بعض آيات الله أفضل من ملكوت السموات والأرض. انتهى.

الثالث عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

السمين: «الصحيح أن الضمير في «إِنَّهُ» لله تبارك وتعالى».

الطبيبي: «ولا يبعد أن يرجع الضمير إلى العبد، كما نقله أبو البقاء عن بعضهم، قال: «إنه

السميع»، لكلامنا، «البصير» لذاتنا. وأما تَوْشُّط ضمير الفعل فلإشعار باختصاصه بهذه الكرامة وَخَذُهُ، ولعل السِّرَّ في مجيء الضمير مُخْتِلاً لِلْأَمْرَيْنِ الإشارة إلى المطلوب وأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا رَأَى رَبَّ الْعِزَّةِ وسمع كلامه به».

الماوردي: «في الحكمة بالإتيان بالسميع والبصير هنا وجهان: أحدهما: أنه تعالى وصف نفسه بهما، وإن كانا من صفاته اللازمة لذاته في الأحوال كلها، لأنه يَحْفَظُ لرسوله عند الإسراء به في ظلمة الليل، فلم يَضُرَّهُ أَلَّا يُبْصِرَ فيها، وسمع كلامه دُعَاءً فَأَجابه إلى ما سأل. الثاني: أن قومه لما كَذَّبُوهُ حين أخبرهم بإسرائه، فقال: السميع، يعني لما يقولونه من تصديق أو تكذيب. البصير، فيما يفعله من الإسراء والمعراج.

الزمخشري: «إنه هو السميع» لأقوال محمد، «البصير» بأفعاله، العالم بتهذيبها وخلوصها فيكرمه ويُقَرِّبه على حسب ذلك.

ولم يَتَعَقَّبْ ذلك الطيبي ولا الشُّكُونِي - بالفتح والضم - في التمييز مع مبالغته في التنكيب^(١) والاعتراض عليه. وقال صاحب الكفيل: «ذَكَرَ صِفَتَيِ السمع والبصر تنبيهاً على أنه عَلِمَ حيث يجعل رسالاته وكراماته، والبصير بآياته، وكما أنه أعلم فهو أسمع وأبصر. والمراد أنه السميع لمن صَدَّقَ بالإسراء البصير بمن كَذَّبَ به»، ثم ذكر كلام الزمخشري السابق، ثم قال: «وفي كلامه هذا إيحاء إلى القول بإيجاب الجزاء وتلويح إلى اعتقاده أن فضائل النبوة مكتسبة، فاحذر هذه العقيدة. انتهى.

الغزالي رحمه الله: المقصد الأسنى: «السميع هو الذي لا يعزُب عن إدراكه مسموع وإن خَفِيَ، فيسمع السِّرَّ والنجوى، بل ما هو أدق وأخفى، ويدرك دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، يسمع بغير أَصْمَحَةٍ وآذان، وَسَمْعُهُ مُنَزَّهٌ عن أن يتطرق إليه الخدثان. ومهما نُزِّهَتِ السمع عن تغير المسموعات وقُدِّسَتْه عن أن يسمع بأذن وآلة عَلِمَتْ أن السمع في حقه عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات. ومَنْ لم يدقق نظره فيه وقع بالضرورة في بحر التشبيه فخذُ جَذْرَكَ ودَقِّقْ فيه نَظْرَكَ».

وقال أيضاً: «البصير هو الذي يُشَاهِدُ وَيَرَى ولا يعزُب عنه ما تحت الثرى، وإبصاره مُنَزَّهٌ عن أن يكون بخَدَقَةٍ وَأَجْفَانٍ، مُقَدَّسٌ عن أن يرجع عن انطباع الصور والألوان في ذاته تعالى، كما تنطبع في خَدَقَةِ الإنسان، وإن ذلك من التغير والتأثير المقتضى للخدثان. وإذا نُزِّهَ عن ذلك كان البَصَرُ في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المصنوعات، والله تعالى أعلم بالصواب».

(١) التنكيب: النتيجة. انظر المعجم الوسيط ٩٥٨/٢.

الباب الثاني

في تفسير أول سورة النجم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ. فَأَوْخَىٰ إِلَىٰ عِيبِهِ مَا أَوْخَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ. أَفَتَسْمَارُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ. إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ. لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١: ١٨].

الكلام على هذه الآيات من وجوه: الأول: في سبب نزولها.

النهر: «سببه قول المشركين إن محمداً يخلق القرآن».

الثاني: في مناسبة هذه السورة لما قبلها:

قال الإمام الرازي والبرهان النسفي رحمهما الله، قد قيل: إن السور التي تقدمت وهي التي أقسم الله تعالى فيها بالأسماء دون الحروف: الصافات والذاريات والطور وهذه السورة بعدها، فالقسم في الأولى لإثبات الوجدانية، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]. وفي الثانية لوقوع الحشر والجزاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ. وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦]. وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨]. وفي هذه السورة لبيان النبوة كما قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] إلخ. لتكمل الأصول الثلاثة: الوجدانية والحشر والنبوة.

والوجه الآخر في المناسبة لما قبلها هو أن الكفرة بالغوا في المكابرة والمعاندة في حق النبي ﷺ، وطعنوا فيما نطق به من الكلام، كما مر بيانه في تلك السورة، فقال في هذه ما يدل على صدقه في دعواه، وصدق ما نطق به وأجراه مؤكداً بالقسم.

وأما مناسبة أول هذه السورة إلى آخر ما قبلها فمن وجوه: أحدها: أن اختتام تلك السورة بالنجم وافتتاح هذه السورة بالنجم مع القسم. ثانيها: أنه تعالى أمر رسول الله ﷺ بالصبر في آخر تلك السورة، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] والصبر أمرٌ صعب، فذكر في أول هذه السورة ما يدل على علو منزلته وعظم شأنه ليسهل عليه ذلك الأمر.

ثالثها: لما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] بين له أنه جزاءه بخير، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢] وزاد الشيخ رحمه الله

تعالى، في مناسبتة وجهاً آخر، وهو أن [سورة] الطور فيها ذكر ذُرِّيَّة المؤمنين وأنهم تَبَعَ لآبائهم، وهذه فيها ذكر ذُرِّيَّة اليهود في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

فقد رَوَى ابنُ المُنْذِرِ وابنُ حِبَّانَ عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال: «كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صَبِيٌّ صغير هو صِدِّيق، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «كَذَبْتَ يهود، ما من نَسْمَةٍ يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شَقِيٌّ أو سعيد». فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى عند ذلك: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية. ولما قال الله تعالى هناك في المؤمنين: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أي ما نقصنا الآباء مما أعطينا البنين مع نفعهم بعمل آبائهم، قال هناك في الكفار أو في الكبار: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، خلاف ما ذكر في المؤمنين الصغار». انتهى.

أبو حِبَّانَ رحمه الله: «هذه السورة مكية، ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهر، لأنه تعالى قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلُهُ﴾ [الطور: ٣٣] أي اخلق القرآن، ونسبوه إلى الشَّعْر، وقالوا هو كاهن، هو مجنون، فأقسم تعالى أنه ﷺ ما ضَلَّ، وأن ما أتى به هو الوَحْي من الله. وهي أول سورة أعلن رسول الله ﷺ بقراءتها في الحرم، والمشركون يسمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال يكفي هذا». قلت: ذكر أبي لهب هنا غريب.

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: أول سورة نزلت فيها سجدة، النجم، فسجد رسول الله ﷺ، وسجد الناس كلهم إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيتُه قُتِلَ كافراً وهو أمية بن خلف. وروى ابن مردويه وابن خلف عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ سجد في النجم وسجد من حضر من الجن والإنس والشجر، زاد ابن أبي شيبَةَ إلا رجلين من قريش أرادا بذلك الشهرة، وسمى أحد الرجلين المُبْهَمَيْنِ في الرواية السابقة، والثاني الوليد بن المغيرة كما عند ابن سعد. وروى البخاري عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.

الثالث: في الكلام على القَسَمِ الواقع هنا.

الشيخ رحمه الله تعالى في الإِتِّقان: [وقد قيل ما معنى القسم منه تعالى؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن] فالمؤمن يُصَدِّقُ بمجرد الإخبار من غير قَسَم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيد، وأجيب بأن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عاداتها القَسَمُ إذا أرادت أن تؤكد أمراً.

وأجاب الأستاذ - بضم الهمزة وبالذال المعجمة - أبو القاسم القُشَيْرِي رحمه الله تعالى

بأن الله ذكر القسّم لكمال الحجة وتأكيدها وذلك أن الحَكَم يفصل باثنين إما بالشهادة وإما بالقسّم، فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حُجّة فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] وقال: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، صاح وقال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟ ولا يكون القسّم إلا باسمٍ مُعَظَّم، وقد أقسم الله تعالى بنفسه، في القرآن في سبعة مواضع، بقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: ٥٣]، ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَخْشُرَنَّهِنَّ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، والباقي كله قَسَمٌ بمخلوقاته. فإن قيل: كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغير الله تعالى؟ قلنا أُجِيبَ عنه بأوجه: الأول أنه على حذف مضاف أي ورب النُجْم. وكذا الباقي. الثاني: أن العرب كانت تُعَظِّم هذه الأشياء وتُقَسِّم بها فنزل القرآن على ما يعرفونه. الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يُعَظِّمهُ الْمُقْسِمُ ويُجِلُّهُ وهو فوقه. والله سبحانه وتعالى ليس فوقه شيء، فأقسم تارةً بنفسه وتارةً بموضوعاته لأنها تدل على باديءٍ وصانع.

ابن أبي الإصبع^(١) رحمه الله تعالى في كتابه أسرار الفوائد: «القسّم بالمصنوعات يستلزم القسّم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

وروى ابن حاتم عن الحسن قال: «إن الله تعالى يُقَسِّمُ بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يُقَسِّمَ إلا بالله تعالى.. والقسّم إما ظاهر وإما مُضْمَر وهو قسمان: قِسْمٌ ذَلَّتْ عَلَيْهِ اللام نحو ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقِسْمٌ ذَلَّ عَلَيْهِ المعنى نحو: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] تقديره: والله... وأكثر الأقسام في القرآن المحذوفة الفعل لا تكون إلا بالوار، فإذا ذُكرت الباء أُتِيَ بالفعل كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ﴾ [النساء: ٦٢] ولا تجد الباء مع حذف الفعل، ومن ثم أخطأ من جعل قسماً

(١) حُرْفَانِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَحْرُثِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، مِنْ عَدَوَانَ، يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى مُضَرَ: شَاعِرٌ حَكِيمٌ شَجَاعٌ جَاهِلِيٌّ. لَقِبَ بِذِي الْإِصْبَعِ لِأَنَّهُ نَهَشَتْ إِصْبَعُ رِجْلِهِ فَقَطَعَهَا، وَيُقَالُ: كَانَتْ لَهُ إِصْبَعٌ زَائِدَةٌ. وَعَاشَ طَوِيلًا حَتَّى عَدَّ فِي الْمَعْمَرِينَ. لَهُ حُرُوبٌ وَوَقَائِعٌ وَأَخْبَارٌ. وَشِعْرُهُ مَلِيٌّ بِالْحِكْمَةِ وَالْعِظَةِ وَالْفَخْرِ، قَلِيلُ الْغَزْلِ وَالْمَدِيحِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْقَصِيدَةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا:

«أَسِيدُ إِنْ مَالًا مَلَكَتْ فَسِرْ بِهِ سِيرًا جَمِيلًا،

انظر الأعلام ١٧٣/٢.

بالله: ﴿إِنَّ الشُّرَكَاءَ لَظُلُمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].
﴿قَالَ شُبْحَانِكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾
[المائدة: ١١٦].

ابن القيم: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى يُقسِمُ بأُمُورٍ على أُمُورٍ وإنما يُقسِمُ بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزِمة لذاته وصفاته. وأقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته، فالقسَمُ إما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى: ﴿فَوَزَّبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] وإما على جملة طلبية كقوله تعالى: ﴿فَوَزَّبَكَ لَسْأَلَتِهِمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، مع أن هذا القسم قد يُراد به تحقيق المُقسَم عليه، فيكون من باب الخبر، وقد يُراد به تحقيق القسم فالمقسَم عليه يُراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بُدَّ أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أُقسم على ثبوتها فأما الأمور المشهورة الظاهرة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض، فهذه يُقسم بها ولا يُقسم عليها. وأما ما أقسم عليه الربُّ فهو من آياته، فيجوز أن يكون مُقسِماً به ولا ينعكس».

الإمام الرازي رحمه الله تعالى: «أقسم تعالى في بعض السور بمجموع كقوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتُ﴾، وفي بعضها بإفراد كقوله ﴿وَالطُّورُ﴾، ولم يقل والأطوار والبحار، والكلمة فيه أن أكثر الجموع أقسم عليها بالمتحركات. والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حيث يقع القسم عليها، بل هي مُتَبَدِّلَةٌ بأفرادها، مستمرة بأنواعها، والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبدل والتغير، فقال: ﴿وَالذَّارِيَاتُ﴾ إشارة إلى النوع المستمر لا إلى الفرد غير المستقر. وأما الجبل فهو ثابت غير متغير عادةً، فالواحد من الجبال قائم زماناً ودهراً فأقسم في ذلك بالواحد. وكذلك قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾، ولو قال: والريح، لَمَّا عَلِمَ المُقسِم به وفي الطور غلِمْ. والشُّور التي افتتحها القسم بالأسماء دون الحروف، كان القسم فيها لإثبات أحد الأصول الثلاثة وهي: الوجدانية والرسالة والخشَر وهي التي يتم بها الإيمان.

ثم إنه تعالى لم يُقسِم لإثبات الوجدانية إلا في سورة واحدة من تلك السُّور وهي: «الصَّافَّات»، حيث قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]، وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون: أَجْعَلُ الآلهةَ إلهاً واحداً، على سبيل الإنكار فقد كانوا يبالغون في الشرك، لكنهم في تضاعيف أقوالهم وتصاريح أحوالهم كانوا يُصِرُّون بالتوحيد، وكانوا يقولون: ﴿وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

فلم يبالغوا في الحقيقة والإنكار المطلوب الأوَّل، فاكتفى بالبرهان ولم يُكثِر من

الأيمن في سورتين منها أقسم لإثبات صدق رسول الله ﷺ، وكونه رسولا في إحداهما بأمر، وهو قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿[النجم: ١، ٢]. وفي الثانية بأمرين وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿[الضحى: ١، ٢، ٣] وذلك لَأَنَّ الْقَسْمَ عَلَىٰ إثبات رسالته قد كَثُرَ بالحروف والقرآن العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿[يس: ١، ٢، ٣]. وقد ذكرنا الحكم فيه أَنَّ من معجزات النبي ﷺ القرآن، فأقسم به ليكون في القسم إشارة واقعة إلى البرهان. وفي باقي السور كان القسم عليه الحشر والجزاء، وما يتعلق به يكون إنكارهم في ذلك خارجا عن الحد، وعدم استيفاء ذلك في سور القسم بالحروف. وأقسم تعالى بمجموع السلامة المؤنثة في خمس سور، ولم يُقسَم بمجموع السلامة المُدَكَّرة في سورة أصلاً. فقال ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ [الصافات: ١]، ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ [الذاريات: ١]، ولم يقل ﴿والصالحين من عبادي﴾، ولا المقربين، إلى غير ذلك، مع أَنَّ الذكور أشرف وذلك لَأَنَّ المجموع بالواو والنون في الأمر الغالب، لمن يعقل..

وقد ذكرنا أَنَّ الْقَسْمَ بهذه الأشياء ليس لبيان التوحيد إلا في صورة ظَهَرَ الأمر فيه، وحصل الاعتراف منهم، ولا للرسالة لحصول ذلك في سورة القسم بالحروف والقرآن، بقي أَنَّ يكون المقصود إثبات الحشر والجزاء، لكن إثبات الحشر لثواب الصالح وعقاب الطالح، فائدة ذلك راجعة إلى من يعقل فيلزم أَنَّ يكون القسم بغيرهم. والشور التي أَقْسَمَ فيها لإثبات الوجدانية أقسم في أول الأمر بالسكانات حيث قال: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ وفي السور الأربع الباقية أقسم بالمتحركات فقال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾، ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ [المرسلات: ١]، ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ [النازعات: ١]، ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾، وذلك لَأَنَّ الحشر فيه جمع وتفريق، وذلك بالحركة أَلَيَق. وفي السور الأربع أقسم بالرياح على ما بَيَّنَّ، وهي التي تجمع وتَفَرِّق، فالتقدير على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الدارية والمرسلة قَادِرٌ على تأليف الأجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التي يختارها بمشيئته تبارك وتعالى.

وقال الإمام أيضاً في موضع آخر: «اعلم أَنَّهُ تعالى لم يُقسَم على الوجدانية ولا على النبوة كثيراً، لَأَنَّهُ أقسم على الوجدانية في سورة الصافات، وأما النبوة فأقسم عليها بأمر واحد في هذه السورة، وبأمرين في سورة «الضحى»، وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به. فَإِنَّ قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] وقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، إلى غير ذلك، كلها في الحشر وما يتعلق به، وذلك لَأَنَّ دلائل الوجدانية كثيرة، كلها عقلية كما قيل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ^(١)

ودلائل النبوة أيضاً كثيرة، وهي المعجزات المشهورة المتواترة، وأما الحشر فإمكانه يثبت بالعقل، وهذا أظهر، وأما وقوعه فلا يمكن إثباته إلا بالسمع، فأكثر فيه القسم ليقطع به المكلف ويعتقده اعتقاداً جازماً.

الرابع: في الكلام على النجم [النجم: ١]:

صاحب القاموس: «في المطلع النجم الكوكب الطالع والجمع أنجم وأنجم وأنجوم وأنجم، والنجم أيضاً الثريا، والنجم من النبات ما نجم على غير ساق، والنجم الوقت المضروب».

اللباب لابن عادل: «سُمِّي الكوكب نجماً لطلوعه، وكل طالع نجماً»، يقال: نجم السِّنُّ والقرنُ والثبْتُ إذا طلع، زاد القرطبي: «ونجم فلان بيلد كذا أي خرج على السلطان».

ابن القيم: «اختلف الناس في المراد بالنجم، فقال الكلبي عن ابن عباس: أقسم بالقرآن إذ أنزل نجوماً على رسول الله ﷺ أربع آيات وثلاث آيات والسورة وكان بين أوله وآخره عشرون سنة، وكذلك روى عطاء عنه، وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد، واختاره الفراء».

والهوي على هذا القول النزول من أعلى إلى أسفل، وعلى هذا سُمِّي القرآن نجماً لفرقه في النزول. والعرب تسمي الفرق تنجماً والمتفرق متنجماً. ونجوم الكتابة أقساطها، وتقول جعلت مالي على فلان نجوماً متنجمة، كل نجم كذا وكذا. وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها، فيقولون: إذا طلع النجم - يريدون الثريا - حل عليك كذا، ثم يجعل كل نجم تفرقاً وإن لم يكن مؤقفاً بطلوع نجم.

قال الإمام الرازي: «ففي هذا القسم استدلال بمعجزات النبي ﷺ على صدقه، وهو كقوله تعالى: ﴿يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١، ٢، ٣] وقال ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة وعطية: يعني الثريا إذا سقطت وغابت، وهويها مغيبها، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد، والعرب إذا أطلقت النجم تعني به الثريا، قال الشاعر:

إِذَا طَلَعَ النُّجْمُ عِشَاءً ابْتَغَى الرَّاعِي كِشَاءً^(٢)

وفي الحديث: «ما طلع نجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا ارتفع»، رواه الإمام

(١) البيت لأبي العتاهية وقوله

فيها عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاهد
ولله في كل بحر مابة وفي كل تسكينة شاهد
انظر الديوان. دار الكتب العلمية ص ٦٢.

(٢) البيت في الكشف ٢٧/٤.

أحمد، وأراد بالنجم الثريا. وهذا القول اختاره ابن جرير والزمخشري. وقال السمين إنه الصحيح، لأن هذا صار علماً بالعلبة، وقال عُمر بن أبي ربيعة:

أَحْسَنُ النُّجْمِ فِي السَّمَاءِ الثُّرَيَّا وَالْثُّرَيَّا فِي الْأَرْضِ زَيْنُ النِّسَاءِ

قال الإمام الرازي: «ومناسبة هذا القول إن الثريا أظهر النجوم عند الرازي لأن له علامة لا تلتبس بغيره في السماء ويظهر لكل أحد. والنبى ﷺ يتميز عن الكل بآيات بيّنة، فأقسم به، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق بالبلد حان إدراك الثمار، وإذا ظهرت بالشتاء أو الخريف تقل الأمراض. والنبى ﷺ إذا ظهر، قلّ الشك والأمراض القلبية وأذركت الثمار الحكيمة».

وقال أبو حنيفة، بالحاء المهملة والزاي، «والشمالي - بضم المثناة وتخفيف الميم وباللام: يغني النجوم إذا انتشرت يوم القيامة. وقيل أراد به الشعري. وقال السدي والثوري:

«أراد به الزهرة». وقال الأخفش: «أراد به الثبت الذي لا ساق له، ومنه قوله تعالى:

﴿وَالنُّجُومُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَان﴾ [الرحمن: ٦] وهو سقوطه.

قال الإمام الرازي: «لأن الثبات به نبت القوى الجسمانية وصلاتها، والقوة العقلية أولى بالإصلاح، وذلك بالرشل، وإصلاح الشبل، ومن هذا يظهر أن المختار هو النجوم التي في السماء لأنها أظهر عند السامع. وقوله تعالى: ﴿إِذَا هُوَ﴾ أدل عليه، ثم بعد ذلك القرآن لما فيه من الظهور، ثم الثريا.

وقال جعفر بن محمد - رضي الله عنهما -، كما نقله القاضي: «أراد به النبي - ﷺ - إذ

نزل ليلة المعراج والهويّ النزول».

صاحب السراج: «ويعجني هذا التفسير لملاءمته من وجوه، فإنه ﷺ نجم هداية، خصوصاً لما هُدي إليه من فُرض الصلاة تلك الليلة، وقد علّمت منزلة الصلاة من الدين، ومنها أنه أضاء في السماء والأرض. ومنها التشبيه بسرعة السير، ومنها أنه كان ليلاً، وهو وقت ظهور النجم، فهو لا يخفى على ذي بصيرة وأما أرباب البصائر فلا يمترون كأبي بكر الصديق - رضي الله عنه -». انتهى.

وقال مجاهد في رواية عنه: «نجوم السماء كلها». وجزم أبو عبيدة وقال: ذهب إلى لفظ

الواحد بمعنى الجمع، قال الشاعر:

فَبَاثَتْ تَعَدُّ النُّجُومِ فِي مُسْتَحْيِرَةٍ^(١)

أي تعدّ النجوم. قال ابن جرير: «وهذا القول له وجه، ولكن لا أعلم أحداً من أهل التأويل قاله». انتهى.

(١) هذا شعر بيت للراعي الميري. انظر الكشف ٢٧/٤.

قلت: قد تقدم نقله عن مجاهد، ونقله الماوردي عن الحسن أيضاً. وقال الإمام الرازي: «ومناسبة ذلك أن النجوم يُهْتَدَى بها فأقسم بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة».

وقال ابن عباس في رواية عكرمة: أراد التي تُرْمَى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع. وهذا قول أبي الحسن الماوردي. وسببه أن الله تعالى لما أراد بَعَثَ محمد ﷺ وسلم رسولا، كثر انقضاض الكواكب قبل مولده، فذُِعِرَ أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن، كان يُخبرهم بالحوادث، فسألوه عنها فقال: انظروا إلى البروج الاثني عشر فإن انْقَضَ منها شيء فهو ذهاب الدنيا، وإن لم ينْقُضْ منها شيء فسيحدث في الدنيا أمرٌ عظيم، فاستشعروا ذلك، فلما بُعِثَ النبي ﷺ كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾، هوى لهذه النبوة التي حدثت.

الإمام الرازي: «إن الرجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء والأنبياء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض».

ابن القيم: «وهذه الراوية عن ابن عباس أظهر الأقوال، ويكون الحق سبحانه وتعالى قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المُشَاهِدَة التي نصبها آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له، على أن ما أتى به رسوله حقٌ وصدق لا سبيل للشياطين ولا طريق لهم إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي وحرساً له، وعلى هذا فالارتباط بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه في غاية الظهور، وفي المُقْسَم به دليلٌ على المُقْسَم عليه، فإن النجوم التي تُرْمَى بها الشياطين آيات من آيات الله تعالى، يحفظ بها دينه وَوَحْيُهُ، وآياته المُتَنَزِّلَة على رُسُلِهِ، بها ظهر دينه وشُرُوعُهُ، وأسماءه وصفاته. وجُعِلَت هذه النجوم المُشَاهِدَة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهادية. وليس بالْبَيِّن تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ولا تسمية نزوله هُويّاً، ولا عهد في القرآن بذلك فيُحْمَل هذا اللفظ عليه وليس بالْبَيِّن أيضاً تخصيص هذا القسم بالثُرَيَّا وحدها إذا غابت، وليس بالْبَيِّن القَسَم بالنجوم عند تنائها يوم القيامة؛ بل هذا مما يُقْسِمُ الرب عليه، ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً لعدم ظهوره للمُخَاطَبِينَ ولا سيما منكرو البعث. فإنه سبحانه وتعالى إنما يستدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، فأظهر الأقوال قول الحسن وابن كثير وهذا القول له اتجاه».

الخامس: في الكلام على «هَوَى»:

السمين: «العامل في «إذا» إما فِعْلُ القَسَم المحذوف وتقديره: أُقْسِمُ بالنجم وقت هُويِّهِ». قال أبو البقاء وغيره: «وهو مُشْكِل، فإن فِعْلَ القَسَم إنشاء، والإنشاء حال. و«إذا» لِمَا يُسْتَقْبَل من الزمان، فكيف يتلاقيان؟».

الطبيبي نقلاً عن المقتبس: «الوجه أن «إذا» قد انسلخ عنها معنى الاستقبال، وصار للوقت المجرد، ونحوه: أتيتك إذا احمرَّ البُشر، أي وقت إحمراره، فقد عُزِّي عن معنى الاستقبال لأنه وقت الغيبة عنه، بقوله: أتيتك».

قال الشيخ عبد القاهر: «إخبار الله تعالى بالمتوقع مقام الإخبار بالواقع، إذ لا تكلف فيه، فيجري المستقبل مجرى المُحَقِّق الماضي».

السمين: «وإما مُقَدَّرٌ على أنه حال من النُّجم، إذ أقسم به حال كونه مُشْتَقِراً في زمان هُوِيَّه. وهو مُشْكِلٌ من وَجْهَيْن: أحدهما: أن النُّجم جُثَّة والزمان لا يكون حالاً عنها، كما لا يكون خبراً، الثاني: «إذا» للمستقبل، فكيف تكون حالاً؟».

وأجيب عن الأول: المراد بالنجم القطعة من القرآن، والقرآن، نزل مُتَجَمّاً في عشرين سنة. وهذا تفسير ابن عباس وغيره. وعن الثاني: بأنها حال مُقَدَّرَةٌ، وأما العامل فهو نفس النجم الذي أريد به القرآن، قاله أبو البقاء. وفيه نظر لأن القرآن لا يعمل في الظرف، إذا أريد به أنه اسم لهذا الكتاب المخصوص. وقد يقال إن النُّجم بمعنى المُنْجَم كأنه قيل: والقرآن المُنْجَم في هذا الوقت».

المصباح: هَوَى يَهْوِي من باب ضَرَب هُوِيّاً بضمّ الهاء وفتحها، وزاد ابن القوطية هواءً بالمدّ، سقط من أعلى إلى أسفل قاله أبو زيد وغيره». قال الشاعر:

فَسَجَّ بِهَا الْأَمَاعِزَ وَهِيَ تَهْوِي هُوِيَّ الدُّلُو أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ^(١)

يُؤْوَى بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ.

الراغب: «الهوى سقوط من علو». ثم قال: «والهَوِيّ ذهاب في إنحدار والهَوِيّ ذهاب في ارتفاع». وقيل: «هوى في اللغة مَقْصِدُهُ السفل أو مصيره إليه وإن لم يقصده». وقال أهل اللغة: هَوَى بفتح الواو يَهْوِي هَوِيّاً سقط من علو، وهَوَى يَهْوَى هَوًى أي ضَبّاً.

القرطبي: هَوَى وانهوى فيه لغتان بمعنى وقد جمعهما الشاعر في قوله:

وكم منزل لولاي طُحِتَ كما هَوَى بأجزائه من قُلَّةِ النُّيُوقِ مُنْهَوِي

النُّيُوقِ بكسر النون المُشَدَّدَةِ أرفع موضع في الجبل.

الإمام الرازي: «الفائدة في تقييد القسم بالنجم بوقت هَوِيَّه أنه إذا كان في وسط السماء بعيداً عن الأرض لا يهتدي به السَّارِي، لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال: فإذا زال تَبَيَّن بزواله، وتَمَيَّز جانب عن جانب، كذلك النبي ﷺ خفَض جناحه

للمؤمنين، وكان على خلق عظيم وخصَّ الهويُّ دون الطلوع لعموم الاهتداء به في الدين والدنيا. أما الدينوي فلما ذُكر، وأما الديني فكما قال الخليل عليه السلام ﴿لَا أُحِبُّ الْإِلَهِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وفيه لطيفة وهي أنَّ القَسَمَ بالنجم يقتضي تعظيمه، وقد كان من المشركين من يعبد، فنَبَّه بهويِّه على عدم صلاحيته للإلهية، وهويِّه أقولُه.

السادس: في الكلام على قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾: [النجم: ٢] السمين: «هذا جواب القَسَم».

الإمام الرازي والبرهان النسفي: أكثر المفسرين قالوا: لا تُفَرَّق بين الضلال والغَيِّ. وقال بعضهم: إن الضلال في مقابله الهدى، والغَيِّ في مقابله الرُّشد، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وتحقيق الفرق فيه أن الضلال أعم استعمالاً في المواضع، تقول: ضلَّ بعيري ورخلي ولا تقول: غوى، فالمراد من الضلال ألا يجد السالك إلى مقصده طريقاً مستقيماً. والغواية ألا يكون له إلى القصد طريق مستقيم، ويدل على هذا أنك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق الشَّداد: إن سَعْيَه غَيْرُ رَشِيدٍ، ولا تقول: إنه ضال. فالضَّالُّ كالكاfer، والغاوي كالفاسق، فكأنه تعالى قال: ﴿مَا ضَلَّ﴾ أي ما كفر، ولا أقل من ذلك، فما فسق، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آتَشْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾: [النساء: ٦] الآية. أو يقال: الضلال كالعدم والغواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة. ويحتمل أن يكون معنى «ما ضلَّ» أي ما جُنَّ، فإن المجنون ضالٌّ، وعلى هذا فهو كقوله تعالى ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] الآية. فقوله: ﴿وَإِنْ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣]، إشارة إلى أنه ما غوى بل هو رشيد مُرشد إلى حضرة الله تعالى. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، إشارة إلى قوله هنا: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: ٣]، فإن هذا خُلُقٌ عظيم. وقد أشار قوله تعالى ﴿مَا ضَلَّ﴾ إلى أنه على الطريق، ﴿وَمَا غَوَى﴾ إشارة إلى أنه على الطريق المستقيم ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ إلى أنه مسلك الجادة، ركب من الطريق، فإنه إذا ركب متنه كان أسرع وصولاً إلى المقصِد، ويمكن أن يقال إن قوله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ دليل على أنه ما ضلَّ وما غوى، وتقديره: كيف يضلُّ أو يغوي وهو لا يَنطِقُ عن الهوى؟ وإنما يضل من يتبع هواه، ويدل عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

القرطبي: وقيل ما غوى ما خاب مما طلب قال الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِ لَا يَغْدَمُ عَلَى الْغَيِّ لَأَيِّمًا

أي من خاب في طلبه لآمه الناس، ثم يجوز أن يكون إخباراً عما بعد الوحي، ويجوز أن

يكون إخباراً عن أحواله على التعميم، أي كان أبداً مُؤخداً لله. وهو الصحيح.

ابن القيم: نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله الضلال المُتأفي للهدى والغَيّ المنافي للرشد، ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشد، فالهدى في علمه والرشد في عمله، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وهما سعادته وصلاحه، وبهما وصف النبي ﷺ خلفاءه، فقال: «عليكم بِشَيْئِي وَشُئَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»^(١).

«فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو صاحب الهدى ودين الحق، لا يشتبه الراشد المهدي بالضالّ الغاوي، إلا على أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَعْمَاهُمْ قَلْباً وَأَبْعَدُهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَةِ، وَرَحِمَ اللَّهُ الْقَائِلَ:

وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَظَائِرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ

والناس أربعة أقسام: الأول: ضالّ في علمه، غاوي في قصده وعمله، وهؤلاء سواد الخلق، وهم مخالفو الرسل. الثاني: مهتدي في علمه غاوي في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة العَصِيَّةُ وَمَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به. الثالث: ضالّ في علمه ولكن قصده الخير وهو لا يشعر، الرابع: مهتدي في علمه راشد في قصده وهم ورثة الأنبياء، وهم وإن كانوا الْأَقْلَى عِدداً فهم الْأَكْثَرُونَ عند الله قَدْراً، وهم صفوة الله تعالى من خَلْقِهِ. وتأمل كيف قال تعالى: ﴿وَمَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، ولم يقل: محمداً، تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحالته وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط. وقد نبّه تعالى على ذلك بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنين: ٦٩]، ويقول: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

السابع: في الكلام على قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾: [النجم: ٣].

قال [تعالى] أولاً: «ما ضَلَّ» و«وما غوى»، بصيغة الماضي، وعبر هنا بصيغة المستقبل، وهو ترتيب في غاية الحُسن، أي ما ضَلَّ حين اعتزلكم وما تعبدون حين اختلى بنفسه. وما ينطق عن الهوى الآن حيث أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ وجعل شاهداً عليكم، فلم يَكُنْ أولاً ضالاً ولا غاوياً، وصار الآن مُتَقِذاً من الضلالة ومُؤشِداً وهادياً، والله سبحانه وتعالى يصون من يريد إرساله في صيغته عن الكفر والمعائب، فقال تعالى: ﴿وَمَا ضَلَّ﴾ في صغره لأنه لا ينطق عن الهوى.

(١) أخرجه أبو داود ٢٠١/٤ (٤٦٠٧) والترمذي [٢٦٧٦] وابن ماجه (٤٢) وأحمد في المستند ١٢٦/٤ والطبراني في الكبير ٢٤٦/١٨ والبيهقي في السنن ١١٤/١٠ وابن عبد البر في التمهيد ٦٦/٨.

ابن عادل: «فاعل ينطق إما ضمير النبي ﷺ، وهو الظاهر، وإما ضمير القرآن كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾» [الجاثية: ٢٩].

ابن القيم: تنزه تعالى عن نُطق رسوله ﷺ عن أن يصدر عن هوى، وبهذا الكمال هداه وأرشده، ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نفْي نُطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمّن أن نُطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به؟ فتضمّن نفْي الأمرين: نفْي الهوى عن مصدر النطق، ونفْيَه عن النطق نفسه، فنُطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

اللباب: قال النحاس^(١): «قول قتادة أُولَى وتكون» «عن» على بابها أي ما يخرج نُطقه عن رأيه، إنما هو بَوْحِي من الله تعالى، لأن بَعْدَهُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى﴾ [النجم: ٤]. وقيل: هو بمعنى الباء، أي ما ينطق بالهوى، أي ما يتكلم بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إن محمداً يقول من تلقاء نفسه». المصباح: الهوى مقصور مصدر هَوَيْتُهُ من باب تَعِبَ إذا أَحْبَبْتُهُ وَعَلِقْتُ بِهِ، ثم أُطْلِقَ على ميل النفس وانحرافها عن الشيء ثم اسْتَعْمِلَ في ميل مذموم فيقال اتَّبَعَ هَوَاهُ.

الإمام البيهقي: «وأحسن ما يقال في تفسير الهوى أنه المحبة، لكن من النفس، يقال هَوَيْتُهُ بمعنى أَحْبَبْتُهُ. والحروف التي في هَوِي تدل على الدنوّ والنزول والسقوط ومنه الهاوية، فالنفس إذا كانت ذَنِيَّة وتركت المعالي وتعلّقت بالسفاسف فقد هَوَتْ فاخصت الهوى بالنفس الأتّارة بالسوء».

الشعبي: «إنما سُمِّي الهوى هَوَى لأنه يَهْوِي بصاحبه». وقال بعض الحكماء: «الهوى إله معبود، له شيطان شديد، يخدمه شيطان مريد، فمن عَبد أوثانه، وأطاع سلطانه، واتَّبَعَ شيطانه، خَتَمَ الله تعالى على قلبه، وحُرم الرِّشَادَ من رَبِّه، فأصبح صريع غَيِّه، غريق ذنبه، وقال عزّ من قائل ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾» [الجاثية: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال النبي ﷺ: «ثلاث مُنْجِيَات وثلاث مُهْلِكَات، فالمنجيات: خشية الله في السرّ والعلانية، والحكم بالعدل في الرضا والغضب، والاقتصاد في الفقر والغنى، والمهلكات: شحّ

(١) أحمد بن محمد بن إسماعيل المراديّ المصري، أبو جعفر النحاس: مفسر، أديب. مولده ووفاته بمصر. كان من نظراء فطويه وابن الأنباري. زار العراق واجتمع بعلمائه. وصنف «تفسير القرآن» و «إعراب القرآن» و «تفسير أبيات سيبويه» و «ناسخ القرآن ومنسوخه» و «معاني القرآن» انظر الأعلام ٢٠٨/١.

مطاع، وهوى مُتَّبِع، وإعجاب المرء برأيه^(١). رواه البزار عن أنس.

وقال عليه السلام: «ما تحت ظل السماء من إله يُعْبَد من دون الله، أعظم عند الله من هوى مُتَّبِع»^(٢). رواه الطبراني عن أبي أمامة. وقال بعض الحكماء: «الهوى خادع الألباب، صائد عن الصواب، يُخرج صاحبه من الصَّحِيح إلى المَعْتَل، ومن الصريح إلى المُخْتَل، فهو أَعْمَى يُتَصَبَّر، أصم يسمع». كما قال النبي صلى الله عليه وآله: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يعمي ويصم»^(٣). وقال آخر: «على قدر بصيرة العقل يرى الإنسان الأشياء، فمن سليم عقله من الهوى يراها على حقيقتها، والنفس الكدرة المتبعة لهواها ترى الأشياء على طبعها. وقيل كان على خاتم بعض الحكماء: «من غلب هواه على عقله افتضح». وقال ابن دُرَيْد في مقصورته:

وَأَفَّهَ الْعَقْلُ الْهَوَى فَمَنْ عَلَا عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا

الثامن: في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

الإمام الرازي: «هذا تكملة للبيان، وذلك أن الله تعالى لما قال: ﴿وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ فَعَمَّ ذَا يَنْطَلِقُ، أَعْنِ الدليل والاجتهاد؟ فقال: لا، إنما ينطق عن حضرته تعالى بالوحي، وهذا اللفظ أبلغ من أن لو قيل: هو وَخْيٌ يُوحَى. وكلمة «إِنْ» استُعْمِلَتْ مكان «مَا» للتَّنْفِي، كما استُعْمِلَتْ «مَا» للشرط مكان «إِنْ».

اللباب: «يُوحَى صِفَةٌ لِيُوحَى، وفائدة المجيء لهذا الوصف أنه يُنْفِي المجاز، أي هو وَخْيٌ حقيقة لا مُجَرَّد تسمية كقولك: هذا قَوْلٌ يُقَال. وقيل تقديره: يُوحَى إليه، ففيه مزيد فائدة». ونقل القرطبي عن السجستاني أنه قال: «إِنْ يَشَأْ أَبْدَلْتُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَى﴾ مِنْ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط لأنَّ إِنْ الخفيفة لا تكون مُبْدَلَةً مِنْ «مَا» بدليل أنك لا تقول: والله ما قُمْتُ إِنْ أنا لقاعد».

ابن القيم: «أعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي ما نطقه إِلَّا وَخْيٌ يُوحَى، وهذا أحسن من قول مَنْ جعل الضمير عائداً إلى القرآن فإنه يَغْمُ نُطْقُهُ بِالْقُرْآنِ والسُّنَّةِ، وأن

(١) ذكره العجلوني ٣٨٦/١ بنحو وعزاه للبزار والطبراني عن أنس بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٧١٥/٢ والفتني في تذكرة الموضوعات (١٧٢) وذكره الهيثمي في المجمع ١٨٨/١.

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٣٠) وأحمد في المسند ١٩٤/٥ والخطيب في التاريخ ١١٧/٣ وذكره العجلوني في الكشف

٤١٠/١ وقال: قال في المقاصد: رواه أبو داود والمسكوي عن أبي الدرداء مرفوعاً وموقوفاً والوقف أشبه، وفي سنده

ابن أبي مريم ضعيف، ورواه أحمد عن ابن أبي مريم فوفقه، والرفع أكثر ولم يصب الصغاني حيث حكم عليه بالوضع،

وكذا قال العراقي ابن أبي مريم لم يهتم أحد بكذب إنما سرق له حلي فأفكر عقله، وقال الحافظ ابن حجر: ربما

للعراقي ويكفيها سكوت أبي داود عليه فليس بموضوع ولا شديد الضعف فهو حسن انتهى. وقال القاري: بعد أن ذكر ما

تقدم فالحديث إما صحيح لذاته أو لغيره مرتق عن درجة الحسن لذاته إلى صحة معناه، وإن لم يثبت مبناه.

كليهما وحيي. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وهما القرآن والشئنة.

وروى الداري^(١) عن يحيى بن أبي كثير^(٢) قال: «كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالشئنة كما ينزل عليه بالقرآن». قلت وفي الصحيحين أن رجلاً سأل النبي ﷺ وهو بالجعرانة [فقال: يا رسول الله] كيف ترى في رجل أحرّم بغمرة بعد ما تَصْمَخَ بالخلوق؟ فنظر إليه رسول الله ﷺ ساعة ثم سكت..

فجاءه الوحي، ثم شري عنه، فقال: أين السائل؟ فجيء به فقال: انزع عنك الجُبَّةَ واغسل أثر الطيب واصنع في غُمرتك ما تصنع في حِجَّتِكَ^(٣).

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ، أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ تبشّر يتكلم في الرضا والغضب. فأمسكت عن الكتابة حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج مني إلا حقاً»^(٤).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أقول إلا حقاً». وقال بعض أصحابه: «إنك تداعبنا يا رسول الله»، قال: إني لا أقول إلا حقاً»^(٥).

وروى الإمام أحمد والطبراني والضياء في صحيحه عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَيَدْخُلَنَّ الْحَيَّةُ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِثْلِ الْحَيِّينِ أَوْ مِثْلِ أَحَدِ الْحَيِّينِ رُبْعَةً وَمُضَرَّ. فقال رجل: يا رسول الله وما رُبْعَةٌ وَمُضَرٌّ؟ قال: إني ما أقول إلا ما أقوله»^(٦). - الثاني

(١) [عبد الله بن كثير الداري المكي، أبو مقبل، القارئ، أحد الأئمة صدوق، من السادسة، مات سنة عشرين ومائة] انظر التقریب ٤٤٢/١.

(٢) يحيى بن أبي كثير الطائي، مولا هم، أبو نصر اليمامي، ثقة، ثبت، لكنه يدلس ويرسل، من الخامسة، مات سنة الثنتين وثلاثين، وقيل قبل ذلك. التقریب ٣٥٦/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٧/٣ (١٧٨٩) ومسلم ٨٣٦/٢ (٦٠ - ١١٨٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٤٦) وأحمد في المسند ١٦٢/٢ والدارمي ١٢٥/١ والحاكم في المستدرک ١٠٦/١.

(٥) أخرجه الترمذي (١٩٩٠) وأحمد في المسند ٣٤٠/٢ والبيهقي في السنن ٣٤٨/١ وابن عبد البر في التمهيد ٤/٢٢١ وذكره الهيثمي في المجمع ١٧/٩ والسيوطي في الدرر ١٢٢/٦ وابن كثير في البداية والنهاية ٥٥/٦.

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٨٤/١٠ وعزاه لأحمد والطبراني بأسانيد وقال: ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني رجالهم رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة.

بضم الهمزة وفتح القاف والواو المُشَدَّدَة - أَي ما يَقُولُهُ الله من الوحي، ولهذا مزيد بيان في أبواب عِصْمَتِهِ.

الإمام الرازي؛ «هو ضمير معلوم أو ضمير مذكور، فيه وجهان: أشهرهما أنه ضمير معلوم، وهو القرآن، كأنه تعالى يقول: «ما القرآن إلا وحي»، وهذا على قول من قال: ليس المراد بالنجم القرآن، وأما على قول من قال: هو الوحي فضمير مذكور. والوجه الثاني: أنه عائد إلى مذكور ضمناً، وهو قولُ النبي ﷺ وكلامه، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ في ضمنه النطق وهو كلام وقول، فكأنه تعالى يقول: وما كلامه ولا نُطْقُهُ إلا وحي. وفيه وجه آخر، وهو أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣] ردٌّ على الكفرة حيث قالوا: قَوْلُهُ قَوْلُ كَاهِنٍ، وقالوا: قَوْلُهُ قَوْلُ شَاعِرٍ، فقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، وليس بقول شاعر كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَىٰ﴾، إبلغ من قول القائل: هو وحيي، وفيه فائدة غير المبالغة، وهي أنهم كانوا يقولون: هو قول كاهن، هو قول شاعر. والمراد نفى قولهم وذلك يحصل بصيغة النفي فقال: ما هو كما تقولون، وزاد فقال: بل هو وحيي.

أنوار التنزيل: «احتج بهذه الآية مَنْ لم يَزِ الاجتهاد للنبي ﷺ. وأجيب عنه بأنه إذا أُوحِيَ إليه أن يجتهد كان اجتهاده وما يُسْتَدِلُّ إليه واجباً وفيه نظر لأن ذلك حينئذ بالوحي».

الطبيبي «هذه الآية واردة في أمر التنزيل وليس فيها لمُسْتَدِلٌّ أَنْ يَسْتَدِلُّ شيئاً من أمر الاجتهاد نفيّاً ولا إثباتاً، لأن الضمير في «هو» للقرآن، بدليل من فُسِّرَ النجم بنجوم القرآن». وتبسط الكلام على ذلك، ثم أورد حديث طلحة بن عبيد الله في تأبير النخل^(١)، وسيأتي مع الكلام عليه في أبواب عصمته ﷺ.

وقال الإمام الرازي: «القول بأن النبي ﷺ لم يجتهد خلاف الظاهر: فإنه في الحرب اجتهد وحرم، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ حُرْمٌ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [مريم: ١]، وأذن، قال الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

التاسع: في الكلام على قوله تعالى: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ» [النجم: ٥].

التبتيان: «أخبر تعالى عن وصف من عَلَّمَهُ بالوحي أنه مضادٌّ لأوصاف الشيطان مُعَلِّمُ الضَّلَالَةِ وَالْعَوَايَةِ، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]

(١) تأبير النخل: تلقيحه. انظر المعجم الوسيط ٢/١.

وفي وصفه بذلك تنبيه على أمور:

الأول: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تَدُثُوا منه وأن ينالوا منه شيئاً أو يزيّدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه مُوال لهذا الرسول الذي كذبتموه ومعاضد له ومُؤاّد له وناصِر، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاةُ جِبْرِيلَ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحریم: ٤] الآية. ومن كان هذا القويّ وليّه ومن أنصاره وأعوانه ومُعَلِّمه. فهو المُهْدِي المنصور. واللّه هاديّه وناصِرُه.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليّه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به بقوته فلا يعجز عن ذلك مُؤاّد له كما أمر.

السمين: «فاعل علّمه جبريل عليه السلام وهو الظاهر. قال الماوردي والقرطبي إنه قول الجميع إلا الحسن، فإنه، قال هو الباري تعالى لقوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢] ويكون «ذو مِرَّة» تمام الكلام».

اللباب: «يجوز أن تكون هذه الهاء للنبي عليه السلام، وهو الظاهر، فيكون المفعول الثاني محذوفاً أي علمه النبي عليه السلام الوحي أي المُوحى، ويجوز أن يكون للقرآن والوحي، فيكون المفعول الأول محذوفاً أي علمه النبي».

الإمام الرازي: «الأولى أن يقال الضمير للنبي عليه السلام، تقديره علّم محمداً شديد القوى جبريل، ويكون عائداً إلى صاحبكم، تقديره: ما ضلّ صاحبكم، وشديد القوى هو جبريل، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة، ثم في قوله: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ فوائد:

الأولى: أن مدح المُعلّم مدح للمُتعلّم، فلو قال: علّمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبي عليه السلام فضيلة ظاهرة.

الثانية: أن فيه ردّاً عليهم بحيث قالوا: أساطير الأولين، فقال: لم يُعلّمه أحد من الناس علّمه شديد القوى.

الثالثة: فيه الوثوق بقول جبريل عليه السلام، ففي قوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ جميع ما يوجب الوثوق لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل على ما عرف، وكذلك قوة الحفظ، فقال: (شَدِيدُ الْقُوَى) ليجمع هذه الشرائط، فيصير كقوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١].

اللباب: «شَدِيدُ الْقُوَى من كافة الصفة المشبهة لمرفوعها فهي غير حقيقية، هذا ما جزم

به الزمخشري وتابعوه. وقال صاحب الكفيل: «بل هي مضافة إلى مفعولها، وبسط الكلام على ذلك، والشديد البين القوة».

روى ابن عساكر عن معاوية بن قرة^(١) - بضم القاف وتشديد الراء - رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «مَا أَحْسَنَ مَا أَتَيْتَ عَلَيَّ رُبُّكَ: «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» مَا كَانَتْ قُوَّتُكَ وَمَا كَانَتْ أَمَانَتُكَ؟ قال: «أما قُوَّتِي فَإِنِّي بُعِثْتُ إِلَى مَدَائِنَ لُوطَ وَهِيَ أَرْبَعُ مَدَائِنَ، وَفِي كُلِّ مَدِينَةٍ أَرْبَعُ مَائَةِ أَلْفٍ مَقَاتِلَ سِوَى الذَّرَارِيِّ، فَحَمَلْتُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ السُّفْلَى حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ أَصْوَاتَ الدَّجَاجِ وَتُبَاحِ الْكَلَابِ، ثُمَّ هَوَيْتُ بِهِمْ قُلُوبَهُمْ. وَأَمَّا أَمَانَتِي فَلَمْ أَوْمَرْ بِشَيْءٍ فَعَدَوْتُهُ إِلَى غَيْرِهِ». وقال محمد بن السائب: «من قوة جبريل أنه اقتلع مدائن قوم لوط من الماء الأسود فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء حتى أسمع أهل السماء تَبَاحَ كَلَابِهِمْ وَصِيَا حَ دِيكْتَهُمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا، وَمِنْ قُوَّتِهِ أَيْضًا أَنَّهُ أَبْصَرَ إِبْلِيسَ يَكْلِمُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ عَلَى بَعْضِ عُقَابِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ فَنَفَحَهُ بِجَنَاحِهِ نَفْحَةً فَأَلْقَاهُ فِي أَقْصَى جَبَلٍ بِالْهِنْدِ. وَمِنْ قُوَّتِهِ هَبُوطُهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ، وَصُعُودُهُ إِلَيْهَا فِي أَسْرَعِ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ».

العاشر: في الكلام على قوله تعالى: «ذُو مِرَّةٍ» [النجم: ٦].

القرطبي: قال قطرب: تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل ذو مِرَّةٍ، قال

الشاعر:

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَاكُمْ ذَا مِرَّةٍ عِنْدِي لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَاتُهُ

وكان من جزالة رأيه وحصافة عقله أن الله تعالى اتسمه على وحيه إلى جميع رُسُلِهِ.

الجوهرى: «والمِرَّةُ القوة وشدة العقل، ورجل مريد أي قوى ذو مِرَّةٍ. قال:

تَرَى الرَّجُلَ النُّجِيفُ فَتَزْدَرِيهِ وَحَشْوَ ثِيَابِهِ أَسَدٌ مَرِيرٌ

ابن القيم: «أي جميل المنظر، حسن الصورة، ذو جلاله، ليس شيطانياً، أقبح خلق الله تعالى وأشوههم صورة، بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله، وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له، كما ذكر نظيره في سورة التكوين، فَوَصَّفَهُ بِالْعِلْمِ وَالْقُوَّةِ وَجَمَالَ الْمَنْظَرِ وَجَلَالَتِهِ. وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكى، وكان رسول الله ﷺ أشجع الناس وأعلمهم وأجملهم وأصفاهم نفساً.

الإمام: «في قوله: «ذُو مِرَّةٍ» وجوه: الأول: ذو قوة، قلت ورواه الفَرَزَابِيُّ عن مجاهد

(١) معاوية بن قرة بن إياس المُرَازِي أَبُو إِسَاسَ الْبَصْرِيُّ. عن علي مرسل، وابن عباس وابن عمر. وعنه قتادة وشعبة وأبو غرانة وخلق. وثقه ابن معين وأبو حاتم. قال خليفة: مات سنة ثلاث عشرة ومائة، ومولده يوم الجمل. انظر الخلاصة ٤١/٣، ٤٢.

ويدل على هذا قوله ﷺ: «لا تجل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي». رواه الإمام أحمد. الثاني: ذو كمال في العقل وفي الدين جميعاً. الثالث: ذو منظر وهيبه عظيمة. الرابع: ذو خلقي حسن. قلت زاد الماوردي خامساً: ذو عتاء.

قلت: ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإنه ﷺ متصف بها. فإن قيل: على قولنا ذو مرة، قد تقدم بيان كونه شديد القوى، فكيف تقول قواه شديدة وله قوة؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أن ذلك لا يحسن إذا كان وصفاً بعد وصف، وأما إذا جاء بدلاً فيجوز، كأنه قال: علّمه ذو قوة، ونزل شديد القوى فليس وصفاً له وتقديره ذو قوة عظيمة أو كاملة. الثاني: أن إفراد «مرة» بالذكر ربما تكون لبيان أن قواه المشهورة شديدة وله قوة أخرى لخصه الله تعالى بها.

على أننا نقول المراد ذو شدة وهي غير القوة، وتقديره علّمه من قواه الشديدة، وفي ذاته أيضاً شدة، فإن الإنسان ربما يكون كثير القوة صغير الجثة، وفيه لطيفة وهي أنه تعالى أراد بقوله: «شديد القوى»، أي قوة العلم، ويقول: «ذو مرة»، أي شدة في الجسم، قدم العلمية على الجسمية، كما قال تعالى: «وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» [البقرة: ٢٤٧]، وتقدم الكلام على «ذو» في اسمه ﷺ: «ذو الوسيلة»، فراجع.

الحادي عشر: في الكلام على قوله تعالى: «فاستوى»، وهو بالأفق الأعلى:

[النجم: ٦-٧].

اللباب: «قال مكي: استوى يقع للواحد وأكثر ما يقع من اثنين ولذلك جعل الفراء

الضمير لإثنين».

الماوردي والقرطبي: «فاستوى» يعني جبريل أي ارتفع وعلا إلى مكانه في السماء، بعد أن علّم محمداً ﷺ، قاله ابن المسيّب وابن جبريل. وقال الإمام: «إنه المشهور»، وقيل «فاستوى» أي ظهر في صورته التي خلقه الله تعالى عليها، لأنه كان يأتي النبي ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسأله رسول الله ﷺ أن يُريته نفسه التي خلقه الله عليها، فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض ومرة في السماء، فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى، وكان النبي ﷺ بجراً، فطلع له جبريل من المشرق، فسد الأرض إلى المغرب، فحزّ النبي ﷺ مغشياً عليه، فنزل إليه في صورة الآدميين وضّمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه، فلما أفاق النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما ظننت أن الله تعالى خلق أحداً على مثل هذه الصورة». فقال: يا محمد، إنما نشرت جناحين من أجنحتي وأن لي ستمائة جناح سعة كل جناح ما بين المشرق والمغرب. فقال: «إن هذا لعظيم». فقال له: وما أنا في جنب ما خلقه الله إلا يسيراً، ولقد خلق الله تعالى إسرافيل له ستمائة جناح، كل جناح قدر أجنحتي، وإنه

ليتضاءل أحياناً - يتضاءل بالضاد المعجمة والهمزة - من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوَضْع - بفتح الواو والصاد وبالعَيْن المهملتين، يعني العصفور الصغير، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣].

وأما في السماء فعند سِدْرَةِ المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا نبينا ﷺ.

ابن كثير: «وهذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض في أوائل البعث بعد فترة الوحي».

اللباب: «في الضمير وجهان: أحدهما: وهو الأظهر أنه مبتدأ، «وبالْأَفْق» خبره، والضمير لجبريل أو للنبي ﷺ. ثم في هذه الجملة وجهان: الأول: أنها حال من فاعل «فاستوى» قاله مكِّي. قال القرطبي: والمعنى فاستوى جبريل عالياً على صورته ولم يكن النبي ﷺ قبل ذلك رآه عليها حتى سأله إياها على ما ذكرنا»، انتهى.

«الثاني: أنها مستأنفة، أخبر الله تعالى بذلك، ثانيهما: أن «وهو» معطوف على الضمير المستتر في استوى. وضمير استوى إما أن يكون لله تعالى وهو قول الحسن أو لجبريل أو لمحمد، وهذا ضعيف، لأنه يقال استوى هو وفلان ولا يقال استوى وفلان إلا في ضرورة الشعر، والصحيح استوى جبريل وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية لأنه كان يتمثل للنبي ﷺ إذا نزل بالوحي في صورة رجل، فأحب النبي ﷺ أن يراه على صورته الحقيقية فاستوى جبريل في أفق المشرق فملاً الأفق».

وروى الإمام أحمد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي، وأبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، له ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدَّ الأفق وتسقط من أجنحته التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس في الآية قال: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته، فقال: ادع ربك، فدعا ربه عز وجل، فطلع عليه سَوَادٌ من قِبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه رسول الله ﷺ ضَبِعٌ، فأتاه فَقَرَّبَ منه وَمَسَحَ العُبار عن وجهه.

المصباح: «الأفق بضممتين الناحية من الأرض ومن السماء والجمع آفاق، زاد في الصحاح: والأفق بضمة فسكون مثل عُشر وعُشر».

الماوردي: «في الأفق الأعلى ثلاثة أقوال: أحدها: مطلع الشمس قاله مجاهد، الثاني: هو بالأفق الذي يأتي منه النهار قاله قتادة يعني طلوع الفجر، الثالث: هو أفق السماء وهو جانب من جوانبها، قاله ابن زيد، ومنه قول الشاعر:

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا مَقَرَّهَا وَالتَّجُومُ الطَّوَالِغُ

الثاني عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾: [النجم: ٨].

الإمام الرازي: «فيه وجوه: الأول: وهو أشهرها أن جبريل دنا من النبي ﷺ، أي بعد ما مد جناحه وهو بالأفق الأعلى عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها، وقرب من النبي ﷺ».

القرطبي: أي دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى «فَتَدَلَّى» على النبي ﷺ، المعنى أنه لما رأى النبي ﷺ من عظمة جبريل ما رأى وهاله ذلك، رده الله تعالى إلى صورة آدمي حين قرب من النبي ﷺ بالوحي. هذا قول الجمهور، انتهى. وعليه ففي تدلَّى ثلاثة أقوال: الأول أن الدنو والتدلي بمعنى واحد كأنه قال: دنا فَنَقَرَبَ.

اللباب: «ذهب الفقهاء إلى أن الفاء في «فَتَدَلَّى» بمعنى الواو، والتقدير: ثم تدلى عليه الصلاة والسلام ودنا. ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً قَدُمْتُ أيهما شئت، تقول دنا فَنَقَرَبَ، وقرب فدنا، وَشَتَمْنِي فأساء وأساء فشتمني لأن الشتم والإساءة شيء واحد، وكذلك قوله تعالى: ﴿افْتَرَبْتُ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، أي انشق القمر واقتربت الساعة. القول الثاني: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ثم تدلَّى من الأفق فدنا من النبي ﷺ. القول الثالث: أن دنا بمعنى قصد القرب من النبي ﷺ وتحرك عن المكان الذي فيه فتدلَّى فنزل إلى النبي ﷺ».

الوجه الثاني: أن المراد دنا من ربه تبارك وتعالى، والمراد بالدنو هنا المنزلة كما في قوله ﷺ حاكياً عن ربه عز وجل: «من تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»^(١) وهذا إشارة إلى المعنى، ولهذا مزيد بيان في شرح القصة.

الوجه الثالث: دنا جبريل من ربه، قاله مجاهد.

الوجه الرابع: أنه النبي ﷺ، دنا من ربه، ويحمل هو والذي قبله كما قال الإمام الرازي على القرب من المنزلة. والذي عليه الجَمُّ الغفير هو دنو جبريل من النبي ﷺ.

الثالث عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

[النجم: ٩].

اللباب: «ها هنا مضافان محذوفان مضطر لتقديرهما، أي فكان مقدار مسافة قربه منه مقدار مسافة قاب».

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم من رواية أبي ذر رضي الله عنه ٢٠٦٨/٤ (٢٢-٢٦٨٧).

الإمام الرازي: «أي فكان بين جبريل ومحمد ﷺ مقدار قوسين أو أقل، فهذا على استعمال العرب وعاداتهم، فإن الأُميرَيْن منهم أو الكبيرَيْن إذا اصطُلحا وتعاقدا خرجا بقوسيهما، جعل كل واحد منهما قوسه بطرف قوس صاحبه، ومن دونهما من الرعية يكون كقفه بكف صاحبه فيشدان باعِيَّهما، لذلك فسُمِّي مبايعة. وعلى هذا ففيه مقدار قَوْسَيْن أو كان جبريل سفيراً بين حضرة الله تعالى عنه ومحمد ﷺ فكان كالشَّيْبَع لمحمد ﷺ، فصار كالمُتَبَاع الذي يَحُدُّ الباع لا القوس».

اللباب: القاب: القدر تقول: هذا قاب هذا، أي قَدْرُه ومثله: القَيْب والقاد والقيد والقيس.

الجوهري: «وقال بعضهم في الآية أراد قَابَيْن قَوْس فقلبه. وفي الحديث الصحيح: لقاب قَوْس أحدكم [أو موضع قَدَه] من الجنة خَيْرٌ من الدنيا وما فيها». والقوس معروفة، وهي ما يُؤمَى بها وهي مؤنثة وشَدُّوا في تصغيرها، فقالوا قويس من غير تأنيث، وإنما ضرب المثل بالقوس لأنها لا تختلف بالقاب وإن لم يَجْر لها ذكر لعدم اللبس».

الواحدي: «المراد بالقوس التي يُؤمَى بها عند الجمهور، قال: وقيل المراد الذراع لأنها يُقَاس بها».

القرطبي: «وقال سعيد بن جببر، وعطاء، وإبو إسحق الهمداني، وأبو وائل^(١) شقيق ابن سلمة «فَكَانَ قَاب قَوْسَيْنِ» أي قَدْر ذراعين، والقوس الذراع يُقَاس بها كل شيء، وهي لغة بعض الحجازيين، وقيل هي لغة أزد شنوءة أيضاً». قلت: ورواه ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود أيضاً.

قال الحافظ: وينبغي أن يكون هذا القول هو الراجح، فقد روى الطبراني وابن مودويه والضياء بسند صحيح عن ابن عباس قال: القاب والقيد والقوسان الذراعان.

اللباب: «أو» هنا كهي في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ لأن المعنى بأحد هذين المقدارين في رأي الرائي أي لتقارب ما بينهما لا^(٢) يشك الرائي في ذلك. وقال ابن القيم: «أو» هنا ليست للشك بل لتحقيق قدر المسافة، وأنها لا تزيد على قوسين البتة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصفافات: ١٤٧]، تحقيقاً لهذا القدر وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف أو يزيدون رجلاً واحداً، ونظيره قَوْلُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ

(١) شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل، الكوفي، ثقة، مضمزم، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز، وله مائة سنة. التقريب (٣٥٤١١).

(٢) سقط في أ.

ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة» [البقرة: ٧٤]، أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها. وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من يجعل «أو» في هذا الموضع بمعنى بل، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الراي، وقول من جعلها بمعنى الراو فتأمله، وجزم بذلك ابن كثير.

اللباب: «أدنى أفعل تفضيل، والمفضل عليه محذوف أو أدنى من قاب قوسين، فمعنى الآية: ثم دنا جبريل بعد استوائه في الأفق الأعلى من الأرض، فتدلى، فنزل إلى محمد ﷺ، فكان قاب قوسين أو أدنى بل أدنى.

تنبيه: هذا الذي قلناه من المُقْتَرَب الداني الذي صار بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين أو أدنى، إنما هو جبريل، نقله القاضي عن الجمهور. وقال الحافظ عماد الدين بن كثير: إنه هو الصحيح في التفسير، كما دل عليه كلام أكابر الصحابة. قال ابن القيم: لأن جبريل هو الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ١٣، ١٤] هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعائشة، قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله عن هذه الآية، فقال: «ذاك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين»، رواه مسلم، ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه:

الأول: أنه قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وهذا جبريل الذي وصفه بالقوة في سورة التكوير.

الثاني: أنه قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦] أي حسن الخلق، وهو الكريم في سورة التكوير.

الثالث: أنه قال: ﴿فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ وهي ناحية السماء العليا وهذا استواء جبريل.

الرابع: أنه قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قاب قوسين أو أدنى﴾، فهذا دنو جبريل، وقد نزل إلى الأرض حيث كان رسول الله ﷺ بها. وأما الدنو والتدلى في حديث المعراج فرسول الله ﷺ كان فوق سبع سموات.

الخامس: أنه قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾. والذي عند السدرة قطعاً هو جبريل، وبهذا فسره النبي ﷺ، فقال: «ذاك جبريل».

السادس: أن الضمير في قوله: «ولقد رآه»، وقوله: «دنا فتدلى»، وقوله: «فاستوى»، وقوله: «وهو بالأفق الأعلى» واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المُفسرين من غير دليل.

السابع: أنه سبحانه وتعالى أخبر أن هذا الذي «دنا فتدلى» كان بالأفق الأعلى، وهو أفق السماء، فدنا من الأرض فتدلى لرسول الله ﷺ، والدنو والتدلي الذي في حديث شريك غير هذا، وكذا جزم ابن كثير بأن الدنو والتدلي في حديث شريك غير الذي في الآية.

وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، في هذه الآية قال: «رأى بفؤاده مرتين»، فجعل هذا إحداها، ولهذا مزيد بيان في الباب الثالث.

الرابع عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [سورة النجم: ١٠].

ابن عادل متابعاً للإمام الرازي: «في فاعل أوحى وجهان: الأول: أن الله تعالى أوحى، وعلى هذا ففي «عَبْدِهِ» وجهان: أحدهما: أنه جبريل، أي أوحى الله تعالى إلى جبريل، وعلى هذا ففي فاعل أوحى الأخير وجهان: أحدهما: أنه الله تبارك وتعالى أيضاً، والمعنى حينئذ: فأوحى الله تعالى إلى جبريل الذي أوحاه الله تعالى أيهما أكثر تفخيماً وتعظيماً للموحي، ثانيهما: فاعل أوحى الثاني جبريل، أي أوحى الله تبارك وتعالى إلى جبريل ما أوحى جبريل، وعلى هذا فالمراد من الذي أوحى إليه جبريل يحتمل وجهين: أولهما: أن يكون مُبَيَّنّاً، وهو الذي أوحى جبريل إلى محمد ﷺ، ثانيهما: أن يكون عاماً. أي أوحى الله تعالى إلى جبريل ما أوحى إلى كل رسول. وفيه بيان أن جبريل أمين لم يَخُنْ في شيء مما أوحى إليه، وهذا كقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقوله ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١].

الوجه الثاني: في «عَبْدِهِ»، على قولنا هو الله تعالى، أنه محمد ﷺ، أي أوحى الله تعالى إلى محمد ما أوحى إلى كل رسول به أَوْحَىهُ للتفخيم والتعظيم.

الوجه الثاني في فاعل أوحى الأول: هو أنه جبريل أوحى إلى عبده أي إلى عبد الله يعني محمداً ﷺ، ما أوحى إليه ربه عز وجل، قاله ابن عباس في رواية عطاء، والكلبي، والحسن، والربيع، وابن زيد. وعلى هذا ففي فاعل أوحى الثاني وجهان: أحدهما: أنه جبريل أي أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى جبريل للتفخيم، وثانيهما: أن يكون هو الله تعالى أي أوحى جبريل إلى محمد ما أوحى الله تعالى إليه.

وفي ﴿مَا أَوْحَى﴾ وجوه: الأول: فضل الصلاة، الثاني: أن أحداً من الأنبياء لا يدخل الجنة قبله ولا قبل أمته. الثالث: أن «ما» للعموم، والمراد كل ما جاء به جبريل.

الخامس عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١].

ابن القيم: «أخبر الله تعالى عن تصديق فؤاده لما رآه عيناه، وأن القلب صدق العين،

وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به، فكَذَّبَ فؤاده بَصَرُهُ، بل ما رآه يبصره صَدَقَهُ الفؤاد وعِلِمَ أنه كذلك. يُقال كَذَّبَتْ عَيْنُهُ وَكَذَّبَهُ قَلْبُهُ وَكَذَّبَهُ جَسَدُهُ إِذَا أَحْلَفَ مَا ظَنَّهُ وَخَدَّسَهُ. قال الشاعر:

كَذَّبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطِ غَلَسِ الظُّلَامِ مِنَ الرِّيبِ خَيْالاً^(١)؟

أي أَزْنَتَكَ ما لا حقيقة له. فتَنَفَّى اللَّهُ تعالى هذا عن رسول الله ﷺ، وأخبر أن فؤاده لم يَكْذِبَ ما رآه.

الماوردي: «في الفؤاد قولان: أحدهما: أنه أراد صاحب الفؤاد، فَعَبَّرَ عنه بالفؤاد، لأنه قُطِبَ الجسد وبه قَوَامُ الحياة. الثاني: أنه أراد نفس الفؤاد لأنه محل الاعتقاد.

اللباب: «قرأ هشام^(٢) وأبو جعفر^(٣) بتشديد الدال من «كَذَّبَ»، والباقون بتخفيفها. فأما الأولى فإن معناها أن ما رآه محمد ﷺ بعَيْنِهِ صَدَقَهُ قَلْبُهُ، ولم ينكر الداري «أل» لتعريف ما عُلِمَ حاله لَسَبَقَ ذِكْرُ محمد ﷺ في قوله: «إلى عبده» وفي قوله (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى) وقوله (ما ضَلَّ صَاحِبُكُمْ)، أي لم يَقُلْ إنه خيال لا حقيقة. و «ما» الثانية مفعول له موصولة، والعائد محذوف، ففاعل «رأى» ضمير يعود على النبي ﷺ.

وأما قراءة التخفيف فقليل فيها كذلك. وَكَذَّبَ يتعدى بنفسه. وقيل هو على إسقاط الخافض أي فيما رآه، قاله مكي وغيره. قال حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

لَوْ كُنْتُ صَادِقَةً لَّذِي حَدَّثْتَنِي لَنَجُوتِ مَنْجَا الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ^(٤)

أي في الذي حَدَّثْتَنِي، وَجُوزَ «ما» في وَجَّهَيْنِ: أحدهما: أن تكون بمعنى «الذي»، فيكون المعنى: ما كَذَّبَ الفؤاد الذي رَأَى بعينه، والثاني: أن تكون مصدرية.

(١) البيت للأخطل انظر اللسان ٣٢٨١/٤.

(٢) هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة أبو الوليد السلمي وقيل: الظفري الدمشقي، إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم، ولد سنة ثلاث وخمسين ومائة، وقال النسائي: لا بأس به وقال الدارقطني: صدوق كبير المحلل، وكان فصيحاً علامة واسع الرواية، قال عبدان الأهوازي: سمعته يقول ما أعدت خطبة منذ عشرين سنة وقال محمد بن حريم: سمعته يقول في خطبته: قولوا الحق يريكم الحق منازل أهل الحق يوم لا يقضي إلا بالحق، وقال أبو علي أحمد بن محمد الأصبهاني المقرئ لما توفي أيوب بن تميم رجعت الإمامة في القراءة إلى رجلين: ابن ذكوان وهشام، قال: وكان هشام مشهوراً بالنقل والفصاحة والعلم والرواية والدراية رزق كبير السن وصحة العقل والرأي فارتحل الناس إليه في القراءات والحديث، مات سنة خمس وأربعين ومائتين وقيل سنة أربع وأربعين غاية النهاية ٣٥٤/٢، ٣٥٥.

(٣) يزيد بن القعقاع الإمام أبو جعفر المخزومي المدني القارئ، أحد القراء العشرة تابعي مشهور كبير القدر، ويقال اسمه جندب بن فيروز وقيل: فيروز، مات بالمدينة سنة ثلاثين ومائة وقيل: سنة اثنتين وثلاثين، سنة تسع وعشرين وقيل: سنة سبع وعشرين وقيل: سنة ثمان وعشرين. انظر غاية النهاية ٣٨٢/٢، ٣٨٣، ٣٨٤.

(٤) انظر ديوان حسان بن ثابت ص ٢١٣، ٢١٤.

ابن القيم: فيكون المعنى: ما كَذَّبَ فؤاده زُؤيته، وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر وتوافقهما، وتصديق كل واحد منهما لصاحبه، وهذا ظاهر في قراءة التشديد. وقد استشكلها طائفة منهم المُبرِّد، وقال في هذه القراءة بُعْد، لأنه إذا رأى بقلبه فقد عَلِمَهُ أيضاً بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه، فإذا كان الشيء في القلب معلوماً فكيف يكون معه تكذيب؟.

والجواب عن هذا من وجهين: أحدهما: أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذِّبه قلبه، إذ يُرى صورة المعلوم على خلاف ما هي عليه كما تكذِّبه عينه، فيقال كَذَّبَهُ قلبه وكَذَّبَهُ ظَنُّهُ وكَذَّبَتْهُ عَيْنُهُ، فنفي ذلك سبحانه وتعالى عن رسول الله ﷺ، وأخبر أن ما رآه الفؤاد كما رآه، كمن يرى الشيء على حقيقة ما هو به، فإنه يصح أن يقال لم تكذِّبه عَيْنُهُ. الثاني: أن يكون الضمير في «رأى» عائداً إلى الرائي لا إلى الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، وهذا بحمد الله لا إشكال فيه، والمعنى: ما كذب الفؤاد بل صدَّقه، وعلى القراءةين فالمعنى: ما أَوْهمه الفؤاد أنه رأى ولم يَرِ وَلَا تَهُم بَصَرُهُ. انتهى.

اللباب تبعاً للإمام الرازي: «ويجوز أن يكون فاعل «رأى» ضميراً يعود على الفؤاد [أي] لم يشك قلبه فيما رأى بعينه». قال الزمخشري: [ما كَذَّبَ فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، أي ما قال فؤاده، لما رآه: لم أعرفه ولو قال ذلك لكان كاذباً، لأنه عرفه، يعني أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ولم يشك في أن ما رآه حق].

فما كَذَّبَ الفؤاد، هذا على قراءة التخفيف، يقال كَذَّبَهُ إذا قال له الكذب، وأما على قراءة التشديد فمعناه: ما قال إن الذي رآه كان خفياً لا حقيقة له. وأما الرائي فقليل هو الفؤاد كأنه تعالى قال: ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد، أي لم يقل إنه جنٌّ أو شيطان، بل تيقن أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح. وقيل الرائي هو البَصَرُ أي ما كذب الفؤاد ما رآه البَصَر، ولم يتدارك أن ما رآه البصر خيال. ويُحتمل أن تكون «أل» للجنس أي جنس الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رأى محمد ﷺ، أي شهدت القلوب بصحة ما رآه محمد ﷺ.

واختلفوا في المرئي ما هو؟ فقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه صلواته ملأ ما بين السماء والأرض. رواه القرطبي والترمذي وصححه. وقيل رأى الآيات العجيبة. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: رأى ربه بفؤاده مؤتئين، رواه مسلم وغيره. وسيأتي الكلام على رؤية الله تعالى في الباب الثالث.

السادس عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَفَسَمَأُوهُ عَلَى مَا يَرَى﴾.

[النجم: ١٢].

ابن القيم: «أنكر عليهم سبحانه وتعالى مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه مما يُنكر على الجاهل مكابرتة لعالم، ومماراته له على ما عَلِمَهُ».

اللباب: «قرأ الأخوان: «أَفْتَضَرُونَهُ» بفتح التاء وسكون الميم، والباقون «تعارونه»، وعبد الله بن مسعود والشعبي: «أَفْتَضَرُونَهُ» بضم التاء وسكون الميم. فأما الأولى ففيها وجهان: أحدهما: أنه من مَرِيئَةٍ حَقُّهُ إِذَا غَلَبَتْهُ عَلَيْهِ وَجَحَدَتْهُ إِياه، وَغَدَّيَ بَعَلَى لَتَضَعْنَهُ معنى الغلبة، وأنشدوا:

لَيْسَ هَجَزْتُ أَخَا صِدْقِي وَمَكْرَمَةٍ لَقَدْ مَرِيئْتُ أَخَا مَا كَانَ يَمْرِيكَ

لأنه إذا جحد حقه فقد غلبه عليه. قال المبرد: يُقَالُ مَرَأَهُ عَنْ حَقِّهِ وَعَلَى حَقِّهِ إِذَا مَنَعَهُ مِنْهُ وَدَفَعَهُ عَنْهُ. قال ومثل «على» بمعنى «عن» قَوْلُ بَنِي كَعْبِ بْنِ رَبِيعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ أَيِ رَضِيَ عَنْكَ».

ابن القيم: «على بابها ليست بمعنى «عن» كما قاله المبرد، بل الفعل مُتَضَمِّنٌ معنى المكابرة، وهذا في قراءة الألف أظهر.

الثاني: أنه من مراه كذا على كذا أي غلبه فهو من المراء وهو الجِدال. وأما الثانية: فهي من ماراه يماريه، جادله واشتقاقه من مَرَى الناقة، لأن كل واحد من المتجادلين يَمْرِي ما عند صاحبه. وكان من حقه أن يَتَعَدَّى بفِي كقولك: جادله في كذا. وإنما ضُمِّن الغلبة فَعَدَّى تعديتها. وأما قراءة عبد الله فمن «ماراه» رابعياً، والمعنى: «أفتجادلونه»، أي كيف تجادلونه على ما يرى مع أنه رأى ما رأى عَيْن اليقين؟ ولا شك بعد الرؤية. .

القرطبي: «والمعنيان متداخلان لأن مجادلتهن جحود، وقيل: إن الجحود كان دائماً منهم وهذا جدال جديد».

ابن القيم: «القوم جمعوا بين الجدال والدفع في الإنكار، فكان جدالهم جدال جحود ودفع لا جدال استرشاد وتبيين للحق. وإثبات الألف يدل على المجادلة، والإتيان بعلي يدل على المكابرة، فكانت قراءة الألف مُتَضَمِّنَةً لِلْمَعْنَيْنِ جميعاً، وذلك أنهم جادلوا حين أُشِرِّي به، فقالوا صف لنا بيت المقدس، وأخبرونا عن غيرنا في الطريق، وغير ذلك مما جادلوه به. والمعنى: أفتجادلونه جداولاً ترمون به دفعه عما رآه وعلمه وتيقنه؟ فإن قيل: هلا قيل: أفتمارونه على ما رأى؟ بصيغة الماضي، لأنهم إنما جادلوه حين أُشِرِّي به كما تقدم، وما الحكمة في إبرازه بصيغة المضارع؟ فالجواب أن التقدير: أفتمارونه على ما يرى؟ فكيف وهو قد رآه في المساء، فماذا تقولون فيه؟».

السابع عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾. [النجم: ١٣].

ابن القيم: «أخبر تعالى عن رؤيته لجبريل مرة أخرى. فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى».

ابن كثير: «هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء... وتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء ويستشهد بهذه الآية، وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة والتابعين». قلت وسيأتي تحقيق ذلك في بابه.

الباب: «الواو في «ولقد» يُحْتَمَلُ أَنْ تكون عاطفة، ويُحْتَمَلُ أَنْ تكون للحال، أي كيف تجادلونه فيما رآه، وهو قد رآه على وجه لا شك فيه؟ والنزلة فَعَلَّة من النزول كجلسة من الجلوس، وفي نصيبها ثلاثة أوجه: أحدها: أنها منصوبة على الظرف الذي هو مرة، لأن الفَعَلَّة إسم للمرة من الفعل، فكانت في حكمها. قال الشهاب الحلبي: وهذا ليس مذهب البصريين، وإنما هو مذهب القراء، نقله عنه مكي. الثاني: أنها منصوبة نصب المصدر الواقع موقع الحال، أي رآه نازلاً نَزَلَةً أخرى، وإليه ذهب الحوفي وابن عطية الثالث: أنها منصوبة على المصدر المؤكد، فقد رآه أبو البقاء مرة أخرى أو رؤية أخرى. قال الشهاب الحلبي: وفي تأويل نزلة برؤية، نَظَر، وأخرى تدل على سبق رؤية قبلها، وعند سدرة المنتهى ظرف مكان لرأى».

الثامن عشر: في الكلام على السدرة وإضافتها إلى المنتهى.

قال الإمام الرازي: «يُحْتَمَلُ وجوهاً: أحدها: إضافة الشيء إلى مكانه كقولك: أشجار بلدة كذا، فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه مَلَكٌ أو روح من الأرواح. قال كعب الأحبار: هي في أصل العرش على رؤوس حَمَلَةِ العرش، وإليها ينقضى علم الخلائق وما خلفها بحيث لا يعلمه إلا الله تعالى. ثانيها: إضافة المَحَلِّ إلى الحال فيه، كقولك: كتاب الفقه، وعلى هذا فالتقدير: سدرة عندها منتهى العلوم. ثالثها: إضافة المِلْك إلى مالكة كقولك: دار زيد أو شجرة زيد، وحينئذ المنتهى إليه محذوف تقديره: سدرة المنتهى إليه. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٣]. فالمنتهى إليه هو الله تعالى، وإضافة السدرة إليه حينئذ كإضافة البنية للتحريف والتعظيم، كما يقال في التسبيح: يا غاية رُغْبَاهُ ويا منتهى أَمَلَاهُ».

القرطبي: «اختلف لم شُكِّيت سدرة المنتهى على أقوال تسعة: الأول لأنه ينتهي إليها ما هبط من فوقها فيقبض منها وإليها ينتهي ما يخرج من الأرض، رواه مسلم عن عبد الله بن سعود. الثاني: علم الأنبياء ينتهي إليها ويغزب عما وراءها، قاله ابن عباس. الثالث: أن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها، قاله الضحاك. الرابع: لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها

ووقوفهم عندها. الخامس: لأن أرواح الشهداء تنتهي إليها، قاله الربيع بن أنس. السادس: لأنه تأوي إليها أرواح المؤمنين، قاله قتادة. السابع: لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة محمد ﷺ ومنهاجه، قاله علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، والربيع بن أنس أيضاً. الثامن: [هي شجرة على رؤوس حَمَلَة العرش] إليها ينتهي علم الخلائق. التاسع: لأن من رُفِع إليها فقد انتهى في الكرامة.

الماوردي: «فإن قيل: لم اختيرت السُدرة دون غيرها؟ قيل لأن السُدرة تختص بثلاثة أوصاف: ظلٌ مديد، وطعمٌ لذيذ، ورائحةٌ ذكية، فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً ونيةً وعملاً، فظُلُّها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النِّية لكرمونه أي استناره، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره».

الصحيح: «السُّدْر شجر النبق الواحدة سُدرة والجمع سُدَرَات أي بكسر فسكون وسُدَرَات بكسر تين، وسُدَرَات بكسر ففتح، وسُدْر بكسر ففتح»، وسيأتي في شرح القصّة الكلام على أصلها.

تنبيه: جاء في التُّهَي عن قطع السُّدْر أحاديث. فروى أبو داود والطبراني والبيهقي والضياء في صحيحه عن عبد الله بن حُبَيْشٍ بضم المهملة ثم مُوَحَّدَة ساكنة، ثم معجمة بعدها ياء ثقيلة، ابن جُنَادَة، بضم الجيم وبالنون والذال المهملة، السُّلُولِي، بفتح السين المهملة ولا مَين، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَطَعَ سُدْرَةَ صَوَّبَ اللهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ»، زاد الطبراني يعني من سُدْر الحَرَم. وقال أبو داود رحمه الله تعالى: يعني من قَطَعَ السُّدْرَ فِي فَلَاةٍ يَسْتَظِلُّ بِهَا ابْنُ السَّبِيلِ وَالْبَهَائِمُ عَيْبًا وَظُلْمًا بِغَيْرِ حَقٍّ يَكُونُ لَهُ فِيهَا. وروى البيهقي عن أبي ثور أنه سأل الشافعي عن قطع السُّدْر فقال: لا بأس به. وقد رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اغْسِلْهَا بِمَاءٍ وَسُدْرٍ»، فيكون محمولاً على ما حمّله عليه أبو داود. وقال البيهقي: وروينا عن عُزْوَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقْطَعُهُ وَهُوَ أَحَدُ رَوَاةِ النَّهْيِ، فَيُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ خَاصَبًا كَمَا قَالَ أَبُو دَاوُدَ.

وقال الخطّابي: سُئِلَ الْمُزْنِي^(١) عن هذا فقال: وجهه أن يكون النبي ﷺ سئل عَنْ هَجْمٍ عَلَى قِطْعِ سُدْرٍ لِقَوْمٍ أَوْ يَتِيمٍ أَوْ لِمَنْ حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُقْطَعَ عَلَيْهِ، فَتَحَامِلُ عَلَيْهِ فَقَطَعَهُ فَاسْتَحَقَّ مَا قَالَ، فَتَكُونُ الْمَسْأَلَةُ سَبَقَتْ لِسَامِعٍ فَسَمِعَ الْجَوَابَ وَلَمْ يَسْمَعْ الْمَسْأَلَةَ وَجُعِلَ نَظِيرُهُ

(١) إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق أبو إبراهيم، المزني، المصري، الفقيه الإمام صاحب التصانيف. أخذ عن الشافعي وكان يقول: أنا خلق من أخلاق الشافعي، كان زاهداً، عالماً، مجتهداً، مناظراً، محتاجاً، غواصاً على المعاني الدقيقة، صنف كتباً كثيرة؛ قال الشافعي: المزني ناصر مذهبي. ولد سنة خمس وسبعين ومائة وتوفي في رمضان، وقيل: في ربيع الأول سنة أربع وستين ومائتين، وكان مجاب الدعوة. انظر طبقات ابن قاضي شهبة ٥٨/١.

حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الربا في النسيئة»، فسمع الجواب ولم يسمع المسألة وقد قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل يداً بيد». واحتج المزني بما احتج به الشافعي من إجازة النبي ﷺ أن يُغسل الميت بالسدر، ولو كان حراماً لم يُجز الانتفاع به. وقال: والورق من السدر كالغصن. قال: وقد سَوَّى رسول الله ﷺ، فيما حَرَّمَ قَطْعَهُ من شجر الحرم بين ورقه وغيره، فلما لم يَمْنَع من ورق السدر، ذُلَّ على جواز قطع السدر.

قال الشيخ رحمه الله تعالى في فتاويه: «والأولى عندي في تأويل الحديث أنه محمول على سدر الحرم، كما وقع في رواية الطبراني. قال ابن الأثير في النهاية: «قيل أراد به سدر مكة لأنها حرم وقيل سدر المدينة، نهى عن قطعه ليكون أنساً وظلاً لمن يهاجر إليها، وقيل أراد السدر الذي يكون في الفلاة يستظل به أبناء السبيل والحيوان أو في ملك إنسان، فيتحامل عليه ظالم فيقطعه بغير حق، ومع هذا فالحديث مضطرب الرواية فإن أكثر ما يُروى عن عروة بن الزبير، وكان هو يقطع السدر ويتخذ منه أبواباً. قال هشام: وهذه أبواب من سدر قَطَعَهُ أَبِي، وأهل العلم مُجمعون على إباحة قطعه».

وروى أبو داود عن حُشَّان بن إبراهيم قال: «سألت هشام بن عروة عن قطع السدر، وهو مُشند ظُهره إلى قصر عروة، قال: ترى هذه الأبواب والمصاريح إنما هي من سدر قطعه أبي من أرضه».

التاسع عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿عندها جنة المأوى﴾ [النجم: ١٥] قال القرطبي: هذا تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سدرة المنتهى، وهي عن يمين العرش، وقيل أوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أُخرج منها. وقيل: إن أرواح المؤمنين كلهم في جنة المأوى، وهي تحت العرش فيتنعمون [بتنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها]. وقيل: لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها.

اللباب: جملة ابتدائية في موضع الحال، والأحسن أن يكون الحال الظرف، وجنة المأوى فاعل به. والعامّة أن جنة إسم مرفوع وقرأ أمير المؤمنين علي، وأبو الدرداء^(١)، وأبو هريرة، وابن الزبير، وأنس من الصحابة رضي الله تعالى عنهم وزرّ بن حُبَيْش، ومحمد بن كعب من التابعين: جنة فغلاً ماضياً، والهاء ضمير المفعول يعود للنبي ﷺ، والمأوى فاعل

(١) عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، أبو الدرداء، مختلف في اسم أبيه وإنما هو مشهور بكنيته، وقيل: اسمه عامر، وعويمر لقب، صحابي جليل، أول مشاهده أحد، وكان عابداً، مات في آخر خلافة عثمان، وقيل: عاش بعد ذلك. التقريب ٩١/٢.

بمعنى سَتَرَهُ إِيَّاهُ الله إياه. ويقال ضَمَّهُ البيت والليل، وقيل جَنَّهُ بظلاله ودخل فيه.

قال الإمام الرازي: «ويحتمل أن يكون الضمير في «عندها» على هذه القراءة عائداً إلى النُّزْلَةِ، أي عند النُّزْلَةِ جَنَّ محمداً المأوى، أي سَتَرَهُ، والصحيح أنه عائد إلى، السُّدْرَةِ.

اللباب: «وهذا قول الجمهور، وقد أنكرت عائشة رضي الله تعالى عنها هذه القراءة، وتبعها جماعة وقالوا: «أَجَنَّ الله من قرأها». فإذا ثبتت قراءة عن مثل هؤلاء فلا سبيل إلى ردها. ولكن المستعمل إنما هو «أَجَنَّهُ» رباعياً، فإن استعمل ثلاثياً تَعَدَّى «بعلی»، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]. وقال أبو البقاء: هو شاذٌ والمستعمل: أَجَنَّهُ.

العشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦].

ابن القيم: «لما ذكر سبحانه رؤية محمد ﷺ لجبريل عليه السلام عند سدره المنتهى، استطرد منها وذكر أن جَنَّهُ المأوى عندها وأنه يغشاها من أمره وخلفه ما يغشى، وهذا من أحسن الاستطراد، وهو أسلوب لطيف جداً في القرآن».

اللباب: «إذ» منصوب يراه.

الإمام: «العامل في «إذ» ما قبلها أو ما بعدها، فيه وجهان. فإن قلنا ما قبلها ففيه احتمالان: أظهرهما رآه أي رأى وقت ما يَغْشَى السُّدْرَةَ الذي يَغْشَى. والاحتمال الثاني العامل فيه الفعل الذي في النزلة أي رآه نزلة أخرى، تلك النزلة وقت ما يغشى السدره ما يَغْشَى، أي نزوله لم يكن إلا بعد ما ظهرت العجائب عند السُّدْرَةِ وَعْشِيَهَا ما غَشِيَهَا، فحينئذ نزل محمد نَزْلَةً، إشارة أنه لم يرجع من غير فائدة. وإن قلنا العامل فيه ما بعدها فالعامل: ما زاغ البصر، أي ما زاغ بَصْرُهُ وقت غشيان السدره ما غشيها.

واختلفوا فيما يغشى السدره ففيل فَرَّاشٌ أو جراثٍ من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضُّحَّاك. قال القرطبي: ورواه ابن مسعود وابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «رَأَيْتُ السُّدْرَةَ يَغْشَاهَا فَرَّاشٌ من ذهب ورأيتُ على كل ورقة ملكاً يُسَبِّحُ الله تعالى».

قلتُ وقول الإمام: «إن هذا ضعيف، لأن ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعي، فإن صَحَّ فيه خَبَرٌ وإلا فلا وجه له قصور شديد، فإن الحديث في صحيح مسلم وغيره. ومثله لا يقال بالرأي. وقيل: ملائكة يَغْشَوْنَهَا كأنهم طيور يرتقون إليها مُتَشَوِّقِينَ مُتَبَرِّكِينَ بها زائرِينَ كما يزور الناس الكعبة، وقيل يغشاها أنوار الله تعالى لأن النبي ﷺ لما وصل إلى السُّدْرَةِ تجلَّى لها ربه تبارك وتعالى كما تجلَّى للجبل، فظهرت الأنوار، ولكن السُّدْرَةُ كانت أقوى من الجبل وأثبت، فجعل الجبلُ دَكًّا، ولم تحرك الشجرة وخَرَّ موسى صعباً، ولم يتزلزل محمد ﷺ».

قلت: ولا منافاة بين هذه الأقوال، فقد ورد أن كلاً منها يغشاها كما سيأتي ذلك في القصة. وقيل أبهمه تعظيماً له كأنه قال: إذ يَغْشَى السدرة ما الله أعلم به من دلائل ملكوته وعجائب قدرته.

الإمام: «يغشى يستر، ومنه الغواشي أو من معنى الإتيان، يقال فلان يَغْشَانَا كل وقت أي يأتينا، الوجهان محتملان».

الحادي والعشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾:

الصباح: «الزُّيغ المِيل، وقد زَاغ يَزِيغ وزاغ الْبَصَرُ أي مال».

ابن القيم: «قال ابن عباس: «ما زَاغَ الْبَصَرُ يميناً ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به». وعلى هذا المُفسِّرون، فنَفَى تعالى عن نبيِّه ﷺ ما يَغْرِضُ للرأي الذي لا أدب له بين أيدي الملوك والعظماء من التفاته يميناً وشمالاً لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحاضرة، إذ لم يلتفت جانباً، ولم يُدِّدْ بَصَرَهُ إلى غير ما أَرَى من الآيات وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطرافه وإقباله على ما أريد له دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يَرَهُ، مع ما في ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمأنينته. وهذا غاية الكمال. فزَيَّغَ الْبَصَرُ التفاته جانباً، وطغيائه مدُّه أمامه إلى حيث ينتهي. فَنَزَّهَ في هذه السورة عَمَلَهُ عن الضلال وقصده عن الغي ونُطِقَهُ عن الهوى وفؤاده عن تكذيب بَصَرِهِ، وبصره عن الزيغ والطغيان. وهكذا يكون المدح:

يَلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قُعْبَانٍ مِنْ لَبَنٍ شَيْبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاً

اللباب تبعاً للإمام الرازي: «اللام في الْبَصَرِ تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أحدهما: المعروف وهو بَصَرُ محمد ﷺ، أي ما زَاغَ بَصَرُ محمد، وعلى هذا فعدم الزُّيغ لوجوه: إن قلنا الغاشي للسدرة هو الجراد أو القَرَّاش، فمعناه لم يلتفت محمد إليه ولم يَشْتَغِلْ به، ولم يقطع نظره عن مقصوده. وعلى هذا فَعَشِيَّانِ الجراد والقَرَّاش يكون ابتلاء وامتحاناً للنبي ﷺ. وإن قلنا أنوار الله تعالى فيه وجهان: أحدهما: لم يلتفت يُمَنَّةً ويُسْرَةً، بل اشتغل بمطالعتها، وثانيهما: ما زَاغَ البصر بضعفه، ففي الأول بيان أدب محمد ﷺ، وفي الثاني بيان قوته. الوجه الثاني في اللام: أنها لتعريف الجنس، أي ما زَاغَ بَصَرُهُ أصلاً في ذلك الموضع لِعَظَمِ الهيبة. فإن قيل: لو كان كذلك لقال: ما زَاغَ بَصَرِي، فإنه أدل على العموم لأن التَّكْرَةَ في مَغْرِضِ الثُّبُتِ تَعْمٌ. فالجواب هو كقوله تعالى: ﴿لَا تُذْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولم يُقَلْ لم يدركه بَصَرٌ.

الثاني والعشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا طَغَى﴾: [النجم: ١٧].

اللباب تبعاً للإمام الرازي: «فيه وجهان: أحدهما أنه عطف جملة مستقلة على جملة

أخرى. الثاني: أنه عطف جملة تقديره مُقَدَّرَةٌ على جملة. فمثال المستقلة: خرج زيد ودخل عمرو، ومثال المُقَدَّرَة: خرج زيد ودخل، الوجهان جائزان هنا. أما الأول فكأنه تعالى قال عند ظهور النور: ما زاغ بَصَرُ مُحَمَّدٍ وما طغى محمد بسبب الالتفات، ولو التفت لكان طاغياً. وأما الثاني فظاهر. فإن قيل بأن الغاشي للسُدْرَة جراد، فالمعنى لم يلتفت إليه وما طغى، أي ما التفت إلى غير الله تعالى، ولم يلتفت إلى الجراد ولا إلى غير الجراد، بل إلى الله سبحانه وتعالى. أما على قول من قال غَشِيَهَا نور، فقوله تعالى: «ما زاغ» أي ما مال عن الأنوار. وما طغى، أي ما طلب شيئاً وراءه. وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ما زاغ وما طغى ولم يَقُلْ ما مال وما جاوز، لأن الميل في ذلك الموضع والتجاوز مذمومان، فاستعمل الزَّيْغ والطغيان فيه. وفيه وجه آخر، وهو أن يكون ذلك بياناً لوصول النبي ﷺ إلى شدة اليقين الذي لا يقين فوقه، ووجه ذلك أن بصره ﷺ ما زاغ أي ما مال عن الطريق، فلم يَزِ الشيء على خلاف ما هو عليه بخلاف من ينظر إلى عين الشمس مثلاً، ثم ينظر إلى شيء أبيض فإنه يراه أصفر وأخضر، يزيغ بَصَرُهُ عن جادة الإبصار. وقوله: «وما طغى» أي ما تَحَيَّلَ المعدوم موجوداً، وقيل: «وما طغى» أي ما تَحَيَّلَ المعدوم موجوداً وقيل: «وما طغى» أي ما جاوز ما أمر به.

الثالث والعشرون: في الكلام على قوله تعالى: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»

[النجم: ١٨].

اللباب: «في الكبرى وجهان؛ أظهرهما أنه مفعول رأى من آيات ربه حال مُقَدَّمِهِ، والتقدير: لقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه. والثاني أن «من آيات ربه» هو مفعول الرؤية، والكبرى صفة لآيات ربه. وهذا الجمع يجوز وصفه بوصف المؤنثة الواحدة، وحسنه هنا كونها فاصلة».

الإمام الرازي: «في الكبرى وجهان: أحدهما: أنهما صفة لمحذوف تقديره لقد رأى من آيات ربه. ثانيهما: صفة لآيات ربه، فيكون مفعول رأى محذوفاً تقديره: رأى من آيات ربه الكبرى آيةً أو شيئاً».

القرطبي: «ويجوز أن تكون «من» زائدة، أي رأى آيات ربه الكبرى. وقال بعضهم: آيات ربه الكبرى هي أنه رأى جبريل عليه السلام في صورته».

قال الإمام: «والظاهر أن هذه الآيات غير تلك لأن جبريل وإن كان عظيماً لكن ورد في الأخبار أن لله ملائكة أعظم منه. والكبرى تأنيث الأكبر، فكأنه تعالى قال: رأى من آيات ربه آيات هي أكبر الآيات. وروى الإمام أحمد والترمذي وصححه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «رأى جبريل في حُلَّةٍ من زَفَرٍ قد ملأ ما بين السماء والأرض».

قال الحافظ: «وبهذه الرواية يُعرف المراد بالرفرف وأنه حُلَّة، ويُؤيده قَوْلُهُ تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى زُفْرٍ خُضِرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]. وأصل الرفرف ما كان من الديباج رقيقاً حسن الصفة. ثم اشتهر استعماله في الستر، وكل ما فضل من شيء وعُطِفَ وثُني فهو رُفرف». القرطبي: «هو ما رأى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه وهذا أحسن».

قال الإمام: «وهذه الآية تدل على أن النبي ﷺ لم ير الله تعالى ليلة المعراج وإنما رأى آيات الله تعالى وفيه خلاف، ووجه الدلالة أنه تعالى ختم قصة المعراج ها هنا برؤية الآيات وقال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] إلى أن قال: ﴿لَرُؤْيَا مِنْ آيَاتِنَا﴾ ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن، فكانت الآية للرؤية، وكان أكبر شيء هو الرؤية».

ابن كثير: «وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل الشُّنَّة إلى أن الرؤية تلك الليلة لم تقع لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس».

خاتمة: اشتملت هذه الآيات على قَسَمِهِ تعالى على هداية نبيه محمد ﷺ، وتنزيهه عن الهوى وصدقه فيما تلا، وأنه وَحْيٌ يُوحَى، يُوصَلُهُ إليه جبريل الشديد القوي عن الله تبارك وتعالى العَلِيِّ الأَعْلَى، واحتوت أيضاً على تزكية جملته ﷺ وعصمته من الارتياح في هذا المَسْرَى، ثم أخبر تعالى فيها عن فضيلته بقصة الإسراء وانتهائه إلى سِدْرَةِ المنتهى، وتصديق بصره فيما رُوي أنه رأى من آيات ربه الكبرى.

الباب الثالث

في اختلاف العلماء

في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج

اعلم أن الصواب الذي عليه أهل الحق [أن] رؤية الله سبحانه وتعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضاً على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يَرَوْنَ الله تعالى. وزعمت طوائف من أهل البدع أن الله تعالى لا يراه أحدٌ من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً. وهذا الذي قالوه خطأً صريحاً وجهل قبيحاً.

وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة للمؤمنين. ورواها أحد وعشرون صحابياً عن النبي ﷺ، وآيات القرآن العظيم فيها مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها، لها أجوبة مذكورة في كتب المتكلمين من أهل السنة.

وأما رؤية الله تعالى في الدنيا فممكنة عقلاً وسمعاً، ومذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى في خلقه، ولا يُشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك. ولكن جرت العادة في رؤية بعضنا بعضاً بوجود ذلك على جهة الاتفاق لا على سبيل الاشتراط.

وقد قرّر أئمتنا المتكلمون ذلك بالدلائل الجليّة، ولا يلزم من رؤية الله تعالى إثبات جهة الله - تعالى عن ذلك - بل يراه المؤمنون لا في جهة، كما يعلمون أنه لا في جهة. وبيان الدليل العقلي على جوازها بطريق الاختصار أن البارئ سبحانه وتعالى موجود، وكل موجود يصيحه أن يُرى، فالبارئ عزّ وجلّ يصيحه أن يُرى. أما الصغرى فظاهرة، وأما الكبرى، فلأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً. وقد تبيّن أن الموجود هو العلة لصحة الرؤية، ولا يلزم من جوازها وقوعها وعدم تعلّقها، إنما هو لجزوي عاداته تعالى بقدّم خلقها فينا الآن، مع جواز خلقها فينا، إذ هي غير مستحيلة وهنا أبحاث محلّها الكتب الكلامية.

وبيان الدليل الشرعي على جوازها في الدنيا أن موسى بن عمران، رسول الله وكليمه، العارف به سأل الله سبحانه وتعالى الرؤية، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] مع اعتقاده أنه تعالى يُرى، فسألها. وفي هذه الآية دليلان. الأول: مُحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله تعالى وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزاً غير مُحال، لاستحالة سؤال المُحال من الأنبياء، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومن

في اختلاف العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج

أعلمه إياه وأطلع عليه، فقال له تعالى غَيْرُ نَافٍ لِلْجَوَازِ: «لن تراني»، دون لن أَرَى المؤذنة بنفيه أي لن تُطيق ولا تُحتمل رؤيتي الآن لِتَوْقُفِهَا عَلَى مُعَدِّ لَهَا فِي الرَّائِي لَمْ يَجِدْ فِيكَ بَعْدَ. وَمِثْلُ لَه مِثَالاً بَمَا هُوَ أَقْوَى مِنْ نَبِيِّهِ مُوسَى ﷺ وَأَثْبَتَ، وَهُوَ الْجَبَلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وهذا هو الدليل الثالث: وبيانه أنه تعالى غلّق رؤية موسى إياه تعالى باستقرار جبل المناجاة في مكانه وقت التجلي له، والشيء المُعلّق بالممكن ممكن، إذ معنى التعليق الإخبار بثبوت المُعلّق عند ثبوت المُعلّق به. وعلى هذا فالشرطية خبرية إذا كان الجزء في الأصل خبرياً كما هنا. فثبت إمكان الرؤية ضرورة أن الله تعالى أخبر بوقوعها على بعض التقادير، والمُحال لا يقع على شيء من التقادير أصلاً، وإذا ثبت الإمكان انتفى الامتناع وبالعكس وهنا أبحاث محلها الكتب الكلامية. وقول موسى ﷺ: «ثَبْتُ إِلَيْكَ»، أي من الإقدام على سؤالي إياه في الدنيا ما لم تُقَدِّرْهُ لِي. وقيل: إن قوله ﴿ثَبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] إنما كان لما عَشِيَهُ مِنْ شِدَّةٍ مَا أَفْضَى بِهِ إِلَى أَنْ صَبَقَ، كَمَا تَقُولُ مِنْ فَعَلٍ جَائِزٍ غَرَكَ مِنْهُ مَشَقَّةٌ: ثَبْتُ عَنْ فَعَلٍ مِثْلِهِ.

وقال القاضي أبو بكر الهذلي، في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي ليس لبشر أن يُطَبَّقَ النَّظَرُ إِلَيَّ فِي الدُّنْيَا وَأَنْ مِنْ نَظَرٍ إِلَيَّ فِي الدُّنْيَا مَاتَ، أي في الحال، بشهادة صَبَقَ مُوسَى إِذْ رَأَى الْجَبَلَ وقال القاضي: «وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين أن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة، لا من حيث ذاتها، لثبوت جوازها فيها بما مرّ، وإنما امتنعت فيها لضعف تراكيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها مُتَغَيِّرَةً عُزْضَةً لِلْأَفَاتِ مِنْ نَوَائِبٍ مَقْلُقَةٍ وَنَوَاقِبٍ لِلْأَكْبَادِ مَعْلُوقَةٍ تَنْدُرُ بِالمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، فلم تكن لهم قوة على الرؤية في الدنيا. فإذا كان في الآخرة وَرُكِبُوا تَرْكِيباً آخَرَ وَرُزِقُوا قُوَّةً ثَابِتَةً بَاقِيَةً وَأُتِمَّتْ أُنْوَارُ أَبْصَارِهِمْ وَقُلُوبُهُمْ حَصَلَ بِذلِكَ قُوَّةٌ عَلَى الرُّؤْيَا فِي الْآخِرَةِ».

وقد رأيت نحو هذا للإمام مالك بن أنس رحمه الله قال: «لم يُرَ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُ بَاقٍ وَلَا يُرَى الْبَاقِي بِالْفَانِي. فإذا كان في الآخرة وَرُزِقُوا أَبْصَاراً بَاقِيَةً رُئِيَ الْبَاقِي بِالْبَاقِي» وهذا الذي قاله الإمام مالك كلام حسن مليح، وليس فيه دلالة على الاستحالة إلا من حيث ضعف القُدْرَةِ، فإذا قُوَّى اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ أَقْدَرَهُ عَلَى حَمْلِ أَعْيَافِ الرُّؤْيَا فِي حَقِّهِ فِي أَيِّ وَقْتٍ كَانَ.

قال الحافظ: «ووقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه: «واعلموا أنكم لن تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا». وأخرجه ابن خزيمة - بخاء معجمة مضمومة فزاي مفتوحة - من حديث أبي أمامة، ومن حديث غُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ. فإذا جازت الرؤية في الدنيا

عقلاً، فقد امتنعت سمعاً. لكن من أثبتتها للنبي ﷺ له أن يقول إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه».

قال القاضي: «ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لَا تُذَكِّرُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لاختلاف التأويلات في الآية، فقد قيل: المراد بالإدراك الإحاطة، فلا نفى فيها لمطلق الرؤية، وقيل: لا تذكره أبصار الكفار، وقيل غير ذلك: والجواب الصحيح أنه لا دلالة في هذا النفي على عموم الأوقات ولا حال من الأحوال لأنه شَكُوت عنه. فمن أين أن المراد لا تذكره الأبصار في وقت من الأوقات ولا حال من الأحوال؟ بل يَتَعَيَّن الحمل على النفي بالنسبة إلى دار الدنيا جمعاً بين الأدلة السمعية».

وقال أبو العباس القرطبي في المفهم: «الأبصار» جمع مُخْلِى بالألف واللام، فيقبل التخصيص، وقد ثبت ذلك سمعاً في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ إِنْهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] فيكون المراد الكفار، بدليل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] قال: فإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا لتساوي الوقتين بالنسبة إلى الراي انتهى.

قال الحافظ: «وهو استدلال جيد».

وقد يُشْتَدَّل بهذه الآية على جواز إمكان الرؤية، إذ لو امتنعت الرؤية لما حصل التَّمَدُّح في الآية بنفي الرؤية، ووجه الملازمة أن الممتنع مُتَنَفٍّ في حد ذاته، فلا يكون نفْيُه صفة مدح، لأنه ضروري كالمعدوم الممتنع الرؤية، لا يُتَدَح بعدم رؤيته، إذ لا يكون: «المعدوم لا يُرى» تمدحاً، لامتناع رؤية المعدوم. وقد ثبت التمدح بنفي عدم رؤيته تعالى فتكون رؤيته ممكنة، والحاصل أن التمدح بنفي عدم الرؤية إنما يكون في إمكان رؤيته تعالى لكنه لا يُرى للامتناع وتعذر الإبصار والتعجب بحجاب الكبرياء والجلال لا في أنه لا يُرى لامتناع رؤيته تعالى. لكن الصفات السلبية على هذا، صفات تَمَدُّح، وإن جعلنا الإدراك في الآية عبارة عن الرؤية على وجه الإحاطة بجوانب المرئي وحدوده. فدلالة الآية حينئذ على جواز الرؤية بل على تحققها بالوقوع، أظهر من دلالتها على الجواز بما دُكر من التَّمَدُّح. إذ المعنى علي هذا لا تذكره الأبصار، إذ نظرت إليه على وجه الإحاطة، لأنه تبارك وتعالى، مع كونه مرئياً بالأبصار لا تذكره الأبصار على وجه الإحاطة، لتعالیه قطعاً عن التناهي وعن الاتصاف بالحدود التي هي النهايات والجوانب على ما تَبَيَّن في كتب الكلام.

والإحاطة بما لا يتناهى مُحال. ولهذا مزيد بيان يأتي في الكلام على حديث عائشة رضي الله عنها. ومع القول بجوازها في الدنيا، لم يحصل لبشر غير نبينا ﷺ، على ما في

ذلك من الخلاف، ومن ادّعاها غيره فهو ضالّ. كما جزم بكفره الإمام موفق الدين الكواشي^(١) - بالفتح والتخفيف وبالمعجمة - والإمام المهدوي^(٢) في تفسيريهما، والإمام جمال الدين الأزدبيلي^(٣) - بالفتح وسكون الراء وضم الدال المهملة وكسر الموحدة وسكون التحتيّة - في كتاب «الأنوار»، إذ قد سألها نبي الله ورسوله وكنيته موسى بن عمران، ولم تحصل له، أفحصل لآحاد الناس؟ هذا مما يُتوقّف فيه.

فصل: وإذا علّم ما تقرر ففي رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج مذهبان: فنفتها عائشة وهو المشهور عن ابن مسعود، وجاء مثله عن أبي هريرة، وإليه ذهب كثيرون من المُحدّثين والمتكلمين. وبالحافظ عثمان عن سعيد الدارمي، فنقل فيه الإجماع، والثاني أنه رآه. وروى عبد الرزاق عن مَعْمَر عن الحسن أنه كان يحلف بالله أن محمداً ﷺ رأى ربه. وروى ابن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها، وكان يشتد عليه إنكار عائشة لها. وبه قال سائر أصحاب ابن عباس، وبه جزم كعب الأحبار والزهري ومعمّر وآخرون. وبه قال الشيخ أبو الحسن الأشعري^(٤)، وغالب أتباعه. وجنح ابن خزيمة إلى ترجيحه بما يطول ذكره. ثم اختلفوا:

(١) أحمد بن يوسف بن الحسن بن رافع بن الحسين بن سويدان الشيباني الموصلّي، موفق الدين أبو العباس الكواشي: عالم بالتفسير، من فقهاء الشافعية. من أهل الموصل. كان يزوره الملك ومن دونه فلا يقوم لهم ولا يعاب بهم. من كتبه: «تبصرة المتدرك» في تفسير القرآن، و «كشف الحقائق» و «تلخيص في تفسير القرآن العزيز». توفي ٦٨٠هـ. الأعلام ٢٧٤/١.

(٢) أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي التميمي، أبو العباس: مقلد أندلسي أصله من المهدية بالقيروان. رحل إلى الأندلس في حدود سنة ٤٠٨هـ وصنف كتباً، منها «التفصيل الجامع لعلوم التنزيل» وهو تفسير كبير للآيات، يذكر القراءات والإعراب، واختصره وسماه «التحصيل في مختصر التفصيل» توفي نحو ٤٤٠هـ. الأعلام ١٨٤/١.

(٣) محمد بن عبد الغني الأزدبيلي، جمال الدين: نحوي. له «شرح النموذج الزمخشري» في النحو. توفي سنة ٦٤٧هـ. الأعلام ٢١١/٦.

(٤) علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى، الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري. إمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين، والذات عن الدين، والمصحيح لعقائد المسلمين. مولده سنة ستين ومائتين، وقيل: سنة سبعين. أخذ علم الكلام أولاً عن أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة، ثم فارقه، ورجع عن الاعتزال، وأظهر ذلك، وشرع في الرد عليهم، والتصنيف على خلافهم. وقال أبو بكر الصيرفي: وهو من نظراء الشيخ أبي الحسن، كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجرهم في أقماع السمسم. قال الخطيب البغدادي: أبو الحسن الأشعري المتكلم، صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة، والجهمية والخوارج، وسائر أشتات المبتدعة. وهو بصري سكن بغداد إلى أن توفي. وقد جمع الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر له ترجمة حسنة، ورد على من تعرض له بالظن، وذكر فضائله، ومصنفاته، ومتابعته في كتبه المذكورة السنة، والتصاريح لها، وذبه عنها ومن أخذ عنه من العلماء الأعلام، سناه «تبيين الكذب المفترى» فيما نسب إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري، وهو كتاب مفيد مطبوع ومتداول بين أهل العلم توفي في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

انظر الطبقات لابن قاضي شهبة ١١٣/١، ١١٤، وتاريخ بغداد ٣٤٦/١١ ووفيات الأعيان ٤٤٦/٢ والبدية والنهاية ١٨٧/١ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٤٥/٢ وتبيين كذب المفتري ص ١٢٨ وشنرات الذهب ٣٠٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٥٩/٣ والجواهر المضئية ٣٥٣/١.

هل رآه بعينه أو بقلبه؟ والقولان زوياً عن الإمام أحمد. وقال الإمام النووي: الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج، وبسط الكلام على ذلك واستدل بأشياء نوزع في بعضها كما سيأتي بيانه في ذكر أدلة المذهب الأول.

وذهب جماعة إلى الوقف في هذه المسألة ولم يجزموا بنفي ولا إثبات لتعارض الأدلة، ورجح ذلك الإمام أبو العباس القرطبي في التمهيد، وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع. وغالب ما استدلت به الطائفتان ظواهر متعارضة قابلة للتأويل. قال: وليست المسألة من التعظيمات فيكتفى فيها بالدلالة الظنية، فإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي.

وقال السبكي رحمه الله في السيف المسلول: «ليس من شرطه أن يكون قاطعاً متواتراً بل متى كان حديثاً صحيحاً ولو ظاهراً وهو من رواية الأحاد، جاز أن يفتقد عليه في ذلك لأن ذلك من مسائل الاعتقاد التي يشرط فيها القطع، على أننا لمكلفين بذلك». انتهى.

وقال القاضي في الشفاء وغيره: «لا مزية في الجواز، إذا ليس في الآيات: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ النَّظْرُ إِلَى الْجِبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] نص في المنع للرؤية، بل هي مشيرة للجواز كما تقرر ذلك. وأما وجوب وقوعها لنبينا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضاً ولا نص يُعَوَّل عليه، إذ المُعَوَّل عليه فيه على آيتي التَّجَمُّع: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] و﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]. والتنازع بين الأئمة فيهما مأثور، والاحتمال لهما من حيث دلالتهما على الرؤية وعدمها ممكن، لعدم صراحتهما بها، لا أثر قاطع متواتر عن رسول الله ﷺ بذلك. وحديث ابن عباس أنه رآه بعينه أو بفؤاده إنما نشأ عن اعتقاد لم يُشَيِّدْهُ إِلَى النبي ﷺ حتى يُغْتَبَرَ فيجب العمل باعتقاد مُضْمِنٍ من رؤيته ربه. ومثله حديث شريك عن أبي ذر في تفسير الآية بأن النبي ﷺ رأى ربه، وحديث مُعَاذٍ: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِّ صُورَةٍ»^(١)، مضطرب الأسناد والتمن. وحديث أبي ذر مُخْتَلِفٌ من حيث اللفظ مُخْتَمِلٌ لأن يكون رآه أو لم يره، مُشْكِلٌ من حيث يجعل ذاته نوراً، فزوي: «نور أنى أراه»^(٢). بفتح أوله وتشديد النون. أي نوراً لن أراه، أي ليجزوي العادة بأن النور إذا غشى البصر حجبته في رؤيته لما وراءه، وزوي: «نوراني؟ أي بكسر النون الثانية وتشديد التحتية».

(١) أخرجه السيوطي في اللآلئ ١٥/١ وأخرجه من طرق بنحوه الخطيب في التاريخ ١٥٢/٨ وابن سعد في الطبقات ٧/

٣٠٤ وابن الجوزي في العلل ١٦/١ وابن أبي عاصم في السنة ٢٠٤/١.

(٢) أخرجه مسلم (١٦١) والترمذي (٣٢٨٢) وأحمد في المسند ١٥٧/٥ وأبو نعيم في الحلية ٦١/٩ وسيأتي بتمامه في نص المصنف رحمه الله.

في اختلاف العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج

قال القاضي: «وهذه الراوية لم تقع لنا، ولا رأيها في أصل من الأصول، ومُحال أن تكون ذاته تعالى نوراً، إذ النور جسم يتعالى الله عزَّ وجلَّ عنه، ومن ثمَّ كانت تسميته نوراً بمعنى ذي النور أو خالقه. وفي الحديث الآخر: سألت رسول الله ﷺ هل رأيته ربك؟ فقال رسول الله ﷺ: «رأيتُ نوراً». وليس يمكن الاحتجاج بواحد منهما لإفصاحهما بأنه لم يره، فإن كان الصحيح «رأيتُ نوراً»، فقد أخبر رسول الله ﷺ بأنه لم يره الله تعالى، وإنما رأى نوراً منعه وحجبه عن رؤية الله تعالى. وإلى قوله: «رأيتُ نوراً» يرجع قوله: «نور أنى أراه»، أي كيف أراه مع كون حجاب النور المُعْشَى للبصر، وهذا الحديث مثل الحديث الآخر من حيث المعنى: حجاب النور، كما رواه مسلم وغيره. وقال أيضاً في الإكمال: وقف بعض مشايخنا في هذا. وقال: ليس هذا عليه دليل واضح، ولكنه جائز، ورؤية الله تعالى في الدنيا جائزة.

ذكر أدلة القول الأول

زاد الشيخان وعبد الرزاق وعبد بن حُمَيْد والترمذي وابن جرير وغيرهم عن مسروق، زاد عبد الرزاق ومن بعده عنه، قال: لقي ابن عباس كعباً بعرفة فسأله عن شيء فقال ابن عباس: إننا بنو هاشم نَزَعُهم، وفي لفظ نقول: إن محمداً ﷺ رأى ربه مَرَّتَيْنِ. فكَبَّرَ كعب حتى جاوبته الجبال. ثم قال: «إن الله قَسَمَ رؤيته وكلامه بين محمد وموسى عليهما السلام [فكَلَّمَ موسى مرتين] ورآه محمد ﷺ مرتين». ثم اتفقوا. قال مسروق: فدخلت على عائشة فقلت يا أمتها، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قَفَّ شغري بما قُلْتُ، أَيْنَ أنت من ثلاث من حَدَّثَكُهُنَّ فقد كَذَبَ، وفي لفظ: فقد أعْظَمَ على الله الفِرْيَةَ، مَنْ حَدَّثَكَ أن محمداً رأى ربه فقد كَذَبَ وفي لفظ فقد أعظم على الله الفِرْيَةَ، ثم قرأت ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِيُبَشِّرَ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فقد كَذَبَ، وفي لفظ: فقد أعْظَمَ على الله الفِرْيَةَ، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي لَنْفُسٍ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤] ومن حَدَّثَكَ أَنَّهُ قد كَتَمَ فقد كَذَبَ، وفي لفظ فقد أعْظَمَ على الله الفِرْيَةَ، ثم قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] ولكنه رأى جبريل في صورته مَرَّتَيْنِ.. زاد الإمام أحمد ومسلم قال ومسروق: وكنت متكبهاً فجلست فقلت: أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]. إن أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقلت: يا رسول الله هل رأيته ربك؟ فقال: «لا، إنما رأيته جبريل مُنْهَبِطاً».

وروى الإمام أحمد عن طريق همام، ومسلم عن طريق مُعَاذِ بْنِ هِشَامٍ عن أبيه، ومن طريق يزيد بن إبراهيم، ثلاثتهم عن قَتَادَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، قال: قلت لأبي ذر: لو رأيته

رسول الله ﷺ لسأله، فقال: عن أي شيء كنت تسأله، قال: كنت أسأله: هل رأى ربه تبارك وتعالى. قال: إني قد سأله قلت: يا رسول الله: هل رأيت ربك؟ فقال: نُورٌ أُنَّى أَرَاهُ وفي رواية: رأيت نوراً.

تنبيهات

الأول: قال جماعة: لم تَنفِ عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرت من ظاهر الآية وما قالوه غفلة عن قولها: إنها سألت النبي ﷺ عن ذلك فقالت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: «إِنَّمَا رَأَيْتُ جِبْرِيلَ مِنْهُ بَاطِئٌ».

الثاني: من قال: إن النبي ﷺ خاطبها على قَدْر عقلها، ومن حاول تخطئتها فيما ذَهَبَتْ إليه فهو مخطئٌ قليل الأدب.

الثالث: قول ابن الجوزي: «إِنْ أَبَا ذَرٍّ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ، فَأَجَابَهُ بِمَا أَجَابَهُ، وَلَوْ سَأَلَهُ بَعْدَ الْإِسْرَاءِ لَأَجَابَهُ بِالْإِثْبَاتِ، ضَعِيفٌ جَدًّا، فَإِنْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَأَلَتْهُ بَعْدَ الْإِسْرَاءِ وَلَمْ تُثَبِّتْ لَهَا الرُّؤْيَا».

الرابع: احتجاج عائشة بالآية خالفها فيه ابن عباس، فروى الترمذي وحسنه من طريق الحَكَم بن أَبَان عن عكرمة عن ابن عباس قال: محمد رأى ربه. قلت: أليس الله تعالى يقول: «لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ؟» قال: «وَيُحِيطُكَ، ذَلِكَ نُورُهُ إِذَا تَجَلَّى بِنُورِهِ الَّذِي هُوَ نُورُهُ، وَقَدْ رَأَى رُبَّهُ مَرَّتَيْنِ». والحاصل أن المراد بالآية الإحاطة به عند رؤيته، لا نفْي أصل رؤيته. وقال النووي: المراد بالإدراك الإحاطة، والله تعالى لا يُحَاطُ بِهِ، وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفْي الرؤية بغير إحاطة، وأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] فالجواب عنه من أوجه: أحدها: أنه لا يلزم مع الرؤية وجود الكلام حال الرؤية، فيجوز وجود الرؤية من غير كلام، الثاني: أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة، الثالث: ما قال بعض العلماء إن المراد بالوحي هنا الإلهام والرؤيا في المنام وكلاهما يسمى وَحْيًا. وأما قوله تعالى ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾. فقال الواحدي وغيره بمعناه غير مجاهر لهم بالكلام بل يسمعون كلامه تعالى من حيث لا يَرَوْنَهُ، وليس المراد أن يكون هناك حجاب يفصل موضعاً عن موضع، ويدل على تحديد المحجوب، فهو بمنزلة ما يُشْمَعُ من وراء حجاب حيث لم يُرَ الْمُتَكَلِّمُ.

الخامس: قول كعب: «وَكَلَّمَهُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ»، فيه نظر. والحق أنه كَلَّمَهُ أَكْثَرَ مِنْهُمَا، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه ١٧] وقوله عز وجل:

في اختلاف العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج

﴿وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٨٣]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥] وقوله تَقَدَّسَ اسْمُهُ: ﴿فَخَذَّهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣]، وقوله عز وجل ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

السادس: في غريب ما سبق.

«يا أمتاه»: أصله يا أمة^(١) والهاء للسكت فأضيفت إليها ألف الاستغاثة فأبدلت تاء، ثم زيدت هاء السكت بعد الألف. ووقع في كلام الخطابي إذا نادوا قالوا يا أمة عند السكت وعند الوصل «يا أمتا». فإذا تَفَجَّعُوا للثدبة قالوا: «يا أمتاه» والهاء للسكت. وتَعَقَّبَهُ الكرمانى بأن قول مسروق: «يا أمتاه» ليس للثدبة، إذ ليس هو تَفَجَّعاً عليها. قال الحافظ: وهو كما قال.

قَفَّ^(٢) شَغْرِي: قام من الفَرْع لِمَا حصل عندها من هيبة الله واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك. قال النَّضْر - بالنون والضاد المعجمة - ابن شَمِيل^(٣) - بضم الشين المعجمة وفتح الميم وسكون التحتية وباللام: القَفَّ - بفتح القاف وتشديد الفاء - كالقشعريرة، وأصله القَبْض والاجتماع لأن الجلد ينقبض عند الفرع فيقوم الشعر لذلك.

«أين أنت من ثلاث»، أي كيف يغيب فَهْمُكَ عن هذه الثلاث وكان ينبغي أن يكون مُسْتَحْضِرُهَا ومعتقد الكذب مِمَّنْ يَدَّعي وقوعها.

«الفروية» بالكسر: الكذب وجمعها فُرَى كعُتِبَ.

ذكر أدلة القول الثاني

تقدم حديث مسروق عن ابن عباس وكعب. وروى الثَّسَائِي بإسناد صحيح عن طريق عِكْرِمَةَ عن ابن عباس قال: أتعجبون أن الحَلَّة تكون لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ؟ ورواه ابن خزيمة بلفظ: «إن الله اصطفى إبراهيم بالحَلَّة». إلى آخره. وروى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي سلمة أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهم يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فأرسل إليه أن نعم.

تنبهات

الأول: قال الحافظ ابن كثير وابن حجر وغيرهما: جاءت عن ابن عباس أخبار مُطْلَقَة

(١) انظر لسان العرب ١/٤٤٤.

(٢) انظر اللسان ٥/٣٧٠٤، ٥/٣٧٠٥.

(٣) النضر بن شميل بن خزيمة بن زهير المازني التميمي، أبو الحسن: أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث رفعه اللغة. توفي بمرور من كتيبه: «الصفات» كبير، في صفات الإنسان والبيوت والجبال والابل والغنم والطيور والكواكب والزروع؛ و «كتاب السلاح» و «المعاني» و «غريب الحديث» و «الأأنواء». توفي ٢٠٣ هـ الأعلام ٣٣/٨.

كما تقدم وأخبار مُقَيَّدَة، فيجب حَمْلُ مُطْلَقِهَا على مُقَيَّدِهَا. فمن المُقَيَّدَة ما رواه مسلم عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، قال: «رآه بفؤاده مَرَّتَيْنِ». وَرَوَى أَيْضاً عن طريق عطاء عنه قال: «رآه بقلبه». وَرَوَى ابن مَرْدَوَيْهِ من طريق عطاء عنه أَيْضاً في الآية قال: «لم يره رسول الله ﷺ بعينه إنما رآه بقلبه». وَرَوَى الثَّسَالِي وابن خُرَيْمَة عن أبي ذَرٍّ في الآية قال: «رآه بقلبه ولم يَرَهُ بعينه». وَرَوَى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق موسى بن عبيد عن محمد بن كعب القُرْظِي - بالظاء المعجمة المشالة وبالتحتية - قال ابن جرير عن بعض أصحاب النبي ﷺ، قلنا: يا رسول الله، هل رأيت رَبِّكَ؟ قال: لم أره بعيني، رأيته بفؤادي مَرَّتَيْنِ، ثم تلا ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] وموسى ضعيف.

الثاني: قال الحافظ: المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم لأنه ﷺ كان عالماً بالله تعالى على الدوام. بل مراد من أنه أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خُلِقَتْ في قلبه كما تُخْلَقُ الرؤية بالعين لغيره، زاد صاحب السراج: «بخلاف غيره من الأولياء، فإنهم إذا أطلقوا الرؤية والمشاهدة لأنفسهم، فإنهم إنما يريدون «المعرفة» فاعلمته، فإنه من الأمور المهمة التي يغلط فيها كثير من الناس». انتهى. والرؤية لا يُشْتَرَطُ لها شيء مخصص عقلاً ولو جرت العادة بخلقها في العين. قال الواحدي: «وعلى القول بأنه رآه بقلبه جعل الله تعالى به رة في فؤاده، أو خَلَقَ لفؤاده بَصَراً حتى رأى رَبَّهُ رؤية صحيحة كما يُرَى بالعين».

الثالث: على هذه الآثار المُقَيَّدَة عن ابن عباس يمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة، بأن يُحْمَلُ نَفْيُهَا على رؤية البصر وإثباتها على رؤية القلب.

الرابع: قال ابن كثير: [فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أُسُودُ بْنُ عَامِرٍ حَدَّثَنَا حُمَادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»، فَإِنَّهُ حَدِيثٌ إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ لَكِنَّهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ حَدِيثِ الْمَنَامِ كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

الخامس: قال ابن كثير: من روى عن ابن عباس أنه رآه بصره فقد أغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة. وقول البغوي: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة فيه نظر. قلت: سبق البغوي إلى ذلك الإمام أبو الحسن الواحدي وقول ابن كثير: إنه لم يصح في ذلك شيء عن الصحابة فليس يَجِيْدُ، قال: فقد روى الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس أنه كان يقول: نظر محمد إلى رَبِّهِ مَرَّتَيْنِ: مرة يبصره ومرة بفؤاده.

الباب الرابع

في أي زمان ومكان وقع الإسراء

وفيه فصلان: الأول في مكانه. ففي رواية أنه كان عند البيت كما عند البخاري في باب بدء الخلق وفي باب المعراج في الحطيم، وربما قال في الحجر، والشك من قتادة بنده الإمام أحمد في روايته عن عفان عن همام ولقظه: «بيننا أنا في الحطيم»، وربما قال قتادة في الحجر. قال الحافظ: والمراد بالحطيم هنا الحجر، وأبعد من قال: المراد به ما بين الركن والمقام، أو ما بين زمزم والحجر. قال: وهو وإن كان مختلفاً في الحطيم بل هو الحجر أم لا فالمراد به هنا بيان البقعة التي وقع ذلك فيها لأنها لم تعدد لأن القصة متحدة باتحاد مخرجها.

وفي رواية الزهري عن أنس: «فُرج سقف بيتي وأنا بمكة»، وفي رواية الواقدي أنه: «أشري به من شغب أبي طالب»، وفي حديث أم هانئ عند الطبراني أنه «بات في بيتها»، قالت: ففقدته من الليل/ فقال: إن جبريل أتاني». قال الحافظ: والجمع بين هذه الأقوال أنه بات في بيت أم هانئ، ويثبتها عند شغب أبي طالب، فُرج عن سقف بيته، وأضاف البيت إليه لأنه كان يسكنه، فنزل منه منزلة المالك، وأخرجه إلى المسجد، وكان به أثر النعاس، ثم أخرجه إلى باب المسجد، فأركبه البراق. قال: وقد وقع في مؤسّل الحسن عند ابن إسحاق فأثاه فأخرجه إلى المسجد، وهو يؤيد هذا الجمع. انتهى.

وقال بعضهم: ليس بين قوله: «بيننا أنا في المسجد الحرام» وبين قوله: «في بيتي» وبين أم هانئ، تنافٍ لأنه قد يكون المراد بالمسجد الحرام.

الفصل الثاني: في زمانه: الصواب الذي اتفق عليه العلماء: أن الإسراء كان بعد البعثة. أما ما وقع في رواية شريك من قوله: «جاءه ثلاثة نقر قبل أن يوحى إليه»، وفيه «فكانت تلك الليلة فلم يرههم حتى أتوه ليلة أخرى»، ولم يُعَيّن المدة التي بين المجيئين، فيحتمل على أن المجيء الثاني كان بعد أن أوجي إليه، وحينئذ وقع الإسراء والمعراج، وإذا كان بين المجيئين مدة فلا فرق بين أن تكون المدة ليلة واحدة أو ليال كثيرة أو عدة سنين.

قال ابن كثير: «وهذا الحمل هو الأظهر»، وجزم به ابن القيم، وجرى عليه الحافظ، قال: «وبهذا يرتفع الإشكال عن رواية شريك، ويحصل به الاتفاق بأن الإسراء كان في البقعة بعد البعثة وقبل الهجرة، ويسقط تشنيع الخطابي وابن حزم بأن شريكاً خالف الإجماع في دعواه أن المعراج كان قبل البعثة». قال الحافظ: «وأما ما ذكره بعض الشراح أنه كان بين الليلتين اللتين أتاها فيهما الملائكة سبع وقيل تسع وقيل ثلاثة عشر، فيحتمل على إرادة السنين كما فهمه الشارح المذكور، وأجاب بعضهم بأن القبليّة هنا هي في أمر مخصوص وليست

مطلقة، واحتُمِلَ أن يكون المعنى قبل أن يُوحى إليه في شأن الإسراء والمعراج مثلاً، أي أن ذلك وقع بُعْثَةً قبل أن يُنْذَر به. ويؤيده قوله في حديث الزهري: فُرج سقف بيتي. انتهى.

واختلفوا في أي سنة كان، فجزم جَمْعُ بأنه كان قبل الهجرة بسنة، وجرى عليه الإمام النووي، وبالغ ابن حزم فنقل فيه الإجماع. وقال القاضي: قبل الهجرة بخمس سنين لأنه لا خلاف أن خديجة صَلَّت معه بعد فَرُض الصلاة، ولا خلاف أنها توفيت قبل الهجرة، ولا خلاف أن فَرُض الصلاة كان ليلة الإسراء، وتَعَقَّبَ ابن دُحْيَةَ بأن المراد بالصلاة التي صَلَّتها معه هي التي كانت من أول البعثة، وكانت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، وإنما الذي فَرُض ليلة الإسراء الصلوات الخمس. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «إن خديجة رضي الله عنها ماتت قبل أن تُفَرَض الصلاة»، رواه ابن سعد، ويعقوب بن سفيان. فالْمُعْتَمَدُ أن مراد من قال: بعد أن فَرُضَت الصلاة، ما فَرُض قبل الصلوات الخمس، إن ثبت ذلك. ومراد عائشة بقولها: ماتت قبل أن تُفَرَض الصلاة، أي الخمس، فَيُجْمَع بين القَوْلَيْنِ بذلك. ويلزم منه أنها ماتت قبل الإسراء وقد حكى العسكري أنها ماتت قبل الهجرة بسبع سنين وسَيَأْتِي تحقيق ذلك في ترجمتها.

واختلفوا في أي الشهور كان [الإسراء] فجزم ابن الأثير وجَمْعُ، منهم النووي في فتاويه كما في النسخ المُعْتَمَدَة، بأنه كان في ربيع الأول، قال النووي: «ليلة سبع وعشرين». وجرى عليه جَمْعُ، وهكذا عن الفتاوى الإسنوي في المهمات، والأذْرعي - بفتح أوله - والراء وسكون الدال المعجمة بينهما - في التوسط، والزركشي في الخادم، والدميري في حياة الحيوان، وغيرهم. وكذا رأيته في عدة نسخ من الفتاوى وفي بعض النسخ من شرح مسلم كذلك، وفي أكثرها ربيع الآخر كما في نسخ الفتاوى. ونقله ابن دُحْيَةَ في الابتهاج، والحافظ في الفتح، وجَمْعُ عن الحربي. والذي نقله عنه ابن دُحْيَةَ في كتابيه: التنوير والمعراج الصغير، وأبو شامة في الباعث، والحافظ في فضائل رجب، ربيع الأول. وقيل: كان في رجب، وجزم به النووي في الروضة تبعاً للرافعي، وقيل في رمضان، وقيل في شوال.

قال ابن عطية بعد أن حكى الخلاف والتحقيق: «إنه كان بعد شَقِّ الصحيفة وقبل بيعة العقبة». قال ابن دُحْيَةَ: «ويمكن أن يُعَيَّن اليوم الذي أسفرت عنه تلك الليلة، ويكون يوم الاثنين». وذكر الدليل على ذلك بمقدمات حساب من تاريخ الهجرة، وحاصل الأمر أنه استنبطه، وحاول موافقة كون المولد يوم الاثنين وكون المبعث يوم الاثنين وكون المعراج يوم الاثنين وكون الهجرة يوم الاثنين وكون الوفاة يوم الاثنين. قال: فإن هذه أطوار الانتقالات النبوية وجوداً ونبوة ومِعْراجاً وهجرةً ووفاةً، فهذه خمسة أطوار، فيكون يوم الاثنين في حقه ﷺ كيوم الجمعة في حق آدم عليه الصلاة والسلام فيه خُلِقَ وفيه أُنْزِلَ إلى الأرض وفيه تاب الله عليه وفيه مات، وكانت أطواره الوجودية والدينية خاصة بيوم واحد. انتهى.

وروى ابن أبي شيبه عن جابر وابن عباس رضي الله عنهما قالا: «وُلِدَ رسول الله ﷺ يوم الاثنين وفيه بُعث وفيه عرج إلى السماء وفيه مات». وقولهما: «وفيه عرج إلى السماء» أراد الليلة لأن الإسراء كان بالليل اتفاقاً.

تنبيه: ذكر أبو الخطّاب بن دحية أن الإسراء كان في الليلة التي بين الأحد والاثنين على القول بأن الليلة تتّبع اليوم الذي قبلها. ثم قال: «ويدل على أن الليلة تتّبع اليوم الذي قبلها أن ليلة عَرَفة هي التي قبلها بإجماع، وكان بعضهم يقول: ليلة السبت في ظنّ الناس هي ليلة الجمعة». انتهى. والذي ذكره النحاة في باب التأريخ أن ليلة كل يوم هي التي قبله، لأن أول الشهر ليلة، وآخره يوم. وبذلك صرح أئمتنا الشافعية في غير موضع من كتبهم. وليلة عرفة وإن تأخّرت عن يومها شرعاً فذلك في الحكم، وهو مشروعية الوقوف في هذا الوقت المخصوص، ولا يُعْتَرَض على ما سبق بقوله تعالى: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ لأن المُفَسِّرِينَ ذكروا فيه مَعْنَى غير هذا، فقال مجاهد: «في قضاء الله تعالى وعلمه لا يفوت اللَّيْلُ النَّهَارُ حتى يدركه فيذهب بظُلْمَتِهِ، وفي قضاء الله وعلمه لا يفوت النَّهَارُ اللَّيْلُ حتى يدركه فيذهب بَضُوئِهِ». رواه ابن المنذر.

وقال الضُّحَّاك: «لا يذهب الليل من ههنا حتى النهار من ههنا». رواه ابن أبي حاتم. وقال البغوي: «أي هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته». وقيل لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، فلا تطلع الشمس بالليل ولا يطلع القمر بالنهار وله ضوء. فإذا اجتمعا وأدرك كل واحد منهما صاحبه قامت القيامة، وقيل: لا يتصل ليلٌ بليل ولا يكون بينهما نهار فاصل. والله أعلم.

الباب الخامس

في كيفية الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم

وهل تكرر أم لا

وفيه فصلان: الأول: اعلم أنه لا يخلاف في صحة الإسراء به ﷺ. إذ هو نص القرآن على سبيل الإجمال، وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه أحاديث كثيرة منتشرة عن جماعة من الصحابة يأتي ذكرهم بعد في باب مُفْرَد، وإنما الخلاف في كيفية الإسراء، فاختلف العلماء في ذلك على أقوال: الأول وهو قول الأكثر إنه كان بالروح والجسد معاً يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس، إلى السموات العللى إلى شذرة المنتهى إلى حيث شاء العلى الأعلى.

قال القاضي وغيره: «وهو الحق وعليه تدل الآية نصاً وصحيح الأخبار إلى السموات استفاضة ولا يُغدل عن الظاهر من الآية والأخبار الواردة فيه، ولا عن الحقيقة المتبادرة إلى الأذهان من ألفاظهما، إلى التأويل، إلا عند الاستحالة وتعدُّر حُمل اللفظ على حقيقته، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة تُؤذن بتأويل، إذ لو كان مناماً لقال: سبحانه الذي أسرى بروح عبده، ولم يقل: يعقده، والعبد حقيقة هو الروح والجسد، ويدل عليه قوله تعالى ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] أي ما عدل عن رؤية ما أُمِر برؤيته من عجائب الملكوت وما جاورها لصراحة ظاهرة في كونه بجسده يقظة لأنه أضاف الأمر إلى البصر، وهو لا يكون إلا يقظة بجسده بشهادة: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]. ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة خارقة للعادة ثورث عدم صدقه، وإن كانت رؤيا الأنبياء وحياً، إذ ليس فيها من الأبلغية وخرق العادة ما فيه يقظة. وأيضاً لو كان مناماً لما استبعده الكفار ولا كذبوه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتنوا به، لبغده عن ساحة العادة، ووقوعه في زمن يُشتبه فيه جداً، إذ مثل هذه المنامات لا يُنكر، بل لم يكن منهم ذلك الاستبعاد والتكذيب، والارتداد والافتتان إلا وقد علموا أن خبره إنما هو عن جسمه وحال يقظته».

وقد روى البخاري في باب الإسراء من صحيحه، وسعيد بن منصور في سننه عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء. زاد سعيد: «وليست رؤيا منام».

قال الحافظ: «إضافة الرؤية للعين للاحتراز عن رؤيا القلب. وقد أثبت الله تعالى رؤيا القلب في القرآن بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ورؤية العين بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]. وأما ما رواه ابن مَزْدَوِيَه عن طريق العقوفي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الآية قال: «رأى أنه وصل مكة وأصحابه. فلما رَدُّه المشركون كان

لبعض الناس في ذلك فِتْنَةٌ». وما رواه ابن مردويه عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، رفعه قال: «رَأَيْتُ كَانَ بَنِي أُمِيَّةٍ يَتَعَارَوْنَ مِنْتَرِي هَذَا»، فقال: هي «دُنْيَا تَنَالُهُمْ»، ونزلت هذه الآية، فكلاهما إسناد ضعيف والصحيح ما تَقَدَّمَ، وجزم بما قاله ابن عباس إنها رؤيا عَيْنَ لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ مجاهد وسعيد بن جُبَيْرٍ والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد وغير واحد.

تنبيه: قال ابن دحية: «جنح البخاري إلى أن ليلة الإسراء كانت غير ليلة المعراج لأنه أفرد لكل منهما ترجمة» قال الحافظ: «ولا دلالة في ذلك على التغاير عنده، بل كلامه في أول الصلاة ظاهر في اتحادهما، وذلك أنه ترجم باب: كيف فُرِضَتِ الصَّلَاةُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، والصلاة إنما فُرِضَتِ في المعراج، فدل على اتحادهما عنده، وإنما أفرد كلاً منهما بترجمة لأن كلاً منهما يشتمل على قصة منفردة وإن كانا وقعا معاً.

القول الثاني: إن الإسراء كان بالجسد يقظة إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح، ذَهَبَ إِلَى هَذَا طَائِفَةٌ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» [الإسراء: ١٠] فجعل المسجد الأقصى غايةً للإسراء الذي وقع التَعْجُبُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ لَيْلَةٍ. وَالتَّعَجُّبُ فِيهِ مِنَ الْكُفَّارِ تَعْجُبٌ اسْتِحَالَةٍ، وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَعْجُبٌ تَعْظِيمُ الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ. وَوَقَعَ التَّمَدُّحُ بِتَشْرِيفِ النَّبِيِّ ﷺ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه. ولو كان الإسراء إلى مكان زائد على المسجد الأقصى لذكره تعالى فيكون ذكره أبلغ في المدح من عدم ذكره فيه..

وأجاب الأئمة عن ذلك بأن استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء أولاً، فلمَّا ظهرت أمارات صدقه، وصححت لهم براهين رسالته، واستأنسوا بتلك الآية الخارقة، أخبرهم بما هو أعظم منها، وهو المعراج، فحدَّثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ، وَأَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّجْمِ. وَيُؤَيِّدُ وَقُوعَ الْمِعْرَاجِ عَقِبَ الْأَسْرَاءِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ رَوَايَةٌ ثَابِتَةٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْهُ: «أَتَيْتُ بِالْبُرَاقِ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدَسِ»، فذكر القصة إلى أن قال: «ثُمَّ عُرِّجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» وحديث أبي سعيد الخدري: بالخاء المعجمة المضمومة وبالذال المهملة - عند ابن إسحق: «فَلَمَّا فَرَعْتُ مِمَّا كَانَ فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ أُتِيْتُ بِالْمِعْرَاجِ». فذكر الحديث.

القول الثالث: إن الإسراء كان بالروح وإنه رؤيا منام، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء وخي بشهادة: «يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ» [الصافات: ١٠٢]، وقوله ﷺ: «الْأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ»^(١).

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري ٦٧٠/٦ (٣٥٧٠).

واحتج من قال بهذا القول بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] ولو كان يقظة لقال: «الرؤية» بالتاء، وقول أنس في حديثه في رواية شريك: «وهو نائم بالمسجد الحرام». وذكر القصة الواردة ليلة الإسراء، ثم قال في آخرها: «استيقظت - أي انتبهت - من منامي وأنا في المسجد الحرام». وهذا المذهب يُعزى لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فإن ابن إسحاق قال: «حدثني يعقوب بن عتبة بن المُغيرة بن الأحنس أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سُئل عن مَسْرَى رسول الله ﷺ قال: «كانت رؤيا من الله تعالى صادقة». ويعقوب وإن كان ثقة إلا أنه لم يُدرك معاوية فالحجة منقطعة.

ويعزى أيضاً إلى عائشة رضي الله عنها، قال ابن إسحق: «حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت تقول: «ما فُقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أُسري بروحه». كذا فيما وقفت عليه من نُسخ السيرة «فُقد» بالبناء للمفعول. وفي الذي وقفت عليه من نسخ الشفا للقاضي «ما فُقدت» بالبناء للفاعل وإسناد الفعل إلى تاء المتكلم.

وأجيب عن الأول بأن «الرؤيا» قد تكون بمعنى «الرؤية» في اليقظة كما نقله أبو الخطّاب ابن دحية عن ابن عباس. قال الشيخ السهيلي في الروض: «وأنشدوا للراعي يصف صائداً:

وَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَشَّ فُؤَادُهُ وَبَشَّرَ قَلْبًا كَانَ جَمًّا بِلَابِلَةٍ

وقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يدل على أنها رؤية عين، وإسراء شخص، إذا ليس في الحلم فتنة للناس من تعجبهم استحالته، حتى ارتد كثير من آمن. وقال الكُفَّار: «يَزْعُم محمد أنه أتى بيت المقدس وَرَجَعَ إلى مكة في لَيْلَتِهِ، والعِيرُ تَطَرَّدَ إليها شهراً مُقْبِلَةً وشهراً مُدْبِرَةً. ولو كانت رؤيا نوم لم يَشْتَبِعِد أَحَدٌ منهم هذا، فمعلوم أن النائم قد يرى نفسه في السماء وفي المشرق وفي المغرب فلا يُشْتَبِعِد منه ذلك، ويؤيد كونها يَقْظَةً ما ورد من شربه تلك الليلة الماء الذي كان لسُقَّار قريش، وضعوه في بعض مراحلهم في قَدَحٍ وَغَطَّوْهُ، فأصبحوا ولأماء فيه، فَعَجِبُوا لذلك. وإرشاد أصحاب العير الذين نَدَّ بعيرهم حين أنفره جسَّ البَرَّاق حتى دَلَّهم عليه، فأخبر أهل مكة بأماره ذلك، حتى ذكر الغرارتين السوداء والبرقاء، وَوَعَدَهُ لقريش بقدوم العير التي أرشد أصحابها إلى بعيرهم وشرب مائهم أن يَقْدَمُوا يوم الأربعاء». كما سيأتي بيان ذلك مبسوطاً في القصة. وهذا كله لا يكون إلا يقظة وقد تقدم في القول الأول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية: هذه رؤيا عين أَرَاهَا رسول الله ﷺ ليلة الإسراء فراجعهُ.

في كيفية الإسراء برسول الله ﷺ وهل تكرر أم لا

وأجيب عن الثاني وهو قوله: «بيننا أنا وبين النائم واليقظان، ثم استيقظت» بأنه لا حجة في ذلك إذ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ «بين النائم واليقظان» إلى آخره أنه أول وصول المَلَكِ كان وهو نائم بشهادة حديث الحسن: «بيننا أنا نائم في الحَجَرِ جاءني جبريل فَهَزَّنِي بَعْبِهِ، فجلست فلم أَرِ شيئاً فَعُدْتُ لمضجعي»، إلى أن قال: «فَجَزَّنِي إلى باب المسجد فإذا أنا بِدَابَّةٍ» أو أنه محمول على ابتداء الحال، ثم لما خرج إلى باب المسجد، فأركبه البُرَاق فاستمر في يقظته. وليس في الحديث أنه كان نائماً في القصة كلها. وأما قوله: «ثم استيقظت وأنا بالمسجد الحرام»، قال الحافظ: «إن قيل بالثُّبُوت فلا إشكال وإلا حُمِلَ على أن معناه أَقْبَضْتُ أي أَفَاقَ مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة عجائب الملكوت ورجع إلى العالم الدنيوي فلم يرجع إلى عالم البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام».

قال ابن كثير: «ويؤيد ذلك أنه ﷺ كان إذا أُوجِيَّ إليه يستغرق فيه فإذا انتهى رجع إلى حالته الأولى، فَكُنِّيَ عنه بالاستيقاظ كما في حديث عائشة، حين ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف فكذبوه، قال: «فرجعت وأنا مهموم فلم أَشْتَفِقْ إلا بقرن الثعالب» أي وهو مكان. وفي حديث أبي أُسَيْدٍ - بضم الهمزة وفتح المهمل - حين جاء بابنه إلى رسول الله ﷺ لِيُخَبِّرَهُ، فوضعه على فخذ رسول الله ﷺ. واشتغل رسول الله ﷺ بالحديث مع الناس. فرفع أبو أُسَيْدٍ ابنه ثم استيقظ رسول الله ﷺ، فلم يجد الصبي فسأل عنه فقالوا «رُفِعَ»، فَسَمَّاهُ الْمُنْذِرَ أحد رواته استيقاظاً. وهذا الحُفْلُ أَحْسَنُ من تغليب شريك.

تنبه: قال بعضهم إنه ﷺ كان تلك الليلة نائم العين حاضر القلب، غَمُضَ عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله. قال القاضي: «هذا غير صحيح لأن المقام مشاهدة عجائب الملكوت بشهادة قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]، إذ المتبادر منه رؤية العين، ولا يصح أيضاً أن تكون في وقت صلاته بالأنبياء.

وأما ما يُفَرِّقُ لعائشة رضي الله عنها، فلم يرد بَسَنَدٍ يصلح للحجة بل في سَنَدِهِ انقطاع وارد مجهول كما تقدم. وقال أبو الخطَّاب بن دُخْيَةَ في التنوير: إنه حديث موضوع عليها. وقال في معراج الصغیر: «قال إمام الشافعية القاضي أبو العباس بن شُرَيْج: هذا حديث لا يصح وإنما وُضِعَ رَدُّهُ للحديث الصحيح». انتهى.

وعلى تقدير أن يكون صحيحاً ورد بالبناء للمفعول فعائشة رضي الله عنها لم تُخَدِّثْ عن مشاهدة لأنها لم تكن زوجة إذ ذاك، أو بالبناء للفاعل: «ما فَعَّدْتُ جسده الشريف» فعائشة لم يدخل بها إلا بالمدينة بالإجماع، ولا كانت وقت الإسراء في سِنٍّ من يَضْبُطُ الأمور، لأنها في سنة الهجرة كانت بنت ثمان سنين. فعلى القول بأن الإسراء كان قبلها بسنة تكون بنت سبع،

وعلى القول بأكثر من ذلك تكون أصغر من ذلك، وعلى قول من قال: إن الإسراء كان بعد البعث بعام لم تكن وُلدت.

تنبيه: قال في زاد المعاد: «ينبغي أن يُعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم. وعائشة ومعاوية لم يقلوا: كان مناماً، وإنما قالوا: الإسراء بروحه ولم يُفقد جسده. وفُرق بين الأمرين، فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصُّور المحسوسة، فيرى كأنه غُرج به إلى السماء، أو ذُهب به إلى مكة أو أقطار الأرض، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثل، والذين قالوا: غُرج برسول الله ﷺ طائفتان: طائفة قالت غُرج بروحه وبذنه، وطائفة قالت غُرج بروحه ولم يُفقد بدنه. وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أُسريَ وغُرج بها حقيقةً وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة. وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السموات سماءً سماءً، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فتقف بين يدي الله تعالى فيأمر فيها بما يشاء، ثم تنزل إلى الأرض».

«والذي كان برسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة. ومعلوم أن هذا أمرٌ فوق ما يراه النائم. لكن لما كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد، حتى شقَّ بطنه وهو حي لا يتألم بذلك، غُرج بذات روحه المقدسة حقيقةً من غير إماتة. ومن سواه: لا يتألم بذات رُوحه الصُّعود إلى السموات إلا بعد الموت والمفارقة، إلى آخر كلامه، وسيأتي بتمامه في باب حياته ﷺ في قبره.

الفصل الثاني: في تكرره:

ذهب جماعة منهم الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشهير بأبي شامة. رحمه الله تعالى إلى أن الإسراء وقع مراراً، واحتج بما رواه سعيد بن منصور، والبرزاري، والبيهقي، وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا نائم إذ جاء جبريل عليه السلام فوكَّز بين كَتِفَيَّ، ففُتَّتْ إلى شجرة فيها مثل وَكْزِي الطَّيْر، فقع جبريل في أحدهما وقعدت في الآخر، فسَمَّتْ وارتفعت حتى سَدَّتْ الخافقين، وأنا أَقْلَبُ طَرْفِي، فلو شِئْتُ أَنْ أَمْسَ السماء لمسست وفتحت لي باباً من أبواب السماء فرأيتُ النور الأعظم، وإذا دون الحجاب زُفُوفُ الدُرِّ والياقوت، وفي رواية فدلَّني بسبب وهبط النور فوق جبريل مغشياً عليه كأنه جالس، فعرفتُ فضلَ خشيتِهِ على خشيتِي، فأوحى الله تعالى إليَّ ما شاء أَنْ يُوحِي، وفي رواية: فأوحى إليَّ نبياً ملكاً أو نبياً عبداً وإلى الجنة ما أنت، فأومأ إليَّ جبريل وهو مضطجع: أن تَوَاضَعَ. قال: قلت: لا بل نبياً عبداً.

شرح غريب ما سبق

«وَكَزَّ»^(١) ضرب برفق.

«وَكَزِّي»^(٢) الطائر» تنبيه بفتح الواو وهو عُشَّ الطائر إن كان في جبل أو شجر، والمراد هنا بيتان شبيهان بعُشَّه في الهيئة والوضع لا في المقدار. «نَمَتْ» زادت.

«الخافقان» طرفا السماء والأرض أو المشرق والمغرب وخوافق السماء جهاتها التي تهب منها الرياح الأربع.

«لَمَسِسْتُ» بكسر أول سينييه وفتحها وقد يُخَفَّف وتُنْقَل حركتها إلى الميم وقد تُثَرَك الميم مفتوحة.

«أَقْلَبُ ظَرْفِي» حال من الضمير قبله أي مُقَلِّباً بَصَرِي في آيات الله في الآفاق.

«جَلَسَ»^(٣) بكسر الحاء والسين المُهْمَلَتَيْن: كَسَاءً يلي ظهر الدابة تحت الرَّحْل يُشَبِّه به من لَزِمَ شيئاً من خَشْيَةٍ أو نحو ذلك.

«السَّبَبُ» في الأصل الذي يُتَوَصَّل به إلى الماء ثم استعير لكل ما يُتَوَصَّل به إلى شيء.

قال الحافظ: «وحديث أَنَس السابق رجاله لا بأس بهم إلا أَنَّ الدارقطني ذكر له عِلَّة تقتضي إرساله. وعلى كل حال فهي قصة أخرى، الظاهر أَنَّها وقعت بالمدينة، قال ولا بُدَّ في وقوع مثل ذلك في المنام، وإنما المُسْتَعْرَب وقوع التعدد في قصة المعراج التي وقع فيها السؤال عن كل نبي وسؤال أهل كل سماء: هل بُعِثَ إليه؟ وفُرض الصلوات الخمس وغير ذلك، فَإِنَّ تَعَدُّدَ بِمِثْلِ ذلك في اليقظة لا يتجه، فيتَعَيَّن رَدُّ بعض الروايات المختلفة إلى بعض والترجيح، إلا أَنَّهُ لا بُدَّ في وقوع جميع ذلك في المنام، ثم وقوعه في اليقظة على وَفْقِهِ ولهذا مزيد بيان في الباب الثامن.

وذهب جماعة منهم المُهَلَّب شارح البخاري، وحكاه عن طائفة، وأبو نصر القشيري، والبغوي، والسهيلي، ونقل تصحيحه عن شيخه القاضي أبي بكر العربي، وجزم به النووي في فتاويه أَنَّ الإسراء وقع مَرَّتَيْن: مَرَّةً في النوم ومَرَّةً في اليقظة. قالوا: «وكانت مرة النوم توطئة له وتيسيراً عليه، كما كان في بدء نُبُوَّتِهِ الرؤيا الصادقة، ليسهل عليه أمر النبوة، فإنه أمر عظيم

(١) انظر لسان العرب ٤٩٠٦/٦.

(٢) المعجم الوسيط ٣٥٣/٢.

(٣) اللسان ٩٦١/٢.

تضعف عنه القوى البشرية، وكذلك الإسراء سهّله عليه الرؤيا لأن هؤله عظيم، فجاء في اليقظة على توطئة وتقدمة رفقا من الله تعالى بعبده وتسهيلاً عليه».

قال الحافظ: «ومن المستغرب قول ابن عبد السلام في تفسيره: إن الإسراء كان في النوم واليقظة ووقع بمكة والمدينة، فإن كان يريد تخصيص المدينة بالنوم ويكون كلامه على طريق اللّف والنّشر غير المُرتّب فيُحتمل، ويكون الإسراء الذي اتصل بالمِعراج وفُرِضت فيه الصلاة بمكة، والآخر في المنام بالمدينة، وينبغي أن يُزاد فيه أن الإسراء في المنام تكرر بالمدينة النبوية. ففي الصحيح في الجنائز حديث سُمرة الطويل، وفي غيره حديث عبد الرحمن بن سُمرة الطويل، وفي الصحيح حديث ابن عباس رضي الله عنهما في رؤيا الأنبياء، وحديث ابن عُمر في ذلك.

قلت وسيأتي في باب مناماته ﷺ ما فيه مَقْتَع.

الباب السادس

في دفع شبهة أهل الزينغ في استحالة المعراج

اعلم أن الإسراء برسول الله ﷺ لم يخالف في وقوعه أحد من المسلمين، وإنما طعن فيه أهل الزينغ بشبهة باطلة. وقد تصدّى الإمام الرازي وغيره للرد عليهم، وأنا مؤيد لتلك الشبهة ثم أُنِيعها بالرد. قال أهل الزينغ والضلالة قُبْحُهُمُ الله تبارك وتعالى: «الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة، ولو صعد إلى السموات لوجب خرق الأفلاك، وذلك مُحَال، وصعود الحِزْمِ الثقيل إلى السموات غير مقبول، ولأن هذا المعنى لو صَحَّ لكان أعظم من سائر معجزاته، وكان يجب أن يظهر ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه من ادعاء النبوة، فأما أن يحصل ذلك في وقت لا يراه فيه أحد ولا يشاهده فإن ذلك يكون عَيْباً لا يليق بالحكيم».

وأجيب عن الأول أن الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها، والله قادر على ذلك، ويدل على صحته أن الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يُقْرَبُ من نصف الدور، وثبت في الهندسة أن نسبة القطر إلى الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وشُيْعُ فبتقدير أن رسول الله ﷺ ارتفع من مكة إلى ما فوق الفلك الأعظم فهو لم يتحرك إلا إلى مقدار نصف القطر. فلما حصل في ذلك القدر من الزمان نصف الدور كان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان، فهذا برهان قاطع على الارتفاع من مكة إلى ما فوق القروش في مقدار ثلث الليل وأنه أَمْرٌ ممكن في نفسه. وإذا كان كذلك كان حصوله في كل الليل أولى بالإمكان.

وأيضاً ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة وستين مرة، ثم أنا نشاهد طلوع القرص يحصل في زمان لطيف سريع، فدل على أن بلوغ الحركة في السرعة إلى هذا الحد أَمْرٌ ممكن في نفسه. فإن كان الكلام مع من لا يعرف الهندسة فنقول له: أنت تشاهد الشمس والقمر والنجوم تقطع من الشروق إلى الغروب مسافة لا يُقَدَّرُ على قطعها في أعوام كثيرة.

وأيضاً كانت الرياح تُسَيِّرُ لسليمان بن داود عليهما السلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات اليسيرة، قال الله تعالى: ﴿عُذُوهُمَا شَهْرٌ وَزَوَاجُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، والجس يدل على ذلك وهو أن الرياح تنفذ عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان آخر في غاية البُعْدِ في اللحظة الواحدة. وقد أحضر الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب كرسى بلقى من أقصى اليمن إلى

أرض الشام في أقل من لمح البصر. والأجسام متماثلة في تمام ماهياتها، فلما حصل مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام، فهي ممكنة والله تعالى قادر على حصولها في جسد النبي ﷺ.

والجواب عن الثاني: وهو خرق الأفلاك فليس بمحال وقد منعه الثبوت للجنة والنار. قال الشيخ سعد الدين: «ادعاء استحالة المعراج باطل؛ لأنه إنما يبنى على أصول الفلاسفة من امتناع الخرق والالتئام على السموات، وإلا فالخرق والالتئام على السموات واقع عند أهل الحق، والأجسام العلوية والسفلية متماثلة مُزَكَّبة من الجواهر الفردة المتماثلة، يصح على كل من الأجسام ما يصح على الآخر ضرورة التماثل المذكور، فإذا أمكن خرق الأجسام السفلية أمكن خرق الأجسام العلوية والله قادر على الممكنات كلها، فهو قادر على خرق السموات وقد ورد به السمع فيجب تصديقه».

والجواب عن الثالث: فكما أنه يُشْتَبَعَد صعود الجسم الكثيف يُشْتَبَعَد نزول الجسم اللطيف الروحاني من العرش إلى مركز العالم. فإن كان القول بمعراج النبي ﷺ في الليلة الواحدة ممْتنعاً كان القول بنزول جبريل عليه السلام من العرش إلى مكة في اللحظة الواحدة ممْتنعاً كذلك، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعناً في ثبوت جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والقول بثبوت المعراج قَوْعٌ على تسليم جواز أصل النبوة، فيلزم القائل بامتناع حصول هذه الحركة امتناع نزول جبريل عليه السلام. ولما كان ذلك باطلاً، كان ما ذكره باطلاً.

والجواب عن الرابع: إن في كونه ليلاً فوائد منها: ليزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب، ويفتن الذين كفروا زيادة على فتنهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، ومنها أنه وقت الخلوة والاختصاص عَوْفاً، فإن بين جليس الملك نهاراً وجليسه ليلاً قَوْعاً واضحاً، والخصوصية لليل، ورحم الله من قال:

اللَّيْلُ لِي وَلِأَجْبَائِي أَنَادِيهِمْ قَدْ اضْطَفَيْتُهُمْ كَيْ تَسْمَعُوا وَيَعُوا

وقد أخبر النبي ﷺ بالعلامات التي تفيد اليقين من وصف بيت المقدس ووصف العير التي مر بها في طريقه، وأنها تصل إليهم في وقت كذا، فكان كما ذكر كما سيأتي مُقْصَلاً. ومع ذلك قالوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧]. فلا قَوْعٌ بين أن يُرِيَهُمْ ذلك نهاراً وأن يُخَيِّرَهُمْ بِخَيْرٍ يفيد اليقين، وقد أراهم انشقاق القمر فقالوا: هذا: ﴿سِحْرٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٤].

الباب السابع

في أسماء الصحابة الذين رَووا القصة عن النبي صلى الله عليه وسلم

أبي بن كعب رضي الله عنه، رواه عنه ابن مَرْدَوِيَه من طريق عُثَيْد بن غَمَيْر، ومن طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً، وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المُسْتَد، وابن مَرْدَوِيَه وابن عساكر بلفظ حديث أَنَس عن أَبِي ذَرٍّ حرفاً بحرف. قال المحافظ في أطراف المُسْتَد: «إنه وقع تحريف وكان في الأصل: «عن أَبِي ذَرٍّ» فسقط من النسخة لفظة «ذَرٍّ» فظُنَّ أَنَّ «أَبِي» [هي] «أَبِي»، فأُدرِج في مُسْتَد أَبِي بن كعب غَلَطاً».

قلت: نَبَّه الدَّارِقُطَنِي في الجِلَل على أَنَّ الوهم فيه من أَبِي ضَمْرَةَ أَنَس بن عِيَاض.

وَأَسَامَةُ بن زيد، ذكره أَبُو حَفْص النَسْفِي في تفسيره ولم أَقف على حديثه. وَأَنَس بن مالك فروايتَه عن النبي ﷺ من غير واسطة رواه عنه الإمام أحمد ومسلم من طريق ثابت البُنَّانِي. والشيخان من طريق شريك بن عبد الله، وابن مَرْدَوِيَه من طريق كثير بن ثُنَيْس - بضم الخاء المعجمة وفتح النون وسكون المُثَنَّاة التحتية فسين مهملة - والنسائي، وابن مردويه من طريق يزيد بن أَبِي مالك وابن أَبِي حاتم من وجه آخر.

وابن جرير وابن مردويه والبيهقي من طريق عبد الرحمن بن هاشم^(١)، وَرُوي من طريق عبد العزيز بن صهيب^(٢)، والطبراني من طريق ميمون بن سِيَاه^(٣) - بكسر السين المهملة بعدها مثناة تحتية - وابن جرير من طريق أَبِي سلمة بن سليم وابن مَرْدَوِيَه من طريق أَبِي هاشم عن علي بن زيد وعن ثُمَامَة - بضم المثناة أوله، وابن سعد وسعيد بن منصور، والبزار عن أَبِي عمران الجوني - بفتح الجيم - وعند بعض هؤلاء ما ليس عند الآخر.

وَبُرَيْدَة - بضم أوله وفتح الراء وسكون المثناة التحتية - ابن الحَصْبِي - بحاء مضمومة فصاد مفتوحة مهملتين - رضي الله عنه، ورواه الترمذي والحاكم وصححه، وبلال بن حمامة، وبلال بن سعد ذكرهما أَبُو حَفْص النَسْفِي. وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما رواه الشيخان ورواه الطبراني وابن مردويه بلفظ آخر بِسَنَد صحيح. وَحَدَّثَنِي بن اليمان رضي الله عنه رواه ابن

(١) عبد الرحمن بن يونس بن هاشم، أبو مسلم المَشْتَقَلِي، البغدادي، مولى المنصور، صدوق، طعنوا فيه للرأي، من العاشرة، مات سنة أربع وعشرين، أو بعدها. التقريب ٥٠٣/١.

(٢) عُبَيْد العزيز بن صهيب البُنَّانِي، البصري، ثقة، مات سنة ثلاثين. التقريب ٥١٠/١.

(٣) ميمون بن سِيَاه، أبو بحر البصري. كان أَسَن من الحسن البصري، وثقه أبو حاتم، والبخاري. وقال أبو داود: ليس بذلك. وضعفه يحيى بن معين. ميزان الاعتدال ٢٣٣/٤.

أبي شَيْبَةَ وَأحمد والترمذي وصَحَّحه وسَمُرَةُ بن جُنْدُب رضي الله عنه رواه ابن مردويه.

وسهل بن سعد رضي الله عنه رواه ابن عساكر، وشَدَّاد بن أَوْس رضي الله عنه رواه
الْبَزَّار والطبراني والبيهقي وصَحَّحه. وَضَهَّيب بن سِنَان رضي الله عنه رواه الطبراني وابن
مردويه وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما رواه الإمام أحمد وأبو نُعَيْم وابن مردويه من طريق
قَابُوس - بالقاف والمُوَحَّدَة - عن أبيه بسند صحيح. والإمام أحمد وأبو يُعْلَى من طريق عِكْرَمَة.
والشيخان من طريق أبي العالية ومن طريق عِكْرَمَة. والإمام أحمد والنسائي والْبَزَّار بسند صحيح
عن طريق سعيد بن جُبَيْر. والإمام أحمد وابن أبي شَيْبَةَ والْبَزَّار بسند صحيح من طريق زُرَّارَة بن
أَوْفَى، وهذه الطرق كلها مُخْتَصَرَة.

وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما رواه أبو داود والبيهقي. وعبد الله بن
عَمْرُو رضي الله عنهما رواه ابن سعد وابن عساكر. وعبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنهما.
وعبد الله بن أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما ذكرهما أبو حَفْص النُّسَافِي. وعبد الله بن أَسْعَد بن
زُرَّارَة رضي الله عنهما رواه الْبَزَّار والبغوي وابن قانع كلاهما في معجم الصحابة. وعبد الله بن
مسعود رضي الله عنه رواه مسلم من طريق ثُرَّة، وابن عَرَفَة من طريق أبيه عن عُثَيْدَة. والإمام
أحمد وابن ماجه من طريق مُؤَثَّر - بضم الميم وسكون الواو وكسر المثناة - ابن عَفَّازَة بفتح
المهمله والفاء ثم زاي - الكوفي.

والْبَزَّار وأبو يُعْلَى والطبراني من طريق عَلْقَمَة، والبيهقي من طريق زَرَّ - بكسر الزاي
وبالراء - ابن حُبَيْش - بضم الحاء المهمله وفتح الموحدة وسكون التحتية وبالشين
المعجمة. وعبد الرحمن بن عابس^(١)، ذكره ابن دُخْيَة في التنوير. والعباس بن
عبد المطلب، وعثمان بن عَفَّان رضي الله عنه ذكره أبو حَفْص النُّسَافِي. وعلي بن أَبِي
طالب رضي الله عنه رواه الإمام أحمد وابن مردويه. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه رواه
الإمام أحمد وابن مردويه. وأَنَس بن عِيَّاض ذكره ابن دحية. ومالك بن صعصعة رضي الله
عنه رواه عنه الإمام أحمد والشيخان وابن جرير والبيهقي وغيرهم. وأبو بكر الصديق
رضي الله عنه ذكره ابن دحية. وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه رواه الشيخان في أثناء
حديث أُبَيِّ بن كعب.

وأبو الحمراء رضي الله عنه رواه الطبراني. وأبو الدرداء رضي الله عنه ذكره أبو حفص
النسفي. وأبو ذَرَّ الغِفَارِي رضي الله عنه رواه الشيخان. وأبو سعيد الخُدْرِي - بضم الخاء

(١) عبد الرحمن بن عابس بن ربيعة النخعي، الكوفي، ثقة، مات سنة تسع عشرة. التقريب ٤٨٥/١.

المعجزة والبدال المهملة - رضي الله عنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق أبي هارون العبدى^(١) وهو مُتَكَلِّم فيه.

وقد روى البيهقي عن أبي الأزهر قال: حدثنا زيد بن أبي حكيم قال: «رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله أين رجل من أمتك يقال له سفيان الثوري لا بأس به؟ فقال النبي ﷺ: لا بأس به. حدثنا عن أبي هريرة عن أبي سعيد الخدري عنك أنك ليلة أُسْرِي بك قُلْتَ: رأيت في السماء، فَحَدَّثْتُهُ بالحديث، فقال: نعم. فقلت: يا رسول الله إن ناساً من أمتك يُحَدِّثُونَ عنك في الإسراء العجائب. فقال: ذاك حديث القُصَّاص».

وأبو سفيان بن حرب رضي الله عنه ذكره أبو حفص النسفي. وأبو سلمة بن دحية وأبو سلمى راعي رسول الله ﷺ ذكره أبو حفص النسفي. وأبو ليلى الأنصاري رضي الله عنه رواه الطبراني وابن مردويه. وأبو هريرة رضي الله عنه رواه مُطَوَّلًا ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي والحاكم وصححه من طريق أبي العالقة، وفي سنده أبو جعفر الرازي وهو صدوق الحفظ، ومختصراً الشيوخ من طريق سعيد بن المسيب، والإمام أحمد ومسلم من طريق أبي سلمة. والإمام أحمد وابن ماجه عن طريق أبي الصلت. وابن مردويه عن طريق سليمان التيمي. وابن سعد وسعيد بن منصور والطبراني من طريق مولاة. وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها رواه ابن مردويه. وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رواه الحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه من طريق الزهري عن عروة عنها. وابن مردويه من طريق هشام عن أبيه عنها.

وأم كلثوم بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها ذكره أبو حفص النسفي. وأم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها رواه أبو سعيد وابن عساكر. وأم هانئ رضي الله عنها رواه الطبراني وأبو يعلى وابن عساكر عن طريق أبي صالح وابن إسحق بلفظ آخر. والله أعلم.

(١) عمارة بن جوين، أبو هارون العبدى. تابعي لبن بمزة. كذبه حماد بن زيد. وقال أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: ضعيف، لا يصدق في حديثه. وقال النسائي: متروك الحديث قال الجوزجاني: أبو هارون كذاب مُفْتَرٍ. توفي سنة أربع وثلاثين ومائة. ميزان الاعتدال ١٧٣/٣، ١٧٤.

الباب الثامن

في سياق القصة

اعلم رحماني الله وإياك أن في حديث كل من الصحابة السابق ذكرهم في الباب السابع ما ليس في الآخر، فاستخرت الله تعالى وأدخلت حديث بعضهم في بعض ورُتِبَتْ القصة على نسقٍ واحد، لتكون أحلى في الأذان الواعيات، وليتعم النفع بها في جميع الحالات. فإن قلت إن أحاديث المعراج كل حديث منها مخالف للآخر. فقد يكون المعراج تعدد بعدها فلم يجعل الكُلَّ قِصَّةً واحدة؟.

فأقول: قال في «زاد المعاد»: «هذه طريقة ضُعفاء الظاهرية من أرباب الثقل الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الرواة جعلوه مرةً أخرى فكلما اختلفت عليهم الرواة عدّدوا هم الوقائع والصواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرةً واحدة بمكة بعد البعثة، وبما عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه وقع مراراً كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تُفرض عليه الصلاة خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى يصير خمساً، ثم يقول: «أَمْضَيْتُ فريضتي وتحققت عن عبادي»، ثم يعيدها في المرة الثانية خمسين ثم يحطها عشراً عشراً؟.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير رحمه الله تعالى في تاريخه، بعد أن ذكر أنه لم يقع في سياق مالك بن صعبعة ذكر بيت المقدس: «وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه، أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو ينشط تارةً فيسوقه كله، وتارةً يُحدث مُحَاطِبه بما هو الأنفع له» و«مرّ جعل كل رواية خالفت الأخرى مرةً على حدة، فأثبتت إسرارات متعددة فقد أبعد وأغرب وهرب إلى غير مهزّب ولم يحصل على مطلب»، «وذلك أن كل السياقات فيها تعريفه بالأنبياء، وفي كلها تُفرض عليه الصلوات، فكيف يُدعى تعدد ذلك؟ هذا في غاية البُعد»، «ولم يُنقل ذلك عن أحد من السلف ولو تعدّد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته ولنقله الناس على التكرار». انتهى.

وقال الحافظ في الفتح نحوه وزاد: «ويلزم أيضاً وقوع التعدد في سؤاله ﷺ عن كل نبي وسؤال أهل كل باب: هل يُبعث إليه؟ وفرض الصلوات الخمس وغير ذلك، فإن تعدد مثل ذلك في القصة لا يَنجِجه، فيتعين ردّ بعض الروايات المختلفة إلى بعض أو الترجيح إلا أنه لا يُعدّ وقوع مثل ذلك في المنام توطئة ثم وقوعه يقظة». انتهى مُلْخصاً.

إذا علّم ما تقرر فأقول: «بينما النبي ﷺ عند البيت في الجَنَر، إذ أتاه جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر، فقال أولهم: أيهم؟ فقال أوسطهم هو خيرهم. فكانت تلك الليلة، فلم يرهם حتى ليلة أخرى. فقال الأول: هو هو. فقال الأوسط: نعم، وقال الآخر: خذوا سيّد القوم

الأوسط بين الرجلين. فرجعوا عنه حتى إذا كانت الليلة الثالثة، رآهم، فقال الأول: هو هو، فقال الأوسط: نعم، وقال الآخر: خذوا سيد القوم الأوسط بين الرجلين. فاحتملوه حتى جاءوا به زمزم، فألقوه على ظهره فتولاه منهم جبريل».

وفي رواية: «فُرج سقف بيتي، فنزل جبريل، فسَقَّ من ثَغْرَةٍ نَحْرِهِ إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِهِ، ثُمَّ قَالَ جَبْرِيلُ لِمِيكَائِيلَ: ائْتِنِي بِطُسْتٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ كَيْمَا أُطَهِّرَ قَلْبَهُ وَأُشْرِحَ صَدْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبَهُ، فَغَسَلَهُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، وَنَزَعَ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ أَدَى، وَاخْتَلَفَ إِلَيْهِ مِيكَائِيلُ بِثَلَاثِ طُسُوتٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ، ثُمَّ أَتَى بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِهِ، وَمَلَأَهُ جِلْمًا وَعِلْمًا وَيَقِينًا وَإِسْلَامًا. ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ خَتَمَ بَيْنَ كَتِفَيْهِ بِخَاتَمِ النَّبِوَةِ، ثُمَّ أَتَى بِالْبُرَاقِ مُشْرِجًا مُلْجَمًا، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضٌ، طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مَنْتَهَى طَرَفِهِ، مُضْطَرِبُ الْأُذُنَيْنِ، إِذَا أَتَى عَلَى جَبَلٍ ارْتَفَعَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا هَبَطَ ارْتَفَعَتْ يَدَاهُ، لَهُ جَنَاحَانِ فِي فَخْذَيْهِ يَحْفَظُ بِهِمَا رِجْلَيْهِ».

وعند الثعلبي بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لَمْ يَخُذْ كَخَذِ الْإِنْسَانِ وَغُرُوفِ الْقَرَسِ وَقَوَائِمِ كَالِإِبِلِ وَأَطْلَافِ وَذَنْبِ كَالْبَقَرِ». انتهى. «فاستصعب عليه» وفي رواية «فَشَحَسَ»^(١)، وفي رواية كأنها صُرَّتْ^(٢) أذنيها فَرَزَّهَا جبريل وقال: مَهْ أَبِمْحَمَّدٍ تَفْعَلِينَ هَذَا؟ وفي رواية: «فوضع جبريل يده على مَعْرَفَتِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تَسْتَحْيِي يَا بُرَاقُ؟ فَوَاللَّهِ مَا رَكَبْتُ خَلْقًا» - وفي رواية - عَبَدْتُ لِلَّهِ قَطُّ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ. فاستحى حتى أَوْفَضَ عَرَقًا، وَقَرَّ حَتَّى رَكِبَهَا» - وفي رواية - رَكِبَتْهُ. وكانت الأنبياء تركبها قبله». وقال أنس بن مالك: «كانت الأنبياء تركبها قبله». وقال سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن: «وهي دابة إبراهيم التي كان يزور عليها البيت الحرام».

فانطلق به جبريل - وفي رواية - فانطلقت مع جبريل. وعند أبي سعيد النيسابوري في الشرف: فكان الأخذ بركابه جبريل، وبزمام البُرَاق ميكائيل - وفي رواية: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره. فساروا حتى بلغوا أرضاً ذات نخل. فقال له جبريل: انزل فَصِّلْ ههنا، ففعل، ثم ركب. فقال له جبريل: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قال: لا. قال: صَلَّيْتَ بِطَيْبَةِ وَإِلَيْهَا الْمَهَاجِرُ. فانطلق البُرَاق يَهْوِي بِهِ، يَضَعُ حَافِرَهُ حَيْثُ أَدْرَكَ طَرَفَهُ. فقال جبريل: انزل فَصِّلْ، ففعل. ثم ركب. فقال جبريل: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قال: لا. قال: صَلَّيْتَ بِحَذْيَنٍ عِنْدَ شَجَرَةٍ

(١) شمس الدابة شمساً، وشماساً: جمحت ونفرت. انظر المعجم الوسيط ٤٩٦/١.

(٢) صُرَّتْ القرس والحمار بأُذُنَيْهِ يَصُرُّ صَرًّا وَصَوَّهًا، وَأَصَرُّ بِهَا: سَوَّاهَا وَلَعَبَتْهَا لِلإِسْتِمَاعِ. انظر لسان العرب ٢٤٣٠/٤.

موسى. ثم ركب. فانطلق البراق يهوي. ثم قال: انزل فَصَلْ. ففعل. ثم ركب. فقال: أتدري أين صَلَّيْتُ؟ قال: لا. قال: صَلَّيْتُ بطور سينا حيث كَلَّمَ الله موسى.

ثم بلغ أرضاً بدت له قصوراً. فقال له جبريل: انزل فَصَلْ. ففعل، ثم ركب وانطلق البراق يهوي. فقال له جبريل: أتدري أين صَلَّيْتُ؟ قال: لا. قال: صَلَّيْتُ ببيت لحم، حيث وُلِدَ عيسى. وبينما هو يسير على البراق إذ رأى عِفْرِيَّتاً من الحِجْنَ، يطلبه بشعلة من نار، كلما التفت رآه. فقال له جبريل: أَلَا أَعْلَمُكَ كلمات تقولهن، فإذا قلتهن طَفِئَتْ شَعْلَتُهُ وَخَرَّ لِفِيهِ؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى، فقال جبريل: «قُلْ أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وبكلمات الله التَّامَّاتِ التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر، من شَرِّ ما ينزل من السماء، ومن شَرِّ ما يُغْرَجُ فيها، ومن شَرِّ ما ذرأ في الأرض، ومن شَرِّ ما يخرج منها، ومن شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، ومن طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَارَحْمَنُ». فأنكَبَ لفيه وانطفأت شعلته.

فساروا حتى أتوا على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِسَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، وما أنفقوا من شيء فهو يُخْلَفُهُ. ووجد ريحاً طيبة، فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة؟ قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها، بينما هي تَمَسُطُ بنت فرعون إذ سقط المشط، فقالت: بسم الله، تجس فرعون. فقالت ابنة فرعون: أَوَلَيْكَ رَبٌّ غَيْرَ أَبِي؟ قلت: نعم، رَبِّي وَرَبُّكَ الله. وكان للمرأة ابنان وزوج فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما، فقال: إني قاتلكما، فقالا: إحساناً منك إن قتلنا أن نجعلنا في بيت. وفي رواية قالت: إن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي، فتدفيئاً جميعاً. قال: ذلك لك بما لك علينا من الحق، فأمر بثفرة من نحاس فَأُخِصَّتْ، ثم أمر بها لتُلْقَى فيها هي وأولادها، فَأُلْقُوا واحداً واحداً، حتى بلغوا أصغر رضيع فيهم، فقال: يا أمَّه قَبِيْ وَلَا تَقَاعَسِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ. قال: وتكلم أربعة وهم صِغَار: هذا وشاهد يوسف وصاحب مُجْرِيْجٍ وعيسى ابن مريم عليه السلام.

ثم أتى على قوم تُرْضَخُ رؤوسهم، كلما رُضِخَتْ عادت كما كانت. ولا يفتر عنهم من ذلك شيء. فقال: يا جبريل مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فقال: هؤلاء الذين تتشاغل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة. ثم أتى على قوم على أقبالهم رِقَاعٌ وعلى أديبارهم رِقَاعٌ، يَسْرَحُونَ كما تَسْرَحُ الْإِبِلُ وَالْغَنَمُ، ويأكلون الصُّرْبِيعَ وَالزُّقُومَ وَرَضْفَ جَهَنَّمَ وحجارتها. فقال: مَنْ هَؤُلَاءِ يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لَا يُؤَدُّونَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمْ، وما ظلمهم الله شيئاً، ثم أتى على قوم بين أيديهم لَحْمٌ نَضِيجٌ في قدور، وَلَحْمٌ آخَرُ نَبِيٍّ خَبِيثٍ، فجعلوا يأكلون من النَّبِيِّ الْخَبِيثِ وَيَدْعُونَ النَّضِيجَ. فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أُمَّتِكَ تكون عنده المرأة الحلال الطَّيِّبُ، فيأتي

امراً خبيثاً، فبييت عندها حتى يُصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فبييت معه حتى تُصبح.

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يَمُرُّ بها ثوبٌ ولا شيء إلا خَرَقَتْهُ. فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا مثل أقوام من أممك يقعدون على الطريق فيقطعونه، وتلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦] ورأى رجلاً يشرب في نهرٍ من دم، يُلقم الحجارة، فقال: من هذا؟ قال: آكلُ الرِّبَا. وأتى على قوم قد جمع الرجل منهم حِزْماً عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أممك تكون عنده أمانات الناس لا يُقدِّر على أدائها، ويريد أن يتَّحَمَّلَ عليها.

ثم أتى على قوم تُقَرِّضُ ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد كلما قُرِضَتْ. عاد، لا يُفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خُطباء الفتنة من أممك يقولون ما لا يفعلون. ومَرُّ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويُقَعِّون في أعراضهم.

وأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها. وأتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة كريح المسك، وسمع صوتاً، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا صوت الجنة تقول: يا رب إيتني بما وعدتني، فقد كثرت عُزُفِي واستبرقي وحريري وسندسي، وعُبْقُرِي^(١) ولؤلؤي ومزجاني وفضتي وذهبي، وأكوابي وصحافني وأباريقي ومراكبي وعسلي ومائي، ولبني وخمري. قال: لك كلُّ مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي، وعمل صالحاً، ولم يُشرك بي، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألتني أعطيتُهُ، ومن أقرضتني جزيتُهُ، ومن توكَّل عليَّ كفيته، إني أنا الله لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين. قالت: قد رَضِيت.

وأتى على واد فسمع صوتاً مُنكَراً ووجد ريحاً مُنْتِنَةً، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت جهنم تقول: يا رب إيتني بما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالِي وسعيري وخميمي وضريعي وغشاقِي وعذابِي، وقد بَغَدَ قُفْرِي واشتَدَّ خُرْجِي، فَأَيْتني بما وعدتني. فقال: لك كلُّ مُشْرِك ومُشْرِكَة، وكافر وكافرة، وخبيث وخبيثة، وكلُّ جَبَّار لا يؤمن بيوم الحساب: قالت: قد رَضِيت.

(١) عبقرى قيل: هو اللباج. وقيل: البسط التوثيقية. وقيل: الطنافس الثخانة. انظر النهاية لابن الأثير ١٧٣/٣.

ورأى الدُّجَال في صورته رؤية عين لا رؤيا منام، فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ فقال: «رأيتُه فيلماً نياً أقمر هجان إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دُرِّي، كأنَّ شعر رأسه أغصان شجرة، أشبهه بعبد الغُزَي بن قُطن»^(١). ورأى عموداً أبيض كأنه لؤلؤة، تحمله الملائكة، فقال: ما تحملون؟ قالوا: عمود الإسلام، أمرنا أن نضعه بالشام. وبينما يسير إذ دعاه داع عن يمينه: يا محمد، أنظرني أسألك. فلم يُجِبْه. فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي اليهود، أما إنك لو أجبتَه لتَهَوَّدت أمثك. وبينما هو يسير إذ دعاه عن شماله: يا محمد أنظرني أسألك، فلم يُجِبْه، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي النصارى، أما إنك لو أجبتَه لتَنَصَّرت أمثك.

وبينما هو يسير، إذا بامرأة حاسرة عن ذراعها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى. فقالت: يا محمد أنظرني أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتَها لاختارت أمك الدنيا على الآخرة. وبينما هو يسير فإذا هو بشيء يدعو متحياً عن الطريق، يقول: هَلُمَّ يا محمد، فقال جبريل، سِرْ يا محمد، فقال: من هذا؟ هذا عدو الله إبليس، أراد أن تميل إليه. وسار فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقالت: يا محمد أنظرني أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: من هذه يا جبريل؟ قال: إنه لم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عُقر هذه العجوز. وبينما هو يسير إذ لقيه خلق من خلق الله، فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال جبريل: ارُدُّوا السلام، فردَّ، ثم لقيه الثانية فقال له مثل ذلك، ثم لقيه الثالثة فقال له مثل ذلك. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: إبراهيم وموسى وعيسى.

ومرَّ على، موسى وهو يصلي في قبره الكثيب الأحمر، رجل طوال سبط آدم كأنه من رجال شنوءة، وهو يقول يرفع صوته: أكرمتَه وقُضِّلته، فُدِّعَ إليه، فسَلَّم عليه فردَّ عليه السلام، وقال: من هذا معك يا جبريل؟ فقال: هذا أحمد، فقل: مرحباً بالنبي العربي الذي نصح لأُمته ودعا له بالبركة وقال: سَلِّ لأمتك اليسر.

فساروا فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا موسى بن عمران، قال: ومن يُعَاتِب؟ قال: يُعَاتِب رَبَّه. قال: أو يرفع صوته على ربه؟ قال جبريل إن الله تعالى قد عرف له حِجَّتَه ثم مرَّ برجل قائم يصلي قال: من هذا معك يا جبريل قال جبريل: هذا أخوك محمد، فرحب به ودعا له ببركة فقال: سل لأمتك اليسر، فقال من هذا يا جبريل: قال هذا أخوك عيسى. ومرَّ على شجرة كان ثمرها السرح، تحتها شَيْخٌ وعياله، فرأى مَصَابِيحَ وَضُوءًا. فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم. فسَلَّم عليه فردَّ عليه السلام. وقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا ابنك

(١) أخرجه مسلم بنحوه ٢٢٥٠/٤ وأحمد في المسند ١٧٤/١.

أحمد. فقال: مرحباً بالنبي العربي الذي بَلَغ رسالة ربه ونَصَح لأُمته، يا بُني إنك لاقِ رَبَّكَ الليلة، وإن أمتك آخر الأُم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جُلُّها في أمتك فافعل. ودعا له بالبركة.

فسار حتى أتى الوادي الذي في المدينة يعني بيت المقدس، فإذا جهنم تنكشف عن مثل الروابي. فقليل: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: «مثل الحُمَم» ثم سار حتى انتهى إلى المدينة، فدخلها من بابها اليماني، وإذا عن يمين المسجد وعن يساره نوران ساطعان. فقال: يا جبريل ما هذان النوران؟ قال: أما الذي عن يمينك فإنه محراب أخيك داود، وأما الذي عن يسارك فعلى قبر أختك مريم. فدخل المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس، فوضع أصبعه فيها فخرقها، فشَدَّ بها البُرَاق، وفي رواية مسلم، فربطه بالحُلقة التي تَرْتُطُّ بها الأنبياء. فلما استوى بها النبي ﷺ في صخرة المسجد، قال جبريل: يا محمد هل سألت ربك أن يُرِيكَ الحور العين؟ قال: نعم، قال جبريل: فأنطلق إلى أولئك النسوة فسَلِّم عليهن، وهُنَّ جلوس عن يسار الصخرة، فأنتهى إليهن، فسَلِّم عليهن، فَرَدَدْنَ عليه السلام. فقال: من أنثن؟ فقلن: «خيرات حسان»، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يَذَرْنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وشُحِدوا فلم يموتوا.

ثم صَلَّى هو وجبريل كل واحد ركعتين فلم يلبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثيرون، فعرف النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أَدْن مُؤَدَّن وأقيمت الصلاة، فقاموا ينتظرون من يؤمهم، فأخذ جبريل بيده فَقَدَّمه فصَلَّى بهم ركعتين. وفي رواية: ثم أقيمت الصلاة، فتدافعوا حتى قَدَّموا مُحمداً. وعند الواسطي عن كعب: فَأَدْن جبريل ونزلت الملائكة من السماء وحشر الله له المرسلين، فصلى النبي ﷺ بالملائكة والمرسلين، فلما انصرف، قال جبريل: يا محمد، أتدري من صَلَّى خَلَقَكَ؟ قال: لا. قال: كُلُّ نبيٍّ بعثه الله تعالى.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عند الحاكم وصَحَّحه البيهقي: فلقي أرواح الأنبياء، فأنثوا على ربه. فقال إبراهيم: «الحمد لله الذي اتخذني خليلاً وأعطانني مُلكاً عظيماً وجعلني أمةً قانتاً يُؤْتَم بي، وأنقذني من النار، وجعلها عليّ بَرْداً وسلاماً. ثم إن موسى أنثى على ربه تبارك وتعالى فقال: «الحمد لله الذي كَلَّمَنِي تكليماً وجعل هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون». ثم إن داود أنثى على ربه فقال: «الحمد لله الذي جعل لي مُلكاً عظيماً، وعَلَّمَنِي الزبور، وآلان لي الحديد، وسَخَّر لي الجبال يُسَبِّحُن والطير، وأعطانني الحكمة وفصل الخطاب».

ثم إن سليمان أنثى على ربه فقال: «الحمد لله الذي سَخَّر لي الرياح وسَخَّر لي

الشياطين والإنس يعملون لي ما شئت من محاريب وتمائيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات، وعلمني منطق الطير وأتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والجن والطير، وفضلني على كثير من عباده المؤمنين، وأتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي وجعل ملكي ملكاً طيباً ليس فيه حساب ولا عقاب».

ثم إن عيسى بن مريم أتى على ربه تبارك وتعالى فقال: «الحمد لله الذي جعلني كلمته وجعل مثلي مثل آدم خلقه من تراب. ثم قال له: كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة، والتوراة والإنجيل، وجعلني أبرئ الأكمه والأبرص وأخبي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني. وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل».

فقال النبي ﷺ: «كلكم أتى على ربه وإني مثنى على ربي»، فقال: «الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافئة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون والآخرون، وشرح لي صدري ووضع عني وزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحاً وخاتماً». فقال إبراهيم عليه السلام: «بهذا فضلكم محمد ﷺ».

ثم تذكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال: «لا أعلم لي بها». فردوا أمرهم إلى موسى فقال: «لا أعلم لي بها». فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: «أما وجبتُها فلا يعلمها إلا الله، وفيما عهد إليّ ربي أن الدجال خارج، ومعني قضيبان، فإذا رأيته ذاب كما يذوب الرصاص، فيهلكه الله تعالى إذا رأيته، حتى أن الحجر ليقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقته، فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج. وهم من كل حدب ينسلون فيطأون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يرون على ماء إلا شربوه، ثم يرجع الناس فيشكونهم إليّ، فأدعو الله تعالى عليهم، فيهلكهم ويبيتهم حتى تحوي الأرض من ريحهم، فينزل الله تعالى المطر، فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إليّ ربي أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل الحميم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولائها ليلاً أو نهاراً».

وأخذ النبي ﷺ من العطش أشد ما أخذه، فأتي بقدرين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال في أحدهما لبن والآخر غسل - وفي رواية آتني بانية ثلاث مغطاة أفواهاها، فأتي بإناء منها فيه ماء فشرب منه قليلاً، وفي لفظ أنه لم يشرب منه شيئاً، ثم دُفع إليه إناء آخر فشرب منه حتى زوي، ثم دُفع إليه إناء آخر فيه خمر، فقيل له: اشرب فقال: «لا أريده قد زويت». فقال جبريل: «إنها ستحرم على أمتك». وفي رواية: فعرض عليه الماء والخمر واللبن، وفي

رواية العسل بدل الماء فشرب من العسل قليلاً، وتناول اللبن فشرب منه حتى رُوي، فضرب جبريل منكبيه وقال: «أَصَبَّتْ الْفِطْرَةُ، وَلَوْ شَرِبْتَ الْخَمْرَ لَعَوْتَ أُمْتُكَ وَلَمْ يَتْبَعَكَ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَلَوْ شَرِبْتَ الْمَاءَ لَغَرَقْتَ أُمْتُكَ»، وفي رواية قال شيخ «مُتَكَيِّءٌ عَلَى مِئْبَرٍ لَهُ لِجَبْرِيلَ: «أَخَذَ صَاحِبُكَ الْفِطْرَةَ، وَإِنَّهُ لَمُهْتَدٍ». ثُمَّ أَتَى بِالْمِعْرَاجِ الَّذِي تَعْرُجُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ، فَلَمْ يَرِ الْخَلْقَ أَحْسَنَ مِنَ الْمِعْرَاجِ، لَهُ مَرْقَاةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَمَرْقَاةٌ مِنْ ذَهَبٍ. وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي سَعِيدٍ فِي شَرَفِ الْمُصْطَفَى أَنَّهُ أَتَى بِالْمِعْرَاجِ مِنْ جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ مُتَضَيِّدٌ بِاللُّؤْلُؤِ، عَنْ يَمِينِهِ مَلَائِكَةٌ وَعَنْ يَسَارِهِ مَلَائِكَةٌ، فَصَعِدَ هُوَ وَجَبْرِيلُ حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا يُقَالُ لَهُ بَابُ الْحَقِّقَةِ وَعَلَيْهِ مَلَكٌ يُقَالُ لَهُ إِسْمَاعِيلُ، وَهُوَ صَاحِبُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا - وَفِي حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ: «يَسْكُنُ الْهَوَاءَ فَلَمْ يَصْعَدْ إِلَى السَّمَاءِ قَطُّ وَلَمْ يَهْبِطْ إِلَى الْأَرْضِ قَطُّ إِلَّا يَوْمَ مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ»، انتهى - وبين يديه سبعون ألفَ مَلَكٍ مع كلِّ مَلَكٍ جُنْدُهُ مِائَةُ أَلْفٍ.

فاستفتح جبريل باب السماء: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ - وفي رواية: بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قال: نَعَمْ، قيل: مَرْحَباً بِهِ وَأَهْلًا، حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الْأَخُ وَنِعْمَ الْخَلِيفَةُ، وَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ لَهَا. فَلَمَّا خَلَصَا إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَى صُورَتِهِ، تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيَّتِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ وَنَفْسٌ طَيِّبَةٌ، إِجْعَلُوهَا فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيَّتِهِ الْكُفَّارِ، فَيَقُولُ: رُوحٌ خَبِيثَةٌ وَنَفْسٌ خَبِيثَةٌ، اجْعَلُوهَا فِي سِجِّينَ وَعَنْ يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَبَابٌ تَخْرُجُ مِنْهُ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَعَنْ شِمَالِهِ أَسْوَدَةٌ وَبَابٌ تَخْرُجُ مِنْهُ رِيحٌ خَبِيثَةٌ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَاسْتَبَشَرَ، وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَالِهِ حَزَنَ وَبَكَى.

فَسَلَّمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَزَدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا جَبْرِيلُ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ نَسَمَ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ الشِّمَالِ مِنْهُمْ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَالِهِ بَكَى، وَهَذَا الْبَابُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ بَابُ الْجَنَّةِ، إِذَا نَظَرَ مِنْ يَدْخُلُهُ مِنْ دُورَتِهِ ضَحِكَ وَاسْتَبَشَرَ، وَالْبَابُ الَّذِي عَنْ شِمَالِهِ بَابُ جَهَنَّمَ، إِذَا نَظَرَ مِنْ يَدْخُلُهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بَكَى وَحَزَنَ.

ثُمَّ مَضَى ﷺ هَنِيعَةً، فَإِذَا هُوَ بِأَخَوْتِهِ عَلَيْهَا لَحْمٌ مَشْرُحٌ لَيْسَ يَقْرَبُهُ أَحَدٌ، وَإِذَا بِأَخَوْتِهِ عَلَيْهَا لَحْمٌ قَدْ أَرْوَحَ وَأَتَنَ، عِنْدَهُ نَاسٌ يَأْكُلُونَ مِنْهُ. فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ مَنْ أُمْتُكَ يَتَرَكُونَ الْحَلَالَ وَيَأْتُونَ الْحَرَامَ. وَفِي لَفْظٍ: وَإِذَا هُوَ بِأَقْوَامٍ عَلَى مَائِدَةٍ عَلَيْهَا لَحْمٌ مَشْوِيٌّ كَأَحْسَنِ مَا رُوي مِنَ اللَّحْمِ، وَإِذَا حَوْلَهُ جَيْفٌ، فَجَعَلُوا يُقِيلُونَ عَلَى الْجَيْفِ يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَيَدْعَوْنَ اللَّحْمَ. فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّانَةُ يُجْلَوْنَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيَتَرَكُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ.

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام بطونهم أمثال البيوت فيها الحياة تُرى من خارج بطونهم، كلما نهض أحدهم خرّ، فيقول: اللهم لا تقم الساعة، قال: وهم على سابلة آل فرعون، فتجيء السابلة فتطوهم فسمعتهم يَضِجُونَ إلى الله تعالى. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام مَشَاوِرُهُمْ كَمَشَاوِرِ الْإِبِلِ، فَتَفْتَحُ أَفْوَاهَهُمْ وَيُلْقَمُونَ حَجَرًا، وفي رواية: يُجْعَلُ فِي أَفْوَاهِهِمْ صَخْرٌ مِنْ جَهَنَّمَ، ثم يخرج من أسافلهم، فسمعتهم يَضِجُونَ إلى الله تعالى. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١] ثم مضى هنيهة فإذا هو بنساء مُعَلَّقَاتٍ بِثَدْيِيهِنَّ وَنِسَاءٍ مُتَكَسَّاتٍ بِأَرْجُلِهِنَّ، فَسَمِعْتُهُنَّ يَضِجْنَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي يزنين وَيَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ. ثم مضى هنيهة إذا هو بأقوام يُقْطَعُ مِنْ جُنُوبِهِمُ اللَّحْمُ فَيُلْقَمُونَهُ، فيقال له: كُلْ كما كنت تأكل من لحم أخيك. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الْهَمَّازُونَ مِنْ أُمَّتِكَ الْهَمَّازُونَ..

ثم صعدا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدْ أُزِيلَ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ إِيْخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الْأَخُ وَنِعْمَ الْخَلِيفَةُ وَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. ففتح لهما. فلما خَلَصَا فإذا هو بَابْنِي الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، شبيه أحدهما بصاحبه: ثِيَابُهُمَا وَسُغْرُهُمَا وَمَعَهُمَا نَقَرٌ مِنْ قَوْمِهِمَا. وإذا بعيسى جَفْدٌ مَرْبُوعُ الْحَقْلِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ سَبَطَ الشَّعْرِ كَأَنَّمَا أُخْرِجَ مِنْ دِيْمَاسٍ أَيْ حَمَامٍ شَبَّهَتْهُ بِغُرُورَةِ بَنٍ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ.

فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا فَرَدًّا عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثم قالَا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ودَعَا لَهُ بِخَيْرٍ.

ثم صعدا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدْ أُزِيلَ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ فَنِعْمَ الْأَخُ وَنِعْمَ الْخَلِيفَةُ وَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. ففتح لهما فلما خَلَصَا فإذا هو بيوسف ومعه نَقَرٌ مِنْ قَوْمِهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ودعا له بخير، وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، وفي رواية أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، قد فضل الناس بِالْحُسْنِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ. قال: من هذا يا جبريل؟ قال: أخوك يوسف.

ثم صعدا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن

معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً حَيَّاهُ الله من أَخٍ ومن خليفة، فَنِعْمَ الْأَخُ ونعم الخليفة وَنِعْمَ الْمَجِيءُ جاء. فلما خَلَصَا فإذا هو بِإَدْرِيسَ فقد رفعه الله مكاناً عَلياً، فَسَلَّمَ عليه فَرَدُّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ثم دعا له بخير.

ثم صعدا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ، فَقِيلَ: من هَذَا؟ فَقَالَ: جَبْرِيلُ. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حَيَّاهُ الله من أَخٍ ومن خليفة، فَنِعْمَ الْأَخُ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء. ففتَحَ لهما، فلما خَلَصَا فإذا هو بِهَارُونَ، وَنِصْفَ لَحِيَّتِهِ بِيضَاءَ وَنِصْفَ لَحِيَّتِهِ سُودَاءَ، تَكَادَ تَضْرِبُ إِلَى سُرَّتِهِ مِنْ طَوْلِهَا، وَحَوْلَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ يَقْصُ عَلَيْهِمْ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدُّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثم قال: مرحباً بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثم دعا له. فقال: يَا جَبْرِيلُ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: الرَّجُلُ الْمُحِبُّ فِي قَوْمِهِ هَارُونَ بْنُ عِمْرَانَ.

ثم صعدا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ. قيل: من هَذَا؟ قال: جَبْرِيلُ. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حَيَّاهُ الله من أَخٍ ومن خليفة، فَنِعْمَ الْأَخُ ونعم الخليفة وَنِعْمَ الْمَجِيءُ جاء، ففتَحَ لهما، فجعل يَمُرُّ بِالنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّينَ معهم الرُّهْطَ، وَالنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّينَ معهم الْقَوْمَ، وَالنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّينَ لَيْسَ مَعَهُمْ أَحَدٌ. ثم مَرَّ بِسُودَ عَظِيمٍ، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» قِيلَ: مُوسَى وَقَوْمُهُ وَلَكِنْ أَرَفَعُ رَأْسَكَ فَإِذَا بِسُودَ عَظِيمٍ قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ مِنْ ذَا الْجَانِبِ وَمِنْ ذَا الْجَانِبِ فَقِيلَ لَهُ: هَؤُلَاءِ أُمَمُكَ وَسُوءُ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ. فلما خَلَصَا فإذا بِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، رَجُلٌ آدَمُ طَوَالٍ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةِ، كَثِيرُ الشُّعْرِ، لَوْ كَانَ عَلَيْهِ قَمِيصَانِ لَتَفَدَّ شَعْرُهُ دُونَهُمَا.

فَسَلَّمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَرَدُّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثم قال: مرحباً بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثم دعا له بخير، وَقَالَ: يَزْعُمُ النَّاسُ أَنِّي أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا، بَلْ هَذَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنِّي. فلما جَاوَزَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى. فَقَالَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: أَبْكِي لِأَنِّي غَلَامًا بُعِثْتُ مِنْ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي، وَيَزْعُمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَكْرَمُ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى اللَّهِ. وَهَذَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ خَلَفَنِي فِي دُنْيَا وَأَنَا فِي أُخْرَى، فَلَوْ أَنَّهُ بِنَفْسِهِ لَمْ أَتَابِلْ، وَلَكِنْ مَعَهُ كُلُّ أُمَّتِهِ. ثم صعد.

فلما انتهينا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ رَأَى فَوْقَهُ رَعْدًا وَبَرْقًا وَصَوَاعِقَ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ، قِيلَ: من هَذَا؟ قال: جَبْرِيلُ. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حَيَّاهُ الله من أَخٍ ومن خليفة، فَنِعْمَ الْأَخُ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء. ففتَحَ لهما فَسَمِعَ تَسْبِيحًا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَا مَعَ تَسْبِيحٍ كَثِيرٍ: تَسَبَّحَتِ السَّمَوَاتُ الْعُلَى مِنْ ذِي

المهابة مشفقات؛ سبحانه العَلِيِّ الأعلى، سبحانه وتعالى. فلما خلاصا فإذا النبي ﷺ بإبراهيم رجلاً أشمط، جالس عند باب الجنة، على كُرْسِيٍّ مُشِيداً ظَهَرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، ومعه نَقَرٌ من قومه، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح وقال: مُزِ أُمْتُكَ فَلْيُكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ فَإِنْ ثُرِبَتْهَا طَيِّبَةٌ وَأَرْضُهَا وَاسِعَةٌ. فقال له: وما غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟ قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العَلِيِّ العظيم». وفي رواية: «أَقْرَى عَلَى أُمَّتِكَ مِنْي السَّلَامَ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ الثَّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّ غِرَاسَهَا؟ سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». وهو أشبه ولده به، وعنده قَوْمٌ جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقومٌ في أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ، فقام هؤلاء الذين في أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ، فدخلوا نهراً، فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خَلَصَتْ أَلْوَانُهُمْ وصارت مثل ألوان أصحابهم. فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم فقال: يا جبريل مَنْ هَؤُلَاءِ الْبَيْضُ الْوُجُوهِ وَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ وما هذه الأنهار التي دخلوها؟ فقال: أَمَا هَؤُلَاءِ الْبَيْضُ الْوُجُوهِ فَقَوْمٌ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، وَأَمَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ فَقَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَمَا هَذِهِ الْأَنْهَارُ فَأُولَئِكَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَالثَّانِي نِعْمَةُ اللَّهِ وَالثَّالِثُ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] وقيل له: هذا مكانك ومكان أمتك، وإذا هو بِأَمْتِهِ شَطْرَيْنِ: شَطْرَ عَلَيْهِمْ ثِيَابَ كَأَنَّهَا الْقَرَاتِيسَ، وشَطْرَ عَلَيْهِ ثِيَابَ رُمَدٍ^(١)، فدخل البيت المعمور، ودخل معه الآخرون الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرَّمْدَ وهم على خير، فَصَلَّى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفَ مَلَكٍ لا يعودون إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، آخر ما عليهم، ثم خرج ومن معه.

وفي حديث عند الطبراني بسند صحيح: «مَرَزْتُ لَيْلَةَ أُشْرِيَّ بِي عَلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى فَإِذَا جَبْرِيلُ كَالْجِلْسِ^(٢) الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وفي رواية عند البزار «كَأَنَّهُ جَلَسَ لَا طِيَّ». انتهى، ثم أُتِيَ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فشرب اللبن، فقال جبريل: اختارت^(٣) أُمَّتُكَ الْفِطْرَةَ، وفي رواية: هذه الفطرة التي أنت عليها وأُمَّتُكَ. ثم رُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وإليها ينتهي ما يعرض من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوق فيقبض منها. وإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهارٌ من ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وأنهارٌ من خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. وإذا نَبَقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجْرٍ، وإذا ورقها

(١) رُمْد: أي عبر فيها كدورة كلون الرُمَاد، واحداً أَرْمَد. انظر النهاية لابن الأثير ٢/٢٦٢.

(٢) جلس جمع جلَسَ، وهو الكِشَاءُ الذي يلي ظهر البعير تحت القتب، شَبَّهَهَا بِهِ لِلزُّوْمِهَا وَدَوَامِهَا. انظر النهاية لابن الأثير ٤٢٣/١.

(٣) في أ: أصاب الله بك.

كأذان الفيلة، تكاد الورقة تُغَطِّي هذه الأمة، وفي رواية: الورقة منها مُغَطِّيةٌ للأمة كلها. وفي لفظ عند الطبراني: الورقة منها تُظِلُّ الخلق، على كل ورقة مَلَك، تغشاها ألوان لا يُدْرَى ما هي، فلما غَشِيَتْها من أمر الله تعالى ما غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ، وفي رواية: تحوَّلت ياقوتاً وزبرجداً فما يستطيع أَحَدٌ أَنْ يَنْعَمَها من حُسْنِها، فيها فَرَّاشٌ من ذهب، وفي رواية يلوذ بها جرادٌ من ذهب.

فَقِيلَ له: هذه السدرة ينتهي إليها كل أَحَدٍ من أمتك خلا^(١) على سبيلك، وإذا في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. وفي رواية: فإذا في أصلها عَيْنٌ تجري يقال لها السلسبيل، ينشَقُّ منها نهران: أحدهما الكوثر، يَطْرُدُ عَجَاجاً مثل السَّهْمِ، عليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعليه طيورٌ تُخَضِّرُ أنعم طير، رأى فيه أنية الذهب والفضة، تجري على رضراض من الياقوت والزمرد، ماؤه أشدَّ بياضاً من اللبن، فأخذ من أنية، فاغترف من ذلك الماء، فشرب فإذا هو أحلى من العسل، وأشدَّ ريحاً من المسك، فقال له جبريل: هذا هو النهر الذي حباك به رَبُّكَ، والنهر الآخر نهر الرحمة فاغْتَسِلْ فيه، فَعُفِّرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أَنَّهُ ﷺ رأى جبريل عند السدرة له ستمائة جناح، جناحٌ منها قد سَدَّ الأفق، تتناثر من أجنته التهاويل: الدر والياقوت مما لا يعلمه إلا الله تعالى. انتهى. ثم أخذ على الكوثر حتى إِذْ دخل الجنة فإذا فيها ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سمعت ولا تُحْطَرُ على قلب بَشَرٍ، فرأى على بابها مكتوباً: الصَّدَقَةُ بعشر أمثالها، والقرض بشمانية عشر. فقال: يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لَأَنَّ السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يسأل إلا من حاجة. فاستقبلته جارية فقال: لمن أنت يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة.

ورأى الجنة من دُرَّةٍ بيضاء وإذا فيها جناب^(٢) اللؤلؤ. فقال: يا جبريل، إنهم يسألوني عن الجنة. فقال: إِنْخَبِرْهم أَنَّها قيعان تُزَاهِي المسك، وسمع في خارجها وَجْساً^(٣)، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: بلال المؤذن. فسار فإذا هو بأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لَذَّةٍ للشاربين، وأنهار من عَسَلٍ مُصَفًّى، وإذا رُمانها كالذَّلاء، وفي رواية: وإذا فيها رُمان كأنه جلود الإبل المُقَتَّبَةِ، وإذا بطيرها كالْبَهَائِي^(٤). فقال أبو بكر: يا رسول الله إن تلك الطير لناعمة. قال:

(١) خلا عليه: اعتمد عليه. انظر المعجم الوسيط ٢٥٣/١.

(٢) جنبد في صفة الجنة فيها جنابٌ من لؤلؤ الجنابُ جمع جَبِيذَة: وهي القُبَّة انظر النهاية لابن الأثير ٣٠٥/١.

(٣) الوجس: الصوت الخفي، وتوجس بالشئ: أحس به فتسمع له، انظر النهاية لابن الأثير ١٥٦/٥. والمعجم الوسيط ٢/١٠٢٥.

(٤) البهائية: الانثى من الجمال البهت، والذكر بهتي، وهي جمال طوال الأعناق، وتُجمع على بهتي وبهاتي، واللفظة معربة. انظر النهاية لابن الأثير ١٠١/١.

أَكَلَتْهَا أَنْعَمَ مِنْهَا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا. وَبَيْنَا هُوَ يَسِيرُ بِنَهْرٍ عَلَى حَافِيَتِهِ الدَّرِّ الْمُجَوَّفِ، وَإِذَا طِينَةٌ مَسَكَ أَذْفَرُ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هُوَ الْكَوْثَرُ.

ثُمَّ عُرِضَتْ عَلَيْهِ النَّارُ إِذَا فِيهَا غَضَبُ اللَّهِ وَزَجَرُهُ وَنَقْمَتُهُ، وَلَوْ طُرِحَ فِيهَا الْحِجَارَةُ وَالْحَدِيدُ لَأَكَلَتْهَا، إِذَا بِقَوْمٍ يَأْكُلُونَ الْجَيْفَ، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ. وَرَأَى رَجُلًا أَحْمَرَ أَزْرَقَ فَقَالَ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا عَاقِرُ النَّاقَةِ. وَرَأَى مَالِكَ خَازِنِ النَّارِ، إِذَا بِرَجُلٍ عَائِسٍ يُعْرِفُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، فَبَدَأَ النَّبِيُّ ﷺ بِالسَّلَامِ، ثُمَّ أَعْلَقَتْ دُونَهُ، ثُمَّ رُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا مِنْ أَنْوَارِ الْخَلَائِقِ وَمِنْ أَنْوَارِ الْمَلَائِكَةِ أَمْثَالُ الْغُرْبَانِ حِينَ يُقَضُّ عَلَى الشَّجَرَةِ وَيَنْزِلُ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَغَشِيَهَا سَحَابَةٌ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ.

وَفِي حَدِيثٍ أَنَّ جَبْرِيلَ قَالَ لَهُ: إِنَّ رَبِّكَ يُسَبِّحُ. قَالَ: وَمَا يَقُولُ؟ قَالَ: يَقُولُ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي». فَتَأَخَّرَ جَبْرِيلُ، ثُمَّ عَرَّجَ بِهِ حَتَّى ظَهَرَ لِمَسْتَوًى سَمِعَ فِيهِ صَرِيْفَ^(١) الْأَقْلَامِ. وَرَأَى رَجُلًا مُغْتَبًيًا فِي نَوْرِ الْعَرْشِ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ مَلَكٌ، قِيلَ: لَا، قَالَ: نَبِيٌّ، قِيلَ: لَا، قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قِيلَ: هَذَا رَجُلٌ كَانَ فِي الدُّنْيَا لِسَانَهُ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَلَمْ يَنْتَسِبْ لَوَالِدِيهِ قَطُّ، فَرَأَى رَبَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَخَرَّ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا، وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ. فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَبِّ. قَالَ: سَلْ. فَقَالَ: إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَسَخَّرْتَ لَهُ الرِّيحَ وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ. وَعَلَّمْتَ عِيسَى التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَجَعَلْتَهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِكَ، وَأَعْدَدْتَ وَأَمَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمَا سَبِيلٌ.

فَقَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى: قَدْ اتَّخَذْتُكَ حَبِيبًا. قَالَ الرَّاوي: وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: حَبِيبُ اللَّهِ. وَأَرْسَلْتُكَ لِلنَّاسِ كَافَّةً بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَشَرَحْتُ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْتُ عَنْكَ وَزْرَكَ، وَرَفَعْتُ لَكَ ذِكْرَكَ، لَا أَذْكُرُ إِلَّا وَذِكْرُكَ مَعِيَ وَجَعَلْتُ أَمْتَكَ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجْتَ لِلنَّاسِ وَجَعَلْتُ أَمْتَكَ أُمَّةً وَسَطًا، وَجَعَلْتُ أَمْتَكَ هُمُ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، وَجَعَلْتُ أَمْتَكَ لَا يَجُوزُ لَهُمْ خُطْبَةٌ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي، وَجَعَلْتُ مِنْ أَمْتِكَ أَقْوَامًا قُلُوبُهُمْ أَنَا جِيلُهُمْ، وَجَعَلْتُكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْقًا وَآخِرَهُمْ بَعثًا، وَأَوَّلَهُمْ يُقَضَّى لَهُ، وَأَعْطَيْتُكَ سَبْعًا مِنَ الْمِثَالِ لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ عَرْشِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ الْكَوْثَرَ،

(١) أَسْمَعُ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ أَيَّ صَوْتٍ جَرَّيْنَاهَا بِمَا تَكْتَبُهُ مِنْ أَقْضِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْيِهِ، وَمَا يَنْتَسِخُونَهُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. انْظُرِ النِّهَايَةَ لِابْنِ الْأَثِيرِ ٢٥/٣.

وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأني يوم خلقت السموات والأرض، فَرَضْتُ عليك وعلى أمتك خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فقم بها أنت وأمتك.

قال أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضَّلَنِي ربي: أَرسلني رحمة للعالمين، وكافَّةً للناس بشيراً ونذيراً، وألقى في قلوب عدوِّي الرُّعبَ من مسيرة شهر، وأحلَّ لي الغنائم، ولم تحلَّ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعَرَضْتُ على أمتي فلم يخف عليَّ التابع والمتبوع ورأيتهم على قوم ينتعلون بالشَّعر، ورأيتهم أتوا على قوم عِراض الوجوه صغار الأعين كأنما أُخْرِمَتْ أعْيُنُهُم بالمخيط فلم يخف عليَّ ما هم، لا قويٌّ من بعدي، وأُمرت بخمسين صلاة». انتهى. وأُعطيت ثلاثاً: أَنه سيِّد المُرسَلين وإمام المُتَّقِينَ وقائد الغرِّ المُحَجَّلِينَ.

وفي حديث ابن مسعود: أُعْطِيَ رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يُشْرِك بالله من أُمَّته شيئاً المُقْجِمَات^(١).

ثم انجلت عنه السحابة وأخذ بيده جبريل، فانصرف سريعا، فأتى على إبراهيم، فلم يقل شيئا، ثم أتى على موسى، قال: ونعم الصاحب كان لكم، فقال: «ما صنعت يا محمد؟ ما فَرَضَ عليك رَبُّكَ وعلى أمتك؟» قال: فَرَضَ عَلَيَّ وعلى أمتي خمسين صلاة كل يوم وليلة». قال: «فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك، فإن أمتك لا تُطِيق ذلك، فإني قد خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَبَلَّوْتُ بني إِسْرَائِيلَ وعالجتهم أَشَدَّ المعالجة على أدنى من هذا فَضَعُفُوا وتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وأبداناً وقلوباً وأبصاراً وأسماعاً». فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل يستشيريه، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فارجع سريعا حتى انتهي إلى الشجرة، فغشيته السحابة، وخرَّ ساجداً.

وقال: «رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا»، وفي لفظ: «عن أمتي فإنها أضعف الأمم». قال: «قد وضعت خمسيناً»، ثم انجلت السحابة، ورجع إلى موسى فقال: «وضع عني خمسيناً». قال: «ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تُطِيق ذلك». فلم يزل يرجع بين موسى وبين ربه، يَحْطُّ عنه خمسيناً خمسيناً، حتى قال: «يا محمد»، قال: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ» قال: «هَرَنْ خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة لا يُبَدِّلُ القولُ لدي ولا يَنْسُخُ كِتَابِي تَخْفِيفُهَا عَنْكَ كَتَخْفِيفِ خَمْسِ صَلَوَاتٍ، ومن هَمَّ بِحَسَنَةٍ فلم يعملها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ فَإِنْ

(١) المُقْجِمَات: أي الذنوب العظام التي تُفْجِمُ أَصْحَابَهَا فِي النَّارِ: أي تلقيهم فيها. انظر النهاية لابن الأثير ١/٩٤.

عملها كتبت له عشرأ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب شيئاً فإن عملها كُتبت سيئة واحدة. فنزل حتى انتهى إلى موسى، فأخبره فقال: «ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك». قال له: «قد راجعتُ ربي حتى استحيتُ منه ولكن أرضى وأسلم». فناداه منادٍ أن «قد أَمْضَيْتُ فريضتي وخففت عن عبادي»^(١).

فقال له موسى: «اهبط بسم الله». ولم يُز على الملائكة إلا قالوا له: «عليك بالحِجَامَة»^(٢). وفي لفظ: «مُر أُمَّتُكَ بالحِجَامَة». ثم انحدر، فقال جبريل: «مالي لم آت لأهل السماء إلا رَحَّبوا بي وضحكوا إليّ، غير واحد سَلَّمْتُ عليه فَرَدَّ السلام وَرَحَّبَ بي ودعا لي، ولم يضحك إليّ. قال: قال: «مالك خازن النار، لم يضحك منذ خُلِق، ولو ضحك لأحد لضحك إليك». فلما نزل إلى السماء الدنيا نظر أسفل منه، فإذا هو بِرَهْجٍ وَدُخَانٍ، فقال ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم، لا يتفكرون في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لَرَأَوْا العجائب.

ثم ركب منصرفاً، فمرَّ بِعِيرٍ لقریش بمكان كذا وكذا، منها جَمَلٌ عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فلما حاذى العير نَفَرَتْ واستدارت وصرخ ذلك البعير وانكسر، وتمرَّ بِعِيرٍ قد ضَلُّوا بِعِيرٍ لَهُمْ قد جمعه فلان، فسَلَّم عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد.

ثم أتى أصحابه قبيل الصبح بمكة، فلما أصبح قطع وعرف أن الناس تُكذِّبُه، فقعد حزناً، فمرَّ عليه عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال: أُسْرِي بي الليلة. قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: نعم. فلم يَر أنه يُكذِّبُه مَخَافَةً أَنْ يَجْحَدَه الحديث إن دعا قومه إليه. قال: أَرَأَيْتَ إن دعوت قومك لتحدهم ما حدثتني؟ قال: نعم، قال يا معشر بني كعب بن لؤي.

فانفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما. فقال: حَدَّث قومك بما حَدَّثتني فقال النبي ﷺ: «إني أُسْرِي الليلة بي». قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: نعم، فمن بين مُصَفَّقٍ ومن بين واضع يده على رأسه مُتَعَجِّباً، وَضَجُّوا وأعظموا ذلك. فقال المُطْعِم بن عدي: كُلُّ أَمْرِكَ قبل اليوم كان أَمَّا غير قولك اليوم، أنا أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى البيت المقدس مُضْعِداً شهراً ومنحدرأ شهراً، أَتَدْعِي أَنَّكَ أَتَيْتَهُ في ليلة؟ واللآل والغرَى لا أصدقك.

(١) أخرجه البخاري، ٣٤١/٧ (٣٨٨٧).

(٢) أخرجه البخاري بلفظ، إن أمثل ما تداولتم به الحِجَامَة، (٥٦٩٦).

فقال أبو بكر لمطعم: يئس ما قلت لابن أخيك، جبهته وكذبه، أما أنا فأشهد أنه صديق صادق. فقالوا: يا محمد صف لنا بيت المقدس، كيف بناؤه وكيف هيئته؟ وكيف قُزبه من الجبل؟ وفي القوم من سافر إليه. فذهب ينعت لهم بناءه كذا وهيئته كذا، وقُزبه من الجبل كذا، فما زال ينعتهم حتى التبس عليه الثُّغْت فكَرِبَ كَرْباً ما كُرِبَ مثله، فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وُضِعَ دون دار عقيل أو عُقال، فقالوا: كم للمسجد من باب؟ ولم يكن عُدّها، فجعل ينظر إليه ويتعدها باباً باباً، ويُعلمهم، وأبو بكر يقول: صَدَقْتَ صَدَقْتَ، أشهد أنك رسول الله. فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب.

ثم قالوا لأبي بكر: أفَتَصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبح؟ قال: نعم إني لأُصدِّقُهُ فيما هو أبعد من ذلك، أَصَدِّقُهُ بخبر السماء في عُدْوَةٍ أو رَوْحَةٍ. فبذلك شَهِىَ أبو بكر الصديق. ثم قالوا: يا محمد أَخْبِرْنَا عن عِيرِنَا. فقال «أَتَيْتُ عَلَى عِيرِ بَنِي فُلَانٍ بِالرَّوْحَاءِ قَدْ ضَلُّوا نَاقَةً لَهُمْ، فَانْطَلَقُوا فِي طَلَبِهَا، فَانْتَهَيْتُ إِلَى رَحَالِهِمْ، فَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَإِذَا قَدْ شَرِبَ مَاءٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَيْتُ إِلَى عِيرِ بَنِي فُلَانٍ فِي التَّنْعِيمِ يَقْدَمُهَا جَمَلٌ أَوْزَقٌ عَلَيْهِ مِشْحٌ أَسْوَدٌ وَغُرَارَاتَانِ سَوْدَاوَانِ وَهِيَ ذَهَبُ تَطْلُعِ عَلَيْكُمْ مِنَ النَّبِيَّةِ». قالوا: فمتى تجيء؟ قال يوم الأربعاء. فلما كان ذلك اليوم، انصرفت قريش ينظرون وقد وُلَّى النهار، ولم تجيء. فدعا النبي ﷺ، فزید له في النهار ساعة، وحُبِسَتْ عليه الشمس، حتى دخلت العير، فاستقبلوا الليل. فقالوا: هل ضَلَّ لكم بعير؟ قالوا: نعم. فسألوا العير الآخر فقالوا: هل انكسر لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة من ماء؟ فقال رجل: أنا والله وضعتها فما شربها أحد، متأولاً أُمِرِيتُ في الأرض. فرمّوه بالسحر، وقالوا: صَدَقَ الوليد، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

فائدة: أخرج ابن مَرْدَوَيْهِ عن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، مِنْذُ أُشْرِىَ بِهِ رِيحُهُ رِيحُ عَرُوسٍ وَأَطِيبٌ مِنْ رِيحِ عَرُوسٍ. شعر ويرحم الله تعالى من قال:

سَادَ الْأَنْثَامَ مُحَمَّدٌ خَيْرُ الْوَرَى	بِقَضَائِلِ جَلَّتْ عَنِ الْإِخْصَاءِ
وَجَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي مَا تَالَهَا	أَحَدٌ مِنَ الْقُصَصَاءِ وَالْبُلَغَاءِ
وَأَلَى الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ إِزْوَاسُهُ	فَشَفَى الْقُلُوبَ الْجَمَّةَ الْأَذْوَاءِ
وَلَهُ الشُّفَاعَةُ وَالْوَسِيلَةُ فِي عَدٍ	وَمَقَامُهُ السَّامِيُّ عَلَى الشُّفَعَاءِ
وَيَجِيءُ يَوْمِيذٍ كَمَا قَدْ قَالَهُ	أَنَا رَاكِبٌ وَالرُّسُلُ تَحْتَ لِيَوَائِي
وَلَقَدْ دَنَا مِنْ رَبِّهِ لَمَّا دَنَا	فِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ وَالْإِسْرَاءِ
سَمِعَ الْخِطَابَ بِخُضْرَةٍ قُدْسِيَّةٍ	مَا حَلَّهَا بِشَرٍّ مِنَ الْعُظَمَاءِ

وَبِرُؤْيَا الْجَبَّارِ فَارَ وَتَيَا لَهَا
مَا نَالَ مُوسَى وَالْحَلِيلُ وَمُجْتَبَى
يَا كُنْزَ مُفْتَقِرٍ وَمُلْجَأَ غَائِبٍ
أَنْتَ الْوَسِيلَةُ لِلَّهِ فَسَلْ لَنَا
وَدْخُولَنَا الْجَنَّاتِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ
بِكَ نَسْتَعِينُ وَنَسْتَعِيزُ وَنَلْتَجِي
وَنَرُومُ فَضْلاً مِنْ جَنَابِكَ سَيِّدِي
قَالَيْكَ سَأَقِ [اللَّهُ] سُحْبَ صِلَاتِهِ
وَعَلَى صَحَابَتِكَ الرُّضَى مُتَعَدِّداً

ولله دُرُّ البوصيري حيث قال مخاطباً للذات الشريفة:

سَرَنْتُ مِنْ خَرَمٍ لَيْلًا إِلَى خَرَمٍ
وَبِتُّ تَرَوْنِي إِلَى أَنْ نَلْتُ مَنْزِلَةً
وَقَدَّمْتُكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا
وَأَنْتَ تَخْتَرُقُ الشَّبَعِ الطَّبَاقَ بِهِمْ
خَتَمِي إِذَا لَمْ تَدْعُ شَأْراً لِمُسْتَبِقِي
خَفَضْتُ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَاقَةِ إِذْ
كَيْفَمَا تَفُوزُ بِوَضْعِي أَيْ مُسْتَتِيرِ
فَحَزَنَتْ كُلُّ قَحَارٍ غَيْرِ مُسْتِيرِكِ
وَجَلَّ بِمَقْدَارِ مَا أُلَيْتُ مِنْ رُتَبِ
بُشْرَى لَنَا مَعَشَرَ الْإِسْلَامِ إِنْ لَنَا
لَمَّا دَعَا اللَّهَ دَاعِيَنَا لِبَطَاعَتِهِ

كَمَا سَرَى الْبَنْدُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُذْرِكْ وَلَمْ تُزِمِ
وَالرُّسُلُ تُقَدِّمُ مَخْدُومَ عَلَى تَخْدِمِ
فِي مُوَكِّبٍ كُنْتُ فِيهِ صَاحِبُ الْعَلَمِ
مِنَ الدُّنُوِّ وَلَا مَرْقَى لِمُسْتَتِيمِ
[نُودِيَتْ] بِالرُّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ
عَيْنِ الْغُيُوبِ وَيَسْرُ أَيُّ مُكْتَتِمِ
وَحَزَنَتْ كُلُّ مَقَامٍ غَيْرِ مُزْدَحِمِ
وَعَزَّ بِمَقْدَارِ مَا أُولَيْتُ مِنْ نِعَمِ
مِنَ الْعَيْنَانِةِ رُكْنًا غَيْرِ مُنْهَدِمِ
يَا أَكْرَمَ الرُّسُلِ كُنَّا أَكْرَمَ الْأَمَمِ

الباب التاسع

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

الأول: قال ابن المنير: كانت كرامته ﷺ في المناجاة على سبيل المفاجأة كما أشار إليه بقوله: «بينا أنا». وفي حق موسى عليه الصلاة والسلام عن ميعاد واستعداد فُحِمْلَ عنه ﷺ أَلَمُ الانتظار. ويُؤخذ من ذلك أَنَّ مَقَامَ النَّبِيِّ ﷺ بالنسبة إلى مقام موسى مقام المُرَاد بالنسبة إلى مقام المريد.

الثاني: قال ابن دحية في قوله: «فُرج سَقَفُ بيتي»، يقال: لِمَ لم يدخل من الباب مع قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، فالحكمة في ذلك المبالغة في المناجاة، والتنبيه على أَنَّ الكرامة والاستدعاء كانا على غير ميعاد، ولعل كونه فرج عن سقف بيته توطئة وتمهيد لكونه فُرج عن صدره، فأراه المَلَكُ، بإفراجه عن السقف فالتأم السقف على القُور، كَيْفِيَّةً مَا يُصْنَعُ بِهِ، وَقَرَّبَ لَهُ الأَمْرَ فِي نَفْسِهِ بِالمَالِ المُشَاهِدِ فِي بَيْتِهِ لُطْفًا فِي حَقِّهِ وَتَبْيِينًا لِبَصَرِهِ، ولعل فُرج عن سقف بيته حتى لا يَعرِج المَلَكُ، وقد جاء في هذا الأمر المهم العظيم على شيء سواه، فانصَبَّ له من السماء انصبابةً واحدة وهي تَحْرُقُ الحِجَابَ.

ولو أنه جاء على العادة من الباب لاحتاج أن يُلِجَ صَحْنُ الدار، ثم يَعرِجَ إلى البيت الذي هو فيه وقال الحافظ: قيل الحكمة في نزوله عليه من السقف المبالغة في مفاجأته بذلك والتنبيه على أَنَّ المراد منه أَن يَعرِجَ بِهِ إِلَى جِهَةِ العُلُوِّ.

الثالث: الرجلان اللذان كان النبي ﷺ نائماً بينهما تلك الليلة: حمزة وجعفر رضي الله عنهما، نَبَّهَ عليه الحافظ. قال ابن أبي جمرة: وفي هذا تواضعه ﷺ وَخُشُنُ خُلُقِهِ، إِذْ أَنَّهُ فِي الفَضْلِ حَيْثُ هُوَ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَضْطَجِعُ مَعَ النَّاسِ وَيَقْعُدُ مَعَهُمْ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِهِ المَكْرُومَةَ مَرْيَّةً عَلَيْهِمْ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ نَوْمِ جَمَاعَةِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ يَشْتَرَطُ فِي ذَلِكَ أَن يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يَشْتُرُّ بِهِ جَسَدَهُ عَنْ صَاحِبِهِ.

الرابع: تقدم في أبواب صفاته الكلام على شَقِّ الصُّدْرِ وَخَاتَمِ النُّبُوَّةِ وَالتَّطَبُّعِ وَالدَّهَبِ وَزَمْزَمَ.

الخامس: في الكلام على جبريل وفيه فوائد:

الأولى: في لغات اسمه وهي إحدى وعشرون:

الأولى: جبريل بكسر الجيم والراء وياء ساكنة وهي قراءة نافع^(١) وأبي عمرو^(٢) وابن عامر^(٣)، وحفص^(٤) عن عاصم^(٥) وهي لغة الحجازيين. الثانية: جبريل كذلك إلا أنه بفتح الجيم وهي قراءة ابن كثير. الثالثة: جبرئيل كذلك إلا أنه بزيادة همزة مكسورة بعد الراء وحذف الياء وهي قراءة أبي بكر^(٦) عن عاصم. الرابعة: جبرئيل كذلك إلا أنه بزيادة ياء بعد الهمزة وهي قراءة حمزة والكسائي ولغة تميم وقيس وكثير من أهل نجد كما قاله القراء. الخامسة: جبرائيل كذلك إلا أنه بزيادة ألف بعد الراء وهي رواية حمزة ونعيم بن سعيد وغيرهما عن الأعمش ورواية أبان بن تغلب^(٧). بفتح المثناة وسكون المعجمة وكسر اللام. وأبان بن يزيد العطار من رواية الثلاثة: بكّار ويونس وعُبَيْد، عنه كلاهما عن عاصم وأبو رجاء وأبو غزوان عن طلحة ذكره الأهوازي. السادسة: جبرائيل كذلك إلا أنه بكسر الجيم على وزن إسرائيل وهي إحدى الروايات عن عكرمة ورواها عنه الزبير، قرأ بها ابن صدقة عن يحيى ذكره ابن عيسى. السابعة: جبرئيل بفتح الجيم والراء وهمزة بدون ياء، وفي رواية رزين وابن قيس وابن خثيم وأبي عمران وإسماعيل عن الحسن وغيرهم وإسحاق بن سويد بخلاف عنه والحسن الرازي^(٨) عن أصحابه

(١) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي بالولاء المدني: أحد القراء السبعة المشهورين. كان أسود، شديد السواد، صبيح الوجه، حسن الخلق، فيه دعابة. أصله من أصبهان. اشتهر في المدينة وانتهد إليه رئاسة القراءة فيها، وأقرأ الناس نيفاً وسبعين سنة، وتوفي بها سنة ١٦٩هـ. الأعلام ٥/٨.

(٢) زيان بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحسين بن الحارث بن جلهمة بن حجر بن خراعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن معد بن عدنان الإمام السيد أبو عمرو التميمي المازني البصري أحد القراء السبعة، قال الحافظ أبو العلاء الهمداني: هذا الصحيح الذي عليه الحذاق من النساب وقد قيل: إنه من بني العنبر وقيل: من بني خنيفة وحكى القاطبي أسد الزبدي أنه قيل إنه من فارس من موضع يقال له كازرون. قال عبد الوارث: ولد أبو عمرو بمكة ونشأ بالبصرة ومات بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة. غاية النهاية ٢٨٨/١، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢.

(٣) عبد الله بن عامر بن يزيد، أبو عمران اليحصبي الشامي: أحد القراء السبعة. ولي قضاء دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك. ولد في البلقاء، في قرية ورحاب، وانتقل إلى دمشق، بعد فتحها، وتوفي فيها. قال الذهبي: مقرر الشاميين، صدوق في رواية الحديث. انظر الأعلام ٩٥/٤.

(٤) حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي بالولاء، أبو عمر، ويعرف بحفيص: قارئ أهل الكوفة. بزاز، نزل بغداد، وجاور بمكة. وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءته، وهو ابن امرأته وربيبه، ومن طريقه قراءة أهل المشرق. توفي ١٨٠هـ. الأعلام ٢٦٤/٢.

(٥) عاصم بن أبي النجود ابن بهدلة الكوفي الأسدي بالولاء، أبو بكر: أحد القراء السبعة. تابعي، من أهل الكوفة، ووفاته فيها. كان ثقة في القراءات، صدوق في الحديث. قيل: اسم أبيه عبيد، وبهذلة اسم أمه. توفي ١٢٧هـ. الأعلام ٢٤٨/٣.

(٦) شعبة بن عياش بن سالم الأزدي الكوفي الخياط، أبو بكر: من مشاهير القراء. كان عالماً فقيهاً في الدين. توفي في الكوفة سنة ١٩٣هـ. الأعلام ١٦٥/٣.

(٧) أبان بن تغلب: بفتح المثناة وسكون المعجمة وكسر اللام، أبو سعد الكوفي، ثقة تكلّم فيه للتشيع، من السابعة، مات سنة أربعين. التقريب ٣٠/١.

(٨) الحسن بن شعيب أبو غلي الرازي مقرر، روى القراءة عرضاً عن الفضل بن شاذان، روى القراءة عنه عرضاً عبد الرحيم. انظر غاية النهاية ٢١٥/١.

وأحمد بن يزيد وهي إحدى الروايات عن عكرمة أيضاً. **الثامنة:** جبرائيل كذلك إلا أنه بياء ساكنة بدل الهمزة على الجمع بين التقاء الساكنين وهي قراءة طلحة بن مضر الفياهي^(١). **التاسعة:** جبرئيل بفتح الجيم والراء وياءين أولهما مكسورة والثانية ساكنة وهي إحدى الروايتين عن ابن مكيصين^(٢) ويحيى بن يعمر وأبان بن يزيد العطار^(٣) عن عاصم. **العاشر:** جبرئيل كذلك إلا أنه بهمزة عوض الياء الأولى وتشديد اللام وهي إحدى الروايات عن ابن مكيصين ويحيى بن يعمر وأبان بن يزيد العطار عن عاصم. **الحادية عشرة:** جبرئيل كذلك إلا أنه بحذف الياء بعد الهمزة وقرئ بها شاذاً. **الثانية عشر:** جبرئيل بفتح الجيم والراء وياء ساكنة لا غير، وهي قراءة محمد بن طلحة بن مضر وابن مكيصين في إحدى الروايات عنه. **الثالثة عشر:** جبرئيل كذلك إلا أنه بهمزة بدل الياء مُشَدَّدة مكسورة ولام لا غير، وقد نقلها أبو عمر الداني في المُجْتَبَى في الشواذ عن ابن يعمر^(٤) أيضاً. **الرابعة عشرة:** جبرئيل بفتح الجيم والراء وألف ولام لا غير. **الخامسة عشرة:** جبرئيل كذلك إلا أنه بكسر الجيم. **السادسة عشرة:** جبرئيل بفتح الجيم وكسر الراء ونون بدل اللام. **السابعة عشرة:** جبرئيل كذلك إلا أنه بكسر الجيم. قال الفراء هي لغة بني أسد. **الثامنة عشرة:** جبرئيل بفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة ونون، نقلها ابن الأنباري في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان. **التاسعة عشرة:** جبرئيل كذلك إلا أنه بكسر الجيم نقلها ابن الجوزي وبرهان الدين الجعفرى. **العشرون:** جبرئيل بفتح الجيم والراء وهمزة ساكنة بعدها ياء. **الحادية والعشرون:** جبرائيل على وزن ميكايل، نقل جميع ذلك الإمام العلامة محب الدين بن شيخ الحساب والفرائض الإمام العالم العلامة شهاب الدين بن الهائم في الثُّرُز، ومن خطّه نقلت.

الفائدة الثانية: قال في الروض الأثف: «ومعنى جبرئيل: عبد الرحمن أو عبد العزيز، هكذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ومرفوعاً أيضاً والوقف أصح. وأكثر الناس أن آخر الاسم منه أعجمي وهو «إيل»^(٥)، وكان شيخنا يعني ابن العربي يذهب مذهب طائفة من

(١) طلحة بن مضر بن عمرو بن كعب البياهي: بالتحانية، الكوفي، ثقة قارئ فاضل، من الخامسة، مات سنة اثنتي عشرة أو بعدها، التقريب ٣٧٩/١، ٣٨٠.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن مكيصين السهمي بالولاء، أبو حفص المكي: مقرئ أهل مكة بعد ابن كثير، وأعلم قرائها بالعربية. انفرد بحروف خالف فيها المصحف، فترك الناس قراءته ولم يلحقوها بالقراءات المشهورة، وكان لا بأس به في الحديث. روى له مسلم والترمذي والنسائي حديثاً واحداً. توفي سنة ١٢٣ هـ. الأعلام ١٨٩/٦.

(٣) أبان بن يزيد العطار البصري، أبو يزيد، ثقة له أفراد، من السابعة، مات في حدود الستين. التقريب ٣١/١.

(٤) يحيى بن يعمر، بفتح التحتانية والميم بينهما مهمل ساكنة، البصري، نزيل مرو وقاضيتها، ثقة فصيح، وكان يرسل، من الثالثة، مات قبل المائة، وقيل بعدها. انظر التقريب ٣٦١/٢٠.

(٥) إيل: اسم الله تعالى بالعبرية. انظر المعجم الوسيط ٣٤/١.

أهل العلم في أن هذه الأسماء إضافتها مقلوبة وكذلك الإضافة في كلام العجم يقولون في «غلام زيد». زيد غلام فعلى هذا يكون «إيل» عبارة عن العبد ويكون أول الاسم عبارة عن اسم من أسماء الله تعالى.

قلت: روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن المنذر عن عكرمة، وأبو الشيخ عن علي بن الحسين قالوا: اسم جبريل عبد الله وميكائيل غُبيد الله، وكل شيء راجع إلى «إيل» فهو مُعَبَّد لله عزَّ وجلَّ، زاد علي بن الحسين وإسرافيل عبد الرحمن، زاد عكرمة: «والإيل»: الله.

قال الماوردي: «ولا يُعَلَّم لابن عباس مخالف في ذلك»، وقال السهيلي: «إنه قول الأكثر». وقال الشيخ شهاب الدين الحلبي رحمه الله تعالى في شرح الشاطبية: «اختلف الناس في هذا الاسم هل هو مشتق أم لا؟ والذي عليه الجمهور أنه لا اشتقاق» إذ الأسماء الأعجمية لا اشتقاق لها. وقال آخرون: بل هو مشتق من جبروت الله تعالى.

وكذلك اختلفوا فيه هل هو اسم بسيط لا تركيب فيه أو هو مُرَكَّب؟ فإن جبرٍ معناه «غُبيد»، «وإيل» هو اسم البارئ تعالى وقد قيل ذلك في إسرافيل، ثم اختلفوا في تركيبه، هل هو مُرَكَّب تركيب إضافة أو تركيب مزج؟ فذهب بعضهم إلى الأول، ورَدُّ بأنه كان ينبغي أن يُعَرَّب إعراب المتضايقين، فيجري الأول منهما مجرى الإعراب، ويجرى الثاني ويُتَوَّن، إذ لا مانع له من الصَّرف، كما انصرف «إل» في قول من جعله اسماً لله تعالى من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَرْفُقُونَ فِي مَوْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] وهذا كما تقول: جاءني عبدُ الله، ورأيْتُ عبدَ الله وَمَزَزْتُ بعيدَ الله. وذهب آخرون كأبي العباس المهدوي إلى أنه مُرَكَّب تركيب مزج كعبلِك وحضرموت، وهذا قريب إلا أن بعضهم رَدُّ عليه بأنه كان ينبغي أن يُفْتَى الأول على الفتح ليس إلا، وأنت كما رأيْتهم يكسرون الراء في بعض اللغات. ورَدُّ عليه بعضهم أيضاً بأنه لو كان مُرَكَّباً تركيب مزج لجاز أن يُعَرَّب إعراب المتضايقين أو يُفْتَى على الفتح كأحد عشر، فإنه مركب تركيب مزج يجوز فيه هذه الأوجه، فكونه لم يُشَمَّع فيه البناء ولا جريانه جريان المتضايقين دليل على عدم تركيبه تركيب مزج. وهذا الردُّ مردود لأنه جاء على أحد الجائزين، واتفق أنه لم يستعمل إلا كذلك. انتهى.

قال السهيلي: «واتفق في اسم جبريل عليه السلام أنه موافق من جهة العربية لمعناه وإن كان أعجمياً، فإن الجبر هو إصلاح ما وهى، وجبريل مُوَكَّلٌ بالوحي، وفي الوحي إصلاح ما فسَدَ وجبرٌ ما وهى من الدين، ولم يكن هذا الاسم معروفاً بمكة ولا بأرض العرب، فلما أخبر النبي ﷺ خديجة به انطلقت تسأل من عنده عِلْمَ الكتاب كعدَّاس ونسطور الراهب وورقة.

فقالوا لها: قُدُوس قُدُوس أنَّى لهذا الاسم أن يُذكَر في هذه البلاد؟ كما تقدّم بيان ذلك.

الفائدة الثالثة: في بعض فضائله: ذكره تعالى في كتابه في خمسة وثلاثين موضعاً بالصريح وغيره، وذكره باسمه في ثلاثة مواضع: في البقرة في موضعين ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]، ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، والثالث في التحريم ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ﴾ [التحريم: ٤]، وذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم في أربعة مواضع الأول والثاني والثالث في آل عمران ﴿فَتَأْتِيهِ الْمَلَائِكَةُ وَهِيَ قَائِمَةٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وهو جبريل وحده بدليل قراءة ابن مسعود رضي الله عنه ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] والرابع في النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ يعني جبريل والروح الوحي. ويُذكر بلفظ الروح في ثمانية مواضع بلفظ الروح مُطْلَقاً، وبإضافته إلى نفسه وبإضافته إلى القدس وهو الطهارة، وبوصفه بالأمانة، فقال: ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] يعني جبريل ﴿تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، ﴿فَأَنزَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، ﴿وَإِذْ نَادَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] وفي المائدة ﴿وَإِذْ أَتَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ٩] وفي النحل ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وفي الشعراء ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، ووصفه في موضع واحد بسبع صفات جميلة وهي: الرسالة والكرم والقوة والقُرْبَة والمكانة وطاعة الملائكة والأمانة، وذلك في سورة التكوين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوين: ١٩، ٢٠، ٢١].

وروى أبو الشيخ في العظمة عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب الخلق إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل وإنهم من الله بمسيرة ألف سنة». وروى أبو الشيخ عن وهب. قال: هؤلاء الأربعة أملاك: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت، أول من خلقهم الله من الملائكة وآخر من يُمَيِّتُهُمْ، وأول من يُحْيِيهِمْ وهم المدبرات. وروى أبو الشيخ عن خالد بن أبي عمران قال: جبريل أمين الله تعالى إلى رُسُلِهِ، وميكائيل يُلْقِي الكتب التي ترفع من أعمال الناس وإسرافيل بمنزلة الحاجب.

وروى أبو الشيخ عن عكرمة بن خالد أحد التابعين أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الملائكة أكرم على الله؟ قال: لا أدري فجاءه جبريل فقال: يا جبريل أي الملائكة أكرم على الله؟ قال: لا أدري، فعرج جبريل، ثم هبط فقال: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك

الموت، فأما جبريل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط وكل ورقة، وأما ملك الموت فهو مؤكل بقبض روح كل عبد في بر أو بحر، وأما إسرئيل فأمين الله بينه وبينهم.

التنبيه السادس: في لغات ميكائيل وهي سبع: الأولى وهي الأفصح: ميكايل بوزن ميقات وميعاد وبها قرأ أبو عمرو. الثانية: مكائيل: بهزمة فباء وهي قراءة نافع. الثالثة: ميكائيل بياءين وهي قراءة باقي السبعة. الرابعة: ميكايل بهزمة بعد الكاف فمثناة تحية وهي قراءة ابن محيصين. الخامسة: كذلك [أي ميكايل] إلا أنه لا ياء بعد الهزمة وبها قرأ بعضهم. السادسة: ميكايل بياءين صريحتين بعد الألف وبها قرأ الأعمش. السابعة: ميكايل بهزمة مفتوحة بعد الألف.

التنبيه السابع: في الكلام على البراق، وهو بضم الموحدة وتخفيف الراء مشتق من التريق فقد جاء في لونه أنه أبيض أو من البرق لأنه وُصف بسرعة الشير أو من قولهم: شاة برقاء إذا كان خلال صوفها الأبيض طاقات سوداء، ولا ينافيه وصفه في الحديث بالبيض لأن البرقاء من الغنم معدودة في البيض. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد والحاثر: «أبرقوا فإن دم عقرء أركى عند الله من دم سؤذائين»، فجعل البرقاء مقابلة السودائين تفضيلاً للبيض، فلهذا يكون البراق أفضل الألوان ويجوز أن يجتمع بين المعنيين فيسمى برقا للونه ولسرعة مسيره فيكون ذلك من قبيل مجتملي اللفظ المشترك دفعة واحدة في اللفظ ويحتمل ألا يكون مشتقا.

قال ابن أبي جمة: وإنما كان ركوب النبي ﷺ على البراق إشارة إلى أن الاختصاص به لأنه لم يُقل أن أحداً ملكه بخلاف جنسه من الدواب. قال: والقُدرة صالحة لأن يصعد بنفسه بغير برق، لكن كان البراق بشاراً له في تشريفه، لأنه لو صعد بنفسه لكان في صورة ماش، والراكب خلاف الماشي. وقال ابن دحية: زُيِّجَ خرقُ العادة بالعادة تأنيساً، وقد كان الحق قادراً على أن يرفع نبيه ﷺ بدون البراق، ولكن الركوب وصفة المركوب المُعتاد تأنيس في هذا المقام العظيم بطرف من العادة، ولعل الإسراع بالبراق إظهاراً للكرامة الغزوية، فإن الملك العظيم إذا استدعى ولياً له وخصيصاً به، وأشخصه إليه بعت إليه بمركوب سني، يحمله عليه في وفادته إليه. ولم يكن البراق بشكل الفرس ولكنه بشكل البغل وكان ذلك - والله تعالى أعلم - للإشارة إلى أن الركوب في سلم وأمن لا في حرب وخوف، أو لإظهار المعجزة في الإسراع العجيب من دابة ما يوصف شكلها بالإسراع الشديد عادة.

فإن قيل: فقد ركب النبي ﷺ البغلة في الحرب، فالجواب: كان ذلك لتحقيق نبوته

عليه الصلاة والسلام في مواطن الضرب والطعن والانتشاب في نحر العدو، ولما كان الله تعالى خصه بمزيد من الشجاعة والقوة. وإلا فالبالغ عادةً من ركوب الطمأنينة والأمانة، فَيَبِينُ أَنَّ الحرب عنده كالتسلّم قُوَّةُ قلب وشجاعة نفس، وثِقَّةٌ وتَوَكُّلٌ. وركبت الملائكة في الحرب على الخيل لا غير لأنها بصدد ذلك غُرْفًا دون غيرها من المركوبات. ولطُفَ شكل البراق لما وصفه، عن شكل البغل، وما لُطِفَ من البغال واستندار أحمَدُ وأحسن من المُطَهَّمات^(١) منها، وذلك بخلاف الخيل.

ولم يُسَمِّ الله سبحانه وتعالى سَيِّرَ البراق برسوله ﷺ طيراناً، وإنما سَمَّاه بما يُسَمَّى به السير المعتاد وسير الليل عند العرب شَرَى، فيؤخذ من هذا أَنَّ الوليَّ إذا طُوِّيت له الأرض البعيدة في الساعة الواحدة يتناولوه اسم المسافر، ويشمله أحكام الشفَر باعتبار القصر والفطر. وإنما لم يُذَكِّرَ البَرَّاق في الرجوع لأن ذلك معلوم بذكره في الصعود، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سِرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٢٢] يعني والبرد.

قال في فتح الصفا: فإن قيل: هَلَا كَانَ الإِسْرَاءُ عَلَى أَجْنَحَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالرَّيْحِ كَمَا كَانَتْ تَحْمِلُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْ الْخَطْوَةَ كَطَيِّ الزَّمَانِ؟ قُلْتُ الْمُرَادُ إِطْلَاعُهُ عَلَى آيَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، وَمَا يَتَضَمَّنُ أَمْرًا عَجِيبًا، وَلَا عَجَبٌ فِي حَمْلِ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الرَّيْحِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قَطْعِ هَذِهِ الْمَسَافَةِ، بِخِلَافِ قَطْعِهَا عَلَى دَابَّةٍ فِي هَذَا الْحَجْمِ الْمُخَيَّي عَنْ صِفَتِهَا، وَوَقَعَ مِنْ تَعْظِيمِهِ بِالْمَلَائِكَةِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ حَمْلِهِ عَلَى أَجْنَحَتِهَا فَقَط. فَقَدْ أَخَذَ جَبْرِيلُ بِرِكَابِهِ وَمِيكَائِيلُ بِرِمَامِ الْبَرَّاقِ، وَهُمَا مِنْ أَكْبَارِ الْمَلَائِكَةِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ ﷺ حَمْلُ الْبَرَّاقِ، وَمَا هُوَ كَحَمْلِ الْبَرَّاقِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَهَذَا أَنْتُمْ فِي الشَّرَفِ.

واختلفت الأقاويل في صفته، فنُقِلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَا ذُكِرَ. وَقَالَ صَاحِبُ الْاِحْتِفَالِ: إِنَّهُ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ، وَجْهُهُ كَوَجْهِ الْإِنْسَانِ، وَجَسَدُهُ كَجَسَدِ الْفَرَسِ وَقَوَائِمُهُ كَقَوَائِمِ الثَّوْرِ وَذَنْبُهُ كَذَنْبِ الْغَزَالِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: جَسَدُهُ كَجَسَدِ الْإِنْسَانِ وَذَنْبُهُ كَذَنْبِ الْبَعِيرِ وَغُرْفُهُ كَغُرْفِ الْفَرَسِ وَقَوَائِمُهُ كَقَوَائِمِ الْإِبِلِ وَأَظْلَافُهُ كَأَظْلَافِ الْبَقَرِ وَصِدْرُهُ كَأَنَّهُ يَاقُوْتَةُ حِمْرَاءَ وَظَهْرُهُ كَأَنَّهُ دُرَّةٌ بَيْضَاءُ. لَهُ جَنَاحَانِ فِي فَخْذَيْهِ وَهَذَا كُلُّهُ لَمْ يَصِحَّ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا ذَكَرَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَمْثَلُهَا، وَلَعَلَّ السَّرَّ فِي كَوْنِهِمَا فِي فَخْذَيْهِ لِثِقَلِ مُؤَخَّرِ الدَّابَّةِ، أَوْ لِأَنَّ ذَلِكَ جَارٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ فِي خَوْقِ الْعَادَةِ، أَوْ لِأَجْلِ الرَّاكِبِ، لِأَنَّهُمَا لَوْ كَانَا فِي جَنْبَيْهِ عَلَى الْعَادَةِ لَكَانَا تَحْتَ فَخْذَيْ الرَّاكِبِ أَوْ فَوْقَهُمَا، وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَشَقَّةٌ بَضَمَهُمَا وَنَشَرَهُمَا خُصُوصًا مَعَ السَّرْعَةِ الْعَظِيمَةِ.

(١) الْمُطَهَّماتُ: الْمُتَنَفِّخُ الْوَجْهَ. وَقِيلَ: الْفَاجِشُ السَّمَنُ. وَقِيلَ: التَّجِيفُ الْجَسْمَ، وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ. انْظُرِ الْهُدَايَةَ لِابْنِ

وفي بعض الآثار أنه ليس بذكر ولا أنثى، فافتضى ذلك أن يكون مفرداً بالخلق بهذه الصفة من غير توليد، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] ونقل الشيخ سعد الدين أن الملائكة الكرام لا ذكور ولا إناث إلى آخر ما ذكره. وفي أثر آخر أن جبريل خاطبه خطاب المؤمن.

واختلّف في الحكمة في استصعاب البراق، فقال ابن بطال: إنما استصعب عليه لبغده بركوب الأنبياء قبله، ويؤيده ما في المبتدأ لابن إسحاق رواية وئيمة بن موسى في ذكر الإسراء، «فاستصعب البراق وكانت الأنبياء تركبها قبلي» وكانت بعيدة العهد بركوبهم فلم تكن ركبته في الفترة.

وقال ابن دحية وابن المنير: «إنما استصعب تيهاً وزهواً بركوب النبي ﷺ، وأراد جبريل بقوله: أبعلمك تستصعب؟ استنطاقه بلسان الحال إذ أنه لم يقصد الصعوبة، وإنما تاه بركوب النبي ﷺ، ولهذا قال: فازقُصَّ عَرَقاً، فكأنه أجاب بلسان الحال، فبرئ من الاستصعاب، وعرق من خجل العتاب، وذلك قريب من رجفة الجبل به حتى قال: اثبت فإنما عليك نبيّ وصديق وشهيد، فإنها هزة طرب لا هزة غضب، كما سيأتي الكلام على ذلك مبسوطاً في المعجزات. قال الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي رحمه الله تعالى: ولا يتعد أن يقال إنما كان استصعابه قرعاً من هبة سيدنا رسول الله ﷺ.

التنبيه الثامن: قال الحافظ: من الأخبار الواهية أن البراق لما عاتبه جبريل عليه السلام اعتذر إليه البراق بأنه مسّ الصفراء اليوم، وأن الصفراء صَنَمٌ من ذهب عند الكعبة، وأن النبي ﷺ مرّ به فقال: «بكا لمن يعبدك من دون الله»^(١)، وأن النبي ﷺ نهى زيد بن حارثة أن يمسّه بعد ذلك، وكسره يوم الفتح. وقال في الزهر: هذا لا ينبغي أن يُذكر ولا يُغزى لسيّدنا رسول الله ﷺ. قال الإمام أحمد - روى عنه ابنه عبد الله أنه قال: «هو موضوع» وأنكره جداً.

التنبيه التاسع: قال الحافظ: من الأخبار الواهية ما ذكره الماوردي والثعلبي والقرطبي في التذكرة من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الموت والحياة جسمان؛ فالموت ليس يجد ريحه في شيء إلا مات، والحياة فرس بلقاء أنثى وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها لا تمرّ بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي.

التنبيه العاشر: اختلّف في ركوب جبريل على البراق مع النبي ﷺ، وعلى القول به هل ركب أمام النبي ﷺ أم خلفه؟ فعند الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ أتى بالبراق فلم يزايل ظَهْرَهُ هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس. وفي رواية عنه عند ابن جِبَّان أن جبريل حَمَلَهُ على البراق رديفاً له، وفي لفظ «فَرَكَبَهُ خَلْفَ جبريل فسار بهما». وفي حديث إبي ليلى أن جبريل أتى النبي ﷺ بالبراق فحمله بين يديه، رواه الطبراني. وفي حديث ابن مسعود، رَفَعَهُ: «أَتَيْتُ بِالْبَرَّاقِ فَرَكَبْتُهُ خَلْفَ جبريل». والصحيح أنه كان مُعْتَدّاً لركوب الأنبياء قبل سيدنا رسول الله ﷺ^(١).

وروى الفاكهي بسند حسن عن علي رضي الله عنه قال: «كان إبراهيم يزور إسماعيل وأمه على البراق». وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «وكانت الأنبياء تركبها قبلي». رواه البيهقي وغيره. وقال أنس رضي الله عنه: «وكانت تُسَخَّرُ لِلْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»، رواه النسائي وابن مَزْدَوِيَه. وقال سعيد بن المُسَيَّب وأبو سَلَمَةَ بن عبد الرحمن: «أُشْرِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْبَرَّاقِ، وَهِيَ دَابَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي كَانَ يَزُورُ عَلَيْهَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ»، رواه ابن جرير.

التنبيه الحادي عشر: قوله في حديث ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: «وتكلم أربعة وهم صغار» فذكر ابن الماشطة وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم. وروى الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ»، فذكر عيسى وصاحب جريج وابن الماشطة. وفي حديث مسلم عن ضَهَبٍ رضي الله عنه في قصة أصحاب الأخدود: أن امرأةً جِيءَ بِهَا لثُلُثَى فِي النَّارِ أَوْ لَتَكْفُرَ وَمَعَهَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ فَتَقَاعَسَتْ فَقَالَ: يَا أُمَاهُ اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ. وفي رواية عند ابن قتيبة: إنه كان ابن سبعة أشهر. وروى الثعلبي عن الضحاك أن يحيى بن زكريا تكلم في المهد وذكر البغوي في تفسيره أن إبراهيم الخليل عليه السلام تكلم في المهد. وفي سير الواقدي أن النبي ﷺ تكلم في أوائل ما وُلِدَ. وقد تكلم في زمان النبي ﷺ مبارك الإمامة كما سيأتي في المعجزات، فهذه عشرة، وتقدم نَظْمُهُمْ فِي أَبْوَابِ الْمَوْلَدِ، وسيأتي الكلام على ذلك مبسوطاً في المعجزات. وإذا عَلِمَ ذَلِكَ فَقَوْلُهُ ﷺ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ»^(٢)، قاله قبل أن يعلم الزيادة على ذلك.

التنبيه الثاني عشر: دُكِرَ فِي الْقِصَّةِ نَزُولُهُ ﷺ عَنِ الْبَرَّاقِ وَصَلَاتُهُ بَعْدَهُ مَوَاضِعَ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْقِصَّةِ. وَقَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: «إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَزَايِلْ ظَهْرَ الْبَرَّاقِ هُوَ وَجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس». قال الحافظ: «وهذا لم يُسْنِدْهُ حُذَيْفَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَالَهُ عَنْ اجْتِهَادِهِ». قُلْتُ: وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إِنْكَارُهُ رُبُطَ الْبَرَّاقِ وَالصَّلَاةَ

(١) أخرجه مسلم ١٤٥/١ (١٦٢.٢٥٩) وانظر مسند الإمام أحمد ١٤٨/٣ والحاكم في المستدرک ٦٠٦/٤ الدر المنثور للسيوطي ١٣٦/٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠١/٤ ومسلم ١٩٧٦/٤ وأحمد في المسند ٣٠١/٢ والحاكم في المستدرک ٥٩٥/٢.

في بيت المقدس، مع ورود الأحاديث الصحيحة عن جماعة من الصحابة بوقوع ذلك كما سيأتي.

التنبيه الثالث عشر: أنكر حذيفة رضي الله عنه رِبْطَ الْبُرَاقِ، فروى الإمام أحمد والترمذي عنه أنه لما قيل له: رِبْطُ الْبَرَاقِ قال: أَخَافُ أَنْ يَفَرَّ مِنْهُ وَقَدْ سَخَّرَهُ لَهُ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ؟ قال البيهقي والسهيلي: وَالثَّنِيثُ مُقَدِّمٌ عَلَى الثَّانِي، يعني من أثبت رِبْطَ الْبَرَاقِ فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ مَعَهُ زِيَادَةٌ عِلْمٍ عَلَى مَنْ نَفَى، فهو أولى بالقبول. قال الإمام النووي: وفي ربط البراق الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب، وأن ذلك لا يَفْدَحُ فِي التَّوَكُّلِ إِذَا كَانَ الْاعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وقال السهيلي: وفي هذا من الفقه التنبيه على الأخذ بالحزم مع صِخَّةِ التَّوَكُّلِ وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ كَمَا رُوي عَنْ وَهْبِ بْنِ مُثَنَّبٍ لَا يَمْنَعُ الْحَزْمَ مِنْ تَوَكُّي الْمَهَالِكِ، قال وهب: وَجَدْتُهُ فِي سَبْعِينَ كِتَابًا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الْقَدِيمَةِ، وَهَذَا نَحْوُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «اغْلِبْهَا وَتَوَكَّلْ»^(١). فإيمانه ﷺ بأنه قد سَخَّرَ لَهُ كَأَيِّمَانِهِ يَقْدَرُ اللَّهُ تَعَالَى وَعِلْمِهِ بِهِ قَدْ سَبَقَ فِي أَمِ الْكِتَابِ مَا سَبَقَ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَتَزَوَّدُ فِي أَسْفَارِهِ، وَيُعِدُّ السِّلَاحَ فِي حُرُوبِهِ، حَتَّى لَقَدْ ظَاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ وَرِبْطُهُ لِلْبَرَاقِ مِنْ هَذَا الْفَنِّ.

التنبيه الرابع عشر: في بعض فضائل بيت المقدس وفيه فوائد: **الأولى:** في مبدأ خَلْقِهِ: رَوَى أَبُو بَكْرٍ الْوَاسِطِيُّ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ الْأَرْضُ مَاءً، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى رِيحًا فَمَسَحَتْ الْمَاءَ مَسْحًا، فَظَهَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ رَبْدَةٌ فَقَسَمَهَا أَرْبَعَ قِطَعٍ، خَلَقَ مِنْ قِطْعَةٍ مَكَّةَ وَمِنْ أُخْرَى الْمَدِينَةَ وَمِنْ أُخْرَى بَيْتَ الْمَقْدَسِ وَمِنْ أُخْرَى الْكَوْفَةَ. وتقدم حديث أبي ذر في الباب الأول من أبواب بعض فضائل بلده المنيف فراجعه. وروى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدَسِ سَأَلَ رَبَّهُ نِجَالًا ثَلَاثًا فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا: سَأَلَهُ حَكْمًا يَصَادِفُ حَكْمَهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَسَأَلَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَسَأَلَهُ أَيْمًا رَجُلٌ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ يَعْنِي بَيْتَ الْمَقْدَسِ خَرَجَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ». قال النبي ﷺ: «وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاهُ ذَلِكَ»^(٢).

وروى ابن أبي شيبة والواسطي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إِنَّ بَيْتَ الْمَقْدَسِ لَمُقَدَّسٌ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ بِمَقْدَارِهِ فِي الْأَرْضِ» وروى الواسطي عن عطاء

(١) أخرجه ابن حبان (٢٥٤٩) وأبو نعيم في الحلية ٣٩٠/٨ وذكره العجلوني في كشف الخفا ١٦١/١ وعزاه للترمذي عن أنس.

(٢) أخرجه النسائي في المساجد باب (٦) وأحمد في المسند ١٧٦/٢ وذكره السيوطي في الدرر ١٦٠/٤.

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

الخراساني قال: «لما فرغ سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام من بناء بيت المقدس أنبت الله شجرتين عند باب الرحمة أحدهما ثنيت الذهب والأخرى ثنيت الفضة، فكان كل يوم تُنزع من كل واحدة مائة رطل ذهب وفضة، ففُرِش المسجد، بلاطة ذهباً وبلاطة فضة. فلما جاء بختنصر خربه واختمل منه ثمانين عجلة ذهباً وفضة فطرحهما برومية».

وروى الواسطي عن سعيد بن المسيب رحمهما الله تعالى أن سليمان عليه السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس فرغ له عشرة آلاف من قِواء بني إسرائيل: خمسة آلاف بالليل وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعة من ليل أو نهار إلا والله تعالى يُعبد فيه. وروى الواسطي عن كعب الأحبار أن سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من بناء المسجد خَرَّ ساجداً شكراً لله وقال: «يا رَبِّ مَنْ دخله من خائف فأُثْمِنَهُ أو من داع فاستجب له أو مُسْتَغْفِرٍ فَاغْفِرْ له»، فأوحى الله تعالى إليه: «إني قد أجبت لآل داود الدعاء». قال: فذبح أربعة آلاف بقرة وسبعة آلاف شاة، وصنع طعاماً كثيراً ودعا بني إسرائيل إليه.

والآثار في هذا كثيرة، وقد ذكر المؤرخون في عمارته وما فيه من الجواهر والمعادن واليوافيت في سمائه وأرضه وجدرانه ما تعجز عنه ملك الدنيا. فلما دخل بختنصر خربه وأخذ تلك النفائس التي فيه، وذكر ذلك هنا ليس من غرضنا. الثانية: في بعض فضله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] وهذه الآية هي المُعْظَمة لقدره بإسراء رسول الله ﷺ إليه قبل عروجه إلى السماء وإخبار الله تعالى بالبركة حوله. وتقدم الكلام على ذلك. وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

روى أبو المعالي المشرف بن الحرّجي المقدسي في فضائله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «الْحِجَّةُ تَحِلُّ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وصخرة بيت المقدس من حِجَّةِ الْفِرْدَوْسِ». وروى الواسطي عن مكحول قال: «من صَلَّى في بيت المقدس ظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً، ثم صَلَّى الْغَدَاةَ خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وروى أيضاً عن كعب قال: «في بيت المقدس، اليوم فيه كَأَلْفُ يَوْمٍ وَشَهْرٌ فِيهِ كَأَلْفُ شَهْرٍ وَالسَّنَةُ فِيهِ كَأَلْفُ سَنَةٍ، ومن مات فيه كأنما مات في السماء». وروى الحاكم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «في بيت المقدس لِنَعْمِ الْمُصَلِّي، وليوشكن ألا يكون للرجل مثل بَسْطِ قَرْشِهِ من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خَيْرٌ لهُ من الدنيا جميعاً أو قال خير من الدنيا وما فيها». وروى الواسطي عن كعب قال: «إن الله ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مَرَّتَيْنِ». والآثار في فضله كثيرة.

الثالثة: في أسمائه الأول: المسجد الأقصى وتقدم الكلام عليه. الثاني: مسجد إيلياء بوزن كثير. وحكى البكري وغيره قَصْرُ أَلْفِهِ، وحكى ابن يونس في شرح التعجيز. وابن الأثير في النهاية بتشديد الياء. وحكى صاحب المطالع وغيره حذف الياء الأولى وكثر الهمزة وسكون اللام والمَدُّ، قال محمد بن سهل الكاتب: معنى إيلياء بيت الله. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في مُشْنَد أَبِي يَغْلَى: «الإيلا» بالألف واللام، قال النووي: وهو غريب. الثالث والرابع: «بَيْتُ الْمُقَدَّس» بفتح الميم وإسكان القاف وكسر الدال مُخَفَّفَةً، «وَالْبَيْتُ الْمُقَدَّس» بضم الميم وفتح القاف والدال المشددة. قال الواحدي: «معناه الْمُطَهَّر»، قال: أبو علي المقدسي: «وَأَمَّا بَيْتُ الْمُقَدَّسَ يَعْنِي بِالتَّخْفِيفِ فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُصَدِّراً أَوْ مَكَاناً، فَإِنْ كَانَ مُصَدِّراً كَانَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾» [يونس: ٤] ونحوه من المصادر، وإن كان مكاناً فالمعنى بيت المكان الذي جعل فيه الطهارة أو بيت مكان الطهارة، وتطهيره على معنى إخلائه من الأصنام وإبعاده منها، وقال الزُّجَّاج: «الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ أَيُّ الْمَكَانِ الْمُطَهَّرِ، وَبَيْتُ الْمُقَدَّسِ أَيُّ الْمَكَانِ الَّذِي يُطَهَّرُ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ، هَذَا مَا ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ»، وقال غيره: «الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ وَبَيْتُ الْمُقَدَّسِ لِمَنْتَانِ الْأُولَى عَلَى الصِّفَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ كَصَلَاةِ الْأُولَى وَمَسْجِدِ الْجَامِعِ.

قال ابن سُرَّاقَةَ^(١): «وَيُقَالُ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ ثَلَاثَةً: فَلَسْطِينَ - بَفَاءٍ مُفْتُوحَةٍ فَلَامٍ مُفْتُوحَةٍ - وَالْأُرْدُنَّ - بِهَمْزَةٍ مُضْمُومَةٍ فَرَاءٍ سَاكِنَةٍ فَدَالٍ مُهْمَلَةٍ مُضْمُومَةٍ فَنُونٍ، قَالَ الْبَكْرِيُّ: مُشْدَدَةٌ - وَدِمَشْقُ، وَهُوَ مَا أَدْرَكَ بَصَرُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ رُفِعَ عَلَى الْجَبَلِ وَقِيلَ لَهُ: «مَا أَدْرَكَ بَصَرُكَ فَهُوَ مِيرَاثُ لَكَ وَلَوْلَدِكَ مِنْ بَعْدِكَ».

الخامس: بيت المقدس: بضم الدال وإسكانها بغير ميم، ذكره الحازمي^(٢) في أسماء الأماكن ونقل عن ابن الأثير أيضاً.

السادس: سَلَّمَ بتشديد اللام لكثرة سلام الملائكة فيه. قال ابن بَرِّي: وأصله «شلم» بالشين المعجمة لأن الشين المعجمة في العربية سين، فالسلام شلام واللسان لشان والاسم اشم، وقال البكري في حرف الشين المعجمة: «سَلَّمَ»^(٣) بفتح أوله وثانيه وتشديده على وزن

(١) محمد بن يحيى بن سُرَّاقَةَ العامري، أبو الحسن، فقيه فِرَاضِي. من أهل البصرة. صنف كتباً في فقه الشافعية والفرائض ورجال الحديث. ووقف ابن الصلاح على «كتاب الأعداد» له. توفي سنة ٤١٠ هـ. انظر الأعلام ١٣٦/٧.

(٢) محمد بن موسى بن عثمان بن حازم، أبو بكر، زين الدين، المعروف بالحازمي: باحث، من رجال الحديث. أصله من همدان، ووفاته ببغداد. له كتاب «ما اتفق لفظه واختلف مسماه» في الأماكن والبلدان المشبهة في الخط، و«الفصل» في مشتبه النسبة، و«الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار» في الحديث، و«عجالة المبتدي وفضيلة المنتهي»، توفي سنة ٥٨٤ هـ. الأعلام ١١٧/٧.

(٣) انظر لسان العرب ٢٣١٨/٤.

فَعَلَّ اسمَ لبيت المقدس. وقال الهمداني: «سَلَّمَ»: وقد تُعَرِّبُهَا العربُ فنقول: سَلِّمْ. وحكى ابن القطّاع: سَلَامٌ على وزن فَعَال. وقال ابن الأثير: «سَلَّمَ» بالمعجمة وتشديد اللام اسم لبيت المقدس ويُروى بالمهملة وكسر اللام سَلِّمْ كأنه عَرَّبَهُ. ومعناه بالعبرانية: بيت السلام.

السابع: رُوي عن كعب الأحبار، أَنَّ الجنةَ في السماء السابعة بحيال بيت المقدس والصخرة، ولو وقع حَجَرٌ منها لوقع على الصخرة ولذلك دُعِيَتْ: أَوْرَى سَلِّمْ، ودُعِيَتْ الجنة: دار السلام

الثامن: أُوْرِي سَلِّمْ، بضم الهمزة وسكون الواو وكسر الراء وسكون التحتية وفتح الشين المعجمة وكسر اللام المخففة، كذا قال أبو عُبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى، والأَكْثَرُونَ بفتح الشين واللام. التاسع: كَوْرَة إِلْيَا، العاشر: أَوْرَى سَلَّمَ. الحادي عَشْر: بيت إيل، أي بيت الله. الثاني عشر: «صِهْيُون»: بصاد مهملة مكسورة فهاء ساكنة فُثْنَتَا تحية فواو فنون، ذكره البكري. قال: وهو بفتح الصاد اسم قبيلة. الثالث عشر: «مَصْرَث» بميم فصاد فراء فثاء مثلثة. الرابع عشر: «بابوش»: بموحدين وآخره شين معجمة. الخامس عشر: «كورشילה». السادس عشر: «صلعون»: ذكر هذه الأسماء ابن خالويه. السابع عشر: سليم. الثامن عشر: «فُسط مصر» بضم الفاء. التاسع عشر: أَرْض المَحْشَر والمَنْشَر. العشرون: المحفوظة. الحادي والعشرون: المُقَرَّعة. الثاني والعشرون: مدينة الجنة.

الرابعة: في خصائصه: الأولى في مضاعفة الصلاة فيه: وقد اختلفت الأحاديث في مقدارها: الأول: خمسمائة صلاة: روى الإمام أحمد وابن ماجه والبخاري والقاسم الحافظ أبي القاسم بن عساكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال: «الصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة^(١)». الثاني: ألف صلاة: روى ابن ماجه عن ميمونة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله أفْتِنَا في بيت المقدس، فقال رسول الله ﷺ: «أَرْض المَحْشَر والمنشَر، اثنتو فصلوا فيه فَإِنْ صَلَاةٌ فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ^(٢)». قال النووي: لا بأس بإسناده، وقال الذهبي: حديث مُتَكَرِّر. الثالث: خمسون ألف صلاة: روى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة، وصلاته في المسجد الذي يُجْمَع فيه بخمسمائة صلاة، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة». وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ١٠/٤ وعزاه للطبراني في الكبير وقال: رجاله ثقات وفي بعضهم كلام وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٠٧) والطحاوي في مشكل الآثار ٢٤٩/١ وابن حجر في المطالب (١٣٦٥) وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٨١٩٨) والعجلوني في كشف الخفا ٣٤٥/١.

صلاة^(١)». الرابع: مائتان وخمسون: روى الطبراني في معجمه عن أبي ذر رضي الله عنه، مرفوعاً: «صلاة في مسجدي أفضل من أربع فيه^(٢)»، يعني بيت المقدس، فدل على أن الصلاة في بيت المقدس بمائتين وخمسين صلاة. الخامس: بعشرين ألف صلاة، روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ولهذا مزيد بيان في أبواب فضائل المدينة الشريفة. الثانية: استحباب شد المطي إليه لما رواه الشيخان: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى^(٣)».

الثالثة: استحباب ختم القرآن فيه: روى سعيد بن منصور في سننه عن أبي يعقوب بكسر الميم وخكي فتحها وإسكان الجيم وفتح اللام وبالزاي - واسمه لاحق بن حميد، قال: «كانوا يشتحبون لمن أتى المساجد الثلاثة أن يختم بها القرآن قبل أن يخرج». الرابعة: استحباب المجاورة به: روى الحاكم عن ثور بن يزيد عن مكحول قال: «كان عبادة بن الصامت وشداد بن أوس رضي الله عنهما يسكنان بيت المقدس». وقد سكنه عبدة من الصحابة رضي الله عنهم.

الخامسة: يُشتحب الصيام فيه فقد روي: «صوم في بيت المقدس براءة من النار». السادسة: استحباب الإحرام بالحج والعمرة منه: روى أبو داود عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر^(٤)».

السابعة: يُستحب لمن لم يقدر على زيارته أن يُهدي له زيتاً، روى أبو داود وابن ماجه واللفظ له عن ميمونة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله: أفئنا في بيت المقدس. قال: «أرض المَحْشَرِ والمُنْشَرِ، إيتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره». قلت: يا رسول الله أرايت إن لم أستطع أن أصل إليه؟ قال: «فثدي إليه زيتاً ليُشْرَج فيه فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه». المَحْشَرُ مَقْعَل من الحَشَر وهو الجمع يعني يوم القيامة، فإذا فتحت الشين فهو المصدر، وأما الموضع فهو بالكسر. قال الجوهري: المَحْشَر بالكسر موضع الحَشَر. انتهى. وذكر صاحب مختصر العين أن المَحْشَر بالكسر والفتح الموضع الذي يُحْشَر إليه الناس والمنشر موضع النشور وهو قيام الموتى من قبورهم.

الثامنة: حكي عن بعض السلف أن السيئات تُصَاعَف فيه، روي ذلك عن كعب

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤١٣) وابن الجوزي في الملل ٨٦/٢.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ١٠/٤ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠/٣ (١١٩٧) ومسلم ٩٧٦/٢ (٤١٥ - ٨٢٧).

(٤) أخرجه أبو داود (١٧٤١) والبيهقي ٣٠/٥ والبخاري في التاريخ ١٦١/١.

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

الآخبار وأنه لما كان يأتي من حمص للصلاة فيه، فإذا صار منه قَدْرَ ميل اشتغل بالذكر والتلاوة والعبادة حتى يخرج منه بقدر ميل أيضاً ويقول: «السيئات تضاعف فيه»، أي تزداد قُبْحاً وقُبْحاً لأن العاصي في زمان أو مكان شريف أشدَّ جُرْأَةً وأقلَّ خوفاً من الله تعالى. وذكر أبو بكر الواسطي عن نافع قال: قال لي ابن عُمر: «أخرج بنا من هذا المسجد فإن السيئات تُضَاعَفُ فيه كما تُضَاعَفُ الحسنات».

التاسعة: أن الدُّجَال لا يدخل بيت المقدس. روى ابن أبي شيبة في المُصَنَّف عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب رضي الله عنه عن النبي ﷺ وذكر الدُّجَال فقال: «وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحَرَمَ وبيت المقدس [وأنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس قال: فيهزمه الله وجنوده حتى إن جذم الحائط وأصل الشجرة ينادي: يا مؤمن: هذا كافر يستتر بي تعالى أَقْتُلْهُ إلى آخره].»

العاشر: أن الصخرة في المسجد الأقصى كالحجر الأسود في المسجد الحرام. روى أبو نُعَيْم عن وَهْب بن مُثَنَّب قال: «إن الله تعالى قال لصخرة بيت المقدس: لَأَصْعَنْ عَلَيْكَ عَرْشِي وَلَأَحْشُرَنَّ إِلَيْكَ خَلْقِي وَلِيَأْتِيَنَّكَ يَوْمَئِذٍ دَاوُدُ رَاكِباً؛ وروى أبو بكر الواسطي وابن عساکر عن يزيد بن جابر في قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق ٤١]، قال: «يقف إسماعيل على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور فيقول: «يا أيُّهَا الْعِظَامُ الْتَحِيزَةُ وَالْجُلُودُ الْمَتَمَرَّةُ وَالْأَشْعَارُ الْمُتَقَطِّعَةُ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْتَمِعِيَ لِفَصْلِ الْخَطَابِ». وروى ابن جرير وابن أبي حاتم والواسطي عن قتادة في الآية قال: «كنا نتحدث أنه يُنَادِي من بيت المقدس من الصخرة وهي أوسط الأرض»، وحدَّثنا أن كعباً قال: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً.

الحادية عشرة: يُكْرَهُ استقبال بيت المقدس واستدباره بالبول والغائط ولا يَحْرُمُ قاله في الروض.

الثانية عشرة: رُوِيَ أَنَّهُ مَنْ دُفِنَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَفِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَسُؤَالِ الْمَلَكَيْنِ وَمَنْ دُفِنَ فِي زَيْتُونِ الْجَلَّةِ [يعني بإيلياء] فَكَأَنَّمَا دُفِنَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا. وروى أبو نعيم في تاريخه عن أحمد بن جعفر بن سعيد قال حدثنا يحيى بن مُطَرِّف حدثنا محمد بن بكر، حدثنا يوسف بن عطية، عن أبي سفيان، عن الضُّحَّاك بن عبد الرحمن ابن عَزْزَب - بفتح المهمله وسكون الراء وفتح الزاي ثم مُوحَّدة، وقد تبدل ميماً - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَكَأَنَّمَا مَاتَ فِي السَّمَاءِ»^(١).

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢٢٠/٢.

الثالثة عشرة: روى الخطيب في المَوْضُح عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة الأنبياء ثم مؤذنو البيت ثم مؤذنو بيت المقدس ثم مؤذنو مسجدي ثم سائر المؤذنين»^(١).

الرابعة عشرة: ليحذر من اليمين الفاجرة فيه وكذا في المسجد الحرام ومسجد المدينة فإن عقوبتها مُعَجَّلَةٌ. روى أن عمر بن عبد العزيز أمر بحمل عُثَالِ سليمان بن عبد الملك إلى الصخرة ليحلفوا عندها فحلفوا إلا واحداً، فدى يمينه بألف دينار، فما مَرَّ الحَوْلُ على واحد منهم بل ماتوا كلهم.

الخامسة عشرة: روى ابن جرير عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يَضُرُّهُمْ من خالفهم»^(٢). قيل: فَأَيُّنَ هم يا رسول الله؟ قال: «بَيْتُ المقدس أو بأكناف بيت المقدس». وروى أبو يَغْلَى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزال عصابة من أمتي يُقاتلون على أبواب دمشق وعلى أبواب بيت المقدس وَمَا حَوْلَهُ لا يَضُرُّهُمْ خِذْلَانٌ من خذلهم ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة»^(٣).

السادسة عشرة: روى أبو المعالي المشرف بن المُرْجِي المقدسي قال: «من حَجَّ وصَلَّى في مسجد المدينة، ومسجد الأقصى في عام واحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وإذا ثبت ذلك فقول النووي: «إنه لا أصل لذلك» فيه نظر.

السابعة عشرة: ذكر الدارمي: «أنه لا يجوز الاجتهاد مُيَنَّةً ولا يُشْرَعُ بمحراب بيت المقدس» وألحقه بمسجد المدينة.

الثامنة عشرة: نَصَّ الصيدلاني والماوردي والرويانى والبغوي والبُتْدِينِجِي - بفتح المُوحَّدة وسكون النون الأولى وكسر الثانية ثم تحتية والجيم - والجُوْنِي في مختصره والغزالي في الخلاصة والخراساني في كافيه على استحباب صلاة العيد في مسجد بيت المقدس وأن فعلها فيه أَوْلَى من المُصَلَّى.

التاسعة عشرة: قال ابن شَرَّاقَة في كتاب الأعداد: «أكبر مساجد الإسلام واحد وهو

(١) أخرجه ابن الجوزي في الملل ٣٩٣/١ والبغدادى في موضع أوامم الجمع والتفريق ٥٠/١.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٥/٩ ومسلم في كتاب الإمامة (١٧٠) وأخرجه أبو داود في كتاب الفن باب (١) والترمذي

(٢١٩٢) وابن ماجه (٦) وأحمد في المسند ١٨١/٩.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢٥٤٥/٧ وذكره ابن حجر في المطالب (٤٢٤٤) والمتقي الهندي في الكنز

(٣٥٠٥١).

بيت المقدس». وقيل: «ما تَمَّ فيه صَفٌّ واحدٌ قط لا في عيد ولا في جمعة ولا غير ذلك». العشرون: يُستحب لزاره زيارة الأماكن المشهورة بآثار الأنبياء لاسيما مواضع صلاة نبينا ﷺ.

الحادية والعشرون: حُشِر الكعبة إلى بيت المقدس: روى الواسطي في فضائل بيت المقدس عن خالد بن مَعْدَان - بفتح الميم - قال: «لا تقوم الساعة حتى تُزَفَّ الكعبة إلى الصخرة زَفَّ العروس، فيتعلَّق بها جميع من حَجَّ واعتمر، فإذا رأتها الصخرة قالت: مرحباً بالزائرة والمزور إليها». وروى أيضاً عن كعب قال: «لا تقوم الساعة حتى يُزَفَّ البيت الحرام إلى بيت المقدس فيتغادى إلى الجنة، فيها أهلها، والقروض والحساب ببيت المقدس» وروى ابن مردويه والأصبهاني في ترغيبه والدَّيْلَمِي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة زُفَّت الكعبة: البيت الحرام إلى قبري فتقول الكعبة: السلام عليك يا محمد، فأقول: عليك يا بيت الله، ما صنع بك أمتي بعدي؟ فتقول: يا محمد من أتاني فأنا أكفيه وأكون له شافعاً، ومن لم يأتني فأنت تكفيه وتكون له شافعاً»^(١). وروى الجندي عن الزُّهري نحوه.

التبئية الخامسة عشر: أنكر حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه صلاة النبي ﷺ ببيت المقدس تلك الليلة، واحتج بأنه لو صلى فيه لَكُتِبَ عليكم الصلاة فيه. قال البيهقي وابن كثير: والمُثْبِت مُقَدِّم على الثَّانِي، يعني من أثبت الصلاة في بيت المقدس، وهم الجمهور من الصحابة معه زيادةٌ عِلْم على من نفى ذلك، فهو أَوْلَى بالقبول. والجواب عما استند إليه حذيفة رضي الله عنه منع التلازم في الصلاة إن كان أراد بقوله كُتِبَ عليكم الفَرَض، وإن أُريد التشريع فيلزمه، وقد شَرَعَ النبي ﷺ في بيت المقدس، فَقَرَنَهُ بالمسجد الحرام ومسجده في شَدِّ الراحلة وذكر فضيلة الصلاة فيه في غير ما حديث.

التبئية السادسة عشر: تظاهرت الروايات على أنه ﷺ صَلَّى بالأنبياء قبل العروج وهو أحد الاحتمالين للقاضي، وقال الحافظ: «إنه الأظهر»، والاحتمال الثاني «أنه ﷺ صَلَّى بهم بعد أن هبط من السماء أيضاً فهبطوا. وصححه الحافظ ابن كثير، وقال صاحب السراج: «وما المانع من أنه ﷺ صَلَّى بهم مرتين، فإن في بعض الأحاديث ذكر الصلاة بهم بعد ذكره المعراج».

التبئية السابعة عشر: قيل: كيف يصلي الأنبياء وهم أموات في الدار الآخرة وليست

(١) ذكره السيوطي في الدر ١٣٧/١ وعزاه لابن مردويه والأصبهاني في الترغيب والدَّيْلَمِي.

دار عمل؟ وأجاب القاضي وتبعه السبكي بجوابين: الأول: إنا نقول: إنهم كالشهداء بل أفضل، والشهداء أحياء عند ربهم، فلا ينفد أن يحجوا وأن يصلوا كما ورد في الحديث الآخر، وأن يتقربوا إلى الله تعالى بما استطاعوا لأنهم وإن كانوا قد توفوا فهم في هذه الدنيا التي هي دار العمل حتى إذا فنيت مدينتها، وتغلبت الآخرة التي هي دار الجزاء انقطع العمل، وحاصله أن البرزخ ينسحب عليه حكم الدنيا في استكثارهم من الأعمال وزيادة الأجور. الثاني ولفظه للسبكي رحمه الله تعالى: «إنا نقول إن المُنْقَطِع في الآخرة إنما هو التكليف، وقد تحصل الأعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها والخضوع لله تعالى. ولهذا ورد أنهم يُسَبِّحُونَ وَيَذْكُرُونَ وَيَقْرَأُونَ القرآن وانظر إلى سجود النبي ﷺ وقت الشفاعة، أليس ذلك عبادة وعباداً؟ وعلى كلا الجوابين لا يمتنع حصول هذه الأعمال في مدة البرزخ».

وقد صَحَّح عن ثابت البناني التابعي أنه قال: «اللهم إن كنت أَعْطَيْتَ أحداً أن يصلي في قبره فَأَعْطَيْتَنِي ذلك». فروي بعد موته يُصَلَّى في قبره، ويكفي رؤيته النبي ﷺ لموسى قائماً يصلي في قبره، لأن النبي ﷺ وسائر الأنبياء لم يُقْبَضُوا حتى تُخَيَّرُوا بين البقاء في الدنيا وبين الآخرة فاخترُوا الآخرة. ولا شك أنهم لو بقوا في الدنيا لازدادوا من الأعمال الصالحة ثم انتقلوا إلى الجنة، فلو لم يعلموا أن انتقالهم إلى الله تعالى أفضل لما اختاروه، ولو كان انتقالهم من هذه الدار يفوت عليهم زيادة فيما يقرب إلى الله تعالى لما اختاروه. انتهى ولهذا مزيد بيان يأتي في باب حياته في قبره ﷺ.

التنبيه الثامن عشر: هذه الصلاة التي صلاها النبي ﷺ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الصواب أنها الصلاة المعروفة لأن النص يحمل على حقيقتها الشرعية قبل اللغوية إلا إذا تَعَدَّرَ حَمْلُهُ على الشرعية، ولم يتعدر هنا فوجب حمله على الشرعية. وعلى هذا قال بعضهم: «كانت الصلاة التي صلاها العشاء» وقال بعضهم: «إنها الصبح».

قلت: وليساً بشيء سواء قلنا صَلَّى بهم قبل الإخراج أو بعده لأن أول صلاة صلاها النبي ﷺ من الخمس مطلقاً الظُّهْر بمكة باتفاق، ومن حمل الأولية على مكة فعليه الدليل، والذي يظهر والله تعالى أعلم أنها كانت من الثَّغْل أو كانت من الصلاة المفروضة عليه قبل ليلة الإسراء، وفي فتاوى النووي ما يؤيد الثاني.

التنبيه التاسع عشر: قال بعضهم: ورؤيته إياهم ﷺ في السماء محمولة على رؤيته أَرْوَاحَهُمْ إلا عيسى، لما صَحَّح أنه رُفِعَ بجسده، وقد قيل في إدريس أيضاً ذلك. وأما الذين صَلُّوا معه في بيت المقدس فيحتمل الأرواح خاصة، ويؤيده ما في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عند الحاكم والبيهقي، «فلقي أرواح الأنبياء»، وفيه دليل على تَشَكُّل الأرواح

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

بصور أجسادها في علم الله تعالى، ويحتمل الأرواح بالأجساد ويؤيده حديث عبد الرحمن بن هاشم عن أنس رضي الله عنه عند البيهقي. وبعث الله له آدم فَمَن دُونَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. وعند البزار والطبراني: «فُتِّيرَ لِي الْأَنْبِيَاءُ، مِنْ سَمَى اللَّهُ تَعَالَى وَمَنْ لَمْ يُسَمَّ، فَصَلَّيْتُ بِهِمْ».

التنبيه العشرون: قول سيدنا إبراهيم عليه السلام: «وَأَعْطَانِي مُلْكًا عَظِيمًا»: قال ابن دحية: لا يُقْهَدُ لإبراهيم مُلْكٌ عَزَافِي، فِيمَا أَنَّ يُزَادَ بِالْمُلْكِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَذَلِكَ لِقَهْرِهِ لِعُظَمَاءِ الْمُلُوكِ، وَنَاهِيكَ بِالْمَرْوَدِ، وَقَدْ قَهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَخَلِيلِهِ وَأَعْجَزَهُ عَنْهُ، وَغَايَةُ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ قَهْرُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، فَالْقَاهِرُ أَعْظَمُ مِنَ الْمَقْهُورِ قَطْعًا. وَيَحْتَمِلُ أَنَّ يُزَادَ الْإِضَافَةُ إِلَى تَبِيَّهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَذَلِكَ نَحْوُ مُلْكِ يَوْسُفَ الصِّدِّيقِ عليه السلام وَهَلَمَّ جَزَا كِمُلْكِ دَاوُدَ وَسَلِيمَانَ وَالْكُلَّ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿فَلَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤] وَالْإِشَارَةُ هُنَا إِلَى ذُرِّيَّتِهِ. وَإِمَّا أَنَّ يُزَادَ مِلْكَ النَّفْسِ فِي مَظِنَّةِ الْاضْطِرَابِ مِثْلَ مِلْكِهِ لِنَفْسِهِ. وَقَدْ سَأَلَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: أَمَا إِلَيْكَ فَلَا.

التنبيه الحادي والعشرون: اخْتَلَفَ فِي تَقْدِيمِ الْآيَةِ هَلْ هُوَ قَبْلَ الْعُرُوجِ أَوْ بَعْدَهُ؟ وَاخْتَلَفَ فِي عِدْدِهَا فَأَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَهُ. رَوَى أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانُ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «ثُمَّ رُفِعَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ»، إِلَى أَنْ قَالَ: «ثُمَّ أُتِيَ بِإِنَاءَيْنِ: أَحَدُهُمَا خَمْرٌ وَالْآخَرُ لَبَنٌ»، وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي الْأَشْرِبَةِ مِنْ طَرِيقِ شُعْبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا: «رُفِعَتْ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى فَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ» قَالَ: «وَأُتِيَ بِثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ»^(١). لَمْ يَذْكُرْ شُعْبَةُ فِي الْإِسْنَادِ مَالِكَ بْنِ صَعْبَةَ. وَعِنْدَ ابْنِ عَائِدٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي حَدِيثِ الْمَعْرَاجِ بَعْدَ ذِكْرِ رُؤْيَيْهِ إِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: «ثُمَّ انْطَلَقْنَا فَإِذَا نَحْنُ بِثَلَاثَةِ آيَةٍ مُعْطَاةٍ».

قَالَ الشَّهْهَيْلِيُّ وَابْنُ دِيحِيَّةَ وَابْنُ الْمُنِيرِ وَابْنُ كَثِيرٍ وَالْحَافِظُ: «لَعَلَّهُ قُدِّمَ مَرَّتَيْنِ جَمْعًا بَيْنَ الرِّوَايَاتِ». قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ وَالْحَافِظُ: «وَأَمَّا الْاِخْتِلَافُ فِي عِدْدِ الْآيَةِ وَمَا فِيهَا فَيُحْتَمَلُ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الرِّوَاةِ ذَكَرَ مَا لَمْ يَذْكُرِ الْآخَرُ، وَمَجْمُوعُهَا أَرْبَعَةُ آيَةٍ فِيهَا تُعْرَضُ الْآيَةُ مَرَّتَيْنِ وَأَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ مِنَ الْأَنْهَارِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ أَصْلِ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى».

التنبيه الثاني والعشرون: إِذَا قُلْنَا يَعْزُضُ الْآيَةَ مَرَّتَيْنِ فَفَائِدَةُ عَرُوضِ الْخَمْرِ [مَعَ] إِعْرَاضِهِ عَنْهَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى وَتَصْوِيْبِ جَبْرِيلَ لَهُ، تَكْثِيرُ التَّصْوِيْبِ وَالتَّحْذِيرِ. وَهَلْ كَانَتْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ١٩٨/٧ كِتَابُ الْأَشْرِبَةِ (٥٦١٠) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ ٨١/١ وَذَكَرَهُ الْمُتَقِيُّ الْهِنْدِيُّ فِي الْكَفَرِ (٣١٨٤٦).

الخمر من خمر الجنة أو من جنس خمر الدنيا؟ فإن كان الأول فَسَبَبَتْ تَجَنُّبُهَا صورُها ومضاهاتها للخمر المُحَرَّمَة، ويكون ذلك أبلغ في الوَرَع. وإن كان الثاني فاجتنابها واضح. وعلى التقدير الأول يُشْتَفَاد منه فائدة: وهو أن من وَضَعَ من الماء ونحوه من الأشربة ما يُضَاهِي الخمرَ في الصورة وهَيَأَةُ بالهيئة التي يتعاطاها [بها] أهل الشهوات من الاجتماعات والآلات فقد أتى مُتَكَرِّراً وإن كان لا يُحَدِّد. وذكر أصحابنا أن إدارة كأس الماء على شاربِهِ تَشْبَهُاً بشارب الخمر حرام، ويُعَزَّرُ فاعله.

التبیه الثالث والعشرون: قال ابن دُخَيْتَة: اعلم أن التَّخْيِير قد يكون بين وَاجِبَيْن كخصال الكُفَّارة وقد يكون بين مُبَاحَيْن، وأما التَّخْيِير بين واجب وممنوع أو مباح وممنوع فمستحيل، فانظر في إحضار اللبن والخمر، هل أريد به الإباحة لهما والإذن فيهما؟ كما لو أَخْضَرْتَ طعَامَيْن لضعيف وأَبْتَحْتَهُمَا له، فما معنى إختياره لأحدهما؟ وما معنى قول جبريل: «اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ» أو «أَصَبْتَ»، أصاب الله بك؟ وإن كان المراد الإذن في أحدهما لا يَغْنِيهِ، بحيث يكون الآخر ممنوعاً لَزِمَ التَّخْيِير بين ممنوع ومُتَبَاح، وذلك لا يُتَصَوَّر، والذي يرفع الإشكال إن شاء الله تعالى أن يكون المراد تفويض الأمر في تحريم ما يُحَرِّمُ منها وتحليل ما يُحِلُّ إلى إستهاد النبي ﷺ وسداد نظره المعصوم. فلما نظر فيها أداه اجتهداه إلى تحريم الخمر وتحليل اللبن، فوافق الصواب في علم الله تعالى، فقال له جبريل: «أَصَبْتَ»، وعلى تقدير ألا تكون الخمر مُحَرَّمَة لأنها إنما حُرِّمَتْ بالمدينة فيكون تَوَقُّيها وَرَعاً وتعريضاً بأنها سَخَرَمٌ.

التبیه الرابع والعشرون: قال أبو الحَطَّاب الكلبي: «الْفِطْرَةُ تُطْلَقُ على الإسلام وتطلق على أصل الخَلْقَة، فمن الأول قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»^(١). ومن الثاني قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، أي مبدئ خَلْقَهُمَا، وقول جبريل: «اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ» أي اخْتَرْتَ اللبن الذي عليه بُنِيَتْ الخَلْقَة وبه يُبْنَى اللحم، أو اخترته لأنه الحلال الدائم في دين الإسلام، وأما الخمر فحرام فيما يستقر عليه الأمر، وقد تكون الإشارة بتقديم اللبن إلى أن شعار العلم في التعبير، كما ورد أنه عليه الصلاة والسلام قال: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أُتِيْتُ بِقَدَحٍ مِنْ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ حَتَّى أَرَى الرَّيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي ثُمَّ نَاولْتُ فَضَلِي عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ»، قالوا: يا رسول الله ما أولئك؟ قال: «العلم»^(١).

والإسراء وإن كان يقظة إلا ربما وقعت في اليقظة إشارة إلى حكم القائل يُعَبَّرُ كما يُعَبَّرُ في المنام. ولهذا كان النبي ﷺ يحب القائل الحَسَنَ، فكأنه لما مُلِيَءَ قلبه إيماناً وخكمةً أَرَدَفَ

(١) أخرجه البخاري ٤١٠/١٢ (٧٠٠٦).

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

ذلك بالعلم مطلقاً، ويجعل الله تعالى ذلك الدين سبباً في تَرادُف العلم وأشجان القلب النبوي بأنوارها. وقال القرطبي: يحتمل أن يكون تسمية الدين فطرة لكونه أَوَّل شيء يدخل بطن المولود وَيَشُقُّ أمعاءه، والمُشَرِّ في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره لكونه مألوفاً له، ولأنه لا ينشأ عن جنسه مَفْسُدة، وأفهمَ قولَ جبريل «أَصَبْتَ»، فإن اختيار الخمر خطأً عُصِمَ منه النبي ﷺ، وكانت المسألة حينئذ اجتهدية لأن الخمر لم تكن حُرِّمت بعد، فقد وقع تخييره في مُلك الله الأعظم.

التبیه الخامس والعشرون: ظاهر قوله: «ثم أتيت بالمعراج» أن العروج كان لا على البراق وفي ذلك خلاف، فظاهر حديث مالك بن صعصعة أنه استمر على البراق حتى شَرِجَ به إلى السماء، وهو مقتضى كلام ابن أبي جَمْرَةَ وابن دحية. قال الحافظ: «لكن في غير هذه الرواية من الأخبار أن العروج لم يكن على البراق بل رقي في المعراج وهو الشَّلَم، ويؤيده قوله في حديث ثابت عن أنس كما في صحيح مسلم: «ثم أتيت بالمعراج».

وقال الحافظ ابن كثير: «إِنَّهُ لَمَّا فَرَّغَ ﷺ من أمر بيت المقدس نُصِبَ له المعراج وهو الشَّلَم، فصَعِدَ فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق كما قد تَوَهَّمَهُ بعض الناس، بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس ليرجع عليه إلى مكة».

وقال الشيخ رحمه الله تعالى: «إِنَّهُ الصَّحِيحُ الَّذِي تَقَرَّرَ من الأحاديث الصحيحة».

التبیه السادس والعشرون: نَزَعَ ابنُ دَحِيَّةِ المِعْرَاجَ إلى عَشْرَةِ أنواع على عدد سني الهجرة، منها سبعة معارج إلى السموات السبع، والمعراج الثامن إلى سِدْرَةِ المنتهى والمعراج التاسع الذي سَمِعَ فيه صريرَ الأقلام في تصريف الأقدار، والمعراج العاشر إلى العرش والوَظَرُ والرؤية وسيأتي ما أبداه من الحُكْم في ذلك.

التبیه السابع والعشرون: ورد أن بين الدرجة والدرجة في المَجْنَّةِ خمسمائة عام وأن الدرجة تهبط كالإبل لِيَضَعَدَ عليها وَلِيَّيَ اللهُ تعالى ثم تُرْفَعُ به إلى مكانها والظاهر أن دَرَجَ المعراج كذلك.

التبیه الثامن والعشرون: لا يُتَوَهَّمُ بما تسمعه في قصة المعراج من الصعود والهبوط أن بين العَبْدِ وَرَبِّهِ مسافة، فإن ذلك كُفْرٌ، نَعُوذُ بالله من ذلك، وإنما هذا الصعود والهبوط بالنسبة إلى العبد لا إلى الربِّ، والنبي ﷺ مع انتهائه لِيَلْتَمِذَ إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى، لم يجاوز مقام العبودية، وكان هو وَنَبِيُّ اللهُ يونس بن مَتَّى ﷺ إذا التقمه الحوت وذهب به إلى البحار يَشْقِيها حتى انتهى به إلى قرار البحر، في مُبَايَنَةِ اللهِ تعالى خَلَقَهُ وعدم الجهة والتحييز والحدِّ والإحاطة سواء. وقد ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة ذكره الإمام البغوي وغيره.

وإذا عَلِمْتَ ذلك فالمارد بِتَرْقِيهِ ﷺ وَقَطْعِ هذه المسافات إظهارُ مكانته عند أهل

السموات وأنه أفضل المخلوقات. ويُقَوِّي هذا المراد بكونه أركبه البراق ونَصَّب له المعراج وجعله إماماً للنبيين والملائكة، مع أنه تعالى قادرٌ على أن يرفعه بدون البراق والمعراج.

ويقال لأصحاب الجهة: إنما منعكم من اعتقاد الحق استبعادكم موجوداً إلا في جهة، فأحلثم ذلك. فأخبرونا عن العرش والفرق هل ذلك قديم؟ أم مُحدث؟ فإن قالوا قديماً جاهرُوا بِقَدَمِ الْعَالَمِ وَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى مُخَالَئِنِ أَحَدَهُمَا أَنْ يَكُونَ مَعَ الْبَارِي تَعَالَى فِي الْأَزَلِّ غَيْرُهُ، وَالْقَدِيمَانِ لَيْسَ أَحَدُهُمَا بِأَنْ يَكُونَ مَكَاناً لِلثَّانِي بِأَوَّلِيٍّ مِنَ الْآخِرِ. ثَانِيَهُمَا أَنَّ الْجِهَةَ وَالْمَكَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَا جَسْمَيْنِ، وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى جَوَازِ وَجُودِ الْأَجْسَادِ كُلِّهَا، وَهُوَ قَوْلٌ مِنْ قَالَ بِقَدَمِ الْعَالَمِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. وَإِنْ قَالُوا: مُخَدَّثٌ، قُلْ فَقَدْ صَدَقْتُمْ بِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى كَانَ موجوداً أولاً ولا جهة، والمستحيل [لا] ينقلب جائزاً أو واجباً لأن الحادث لا يحتاج إليه القديم، فإنه قَبْلَ كَوْنِهِ كَانَ مُسْتَغْنِياً عَنْهُ، وَهُوَ عَلَى اسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ لَمْ يَزَلْ وَكَذَلِكَ لَا يَزَالُ، وَمُحَالٌّ أَنْ يَكُونَ خَالِقُ الْكُلِّ مُفْتَقِراً إِلَى بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ. وَمَا وَرَدَ مِنَ الْاسْتِثْنَاءِ وَالنُّزُولِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي يُشْكِلُ إِجْرَاءُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا، نُوْثِرُ بِهَا وَنَكْبِلُ عِلْمَ مَعْنَاهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا نُشَبِّهُهُ تَعَالَى بِمَخْلُوقِهِ وَلَا نُنْفِي الصِّفَاتِ الَّتِي أَثْبَتَهَا لِنَفْسِهِ وَأَثْبَتَهَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(١).

التنبيه التاسع والعشرون: نقل ابن دحية عن ابن حبيب، والحافظ عن ابن المنير عن ابن حبيب وأقره: أن بين السماء والأرض بحراً يسمى المكفوف تكون بحار الدنيا بالنسبة إليه كالقطرة من المحيط، فعلى هذا يكون ذلك البحر انقلب لبنينا ﷺ فهو أعظم من انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام.

التنبيه الثلاثون: في قدر ما بين السماء والأرض: روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه، وابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أتدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحرٌ من أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال^(٢) بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء وفوق ظهورهن العرش وبين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ثم الله تعالى فوق ذلك.

وروى إسحق بن راهويه والبخاري بسند صحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين السماء والأرض خمسمائة عام وغلظ كل سماء خمسمائة عام

(١) سقط في أ.

(٢) ثمانية أوعال: أي ملائكة على صورة الأوعال. انظر النهاية لابن الأثير ٢٠٧/٥.

كذلك إلى السماء السابعة، والأرضون مثل ذلك. وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك»^(١).

وروى ابن جرير وابن المنير عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم قالوا: إن الله عز وجل كان عزّشهُ على الماء لم يخلق شيئاً غير ما خلق، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسمّا عليه فسّماء سماء، ثم أُنيس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتنّقها فجعلها سبع أرضين في يومين: الأحد والاثنين، فخلق الأرض على الحوت، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله ﴿وَإِنَّا لَنَسْفُكُهَا وَأَلْفَافًا مَّوَدًّا﴾، والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة على الريح، وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحوّك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسي عليها الجبال فقوّت وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين: الثلاثاء والأربعاء، ثم استوى إلى السماء وهي دُخان، والدُخان من تنفّس الماء حين تنفّس فجعلها سماء واحدة ثم فتنّقها فجعلها سبع سموات في يومين: الخميس والجمعة وإنما سُمّي الجمعة لأنه جمع فيه خَلَقَ السموات والأرض وأوحى في كل سماء أمرها أي خَلَقَ خَلَقَها من الملائكة والخلق الذي فيهما من البحار والجبال والبرد وما لا يُعْلَم، ثم زَيّن السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً من الشياطين.

وروى ابن أبي حاتم عن جبير بن مُطعِم رضي الله عنه قال: «إن الله تعالى على عزّشهُ وعزّشهُ على سمواته، وسمواته على أرضه هكذا»، وقال بأصبعه: «مثل القُبّة» وروى ابن حاتم عن القاسم بن أبي بَزّة - بالزاي المعجمة - قال: «ليس السماء مُرَبَّعة ولكنها مَقْبُوْة يراها الناس خضراء» وروى ابن راهويه والطبراني في الأوسط، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: «السماء الدنيا مُوَجّ مكفوف والسماء الثانية زُمُرْدَة بيضاء والثالثة حديد والرابعة نُحاس والخامسة فِطْبة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء»، زاد ابن أبي حاتم: «وما فوق ذلك صحاري من نور، ولا يعلم ما فوق ذلك إلا الله تعالى ومَلَكٌ هو مُوَكَّلٌ بالحُجُب يقال له ميطاطروس». وروى أبو الشيخ وابن أبي حاتم عن كعب قال: «السماء أَشَدُّ بياضاً من اللبن واخْضَرَّتْ من خُضْرَةِ جبل قاف».

شرح الغريب

«الموج» - بميم فواو فعجيم - ما ارتفع من فوران الماء. «المكفوف» - بميم

(١) ذكره السيوطي في الدر ٤٣/١ وعزاه لاسحاق بن راهويه في مسنده والبخاري في العظمة وابن مردويه والبيهقي.

فكاف بقاءين بينهما واو - المحبوس.

التبیه الحادي والثلاثون: استفتاح جبریل باب السماء یُحتمل أن یشکک بقرع أو صوّت. قال الحافظ: «والأشبه الأول لأنه صوت معروف». قلت: في حديث ثابت البثاني عن أنس رضي الله عنه: «فقرع الباب». قال ابن دحية: وفي استفتاح جبریل لأبواب السماء دليل على أنه صادف أبواباً مغلقة، وإنما لم تهياً للنبي ﷺ بالفتح قبل مجيئه، وإن كان أبلغ في الإكرام، لأنه لو رآها مفتحة لظن أنها لا تزال كذلك، ففعل ذلك ليبلغ أن ذلك فعل من أجله، وأن الله تعالى أراد أن يُطْلِعَهُ على كونه معروفاً عند أهل السموات، وقول أمين الوحي لما قيل له: من هذا؟ «جبریل»: سَمِيَ نفسه لئلا يَلْتَمِسَ بغيره ولا يحتاج إلى موقف لِلْمُراجعة في المروة، فإنه معهود عندهم نزوله وصعوده ولذلك قَدِمَ اسمه لأنه الرسول بإحضار النبي ﷺ.

واستنبط ابن دحية وتبعه ابن المنير من قول المَلَك: «مرحباً» إلى آخره، جواز رد السلام بغير لفظه. وتَعَقَّبَا بأن قول المَلَك: مرحباً، ليس رد السلام، فإنه كان قبل أن يُفتَح الباب، والسياق يُؤشِّرُ إليه. وقد نبّه على ذلك ابن أبي جفرة. ووقع في رواية أن جبریل قال له عند كل نبی: «سَلِّمْ عليه»، فردّ عليه السلام.

التبیه الثاني والثلاثون: ينبغي للمستأذن إذا قيل له هذا أن يُسمِّي نفسه فيقول: محمد الشامي مثلاً، ولا يقتصر على قوله: محمد، مثلاً، لأن المسمي بمحمد كثير، فيشبهه عليه، ولا يقول: «أنا» فإن جبریل ههنا لم يقل: «أنا»، بل سَمِيَ نفسه، ولم يرد أن أحداً من الملائكة سَمِيَ جبریل غير أمين الله تعالى على وَحْيِهِ. وأنكر النبي ﷺ على الذي استأذن عليه فقال: «من هذا؟» فجعل يقول: «أنا» فقال النبي ﷺ: أنا أنا إنكاراً لذلك^(١). وكُرِهت هذه اللفظة لِوُجْهَيْن: أحدهما أن فيها إشعاراً بالعظمة. وفي الكلام السائر أول من قال: أنا إبليس فشقي حيث قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، [الأعراف: ١٢]، وتبع فرعون حيث قال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النزعات: ٢٤] والثاني أنها مُبْهَمَةٌ لافتقار الضمير إلى العود، فهي غير كافية في البيان، والضمير إذا عاد وتَعَيَّنَ مُضْمَرُهُ كان أغرف المعارف، والمستأذن محجوب عن المُستأذِن عليه غَيْرُ مُتَعَيِّنٍ عنده فكأنه أحاله على جهالة.

التبیه الثالث والثلاثون: قَوْلُ الخازن: «وقد بُعث إليه؟» أراد الاستفهام فحذف الهمزة للعلم بها أي: «أَو قد بُعث إليه؟» قال العلماء: ليس هذا الاستفهام عن البعث الذي هو الرسالة لأنه كان مشهوراً في الملكوت الأعلى، بل البعث للمعراج، وقيل: بل سألوا تعجباً من

(١) أخرجه البخاري ٣٧/١١ (٦٢٥٠).

نعمة الله تعالى بذلك أو استبشاراً به، وقد علموا أن يَشْرَأَ لَا يَتَرَقَّى هذا الترقى إلا بإذن الله تعالى وأن جبريل لا يصعد بمن لا يُرْسَلُ إليه. وقول الخازن: «من معك؟» يُشعر أنهم أحسوا معه برفيق وإلا لكان السؤال: «أَمَعَكَ أَحَدٌ؟» وذلك الإحساس إما بمشاهدة لِكَوْنِ السماء شَفَافَةً، وإما لأمر معنوي بزيادة أنوار، وَلَزِمَ من التبث إلى ﷺ الإذن في إزالة الموانع وفتح أبواب السماء. ولم يتوقف الخازن على أن يُوحى إليه بالفتح، لأنّه لَزِمَ عنده من التبث الإذن، وفي قول الخازن: «مَرْحَباً به» إلى آخره ما يدل على أن الحاشية إذا فهموا من سيدهم عزماً لإكرام وافد أن يُتَشَرَّوه بذلك وإن لم يأذن لهم فيه، ولا يكون في ذلك إفشاء للشّر، لأن الخازن أعلم النبي ﷺ حال استدعائه أنه استدعاء إكرام وإعظام، فَعَجَّلَ بالبُشْرَى والفراسة الصادقة عند أهلها وفي محلها يحصل [بها] العلم كما يحصله الوحي، ولم يخاطبه الخازن بصيغة الخطاب فيقول: «مَرْحَباً بك» وإنما أراد التحية بصيغة الغيبة، والشّر في ذلك أنه حيّاه قبل أن يفتح الباب وقبل أن يصدر من النبي ﷺ خطاب، ولهذا قال المَلَكُ لجبريل: «ومن معك؟» فخاطبه بصيغة الخطاب، لأن جبريل خاطب الملك، فارتفع حكم الغيبة بالتخاطب من الجانبين، ويجوز أن يكون حيّاه بغير صيغة الخطاب تعظيماً له لأن هاء الغيبة ربما كانت أفخم من كاف الخطاب.

التبئية الرابع والثلاثون: قول جبريل حين سُئِلَ: «مَنْ معه» فقال: «محمد»، دليل على أن الاسم أرفع من الكُنيّة لأنه أخبر باسمه ولم يُخبر بكنيته، وهو عليه الصلاة والسلام مشهور في العالمين العلوي والسفلي، فلو كانت الكُنيّة أشرف من الاسم لأخبر بها.

التبئية الخامس والثلاثون: قال ابن أبي جمرة: «استفهام الملائكة»: «وقد أُرْسِلَ إليه؟» دليل على أن أهل العالم العلوي يعرفون رسالته ومكانته لأنهم سألوا عن وقتها: هل جاء؟ لا عنها، ولذلك أجابوا بقولهم: «مَرْحَباً ونعم المجيء جاء» وكلامهم بهذه الصيغة أدل دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلالة مكانته وتحقيق رسالته لأن هذا أجمل ما يكون من حسن الخطاب، والترفع على المعروف من عادة العرب. وقد قال العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨] إنه رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت فإذا هو عروس المملكة.

التبئية السادس والثلاثون: وقع في رواية أنس ومن رواية أبي ذر رضي الله عنهما: «قلت لجبريل: مَنْ هذا؟ قال: أبوك آدم». وظاهره أنه سأل عنه بعد أن قال له آدم: «مَرْحَباً». ورواية مالك بن صَعْبَةَ بعكس ذلك، وهي المُعْتَبَدَة، فتَحَمَّلَ هذه عليها، وليس في رواية أبي ذر ترتيب. وفي قول آدم: «مَرْحَباً بالابن الصالح»، إشارة إلى افتخاره بأبُوْتِهِ للنبي ﷺ.

وظاهر قوله في رواية آدم: «تُعرض عليه أرواح ذُرِّيَّته» إلى آخره أن أرواح بني آدم من أهل الجنة والنار في السماء. قال القاضي: «وهو مُشْكِل، فقد جاء أن أرواح المؤمنين مُنْعَمَةٌ في الجنة وأن أرواح الكُفَّار في سِجِّين، فكيف تكون مجتمعة في السماء؟ وأجاب بأنه يُحْتَمَلُ أنها تُعرض أوقاتاً فصادف وقت عَرَضِها مرور النبي ﷺ، ويدل على أن كونهم في النار في أوقات دون أوقات قوله تعالى: ﴿النَّارُ، يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، [غافر: ٣] واغترض بأن أرواح الكفار لا تُفْتَحُ لهم أبواب السماء كما هو نص القرآن»، والجواب ما أبداه القاضي احتمالاً أن الجنة كانت في جهة يمين آدم والنار كانت في جهة شماله وكان يُكشَفُ له عنهما.

وقال الحافظ: «وَيُحْتَمَلُ أن النَّسَمَ المَرْئِيَّةَ هي التي لم تدخل الأجساد بعد وهي مخلوقة قبل الأجساد ومستقرها عن يمين آدم وشماله، وقد أُعْلِمَ بما سيصيرون إليه فلذلك كان يستبشِرُ إذا نظر إلى من على يمينه ويحزن إذا نظر إلى من على يساره، بخلاف التي في الأجساد فليست مُرَادَةً قطعاً وبخلاف التي نُقِلَتْ من الأجساد إلى مستقرها من الجنة أو النار فليست مُرَادَةً أيضاً فيما يظهر، وبهذا يندفع الإيراد، ويعرف أن قوله: «نَسَمَ بَنِيهِ» عام مخصوص أو أُريد به الخصوص». انتهى.

وقال في الفتح في باب المعراج: «وظهر لي الآن احتمال آخر وهو أن يكون المراد من «خَرَجَتْ من الأجساد لا أنها مستقرة ولا يلزم من رؤية آدم لها وهو في السماء الدنيا أن تُفْتَحَ لها أبواب السماء ولا أن تَلْجَها، ويؤيد هذا ما رواه ابن إسحاق: فإذا أنا بآدم تُعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول: «روح طَيِّبَةٌ وَنَفْسٌ طَيِّبَةٌ اجعلوها في عِلِّيِّينَ، ثم تُعرض عليه أرواح ذريته الفُجَّار فيقول: «روح خبيثة وَنَفْسٌ خبيثة اجعلوها في سِجِّينَ. وفي حديث أبي هريرة: فإذا عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، فهذا لو صَحَّ لكان المصير إليه أولى من جميع ما تقدم ولكن سنده ضعيف وظاهرها عدم اللزوم المتقدم» انتهى.

وقال السهيلي: «فإن قيل كيف رأى عن يمينه أصحاب اليمين؟ ولم يكن إذا ذاك منهم إلا نفر قليل، ولعله لم يكن مات تلك الليلة منهم أحد، وظاهر الحديث يقتضي أنهم كانوا جماعة، والجواب أن يُقال: إن كان الإسراء رؤيا بقلبه فتأويلها أن ذلك سيكون وإن كانت رؤيا عَيْنٍ فمعناها أن أرواح المؤمنين رآها هنالك لأن الله يَتَقَوَّى الخَلْقُ في منامهم كما قال في التنزيل ﴿اللَّهُ يَتَقَوَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] «فَصَيَّدَ بِالْأَرْوَاحِ إِلَىٰ هُنَالِكَ ثُمَّ أُعِيدَتْ إِلَىٰ أَجْسَادِهَا».

وقال ابن دحية: «فإن قيل: كيف تكون نَسَمُ السَّعْدَاءِ كلهم في السماء، وقد كان حين الإسراء جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في الأرض وهم من السعداء؟ فالجواب: أن آدم

إنما رآهم في مواضعهم ومقارهم في الأرض، ولكنه يراهم من الجانب الأيمن فالتقييد للنظر لا للمنظور.

وفي قول جبريل للنبي ﷺ: «هذا أبوك آدم فسلم عليه» ما يقتضي أن القادم يبدأ بالسلام على المقيم.

التبئية السابع والثلاثون: وقع في رواية شريك: «إذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان - أي يجريان - النيل والفرات، ويجمع منصرفهما» - أي أصلهما. وظاهر هذا يخالف حديث مالك بن صفصعة فإن فيه بعد ذكر سدرة المنتهى: «إذا أضلها أربعة»، فذكر منها النيل والفرات، ويجمع بينهما بأن أصل منبهما من تحت سدرة المنتهى ومقرهما في السماء الدنيا ومنها ينزلان إلى الأرض.

التبئية الثامن والثلاثون: وقع في رواية شريك أيضاً: «ثم مضى النبي ﷺ في السماء الدنيا فإذا هو بنهر آخر عليه قصور من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فيه فإذا طينه مسك أذفر فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي حُباً لك ربك، وهذا مما استشكل في رواية شريك، فإن الكوثر في الجنة وإن الجنة في السماء السابعة. وقد روى الإمام أحمد عن طريق حميد الطويل عن أنس، رَفَعَهُ: «دخلت الجنة فإذا بنهر حافته خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي في مجرى مائه فإذا هو مسك أذفر». فقال جبريل: «هذا الكوثر الذي أعطاك الله تعالى». وأصل هذا الحديث عند البخاري بنحوه، وأخرجه في التفسير عن قتادة عن أنس رضي الله عنه، ولكن ليس فيه ذكر الجنة. ورواه أبو داود من طريق سليمان التيمي عن قتادة ولفظه: «لما عُرج بنبي الله ﷺ عَرَضَ له في الجنة نهر»، قال الحافظ: ويمكن أن يكون في هذا الموضوع شيء تقديره: ثم مضى به في السماء الدنيا إلى السماء [السابعة] فإذا هو بنهر، قال تلميذه الحافظ قطب الدين الخيضري في الخصائص: «وهذا بعيد إذ بينه وبين السماء السابعة خمس سماوات أخرى وكل منها له صفة خلاف صفة الأخرى ولها أبواب وتُحْدَم غير الأخرى، فإطلاق المسير إليها وذكرها بعد السادسة مما يعده أيضاً، ولكن يقال من غير استبعاد، إن أصل النهر - الذي هو الكوثر - في الجنة، وجعل الله تعالى منه فرعاً في السماء الدنيا عَجَلَ لنبيه ﷺ رؤيته استبشاراً لأنها أول المراتب العلوية، ويؤيد هذا قول جبريل: «حُباً لك ربك». انتهى.

التبئية التاسع والثلاثون: في قول آدم: «مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح»، ثناء جميل لجليل النبي ﷺ، ووصفه بالصالح مكرراً مع النبوة، أي صالح مع النبيين جميعاً، وفيه تنويه بفضيلة الصلاح وعلو درجته، ولهذا وُصِفَ النبي ﷺ. قال بعضهم: وصلاح الأنبياء صلاح خاص لا يتناول عموم الصالحين. واحتج على ذلك بأنه قد تَعَنَّى كثير من الأنبياء أن يلحق بالصالحين، ولا يَتَعَنَّى الأعلى أن يلحق بالأدنى، ولا خلاف في أن النبوة أعلى من

صلاح الصالحين من الأمم. وبهذا تحقق أن الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم، فصلاح الأنبياء صلاح كامل لأنه يزول بهم كل فساد، فلهم كل صلاح ومن دونهم الأمثل فالأمثل، فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر ما زال به أو منه من الفساد، واقتصر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم على وصفه ﷺ بالصلاح وتواردوا على ذلك لأن الصلاح يشمل خصال الخير، ولذلك كررها كل منهم عند وصفه.

والصالح هو الذي يقوم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد، فمن ثم كانت كلمة جامعة مانعة شاملة لسائر الخصال المحموده، ولم يقل له أحد: مرحباً بالنبي الصادق ولا بالنبي الأمين لما ذكرنا من أن الصلاح شامل لسائر أنواع الخير.

التبنيه الأربعون: إنما رأى أكلة الربا مُتَنَبِّهَةً بطونهم لأن العقوبة مشاكلة للذنب، فأكل الربا يربو بطنه كما أراد أن يَزْبُو ماله بأكل ما حُرِّم عليه فَمُحِقَّتْ البركة من ماله وجُعِلَتْ نَفْخاً في بطنه حتى يقوم ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾. وإنما جعلوا بطريق آل فِرْعَوْنَ يَمْزُجُونَ عليهم غُدُوًّا وَعَشِيًّا، لأن آل فرعون هم أشدُّ الناس عذاباً فضلاً عن غيرهم من الكفار، وهم لا يستطيعون القيام. ومعنى كَوْنِهِمْ في طريق جهنم بحيث يُزْمَرُ بالكفار عليهم أن الله سبحانه وتعالى قد أَوْقَفَ أمرهم بين أن ينتهوا فيكون خيراً لهم وبين أن يعودوا ويَصِيرُوا فَيُذْخِلُهُم النار، وهذه صفة مَنْ هو في طريق النار، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وفي بعض الأحاديث أنه رأى بطونهم كالببوت يعني أكلة الربا، وفيها حيَّات تُرَى من خارج البطن.

التبنيه الحادي والأربعون: فإن قيل: هذه الأحوال التي ذكرها عن أكلة الربا، إن كانت عبارة عن حالهم في الآخرة، قال فرعون قد أُذْخِلُوا أَشَدَّ الْعَذَابِ وإنما يُعْرَضُونَ على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا في البرزخ، وإن كانت الحال التي رآهم عليها فأَيُّ بطون لهم وقد صاروا عِظَماً وَزُفَاتاً وَمُزْقَوا كل مُزْقٍ؟ فالجواب أنه إنما رآهم في البرزخ، وهذه الحال هي حال أرواحهم بعد الموت. وفيها تصحيح لمن قال: الأرواح أجساد لطيفة قابلة للنعيم والعذاب، فخلق الله تعالى في تلك الأرواح من الآلام ما يَجِدُّه من انتفخ بطنه حتى وُطِئَ بالأقدام ولا يستطيع معه قياماً. وليس في هذا دليل على أنهم أَشَدَّ عَذَاباً من آل فرعون، ولكن فيه دليل على أنه يطوهم آل فرعون وَيُزْمَرُهم من الكفار الذين لم يَأْكُلُوا الربا، ما داموا في البرزخ إلى أن يقوموا يوم القيامة كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ثم ينادي منادي الله تعالى ﴿أُذْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. وكذلك ما رأى من النساء المُعَلَّقَاتِ

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

بثديهن يجوز أن يكون رأى أرواحهن وقد خُلق من الآلام ما يجدُه من هذه حاله، ويُحتمل أيضاً أن يكون مثَلت له حالهن في الآخرة.

التبیه الثاني والأربعون: ذكّره لإدريس في السماء الرابعة مع قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ [مريم: ٥٧]، مع أنه قد رأى موسى وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما في مكان أعلى من مكان إدريس، فذلك - والله تعالى أعلم - لِمَا ذُكر عن كعب الأحبار أن إدريس خُصّ من بين جميع الأنبياء بأنّه رُفِع قبل وفاته إلى السماء الرابعة، رَفَعَهُ مَلَكٌ كان صديقاً له وهو المَلَكُ المُوَكَّل بالشمس. وكان إدريس سألَهُ أَنْ يُرِيَهُ الجَنَّةَ فَأَذِنَ له الله في ذلك، فلما كان في السماء الرابعة رآه هنالك مَلَكٌ الموت فَعَجِب وقال: أُمِرْتُ أَنْ أَقْبِضَ رُوحَ إدريس الساعة في السماء الرابعة فقبضه هنالك، فرفعه حيّاً إلى ذلك المكان العَلِيِّ الذي خُصّ به دون سائر الأنبياء، قاله السهيلي.

وتقدم الكلام في النسب النبوي على قوله: «مرحباً بالأخ الصالح».

التبیه الثالث والأربعون: قال العلماء: «لم يكن بكاء موسى حسداً، معاذ الله، فإنّ الحسد في ذلك العالم منزع عن آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاهم الله تعالى، بل كان أسفاً على ما فاتته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أُمته من كثرة المخالفة المُقتضية لتنقيص أجورهم والمُستلزمة لتنقيص أجره، لأن لكل نبيٍّ أَجَرَ مَنْ تَبِعَهُ، ولهذا كان من أتبعه في العدد دون من اتّبع نبيّاً ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة لمدة هذه الأمة. وقال ابن أبي جَمْرَةَ: «قد جعل الله تعالى في قلوب أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الرحمة والرأفة لأمتهم، وقد بكى النبي ﷺ، فسئل عن بكائه فقال: «هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(١). والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أخذوا من رحمة الله تعالى أوفر نصيب، فكانت الرحمة في قلوبهم لعباد الله أكثر من غيرهم. فلأجل ما كان لموسى عليه الصلاة والسلام من الرحمة واللفظ بكى إذ ذاك رحمةً منه لأُمته لأن هذا وقت إفضال وجود وكرم. فَرَجَا لعله يكون وقت القبول والإفضال فيرحم الله تعالى أُمته ببركة هذه الساعة. فإن قيل: كيف يكون هذا وأُمته لا تخلو من قسمين: قسم مات على الإيمان، وقسم مات على الكفر فالذي مات على الإيمان لا بُدَّ له من دخول الجنة والذي مات على الكفر لا يدخل الجنة أبداً، فبكاؤه لأجل ما ذكرت لا يسوغ إذ أن الحكم فيه قد مرَّ ونقذ. قيل في الجواب: وكذلك قدّر الله عز وجل قدره على قسمين، كما شاءت حكمته، فقدّرَ قَدْرًا وَقَدَّرَ أَنْ يَنْقُذَ على كل الأحوال وقدّرَ قَدْرًا وَقَدَّرَ أَلَّا يَنْقُذَ، ويكون وقوعه بسبب دعاء أو صدقة أو غير ذلك».

(١) أخرجه البخاري ١٠٠/٢ ومسلم في كتاب الجنائز (١١).

ومثاله دعاء النبي ﷺ بالدعوات الثلاث لأُمته وهي: «أَلَّا يَظْهَرُ عَلَيْهِمُ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَلَّا يُهْلِكَ لَهُمُ الْبَالِسِينُ، فَأُعْطِيَهُمَا وَدَعَا بَأَلَّا يُجْعَلَ بِأَسْهَمٍ بَيْنَهُمْ، فَاسْتَجِيبَ فِي الْاِثْنَيْنِ وَلَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ فِي الثَّالِثَةِ، وَقِيلَ لَهُ: هَذَا أَمْرٌ قَدَّرْتَهُ أَيُّ أَنْفَذْتَهُ^(١)، فَكَانَتِ الْاِثْنَانِ مِنَ الْقَدَرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدَّرَ أَلَّا يُنْفِذَهُ بِسَبَبِ الدَّعَاءِ وَكَانَتْ دَعْوَتُهُ الثَّالِثَةُ مِنَ الْقَدَرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدَّرَ إِنْفَاذَهُ عَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ لَا يَرُدُّهُ رَادٌّ. وَسَيَأْتِي لِهَذَا مَزِيدٌ يُبَيِّنُ أَصْلَاحَ.

«فَلَأَجَلَ مَا رُكِّبَ فِي مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ اللَّطْفِ وَالرَّحْمَةِ بِالْأُمَّةِ طَمَعٌ لَعَلَّ أَنْ يَكُونَ مَا اتَّفَقَ لِأُمْتِهِ مِنَ الْقَدَرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدَّرَ ارْتِفَاعَهُ بِسَبَبِ الدَّعَاءِ وَالْتِصُّوعِ. وَهَذَا وَقْتُ يُزَجَّى فِيهِ التَّعَطُّفُ وَالْإِحْسَانُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ وَقْتُ أُشْرِي فِيهِ بِالْحَبِيبِ لِيَخْلَعَ عَلَيْهِ يَخْلَعُ الْقُرْبَ وَالْفَضْلَ الْعَمِيمَ، فَطَمَعُ الْكَلِيمِ لَعَلَّ أَنْ يُلْحَقَ لِأُمْتِهِ نَصِيباً».

وبوجه آخر وهو البشارة للنبي ﷺ وإدخال السرور عليه يشهد لذلك بكاؤه حين ولَّى النبي ﷺ وقيل أن يبعد عنه لكي يسمعه، لأنه لو كان البكاء خاصاً بموسى لم يكن ليبكي حتى يبعد عنه النبي ﷺ فلا يسمعه لأن البكاء والنبي ﷺ يسمع، فيه شيء من التهوين عليه. فلما أن كان المراد بذلك ما يصدر عن البشارة له ﷺ بسبب البكاء بكى والنبي ﷺ يسمعه، والبشارة التي يَتَضَمَّنُهَا البكاء هي قول موسى عليه الصلاة والسلام لِلَّذِي هُوَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ اتِّبَاعاً: «إِنَّ الَّذِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ أَكْثَرُ مَنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي».

«وَقَدْ وَقَعَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْعَنَايَةِ بِهِذِهِ الْأُمَّةِ فِي أَمْرِ الصَّلَاةِ مَا لَمْ يَقَعْ لغيره ووقعت الإشارة لذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، موفوعاً: «كَانَ مُوسَى أَشَدَّهُمْ عَلَيَّ حِينَ مَرَرْتُ بِهِ وَخَيَّرْتُهُمْ حِينَ رَجَعْتُ إِلَيْهِ». وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ: فَأَقْبَلْتُ رَاجِعاً فَعَمَزْتُ بِمُوسَى وَنَعَمَ الصَّاحِبُ كَانَ لَكُمْ».

التنبيه الرابع والأربعون: قول موسى عليه الصلاة والسلام: «لَأَنْ غَلَاماً..» ليس على سبيل التَّقْصُّصِ بَلْ عَلَى سَبِيلِ التَّنْوِيهِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظِيمِ كَرَمِهِ، إِذْ أُعْطِيَ نَبِيْنَا ﷺ فِي ذَلِكَ السَّنِّ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا قَبْلَهُ مِمَّنْ هُوَ أَشَرُّ مِنْهُ.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْعَرَبُ تَسْمِي الرِّجْلَ الْمُسْتَجْمِعِ السَّنَّ: غُلَاماً مَا دَامَتْ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِنَ الْقُوَّةِ [فِي الْكَهُولَةِ] وَقَالَ ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ: الْعَرَبُ إِنَّمَا يُطْلَقُونَ عَلَى الْمَرْءِ غُلَاماً إِذَا كَانَ سَيِّدًا فِيهِمْ. فَلَأَجَلَ مَا فِي هَذَا اللَّفْظِ مِنَ الْاِخْتِصَاصِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَلْفَاظِ الْأَفْضَلِيَّةِ ذَكَرَهُ مُوسَى دُونَ غَيْرِهِ تَعْظِيماً لِلنَّبِيِّ ﷺ. قَالَ الْحَافِظُ: وَيُظْهَرُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَشَارَ إِلَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

به على نبينا عليه السلام من استمرار القوة في الكهولة إلى أن دخل في سن الشيخوخة ولم يدخل على بدنه هزم ولا عزا قوته نقص، حتى أن الناس لما رأوه مُزِدفاً أبا بكر عند قدمه المدينة أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبي بكر اسم الشيخ مع كونه عليه السلام في العمر أشد من أبي بكر.

التبیه الخامس والأربعون: قول موسى: «رب لم أظن أن تزفع عليّ أحداً - بفتح المثلثة الفوقية و«أحداً» بالنصب، ورواته في الصحيح بضم المثلثة التحتية و«أحداً» بالرفع. قال ابن بطال: «فهم موسى عليه الصلاة والسلام من اختصاصه بكلام الله تعالى في الدنيا دون غيره من البشر لقوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أن المراد بالناس هنا البشر كلهم، وأنه استحق بذلك ألا يُزفع عليه أحد، فلما فضل الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام من المقام المحمود وغيره ارتفع على موسى وغيره بذلك.

التبیه السادس والأربعون: قال ابن أبي جمر: الظاهر أن القائل لموسى: «ما أبكاك؟» هو البارقي تبارك وتعالى، يدل على ذلك قوله في الجواب: «رَبِّ [هذا غلام بعثته من بعدي، يَدْخُل من أمته الجنة أكثر مما يَدْخُل من أمتي]».

التبیه السابع والأربعون: أكثر الروايات على أن موسى عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة بتفضيل الله تعالى، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي﴾ وهذا يدل على أن شريكاً ضبط كَوْن موسى في السابعة، وحديث أبي ذر يوافقه فإن فيه [فيما رواه ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك قال: «فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم] ولم يثبت منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة. فإن قلنا بالتعدد فلا إشكال ومع عدمه فقد يُجمع بأن موسى كان حالة العروج في السماء السادسة وإبراهيم في السماء السابعة على ظاهر حديث مالك بن صغصعة وعند الهبوط كان موسى في السابعة، لأنه لم يُذكر في القصة أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كَلَّمه في شيء مما يتعلق بما فُرِض على أمته من الصلاة كما كَلَّمه موسى عليه السلام والسماء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة الهبوط، فناسب أن يكون موسى بها لأنه هو الذي خاطبه في ذلك كما ثبت في جميع الروايات ويُحتمل أن يكون لقي موسى في السادسة فأُعيد معه إلى السماء السابعة بتفضيل له على غيره من أجل كلام الله تعالى وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع نبينا فيما يتعلق بأمر أمته في الصلاة.

التبیه الثامن والأربعون: وقع في رواية شريك عن أنس رضي الله عنه أن كل سماء فيها أنبياء قد سَمَّاهم «فَوَعِيَتْ منهم إدريس في السماء الثانية وهارون في السماء الرابعة وآخر

في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة». وفي رواية أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما قال: «فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم»، ولم يثبت منازلهم، غير أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة». انتهى. وهذا موافق لرواية شريك في إبراهيم، وهما مخالفان لرواية قتادة عن أنس عن مالك بن صغصة، والأكثر وافقه، وسياقه يدل على رجحان روايته، فإنه ضبط اسم كل نبي والسماء التي هو فيها، ووافقه ثابت البناني عن أنس، كما هو عند مسلم فقال في روايته: «ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية وفيها فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة»، وذكر في الثالثة يوسف وفي الرابعة إدريس وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم، وفي سياق الزهري في روايته أن أنس عن أبي ذر أنه لم يثبت أسماءهم، وسياق شريك فيه أنه لم يضبط منازلهم.

ولا شك أن رواية من ضبط أولى، ولا سيما مع اتفاق قتادة وثابت وقد وافقهما يزيد بن أبي مالك عن أنس إلا أنه خالف في إدريس وهارون، فقال: هارون في الرابعة وإدريس في الخامسة، ووافقهم أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، في رواية إلا أنه قال: «رأى يوسف في الثانية وعيسى ويحيى في الثالثة». قلت: والأول أثبت، وأما إبراهيم فالأرجح من الروايات أنه في السماء السادسة لقوله فيها: إنه رآه مُشْنِداً ظَهَرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وهو في السابعة بلا خلاف.

وأما «ما جاء عن علي رضي الله عنه أن البيت المعمور في السماء السادسة عند شجرة طوبى فإن ثبت تحمّل على البيت الذي في السادسة بجانب شجرة طوبى لأنه جاء عنه أن في كل سماء بيتاً يُخَازِي الكعبة وكل منها معمور بالملائكة، وكذا القول فيما جاء عن الربيع بن أنس وغيره أن البيت المعمور في السماء.

التنبيه التاسع والأربعون: اختلفت طرق المتكلمين على حديث الإسراء في ذكر من ذكر من الأنبياء وترتيبهم في السموات، فمن العلماء من لم يَرَ الكلام على سرّ ذلك أصلاً، ومنهم من تكلم فيه، ثم اختلف هؤلاء، فمنهم من قال: اختص من ذكر من الأنبياء ببقاء رسول الله ﷺ على غُرف الناس إذا تَلَقَّوا الغائب مُبْتَدِرِينَ للقاءه، فلا بُدَّ غالباً أن يسبق بعضهم بعضاً، ويصادف بعضهم اللقاء ولا يصادفه بعضهم وإلى هذا جَنَحَ ابن بطال وهذا زَيْفُهُ السهيلي فأصاب. وذهب غير ابن بطال إلى أن ذلك تنبيه على الحالات الخاصة بهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وتمثيل لما سيقع للنبي ﷺ مما اتفق لهم مما قَصَّه الله تعالى عنهم في كتابه. والنبي ﷺ كان يحب الفأل الحسن ويستدل على محسن

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

العاقبة وبالضدّ من ذلك. والفأل في اليقظة نظير الرؤيا في المنام. وأهل التعبير يقولون من رأى نبياً من الأنبياء بعينه في المنام فإن رؤياه تؤذّن بما يشبه من حال ذلك النبي من شدّة أو رخاء أو غير ذلك من الأمور التي أخبر بها عن الأنبياء في القرآن والحديث.

قال ابن أبي جحمة: «الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء وأول الآباء فهو أصل فكان الأول في الأولى، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة» وقال السهيلي رحمه الله: «فآدم وقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض بما سيقع للنبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة وكراهة فراق ما لقيه في الوطن، ثم كان لكل منهما أن يرجع إلى وطنه الذي خرج منه».

وقال ابن دحية: «إن في ذلك تنبيهاً على أنه يقوم مقامه في مبدأ الهجرة لأن مقام آدم التهيئة والنشأة وعمارة الدنيا بأولاده، وكذا كان مقام المصطفى أول سنة من الهجرة مقام نشأة الإسلام وتربية أهله واتخاذ الأنصار لعمارة الأرض كلها بهذا الدين الذي أظهره الله على الدين كله، وزوى الأرض لنبيه حتى أراه مشارقها ومغاربها، فقال ﷺ: «وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُ أُمِّي مَا رُؤِيَ لِي مِنْهَا». واتفق ذلك في زمن هشام بن عبد الملك حتى جيء إليه خراج الأرض شرقاً وغرباً، وكان إذا نشأت سحابة يقول: «أمطري حيث شئت فسيصل إليّ خراجك».

ثم رأى في السماء الثانية عيسى ويحيى وهما الممّتحنان باليهود. أما عيسى فكذبته اليهود وأذّته وهُمّوا بقتله فرفعه الله تعالى، وأما يحيى فقتلوه، ورسول الله ﷺ بعد انتقاله إلى المدينة صار إلى حالة ثانية من الامتحان. وكانت ميخنته فيها باليهود [آذوه] وظاهروا عليه وهُمّوا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه فنّجاه الله تعالى كما نجى عيسى منهم ثم سَمّوه في الشاة، فلم تزل تلك الأكلة تُعّاده حتى قطعت أنبهره [كما قال عند الموت].

وقال ابن أبي جحمة: لأنهما أقرب الأنبياء عهداً بسيدنا رسول الله ﷺ.

وقال ابن دحية: كانت حالة عيسى ومقامه معالجة بني إسرائيل والصبر على معاناة اليهود وحيلهم ومكرهم، وطلب عيسى الانتصار عليهم بقوله: «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ» أي مع الله؟ «قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ» [يوسف: ٩٢] فهذه كانت حالة نبينا ﷺ في السنة الثانية من الهجرة، ففيها طلب الأنصار للخروج إلى بدر العظمى فأجابوا ونصروا، فلقاؤه لعيسى في السماء الثانية تنبيه على أنه سيلقى مثّل حاله ومقامه في السنة الثانية من الهجرة.

وأما لقائه ليوسف عليه السلام في السماء الثالثة فإنه يؤذّن بحالة ثالثة تشبه حال يوسف بما جرى له مع إخوته الذين أخرجوه من بين أظهرهم ثم ظفّر بهم فصنّح عنهم وقال: «لَا تَشْرِيبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [يوسف: ٩٢] وكذلك نبينا عليه

الصلاة والسلام أخرجه قومه ثم ظفر بهم في غزوة الفتح فعفا عنهم وقال: «أقول كما قال أخي يوسف: (لا تثريب عليكم)».

قال ابن أبي جمرة: لأن أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة على صورته، زاد ابن أقرص وإشارة إلى جعله على خزائن الأرض. وقال ابن دحية: مناسبة لقائه ليوسف في السماء الثالثة أن السنة الثالثة من سني الهجرة اتفقت فيها غزوة أحد وكانت على المسلمين لم يُصابوا بنزلة قبلها ولا بعدها مثلاً، فإنها كانت وقعة أسف وحزن.

وأهل التعبير يقولون: مَنْ رَأَى أَحَدًا اسْمَهُ يَوْسُفَ آذَنَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ الْاِشْتِقَاقُ وَمِنْ حَيْثُ قِصَّةُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَسْفَ يَتَّأَلُهُ. قال ابن دحية: فإن كان يوسف النبي فالعاقبة حميدة والآخرة خير من الأولى.

ومما اتفق في غزوة أحد من المناسبة شيوع قتل المصطفى فناسب ما حصل للمسلمين من الأسف على فقد نبينهم ما حصل ليعقوب من الأسف على يوسف لاعتقاده أنه فُقد إلى أن وجد ربحه بعد تطاول الأمد. ومن المناسبة أيضاً بين القصتين أن يوسف كيد وألقي في غيابة الحب حتى أنقذه الله تعالى على يد من شاء. قال ابن إسحاق: وكُتبت الحجارة على جبهة رسول الله ﷺ من قريش حتى سقط لجنبه في حفرة كان أبو عامر الفاسق قد حفرها مكيدة للمسلمين، فأخذ عليّ كرم الله وجهه بيد رسول الله ﷺ واحتضنه طلحة حتى قام.

قال السهيلي: «ثم لقاؤه لإدريس عليه السلام في السماء الرابعة وهو المكان الذي سَمَّاهُ اللهُ ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مریم: ٥٧] وإدريس أول من آتاه الله الخط بالقلم فكان ذلك مؤذناً بحال رابعة وهي علو شأنه عليه السلام حتى خافه الملوك وكتب إليهم بدعهم إلى طاعته حتى قال أبو سفيان وهو عند ملك الروم حين جاءه كتاب النبي ﷺ ورأى ما رأى من خوف هرقل: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة حتى أصبح يخافه ملك بني الأصفر، [وكتب عنه بالقلم إلى جميع ملوك الأرض فمنهم من اتبعه على دينه كالنجاشي وملك عمان، ومنهم من هادنه وأهدى إليه وأتحفه كهرقل والمقوقس، ومنهم من تعصى عليه فأظهره الله عليه، فهذا مقام عليّ وخط بالقلم كنحو ما أوتى إدريس عليه السلام].

«ولقاؤه في السماء الخامسة لهارون المُحِبِّب في قومه يؤذن بحب قريش وجميع العرب له بعد بُغْضِهِمْ فيه». وقال ابن أبي جمرة: إنما كان هارون في الخامسة لقربه من أخيه موسى، وكان موسى أرفع منه بفضل كلام الله تعالى. وقال ابن دحية ما نال هارون من بني إسرائيل من الأذى ثم الانتصار عليهم والإيقاع بهم وقصر التوبة فيهم على القتل دون غيره من العقوبات المُنْخَطَّة عنه، وذلك أن هارون عندما تركه موسى في بني إسرائيل وذهب لموعد

المناجاة تَفَرَّقُوا عَلَى هَارُونَ وَتَحَزَّبُوا عَلَيْهِ وَدَارُوا حَوْلَ قَتْلِهِ وَنَقَضُوا الْعَهْدَ وَأَخْلَفُوا الْمَوْعِدَ وَاسْتَضَعَفُوا جَانِبَهُ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ عَنْهُمْ وَكَانَتِ الْجَنَائِدُ الْعِظْمَى الَّتِي صَدَرَتْ مِنْهُمْ عِبَادَةُ الْعِجَلِ فَلَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ التَّوْبَةَ إِلَّا بِالْقَتْلِ فَقُتِلَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ أَلْفًا كَانَ نُظِيرَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ ﷺ مَا لَقِيَهُ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ مِنْ يَهُودٍ قُرَيْظَةَ وَالنُّضَيْرِ وَقَيْنَقَاعَ، فَإِنَّهُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ وَحَزَّبُوا الْأَحْزَابَ وَجَمَعُوا وَحَشَدُوا وَحَشَرُوا وَأَظْهَرُوا عِدَاوَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَرَادُوا قَتْلَهُ. وَذَهَبَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ الْوَقْعَةِ بَزْمَنٍ يَسِيرٍ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ قَتْلَيْنِ فَأَظْهَرُوا إِكْرَامَهُ وَأَجْلَسُوهُ تَحْتَ جِدَارٍ ثُمَّ تَوَاعَدُوا أَنْ يُلْقُوا عَلَيْهِ رَحَى، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ فَأَخْبَرَهُ بِمَكْرِهِمُ الَّذِي هَمُّوا بِهِ. فَمَنْ حِينَئِذٍ عَزَمَ عَلَى حَرْبِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، وَفَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ، وَقَتْلَ قُرَيْظَةَ بِتَحْكِيمِهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَتَلُوا شَرَّ قِتْلَةٍ وَحَاقَ الْمَكْرُ الشَّيْءُ بِأَهْلِهِ. وَنُظِيرَ اسْتِضْعَافِ الْيَهُودِ لِهَارُونَ اسْتِضْعَافُهُمُ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ كَمَا سَيَأْتِي بِتَشْطُّ ذَلِكَ.

ولقاؤه في السماء السادسة لموسى يُؤْذَنُ بِحَالَةٍ تَشْبِهُ حَالَةَ مُوسَى حِينَ أَمَرَ بِغَزْوِ الشَّامِ، فَظَهَرَ عَلَى الْجَبَابِرَةِ الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا وَأَدْخَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبِلَدَ الَّذِي خَرَجُوا مِنْهُ بَعْدَ إِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ، وَكَذَلِكَ غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَبُوكَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَظَهَرَ عَلَى صَاحِبِ دُومَةِ حَتَّى صَالَحَهُ عَلَى الْجِزْيَةِ بَعْدَ أَنْ أُتِيَ بِهِ أَسِيرًا، وَافْتَتَحَ مَكَّةَ وَدَخَلَ أَصْحَابَهُ الْبِلَدَ الَّذِي خَرَجُوا مِنْهُ.

وقال ابن دُخْيَةَ: «يُؤْذَنُ لِقَاؤُهُ فِي السَّادَةِ بِمَعَالِجَةِ قَوْمِهِ فَإِنَّ مُوسَى ابْتَلِيَ بِمَعَالِجَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ، وَمَا عَالَجَهُ الْمُصْطَفَى فِي السَّنَةِ السَّادَةِ لَمْ يُعَالِجْ قَبْلَهُ وَلَا وَبَعْدَهُ مِثْلَهُ، فَفِي هَذِهِ السَّنَةِ افْتَتَحَ خَيْبَرَ وَقَذَكَ وَجَمِيعَ حَصُونِ الْيَهُودِ وَكَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ وَضَرَبَهُمْ بِسُوطِ الْبَلَاءِ وَعَالَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ السَّنَةِ كَمَا عَالَجَ مُوسَى مِنْ قَوْمِهِ، أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ الشَّرِيعَةَ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَحَمَلَ قَوْمَهُ عَلَى ذَلِكَ فَتَقَاعَدُوا عَنْهُ وَقَالُوا: إِنْ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا. وَفِي الْآخِرِ سَجَلُوا بِالْقَنُوطِ فَقَالُوا: إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَخَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا، وَأَوْقَعَهُمْ فِي التَّيْهِ. وَكَذَلِكَ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السَّنَةِ السَّادَةِ أَنْ يَدْخُلَ بِمَنْ مَعَهُ مَكَّةَ يُقِيمُ بِهَا شَرِيعَةَ اللَّهِ وَشُئَةَ إِبْرَاهِيمَ، فَصَدَّوهُ فَلَمْ يَدْخُلَهَا فِي هَذَا الْعَامِ، فَكَانَ لِقَاؤُهُ لِمُوسَى تَنْبِيْهًا عَلَى التَّأْسِي بِهِ وَجَمِيلَ الْأَثَرِ فِي السَّنَةِ الْقَابِلَةِ.

ثم لقاؤه في السماء السابعة لإبراهيم عليه السلام لحكمتين: إحداهما أنه رآه عند البيت المعمور مُشْنِدًا ظَهَرَهُ إِلَيْهِ. والبيت المعمور حيال الكعبة وإليه تُجْعَلُ الْمَلَائِكَةُ، كَمَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ هُوَ الَّذِي بَنَى الْعُكْبَةَ وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ إِلَيْهَا وَالْحِكْمَةَ الثَّانِيَةَ أَنَّ آخِرَ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ حَجُّهُ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَحُجَّ مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ نَحْوُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفًا [مِنَ الْمُسْلِمِينَ]. وَرُؤْيَا إِبْرَاهِيمَ عِنْدَ أَهْلِ التَّوَائِلِ يُؤْذَنُ بِالْحَجِّ لِأَنَّهُ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَالرَّافِعُ لِقَوَاعِدِ [الْكُعْبَةِ الْمُحْجُوجَةِ].

قال ابن أبي جمرة: «ولما كان إبراهيم في السماء السابعة لأنه الأب الأخير، فناسب أن يتجدد للنبي ﷺ بقاءه أنس لتوجهه بعده إلى عالم آخر، وأيضاً فمنزلة الخليل تقتضي أرفع المنازل، ومنزلة الحبيب أرفع من منزلته فلذلك ارتفع النبي ﷺ عن منزلة إبراهيم إلى قاب قوسين أو أدنى» (١).

وقال ابن دحية: «مناسبة لقائه إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة أن النبي ﷺ اعتمر غمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة، ودخل مكة وأصحابه مُلَبَّين مُقْتَمِرِينَ مُخْبِيّاً لَشَيْئَةِ إبراهيم ومُقيماً لرسمه الذي كانت الجاهلية أماتت ذكره وبَدَلَتْ أَمْرَهُ. وفي بعض الطرق أنه رأى إبراهيم مُسْتَنْداً ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة، وذلك - والله أعلم - إشارة إلى أنه يطوف بالكعبة في السنة السابعة وهي أول دخلة دخل فيها مكة بعد الهجرة. والكعبة في الأرض قبالة البيت المعمور. وفي قوله ﷺ في وصف البيت المعمور: «إذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يرجعون إليه إلى آخر الدهر» إشارة إلى أنه إذا دخل البيت الحرام لا يرجع إليه لأنه لم يدخله بعد الهجرة إلا عام الفتح ولم يعاوده في حجة الوداع.

التبئية الخمسون: فإن قيل كيف أُمُّ الأنبياء في بيت المقدس وسَلَّمَ عليهم وعرفهم ثم سأل عنهم ثم يراهم تلك الليلة في السموات ويسأل عنهم جبريل؟ فإنه لو رآهم وعرفهم لما احتاج إلى سؤال جبريل عنهم. والجواب أنه لما اجتمع بهم بيت المقدس وأُمُّهم على الهيئة البشرية تحقق وجودهم في الأرض، ثم لما وصل إلى الملكوت العلوي لم يجدهم على تلك الحالة التي شاهدتهم عليها، وإنما هم على صفات روحانية يُشَكِّلُ الله تعالى لهم أشكالاً لا تُفْقِدُ بالملكوت العلوي تأنيساً لهم بأصلهم البشري وتكريماً لهم وتعظيماً للقدرة الإلهية حيث شاهدتهم تلك الساعة في الأرض ثم رآهم في منازلهم في السماء، فلذلك سأل عنهم استنباطاً لا تعجباً، فإنه عالم أن الله تعالى الذي أصعده إلى هذا المكان في لحظة قادر على نقلهم إلى السموات في أسرع من طرفة عين سبحانه وتعالى.

التبئية الحادي والخمسون: استشكيل رؤية الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في السموات مع أن أجسادهم مستقرة في قبورهم في الأرض. وأجيب بأن أرواحهم تشكلت بصور أجسادهم، أو أُخْضِرَتْ أجسادهم لملاقاة النبي ﷺ تلك الليلة تشريفاً وتكريماً ويؤيده حديث عبد الرحمن بن هاشم عند البيهقي وغيره: «وَبُعِثَ لَهُ آدَمُ فَمَنْ دَوَّهَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ».

وقال ابن أبي جمرة: «رؤيته لهؤلاء الأنبياء تَحْتَمِلُ وجوهاً: الأول: أن يكون عليه السلام عاين كل واحد منهم في قبره في الأرض على الصورة التي أخبر بها عن الموضع الذي عاينه فيه فيكون الله عز وجل قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أدرك به ذلك. وبشاهد لهذا الوجه قوله ﷺ: «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فِي غُرُضِ الْحَائِطِ». وهو مُحْتَمَلٌ لوجهين أحدهما: أن

يكون ﷺ رأهما من ذلك الموضع كما يقال رأيت الهلال من منزلي من الطاق والمراد من موضع الطاق، الوجه الثاني: أن يكون مثل له صورتها في غرض الحائط، والقدرة صالحة لكليهما. الثاني: أن يكون ﷺ عاين أرواحهم هناك في صورهم. الثالث: أن يكون الله عز وجل لما أراد الإسراء بنبينا رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكراماً لنبيه عليه السلام وتعظيماً له حتى يحصل له من قبلهم ما أشرونا إليه من الأنس والبشارة وغير ذلك مما لم نُشير إليه ولا تعلمه نحن، وإظهاراً له عليه الصلاة والسلام القدرة التي لا يغلبها شيء ولا تعجز عن شيء وكل هذه الأوجه مُحتملة ولا ترجيح لأحدها على الآخر لأن القدرة صالحة لكلها.

وقال ابن القيم في كتاب الروح «الأرواح قسمان: أرواح مُعَذِّبَة وأرواح مُنْعَمَة، فالمُعَذِّبَة في شغل بما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي. والأرواح المُنْعَمَة المرسلَة غير المحبوسة تتلاقى وتزاور وتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا، فتكون كل روح معها رفيقها الذي هو على مثل عملها. وروح نبينا ﷺ في الرفيق الأعلى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وهذه المقعة ثابتة في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء والمرء مع من أحب.

ثم ذكر حديث أبي هريرة: «لما أُنْزِلَ برسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة». الحديث. قال: فهذا نص في تذاكر الأرواح العلم، وقد أخبر الله تعالى عن الشهداء أنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل هذا يدل على تلاقهم من ثلاثة أوجه: أحدها أنهم أحياء عند الله وإذا كانوا أحياء عند الله فهم يتلاقون. الثاني: أنهم إنما يستبشرون بإخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم. الثالث: أن لفظ يستبشرون يُفيد في اللغة أنهم يُبَشِّر بعضهم بعضاً مثل يتباشرون وقد تواترت المراتي بذلك فذكر عدة منامات. ثم قال: وقد جاءت سنة صريحة بتلاقي الأرواح وتعارفها. قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع أنبأنا الفضيل بن سليمان التميمي حدثنا يحيى بن عبد الرحمن بن أبي أنيسة عن جده قال: لما مات بشر بن البراء بن معرور - بمهمات - وجدت أم بشر عليه جداً شديداً، فقالت: يا رسول الله إنه لا يزال الهالك يهلك من بني سلَمة، فهل يتعارف الموتى فأُرْسِل إلى بشر بالسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم والذي نفسي بيده يا أم بشر، إنهم ليتعارفون كما يتعارف الطير في رؤوس الشجر».

وذكر الحديث وأثاراً تؤيد ذلك، ثم قال: «والروح ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء، وتتحرك وتسكن، وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا: معرفة الروح والنفس، وبيئاً بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة، وأن من قال

غَيَّرَهُ لم يعرف نفسه وقد وصفها الله تعالى بالدخول والخروج، والقَبْضُ والتَّوْفِي، والرجوع، وصعودها السماء وفتح أبوابها وغلَقها عنها، وقد ذُكِرَت آيات وأحاديث كثيرة تشهد بما قاله.

ثم قال: «وأما إخباره ﷺ عن رؤية الأنبياء ليلة الإسراء به، فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذي رآه أشباحهم وأرواحهم. قال: فإنهم أحياء عند ربهم يُرزَقون. وقد رأى المصطفى إبراهيم مُشِيناً ظَهَرَهُ إلى البيت المعمور ورأى موسى قائماً في قبره يصلي، وقد نعت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لما رآهم بنعت الأشباح».

ونازعهم آخرون وقالوا: هذه الرواية إنما هي لأرواحهم دون أجسادهم، والأجساد في الأرض قطعاً وإنما تُبْعَث يوم تبعث الأجساد، ولا تُبْعَث قبل ذلك، إذ لو بُعِثت قبل ذلك لكانت قد انشَقَّت عنهم الأرض قبل يوم القيامة، وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور، وهذه مorte ثالثة وهذا باطل قطعاً، ولو كانت قد بُعِثت الأجساد من القبور لم يُعَذِّبهم الله تعالى إليها، بل كانت في الجنة وقد صَحَّ عن النبي ﷺ قوله إن الله تعالى حَرَّمَ الجنة على الأنبياء حتى يدخلوها، فهو أول من يَشْتَفِيح باب الجنة، وأول من تَنْشَقُّ عنه الأرض على الإطلاق، ولم تنشق عن أحد قبله، ومعلوم بالضرورة أن جسده ﷺ في الأرض طري.

وقد سأله أصحابه: كيف تُغْرَض عليك صلاتنا وقد بَلَيْت؟ فقال: «إن الله حَرَّمَ على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١) ولو لم يكن جسده في ضريحه طرياً لما أجاب بهذا الجواب. وقد صَحَّ عنه ﷺ أن الله تعالى وَكَّل بقبره ملائكة يُبَلِّغونه عن أمته السلام، وصَحَّ عنه ﷺ لما خرج بين أبي بكر وعمر قال: «هكذا بُعِث».

هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عِلِّيِّين مع أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. وقد صَحَّ أنه رأى موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره ليلة الإسراء ورآه في السماء السادسة أو السابعة، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر وإشراق عليه وتعلُّق به بحيث تصلي في قبره وتزُد سلام من سلَّم عليه وهو في الرفيق الأعلى.

ولا تنافي بين الأمرين فإن شأن الأرواح غَيْرُ شأن الأبدان، فأنت تجد الروحين المتلائمتين المتناسبتين في غاية التجاور والقُرب وإن كان بين بدَنَيْهِما غاية البُعد، وتجد الروحين المُتَنَافِرَتَيْنِ المتباغضتين في غاية البُعد وإن كان جسداهما متجاوِزَيْنِ متلاصِقَيْنِ، وليس نزول الروح وصعودها، وقُربُها وبُعدُها من جنس ما للبدن فهي تصعد إلى فوق سبع سموات ثم تهبط إلى الأرض ما بين قَبْضِها ووضع الميت في قبره، وهو زَمَنٌ يسير لا يصعد

(١) أخرجه أبو دارد في كتاب الجمعة باب (١) وابن ماجه (١٠٨٥) وأحمد في المسند ٨/٤ والبيهقي في السنن ٢٤٩/٣ والحاكم في المستدرک ٥٦٠/٤ والطبراني في الكبير وابن حبان (٥٥).

البدن وينزل في مثله، وكذلك صعودها وعودها إلى البدن في النوم واليقظة. وقد مثلها بعضهم بالشمس في السماء وشعاعها في الأرض.

قال شيخنا - يعني أبا العباس الخرائي: وليس هذا مثلاً مطابقاً فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء والشعاع الذي على الأرض لا هو الشمس ولا صفتها بل عرض حصل بسبب الشمس والجزم المقابل لها، والروح نفسها تصعد وتنزل وتسط الكلام على ذلك ولهذا مزيد بيان في باب حياة النبي ﷺ في قبره.

التبسيه الثاني والخمسون: في الكلام على البيت المعمور: قال أبو عبيدة: معنى المعمور الكثير الغاشية ويسمى الضراح^(١) - بضم الضاد المعجمة - ويقال المهملة. قال الزمخشري في ربيع الأبرار وهو غلط ضراح، وبالضراح تُسمّى الملائكة، وسمي به لأنه صرح عن الأرض أي بُدّ قال مجاهد: «البيت المعمور وهو الضريح» يعني بالمعجمة وهو في اللغة: البعيد، وأكثر الروايات على أنه في السماء السابعة.

وروى ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»^(٢). ورواه الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً أيضاً. وروى إسحاق بن راهويه عن علي رضي الله عنه أنه سئل عن البيت المعمور، قال: «بيت الله في السماء السابعة بحيال البيت، وحزمته كحرمة هذا في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه».

وفي حديث أبي هريرة عند ابن مَرْدَوِيَه والْقَيْلِي وابن أبي حاتم عن النبي ﷺ أنه قال: «في السماء السابعة بيت يقال له البيت المعمور وفي السماء الرابعة نهر يقال له الحيوان، يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه انغماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة فيخرج عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً يُؤْمَرُونَ أَنْ يَأْتُوا الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ فَيُصَلُّونَ فِيهِ فَيَفْعَلُونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ فَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَبَدًا، وَيُؤَلَّى عَلَيْهِ أَحَدُهُمْ ثُمَّ يُؤْمَرُ أَنْ يَقِفَ بِهِمْ فِي السَّمَاءِ مَوْقِفًا يُسَبِّحُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ»^(٣). وإسناده ضعيف. والصحيح أنه ليس بموضوع كما

(١) الضراح بيت في السماء حبال الكعبة ويرى: الضريح وهو البيت المعمور، من المُضَارَحَةِ، وهي المقابلة والمُضَارَعَةُ. النظر النهاية لابن الأثير ٨١/٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٤١٧/١١ وأحمد في المسند ١٥٣/٣ والحاكم في المستدرک ٤٦٨/٢ وذكره السيوطي في الدر ١١٧/٦ والمتقي الهندي في الكنز (٣٤٧٩٤).

(٣) أخرجه ابن كثير في التفسير ٤٠٤/٧ وقال: هذا حديث غريب جداً، تفرد به روح بن جراح هذا، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم: الجوزجاني والعقيلي، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري وغيرهم: وقال الحاكم: لا أصل له من حديث أبي هريرة ولا سعيد ولا الزهري.

بَيَّنْهُ فِي: «الفوائد المجموعة في بيان الأحاديث الموضوعة».

وروى أبو الشيخ من طريق الليث قال: حدثني خالد بن سعيد قال: «بلغني أن إسرائييل مؤذّن أهل السماء بشمعه تأذنيه من في السموات السبع ومن في الأرض، إلا الجِنّ والإنس، ثم يتقدم عظيم الملائكة فيصلي بهم»، قال: «وبلغنا أن ميكائيل يؤم الملائكة بالبيت المعمور» واشتدّل بهذه الأحاديث على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه لا يعرف من جميع العوالم من يتجدّد من جنسه في كل يوم سبعون ألفاً غير ما ثبت في هذه الأحاديث.

التنبيه الثالث والخمسون: قوله: «فُزِعَ إلى البيت المعمور»، معناه أنه أُرِيَ له. وقد يحتمل أن يكون المراد الرفع والرؤية معاً، لأنه قد يكون بينه وبين البيت عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فُزِعَ إليه وأُمِدَّ في بَصَرِهِ وبصيرته حتى رآه، ويحتمل أن تكون تلك العوالم التي كانت بينه وبين البيت المعمور أزيلت حتى أدركه بَصَرُهُ. وقد يحتمل أن يكون العالم بقي على حاله والبيت على حاله، وأُمِدَّ في بصره وبصيرته حتى أدركه وعانيه، والقدرة صالحة للكُلِّ، يشهد لذلك قوله ﷺ: «رُفِعَ إِلَيَّ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عَلَى مَا سَيَأْتِي فِيهِ»، والتأويل فيه كالتأويل في البيت المعمور.

وأكثر الروايات: «رُفِعَتْ إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى»، بضم الراء وسكون العين وضم التاء من «رفعت»، وتبغده حروف الجرّ. ول بعضهم «وَرُفِعَتْ» بفتح العين وسكون التاء، أي «السدرة لي» باللام أي من أجلي، ويُجَمَّع بين الروايتين بأن المراد أنه رُفِعَ إليها أي أُرْتُفِعَ بها فظهرت له والرفْعُ إلى الشيء يُطْلَقُ على التقريب منه.

التنبيه الرابع والخمسون: وَجْه مُنَاسَبَةٌ المعراج الثامن إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى لما اشتملت عليه السنة الثامنة من الهجرة. إن السنة الثامنة اشتملت على فتح مكة، ومكة أم الْقَرْىَ وإليها المنتهى ومنها المبتدأ، على ما ورد أن الأرض كلها دُجِيت^(١) من مكة، فلذلك سُمِّيت أم الْقَرْىَ، أو هي أم الْقَرْىَ لأن أهل الْقَرْىَ يرجعون إليها في الدين والدنيا حُجَّاً واعتماراً وجوّاراً وكُشْباً واتجاراً قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] أي تقوم بأبدانهم وأديانهم. وقال تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] قيل هي الأجر والتجارات في الموسم. فبين سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وأم الْقَرْىَ من المناسبة ما لا يَخْفَى، إذ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى ينتهي إليها علَمُ الْخَلَائِقِ، ومكة ينتهي إليها أهلُ الْآفَاقِ شرقاً وغرباً وفيها يكون الاجتماع. فكان بلوغه إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى تنبيهاً على بلوغه إلى فتح مكة أم الْقَرْىَ في العام

(١) الدُّحْرُ: السَّطْحُ، وَالْخُدُحَاتُ: الْأَرْضُونَ. يقال: دَحَا يَدْحُو وَيَدْحِي: أَي تَسَطَّحَ وَوَسَّعَ. الْفَتْحُ الْخَتَامَةُ لِابْنِ الْأَثِيرِ ١٠٦/٢.

الثامن، وقد غشى السدرة الجراد والفراش والغربان الذي هو جُند من جُند الله كما غشى مكة في الفتح جندُ الله وجزئُه وغشيها أيضاً أجناس من الخلق واللوان من الأسود والأحمر. وجاء اللفظان معاً في الحديث، كما غشى سدرة المنتهى ألوان لا يعلمها إلا الله تعالى: فلما غشيت الألوان السدرة حشنت إلى أن لا يُحسن أحد أن ينعته لقرط الحشن. كما أن ألوان الخلق لما غشيت مكة يوم الفتح حشنت حينئذ بالإيمان وبأهل القرآن حتى لا يُحسن أحد أن يصف حالها حينئذ من عظم الشأن.

ثم كان ظهور الأنهار الأربعة حينئذ دليلاً على أن تلك الأمة ستبلغها ويُحقِّقه أيضاً قوله ﷺ: «زُوِيَتْ لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ مُلك أمتي ما زُوِيَ لي منها»^(١).

التنبيه الخامس والخمسون: وقع في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم أن السدرة في السماء السادسة وظاهر حديث أنس رضي الله عنه أنها في السابعة، قال القرطبي: «وهذا تعارض لا شك فيه». وحديث أنس قول الأكثرين وهو الذي يقتضيه وصفها بكونها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل وكل ملك مقرب، «ويترجح حديث أنس بأنه مرفوع وحديث ابن مسعود بأنه موقوف». قال الحافظ: «كذا قال ولم يُعْرَج على الجمع بل جزم بالتعارض ولا يعارض قوله إنها في السادسة ما دلَّت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل في السماء السابعة لأنه يُحتمل على أن أصلها في السماء السادسة وأغصانها وفروعها في السابعة وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها، والله أعلم.

التنبيه السادس والخمسون: قال ابن أبي جهمرة: «والأظهر أن شجرة المنتهى مفروشة بأرض بدليل قوله: «ونهران باطنان» ولا يُطْلَق هذا اللفظ وما أشبهه إلا على ما يُفْهَم، والباطن لا بد أن يكون سريانه تحت شيء، وحينئذ يُطْلَق عليه اسم الباطن.

التنبيه السابع والخمسون: قال القاضي رحمه الله: دلَّ الحديث على أن أصل سدرة المنتهى في الأرض لكونه قال: «إن النيل والفرات يخرجان من أصلها»، وهما بالمشاهدة يخرجان من الأرض، فيلزم فيه أن يكون أصل السدرة في الأرض. وتعقُّبه النووي بأن المراد بكونهما يخرجان من أصلها غير خروجهما بالتَّبَع من الأرض، والحاصل أن أصلهما من الجنة وهما يخرجان أولاً من أصل السدرة إلى أن يستقرا في الأرض ثم ينبعان.

التنبيه الثامن والخمسون: قال ابن أبي جهمرة رحمه الله: قوله ﷺ: «في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران»، هذا اللفظ يُحتمل أن يكون على الحقيقة، ويُحتمل أن

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٢) وذكره العراقي في تخريجه على الإحياء ٣٨٧/٢.

يكون من باب تسمية الشيء بما قاربه، فإن كان على الحقيقة فتكون هذه الأنهار تنبع من أصل الشجرة نفسها فتكون الشجرة طعمها نبق وأصلها ينبع منه الماء، والقدرة لا تعجز عن هذا. وإن كان من باب تسمية الشيء بما قاربه فتكون الأنهار تنبع قريباً من أصل الشجرة.

التنبيه التاسع والخمسون: في قوله: «أما الباطنان فنهران في الجنة»، دليل على أن الباطن أجَل من الظاهر، لأنه لما كان الباطنان أصلاً جُعِلَا في دار البقاء، ولما كان الظاهران أَقْل أُخْرِجَا إلى دار الفناء، ومن ثَمَّ كان الاعتماد على ما في الباطن، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

التنبيه الستون: في حديث أبي سعيد: «إذا فيها - أي السماء السابعة - عَيْنٌ تجري يقال لها السلسبيل فينشق منها نهران أحدهما نهر الكوثر والآخر يقال له نهر الرحمة. ويمكن أن يُفسَّر بهما النهران الباطنان المذكوران في الحديث، وكذا زُوِيَ عن مقاتل، قال: «الباطنان السلسبيل والكوثر».

التنبيه الحادي والستون: قال النووي في هذا الحديث: إن أصل النيل والفُرات من الجنة وأنهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى ثم يسيران حيث شاء الله تعالى ثم ينزلان إلى الأرض ثم يسيران فيها ثم يخرجان منها. وهذا لا يمنع العقل وقد شهد به ظاهر الخبر فليُتَمَدَّ.

التنبيه الثاني والستون: استدل بهذا الحديث على فضيلة ماء النيل والفرات لِكُون منبعمها من الجنة. وروى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة»^(١). قال العلماء: والمراد به أن في الأرض أربعة أنهار أصلها من الجنة وحينئذ لم يثبت لسيحان وجيحان أنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى، فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك، وأما الباطنان المذكوران في الحديث فهما غير سيحان وجيحان. قال القرطبي: «لعل تذكُّرهما في حديث الإسراء لكونهما ليسا أصلاً برأسهما وإنما يحتمل أن يتفرعا من النيل والفرات».

التنبيه الثالث والستون: قيل: إنما أُطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيهاً لها بأنهار الجنة لما فيها من شدة العذوبة والحُسن والبركة. قال القرطبي: والأولى أنها من أنهار الجنة. وقال غيره: صورة انصبابها كأنصباب المطر متفرقاً ثم يجتمع في مواقعها في الأرض إلى أن ينساق كل منها إلى مستقره ومجراه. ويحتمل أن يكون انصبابها في نواحي الأرض

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة (٢٦) وأحمد في المسند ٢٨٩/٢ والبغوي في التفسير ١٧٧/٦.

النائية المتصلة بمبادئ هذه الأنهار فإنه لم يقف أحدٌ على مبادئها حتى الآن.

وروى أبو الشيخ في العظمة وأبو المخلص - بوزن اسم الفاعل - بسند من طريق أبي صالح عبد الله بن صالح قال: حدثني الليث بن سعد قال: بلغني أنه كان رجل من بني العيص يقال له حائد بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، خرج هارباً من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر، فأقام بها، فلما رأى أعاجيب نيلها، جعل لله عليه ألا يفارق ساحلها حتى يبلغ منتهاه ومن حيث يخرج أو يموت.

فسار عليه، قبل ثلاثين سنة في الناس، وثلاثين سنة في غير الناس، وقبل خمس عشرة كذا وخمس عشرة كذا حتى انتهى إلى بحر أخضر، فنظر إلى النيل ينشق مقبلاً، وإذا رجل قائم يصلي تحت شجرة تفاح، فلما رآه استأنس به وسلم عليه، فقال له: من أنت؟ قال: أنا حائد بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام فمن أنت؟ قال: أنا عمران بن فلان بن العيص، فما الذي جاء بك يا حائد؟.

قال: جئت من أجل هذا النيل وهل بلغك في الكتب أن أحداً من بني آدم يبلغه ولا أظنه غيرك قال كيف الطريق إليه؟ قال: سيو كما أنت على هذا البحر فإنك ستأتي دابة ترى آخرها ولا ترى أولها فلا يهولئك آخرها، وهي معادية للشمس إذا طلعت أهوت إليها لتلتقمها وإذا غربت أهوت إليها كذلك، فاركبها تذهب بك إلى جانب البحر، فيسر عليها فإنها ستبلغ أرضاً من حديد، فإن جرتها وقعت في أرض من ذهب فيها ينتهي إليها علم النيل. فسار حتى انتهى إلى أرض من الذهب فسار فيها حتى انتهى إلى سور من ذهب، وشرفة من ذهب وقبة من ذهب لها أربعة أبواب، فنظر إلى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر في القبة ثم ينصرف في الأبواب الأربعة، فأما الثلاثة فتفيض في الأرض وأما واحد فيسير على وجه الأرض وهو النيل.

فشرب منه واستراح وهوى إلى السور ليصعد فأناه ملك فقال له: «يا حائد قف فإنه قد انتهى إليك علم هذا النيل، وهذه الجنة، وإنما ينزل من الجنة.

التبسيه الرابع والستون: قال ابن أبي جمرة في قول جبريل عليه السلام: «أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات»، دليل على أن النيل والفرات ليسا من الجنة لأن النبي ﷺ أخبر أن جبريل أخبره أن هذه الأنهار منبعها من سدرة المنتهى، فيسير الباطنان إلى الجنة، والنيل والفرات ينزلان إلى الدنيا، وسدرة المنتهى ليست في الجنة حتى يقال إنهما يخرجان منها بعد نبعهما من الجنة. وهذا مقارض لما رواه مسلم عن أبي هريرة من أن رسول الله ﷺ قال: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة». والجمع بينهما

- والله تعالى أعلم - أن النيل والفرات منبعهما من سدرة المنتهى، وإذا نزلا يسلكان أولاً طريقاً إلى الجنة فيدخلانها ثم بعد ذلك ينزلان إلى الأرض.

التنبيه الخامس والستون: قال ابن أبي جمرة: وردت الأخبار أن من شرب من ماء الجنة لا يموت ولا يَفْتَنَى وأنه ليس له فضلة تخرج على ما يُعْهَد في دار الدنيا خروجه وإنما تُخْرِجُهُ رَشْحٌ مُشْكٍ على البدن، فجعل فيه هذه الخاصية العظيمة، ثم لما شاءت الحكمة نزوله إلى هذه الدار نُزِعَتْ منه تلك الخصوصية، وبقي جوهره بحاله، وكل الخواص مثله في هذا المعنى، إن شاء الله عز وجل أبقى له الخاصية وإن شاء سلبها مع بقاء جوهره وليس لِدَوَاتِ الخواص تأثير بل الخاصية خَلَقَهُ والجوهر خَلَقَهُ وإنما القدرة هي المؤثرة في كلها.

التنبيه السادس والستون: قول ابن كثير: «المراد - والله أعلم - أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفاتها وعذوبتها وجريانها من جنس تلك في هذه الصفات كما قال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المعجوة من الجنة»^(١) أي تشبه نَمَرُ الحَيَّةِ لا أنها محتناة من الجنة فإن الحيس يشهد بخلافه. فيتعين أن يكون المراد غيره، وكذلك أصل منابع هذه الأنهار مشاهدة من الأرض»، انتهى. وهو مُتَعَقِّبٌ بأنه لا يلزم من كونها كذلك ألا تكون من الجنة، لما قَدَّمْنَا من كيفية النزول. وقد جزم النووي وغيره أنها من الجنة، ولا يُشْكِلُ ذلك لأن في ماء الجنة خواص ليست في هذه الأنهار لما سبق في كلام ابن أبي جمرة.

التنبيه السابع والستون: وقع في رواية شريك أن رسول الله ﷺ رأى في السماء الدنيا نهرين يَطِيرُ دَانُ فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: «هما النيل والفُراتُ عُثُصُوهما». وفي رواية غيره: «رآهما في السماء السابعة». قال ابن دحية: والجُمُع بينهما أنه رأى هذين النهرين عند سِدْرَةِ المنتهى مع نَهْرَيِ الجنة، ورآهما في السماء الدنيا دون نَهْرَيِ الجنة وأراد بِالْعُثُصِ عنصر انتشارهما.

التنبيه الثامن والستون: روى أبو نعيم والضياء عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخصوداً في الأرض، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض»^(٢) الأخصود شق في الأرض مستطيل.

التنبيه التاسع والستون: روى الحارث بن أبي أسامة في مُسْنَدِهِ والبيهقي في الشُّعَبِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٦٦) وابن ماجه (٣٥٤٣) وأحمد في المسند ٣٠١/٢ والدارمي ٣٣٨/٢ وعبد الرزاق في المصنف (٢٠١٧٠) والخطيب في التاريخ ٤٤٥/١٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣٨/١ وعزاه لابن مردويه وأبي نعيم والضياء المقدسي كلاهما في صفة الجنة.

عن كعب الأحبار قال: «إن نهر العسل نهر النيل ونهر اللبن نهر دجلة ونهر الخمر نهر الفرات ونهر الماء نهر سيحان».

التنبيه السبعون: قوله في السُدرة: «يغشاها جرادٌ من ذهب». قال البيضاوي: «ذكرُ الجراد والقراش وقع على سبيل التمثيل لأن من شأن الشجر أن يسقط عليه الجراد وشبهه، وجعلها من ذهب لصفاء لونها وإضاءتها في نفسها». وقال الحافظ: «ويجوز جعلها من الذهب حقيقة، ويخلق الله فيها الطيران، والقدرة صالحة لذلك». انتهى.

التنبيه الحادي والسبعون: قوله «فَغَفَّرَ لي ما تَقَدَّم من ذنبي وما تأخَّر»، قال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله: «المراد تشريف النبي ﷺ بهذا الأمر، أي لو كان له ذنوب لغُفِرَت ولم يكن له ذنب البتة». وحكى الشيخ رحمه الله في كتابه المُحَرَّر، في الكلام على هذه الآية اثني عشر قولاً، ونقل عن السبكي فساد خمسة منها وبين الشيخ فساد الباقي، ثم قال: «أما الأقوال المقبولة ففي الشفا للقاضي قيل إن النبي ﷺ لَمَّا أُمِرَ أن يقول: ﴿وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] شَرَّ بذلك الكُفَّارَ فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وأخبر بمآل المؤمنين في الآية الأخرى بعدها، فَمَقْصِدُ الآية أنك مغفورٌ لك غُفْرٌ مُؤَاخَذٌ يَذَلُّ وهذا الأثر رواه ابن المنذر في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، بدون قوله وأخبر بمآل المؤمنين إلى آخره، وروى الإمام أحمد والترمذي والحاكم نحوه.

قال القاضي: قال بعضهم: المغفرة هنا تنزيه من العيوب، وقال بعض المحققين: المغفرة هنا كناية عن العِصْمَةِ أي فُعِصِمْتُ فيما تَقَدَّمَ من عُفْري وفيما تَأَخَّرَ منه، وهذا القول في غاية الحسن. وقد عُدَّ البلغاء من أساليب البلاغة في القرآن أنه يُكْتَبَى عن التخفيفات بلفظ المغفرة والعفو والتوبة، كقوله عند نَسْخِ قيام الليل: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠] وعند نَسْخِ تقديم الصدقة بين يَدَيِ النَّجْوَى ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣] وعند نَسْخِ تحريم الجماع ليلة الصيام: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ثم نُقِلَ عن السبكي أنه قال: «قد تأملتُ هذه الآية بذهني مع ما قبلها وما بعدها فوجدتها لا تحتل إلا وجهاً واحداً وهو تشريف النبي ﷺ، من غير أن يكون هناك ذنب، ولكنه أريد أن تُشْتَوَّعَ في الآية جميع أنواع النعم من الله تعالى على عباده. وجميع النعم الأخروية شيان: سلبية وهي غُفْران الذنوب، وثبوتية وهي لا تتناهى وقد أشار إليها بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [البقرة: ١٨٧] وجميع النعم الدنيوية شيان: دينية أشار إليها بقوله:

﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] ودنيوية وإن كان المقصود بها الدين وهي قوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٣] وقَدَّم الأخرى على الدنيوية تقدماً للأهم، فانظم بذلك تعظيم قدر النبي ﷺ بإتمام أنواع نعم الله تعالى المتفرقة في غيره.

وبعد أن وقفت على هذا المعنى رأيت ابن عطية قد وقع عليه فقال: «وإنما المعنى تشريف النبي ﷺ بهذا الحكم، ولم تكن ذنباً البتة»، وقد وُفِّق فيما قاله.

التنبيه الثاني والسبعون: قوله: «ثم أخذ على الكوثر حتى دخل الجنة». قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في تفسيره: «هذا الحديث دليل على أن السدرة ليست في الجنة. وجزَّم به ابن أبي جمة. وقال ابن دحية: «ثم هنا ليست للترتيب كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] إنما هي مثل الواو للجمع والاشتراك فهي بذلك خارجة عن أصلها، قال صاحب فتح الصفا: «وهي خلاف الظاهر».

التنبيه الثالث والسبعون: قال بعض العلماء في توجيه كون درهم القرض بثمانية عشر: إن درهم القرض بدرهمين من دراهم الصدقة كما ورد، ودرهم الصدقة بعشرة، ودرهم القرض يرجع للمقرض بذلك، وهو بدرهمين من جملة مبلغ أصله عشرون يتأخر للمقرض منه ثمانية عشر.

وسمعت شيخنا الإمام العلامة نور الدين المحلي يذكر ذلك [في] الأصول. ثم رأيت في «نوادير الأصول» للحكيم الترمذي ما نصَّه: «معنى الحديث أن المُتَصَدِّقَ حُسِبَ له الدرهم الواحد بعشرة، فدرهم صدقته وتسعة زائدة فصارت له عشرة، والقرض ضوعف له فيه بدرهم والتسعة مضاعفة فهذه ثمانية عشر، ودرهم القرض لم يُحَسَّبْ لأنه يرجع إليه، فيبقى التضعيف وهو ثمانية عشر، وفي الصدقة لم يرجع إليه فصارت له عشرة.

التنبيه الرابع والسبعون: قال ابن دحية: «في عرض الجنة عليه كرامة عظيمة لأنه كان يعرض الجنة على أمته ليشتروها كما قال عن ربه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَاً عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي النَّزْإَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فأراد الله تعالى أن يُعَايِنَ نَبِيَّهٖ ﷺ ما يَغْرِضُهُ على أمته ليكون وصفه لها عن مشاهدة ولأنه كان يدعو الناس إلى الجنة وهي الدار التي هَيَّأَهَا اللهُ تعالى لضيافة عباده المؤمنين وبعثته ﷺ داعياً إليها فأراد الله تعالى أن يُرِيَهُ الدار وكثرة ما أَعَدَّ فيها من النعيم والكرامة لئلا يَضِنَّ بالدعوة وليعلم أنها تَسَعُ الخلائق كلهم ولا تمتلئ حتى ينشئ الله لها خلقاً، كما ثبت في الحديث. ويُحْتَمَلُ أنه إنما أَرَاهُ إِيَّاهَا ليعلم خِشَّةَ الدنيا في جنب ما رآه فيكون في الدنيا

أزهد وعلى الشدائد أصبر. فقد قيل: حبذا محنة تؤدي بصاحبها إلى الرخاء ويؤس نعمة تؤدي بصاحبها إلى البلاء. ويحتمل أن الله تعالى أراد ألا يكون لأحد كرامة إلا ولمحمد مثلها، ولما كان لإدريس كرامة دخول الجنة قبل يوم القيامة أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون [ذلك] أيضاً لصفيته ونبيّه محمد ﷺ.

التنبيه الخامس والسبعون: قال ابن دحية: «إنما غرّضت عليه النار ليكون آمناً يوم القيامة، فإذا قال سائر الأنبياء: نفسي نفسي فتنبئنا يقول: «أمتي أمتي، وذلك حين تُشجر جهنم، ولذلك آمن الله محمداً ﷺ، فقال عزّ من قائل: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ [التحریم: ٨] والحكمة في ذلك أن يفزع إلى شفاعته، ولو لم يؤمنه لكان مشغولاً بنفسه كغيره من الأنبياء، لأنهم لم يزوا قبل يوم القيامة شيئاً منها، فإذا رآوها جزعوا وكفّت ألسنتهم عن الخطبة والشفاعة من هؤلها وشغلّتهم أنفسهم عن أمهم، وهو ﷺ قد رآها قبل ذلك فلا يفزع منها مثل ما فزعوا فيقدر على الخطبة وهو المقام المحمود، لأن الكفار لما كانوا يكذبونه ويستهزئون به ويؤذونه أشد الأذى أراه الله سبحانه وتعالى النار التي أعدها للمستخفين به تطيباً لقلبه وتسكيناً لفؤاده وللإشارة إلى أن من طيّب قلبه بإهانة أعدائه والانتقام منهم فأولى أن يُطيبه في أوليائه بالشفاعة والإكرام، وليعلم منه الله عليه حين أنقذهم منها ببركته وشفاعته.

التنبيه السادس والسبعون: لم يز مالكا في صورته التي يراه عليها المُعذّبون في الآخرة، ولو رآه على تلك الصورة لما استطاع أن ينظر إليه.

التنبيه السابع والسبعون: قال الطيبي: «إنما بدأ مالك رسول الله ﷺ، بالسلام ليزيل ما استشعر من الخوف منه بخلاف سلامه على الأنبياء ابتداءً».

التنبيه الثامن والسبعون: ذكر ﷺ أنه لم يلقه ملك من الملائكة إلا ضاحكاً مستبشراً إلا مالكا خازن النار، وذلك أنه لم يضحك لأحد قبله، ولا هو ضاحك لأحد بعده. قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ﴾ [التحریم: ٦] وهم مُؤَكِّلون بغضب الله تعالى، فالغضب لا يرايلهم أبداً.

وفي هذا الحديث معارضة لما رواه الإمام أحمد وأبو الشيخ عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط؟» قال: «ما ضحك منذ خُلقت النار»^(١). وهذا الحديث يعارضه ما رواه الدارقطني وغيره أن رسول الله ﷺ تبسّم في الصلاة، فسئل عن ذلك فقال: «رأيت ميكائيل راجعاً في طلب القوم وعلى جناحيه الغُبار، فضحك إليّ، فتبسّمتُ إليه» قال السهيلي: «وإذا صَحَّ الحديثان فوجهُ الجمع بينهما أن يكون لم

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٢٢٤ وابن كثير في البداية والنهاية ٤٦/١.

يضحك منذ خُلِقَت النار إلا هذه المرة التي ضحك فيها لرسول الله ﷺ، فيكون الحديث عاماً يُراد به الخصوص أو يكون الحديث الأول حَدَّثَ به رسول الله ﷺ قبل هذا الحديث الآخر، ثم حَدَّثَ بَعْدَ بما حَدَّثَ به من ضحكِهِ إليه».

التنبيه التاسع والسبعون: المناسبة بين المعراج التاسع - وهو المستوى الذي سُمِعَ فيه صريف الأقلام - والعام التاسع من سني الهجرة. قال ابن دحية: «كان في العام التاسع غزوة تبوك وفيها خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام في العدد الذي لم يَتِمَّ قَبْلَهُ مثله، كان العدد ثلاثين ألفاً، وكانت الشُّعْة بعيدة، ولهذا لم يُؤَرَّ فيها، بل أَعْلَمَ النَّاسَ بَوَجْهِهِمْ ليكون تَأْهِيمُهُمْ بحسب ذلك، ومع هذا الاجتهاد في الاستعداد لم يَلْقَ ﷺ حَرْباً ولا افتتح بلداً، لأنَّ أَجَلَ فتح الشام لم يكن خُلِّ بعد، فائْتَسَخَ العَزْمُ بالقَدَرِ وبجفاف القلم ورجع ﷺ إلى المدينة وعلى المسلمين الوقار والسكينة من غير اضطراب عند انصراف العزيمة.

التنبيه الثمانون: صريف الأقلام، بالصاد المهملة وكسر الراء وبالفاء. قال القاضي والنووي رحمهما الله تعالى: هو صوت حركتها وجريانها على ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ أو ما شاء الله من ذلك أن يُكْتَبَ ويُزَعَّ لما أَرَادَهُ من أمره وتدبيره. وفيه حجة لأهل الشُّعْة في الإيمان بصحة كتابة الوحي والمقادير في كتب الله تعالى من اللوح المحفوظ بالأقلام التي هو يعلم كيفيتها على ما جاءت به الآيات في كتابه والأحاديث الصحيحة، وأن ما جاء من ذلك على ظاهره، لكن كيفية ذلك وصورته وجنسه لا يعلمه إلا الله تعالى، وَمَنْ أَطْلَعَهُ على شيءٍ منه من ملائكته ورُسُلِهِ. وما يَتَأَوَّلُ هذا ويُحِيلُهُ إلا ضعيف النظر والإيمان، إذ جاءت به الشريعة، ودليلُ العقول لا يُحِيلُهُ، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، حِكْمَةٌ من الله وإظهاراً لما يشاء من غَيْبِهِ لمن يشاء من ملائكته وسائر خلقه وإلا فهو غَيَّبٌ عن الكتب والاستدكار.

التنبيه الحادي والثمانون: قال ابن دحية: «قد عَلِمَ أن الأقلام إنما تكتب الأقدار، والقَدَرُ المكتوب قديم، وإنما الكتابة حادثة. وظاهر الأخبار أن اللوح المحفوظ قُرِغَ من كتابته وبجفَّ القلم بما فيه قبل خَلْقِ السموات والأرض، وإنما هذه الكتابة المحدودة في صُحُفِ الملائكة كالفروع المُنْتَسَخَةِ من الأصل، وفيها المحو والإثبات على ما ورد في الأثر. وأَصْلُ اللوح المحفوظ الذي انْتَسَخَ منه اللوح هو علم الغيب القديم في أَرْزَلِ القَدَمِ وهو الذي لا مَحْوُ فيه ولا إثبات حيث لا لَوْح ولا قَلَم.

والحكمة البالغة - والله أعلم - في سماعه لصريف الأقلام حصول الطمأنينة بجفاف القلم بما في القَدَرِ حتى يمكن التفويض للقَدَرِ لا للسَّبَبِ، وحتى يُتَغَاطَى السَّبَبُ تَعَبُّداً لا

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

تَعَوِّذًا، وبذلك يَتِمُّ التَّوَكُّلُ وَيَشْكُنُ الاضطراب عند اختلاف الأسباب. وقال القرطبي: «وأصل الأَقْلَامِ الموصوفة هنا، هي الْمُعَبَّرُ عنها بِالْقَلَمِ الْمُقْسَمِ به في قوله تعالى: ﴿إِن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] ويكون القلم هذا للجنس».

التنبيه الثاني والثمانون: المناسبة بين المعراج العاشر وهو الرفرف حين لقي الله تعالى وحضر بحضرة القدس وقام مقام الأنس وزُفِعَ الحجاب وُسِّعَ الخطاب، وكان قاب قوسين أو أدنى لا بالصورة بل بالمعنى، أن العام العاشر اجتمع فيه اللقاءان: أحدهما: لقاء البيت وحج الكعبة ووقوف عرفة وإكمال الدين وإتمام النعمة على المسلمين، واللقاء الثاني: بقارب البيت وكانت فيه الوفاة واللقاء والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصديق وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة وهي المنزلة الرفيعة التي لا تنبغي إلا لعبد واحد اختاره الله تعالى وهو محمد ﷺ كما ورد في صحيح الخبر أنه سُئِلَ عن الوسيلة فقال: «درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله فأرجو أن أكون إياه»^(١) ورجاؤه مُحَقَّقٌ ﷺ، وخاطره مُوَفَّقٌ.

التنبيه الثالث والثمانون: قال ابن دحية: خُصَّ رسول الله ﷺ بالرؤية والمكالمة لأنه صاحب الشفاعة يوم القيامة، فتوسط قبلها لئلا يقع له حشمة البديهة كما يقع لغيره من الأنبياء فأراد الله سبحانه وتعالى أن يزيل عنه الانقباض قبل ذلك ليتمكن من المقام المحمود وأهله قبل المشهد الأعلى للمشاهدة والكلام.

التنبيه الرابع والثمانون: قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَيْتِكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ عَرْشِي﴾، إلى آخر الحديث. قال الثوري بشتي: ليس يعني بقوله: «أَعْطَى» أنها أُنْزِلَتْ عليه بل المعنى أنه اشْتَجِبَ له فيما لُقِّنَ من الآيتين: ﴿غَفَرْنَاكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى قوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولمن يقوم بحقهما من السائلين».

وقال الطيبي: «وفي كلامه إشعار بأن الإِعْطَاءَ بعد الإنزال لأن المراد منه الاستجابة وهي مسبقة بالطلب والسورة والمعراج كان بمكة، ويمكن أن يقال هذا من قبيل ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَرَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤] وإنما أُوثِرَ الإِعْطَاءَ لما عُبِّرَ عنه بِكَتْرِ تَحْتَ الْعَرْشِ».

وروى الإمام أحمد عن أبي دَرَّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطَيْتِ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي».

(١) أخرجه مسلم ٢٨٨/١ (١١-٣٨٤).

التنبيه الخامس والثمانون: الحكمة في تخصيص قُرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عُرج به رأى تلك الليلة تَعْبُد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراکع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى له ولأُمته تلك العبادات كلها في ركعة واحدة يُصَلِّيها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

التنبيه السادس والثمانون: وفي اختصاص قُرضها بليلة الإسراء إشارة إلى عظم شأنها ولذلك اختص قُرضها بِكُونِهِ بغير واسطة بل بمراجعات عِدَّة. قال السهيلي: «وأما قُرض الصلاة عليه هنالك، ففيه التنبيه على فضلها حيث لم تُفرض إلا في الحضرة القدسية المُطهرة، ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائط أدائها والتنبيه على أنها من مناجاة الرَّبِّ، وأن الرَّبِّ تبارك وتعالى مُقْبِلٌ بوجهه على المُصَلِّي يناجيه يقول: حَمْدُنِي عَبْدِي أَتْنِي عَبْدِي إِلَى آخِر السورة، وهذا مُشَاكِلٌ لِقُرضها عليه في السماء السابعة حيث سمع كلام الرب وناجاه، ولم يُعْرَج به حتى طَهَّر ظاهره وباطنه بماء زمزم كما يَتَطَهَّر المُصَلِّي للصلاة وأُخرج عن الدنيا بجسمه كما يُخْرِج المُصَلِّي عن الدنيا بقلبه ويُحَرِّم عليه كل شيء إلا مناجاة ربه، وتوجهه إلى قِبَلته في ذلك الحين وهي بيت المقدس، ورُفِعَ إلى السماء كما يَرْفَع المُصَلِّي يديه إلى جهة السماء إشارة إلى القِبلة العليا وهي البيت المعمور وإلى جهة عَرْش مَنْ يناجيه ويُصَلِّي له سبحانه وتعالى».

التنبيه السابع والثمانون: قوله: «قد وضعت عنك خمساً»، كذا في رواية ثابت عن أنس. وفي رواية مالك بن صعصعة: «عَشْرًا»، وفي رواية شريك: «وضع شطرها». قال النووي: «المراد بِحُطِّ الشُّطْر أَنَّهُ حُطَّ فِي مَرَّاتٍ بِمَرَاஜَعَاتٍ فَلَا يَخَالِفُ رَوَايَةَ ثَابِتٍ». قال الحافظ: «وكذا العَشْرُ فَكَأَنَّهُ وَضَعَ الْعَشْرَ فِي دَفْعَتَيْنِ وَالشُّطْرَ فِي خَمْسِ دَفْعَاتٍ، وَالْمُرَادُ بِالشُّطْرِ هُنَا الْبَعْضُ». قال: «وقد حققت رواية ثابت أَنَّ التَّخْفِيفَ كَانَ خَمْسًا، وَهِيَ زِيَادَةٌ مُعْتَمَدَةٌ يَتَعَيَّنُ حَمْلُ بَاقِي الرِّوَايَاتِ عَلَيْهَا». قلتُ: ويؤيد رواية ثابت ما رواه ابن خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ وَابْنُ مَرْذُوقٍ مِنْ حَدِيثِ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ: «فَحُطَّ عَنِّي خَمْسًا»، وفيه: «فَمَا زِلْتُ بَيْنَ مُوسَى وَبَيْنَ رَبِّي يَحُطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا». قال ابن دحية: «ذِكْرُ الشُّطْرِ أَعَمُّ مِنْ كَوْنِهِ وَقَعَ دَفْعَةً وَاحِدَةً».

التنبيه الثامن والثمانون: قال أبو طالب الجُمَحِي فِي كِتَابِ «التَّحِيَّاتِ»: «لكل قوم تحية، فتحية العرب السلام وتحية الأكاسرة السجود قُدَّامَ الْمَلِكِ وتقبيل الأرض وتحية الفُرس طَرْحُ الْيَدِ عَلَى الْأَرْضِ قُدَّامَ الْمَلِكِ، وتحية الحبشة عَقْدُ الْيَدَيْنِ عَلَى الصَّدرِ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ بِسُكُونٍ، وتحية الروم كشف غطاء الرأس من بعد تنكيس رأسه. وتحية النوبة إيماء الرجل بالدعاء

بالأصابع وتحية البجاء وضع يد الداخل على كتف الملك، فإن بلغ الخدمة رفعها ووضعها مراراً. وهذه التحيات غالبها مجموعة في الصلاة التي هي خدمة ملك الملوك سبحانه وتعالى، ولهذا ناسب أن يقال في آخرها: «التحيات لله» إشارة إلى أنه تعالى يستحق جميع التحيات.

التبئية التاسع والثمانون: وقع في رواية أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما: «فَرَضَ الله على أمتي خمسين صلاة» وفي رواية ثابت عن أنس: «فَرَضَ الله عَلَيَّ خمسين صلاة كل يوم وليلة». ونحوه في رواية مالك بن صعصعة، فيُحْتَمَلُ أن يقال في كل من رواية أبي ذر والرواية الأخرى اختصار. ويؤيد قَوْلَهُ في الرواية الأخرى: «إِنِّي فَرَضْتُ عَلَيْكَ وعلى أمتك خمسين صلاة» إلى آخره. ويقال ذَكَرَ الْفَرَضَ عليه يستلزم ذَكَرَ الْفَرَضَ على الأمة وبالعكس، إلا ما استثنى من خصائصه.

التبئية التسعون: قال ابن أبي جمرة: «الحكمة في كون إبراهيم عليه السلام لم يكلم المصطفى في طلب التخفيف أن مقام الخلّة إنما هو الرضى والتسليم، والكلام في هذا الشأن ينافي ذلك المقام. وموسى هو الكليم، والكليم أُعْطِيَ الإدلال والانبساط». وقال القرطبي: «الحكمة في تخصيص موسى عليه الصلاة والسلام بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلاة، لعلها تكون أمة موسى كُلفت من الصلوات ما لم يُكَلَّف به غيرها من الأمم فثقلت عليهم فأشفق موسى على أمة محمد. عليهما الصلاة والسلام. من مثل ذلك ويشير إلى ذلك قول موسى: «إِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ».

وقال غيره: لعلها من جهة أنه ليس في الأنبياء مَنْ له أتباع أكثر من موسى، ولا مَنْ له كتاب أكبر ولا أجمع للأحكام من كتابه، فكان من هذه الجهة مضاهياً للنبي ﷺ، فناسب أن يَتَمَنَّى أن يكون له مثل ما أُعْيم به عليه من غير أن يريد زواله عنه، وناسب أن يُطْلَعَهُ على ما وقع له وينصحه فيما يتعلق به. ويُحْتَمَلُ أن موسى عليه السلام لما غَلَبَ عليه في الابتداء الأسف على نقص حظ أمته بالنسبة لأمة محمد ﷺ حتى تمنى ما تمنى أن يكون منهم، استدرك ذلك ببذل النصيحة لهم والشفقة عليهم ليزيل ما عساه أن يُتَوَهَّم عليه مما وقع منه في الابتداء، والعلم عند الله تعالى.

قال القرطبي: «وأما قول من قال إنه أول من لقيه بعد الهبوط فليس بصحيح، لأن حديث مالك بن صعصعة أنه رآه في السادسة وإبراهيم في السابعة، وهو أقوى إسناداً من حديث شريك الذي فيه أنه رأى موسى في السابعة». قال الحافظ: «إذا جمعنا بينهما بأنه لقيه في الصعود في السادسة، وصعد موسى معه إلى السابعة فلقية فيها بعد الهبوط ارتفع الإشكال وبطل الرد».

قال السهيلي: «وأما اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة وإلحاحه على نبيها أن يشفع

لها ويسأل التخفيف عنها فلقوله - والله أعلم - حين قضى إليه الأمر بجانب القربى ورأى صفات أمة محمد عليه السلام في الألواح وجعل يقول: إني أجد في الألواح أمة صفتهم كذا: اللهم اجعلهم أمتي. فيقال له: تلك أمة محمد. قال: اللهم اجعلني من أمة محمد، وهو حديث مشهور في التفاسير. فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم يَغْتَنِي بالقوم مَنْ هو منهم لقوله: اللهم اجعلني منهم».

التنبيه الحادي والتسعون: في قول موسى: «قد عالجتُ الناسَ قبلك» إلى آخره دليل على أن علم التجربة زائدة على العلوم، ولا يُقدَّر على تحصيله بكثرة العلوم ولا يُكتَسَب إلا بها، أعني التجربة، لأن النبي ﷺ أعلم الناس وأفضلهم سيماً وهو حديث عهد بالكلام مع ربه تبارك وتعالى وورد إلى موضع لم يطأه ملكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل، ثم مع هذا الفضل العظيم قال له موسى عليه السلام: «أنا أعلم بالناس منك»، وذكر له العلة التي لأجلها كان أعلم منه بقوله: «عالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة». فأخبره أنه أعلم منه في هذا العلم الخاص الذي لا يوجد ولا يُدْرَك إلا بالمباشرة وهي التجربة.

التنبيه الثاني والتسعون: وفيه دليل على جواز الحكم بما أجرى الله تعالى بحكمته من ارتباط العوائد لأن موسى عليه السلام حَكَمَ على هذه الأمة بأنها لا تطيق، وذلك سبب ما أخبر به وهو علاج بني إسرائيل، وَمَنْ تقدَّم أقوى وأجلد يَمُنْ يأتي بعد، كما أخبر تعالى بقوله: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَغَمَزُوهَا أَكْثَرُ يَمًا وَعَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] فرأى موسى أن ما لم يحمله القوي فمن باب أولى ألا يحمله الضعيف فهو بعد مُحْكَمٌ بأثر الحكمة في ارتباط العادة، مع أن القُدْرَةَ صالحة لأن يحمل الضعيف ما لا يحمل القوي. وقد وَرَدَ أن الصلاة التي كُفِّ بها بنو إسرائيل ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي ومع هذا لم يقوموا بذلك.

التنبيه الثالث والتسعون: وفي سؤال موسى طلب التخفيف عن هذه الأمة دليل على أن بكاءه أولاً حين صعود النبي ﷺ لم يكن إلا للوجه الذي أَبْدَيْنَاهُ لا لغيره، لأنه لو كان لغير ذلك لبكى حين رجوع النبي ﷺ أو سَكَتَ، ولكنه قام في الخدمة والنصيحة للنبي ﷺ، فلما أن كان بكاءه أولاً للوجه الذي ذكرناه ولم يصادف ما أشرنا إليه وإنما كانت هذه النَّفْحَةُ من النَّفْحَاتِ الخاصَّةِ بالنبي ﷺ، تَعَرَّضَ أيضاً لهذه الأمة بطلب التخفيف، فصادف اعتراض هذه النفحة في موضعها لأنها خاصة بهذه الأمة. وتكلم هو ﷺ في حَقِّهَا فَأَشْعِفَ فيما أراد وَحَقَّقَ الله عز وجل دعاءه إذ ذاك وَرَدَّ الخمسين إلى خَمْسٍ، وزاد بالإفضال فجعل الحَسَنَةَ عَشْرًا في الثواب عليها، فأزال الله تعالى عن الأمة قَوْضَ تلك الصلوات وأبقى لهم ثوابها تفضلاً منه وإحساناً.

التنبيه الرابع والتسعون: قال ابن أبي جَمْرَةَ: «في الحديث دليل للصوفية حيث

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

يقولون: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، لأن إبراهيم عليه السلام لم يتكلم في هذا الشأن بسبب أن مقامه أعلى من الكلام، فلو تكلم لكان ذلك في حقه سيئة بالنسبة إلى مقامه الخاص، وموسى عليه السلام كان كلامه مما يتقرب به إلى مقامه الخاص، كل منهم له مقام خاص لا يتعداه».

التنبيه الخامس والتسعون: قال ابن دحية: «في هذه المراجعة التي وقعت بين موسى والنبي عليهما السلام فوائد منها: تكرار الشفاعة في القصة الواحدة إلى أن يتم مقصود الشافع، ومنها أن الأمر إذا انتهى إلى حد الإلحاح كان الأولي الترك، ومنها تعظيم الأمر الذي لا يُقدَّر عليه، ومنها الرجوع إلى المُشير الناصح، ومنها أن الشافع لا يتوقَّف على طلب المشفوع له في ذلك، ومنها أن الشافع يُقيم عُذْر المشفوع له عند المشفوع عنده في ذلك، ومنها أنه لا يمتنع من الشفاعة وإن كان داخلاً فيها».

التنبيه السادس والتسعون: إنما امتنع النبي ﷺ من طلب التخفيف في المرة العاشرة لما أمره موسى بذلك لأمرين:

أحدهما: أن الأمر إذا انتهى إلى حد الإلحاح كان الأولي الترك.

ثانيهما: أن يكون النبي ﷺ تَفَرَّسَ أن هذا العدد لا يُحْطُ عنه فاستحى أن يسأل في مَظِنَّة الرَّدِّ، وَرَجَّهُ التَّفَرُّسُ أن الله تعالى أدرج التخفيف خَمْساً خَمْساً من خَمْسٍ إلى خَمْسٍ. فالقياس أنه إن خُفِّفَ بِحَذْفِ الخَمْسَةِ الأخيرة ارتفعت الصلاة بجملتها، وقد عَلِمَ أنه لا بُدَّ من وظيفة، فلماذا ترك السؤال، وكشف الغيب أن العلم القديم تَعَلَّقَ بِقَاءِ هذه الخَمْسِ، ولهذا بَقِيَتْ، فَصَدَّقَتْ الفراسة، وأصابَت الفكرة، ولهذا جاء في بعض الطُّرُق أن النبي ﷺ لما امتنع من المراجعة في العاشرة نادى مُنَادٍ: «أَمْضِيَتْ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي».

التنبيه السابع والتسعون: قال ابن دحية: «ذُلت مراجعته ﷺ في طلب التخفيف تلك المَرَّات كلها، لأنه عَلِمَ أن الأمر في كل مَرَّة لم يكن على سبيل الإلزام بخلاف المَرَّة الأخيرة، ففيها ما يُشعر بذلك لقوله تعالى: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

التنبيه الثامن والتسعون: قال ابن أبي جَمْرَةَ: «في امتناع النبي ﷺ في المَرَّة العاشرة من طلب التخفيف دليل على أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد إسعاد عبده جعل اختياره في مَرَضَاة رَبِّه، لأن النبي ﷺ جعل اختياره وإيثاره لما أراد الحق تبارك وتعالى إِنْقَاذَهُ وإمضاءه، وهو قَرَضُ الصَّلواتِ الخَمْسِ، وذلك تكريم له ﷺ وترفع، لأنه لو رجع لِطَلْبِ التخفيف فلم يُخَفَّفْ كما خُفِّفَ أولاً لكان اختياره مُخَالِفاً للمقدور. فلما أن اختار وأشعِفَ في اختياره كان دليلاً على ما استدللنا عليه وهو غُلُوُّ منزلته ﷺ، فإنه ما دام يطلب التخفيف أضعِفَ في مثناه، ففي كل حالٍ من طلب ومن عدم طلب كان اختياره موافقاً للمقدور».

وفيه دليل للصوفية حيث يقولون: «إن الحال حامل «لا محمول»، لأن النبي ﷺ لما أن ورد عليه حال الإشفاق على أمته بادر إلى طلب التخفيف عنهم ولم ينظر لغير ذلك، ثم لما وُرد عليه حال الحياء من الله تعالى لم يلتفت لأُمته إذ ذاك ولا طلب شيئاً».

التنبيه التاسع والتسعون: في هذا الحديث دليل على أن قَدَر الله تعالى على قِسْمَيْن، كما قدمنا. فالقَدَر الذي قَدَره وَقَدَّرَ أَلَّا ينفذ بسبب واسطة أو دُعَاء هو قَوْضُهُ هنا للخمسين صلاة لأنه تعالى لما أن أمر بالخمسين أَوَّلًا وسبقت إرادته أَلَّا ينفذ ذلك جعل بحكمته موسى هناك سبباً لرفع ذلك. والقَدَر الذي قَدَّرَ إنفاذه ولا يَزِيدُهُ رَادٌّ هو قَوْضُهُ للخمسة صلوات لأنه تعالى لما أن أَمَرَ بها وسبقت إرادته بِإمضاها لم ينفذ كلام موسى عليه السلام إذ ذاك لأنه من القَدَر المحتوم.

التنبيه الموفى مائة: قال ابن دحية: «فإن قُلْتُ: ما معنى قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدِي﴾ [ق: ٢٩]؟ فإن كان المراد لا يُبَدِّلُ الحَبْر فكيف يطلق الحديث، لأن السياق في الأحكام فلماذا نَسَخَ الخمسين إلى خَمْسٍ وتبديل النسخ لا يبقى، فإن كان المراد لا يُبَدِّلُ الحُكْم فقد تَقَرَّرَ أن النسخ في الإحكام جائز وقد وقع في هذا الحديث إلى خَمْسٍ. فالجواب أنه تعالى إذا أخبر عن الحُكْم أنه مُؤَبَّد استحال التبديل والنسخ حينئذ لأجل العِلْم، وقد أخبر الله تعالى أنه الفريضة أي أَبَدَهَا فلا يُبَدِّلُ الخبر ولا يُتَوَقَّعُ النسخ بعد ذلك والله تعالى أعلم».

ويكون المراد أنه تعالى وَعَدَ هذه الأمة على أَلْسنة الملائكة أو في صحفها أن لهم أَجْرَ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فلما نَسَخَهَا إلى خَمْسٍ حصل للعدد نقص، وإن الأجر المراد لم يَنْقُصْ لأنَّ الحَسَنَةَ بعشر أمثالها، ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَّ خَمْسٌ وَهُنَّ خَمْسُونَ﴾ أي هُنَّ خَمْسٌ عدداً وخمسون اعتداداً، ذلك الفضل من الله، ويكون ذلك كقوله في الصيام: «من صام رمضان وأتبعه سِتّاً من شَوَّالٍ فكأنما صام الدهر»^(١)، بتأويل أن الحسنة بعشر أمثالها، فستة وثلاثون في عشرة بثلاثمائة وستين عدد أيام السَّنَةِ.

واعْتَبِرَت الصلاة بما تحتاج إليه كل صلاة من وضوء ونحوه، فوجد لهما ما يأتي على ساعتين وبعض الساعة غالباً، فَعَلِمَ بذلك أن الخمسين لو استقرَّت على أمة لاستوعبت اليوم والليلة لما تحتاج إليه كل صلاة من طهارة وغيرها، وكانت الطهارة واجبة التجديد في أول الأمر، ثم نُسيخ الوجوب إلى التذُّب، فكان المُصَلِّي من هذه الأمة لهذه الخمسة استوعب الدهر صلاة وكأنه أيضاً استوعب الدهر صياماً.

(١) أخرجه مسلم ٨٢٢/٢ (٢٠٤-١١٦٤).

والظاهر أن نقص الخمسين إلى خمس ليس من تبديل القول لأنه تبديل تكليف، وأما بعد الإخبار بالخمس والخمسين فتبديل أخبار.

التنبيه الحادي والمائة: قال أبو الخطّاب وتبعه ابن المنير: «جواز النسخ قبل التمكن من الفعل قبل دخول الوقت مذهب أهل السنة خلافاً للمعتزلة، وجرى كل فريق على قاعدته وعقيدته. فعند أهل السنة التكليف على خلاف الاستطاعة جائز، بل واقع إذ الأفعال كلها مخلوقة لله تعالى، والعبد مطالب بما لا يُقدّر على إيجاده ولا يتمكن من التأثير في إحرازه، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] بتقدير أن «ما» هنا مصدرية، والمعتزلة تجعل «ما» هنا موصولة وجزوا على عقيدتهم في اعتقادهم أن العبد يخلق بفعل نفسه ويوجد طاعة ربه باستطاعته واختياره، ولا يسقط التكليف عندهم على خلاف الاستطاعة فلا يُتصوّر النسخ قبل التمكن من الفعل كما تُتصوّر قاعدته. واستدل أهل السنة على جواز النسخ قبل التمكن بأنه وقع. وأي دليل على الجواز أتّم من الوقوع؟.

ومثّلوا ذلك بقصة الذبيح فإن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده، ثم خفّف ذلك ونسّخه إلى الفداء قبل أن يمضي زمن يسع الذبح ولا يمكن فيه الفعل. ومن هنا ضاقت على المعتزلة المضايق حتى غلطوا في الحقائق، واختلفوا في الأجوبة، فمنهم من قال لم يأمره بالذبح لأن ذلك كان في المنام لا في اليقظة، ولا عقل أضلّ من عقل من زعم أنه استظهر على نبي في واقعة هو صاحبها وقضى فيها ومنه ظهرت، وعنه أثرت، فإن الذبيح قال فيما حكاه الله تعالى وصوّبه ﴿هِيَ أَهَتْ أَعْلَى مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ونحن نقول إن راوي الحديث أعرف بتأويله وتفسيره، وأقعد بتبيينه وتنزيله.

وحتى لو تعارض تأويلان قدّمنا تأويل صاحب الواقعة لأنه أفهم لها. فكيف لا يُقدّم تأويل الذبيح النبي الذكيّ المُستدّ المُصوّب من ربّ العالمين على تأويل المُبتدِع الضالّ الحائر المشكك؟ ومنهم من قال: أمر ولكن بالمُقدمات: الشّدّ والثّلّ والصّرع وتناول «المُدّة». وهذا من الطراز الأول لتهافت القول، فإن إبراهيم قال: ﴿إِنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ولم يُقلّ أصرعك، وأيضاً ليست المقدمات «بلا»، ولا سيما في حق إبراهيم عليه السلام الذي علم أن الحال لا ينتهي بغير الاضطجاع خاصة بما لا يتعنّى حينئذ للفداء، فهذا أخيد عن الشنّ وجنوح إلى العناد والعن.

ومنهم من قال: «أمر بالذبح وفعل، ولكن انقلبت الشكّين أو لم تقطع، أو انقلبت العنق حديداً، وهذا من التّمسك المردود، وحاصله الثّقل بالتقدير وهو الكذب بعينه، ومنهم من قال: «ذبح والتّحم»، وهذه مُعايَزة النقول ومكابرة العقول. وذلك أن الأمر لو كان على هذه المثابة

لم يقع الاقتصار في الآية على حكاية ﴿وَقُلُّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: ١٠٣] ولكان ذِكْرُ الذَّبْحِ أَوْقَعَ فِي الْإِبْتِلَاءِ وَلَسَقَطَتْ فَائِدَةُ الْفِدَاءِ. فَيُطْلَ مَا قَالُوهُ، وَتَعَيَّنَ الْقَوْلُ بِجَوَازِ النَّسْخِ قَبْلَ التَّمَكُّنِ بِدَلِيلٍ وَقَوِّعِهِ فِي قِصَّةِ الذَّبِيحِ، فَلَا يُمْكِنُهُمْ تَرْدِيدُ مِثْلِهَا فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ إِذْ لَا خَفَاءَ أَنَّهُ ﷺ أُمِرَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ بِخَمْسِينَ صَلَاةً ثُمَّ نُسِخَ مَا نُسِخَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَمْضِيَ زَمَانٌ يَسْتَعْمِلُهَا.

قال شيخنا السهيلي: وأما قَرْضُ الصَّلَوَاتِ خَمْسِينَ ثُمَّ حُطُّ مِنْهَا عَشْرًا بَعْدَ عَشْرِ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ وَقَدْ رُويَ أَيْضًا أَنَّهَا حُطَّتْ خَمْسًا بَعْدَ خَمْسٍ. وَقَدْ يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الرَّوَايَتَيْنِ لِدُخُولِ الْخَمْسِ فِي الْعَشْرِ، فَقَدْ تُكَلِّمُ فِي هَذَا النِّقْصِ مِنَ الْفَرِيضَةِ أَهْوُ نَسْخِ أَمْ لَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ. فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ مِنْ بَابِ نَسْخِ الْعِبَادَةِ قَبْلَ الْعَمَلِ بِهَا، وَأَنْكَرَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْبِنَاءُ عَلَى أَصْلِهِ وَمَذْهَبِهِ فِي أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا يَجُوزُ نَسْخُهَا قَبْلَ الْعَمَلِ لَهَا لِأَنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنَ الْبَدَاءِ، وَالْبَدَاءُ مُحَالٌ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

الثَّانِي: أَنَّ الْعِبَادَةَ إِنْ جَازَ نَسْخُهَا قَبْلَ الْعَمَلِ بِهَا عِنْدَ مَنْ يَرَى ذَلِكَ فَلَيْسَ يَجُوزُ عِنْدَ أَحَدٍ نَسْخُهَا قَبْلَ هَبْوَطِهَا إِلَى الْأَرْضِ وَهَبْوَطِهَا إِلَى الْمُخَاطَبِينَ... إِنَّمَا هِيَ شَفَاعَةٌ شَفَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأُمَّتِهِ وَمَرَامَةٌ رَاجِعُهَا رَبُّهُ لِيُخَفِّفَ عَنْ أُمَّتِهِ وَلَا يُسَمَّى مِثْلَ هَذَا نَسْخًا.

أما مذهب أبي جعفر النحاس في أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُنْسَخُ قَبْلَ الْعَمَلِ بِهَا وَأَنَّ ذَلِكَ بَدَاءٌ فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْبَدَاءِ أَنْ يَدُوَ لِلْأَمْرِ رَأْيٌ يَتَّبِعُ لَهُ الصَّوَابُ فِيهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ تَبَيَّنَ، وَهَذَا مُحَالٌ فِي حَقِّ مَنْ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ بِعِلْمٍ قَدِيمٍ. وَلَيْسَ النَّسْخُ مِنْ هَذَا فِي شَيْءٍ، إِنَّمَا النَّسْخُ تَبْدِيلُ حُكْمٍ بِحُكْمٍ، وَالْكَلِّ سَابِقٍ فِي عِلْمِهِ وَمَقْتَضَى حِكْمَتِهِ، كَنَسْخِ الْمَرَضِ بِالصِّحَّةِ وَالصِّحَّةِ بِالْفِعْلِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، وَالْعَزْمُ عَلَى الْإِمْتِثَالِ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَمْرِ، وَاعْتِقَادُ الْوَجُوبِ إِنْ كَانَ وَاجِبًا، فَإِنْ نُسِخَ الْحُكْمُ قَبْلَ الْفِعْلِ فَقَدْ حَصَلَتْ فَائِدَتَانِ: الْعَزْمُ، وَاعْتِقَادُ الْوَجُوبِ، وَعَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْهُ عِلْمًا مُشَاهِدَةً. فَصَحَّ امْتِحَانُهُ لَهُ وَاجْتِبَاؤُهُ إِيَّاهُ، وَأَوْقَعَ الْجَزَاءُ عَلَى حَسَبِ مَا عَلِمَ مِنْ نِيَّتِهِ وَالَّذِي لَا يَجُوزُ إِنَّمَا هُوَ نَسْخُ الْأَمْرِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ وَقَبْلَ عِلْمِ الْمُخَاطَبِ بِهِ. وَالَّذِي ذَكَرَ النَّحَّاسُ مِنْ نَسْخِ الْعِبَادَةِ بَعْدَ الْعَمَلِ بِهَا لَيْسَ هُوَ حَقِيقَةُ النَّسْخِ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا قَدْ مَضَتْ وَإِنَّمَا جَاءَ الْخَطَابُ بِالنَّهْيِ عَنْ مِثْلِهَا لَا عَنْهَا. وَقَوْلُنَا فِي الْخَمْسِ وَالْأَرْبَعِينَ صَلَاةَ الْمَوْضُوعَةِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ. أَحَدٌ وَجْهَيْنِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ نَسْخٌ مَا وَجِبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَدَائِهَا، وَزَفَعَ عَنْهُ اسْتِمْرَارُ الْعَزْمِ وَاعْتِقَادُ الْوَجُوبِ. وَهَذَا قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ نُسِخَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَنُسِخَ عَنْهُ مَا وَجِبَ

عليه من التبليغ، فقد كان في كل مرة عازماً على تبليغ ما أُمرَ به [وقول أبي جعفر إنما كان شافعاً ومُراجعاً يُنفِي النَّسْخَ فَإِنَّ النَّسْخَ قد يكون عن سبب معلوم فشفاعته عليه السلام لأُمته كانت سبباً للنَّسْخَ لا مُبْطِلَةً لحقيقته، ولكن المنسوخ ما ذكرنا من حكم التبليغ الواجب عليه قبل النَّسْخَ وحكم الصلوات الخمس في خاصته وأما أمته فلم يُنْسخَ عنهم حُكْمُ [إِذَا] لا يُتَصَوَّرُ نَسْخَ الحُكْمِ قبل وصوله إلى المأمور به. وهذا كله أحد الوجهين في الحديث.

والوجه الثاني: أن يكون هذا خبراً لا تعبداً وإذا كان خبراً لم يدخله النَّسْخَ، ومعنى الخبر أنه عليه السلام، أَخْبَرَهُ رَبُّهُ أن على أمته خمسين صلاة ومعناه: أنها تخفسون في اللوح المحفوظ، وكذلك قال في آخر الحديث: هي خمس، وهي خمسون والحسنة بعشر أمثالها، فتأوله رسول الله ﷺ على أنها خمسون بالفضل، فلم يزل يراجع ربه حتى بيّن له أنها خمسون في الثواب لا بالعمل.

التنبيه الثاني والمائة: قد عُلمَ مما سبق جواز نَسْخِ الفِعْلِ قبل التمكن من فعله، وأن ذلك صحيح في حقه ﷺ، وغير صحيح بالنسبة لأُمته لاستحالة النَّسْخِ قبل البلاغ إذ شرط التكليف تمكين المُكَلَّفِ من العِلْمِ به، أي إذا لم يكن العلم به شرطاً فإن نَسْخَ التكليف قبل البلاغ يناقض ذلك.

وقال ابن دحية: «يصح النَّسْخُ في حق الأمة أيضاً بأن الإسلام يوجب على كل مسلم الدخول في فروعه وفي شرائع الدين بتفصيلها، وكل من آمن بالنبي ﷺ في حياته دخل في الإسلام. على أن هنالك تكاليف منها ما نُزِّلَ وبُيِّنَ بكل وجه، ومنها ما نُزِّلَ مُجْمَلًا من وجه ومُبَيَّنًا من وجه، ومنها ما لم يُنْزَلْ بعد وَسَيُنْزَلُ، والإيمان والالتزام شامل للجميع. فكما يجوز نَسْخُ التكليف بعد أن يُتْلَغَ بخصوصية يجوز أيضاً قبله. وأكثر القواعد أن ما وَجِبَ مُجْمَلًا ثم بُيِّنَ في وقت الحاجة كالصلاة والزكاة، لم يَقْتَرِنْ بأول وجوبها ذِكْرُ أعدادها ولا إعدادها ولا أوقاتها ولا هيئاتها ولا شرائطها، بل للتكليف بها مستقر مع هذه الإجماليات، لأن المكلف بالالتزام الأول قد دخل على التزامها على ما هي عليه في نفس الأمر. وقد قال النبي ﷺ لمن سأله عن الإسلام هو «أن تشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم شهر رمضان وتحج البيت^(١)». فنجز التكليف عليه بهذه القواعد مُجْمَلَةً غير مُبَيَّنَّة».

التنبيه الثالث والمائة: قال ابن دحية: «إِذَا سَمِعْتَ العلماء يتكلمون على النَّسْخِ قبل

الفعل فاعلم أنهم أرادوا قبل مُضِيِّ زَمَنٍ يَسْبِقُ الفعل الأول. هذا هو الْمُخْتَلَفُ فيه، وإلا فكل نَسْخٍ مُتَّفَقٍ عليه لا يُتَصَوَّرُ إلا قبل الفعل لأن ما فُعِلَ مضى وانقطع التكليف به والنسخ فيه. قال: وإذا سَمِعْتَهُمْ يقولون نَسَخَ التكليف قبل البلاغ متعذر لأن شرط التكليف البلاغ فاعلم أنهم يريدون تنجيز التكليف. هذا هو المشروط بالبلاغ. وأما أصل التكليف عندنا فلا يتوقف على ذلك فإن مذهبنا أن الأمر قديم مُحَقَّقٌ قبل وجود المأمور فضلاً عن بلاغه والله تعالى المُؤَفَّق.

التبسيه الرابع والمائة: قال بعض أهل الإشارات: «لما تمكنت المحبة من قلب موسى عليه السلام أضاءت له أنوار نور الطور ليقبّس، فاحتبس فلما نودي في الثّادي اشتاق إلى الثّادي فكان يطوف في بني إسرائيل فيقول: من يحملني حتى أُبَلِّغَ رسالة ربي، ومراده أن تطول المناجاة مع الحبيب، فلما مرَّ عليه النبي ﷺ ليلة المعراج رَدَّدَهُ في أمر الصلاة ليشعّد برؤية حبيب الحبيب. وقال آخر: لما سأل موسى عليه السلام الرؤية ولم تحصل له البُغْيَةُ، بقي الشوق يُقْلِقُهُ والأمل يُعَلِّلُهُ، فلما تحقق أن سيدنا محمداً ﷺ مُنِحَ الرؤية وفتّح له باب الحزنية أكثر السؤال ليشعّد برؤية من قد رأى، كما قيل:

وَأَسْتَنْشِقُ الْأَرْوَاحَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ لَعَلِّي أَرَاكُمْ أَوْ أَرَى مَنْ يَرَاكُمْ
وَأَتَشُدُّ مَنْ لَا قِيَتَ عَنْكُمْ عَسَاكُمْ تَجُودُونَ لِي بِالْعَطْفِ مِنْكُمْ عَسَاكُمْ
فَأَنْتُمْ حَيَاتِي إِنْ حَيِّتْ وَإِنْ أَمُتْ فَيَا حَبِذَا إِنْ مِتُّ عَبْدَ هَوَاكُمْ

وقال آخر:

وَلَمَّا السَّرُّ فِي مُوسَى يُرَدَّدُهُ، لِيَجْتَلِي حُشْنَ لَيْلَى حِينَ يَشْهَدُهُ
يَبْدُو سَنَاهَا عَلَى وَجْهِ الرُّسُولِ فَيَا لِسَلِّهِ دُرُّ رُسُولٍ حِينَ أُشْهَدُهُ

وقال آخر: لما جلس الحبيب في مقام القُرب، دارت عليه كُؤوس الحب، ثم عَادَ وَهَلَالٌ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَبَشَّرُ ﴿فَأَوْخَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْخَى﴾ [النجم: ١٠] يَلُؤُّ قَلْبَهُ وَأُذُنِيهِ. فلما اجتاز بموسى عليه السلام قال لسان حاله لنبينا ﷺ:

يَا وَارِدًا مِنْ أَهْيَلِ الْحَيِّ يُخْبِرُنِي عَنْ حَيْرَتِي سَنَفِ الْأَسْمَاعِ بِالْحَبِيرِ
نَاشِدُكَ اللَّـهَ يَا رَاوِي حَدِيثِهِمْ حَدَّثَ فَقَدْ نَابَ سَمْعِي الْيَوْمَ عَنْ بَصِيرِي
فَأَجَابَ لِسَانُ حَالِ نَبِينَا ﷺ:

وَلَقَدْ تَخَلَّوْتُ مَعَ الْحَبِيبِ وَبَيْنَنَا سِرٌّ أَرَقُّ مِنَ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى
وَأَبَاعَ طَرْفِي نَظْرَةً أَمَلْتُهَا فَعَدَوْتُ مَعْرُوفًا وَكُنْتُ مُنْكَرًا

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

التنبيه الخامس والمائة: قوله فلما جاوزت نادى مناد: «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»، من أقوى ما يُستدلُّ به على أن الله تبارك وتعالى كلَّم نبيه ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة.

التنبيه السادس والمائة: ظاهر سياق حديث شريك أن موسى هو الذي قال للنبي ﷺ: «فاهبط باسم الله»، لأنه ذكر عقب قوله ﷺ: «قد والله استحييت من ربي مما أختلف إليه»، قال: «فاهبط»، وليس كذلك بل الذي قال له «اهبط باسم الله» جبريل، وبذلك جزم الدأودي .

التنبيه السابع والمائة: قال السهيلي: «فإن قيل: «كيف استباح النبي ﷺ شرب الماء الذي في القَدَح وهو منك لغيره، وأملاك الكفار لم تكن أبيحت يومئذ ولا دماؤهم؟» فالجواب أن العرب في الجاهلية كان في عُرف العادة عندهم إباحة اللَّبَن لابن السبيل فضلاً عن الماء وكانوا يعهدون بذلك إلى رُعَاتِهِمْ ويشترطونه عليهم عند عَقْدِ إيجارَتِهِمْ أَلَّا يَمْنَعُوا [الرَّسْلَ وَهُوَ] اللَّبَنُ من أَحَدٍ مَرَّ بِهِمْ، فكيف بالماء؟ ولِلْحُكْمِ بِالْعُرْفِ في الشريعة أصولٌ تشهد له وقد ترجم البخاري عليه في كتاب البيوع وخُرج حديث هند بنت عُثْبَةَ وفيه: «خذي ما يكفيك ووليك بالمعروف».

قُلْتُ: وذكر أئمتنا رحمهم الله تعالى في الخصائص أنه ﷺ أُبيح له الطعام والشراب من مالِكهما المحتاج إليهما إذا احتاج ﷺ إليهما فإنه يجب على صاحبهما البذل له ﷺ. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

التنبيه الثامن والمائة: يأتي الكلام على تحبس الشمس في المعجزات.

التنبيه التاسع والمائة: قوله ﷺ: «فجئء بالمسجد وأنا أنظر إليه» إلى آخره كذا في رواية ابن عباس رضي الله عنهما عند الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح، وفي رواية عبد الله بن الفضل عن أبي سلمة عند مسلم قال: «فسألوني عن أشياء لم أثبتها فكَرُّبْتُ كَرَباً لم أكرِب مثله قط، فرفعه الله تعالى لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به». وفي رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «فَجَلَّى اللهُ لي بيت المقدس فَطَفِقْتُ أَخْبِرُهُمْ عن آياته وأنا أنظر إليه». ومعنى «جَلَّى اللهُ» ككشف الحُجُب بيني وبينه حتى رأيته، ويُخْتَمَلُ أن يريد أنه حُجِّلَ إلى أن وُضِعَ بحيث يراه، ثم أُعيد، ويؤيده رواية ابن عباس السابقة، وهذا أبلغ في المعجزات ولا استحالة في ذلك. وقد أخضر عَرُوشٌ بلقيس في أقل من طَرْفَةِ عين. ووقع في حديث أم هانئ عند ابن سعد: «فَحُجِّلَ إِلَيَّ بيت المقدس فَطَفِقْتُ أَخْبِرُهُمْ عن

آياته». فإن ثَبِتَ اختُصِلَ أن يكون المراد أنه مُثَلَّ قريباً كما قيل في حديث: «أُرِيْتُ الجنة والنار» ويؤيد قوله: «حتى جيء بمثاله».

التنبيه العاشر والمائة: مجموع ما خالفت فيه رواية شريك غيره: من المشهور اثنا عشر شيئاً: الأول: كون المعراج قبل البعثة وقَدَّمنا جوابه. الثاني: كونه مناماً وتقدم الكلام على ذلك. الثالث: أمكنة الأنبياء في السموات وقد اتضح أنه لم يضبط منازلهم لكن وافقه الزهري في بعض ما ذكر. الرابع: مخالفته في محل بِيْدرة المنتهى وأنها فوق السماء السابعة، مما لا يعلمه إلا الله تعالى، والمشهور أنها في السابعة أو السادسة كما تقدم. الخامس: مخالفته في التَهَرُّن وهما النيل والفُرات وأن عنصرهما في السماء الدنيا، والمشهور في غير روايته أنهما في السماء السابعة وأنهما تحت سدرة المنتهى وتقدم جوابه السادس: شَقُّ الصُّدْر عند الإسراء وقد وافقه روايةٌ غَيْرُهُ كما تَقَدَّم بِشَطْط ذلك في أبواب صفاته. السابع: ذكر نهر الكوثر في السماء الدنيا، والمشهور في الحديث أنه في الجنة، وتقدم الكلام على ذلك. الثامن: نسبة الدُّنُو والثَّدَلِي إلى الله تعالى، والمشهور أنه جبريل. قال الخطابي: «ليس في هذا الكتاب - يعني صحيح البخاري - أشنع ظاهراً ولا أَمْتَع مذاقاً من هذا - يعني قوله: «ودنا الحَجَّار ربَّ العِزَّة فتَدَلَّى حتى كان منه قاب قَوْسَيْنِ أو أدنى» - فإنه يقتضي تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر وتمييز مكان كل واحد منهما، هذا مع ما في الثَّدَلِي من التشبيه، والتمثيل له بالشيء الذي تَعَلَّق من فوق إلى أسفل. قال: فمن لم يبلغه من هذا الحديث إلا هذا القدر مقطوعاً عن غيره، ولم يعتبره بأول القصة ولا بآخرها اشتبه عليه وجهه ومعناه، وكان قُصَّاراه إما رَدَّ الحديث من أصله وإما الوقوع في التشبيه، وهما خَطَأَن مرغوب عنهما.

«وأما من اعتبر أول الحديث بآخره فإنه يزول عنه الإشكال فإنه مُصَرَّحٌ فيهما بأنه كان رؤيا لقوله في أوله: «وهو نائم» وفي آخره: «استيقظ». وفي بعض الرؤيا مُثَلَّ يُضْرَب لِتَنَاقُلٍ على الوجه الذي يجب أن يُصَرَّف إليه معنى التعبير في مثله، وبعض الرؤيا لا يحتاج إلى ذلك بل يأتي كالمشاهدة».

قال الحافظ: «وهو كما قال ولا التفات إلى من تعقب كلامه بقوله: إن في الحديث الصحيح أن رؤيا الأنبياء وَخِي فلا يحتاج إلى تعبير، لأنه كلام من لم يُنَمِّن النظر في هذا المحل، فإن بعض مرائي الأنبياء يقبل التعبير، فمن ذلك قول بعض الصحابة له ﷺ في رؤيا القميص: «فما أَوْلَتْه يا رسول الله؟» قال: «الدين». وفي رؤيا اللَّبَن قال: «العلم». لكن جَزَم الخطابي بأن ذلك كان مناماً، وهذا مُتَعَقَّب بما قَدَّمناه من ترجيح كونه في اليقظة بالأدلة التي أشرنا إليها.

ثم قال الخطابي مشيراً إلى رفع الحديث من أصله «إن القصة بطولها إنما هي حكاية يحكيها أنس من تلقاء نفسه لم يَغْزُها إلى النبي ﷺ ولا نقلها عنه ولا أضافها إلى قوله، فحاصل الأمر في النقل أنها من جهة الراوي أنس، وأما شريك فإنه كثير التفرد بمناكير الألفاظ التي لا يتابعه عليها سائر الرواة». قال الحافظ: «وما نفاه من أن أنساً لم يُشيد هذه القصة إلى النبي ﷺ لا تأثير له، فأدنى أمره فيها أن تكون مُرْسَل صحابي، فإما أن يكون تَلَقَّاهَا عن النبي ﷺ أو عن صحابي تَلَقَّاهَا عنه. ومثل ما اشتملت عليه لا يُقال بالرأي فيكون لها حُكْم الرفع. ولو كان لما ذكره تأثير لم يُحتمل حديث أحد روى مثل ذلك على الرفع أصلاً وهو خلاف عمل المُحدِّثين قاطبةً فالتعليل بذلك مردود.

ثم قال الخطابي: «إن الذي وقع في هذه الرواية من نسبة التَّدْلِي للمُجَبَّر عز وجل مخالفة لعامة السلف والعلماء وأهل التفسير ومن تقدم منهم ومن تأخر. والذي قيل فيه ثلاثة أقوال: أحدها: دنا جبريل من محمد فتَدَلَّى أي تَقَرَّب منه، وقيل هو على التقديم والتأخير أي تَدَلَّى فدنا لأن التَّدْلِي سبب الدُّنْو. الثاني: تَدَلَّى جبريل بعد الانصباب والاندفاع حتى رآه مُتَدَلِّياً كما رآه مرتفعاً، وذلك من آيات الله حيث أقدره على أن يتدَلَّى في الهواء من غير اعتماد على شيء وتَمَسُّك بشيء. الثالث: دنا جبريل فتَدَلَّى محمد ساجداً لربه شكراً على ما أعطاه من الرُّلْفَى. وقد رُوِيَ هذا الحديث عن أنس رضي الله عنه من غير طريق شريك فلم يذكر هذه الألفاظ الشنيعة، وذلك مما يُقَوِّي الظَّن أنها صادرة من شريك».

قال الحافظ: «قد أخرج البيهقي من طريق الأموي في مغازيه عن محمد بن عمر بن أبي سلمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، قال: «دنا منه ربه»، وهذا سَنَدٌ حَسَنٌ وهو شاهد قوي لرواية شريك. ثم قال الخطابي: «وفي هذا الحديث لفظة أخرى تَفَرَّد بها شريك أيضاً لم يذكرها غيره، وهي قوله: «فَعَلَّأَ بِهِ» يعني جبريل إلى العَجَبَار تعالى، فقال وهو مكائه: «رَبِّ خَفُفْ عَنَّا». قال الخطابي: «والمكان لا ينسب إلى الله تعالى، إنما هو مكان النبي ﷺ في مُقَامِهِ الأول الذي قام فيه قبل هبوطه». قال الحافظ: «وهذا الأخير مُتَعَيِّنٌ وليس في السياق تصريح بإضافة المكان إلى الله تعالى، وأما ما جَزَمَ به من مخالفته للسلف والخلف فقد ذكرنا من واقعه». وقد نقل القرطبي عن ابن عباس أنه قال: «دَنَا الله»، قال القرطبي: «والمعنى دَنَا أَمْرُهُ وَحُكْمُهُ، وَأَصْلُ التَّدْلِي النزول إلى الشيء حتى يَتَقَرَّبَ منه». قال: «وقيل التدلي تَدَلَّى الرُفْرَف لمحمد حتى جلس عليه، ثم دنا محمد من ربه». وقد أزال العلماء إشكاله فقال القاضي: «إضافة الدنْو والقُرْب هنا من الله تعالى أو إلى الله تعالى ليس بِدُنُوٍّ مكان وقُرْب مَدَى ينتهي إليه وإنما دُنُوٌّ

النبي ﷺ من ربه وقُوَّته منه إبانة لعظيم منزلته وتشريف رتبته اعتناء بشأنه وإظهاراً لما لم يؤته أحداً غيره وإشراق أنوار معرفته ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، كما قال جعفر بن محمد: الدُّنُوُّ من الله تعالى لا حدَّ له يَنْتَهِي إِلَيْهِ مَطْمَحُ فَهْمٍ أَوْ مَطَرَحُ وَهْمٍ، ومن العباد بالحدود الغائِية المنتهية إلى غاية».

وقال أيضاً: «انقطعت الكيفية عن الدُّنُوِّ، ألا ترى كيف مُحِجِب جبريل عن دنوه ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه إليه وأزال من قلبه الشك والارتياب أي الذي عَزَا خَاطِرُهُ: هل يغشى حضرة هذا القُرب وينال مواهبه من إنافة وإكرام وشرف وإنعام فأَنْجَحَ اللهُ أُمْنِيَّتَهُ لا الشك في ذلك، إذ كان أَثْبَتَ الناسَ مَعْرِفَةً وإيماناً وَأَشْكَنَهُمْ جَنَاناً وَأَمْلَكَهُمْ طَمَأْنِينَةً وسكناً، وإنما الدُّنُوُّ والقُرب من الله تعالى أو إليه كناية عن جزيل فوائده إليه وجميل عوائده عليه وتَأْنِيسٍ لاستيحاشه بانقطاع الأصوات عنه، وَتَبَسُّطٍ بالمكالمة وإكرامٍ بِشَرَائِفِ مُنِيفَةٍ، يُتَأَوَّلُ فِي دُنُوِّهِ تعالى منه ما يُتَأَوَّلُ بِهِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «يَنْزُلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ»^(١)، على أحد الوجوه من أن نزوله تعالى إنما هو نزول إفضال وإجمال وقبول توبة وإحسان بمعرفة وإشفاق».

وقال الواسطي: «مَنْ تَوَهَّم أَنَّهُ بِنَفْسِهِ دَنَا فَقَدْ جَعَلَ ثَمَّ مَسَافَةً وَلَا مَسَافَةَ لاسْتِحَالَتِهَا بَلْ كُلَّمَا دَنَا بِنَفْسِهِ مِنَ الْحَقِّ تَذَلَّى بُغْدًا، يعني كلما قُرب منه نزل بساحة البُغْد كناية عن نُفْيِهِمَا جميعاً أو عن إدراك حقيقته إذ لا يدركها أحد، ولا دُنُوٌّ لِلْحَقِّ ولا بُعْد، لاستحالتيهما. وأما قوله تعالى: «فإني قريب» فتُمَثِّلُ لِكَمَالِ عِلْمِهِ وإجابةً لتعالیه عن القُرب مكاناً. وَيُتَأَوَّلُ فِي الدُّنُوِّ مَا يُتَأَوَّلُ فِي قَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ حكايةً عن رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا»، وهو تمثيل يُقَرَّبُ المعنى للأفهام، أي من تَقَرَّبَ إِلَى طَاعَتِي جَازِيَتُهُ بِأَضْعَافٍ مَا تَقَرَّبَ بِهِ إِلَيَّ. «وَمَنْ أَتَانِي يَمِيشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً»، أي سَبَقَتْهُ بِجَزَائِهِ، فهو أَقْرَبُ بِالْإِجَابَةِ وَالْقَبُولِ، وإتيان بإحسان، وتعجيل المأمول، ثواباً مُضَاعَفًا على حَسَبِ مَا تَقَرَّبَ بِهِ، وقد سبق به طريق المشاكلة فسَمَّاهُ تَقَرُّبًا».

التاسع: تصريحه بأن امتناعه ﷺ من الرجوع إلى سؤال رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي طَلَبِ التَّخْفِيفِ كَانَ عِنْدَ الْخَامِسَةِ، ومقتضى رواية ثابت أنه كان بعد السابعة. العاشر: قوله: «فَعَلَا بِهِ الْجَبَّارُ»، وهو مكانه تقدم ما فيه. الحادي عشر: رجوعه بعد الحُخْس، والمشهور في الأحاديث أن موسى أمره بالرجوع بعد أن انتهى التَّخْفِيفُ إِلَى خَمْسٍ فلم يرجع. الثاني عشر: زيادة ذِكْرِ «التُّور» بالثناء المُتَنَّة فِي الطُّبُسْت، فإنه قال: «أَتَيْتُ بِطُبُسْتٍ مِنْ دَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ

(١) أخرجه البخاري ٢٩/٣ (١١٤٥) ومسلم ٥٢١/١ (١٦٨ - ٧٥٨).

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

ذَهَبَ»، فيَحْتَمَلُ أَنَّهُ طَسَّتْ صَغِيرٌ دَاخِلَ طَسَّتْ كَبِيرٌ لَثَلًا يَتَبَدَّدُ مِنْهُ شَيْءٌ فَيَكُونُ فِي الْكَبِيرِ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَوَايَةُ شَرِيكَ أَنَّهُمْ غَسَلُوهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ فَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا فِيهِ مَاءُ زَمْزَمَ وَالْآخَرُ هُوَ الْمَحْشُو بِالْإِيمَانِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ التَّوَرُّظُ ظَرْفُ الْمَاءِ وَالْإِيمَانِ وَالطُّسَّتْ لَمَّا يُصَبَّ فِيهِ عِنْدَ الْغُسْلِ صَيَانَةٌ لَهُ عَنِ التَّبَدُّدِ فِي الْأَرْضِ وَجَرِيًّا لَهُ عَلَى الْعَادَةِ فِي الطُّسَّتِ وَمَا يَوْضَعُ فِيهِ الْمَاءُ.

التبئية الحادي عشر والمائة: في بيان غريب ما تقدم:

«بينما»: الأصل «بَيْنَ» فَأُشْبِعَتْ الْفَتْحَةُ فَصَارَتْ أَلْفًا وَزِيدَتْ الْمِيمُ فَيَقَالُ: «بَيْنَا» و«بينما». قَالَ فِي النِّهَايَةِ: وَهِيَ ظَرْفٌ زَمَانٍ بِمَعْنَى الْمُفَاجَأَةِ، وَقَالَ فِي الْمَطَالَعِ: «بَيْنَا أَنَا» و«بينما أَنَا» مِنَ الْبَيْنِ الَّذِي هُوَ الْوَضْعُ أَيْ أَنَا مُتَّصِلٌ بِفَعْلٍ كَذَا.

«الحِجْرُ»، بِكَسْرِ الْحَاءِ وَسُكُونِ الْحِيمِ وَهُوَ هُنَا حَطِيمٌ مَكَّةَ وَهُوَ الْمُدَارُ عَلَيْهِ بِالْبِنَاءِ مِنْ جِهَةِ الْمِيزَابِ وَسُمِّيَ حِجْرًا لِأَنَّهُ لَحْجَرٌ عَنْهُ بِحِيطَانِهِ وَحَطِيمًا لِأَنَّهُ لَحْطِيمٌ جِدَارُهُ عَنْ مَسَاوَةِ الْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ ظَاهِرٌ قَوْلُهُ: «بَيْنَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ»، وَرَبَّمَا قَالَ: «فِي الْحِجْرِ»، وَالشُّكُّ مِنْ قِتَادَةِ وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ: «لَعَلَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَكَى لَهُمْ قِصَّةَ الْمَعْرَاجِ فَقَبَّرَ بِالْحَطِيمِ تَارَةً وَبِالْحِجْرِ أُخْرَى». وَقِيلَ: الْحَطِيمُ غَيْرُ الْحِجْرِ، وَهُوَ مَا بَيْنَ الْمَقَامِ إِلَى الْبَابِ، وَقِيلَ: مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ وَزَمْزَمَ وَالْحَجَرِ، وَالرَّوَايَةُ شَكُّ أَنَّهُ سَمِعَ فِي الْحَطِيمِ، أَوْ فِي الْحِجْرِ.

«أَوْسَطُهُمْ» خَيْرُهُمْ. «الثُّغْرَةُ»^(١) بَضْمُ الْمَثَلَةِ وَسُكُونُ الْمَعْجَمَةِ الْمَوْضِعِ الْمُنْخَفِضِ بَيْنَ الثَّرْوَتَيْنِ، إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِهِ أَيْ شِغْرَتِهِ بِكَسْرِ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ أَيْ شَعْرِ الْعَانَةِ. وَفِي رَوَايَةٍ: «فَشَقُّ جَبْرِيلَ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبْيِهِ وَهِيَ بَفَتْحِ اللَّامِ وَتَشْدِيدِ الْمَوْحِدَةِ مَوْضِعِ الْقَلَادَةِ مِنَ الصَّدْرِ، وَفِي رَوَايَةٍ «إِلَى ثُنْيَيْهِ» بَضْمُ الْمَثَلَةِ وَتَشْدِيدُ النَّوْنِ أَيْ مَا بَيْنَ سُرَّتِهِ إِلَى عَاتَتِهِ. وَفِي رَوَايَةٍ: «مَنْ قَصَبَتْهُ بِفَتْحِ الْقَافِ وَتَشْدِيدِ الصَّادِ الْمَهْمَلَةِ أَيْ رَأْسَ صَدْرِهِ، وَفِي رَوَايَةٍ: «فَرَجَ صَدْرِي» وَمَعْنَى الرِّوَايَاتِ وَاحِدٌ.

«الطُّسَّتْ»^(٢) بِفَتْحِ الطَّاءِ وَسُكُونِ السَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ، وَإِعْجَازُهَا لَيْسَ بَلْخَنَ، بَلْ لُغَةٌ صَرَّحَ بِهَا صَاحِبُ الْقَامُوسِ فِيهِ وَفِي كِتَابِ: تَخْيِيرِ الْمُوشَّيْنِ فِيمَا يُقَالُ بِالسَّيْنِ وَالشَّيْنِ، وَبِمَثْنَاةٍ وَقَدْ تُحَذَفُ وَهُوَ الْأَكْثَرُ وَإِتْيَانُهَا لُغَةً طَيِّعًا، وَأَخْطَأَ مَنْ أَنْكَرَهَا، وَتُدْعَمُ السَّيْنُ فِي التَّاءِ بَعْدَ قَلْبِهَا فَيَقَالُ طَسَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ وَجَمْعُهَا طَسَّاسٌ وَطَسُوسٌ وَطَسُوتٌ.

(١) انظر الوسيط ٩٧/١.

(٢) الطُّسَّاسُ: جَمْعُ طَسٍّ، وَهُوَ الطُّسْتُ، وَالتَّاءُ فِيهِ بَدَلٌ مِنَ السَّيْنِ، فَجَمِيعٌ عَلَى أَصْلِهِ، وَيُجْمَعُ عَلَى طَسُوسٍ أَيْضًا. انظر الثَّنَائَةَ لِابْنِ الْأَثِيرِ ١٢٤/٣، وَالْمَعْجَمُ الْوَسِيطُ ٣٦٥١/٣.

«اختلف إليه»: تَرَدَّد.

«ممتلىء» بالتذكير على معنى الإناء، وفي رواية: «مملوءة»، بالتأنيث أي الطُبْتُ، وفي رواية «مَحْشُوًّا» بالنصب وأُغْرِبَ بأنه حال من الضمير في الجار والمجرور، وفي رواية «مَحْشُوًّا»، وفي رواية شريك: بَطَّشْتُ من ذهب بمشاة فوقية ويأتي لهذا مزيد بيان.

«إيماناً» منصوب على التمييز «وحكمة» معطوف عليه.

قال ابن أبي جهمزة: وفي هذا الحديث أن الحكمة ليس بعد الإيمان أَجَلَ منها، ولذلك قُرِئَتْ به، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقد اختلف في تفسير الحكمة فقل إنها العِلْمُ الْمُشْتَمِلُ على معرفة الله تعالى مع نفاذ البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضيئه، والحكيم من حاز ذلك، قال النووي: «هذا ما صَفَّا لنا من أقوال كثيرة»، انتهى. وقد تُطْلِقُ الحكمة على القرآن وهو مُشْتَمِلٌ على ذلك كله، وعلى النبوة كذلك، وقد تُطْلَقُ على العلم فقط ونحو ذلك.

قال الحافظ: «وَأَصَحُّ ما قيل فيها إنها وضع الشيء في محله، أو الفهم في كتاب الله، وعلى التفسير الثاني قد توجد الحكمة دون الإيمان وقد لا توجد، وعلى الأول قد يتلازمان لأن الإيمان يدل على الحكمة..»

«دَائَةً أبيض» إنما قال أبيض ولم يقل بيضاء لأنه أعاده على المعنى أي مركوب أو بُرَاق.

«مُسْرَجاً مُلْجَماً» حالان من البُرَاق.

«الحافر»^(١) أحد حوافر الدَّائَةِ سُمِّيَ بذلك لِخَفَرِهِ الأرض لشدة وَطْئِهِ عليها.

«الطَّرَف» بسكون الراء وبالفاء النظر.

«مُضْطَرِبِ الْأُذُنَيْنِ» أي طويلهما والطاء بَدَلٌ من التاء.

«يُخْفِزُ»^(٢) بهما رَجْلَيْهِ بمشاة تحتية مفتوحة فحاء مهملة ساكنة ففاء مكسورة قال في النهاية: الحَفَرُ الحَثُّ والإعجال.

«عُزِفَ»^(٣) الفَرَسُ بِضَمِّ العين المهملة وبالفاء الشَّعْرُ الثَّابِتُ في مُحَدِّبِ رَقَبَتِهِ.

«الْأَطْلَافُ» جمع ظُلْفٍ بكسر الظاء المعجمة المُشَاةُ وهو من الشَّاءِ والبقَرُ كَالظُّفْرِ

للإنسان.

(١) انظر لسان العرب ٩٢٥/٢.

(٢) انظر اللسان ٩٢٦/٢.

(٣) انظر المعجم الوسيط ٥٩٥/٢.

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

«صَرَّتْ بِأُذُنَيْهَا» أَيِ جَمَعَتْ بَيْنَهُمَا وَأَصْلُ الصَّرِّ الْجَمْعُ وَالشَّدَّ إِتْمَالُهُ فِي النِّهَايَةِ وَفِي الصَّحَاحِ: الصَّرَّةُ الشَّدَّةُ مِنْ كَرْبٍ وَغَيْرِهِ.

«أَرْفَضَ» جَرَى وَسَالَ.

«عَرَقًا» مَنْصُوبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ مِنَ الْفَاعِلِ وَلِذَا وَزَدَ مُخَفَّفًا وَالْمَعْنَى فَتَبَّرَهُ مِنَ الْإِسْتِصْعَابِ وَعَرَقَ مِنْ خَجَلِ الْعِتَابِ فَوَثَبَ.

«الزُّمَامُ» بِالْكَسْرِ الْجَقُودُ.

«طَائِبَةٌ»^(١) مِنْ أَسْمَاءِ الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ.

«يَهْوِي بِهِ» يُشْرِعُ السَّيْرَ.

«مَدَّيْنِ» بِفَتْحِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَفَتْحِ الْمُثَنَاءِ التَّحْتِيَةِ بَلَدٌ بِالشَّامِ تَلْقَاءُ عَزَّةَ.

«طُورِ سَيْنَاءَ»: الطُّورُ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَسَيْنَاءُ بِكَسْرِ السَّيْنِ اسْمٌ لِلْبُقْعَةِ.

«بَيْتُ لَحْمٍ» بِلَامٍ مَفْتُوحَةٍ فَحَاءَ [مَهْمَلَةٍ] سَاكِنَةٌ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى الشَّامِ تَلْقَاءُ بَيْتِ الْمَقْدَسِ.

«الْعِفْرِيَّةُ» مِنَ الْجِنَّ الْعَارِمِ الْخَبِيثِ وَيَسْتَعْمَلُ فِي الْإِنْسَانِ اسْتِعَارَةَ الشَّيْطَانِ لَهُ.

«الشُّغْلَةُ» مِنَ النَّارِ بِالضَّمِّ وَهِيَ شَبْهُ الْجَذْوَةِ، وَالْجَذْوَةُ مُثَلَّثَةُ الْجِيمِ الْجَمْرَةُ.

«خَرَّ لَفِيهِ» أَيِ عَلَى فَمِهِ.

«الْكَلِمَاتُ الثَّامَنَاتُ» أَيِ الْكَامِلَةُ فَلَا يَدْخُلُهَا نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ، وَقِيلَ النَّافِعَةُ الشَّافِيَّةُ.

لَا يُجَاوِزُهُنَّ أَيِ لَا يَتَعَدَّاهُنَّ.

«الْبَرِّ» بِفَتْحِ الْبَاءِ التَّثْنِيَّةِ.

«الْفَاجِرُ» الْمَائِلُ عَنِ الْحَقِّ.

«ذَرَأَ» خَلَقَ.

«طَوَارِقُ اللَّيْلِ»^(٢) حَوَادِثُهُ الَّتِي تَأْتِي لَيْلًا.

«الْمَاشِطَةُ» اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ مَشَطَ الشَّعْرَ يَمْشُطُهُ وَيَمْشِطُهُ بِضَمِّ الْمَعْجَمَةِ وَكَسَرِهَا مَشَطًا

سَرَّحَهُ، وَالتَّثْقِيلُ مِبَالِغَةٌ.

«الْمُشَطُّ» بِضَمِّ الْمِيمِ وَإِسْكَانِ الشَّيْنِ وَمَعَ ضَمِّهَا أَيْضًا، وَبِكَسْرِ الْمِيمِ مَعَ إِسْكَانِ الشَّيْنِ،

وَيُقَالُ مِشَطٌ بِمِيمَيْنِ الْأُولَى مَكْسُورَةٌ.

(١) اللسان ٢٧٣٤/٤.

(٢) المعجم الوسيط ٥٥٦/٢.

و«تَعَسَّ» بفتح العين وتكسر، تَعَسَّ بِسُكُونِ الْعَيْنِ وَفَتْحِهَا لَمْ يَشْتَقِلْ مِنْ عَشْرَتِهِ وَأَتَعَسَهُ اللَّهُ فَتَعَسَ وَيُقَالُ تَعَسَ أَكْبَّ عَلَى وَجْهِهِ.

«راودوا»^(١) المرأة أي راجعوها.

«فَأَمَرَ بِبَقْرَةٍ مِنْ نَحَاسٍ» بياءين مُؤَخَّذَتَيْنِ فِقَافٍ، قَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُوسَى الْمَدِينِيُّ: الَّذِي يَقَعُ لِي فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ شَيْئاً مَصُوغاً عَلَى صُورَةِ الْبَقْرَةِ، وَلَكِنَّهُ رُبَّمَا كَانَتْ قِدْراً كَبِيرَةً وَاسِعَةً فَسَمَّاهَا بَقْرَةً مَأْخُوذاً مِنَ التَّبَيُّرِ التَّوْشِعِ أَوْ كَانَ شَيْئاً يَسَعُ بَقْرَةً تَامَّةً يَتَوَابَلُهَا فَسَمَّيْتُ بِذَلِكَ.

وَلَا تَقَاعَسِي»^(٢) أَي لَا تَتَأَخَّرِي وَتَتَوَقَّفِي عَنِ الْفَائِثِ فِي النَّارِ، يُقَالُ تَقَاعَسَ عَنِ الْأَمْرِ إِذَا تَأَخَّرَ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ فِيهِ.

«تَوَضَّعَ»^(٣) رُؤُوسَهُمْ تُشَدِّخُ كَذَا فِي الْغَرِيبِ. وَقَالَ فِي الْمَصْبَاحِ: تُكْثَرُ.
«لَا يَقَرُّ» لَا يَشْكُنُ.

«يَسْرَحُونَ» يُقَالُ سَرَحْتُ الْإِبِلَ بِهِ سَرْحاً وَسَرُوحاً أَيْضاً رَعَتْ.

«الضَّرِيعُ»^(٤): الشُّوكُ الْيَاسِ أَوْ نَبَاتٌ أَحْمَرُ مُنْتِنِ الرِّيحِ يَرْمِي بِهِ الْبَحْرُ.

«الزُّقُومُ» ثَمَرُ شَجَرٍ كَرِيهِ الطَّعْمِ قَلِيلٌ لَا يُعْرَفُ فِي شَجَرِ الدُّنْيَا وَإِنَّمَا هِيَ فِي النَّارِ يَكْرَهُ أَهْلُ النَّارِ أَكْلَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُرُّوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصَّافَات: ٦٤، ٦٥] «رَضِفَ جَهَنَّمَ» بفتح الراء وسكون الضاد المعجمة بعدها فاء، هِيَ الْحِجَارَةُ الْمُخْتَمَّةُ وَاحِدُهَا رَضْفَةٌ^(٥).

«النَّيِّءُ» بِالْهَمْزِ وَزَانٍ جَمَلٌ كُلُّ شَيْءٍ شَأْنُهُ أَنْ يُعَالَجَ بِشَيْءٍ أَوْ طَبَخَ لَمْ يَنْضَجْ يُقَالُ لَحْمٌ نَيِّءٌ وَالْإِدْغَامُ وَالْإِبْدَالُ عَامِّيٌّ.

«الْجُمُحْرُ» بضم الجيم وسكون الحاء المهملة وهو الثُّقْبُ الْمُسْتَدِيرُ.

«النُّورُ» بِالْمِثْلَةِ مَعْرُوفٌ..

«الْغُرْفُ» بِالضَّمِّ جَمْعُ غُرْفَةٍ وَهِيَ الْعُلْيَةُ.

(١) زَاوَدَهُ عَلَى الْأَمْرِ: طَلَبَ مِنْهُ فَعَلَهُ. انظر المعجم الوسيط ٣٨٢/١.

(٢) اللسان ٣٦٩٢/٥.

(٣) الرُّضَخُ: الشَّدَخُ. وَالرُّضَخُ أَيْضاً: اللَّذْقُ وَالْكَسْرُ. انظر النهاية لابن الأثير ٢٢٩/٢.

(٤) المفردات في غريب القرآن ٢٩٥.

(٥) رَضْفَةٌ: كَوَاةٌ بِالرُّضْفَةِ، الرُّضْفَةُ: الْحَجَرُ الْمُخْتَمِيُّ بِالنَّارِ أَوْ الشَّمْسِ. انظر المعجم الوسيط ٣٥١/١.

«الإِسْتَبْرَق» ثخين الديباج.

«السُّنْدُس» رقيق الديباج.

«العُبْقَرِي» قيل هو الديباج وقيل البُسْطُ المَوْشِيَّة وقيل الطنافس الثَّخَان والأصل في العُبْقَرِي فيما قيل إن عُبْقَر قرية يسكنها الجِنّ فيما يَزْعُمُونَ فكلما يَزُون شيئاً فائقاً غريباً مما يَصْغُب عمله وَيَدِقُّ أو شيئاً عظيماً في نفسه نسبه إليها.

«اللؤلؤ»^(١) بهزتين وَيَحْذِفُهُمَا وَيُثَابِتُ الأولى دون الثانية.

«المَرْجَان»: قال الأزهري وغيره هو صغار اللؤلؤ وقال الطرطوشي هو عروق حُمْر تطلع من البحر كأصابع الكَفِّ، قال: وهكذا شاهدناه بمغارب الأرض كثيراً.

«الأَكواب»: جمع كوب: إناء لا غُرُوزَ له ولا خُرُطُوم.

«الصُّحُوف»، جمع صَحْفَةٌ إناء كالقصة.

«الشَّعِير» النار، وَسَعَرْتُهَا وأسعرتها أوقدتها.

«الدُّجَال»: أصل الدُّجَل الحَلْط يقال رَجُلٌ دَجَلٌ^(٢) إذا لَبَسَ وَمَوَّهَ والدُّجَالُ فَعَالٌ من أبنية المبالغة أي يُكْثِرُ من الكذب والتلبس وهو الذي يظهر في آخر الزمان.

«قَيْلَمَانِيَّاً»^(٣): قال في النهاية القَيْلَمُ العظيم الجُثَّة والقَيْلَمُ الأمر العظيم والياء زائدة والقَيْلَمَانِي منسوب إليه بزيادة الألف والنون للمبالغة.

«أَقْمَر» أي شديد البياض.

«هَيْجَان»: شَدِيد البياض.

«دُرِّي»: مُضِيء.

«عبد العُزَّى بن قَطَن»: بفتح القاف والمهملة وهو ابن عمرو بن جُنْدَب/ بن سعيد بن عابد بن مالك بن المُصْطَلِق. هلك في الجاهلية، ووقع عند ابن مَرْدَوَيْه: قَطَن بن عبد العُزَّى وهو وَهْمٌ من بعض رواته.

«القَمُود» بفتح العين المهملة وضَمِّ الميم معروف وجمعه عُمود بضمتين وأَعْمِدَة بكسر الميم وفتح الدال.

(١) اللؤلؤ: الدرّ، وهو يتكون في الأصْدَافِ من زواصب أو جوامد ضَلْبَة لماعة مستديرة في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرخويات. واحده: لؤلؤة. انظر المعجم الوسيط ٨١٧/٢.

(٢) لسان العرب ١٣٣٠/٢.

(٣) انظر اللسان ٣٤٦٧/٥.

«حاسرة» اسم فاعل من حَسَرَ.

«يا أَوَّل حاشر» تقدم الكلام عليهما في الأسماء النبوية.

«الكثيب»^(١): التُّلَّ من الرمل.

«طَوَّال»: يقال رجلٌ طَوِيلٌ فَإِنْ زَادَ قِيلَ طَوَّالٌ بِالضَّمِّ مُخَفَّفًا، فَإِنْ زَادَ قِيلَ طَوَّالٌ مُشَدَّدًا.

«شَعْرٌ سَبِطٌ»^(٢) بفتح شين وكسب وتيسكن، ثم قد يُكْسَر، مُسْتَوَسِلٌ، وَجِشْتُمْ سَبِطٌ كَكَيْفٍ وَيُسَكِّنُ حَسَنُ الْقَدِّ وَالِاسْتَوَاءِ.

«آدَمَ»: بِالْمَدِّ أَسْمَرُ.

«أَزْدٌ» بفتح الهمزة وسكون الزاي وبالذال المهملة.

«شَنْوَةٌ» بفتح الشين المعجمة وضَمَّ النون وسكون الواو وبعدها همزة ثم تاء تأنيث حَيٍّ من اليَمَنِ يُنْسَبُونَ إِلَى شَنْوَةٍ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكٍ بْنِ نَصْرِ بْنِ الْأَزْدِ، يُنْسَبُونَ إِلَى شَنْوَةٍ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكٍ بْنِ نَصْرِ بْنِ الْأَزْدِ، وَلَقَبَ شَنْوَةٌ لِشَنَانٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ وَالنَّسَبِ إِلَيْهِ شَنْوِيٌّ بِالْهَمْزِ بَعْدَ الْوَائِ وَشَنْأِيٌّ^(٣) بِالْهَمْزِ بَغِيرِ الْوَائِ. وَقَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: «أَزْدٌ شَنْوَةٌ»: مِنْ قَوْلِكَ: رَجُلٌ فِيهِ شَنْوَةٌ أَيْ تَقَرُّزٌ. وَالتَّقَرُّزُ بِقَافٍ وَزَايَيْنِ التَّبَاعِدِ مِنْ الْأَدْنَى. قَالَ الدَّوَادِي: «رَجَالُ الْأَزْدِ مَعْرُوفُونَ بِالطُّوْلِ». وَفِي رِوَايَةٍ: كَانُوا مِنْ رَجَالِ الزُّطِ^(٤) وَهُمْ مَعْرُوفُونَ بِالطُّوْلِ وَالْأَذْمَةِ. «يُعَاتَبُ رَبُّهُ» وَفِي رِوَايَةٍ سَبِغَتْ صَوْتًا وَتَذْمِيرًا فَقُلْتُ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى. قُلْتُ: أَعَلَى رَبُّهُ؟ قَالَ: نَعَمْ قَدْ عَرَفَ حِدَّتَهُ. قَالَ الْخَلِيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: حَقِيقَةُ الْعِتَابِ مَخَاطِبَةُ الْإِدْلَالِ وَمَذَاكِرَةُ الْمُوجِدَةِ، وَالتَّذْمِيرُ بِذَالٍ مَعْجَمَةٍ مِثْلِهِ.

«الْحِذَّةُ» بِكسر الحاء المهملة.

«الشَّرْحُ» بِسین فراء فحاء مهملات وزن كُتِبَ جَمْعُ سَرْحَةٍ وَهِيَ الشَّجَرَةُ الْعَظِيمَةُ.

«مَجْلُهَا» بِضَمِّ الْجِيمِ مَعْظَمُهَا.

«مِثْلُ الزَّرَابِيِّ» بِزاي فراء كما رأيته بخط جماعة منهم الذهبي في تاريخ الإسلام والهيتمي في مجمع الزوائد والشيخ في تفسيره جَمْعُ زَرْبِيَّةٍ بِثَلَاثِ الزَّاي وَهِيَ الطَّنْفَسَةُ بِكسر الطاء والفاء وبضمهما وبكسر الطاء وفتح الفاء وَهِيَ الْبَسَاطُ الَّذِي لَهُ خَمَلٌ رَقِيقٌ، وَرَأَيْتُ بِخَطِ

(١) انظر المعجم الوسيط ٧٧٧/٢.

(٢) انظر اللسان ١٩٢٢/٣.

(٣) اللسان ٢٣٣٥/٤.

(٤) انظر لسان العرب ١٨٣٠/٣.

بعض المحدثين الروابي براء فواو وأظنه تصحيحاً وإن كان قريب المعنى.

«الحُخَّة» بحاء مضمومة الفُخَّة.

«الشُّخَّة» بضم السين المهملة وسكون الخاء المعجمة أي الحارَّة.

«بالْحَلْقَة» بإسكان اللام ويجوز فَتْحُهَا وبالفتح جمعها خَلَقَ وَحَلَقَات وبالإسكان خلق وخلق بفتح الحاء وكسرها.

«يربط به الأنبياء»: قال النووي: كذا في الأصول «به» بضمير المُذَكَّر أعاده على معنى الخلقة وهو الشيء. قال صاحب التحرير: المراد خلقة باب مسجد بيت المقدس.

«الخليل والأئمة والقانت» سَبَقَ بيانها في أسمائه الشريفة «المحارب»^(١)، قال في أنوار التنزيل هي قصور حصينة ومساكن شريفة سُمِّيَتْ بذلك لأنه يُدَبُّ عنها ويُحَارَب عليها.

«التمائيل» الصور ولم تكن مُخَوِّمة في زمنه.

«الِحِقَان» جمع حِقْفَة بفتح الجيم وسكون الفاء وهي القصعة الكبيرة، قال ابن الجوزي في زاد المسير: قال المُفَسِّرُونَ كانوا يصنعون القِصَاع الكبيرة كحياض الإبل يجتمع على الواحدة منها ألف رجل.

«الجوابي» جمع جابية وهي الحوض الكبير يُجَبَّى فيه الماء أي يجتمع.

«الأَكْمَه» الذي يولد أعمى.

«كافَّة للناس»: تَقَدَّمَ في الأسماء الشريفة.

«قدور راسيات»: أي ثوابت قال في زاد المسير: وكانت القدور كالجبال لا تتحرك من أماكنها يأكل من القَدْر ألف رجل.

«الْفُرْقَان» من أسماء القرآن وسُمِّيَ به لأنه فَرَّقَ به بين الحق والباطل.

«التَّبْيَان»: بكسر أوله البيان الشافي.

«وَسَطًا»: خياراً عَذْلًا: «الأُولُون» في دخول الجَنَّة «والآخرون» في الوجود.

«الْوِزْر»: يأتي الكلام عليه في أبواب عصمته.

«ورفع لي ذِكْرِي»: يأتي ذِكْرُهُ في الخصائص.

«جعلني فاتحاً»: أي لأبواب الإيمان والهداية إلى صراط مستقيم ولبیان أسباب التوفيق وما استعلق من العلم أو هو من الفتح بمعنى الحُكْم فجعله حاكماً في خَلْقِهِ فانفتح ما انغلق

(١) انظر المفردات في غريب القرآن ١١٢.

بين الخصمين بأحيائه الحق وإيضاحه وإماتته الباطل وإدحاضه.

«خاتماً للنبيين»: أي آخرهم تبعاً.

«وَجَبَّتْهَا» سقطها.

«النَّجْد» ما ارتفع من الأرض.

«يُنْشِلُونَ» يُشْرِعُونَ.

«تُجْزَمُ الأرض»^(١). من ريحهم بالجيم تُثْنِ من جِيْفِهِم.

«الحامل المُتَبِّم» أي التي دنا ولادها.

«الفِطْرَة»: بالكسر الهذلي والاستقامة.

«المِعْرَاج» لُغَةُ السَّلْم وجمعه معارج ومعاريج. قال الأَخْفَشُ إن شئت جعلت الواحد مَعْرَج ومَعْرَج بفتح الميم وكسرها، فعلى هذا يكون الجمع لِمَعْرَج بفتح الميم مَعَارِيج بياء ومَعْرَج بكسرها مَعَارِيج بغير ياء، والمعارج المصاعد، ويُقال عَرَجَ في السلم بفتح الراء يَفْرُج بضمها عروجا إذا ارتقى وعَرَجَ أيضاً بفتح الراء إذا غمز من شيء أصابه في رجله فَخَمَعَ^(٢) ومَشَى مَشْيَةً الأعراج إذا لم يكن يخلقةً أصلية، فإذا كان يخلقةً يقال عَرَج بكسر الراء يَفْرُج بفتحها.

«طَمَح»^(٣) بَصَرُهُ إِلَى الشيء ارتفع وكل طامح مرتفع.

«المِرْقَاة»^(٤) موضع الرُّقْيِ ويجوز فيها فتح الميم على أنه موضع الارتفاع ويجوز الكسر تشبيهاً باسم الآلة كالمِطْهَرَةِ وأنكر أبو عبيد الكسر.

«مُنْصَبِدٌ بِاللَّوْءِ»: أي يجعل بعضه على بعض.

«مَرْحَباً» بالتثنية: كلمة تقال عند المَسْرَةِ بالقادم ومعناها صادفت رُحْباً أي سَعَةً ويُكنى بذلك عن الانسراح فوضع المَرْحَب موضع الترحيب.

«وَأَهْلَاءُ» أي أَتَيْتْ أَهْلًا فاستأنس ولا تَشْتَوِجُشْ.

«حَيَّاهُ الله» أي أَبْقَاهُ، من الحياة وقيل سَلَّمَ عليه من التحية والسلام وقول الملائكة: «من أخ»، المراد بهذه الأخوة أَخُوَّةُ الإِيمَانِ المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) انظر اللسان ٦١٩/١.

(٢) الخمع: العرج ورجل في رجل نخم أي عرج. انظر ترتيب القاموس ١١٠/٢.

(٣) انظر لسان العرب ٢٧٠٤/٣.

(٤) اللسان ١٧١١/٣.

«الخليفة»: تقدم في أسمائه الشريفة..

«نعم المجيء جاء»: المخصوص بالمدح محذوف وفيه تقديم وتأخير، والأصل: فَلَنُفَعَمَ
المجيء مجيئه.

«خَلَصًا وَصَلًا».

«عَلَّيْنِ»: اسم لأعلى الجنة.

«سَجِّين^(١)»: موضع فيه كتاب الفُجَّار.

«الْأَشْوَدُ»^(٢) جمع سَوَادٍ ويجمع على أَساوِد. قال النووي: قال أهل اللغة: السواد
الشخص وقيل السواد الجماعة. وقال في التقريب: السواد نقيض البياض وكل شخص من متاع
أَوْ حيوان والجمع أَشْوَدٌ ثم أَساود.

«نَسَمَ»^(٣) نبهه يثون فثنين مهملة مفتوحين جمع نَسَمَةٌ بالتحريك وهي الروح.

«قَبَلَ يمينه» بكسر القاف وفتح المُؤَخَّدة أي جهة يمينه.

«هَنِيئَةً»^(٤) تصغير هَنَءٍ يعني شيئاً يسيراً والهاء بدل من الياء والأصل هُنَيْئَةٌ.

«الْأَخْوَانُ»^(٥) جمع ثَوَانٍ بكسر المعجمة وَضَمُّهَا الذي يؤكل عليه. وقال الخليل: هو
المائدة.

«أَزْوَجَ» تَغَيَّرَتْ راحته.

«المائدة» الخوان إذا كان عليه طعام.

«جِيفَ»^(٦) بكسر الجيم وفتح الياء جمع جِيْفَةٍ وهي المَيْتَةُ من الدوابِّ والماشية
سُمِّيت بذلك لِتَغْيَرِ مَا فِي بَجْوَفِهَا.

«السَّابِلَةُ»: أبناء السبيل المختلفة.

«يَضِجُونَ» بالجيم يصيحون من الفزع.

«الْمَسَّ» الجنون.

(١) المفردات ٢٢٥.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٤٦١/١.

(٣) انظر المعجم الوسيط ٩١٩/٢.

(٤) انظر المعجم الوسيط ٩٩٨/٢.

(٥) المصباح المنير ١٨٥.

(٦) المعجم الوسيط ١٥٠/١.

«المشافير» بالسعجمة جمع مِشْفَر بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الفاء وهي من البعير كَالْمَجْحَفَلَة من الفرس وهي من ذي الحافر كالشَّفَة للإنسان.

«ثُدْيَهَن» بضم الثُّمَلثة وكسر المهملة جمع ثُدْي يُذَكَّر ويُؤنَّث فيقال هو الثدي وهي الثدي ويُجَمَع أيضاً على أَثْد وزن أَكَل وربما جُمع على ثَدَاء مثل سَهْم وسِهَام.

«الهُمَّازُون» الذين يغتابون الناس من غير مواجهة:

«الهُمَّازُون»^(١) العَيَّابُون.

«بابني الخالة»: قال ابن السُّكَيْت: «يقال أبناء خالة ولا يقال أبناء عَمَّة، ويقال أبناء عَمِّ ولا يقال أبناء خال». قال الحافظ: «وسبب ذلك أَنَّ ابْنِي الخالة أُمُّ كل منهما خالة الآخر، بخلاف ابني العَمَّة.

«عيسى»: اسم أعجمي غير منصرف، للعلمية والعجمة، وقيل مشتق من العيس وهو البياض، والأَغْيَس الجميل الأبيض وجَعْفُه عَيْسَى فقيل له عَيْسَى لبياض لونه. وقيل من القَوْس وهو السياسة وأصله غَوْسًا فَقُلَيْبَت الواو ياءً لكسر ما قبلها، وقيل له عيسى لأنه سَاسَ نَفْسَه بالطاعة، وقلبه بالمحبة. وأُثْمِتَه بالدعوة إلى رَبِّ العِزَّة.

«مريم»: اسم أعجمي فيه ثلاث عِلَل: العلمية والتأنيث المعنوي والعُجْمَة، وقيل معناه بالبراني: خادمة الله، وقيل أمة الله، وقيل المُحَرَّرَة.

«يحيى»: مشتق من الحياة وأُطْلِق عليه هذا الاسم لأنه وُلِدَ في حال شيخوخة والديه، وغالباً لا يطول عُمر من كان كذلك، فوجه الله تعالى هذا الاسم طمأننة لقلبيهما أَنَّ يَحْيَا كثيراً، وأنه وَلَدَ يحيى بالمحبة، حيَّ الجسم بالطاعة حيَّ اللسان بالذكر حيَّ السِّرَّ بالمعرفة معصوماً من الزَّلَّة.

«زكريا»: اسم أعجمي يُقْصَر ويُكْثَر ويُقْرَأ بهما في السبعة، ويقال له زكريا بتخفيف الياء وتشديدها. وزكريا كان عالماً بالتوراة والإنجيل وكان إمام علماء بيت المقدس ومُقَدِّمَهُم وكان من تلاميذه أربعة آلاف عالم قارئ للتوراة: «الثَّغَر» مُحَرَّكاً جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة أو إلى سبعة. «وإذا هو بعيسى جَعْد»^(٢): قال النووي: قال العلماء: «المراد بالجعد هنا جعودة الجسم وهو اجتماعه واكتنازه وليس المراد جعودة الشَّعر».

«مربع» هو الرجل الذي بين الرجلَيْن في القامة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الحقيقير.

(١) المفردات في غريب القرآن ٤٥٤.

(٢) اللسان ٦٣٢/١.

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

«سَبَطَ الرَّأْسَ» بفتح الباء وكسرها ويجوز إسكان الباء مع فتح السين ومع كسرها على التخفيف أي مُشْتَرِيسِل الشَّعْر وليس فيه تكسير.

«الديماس»^(١) بكسر الدال المهملة وتُفْتَح وَيُاسْكَان المثناة التحتية، فَسَّرَهُ الراوي وهو عبد الرَّزَّاق بِالْحَمَام، والمعروف عند أهل اللغة أن الديماس هنا هو الشَّرْب، والمراد من ذلك وَضْفُهُ بِصَفَاءِ اللَّوْنِ وَنَضَارَةِ الْجَسْمِ وَكَثْرَةِ مَاءِ الْوَجْهِ حَتَّى كَأَنَّهُ كَانَ فِي مَوْضِعِ كَيْنٍ فَخَرَجَ مِنْهُ وَهُوَ عَرِيقَان. قال السهيلي: وفي هذه الصفة من صفات عيسى عليه السلام إشارة إلى الرِّيِّ وَالْخَضْبِ فِي أَيَّامِهِ إِذَا أُهْيطَ إِلَى الْأَرْضِ.

«عروة بن مسعود» أحد السادة الصحابة رضي الله عنهم.

«يوسف»: اسم أعجمي وثُلُثُ سِتْنَةٍ وهو غير منصرف للعلمية والعُجْمَة.

«إِذْ هُوَ قَدْ أُعْطِيَ» بدل من الأول بدل اشتمال «الشَّطْرُ»: قال بعض شُرَاحِ الْمَصَابِيح: المراد به هنا النصف، وقيل: البعض لأنَّ الشَّطْرَ كما يراد به نصف الشيء قد يراد به بعضه مطلقاً. قال الطيبي: وقد يُرَادُ بِهِ الْجِهَةُ أَيْضاً نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ لِشَطْرِ السَّجْدِ السَّخَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] أَيْ جِهَتِهِ «مِنَ الْحُسْنِ» أَيْ مَسْحَةً مِنْهُ كَمَا يُقَالُ عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةٌ مُلْكٍ وَمَسْحَةٌ جَمَالٍ أَيْ أَثَرٌ ظَاهِرٌ وَلَا يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْمَدْحِ.

«هارون»: اسم أعجمي لِلْعَلَمِيَّةِ وَالْعَجْمَةِ وَقِيلَ مُعَرَّبٌ.

«أَزَوْنٌ» وَالْأَزَنُ النَّشَاطُ سُمِّيَ بِهِ لِنَشَاطِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ قِيلَ هَارُونُ كَمَا قَالُوا فِي إِيَّاكَ هَيَّاكَ.

«الرَّهْقُطُ» بِسُكُونِ الْهَاءِ وَفَتْحِهَا مَا دُونَ الْعَشْرَةِ مِنَ الرِّجَالِ لَيْسَ فِيهِمْ امْرَأَةٌ أَوْ مِنْهَا إِلَى الْأَرْبَعِينَ.

«القوم»: جماعة الرجل عند الأكثرين.

«الْأَفْقُ» بِضَمِّتَيْنِ وَجَمْعُهَا آفَاقٌ بِالْمَدِّ أَيْ النُّوَاهِي.

«مُوسَى» اسم مُعَرَّبٌ أَصْلُهُ «مو» وهو بالعبرانية الماء، «وَالسَّاءُ» وَهُوَ الشَّجَرُ، سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ وَجِدَ فِي الْمَاءِ وَالشَّجَرِ الَّذِي كَانَ حَوْلَ قَصْرِ فِرْعَوْنَ.

«آدَمُ أَسْمَرُ طَوَالٌ»: تَقَدَّمَ.

«بِجَاوَزَةٍ»: عَدَاهُ وَفَارَقَهُ.

«نَزْعُم»: يقول:

«إسرائيل» يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه عبد الله وقيل صفوة الله وقيل سيّر الله لأنه أُسرى به لما هاجر، وفيه لغات أشهرها بياض بعد الهمزة ثم لام، وقُرئ إسرائيل بلا هَمْز.

«الشَّيْط»^(١): بياض شعر الرأس يخالطه سواده والرجل أَشْمَطَ وَقَوْمٌ شُمْطَانٌ مثل أسود وشودان وقد شَيطَ بالكسر شَمْطًا والمرأة شَعْطَاء.

«مُشْنِدٌ ظَهَرَهُ»، مرفوع على أنه خَبَرٌ مبتدأ محذوف أي هو مُشْنِدٌ ظَهَرَهُ، وفي رواية: مُشْنِدًا ظَهَرَهُ بالنَّضْبِ على الحال. فائدة: نقل في النور أن السلطان الملك برقوق سأل عن البيت المعمور من أي شيء هو؟ قال بعض الحاضرين بأنه من عقيق، ونقله عن بعض التفاسير. «الغُرَّاس» بكسر الغين المعجمة وبالسین المهملّة يقال غَرَسْتُ الشجرة غَرْسًا من باب ضَرَبَ، والشجر مغروس ويطلق عليه أيضًا غَرْسٌ وغِرَّاسٌ بالكسر فاعل بمعنى مفعول مثل كِتَابٍ وبَسَاطٍ.

«القراطيس» جمع قُرْطَاسٍ ما يُكْتَبُ فيه، وكسر القاف فيه أشهر من ضَمِّها، والقُرْطَاسُ وِزَانٌ جعفر فيه لغة.

«وَلَمْ يَلْسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» أي لم يَخْلِطُوهُ بِشِرْكٍ.

«ثِيَابٌ رُمْدٌ»^(٢) أي لون الرماد.

«آخِرُ ما عليهم» بضم الراء وفتحها، فالرفع على تقدير: ذلك آخِرُ ما عليهم، والنَّضْبُ على الظرف، قال القاضي: والرفع أجود.

«الجلّس» - بحاء مهملة مكسورة وبفتح فلام ساكنة فسین مهملة. كساء يلي ظهر البعير القَتَب، والمراد أنه لِيَتَصَاغَرَهُ واختفائه عن هَيْبَةِ الله تعالى أَشْبَهَ الْجُلُوسِ المختفي تحت القَتَب، ولهذا في بعض الروايات قال «لا طيء» وهو بهمة في آخره. ويُقال لَطِئٌ بالأرض لَطُوءً لَصِيقٌ بها، وهو شدة معرفته بها، ولهذا قال ﷺ: «فَعَزَفْتُ فَضَّلَ عِلْمُهُ بِاللَّهِ عَلَيَّ». قال بعضهم: وإنما قال ذلك ﷺ تواضعاً إذ لا يَخْلَافُ أَنَّهُ أَفْضَلُ خَلْقِي اللهُ، وإنما الخلاف في غيره من الملائكة. قلت: أو قال ذلك قبل أن يصل إلى ما وصل إليه.

«أَسِنَّ المَاءِ»^(٣) بفتح السين وكسرها يَأْسِنُ مُثَلَّثَةً [أَسْنًا وَأَسْنًا] وَأُسُونًا تَغَيَّرَ فلم يُشْرَبْ فهو

أَسَن.

(١) لسان العرب ٢٣٢٧/٣.

(٢) لسان العرب ١٧٢٧/٣.

(٣) المفردات في غريب القرآن ١٨.

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

«الثَّبَق»: بفتح النون وكسر الباء وتُسَكَّن ثمرة السُّدْرَة.

«قِلَالٌ هَجَرَ»: قال الخطَّابي بكسر القاف جمع قُلَّة بالضَّم وهي الجِرار الواحدة تسع قِرْبَتَيْن أو أكثر وهَجَرَ بفتح الهاء والجيم من قُرَى المدينة ولا تنصرف للتأنيث والعلمية، ويجوز الصَّرْف، يريد أن ثمر السُّدْرَة في الكِبَر مثل القِلَال، وكانت معروفة عند المُحَاطِبِينَ، ولذلك وقع التمثيل بها. تنبيه: سُيْل: هل ثَمَر سِدْرَة المنتهى كالثمار المأكولة في أنه يزول ويُعَقَّبُهُ غيره؟ وهل الزائل يؤكل أو يسقط؟.

«وإذا وَرَّثَهَا مثل آذان الفيلة»: بكسر الفاء وفتح المثناة التحتية بعدها لام، وحكى الزركشي والبرماوي^(١) فتح الفاء وقال الدماميني: إنه سهو، والفيلة جمع فيل، وفي رواية: مثل آذان الفيول وهي جمع فيل أيضاً، ولا منافاة بين ذلك وبين قوله: «تكاد الورقة تُغَطِّي هذه الأمة»، لأن المراد التشبيه في الشكل خاصة لا في الكِبَر ولا في الأُخْسَن.

«أَنهَار»: جمع نَهَر يسكون الهاء وفتحها.

«غَشِيَهَا ألوان»: علاها ولأَبْسَهَا، «فلما غشيها من الله ما غشيها» هو كقوله تعالى: «إِذْ يَغْشَى السُّدْرَة مَا يَغْشَى» [النجم: ١٦] في إرادة الإبهام للتفخيم والتهويل، وإن كان معلوماً كما في قوله تعالى: «فَغَشِيَهُمْ مِنْ آلِيَمٍ مَا غَشِيَهُمْ» [طه: ٧٨] في حق فِرْعَوْنَ. وقوله: فَرَّاش بيان له.

«الزُّبُجْد»^(٢) بزاي مفتوحة وبالذال المهملة جوهر معروف ويقال هو الزمرد^(٣).

«يَلُودُ بها»: يطوف بها.

«الْفَرَّاش» بالفتح جمع فَرَّاشَة: الطير الذي يُلْقِي نفسه في ضوء السُّراج.

(١) محمد بن عبد الدائم بن موسى، الشيخ الإمام، العالم المفسن، شمس الدين أبو عبد الله العسقلاني الأصل البرماوي، المصري. مولده في ذي القعدة سنة ثلاث وستين وسبع مائة، وأخذ عن الشيخ سراج الدين البلقيني، والشيخ سراج الدين بن الملحق، والشيخ زين الدين العراقي، والشيخ عز الدين بن جماعة، ومجد الدين البرماوي، والقاضي بدر الدين ابن أبي البقاء. وكان في صغره في خدمته، وسمع الكثير وقبّل وتميَّز في الفقه والنحو، والحديث والأصول وكانت معرفته بهذه العلوم الثلاثة أكثر من معرفته بالفقه. وكتب شرحاً على البخاري لم يبينه، وجمع شرحاً على العمدة سماه جمع العمدة لفهم العمدة، وأقرّده أسماء رجال العمدة. وله الألفية في الأصول وشرحها، أخذ أكثره من البحر للزركشي، وله منظومة أخرى في الفرائض وغير ذلك، ومات في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة. الطبقات لابن قاضي شهبة ١٠١/٤، ١٠٢، ١٠٣، وإنباء الغمر ١٦١/٨، والأعلام ٦٠/٧، وشذرات الذهب ٢٠١/٧.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٣٨٨/١.

(٣) الزُّمُرُودُ: سحجر أخضر اللون، شديد الخضرة. شفاف، وأشدُّه خضرة أجوده وأضفاه جوهرًا، وأحدثه زُمُرْدَة. انظر المعجم الوسيط ٤٠١/١.

«خُلِّي على سبيلك»: بالبناء للمفعول، وهو صفة لقوله: أي أحد من أمتك تُرك على طريقك.

«الفَرَات»: بضم الفاء وبالتاء المبسوطة وَضْلاً وَوَقْفاً. ومن قال بالهاء فقد أخطأ.

«الغُنْصُر»: بضم العين والصاد المهملتين بينهما نون ساكنة، وهو الأصل.

«السلسبيل» اسم عَيْنٍ في الجنة.

«الكُوثر»: يأتي الكلام عليه في الخصائص وفي أبواب حشره ﷺ.

«يَطْرِد»: يَجْرِي.

«عَجَاجاً^(١)»: كثير الماء كأنه يَبْعُجُ من كثرة وصوت تَقَعُّقِهِ.

«الخيام» جمع خَيْم كَفَرُوخ وفراخ وسَهْم وسِهَام وهو مثل الخَيْمة، وهو بيت تنبيه العرب من عيدان الشجر. قال ابن الأعرابي: لا تكون الخَيْمة عند العرب من ثياب بل من أربعة أعواد ثم يُشَقَّف بالثُّمَام بضم الثاء [المثلثة] وهو نَبْتُ ضِعِيف له خُوص أو شبيه بالخوص، والجمع خَيْمَات وَخَيْم وزان بَيْضَات وَقَطْع.

«الرُّضْرَاضُ^(٢)»: بفتح الراء وسكون الهمزة المعجمة، وبأخرى مثلها: الخصَى الصغار.

«الرُّمُودُ» بزاي فميم فَرَاء مُشْدَدَّة مضمومات فذال معجمة، هو الزيرجد.

«خَبْياً لَكَ»: بفتح الخاء المعجمة والمُؤَحَّدَة مهموزاً أي ادَّخَره لَكَ رَبُّكَ.

«ابن حارثة»: يأتي الكلام عليه في الموالي.

«جَنَابُذ اللُّوْلُو^(٣)»: بجيم فنون مفتوحتين فألف فباء مُوَحَّدَة فذال معجمة وهي القِباب

واللُّوْلُو تقدم.

«القيعان»: جمع قاع وهو المكان المستوي من الأرض، وَيُجْمَع أيضاً على أَقْوَع

وأقواع.

«الْوَجَسُ^(٤)» بفتح الواو وسكون الجيم بعدها سين مهملة: الصوت الخَفِيُّ.

«الدَّلَاءُ» بكسر الدال جمع دَلْو.

«لِللَّيْلِ الْمُقْتَبَةِ» أي التي بَأَقْتَابِهَا^(٥).

(١) انظر اللسان ٢٨١٣/٤.

(٢) اللسان ١٦٥٩/٣.

(٣) انظر لسان العرب ٦٩٥/١.

(٤) انظر المعجم الوسيط ١٠١٤/٢.

(٥) الْقَتَبُ: اللؤلؤ الصغير على قدر سنام البعير. والجمع أَقْتَاب. انظر المعجم الوسيط ٧٢٠/٢.

«مِسْكٌ أَذْفَرُ»: يقال ذَفِرَ الشيء بالكسر ذَفَرًا بالتحريك اشتدت رائحته طيبةً كانت أو كريهة.

«عَاقِرُ الثَّاقَةِ»: اسمه قَدَار بضم القاف والتخفيف، ابن سالف بالسين المهملة والفاء.
«غَشِيهَا أَنْوَارُ الْخَلَائِقِ»: إضافة تشريف كما يقال بيت الله.
«الْغِرْبَانِ» جمع غُرَاب.
«ظَهَرَ» ارتفع.

«شُبُوح»^(١) قُدُوس^(٢) بضم أولهما أي نُزّه عن سوء وعيب.

«لِمُسْتَوًى»: بفتح الواو وبالتنوين: مَوْضِعٌ مُشْرِفٌ [يُسْتَوًى عليه] أي يصعد وقيل المكان المستوى، [وفي بعض الأصول]: «بمستوى» بمؤخدة بدل اللام وعليهما فالباء ظَرْفِيَّةٌ. وعلى رواية اللام: قال التوربشتي: اللام للعلّة أو ارتفعت لاستعلاء مستوى أو لرؤيته أو لمطالعةه ويُحتمل أن يكون مُتَعَلِّقًا بِالْمَضْدَرِ أي ظَهَرَتْ ظهور المستوى، ويُحتمل أن تكون بمعنى «إلى».

قال تعالى: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي إليها، والمعنى: إِنِّي أَقَمْتُ مقاماً بَلَغْتُ فيه من رفعة المَحَلِّ إلى حيث أَطْلَعْتُ على الكوائن فظهر لي ما يُزَاد من أَمْرِ الله وتدبيره في خَلْقِهِ، وهذا هو الْمُنتَهَى الذي لَا تَقْدَمُ فيه لأحدٍ عليه.

وقال الطيبي: «لام» الغَرْضُ و«إلى» الغَايَةُ يلتقيان في المعنى، قال في الكشاف في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]: «فَإِنْ قُلْتُ: يجري لأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَيَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، أَمْ مِنْ تَعَاقُبِ الْحَرْفَيْنِ؟ قُلْتُ: كَلَّا وَلَا يَسْتَلِكُ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ إِلَّا بَلِيدُ الطَّبَعِ ضَبِيقُ الْعَطَنِ»^(٣)، ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص كُلُّ واحدٍ منهما ملائم لصِحَّةِ الغَرْضِ، لأن قَوْلَكَ: يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى معناه يَبْلُغُهُ وَيُنْتَهِي إِلَيْهِ، وَقَوْلَكَ: يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، تُرِيدُ: يَجْرِي لِإِدْرَاكِ أَجَلٍ مُّسَمًّى.

فالحاصل أن «اللام» و«إلى»، وإن كان معناهما أعني الإدراك والانتهاء مُتَلَاثِمًا لصِحَّةِ الغَرْضِ فليستا متعاقبتين، فمعنى: ظَهَرْتُ إِلَىٰ مَسْتَوًى بَلَغْتُهُ وَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، ومعنى «لِمُسْتَوًى» هو أَدْرَكْتُ مُسْتَوًى.

(١) لسان العرب ١٩١٤/٣.

(٢) اللسان ٣٥٥٠/٥.

(٣) يقال: فلان وابتغى العطن: واسع الصبر والحيلة عند الشدائد، سخي كثير المال. وضده: ضيق العطن. انظر المعجم الوسيط ٦١٥/٢.

«صريف الأقلام» بفتح الصاد المهملة وكسر الراء وبالفاء وهو صوت حركتها وجريانها على المكتوب فيه من أقضية الله تعالى ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ وما شاء الله تعالى الذي يعلم بكيفيتها.

«العرش»: السرير الذي للملك كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وثبت في الشرح أنه له قوائم تحملها الملائكة، وهو فوق الجنة والجنة فوق السموات، وفي الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات، وقد بسطت الكلام عليه في «الجواهر النفائس في تحبير كتاب العرائس».

«لسانه رطب من ذكر الله»: أي لم يجف.

«قلبه معلق بالمساجد» كأنه رطب بها أو حجباً من العلاقة وهي المحبة.

«لم يشتسب لوالديه» أي لم يعرضهما للشب وهو الشتم ولا جرهما إليه بأن يشتب أباه غيره فيتشب [هذا] أباه مجازة له. وقد جاء مفسراً في الحديث الآخر: «أن من أكبر الكبائر أن يشتب الرجل والديه». قيل: وكيف يشتب والديه؟ قال: «يشتب أباه الرجل فيتشب أباه وأمه». «لبيك»: هو من التلبية وهي إجابة المتأدي أي إجابتي لك يا رب وهو مأخوذ من لب بالمكان وألب إذا أقام به، وألب على كذا إذا لم يفارقه، ولم يشتغل إلا على لفظ التلبية في معنى التكرير أي إجابة بعد إجابة، وهو منصوب على المصدر بعامل لا يظهر كأنك قلت: ألب إلباً بعد إلباب.

«يحفظون الكتاب المجيد»: يتلونه حفظاً.

«أناجيلهم»: الأناجيل جمع إنجيل وهو اسم كتاب الله تعالى المنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام.

«سبعاً من المثاني»: هي كل سورة دون الطوال ودون المائتين.

«الرغب» القزح وسيأتي الكلام على ذلك في الخصائص.

«قواتح الكلم» وفي رواية مفاتيحه ومفاتيحه وهما جمع مفتاح ومفتاح وهما في الأصل كل ما يتوصل به إلى استخراج المغلقات التي يتعذر الوصول إليها، فأخبر أنه أوتي مفاتيح الكلم، وهو ما يشر الله له من البلاغة والفصاحة والوصول إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم ومحاسن العبارات التي أغلقت على غيره وتعدرت.

«خواتمه» به فُصل الخطاب.

«جوامعه»: أي من الكلمات القليلة الألفاظ، الكثيرة المعاني.

«المَحْطِط»: بكسر الميم وسكون الْمُعْجَمَةِ وفتح التحتية وبإطاء المهمل ما خيط به الثوب.

«الْمَلَكُ الْقَائِد»: بقال فألف فهمة فдал مهمل: الْمُقَدِّم.

«الْعُرَّ»^(١): بالغين المعجمة: جمع أَعْرَ، وهو هنا الأبيض الوجه من نور الضوء.

«الْمُحْجَلِينَ»^(٢): البيض الوجوه والرجلين من نور الضوء.

«الْمُفْجِحَات»: بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء المهمل: الذنوب العظام الكبار التي تهلك أصحابها وتقودهم إلى النار، والتَّقَحُّمُ الوقوع في المهالك. قال النووي: والمراد بغُفْرانها أَلَّا يُخْلَدَ في النار بخلاف المشركين، وليس المراد، أَلَّا يُعَذَّبَ أيضاً فقد عُْلِمَ من نصوص الشَّرْعِ وإجْمَاعِ أَهْلِ الشُّنَّةِ إثبات عذاب الْعَصَاةِ مِنَ الْمُؤَخِّدِينَ.

«فَسَلَّةٌ»: أصله فاسألَه لأنه أَمَرُ من السؤال، فثقلت حركة الهمة إلى السين فحذفت واستغني عن همة الوصل فحذفت.

«خَبَرْتُ»^(٣) النَّاسَ وَيَلُوثُ بَنِي إِسْرَائِيلَ: بمعنى جَرَّبْتُهُمْ ومارسْتُهُمْ وعالجتهم من المعالجة مثل المزاولة، ولقيت الشَّدَّةَ فيما رأيْتُ منهم من نبذ الطاعة.

«أَنْ نَعَمْ»: بفتح الهمة في «أَنْ» والتخفيف وهي الْمُفْسَّرَةُ، فهي من معناه مثل «أَيَّ»، وهي بالتخفيف. فلم يزل يرجع بين موسى وبين رَبِّهِ: أَي بينه وبين مناجاة ربه.

«وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ»: أَي أراد فَعَلَهَا مُصَمِّماً بقلبه.

«كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ»: أَي كُتِبَتْ لَهُ الحسنة التي هَمَّ بها ولم يعملها كتابةً واحدة لأنَّ الهمَّ بسببها أو بسبب الخير خَيْرٌ، فوضع حَسَنَةً موضع المصدر، وكذا إن عملها كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَأَنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً واحدة.

«لَبَّيْكَ»: تقدم.

«وَسَعْدَيْكَ»: أَي إِسْعَادًا لَكَ بعد إِسْعَادِ أَوْ مساعدة بعد مساعدة، والأصل في الإِسْعَادِ والمساعدة مُتَابَعَةُ الْعَبْدِ أَمْرَ رَبِّهِ ورضاه.

«وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا»: أَي إِذَا لَمْ يُصَمِّمْ عَلَى الْفِعْلِ كَمَا هُوَ مذكور في محله.

(١) انظر لسان العرب ٣٢٣٤/٥ والمعجم الوسيط ٦٤٨/٢.

(٢) لسان العرب ٧٨٨/٢، ٧٨٩.

(٣) المعجم الوسيط ٢١٤/١.

«ولكن أرضى وأسلم»: قال الطيبي: فإن قلت: وقوع هذا بين كلامين متغايرين مغنى عما وجهه هاهنا؟ قلت: تقدير الكلام: حتى استحييت فلا أرجع، فإنني إذا رجعت كنت غير راض ولا مُسلم، ولكنني أرضى.

«برهح»: بفتح الهاء وهو الغبار وفي قوله: «ثم ركب مُنْصَرِفًا»، دليل على أنه حالة الغرُوج لم يكن راكباً.

«اليعير»: بكسر العين المهملة - الإبل بأحمالها..

«الغِرَازَتَانِ»^(١): تنثية غرارة وهي الجوالق بجيم مضمومة فواو فألف فلام فقفاف: الخروج.

«قُطِعَ»^(٢): بقاء فضاء معجمة مشالة أي اشتد عليه وهابته.

«بين ظَهْرَانَيْنَا»: بفتح النون أي: بيننا.

المُطْعِم بن عدي: بضم الميم وسكون الطاء وكسر العين مُخَفَّفًا، هلك كافراً.

«مُضْعِداً شهراً»: بميم مضمومة فصاد ساكنة فعَيْن مكسورة فдал مهملات.

«مُشْحدراً شهراً»: بميم مضمومة فنون ساكنة فحاء فдал مكسورة مهملتين فراء «جَبْهَتَهُ»: بفتح الجيم والمُؤَحَّدَة والهاء والفوقية أي استقبلته بالمكروه، وأصله من إصابة الجَبْهَة يُقال جبهته إذا أَصَبَتْ جبهته.

«كَزَبَ كَرْبًا»: وفي رواية: فَكُرِبَتْ كَرْبَةً - بضم الكاف وسكون الراء - ما كُرِبَتْ مثله قط والضمير في مثله يعود على معنى الكَرْبَة وهو الكَرْب أو الغَم أو الشَّيْء.

«الزُّوْحَاءُ»^(٣): براء مفتوحة فواو ساكنة فحاء مهملة فألف ممدودة: بَلَدٌ من عمل الفُرْع^(٤) على نحو أربعين ميلاً من المدينة ويقال على ستة وثلاثين ميلاً، ويقال على ثلاثين ميلاً.

التنعيم^(٥): من الحِلْ بينه وبين سَرِف على فرسخين من مكة نحو المدينة.

(١) لسان العرب ٣٢٦/٥.

(٢) المعجم الوسيط ٦٩٥/٢.

(٣) الزُّوْحَاء من الفُرْع، على نحو أربعين ميلاً من المدينة. وفي كتاب مسلم بن الحجاج: على ستة وثلاثين ميلاً. وفي كتاب ابن أبي شيبة: على ثلاثين ميلاً وهو الموضع الذي نزل به تُبَّع حين رجع من قتال أهل المدينة يريد مكة، فأقام بها وأراح فسأها الروحاء.

(٤) الفُرْع بالضم، ثم السكون، وآخره عين مهملة. وقيل: بضمين: قرية من نواحي الرَبَذَة، عن يسار الشقياء، بينها وبين المدينة ثمانية برد، على طريق مكة. وقيل: أربع ليال: قرية.

(٥) التنعيم: موضع بمكة خارج الحرم، هو أدنى الحِلِّ إليها، على طريق المدينة، منه يحرم المكثون بالغرّة، به مساجد مبنية بين سَرِف ومكة. قال: على فرسخين من مكة. وقيل: أربعة. قلت: لا خلاف بين الناس أنه على ثلاثة أميال من مكة.

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

«يَقْدُمُهَا»: بضم الدال في المضارع ويفتحها في الماضي، يقال: قَدَمَ يَقْدُمُ قُدْماً، بضم القاف في المصدر، أي تَقَدَّمَ. قال تعالى: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [هود: ٦].
«جَمَلٌ أَوْق»^(١): أي في لونه بياض إلى سواد، قاله الأَصْمَعِيُّ. وقال أبو زيد: يَضْرِبُ لونه إلى الحُضْرَةِ.
«أَهْرَيْتُ»^(٢): انْكَبْتُ.

«في غُدُوَّة»: بضم الغين المعجمة: ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس.
«الرَّوْحَةُ»^(٣): اسم للوقت من الزوال إلى الليل.

هذا ما يَسَّرَ الله تَعَالَى من الكلام على بعض فوائد القصة وشرح مشكلها، وقد جَمَعْتُ جزءاً في بيان تخريج أحاديثها سَمَّيْتُهُ: «الإفراج في تخريج أحاديث قصة المعراج»، فمن تَوَقَّفَ في ورود لفظ فليراجع ذلك الجزء يظفر بمعرفة مَنْ رواه من الأئمة، والله سبحانه وتعالى المُتَوَقِّفُ للصواب.

(١) اللسان ٤٨١٦/٦، ٤٨١٧.

(٢) انظر لسان العرب ٤٦٥٤/٦.

(٣) انظر المعجم الوسيط ٣٨٠/١، ٣٨١.

الباب العاشر

في صلاة جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وكيف فرضت الصلاة

روى الإمامان الشافعي وأحمد، وأبو داود والترمذي وحسنه، والطحاوي^(١) والبيهقي عن ابن عباس، والإمام أحمد والنسائي والدارقطني والحاكم وصححه وأقره الذهبي عن جابر بن عبد الله، والدارقطني والحاكم والإسماعيلي في معجمه، وابن السككن في صحيحه عن أنس، والدارقطني بإسناد جيّد عن ابن عمر، والنسائي والحاكم وصححه وأقره الذهبي عن أبي هريرة وإسحاق بن راهويه عن أبي مسعود الأنصاري، وعبد الرزاق وإسحاق عن أبي سعيد الخدري، وإسحاق عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه عن جده عمرو بن حزم رضي الله تعالى عنهم. قال الحافظ في المطالب: إسناده حسن، إلا أن محمد بن عمرو بن حزم لم يسمع من النبي ﷺ ليصبر سنه، فإن كان الضمير في جده يعود على أبي بكر توقّف على سماع أبي بكر من عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِنِي جبريل عند البيت» - ولفظ الشافعي والطحاوي والبيهقي: «عند باب البيت» - «مَرَّتَيْنِ فَصَلَّى بِي الظُّهْر حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، وَكَانَتْ قَدَرُ الشَّرَاكِ، وَصَلَّى بِي الْعَصْرَ حِينَ صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ، وَصَلَّى بِي الْمَغْرِبَ حِينَ أَفْطَرَ الصَّائِمَ، وَصَلَّى بِي الْعِشَاءَ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، وَصَلَّى بِي الْفَجْرَ حِينَ حَرَّمَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ عَلَى الصَّائِمِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ صَلَّى بِي الظُّهْرَ حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثْلَهُ» - وفي لفظ: «كَوْنَتِ الْعَصْرُ بِالْأَمْسِ» - «وَصَلَّى بِي الْعَصْرَ حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثْلَيْهِ، وَصَلَّى بِي الْمَغْرِبَ حِينَ أَفْطَرَ الصَّائِمَ، وَصَلَّى بِي الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، وَصَلَّى بِي الْفَجْرِ فَاسْفَرَ، ثُمَّ التَفَتَ فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ هَذَا وَقْتُ الْإِنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ، وَالْوَقْتُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ^(٢)».

هذا ما وقفت عليه في صلاة جبريل بالنبي ﷺ بالصلوات الخمس، وأما عدد ركعاتها حين فُرِضَتْ فمن الناس من ذهب إلى أنها فُرِضَتْ أَوَّلَ مَا فُرِضَتْ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، ثم زيد في صلاة الحضر فأُكْمِلَتْ أَرْبَعًا إِلَّا الْمَغْرِبَ وَأُقِلَّتْ صَلَاةُ الشَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ. وروى ذلك عن عائشة رضي الله عنها الشعبي وميمون بن مهران ومحمد بن إسحاق. ومنهم من ذهب إلى أنها

(١) منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي: وإليه انتهت رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر. أخذ العلم عن أبي جعفر بن أبي عمران وعن أبي خازم وغيرهما. وكان شافعيًا يقرأ على أبي إبراهيم المزني فقال له يوماً: والله لا جاء منك شيء، ففضب أبو جعفر من ذلك وانتقل إلى أبي جعفر بن أبي عمران، فلما صنف مختصره قال: رحم الله أبا إبراهيم لو كان حياً لكفر عن يمينه وصنف واختلاف العلماء و «الشروط» و «أحكام القرآن» و «معاني الآثار». ولد سنة ثمان وثلاثين ومائتين ومات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. طبقات الفقهاء للشيروازي ١٤٢.

(٢) أخرجه الشافعي في الأم ٧١/١ وأحمد في المسند ٣٣٣/١ وأبو داود ٢٧٤/١ (٣٩٣) والترمذي ٢٧٨/١ (١٤٩) وابن خزيمة في صحيحه ١٦٨/١ (٣٢٥) والدارقطني ٢٥٨/١ (٦-٩).

في صلاة جبريل بالنبي ﷺ ليلة الإسراء وكيف فرضت الصلاة

فُرضت أول ما فُرضت أربعاً إلا المغرب ففُرضت ثلاثاً والصبح ركعتين، وبه قال الحسن ونافع بن جبير بن مطعم وابن جرير.

ومنهم من ذهب إلى أنها فُرضت في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، يُروى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر أدلة هذه الأقوال والكلام عليها مذكور في المَطبُولَات. وروى الشيخان وابن إسحاق عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «افتُرضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افتُرضت ركعتين ركعتين كل صلاة ثم إن الله أتمها في الحضر أربعاً وأتمها في السفر على فرضها الأول ركعتين».

تنبيهات

الأول: ذكر بعضهم أن المعروف في رواية المواقيت عند البيت - وروى عند باب البيت - وقد علمت أنها رواية الشافعي والطحاوي والبيهقي.

الثاني: المشهور في الأحاديث السابقة الابتداء بالظهر. روى ابن أبي خيثمة في تاريخه عن أحمد بن محمد، حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبي إسحاق عن عثبة بن مسلم عن نافع بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما فُرضت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه جبريل فصلّى به الصبح حين طلع الفجر»، وذكر الحديث. وكذا وقع في رواية الدارقطني وابن حبان في الضعفاء من طريق محبوب بن جهم، وهو ضعيف، وفي رواية أبي هريرة عند النسائي: قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل جاءكم يُعلمكم دينكم»، فصلّى الصبح حين طلع الفجر.

الثالث: قال أبو عمر: لم أجد قولَه «هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك»، إلا في هذا الحديث، يعني رواية ابن عباس، قلت: قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله: ظاهرة يومهم أن هذه الصلوات في هذه الأوقات مشروعة لمن قبله من الأنبياء، وليس كذلك، إنما معناه: هذا وقتك المشروع لك، يعني الوقت الموسع المحدود بطرفين: الأول والآخر، ووقت الأنبياء قبلك، يعني مثله وقت الأنبياء قبلك أي صلاتهم كانت واسعة الوقت وذات طرفين مثل هذا. وإلا فلم تكن هذه الصلوات على هذا الميقات إلا لهذه الأمة خاصة وإن كان غيرهم قد يشاركونهم في بعضها.

وقد روى أبو داود في حديث العشاء: «أعْتَمُوا بهذه الصلاة فإنكم قد فضّلتم بها على سائر الأمم ولم تُصلّها أمة قبلكم وكذا قال أبو الفتح: «يريد بها التوسعة عليهم في أن للوقت أولاً وآخرًا إلا أن الأوقات هي أوقاتهم بعينها».

الرابع: استشكل بعضهم لفظ «عند البيت» بأنه ﷺ كان يستقبل بيت المقدس قبل الهجرة. قلت: ولا إشكال في ذلك لاحتمال أنه ﷺ جعل البيت بينه وبين بيت المقدس، وكذلك رواية: «عند الباب» لا إشكال فيها، إذ لا يلزم في كون الصلاة عند الباب أن تكون الصلاة إليه.

الخامس: قال ابن المنير: «لما أمر الله سبحانه وتعالى جبريل أن يُعَلِّمَ النبي ﷺ الصلاة، كانت هذه فرضاً عليه لأنه أمر بذلك، فكانت صلاة النبي ﷺ صلاة مُفْتَرَضَ خلف مُفْتَرَضَ».

السادس: قال الحربي: «أول ما فرضت الصلاة عليه: ركعتين أول النهار وركعتين آخره بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فَرَضَ رسول الله ﷺ الصلاة ركعتين ركعتين ثم زاد فيها في الحضر». قال أبو عُمر: «ليس في حديث عائشة دليل على صحة ما ذهب إليه الحربي، ولا يوجد هذا في أثر صحيح، بل فيه دليل على أن الصلاة التي فُرضت ركعتين ركعتين هي الصلوات الخمس لأن الإشارة بالألف واللام في «الصلاة» إشارة إلى المعهود». قال الحافظ: «الذي يظهر وبه تُجْمَع الأدلة أن الصلاة فُرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت عُقْبَ الهجرة إلا الصبح كما روى ابن خزيمة وابن جبان والبيهقي من طريق الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فُرضت صلاة السفر والحضر ركعتين ركعتين، فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة واطمأن، زيد في صلاة الحضر ركعتان وثُرِكت صلاة الفجر لطول القراءة وصلاة المغرب لأنها وُثِرَ». انتهى.

ثم بعد أن استقر قَوْضِ الرابعة خُفِّفَ منها في السفر عند نزول الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَجْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُكُمْ الْبَدِينُ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١] قال ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير في شرح مُسْنَدِ الشافعي: إن قَصْرَ الصلاة كان في ربيع الأول من السنة الثانية، وهو مأخوذ مما ذكره غيره أن نزول آية الخوف كان فيها. وقيل قَصْرَ الصلاة كان في ربيع الأول من السنة الأولى ذكره الدولابي وأورده السهيلي بلفظ يعد الهجرة بعام أو بنحوه، وقيل بعد الهجرة بأربعين يوماً. فعلى هذا فالمراد بقول عائشة: فأقرت صلاة السفر باعتبار ما آل إليه الأمر من التخفيف لأنها استمرت منذ فرضت فلا يلزم من ذلك أن القصر عزيمة.

السابع: قال السهيلي: هل هذه الزيادة في الصلاة نسخ أم لا؟ فيقال: أما زيادة ركعتين أو ركعة إلى ما قبلها من الركوع حتى تكون صلاة واحدة فتُسخ، لأن النسخ زَع الحُكْم، وقد

في صلاة جبريل بالنبي ﷺ ليلة الإسراء وكيف فرضت الصلاة

ارتفع حكم الإجزاء^(١) من الركعتين وصار من سَلَّم فيها عامداً مُفْسِداً لها، وإن أراد أن يُتِمَّ صلاته بعد ما سَلَّم عامداً لم يُجْزِهِ إِلَّا أَنْ يَسْتَأْنِفَ الصَّلَاةَ مِنْ أَوَّلِهَا، فَقَدْ ارْتَفَعَ حُكْمُ الْإِجْزَاءِ بِالنَّسْخِ، وَأَمَّا الزِّيَادَةُ فِي عَدَدِ الصَّلَوَاتِ حَتَّى الْمُكْتَحَمِ خَمْساً بَعْدَ مَا كَانَتْ اثْنَتَيْنِ فَسُمِّيَتْ نَسْخاً عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، قَالَ الزِّيَادَةُ عِنْدَهُ نَسْخٌ، وَجُمْهُورُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِنَسْخٍ، وَلَا حَتَّاجُ الْفَرِيقَيْنِ مَوْضِعٌ غَيْرُ هَذَا.

الثامن: في بيان غريب ما سَبَقَ:

«زوال الشمس»: عبارة عن ميلها من جانب الشمال إلى جانب اليمين إذا اسْتَقْبَلَتْ الْقِبْلَةَ.

«الشُّرَاكُ»^(٢): أحد سيور الثُّغُل التي على وجهها وقدره هنا ليس على معنى التحديد.

(١) يقال: أَجْزَأَنِي الشَّيْءُ: أَي تَكْفَانِي، وَتُرْوَى بِالْيَاءِ. انظر النهاية لابن الأثير ٢٦٦/١.

(٢) انظر لسان العرب ٢٢٥٠/٤.

جماع أبواب بدء إسلام الأنصار

الباب الأول

في نسبهم

قال السهيلي رحمه الله تعالى: «الأنصار جُمع ناصر على غير قياس في جُمع فاعل، ولكن على تقدير حذف الألف من ناصر لأنها زائدة، فالاسم على تقدير حذفها ثلاثي، والثلاثي يُجَمَّع على أفعال، وقد قالوا في نخوه صاحب وأصحاب وشاهد وأشهد». وفي الصحاح النصير الناصر، والجُمع أنصار مثل شريف وأشراف، وجُمع الناصر نَصْر مثل صاحب وصخب». انتهى.

ولم يكن «الأنصار» اسماً لهم في الجاهلية بل سَمَّاهم الله تعالى به في كتابه كما سيأتي في الباب بعده.

والأنصار جزان: الأول: بنو الأوس، قال السهيلي: وهو لُغَةُ الْعَطِيَّةِ أَوْ الْعَوْضِ. زاد في الزُّهري: وأوس زَجَرَ لِلْعَنَمِ والبقر، ودخول الألف واللام فيه على حَذِّ دخولها في التَّيْمِ جُمع تَيْمِيٍّ، وهو من باب روميٍّ وروم، ومثل هذا إذا كان عَلَمًا لا تدخله الألف واللام.

والثاني: بنو الخزرج، قال السهيلي: وهو في اللغة الريح الباردة، وقال بعضهم: هي الجُثُوب خاصة، وقال بعضهم في الزهر: الريح الشديدة. والأوس والخزرج ابنا حارثة - بحاء مهملة وئا مثله - ابن ثعلبة العنقاء - بعين مهملة مفتوحة فنون ساكنة فقفاف فهزمة ممدودة، لُقِّبَ به لطول عُثْقِهِ - ابن عمرو مُزَيَّقِيَاء - بهميم مضمومة فزاي مفتوحة فمُثَنَّنَاتٌ تحتية ساكنة، فقفاف مكسورة فمُثَنَّنَاتٌ تحتية فهزمة ممدودة، لُقِّبَ عمرو بذلك لأنه كان من ملوك اليمن، وكان يلبس كل يوم حُلَّتَيْنِ فَيَمَزُجُهُمَا بِالْعَشِيِّ ويكره أن يعود فيهما، ويأنف أن يلبسهما أَحَدٌ غيره، قاله في النور والروض يُزْرَقُ كل يوم حُلَّةٌ بالإفراد - ابن عامر ماء السماء - لأن قومه كانوا إِذَا قَطَعُوا بَتَّ فيهم ماله، فكان يقوم لهم مقام ماء السماء - ابن حارثة - بحاء مهملة ومُثَنَّنَاتٌ، ويُلقَّبُ بِالْعُظْرِيْفِ - بغين معجمة مكسورة فطاء مهملة ساكنة فراء مكسورة وفي آخره فاء، وهو في اللغة السَّيِّدُ وفَزَخَ البازي - ابن امرئ القيس - ويُلقَّبُ: الْبَطْرِيقُ بياء موحدة فطاء مهملة ساكنة وفي آخره قاف - وهو القائد من قُوَادِ الروم وهو مُعَرَّبٌ، والجمع بطارقة، وهو في اللغة السَّيِّدُ من الطَّيْرِ وغيره، وأيضاً الْمُخْتَالُ في مشيه - ابن ثَغَلْبَةَ - ويُلقَّبُ بِالْبُهْلُولِ بياء مُوَحَّدَةٌ مضمومة

وهاء ساكنة وهو في اللغة السيّد - ابن مازن - ويُلقَّب: زاد السّفَر - ابن الأزْد - اسم الأزْد «دِرَا»
 بدال مكسورة فراء مهملتين فألف ممدودة - ابن العَوث - بغين معجمة مفتوحة فواو ساكنة فمثلثة
 - ابن مالك بن زيد بن كهلان - بكاف مفتوحة فهاء ساكنة وآخره نون - ابن سَبَا - يَمَدّ وَيُقَصِّر،
 وَيُضَرِّف ولا يُضَرِّف واسمه عامر وقيل عَبْد شَمْس - ابن يَشْجُب - بِمُثَنَّاة تحتية مفتوحة فشين
 معجمة ساكنة فجيم مضمومة فمُوَحَّدَة، وِزَان يَنْصُر، ولا ينصرف للعلمية - ابن يَغْرُب - بعين
 مهملة وِزَان يَشْجُب - ابن قَحْطَان - بقاف مفتوحة فحاء ساكنة مُهْمَلَتَيْن فنون، والنسبة إليهما
 قحطاني على القياس، ولقبه يَفْطُن - بِمُثَنَّاة تحتية فقاف فطاء مهملة وِزَان يَغْرُب وسُمِّي
 بقحطان لأنه كان أول من قَحَطَ أموال الناس من ملوك العرب واسمه مهزم، ويقال إن قحطان
 كان أول من تكلم بالعربية وهو والد العرب المتعربة وأما إسماعيل فهو والد العرب المستعربة،
 وقيل قحطان أول من قيل له: أَبَيْتَ اللُّغْن، وعم صباحاً، وذهب الزبير بن بَكَّار إلى أن قحطان
 من ذرية إسماعيل عليه السلام وأنه قحطان بن الهَمَيْسَع وتقدم ضَبَطُهُ في النسب النبوي: ابن
 إسماعيل وهو ظاهر قول أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم في قصة هاجر حيث قال وهو
 يخاطب الأنصار: «تلك أُمُّكُمْ يا بني ماء السماء». قال الحافظ: «وهذا هو الراجح في نقدي».
 وبَسَط الكلام على ذلك.

الباب الثاني

في فضلهم وحبهم والوصية بهم والتجاوز عن مسيئتهم والنهي عن بغضهم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤] وقال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وقال تقدَّس اسمه: ﴿إِن يَنْكُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وعن غيلان بن جرير قال: «قلت لأنس: أَرَأَيْتَ اسم الأنصار كنتم تُسمَّون به أم سَمَّاكم الله؟ قال: بل سَمَّانا الله عَزَّوَجَلَّ»، رواه البخاري والنسائي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، يرفعه: «إن الله أَمَدَّنِي بِأَشَدِّ النَّاسِ أَلْسِنًا وَأَذْرَعًا، بَاثِنِي قَيْلَةً: الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ»، رواه الطبراني في الكبير. وعن أبي واقد الليثي قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ فَأَتَاهُ آتٍ فَأَلْتَقَمَ أَذُنَهُ فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَسَارَ الدَّمُ فِي أُسَارِيرِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا رَسُولُ عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ يَتَهَدَّدُنِي فَكَفَانِيهِ اللَّهُ بِالْبَيْتَيْنِ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَاثِنِي قَيْلَةً»، يعني الأنصار، رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

وعن أنس رضي الله عنه قال: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النِّسَاءَ وَالصَّبِيَّانَ مُقْبِلِينَ قَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ غَزَسَ فَمَامَ النَّبِيِّ ﷺ مُمِيلًا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ»، قالها ثلاث مرات. رواه البخاري^(١). وعنه أيضا قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صَبِيٌّ لَهَا فَكَلَّمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَكْمُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»، مَرَّتَيْنِ، رواه الشيخان والنسائي^(٢). وعن البراء بن عازب رضي الله عنه يرفعه قال: قال النبي ﷺ: «الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنِينَ وَلَا يَتَغَضَّبُهُمْ إِلَّا مُنَافِقِينَ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ»^(٣)، رواه الستة خلا أبو داود. وعن أنس رضي الله عنه يرفعه: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ»^(٤). رواه الشيخان والنسائي. وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِبَعْضِ سَكِكِ الْمَدِينَةِ فَإِذَا بِجَوَارٍ يَضْرِبْنَ بِدُقَيْنٍ وَيَتَغَنَّيْنَ وَيَقُلْنَ: نحن جوار من بنى التُّجَّارَ يَا حَبْدًا مُحَمَّدَ بْنَ جَارٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ تَعْلَمُ أَنِّي لَأَحِبُّكُمْ»، حديث صحيح رواه ابن ماجه، وعن سعد بن عُبَادَةَ يرفعه: «إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ مِثْنَةٌ: حُبُّهُمْ

(١) أخرجه البخاري ١١١/٥ (٣٧٨٥).

(٢) أخرجه البخاري ٤٠/٥ (دار الفكر) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (١٧٥).

(٣) أخرجه البخاري ١١٣/٧ (٣٧٨٣) ومسلم ٨٥/١ (١٢٩ - ٧٥).

(٤) أخرجه البخاري ١١٣/٧ ومسلم ٨٥/١ (١٢٨ - ٧٤).

في فضلهم وحبهم والوصية بهم والتجاوز عن مسيئتهم والنهي عن بغضهم

إيمان ويُغضُّهم نفاق»^(١)، رواه الإمام أحمد. وعن أبي سعيد الخُدري يرفعه: «حُبُّ الأنصار إيمان ويُغضُّهم نفاق»^(٢)، رواه الإمام أحمد. وعنه، «لا يَغضُ الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»^(٣)، رواه الإمام أحمد.

وعنه أيضاً يرفعه: «مَنْ أَحَبَّنِي أَحَبَّ الأنصار، ومن أبغضني فقد أبغض الأنصار، لا يُجِبُّهم منافق ولا يبغضهم مؤمن، من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله، الناس دثار والأنصار شِعَار، ولو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكت شِعْبَ الأنصار» رواه الإمام أحمد^(٤).

وعن جدة رباح بن عبد الرحمن بن حُوَيْطِب يرفعه: «لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه، ولا يؤمن بالله من لا يؤمن بي ولا يؤمن بي من لا يحب الأنصار»، رواه الترمذي وابن ماجه دون ذكر الأنصار فيه، وقال الترمذي عن البخاري إنه قال: هذا أحسن حديث في هذا الباب. وعن علي بن سَبْرَةَ عن أبيه عن جدِّه يرفعه: «أيها الناس لا صلاة إلا بوضوء ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه، ولم يؤمن بالله من لم يؤمن بي ولم يؤمن بي من لم يعرف حقَّ الأنصار»، رواه البغوي في معجمه والطبراني في الأوسط.

وعن الحارث بن زياد يرفعه: «مَنْ أَحَبَّ الأنصار أَحَبَّهُ الله ومن أبغض الأنصار أبغضه الله» رواه الإمام أحمد^(٥). وعنه أيضاً يرفعه: «والذي نفسي بيده لا يحب رجل الأنصار حتى يلقي الله إلا لقي الله وهو يحبه، ولا يبغض رجل الأنصار حتى يلقي الله إلا لقي الله وهو يبغضه»، رواه الإمام أحمد والطبراني وسنده صحيح^(٦). وعن أنس رضي الله عنه قال: افتخر الحَيَّان من الأنصار: الأوس والخزرج، فقالت الأوس: «مِثْلًا غَسِيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر الراهب، ومِثْلًا من اهْتَزَّ له عَرْشُ الرحمن، سَعْدُ بن مُعَاذ، ومنا من حَمَمَتِ الدُّبُر، عاصم بن ثابت»^(٧) بن أبي

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٨٥/٥ والطبراني في الكبير ٢٤/٦ وذكره الهيثمي في المجمع ٢٨/١٠ والمتقي الهندي في الكنز (٣٣٧٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٧٠/٣ وابن عدي في الكامل ٧٣٠/٢.

(٣) أخرجه مسلم ٨٦/١ (٧٧. ١٣٠) والترمذي (٣٩. ٦) وأحمد في المسند ٣٠٩/١ - ٤١٩/٢ والطبراني في الكبير ١٧/١٢.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٢/١٠ وعزاه للبخاري بإسنادين وفيهما كلاهما عطية وحديثه يكتب على ضعفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٦٣) وأحمد في المسند ٥٠١/٢ والطبراني في الكبير ٢٩٩/٣ وابن أبي شيبه في المصنف ١٥٨/١٢.

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٤١/١٠ وعزاه لأحمد والطبراني بإسنادين ورجال بعضها رجال الصحيح غير محمد بن عمرو وهو حسن الحديث.

(٧) عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح قيس بن عصمة بن النعمان بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن بدر بن مالك بن عمرو بن عوف الأنصاري جد عاصم بن عمرو بن الخطاب لأمه من السابقين الأولين من الأنصار.. الإصابة ٣/٤.

الْأَفْلَحَ، ومنا من أُجيزت شهادته بشهادة رَجُلَيْنِ، خزيمه بن ثابت. فقال الخزرجيون: منا أربعة نفر جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يجمعه غيرهم: زيد بن ثابت، وأبو زيد، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، حديث رواه أبو يَعْلَى والبزار، والطبراني في الكبير، وفي الصحيح منه الذين جمعوا القرآن.

وعن معاوية بن أبي سفيان وأبي هريرة يرفعانه: «من أحب الأنصار أحبه الله ومن أبغض الأنصار أبغضه الله»^(١)، رواه أبو يعلى، وهو حديث حسن صحيح رواه البزار عن أبي هريرة والطبراني عن معاوية، وله طريق آخر عند الطبراني عن معاوية يرفعه: «من أحب الأنصار فَيُحِبُّي أَحِبُّهُمْ ومن أبغض الأنصار فَيُبْغِضِي أَبْغَضَهُمْ»^(٢)، حديث صحيح. وعن أنس رضي الله عنه قال: قالت الأنصار يوم فتح مكة وأعطى قريشاً: «والله إن هذا لهو العجب إن سيوفنا تَقْطُرُ من دماء قريش وغنائمنا تُرَدُّ عليهم». فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعا الأنصار، قال: فقال: «ما الذي بلغني عنكم؟» وكانوا لا يَكْذِبُونَ، فقالوا: «هو الذي بلغك». قال: «أَوْ لَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَزُوجَ الناسَ بالغنائمِ إلى بيوتهم وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم، لو سلكت الأنصار وادياً أو شِعْباً لسلكت وادي الأنصار أو شِعْبَهُمْ»^(٣). رواه الشيخان والنسائي، وهو عند البخاري أيضاً من حديث أبي هريرة، وفي آخره: «وَلَوْلَا الهَجْرَةُ لَكُنْتُ امراً من الأنصار». وعند النسائي بعد الشُّغْب: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»^(٤)، فبكى الأنصار حتى اخْضَلَّتْ لِحَاهِمُ، وقالوا: «رَضِينَا برسول الله ﷺ قِسْماً وَخَطْأً»، حديث صحيح رواه الإمام أحمد. وعن أبي هريرة يرفعه: «لَوْلَا الهَجْرَةُ لَكُنْتُ امراً أَنْصَارِيّاً»^(٥)، رواه الترمذي وحسنه. وعن أبي قتادة يرفعه: «أَلَا إِنَّ الناسَ دِثَارُ والأنصار شعار، ولو سلك الناس وسلك الأنصار شِعْباً لَا تُبْعَثُ شِعْبُ الأنصار، ولولا الهَجْرَةُ لَكُنْتُ امراً من الأنصار، فمن ولي من أمر الأنصار شيئاً فَلْيُحْسِنِ إلى مُحْسِنِهِمْ وليتجاوز عن مُسِيئِهِمْ، من أفرعهم فقد أفرع هذا الذي بين هذين»^(٦)، وأشار إلى نفسه، حديث صحيح رواه الإمام أحمد والطبراني، وزاد في آخره: يعني قلبه. وعن

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند ٣٥٦/١٣ (١٤٠. ٧٣٦٧) وذكره الهيثمي في المجمع ٤٢/١٠ وعزاه لأبي يعلى وقال: إسناده جيد. ورواه البزار وفيه محمد بن عمرو وهو حسن الحديث وبقيته رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٣٤١/١٩ وذكره الهيثمي ٤٢/١٠ وعزاه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن حاتم وهو ثقة.

(٣) أخرجه البخاري ٣٨/٥ (دار الفكر) ومسلم في كتاب الزكاة (١٣٤).

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٧٧/٣ والبيهقي في الدلائل ١٧٨/٥ وابن سعد في الطبقات ١١١/١/٢.

(٥) أخرجه البخاري ٢٣٨/١٣ (٧٢٤٤) ومسلم في كتاب الزكاة (١٣٩).

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٥/١٠ وعزاه للطبراني في الأوسط عن شيخه مقدم بن داود وهو ضعيف. وقال ابن دقيق العيد: إنه وثق، وبقيته رجاله ثقات.

في فضلهم وحبهم والوصية بهم والتجاوز عن سيئهم والنهي عن بغضهم

السائب بن يزيد أن رسول الله ﷺ قَسَمَ الفِءَ الذي أَفَاءَ الله تعالى بِحُتَيْنٍ من غنائم هوازن، فأحسن، فذكر الحديث وفيه: ثم قال: «يا معشر الأنصار أَلَمْ يَمُنَّ الله عليكم بالإيمان وَخَصَّكُمْ بِالْكَرَامَةِ وَسَمَّاكُمْ بِأَحْسَنِ الْأَسْمَاءِ: أَنْصَارَ اللهِ وَأَنْصَارَ رَسُولِهِ؟ وَلَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً أَنْصَارِيًّا وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًّا وَسَلَكَتُمْ وَادِيًّا لَسَلَكَتُمْ وَادِيَكُمْ، أَوْ لَا تَرَوْهُمْ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّيْءِ وَالنَّعَمِ وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟» قَالُوا: قَدْ رَضِينَا. قَالَ: «أَجْبِيُونِي فِيمَا قُلْتَ». قَالَتْ الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَجَدْتَنَا فِي ظِلْمَةٍ فَأَخْرَجَنَا اللهُ بِكَ، وَوَجَدْتَنَا عَلَى شَفَا حَفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَيَّدَنَا اللهُ بِكَ، وَوَجَدْتَنَا ضَلَالًا فَهَدَانَا اللهُ بِكَ، فَرَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا فَاصْنَعْ يَا رَسُولَ اللهِ مَا شِئْتَ فَأَوْسَعِ الْحِلَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ أَجَبْتُمُونِي بِغَيْرِ هَذَا الْقَوْلِ لَقُلْتُ صَدَقْتُمْ، لَوْ قُلْتُمْ: أَلَمْ تَأْتِنَا طَرِيدًا فَأَوْيْنَاكَ، وَمُكْذِبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمُخْذُولًا فَانصَرْنَاكَ، وَقَبْلُنَا مَارِدًا النَّاسَ عَلَيْكَ؟ لَوْ قُلْتُمْ هَذَا لَصَدَقْتُمْ». فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: «بَلِ اللهُ ذُو الْفَضْلِ عَلَيْنَا وَعَلَى غَيْرِنَا». ثُمَّ بَكَوْا فَكَثُرَ بَكَاءُهُمْ وَبَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُمْ. رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ وعليه مِلْحَفَةٌ مُتَعَطِّفًا بِمَا عَلَى مُتَكَبِّئِهِ وعليه عِصَابَةٌ دَسَمَاءٌ حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَيَقِلُّ الْأَنْصَارُ حَتَّى يَكُونُوا كَالْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ. فَمَنْ وَلِيَّ مِنْكَ أَمْرًا يَضُرُّ فِيهِ أَحَدًا أَوْ يَنْفَعُهُ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُخْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٢).
وعن أنس رضي الله عنه يرفعه: «الأنصار كَرِشِي وَعَيْبَتِي وَالنَّاسُ سَيَكْثُرُونَ وَيَقْلُونَ فَاقْبَلُوا مِنْ مُخْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٣).

وعن أنس أيضاً، قال: مرَّ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يَبْكُونَ فَقَالَ: مَا يَبْكِيكُمْ؟ قَالُوا: ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَّا، فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ. قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ غَضِبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةٌ بُزْدٌ، قَالَ فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَحَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ فَاقْبَلُوا مِنْ مُخْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»^(٤)، رَوَاهُ الشَّيْخَانُ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وعن أسيد بن حضير يرفعه: «الأنصار كَرِشِي وَعَيْبَتِي وَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَهُمْ يَقْلُونَ،

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨٠/٧ وذكره السيوطي في الدر ٢٧٠/٣ وعزه للطبراني.

(٢) أخرجه البخاري ٦٢٨/٦ (٣٦٢٨).

(٣) أخرجه البخاري ١٥١/٧ (٣٨٠١).

(٤) أخرجه البخاري ١٢٠/٧ (٣٧٩٩).

فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم^(١)، حديث صحيح رواه الطبراني في الكبير. وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما، يرفعه: «أقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم»، يعني الأنصار، رواه البزار والطبراني وهو حديث حسن. وعن أبي سعيد يرفعه: «ألا إن عييتي التي أوى إليها أهل بيتي وأن كَرشي الأنصار فاعفوا عن مسيئتهم وأقبلوا من محسنهم^(٢)»، حديث صحيح حسن رواه الترمذي. وعن كعب بن مالك عن رجل من الصحابة قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه واستغفر للشهداء الذين قتلوا بأُخذ ثم قال: «إنكم يا معشر المهاجرين تزيدون وإن الأنصار لا يزيدون، وإن الأنصار عييتي التي أوي إليها، أكرموا كَرِمَهُم وتجاوزوا عن مسيئتهم، وإنهم قد قَضُوا الذي عليهم وبقي الذي لهم»، رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن زيد بن عاصم في ذكر قسم غنائم هوازن في المؤلفة قلوبهم، وفي آخره: «إنكم ستَلْقَوْنَ بعدي أثرَ فاضبروا حتى تَلْقَوْنِي على الحَوْضِ^(٣)»، رواه الشيخان. وعن أبي طلحة يرفعه: «أَقْرَى قَوْمَكَ السلام فإنهم ما علمت أعْقَة ضُبْر»، حديث حسن صحيح، رواه الترمذي والبزار.

وعن عائشة رضي الله عنها ترفعه: «ما يَضُرُّ امرأةً نزلت بين بيتين من الأنصار أو نزلت بين أبييها»، رواه الإمام أحمد، والبزار. وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «أسلمت الملائكة طَوْعاً، وأسلمت الأنصار طَوْعاً وأسلمت عبد القيس طَوْعاً» حديث حسن رواه الطبراني في الأوسط^(٤).

وعن أنس رضي الله عنه يرفعه: «ألا إن لكل نبي تَرِكَة وَضِيعَة، وإن تركتي وضيعتي الأنصار فاحفظوني فيهم^(٥)»، رواه الطبراني في الأوسط. وعنه يرفعه: «الأنصار أحيائي، وفي الدين إخواني وعلى الأعداء أعواني^(٦)»، غريب رواه الديلمي في مسند الفردوس.

تنبيه في غريب ما سبق

«ألسناً» جمع لسان.

«قَيْلَة» بفتح القاف وسكون المثناة التحتية، أم الأوس والمخزرج.

- (١) ذكره الهيثمي في المجمع ٤٠/١٠ وعزاه للطبراني وقال: ورجاله رجال الصحيح.
- (٢) أخرجه الترمذي (٣٩٠٤) وابن أبي شيبة في المصنف ١٥٩/١٢ وذكره السيوطي في الدر ٢٧٠/٣.
- (٣) أخرجه البخاري ١٤٦/٧ (٣٧٩٢).
- (٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٣١/١٠ وعزاه للطبراني في الأوسط عن شيخه علي بن سعيد بن بشير وفيه لين، وبقيته رجاله ثقات.
- (٥) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٥/١٠ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: إسناده جيد.
- (٦) أخرجه ابن الجوزي في العلل ٢٨٤/١ وابن حجر في اللسان ٨٥٨/٢ والذهبي في اللسان (١٨١٠) وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٣٧٤٦).

في فضلهم وحبهم والوصية بهم والتجاوز عن مسيئتهم والنهي عن بغضهم

«الْتَقَمَ أَذُنَهُ» أَي سَاَرَهُ بِشَيْءٍ.

«الْأَسَارِيرُ»: خطوط الجبهة واحدها سِرٌّ أَوْ سِرَرٌ والجمع أسرار، وأسارير جمع الجمع، وفي تكملة الصغاني عن بعض أهل اللغة هي الحَدَّانُ والوجنتان ومحاسن الوجه.

«إِزَائِي» بالزاي أَي حَدَائِي أَي بالقرب مني.

«السَّكَّكُ»^(١) جمع سِكَّةٍ بالكسر الزقاق.

«الدُّنَّارُ»^(٢) بالكسر والمثناة ما يتدُّرُّ به الإنسان، وهو ما يلقيه عليه من كِسَاءٍ وغيره

فوق الشُّعار.

«الشُّعَارُ»: مَا وَلِيَ الْجَسَدَ، سُمِّيَ بذلك لأنه يلي الشَّعْرَ، المعنى أَنهم الخاصة والبطانة.

«الشُّعْبُ»: بالكسر الطريق في الجَبَل.

«الدُّبُرُ»: بفتح الدال المهملة وسكون الموحدة يقال لجماعة النحل والزنابير أيضاً قِيلَ

وهو المراد هنا.

«الْأَقْلَحُ»: بالقاف والمهملة.

«قِسْمًا»: بكسر القاف أَي نصيباً.

«طَرِيدًا»: أَي مُخْرَجًا من بلده.

«المِلْحَفَةُ»: بكسر الميم الملاءة التي يُلْتَحَفُ بها.

«مُتَعَطِّفًا بها»: أَي ثَانِيًا طَرَفِي الملحفة على كتفيه.

«دَسَمَاءَ»: أَي سوداء.

«الكَرْشُ»: كَكَيْفٍ وَيُحَقِّفُ، والمراد هنا ما يحفظ فيه نفيس المتاع.

«الْعَيْةُ»^(٣) من الرجل موضع سِرِّهِ وَأَمَانَتِهِ.

«أَثَرَةٌ»: بفتح الهمزة والمثناة الاسم من أثر يؤثر إِيْشَارًا إِذَا أُعْطِيَ أَرَادَ أَنْ يَسْتَأْثِرَ عَلَيْكُمْ

فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء.

«أَعِقَّةٌ» جمع عفيف وهو من يَكُفُّ عما لا يحل ولا يَجْمُلُ.

«صُبْرٌ»^(٤): بضم أوله وثانيه جمع صَبِيرٍ وهو هنا مُقَدِّمُ القوم.

«الْتَرَكَةُ»: الشئ المتروك أَي الذي تركه الميت لوارثه.

«الصَّبِيْعَةُ»: بالفتح العقار.

(١) انظر لسان العرب ٢٠٥١/٣.

(٢) انظر لسان العرب ١٣٢٧/٢.

(٣) انظر اللسان ٣١٨٤/٤.

(٤) انظر لسان العرب ٢٣٩٣/٤.

الباب الثالث

في بدء إسلامهم رضي الله عنهم

قال ابن إسحق: وكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره كلما اجتمع له ناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله تعالى وإلى الإسلام ويغرض عليهم نفسه وما جاءهم به من الله تعالى من الهدى والرحمة، ولا يسمع بقادم يقدّم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدّى له ودعاه إلى الله تعالى وعرض عليه ما عنده. وروى ابن إسحق بسند جيد عن محمود بن لبيد قال: لما قدم أبو الحخير أنس بن رافع [مكة] - فيما ذكره ابن إسحق، وبشر فيما ذكره الزبير بن بكار - في فتيّة من قومه بني عبد الأشهل يلتبسون الجلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: «أي قوم هذا والله خير مما جئتم له». فأخذ أبو الحخير أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دغنا منك فلغمرني لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة. وكانت وقعة بُعثت بين الأوس والخزرج ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضرته من قومي عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يُهلل الله تعالى ويكبره ويسبّحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سَمِعَ من رسول الله ﷺ ما سمع.

وروى أبو رزعة الرازي في دلائل النبوة له بسند حسن، والحاكم وصححه عن معاذ بن رفاعة بن رافع^(١) عن أبيه عن جده أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء^(٢) حتى قدما مكة^(٣)،

(١) معاذ بن رفاعة الأنصاري الزرقني.. ذكره الواقدي وقال: شهد غزوة بني قريظة مع النبي ﷺ على فرس، قلت: وفي التابعين معاذ بن رفاعة آخر يروي عن أبيه وجابر وخولة روى عنه عبد الله بن محمد بن عقيل. الإصابة ١٠٨/٦.

(٢) معاذ بن الحرث بن رفاعة بن الحرث بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك النجاري الأنصاري الخزرجي المعروف بابن عفراء وقيل: بحذف الحرث الثاني في نسبه وعفراء أمه عرف بها.. شهد العقبة الأولى مع الستة الذين هم أول من لقي النبي ﷺ من الأوس والخزرج وشهد بدرًا وشرك في قتل أبي جهل وعاش بعد ذلك وقيل: بل جرح بدهر فمات من جراحته. الإصابة ١٠٧/٦، ١٠٨.

(٣) مكة بيت الله الحرام: بلدة فيها الكعبة القبلة التي يتوجه المسلمون إليها في صلاتهم من سائر الآفاق؛ سُميت مكة؛ لأنها تمكّ أعناق الجبابرة، أي تُذهب نخوتهم وتذلّهم. وقيل: لتمكك الناس بها، وهو ازدحامهم. وتسمى بكّة أيضاً - بالباء - لتمكك الناس بها، وهو ازدحامهم. وقيل: مكة اسم المدينة، وبكّة اسم للبيت. مراصد الاطلاع ١٣٠٣/٣.

في بدء إسلامهم رضي الله عنهم

فلما هبطا من الثنية^(١)، رآى رجلاً تحت شجرة. قال: وهذا قبل خروج الستة من الأنصار، فلما رأيناه قلنا نأتى هذا الرجل لنستودعه راحلتنا حتى نطوف بالبيت، فجيئنا فسلمنا عليه تسليم أهل الجاهلية، فزّد علينا تسليم أهل الإسلام، وقد سمعنا بالنبى، فأفكرنا فقلنا: من أنت؟ قال: «انزلوا» فنزلنا فقلنا: أين هذا الرجل الذي يدعى ما يدعى ويقول ما يقول؟ قال: «أنا هو». قلنا: أغرض علينا الإسلام، فغرض، وقال: من خلق السموات والأرض والجبال؟ قلنا: خلقهم الله عز وجل. قال: «فمن خلقكم؟» قلنا: الله عز وجل. قال: «فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون؟» قلنا: نحن. قال: «الخالق أحق بالعبادة أو المخلوق؟» قلنا: الخالق. قال: «فأنتم أحق أن تعبدوا ربكم وأنتم عملتموهن والله أحق أن تعبدوه من شيء عملتموه وأنا أدعوكم إلى عبادة الله عز وجل وشهادة ألا إله إلا الله وأنى رسول الله، وصلة الرّحم وتزكّ العدوان وإن غَضِب الناس». فقالا: لو كان هذا الذي تدعوا إليه باطلاً لَمَا كان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق، فأمسك راحلتنا حتى نأتى البيت. فجلس عنده مُعَاذ بن عَفْرَاء.

قال رافع: فجيئنا البيت فطُفْتُ وأُخْرِجْتُ سبعة أقداح وجعلتُ له بينها قِدْحاً، فاستقبلتُ البيت وقلت: اللهم إن كان ما يدعو إليه محمد حقاً فأُخْرِجْ قِدْحَهُ سبع مرات، فضربت بها سبع مرات، فصيحى: «أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». فاجتمع الناس على وقالوا: معجون رَجُلٌ صَبَأٌ، فقلت: بل رجل مؤمن، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ بأعلى مكة، فلما رآني مُعَاذ بن عَفْرَاء قال: لقد جئت بوجهٍ ما ذهبَ به يا رافع، لقد جئت وآمنت. وعلمنا رسول الله ﷺ سورة يوسف، وسورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. ثم خرجنا راجعين إلى المدينة.

بيان غريب ما سبق

﴿٢٦﴾ الجلف - بهكسر الحاء وسكون اللام: المُعَاقَظَةُ والمُعَاهَدَةُ على التعاضد والاتفاق. «أبو الحيسر»: بفتح الحاء المهملة وسكون المثناة التحتية بعدها سين مهملة ثم راء، ذكره ابن منذر في الصحابة، وذكره الحافظ في الإصابة في الأسماء وفي الكنى في القسم الرابع فيمن ذكر في الصحابة غلطاً.

«إياس بن مُعَاذ»: ذكره ابن السكّن وابن جيان في الصحابة، وذكره البخاري في تاريخه الأوسط فيمن مات على عهد النبي ﷺ من المهاجرين الأولين والأنصار.

(١) ثنية أم قردان الثنية في الأصل كل عقبة في جبل مسلوكة. وقردان بالكسر جمع قرد، وهي بمكة عند بدر الأسود بن سفيان المخزومي.

(٢) المعجم الوسيط ١/١٩٢.

«الثَّيِّبَةُ»^(١): كل عَقَبَة مسلوكة.

«الْأَقْداح»: جمع قَدَح - بكسر القاف - وهو عود السهم إذا قُومَ وإلى أن يُرَاش فإذا رُكِب فيه الثُّنْجُ وریش فهو سهم، والمراد هنا السهم الذي يستقسمون به.

الباب الرابع

في ذكر يوم بعث

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بُعث يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقَدِم رسول الله ﷺ وقد افترق ملأُهم وقُتِلت سَرَوَاتُهُمْ وَجُرَّحُوا، فقدّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام». رواه البخاري^(١).

بيان غريبه

«بُعْث»: بضم المُوحَّدة، وحكى القَزَّاز في الجامع فتحها وبتخفيف العين المهملة وآخره المثناة - قال الجمهور - وقال ابن دُرَيْد: وذكر عن الخليل إعجائها ولم يُشَمَّع من غيره وإنما هو بالعين المهملة. وذكر الأزهري أن الذي صَحَّحَهُ اللَّيْث عن الخليل. وذكر القاضي أن الأصيلي^(٢) أحد رواة الصحيح رواه بالوَجْهَيْنِ أي بالعين المعجمة والعين المهملة، وأن وجهاً واحداً هو الذي وقع في رواية أبي ذَرٍّ بالعين المعجمة. ويُقال إن أبا عُبَيْدَةَ ذكره بالمعجمة أيضاً. و«بُعْث»: مكان ويقال حِضْن، وقيل مزرعة عند بني قُرَيْظَةَ على ميلين من المدينة كانت به وَفَقَةُ بَيْنِ الْأَوْسِ والخزرج قُتِلَ فيه كثير منهم، وكان رئيس الأَوْس فيه.

حُضَيْر - بضم الحاء المهملة وفتح الضاد المعجمة وسكون التحتية بعدها راء - والد أسيد بن حُضَيْر، وكان يقال له: حُضَيْرُ الْكُتَّابِ، وبه قُتِلَ، وكان رئيس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي فُقِيتَ بها أيضاً. وكان النصر فيها أولاً للخزرج ثم هُزِمَ حُضَيْرُ فَرَجَعُوا وانتصرت الأَوْسُ وَجُرِحَ حُضَيْرُ يومئذ فمات منهزماً، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل بأربعين سنة وقيل بأكثر. قال الحافظ: «الْأَوَّلُ أَصَحَّ». وذكر أبو الفرج الأموي أن سبب ذلك كان من قاعدتهم أن الأصيل لا يُقْتَلُ بالحليف، فقتل رجل من الأَوْس حليفاً للخزرج، فأرادوا أن يُقَيِّدُوهُ، فامتنعوا، ف وقعت بينهما الحرب لأجل ذلك، فُقِيتَ فيها من أكابرهم من كان لا يُؤْمَنُ أن يَتَكَبَّرَ، ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بَقِيَ منهم من هذا النَحْوِ عبد الله بن أبي بن سلُول كما سيأتي بيان ذلك.

(١) أخرجه البخاري ١٣١/٥ (٣٨٤٦).

(٢) عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر، أبو محمد، الأموي المعروف بالأصيلي: عالم بالحديث والفتنة. من أهل أصيلة (في المغرب) أصله من كورة «شدونة» ولد فيها ورحل به أبوه إلى «أصيلة» من بلاد المدونة فنشأ فيها. ويقال: ولد في أصيلة. رحل في طلب العلم، فطاف في الأندلس والشرق. ودخل بغداد سنة ٣٥١هـ، وعاد إلى الأندلس في آخر أيام المستنصر، فمات بقرطبة. له كتاب «الدلائل على أمهات المسائل» في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة. الأعلام ٦٣/٤.

«سَرَوَاتُهُمْ»^(١): بفتح المهملة والراء المخففة والواو، أي خيارهم، والسَرَوَات جمع السَرَاة - بفتح المهملة وتخفيف الراء - والسَرَاة جمع السَرِيّ، وهو الشريف.

«جَرِحُوا» للأكثر بضم الجيم والراء المكسورة مُثَقَّلًا وَمُخَفَّفًا فحاء مهملة، وعند الأصيلي بجيمين جَرَجُوا أي اضطرب قولهم، من قول العَرَب جَرَجَ الخاتم إذا جال في الإصبع، وعند ابن أبي صُبْرَةَ بحاء مهملة مفتوحة من الحَرَج: أي ضيق الصدر، وعند المستملي وعبدوس والقابسي: «وخرجوا» بفتح الخاء المعجمة والراء من الخروج، وصَوَّب ابن الأثير الأول وقال صاحب التقريب إنه المشهور، وصوب غيره الثالث.

الباب الخامس

في بيعة العقبة الأولى

وكانت في رجب. وقال الزهري وابن عُقبة وابن إسحق: «فلما أراد الله سبحانه وتعالى إظهار دينه وإعزاز رسوله وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار، فَعَرَضَ نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً. فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نَفر من الخزرج. قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال: «أفلا تجلسون أكلُكم؟» قالوا: بلى، من أنت؟ فانتسب لهم وأخبرهم خبره. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم به من الإسلام أن يهود، كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا [هم] أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد عَزَّوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أَظْلَمَ زمانه، نَتَّبِعْهُ فنقتلكم قَتْلَ عَادٍ وَإِزْمَ.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله أيقنوا به واطمأنَّت قلوبهم إلى ما سمعوا منه وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تَعَلَّمُوا والله إنه للنبِيِّ الذي ثَوَّعَكم به يهود فلا تَشِيقُكُمْ إليه [فأجابوه إلى ما دعاهم إليه] بأن صَدَّقُوهُ وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. ثم قالوا: قد علمت الذي بيننا من الاختلاف وسفك الدماء، ونحن حِرَاصٌ على ما أَرْسَلَكَ اللهُ به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا لنشير عليك برأينا، فامكث على رِشْلِكَ باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله يصلح ذات بينهم ويجمع لهم أمرهم، فإننا اليوم متباغضون متباعدون، ولكننا نواعذك الموسم من العام المقبل. فرضي بذلك رسول الله ﷺ، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصَدَّقُوا.

وهم فيما ذكر ابن إسحق في رواية ستة نفر من الخزرج:

١ - من بني النُّجَار: أبو أُمَامَةَ أسعد بن زُرَّارة - بضم الزاي - ابن غَدَس بن عُجَيْد بن ثعلبة ابن غَنَم بن مالك بن النجار.

٢ - عوف بن الحارث ابن رِفاعَة - بكسر الراء وبالفاء - ابن الحارث بن سَوَاد بن مالك بن غَنَم بن مالك بن النُّجَار وهو ابن عَفْراء.

٣ - ومن بني زُرَيْق - بتقديم الزاي على الراء - ابن عامر بن زُرَيْق بن عبد حارثة بن

مالك بن عَصْب بن جُشَم بن الخزرج: رافع بن مالك بن العَجَلان. قال ابن الكلبي: وهو أول من أسلم من الأنصار.

٤ - ومن بني سَلِمة - بلام مكسورة - [ابن سعد بن علي بن أسد]: قُطَيْبة - بضم القاف وسكون الطاء المهملة وبالموحدة - ابن عامر بن خديدة بن عمرو بن سَوَاد بن غَنَم بن كعب ابن سَلِمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جُشَم بن الخزرج بن حارثة.

٥ - ومن بني حَرَام بن كعب بن غَنَم بن كعب بن سَلِمة: عُقْبَة - بضم العين المهملة وسكون القاف - ابن عامر بن نَابِي - بنون فالفاء مُوَحَّدة فمشثة تحتية - ابن زيد بن حرام بن كعب بن غَنَم بن سَلِمة.

٦ - ومن بني عبيد بن عَدِي بن غَنَم بن كعب بن سَلِمة: جابر بن عبد الله بن رثاب بن النعمان بن سنان بن عبيد...

وفي رواية جرير بن أبي حازم عن ابن إسحاق بدل عُقْبَة بن عامر، مُعَاذ بن عفراء، وعند موسى بن عقبة عن الزهري عن غُررة أنهم ثمانية. وهم: مُعَاذ بن عفراء، وَذُكْوَان - بفتح الدال المعجمة وسكون الكاف - ابن عُبْد قيس بن خَلْدَة بن مُخَلِد بن عامر بن زُرَيْق، وَغُبَادَة - بضم العين المهملة فباء مُوَحَّدة - ابن الصامت بن قيس بن الأصرم بن فُهْر بن ثعلبة بن غَنَم بن عوف بن الخزرج بن حارثة، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خَزْمَة بن أَصْرَم بن عَفْرُو بن عَمَّارة من بني عُصَيْفَة ثم من بَلِيّ حليف لهم. وأبو الهيثم بن التَّيْهَان^(١) بن جُشَم بن الحارث، وَغَوْثَم - بضم العين المهملة وفتح الواو وسكون المثلثة التحتية - ابن ساعدة من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة.

بيان ما سبق

«العقبة الأولى»: قال المحب الطبري: «الظاهر أنها العَقْبَة التي تُضاف إليها الجمرة إذ ليس أظهر منها وعن يسار الطريق لقاصد ينس من مكة شِعْب قريب منها، فيه مسجد مشهور عند أهل مكة أنه مسجد البيعة، وهو على تَشَرٍّ من الأرض، ويجوز أن يكون المراد من العقبة ذلك التَشَرُّ، وعلى الأول يكون قد نُسِب إليها لِقُرْبِهِ منها» قال في النور: «وجزم غيره بأن البيعة التي وقعت عندها البيعة هي العقبة التي تُضاف إليها الجمرة».

(١) أبو الهيثم بن التيهان بن مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زور الأنصاري الأوسي. انظر الإصابة

«موالي يهود»: أي حلفاؤهم، وهم سُمُوا حلفاء لأنهم تحالفوا على التناصر والتعاقد.
«الرُّفُط»: بسكون الهاء وتُفْتَح دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة أو منها إلى
أربعين.

«يهود»: لا ينصرف للعلمية والتأنيث.

«أَخْلُ زمانه»: بفتح الظاء المعجمة وتشديد اللام أي قُرب ودَنَا.

«قَتْلُ عَادٍ وإِرم»: أي نستأصلكم.

«تَعَلَّمُوا»: بفتح اللام المُشَدَّدة ومعناه اعلموا.

الباب السادس

في بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق: فلما كان العام المُقْبِلَ وَاقَى المَوْسِمَ من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن يُفَرَضَ عليهم الحرب، وهم: أشْعَدُ بن زُرارة، وَذَكْوَانُ بن عبد قيس الزرقي، وَعُبَادَةُ بن الصامت، والعباس بن عُبادَةَ بن نَضْلَةَ - بالنون والضاد المعجمة - وَقُطَيْبَةُ بن عامر بن حديدَةَ، وَغُفَّيَّةُ بن عامر بن نابي، وَعُوفُ بن الحارث - بالفاء - ابن رفاعَةَ، وَغُوَيْمُ بن ساعدة، وَمَالِكُ بن النيهان - بمثناة تحتية مُحَفَّفَةٌ عند أهل الحجاز وعند غيرهم بتشديدِها - وَمُعَوِّذُ - بحيم مضمومة فعين مهملة مفتوحة فواو مكسورة مُشَدَّدَةٌ فذال معجمة - ابن الحارث، أَخُو عُوفِ السابق، وَيَزِيدُ بن ثعلبة أَبُو عبد الرحمن البلوي حليف لهم. فبايع هؤلاء على بيعة النساء رسول الله ﷺ.

وروى الشيخان والبيهقي، واللفظ له عن عُبادَةَ بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ ببيعة النساء وذلك قبل أن تُفَرَضَ علينا الحرب، على ألا نُشْرِكَ بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بيْهَتَانِ نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف. قال: «فمن وَفَى ذلك منكم فَأَجْرُهُ على الله». وفي لفظ: «فله الجَنَّةُ»، «ومن أَصَاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كَفَّارَةٌ وطهور، ومن أَصَاب من ذلك شيئاً فَاسْتَرَهُ الله فَأَمْرُهُ إلى الله إن شاء عَذَّبَ وإن شاء غفر». فبايعناه على ذلك.

قال ابن إسحاق: «فلما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مُصْعَبُ بن عُمَيْرُ بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَيٍّ». وذكر ابن إسحاق في رواية أن رسول الله ﷺ بعث مُصْعَباً حين كتبوا إليه بِتَغْيِهِ إليهم، وهو الذي ذكره [موسى] بن عُقْبَةَ إلا أنه جعل المَرْءَ الثانية هي الأولى. قال البيهقي: «وسيق ابن إسحق أَكَمَ». قال ابن إسحاق: «وَأَمَرَهُ رسول الله ﷺ أَنْ يُقْرِئَهُم القرآنَ وَيُعَلِّمَهُم الإسلامَ وَيُفَقِّهَهُم في الدين، فكان يسمى في المدينة المُقْرِئَ والقارئ، وكان مَنزُلُهُ على أسعد بن زُرارة [بن عُدَسِ أَبِي أُمَامَةَ]، وذلك أن الأوس كره تَعْظِيمَهُمْ أَنْ يُؤْمَّهَ بعض. وقوله «على بيعة النساء» يعني على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية، وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة، وليس هذا بمعجيب فإن القرآن نزل بموافقات عمر بن الخطاب. «تنبيه»: ذكروا هنا أن أسعد بن زُرارة أول من جُمِعَ بالصحابَةِ قبل أن يهاجر النبي ﷺ وسيأتي الكلام على ذلك في الخصائص إن شاء الله تعالى.

الباب السابع

في إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله تعالى عنهما

روى ابن أبي الدنيا والخرائطي والبيهقي عن عبد المجيد بن أبي عيسى عن أبيه عن جده، وابن عساكر عن البخاري في تاريخه الأوسط عن شيخه أبي محمد الكوفي قال: سَمِعْتُ قُرَيْشَ قَائِلًا يَقُولُ فِي اللَّيْلِ عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ:

فَإِنْ يُشْلِمِ السَّعْدَانُ يُضْبِغُ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ الْمُخَالِفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان - وفي لفظ قریش - مَنْ السَّعْدَانِ؟ «أَسْعَدُ بْنُ بَكْرٍ أُمُّ سَعْدِ بْنِ هَذِيمٍ؟» فلما كانت الليلة الثانية سمعوا قائلًا يقول:

فَيَا سَعْدَ سَعْدِ الْأَوْسِ كُنْ أَتَتْ نَاصِرًا وَيَا سَعْدَ سَعْدِ الْخَزَرَجِيِّينَ الْغَطَارِفِ
أَجِيبْنَا إِلَى دَاعِيِ الْهُدَى وَتَمَنِّيَا عَلَى اللَّهِ فِي الْفِرْدَوْسِ زُلْفَةً عَارِفِ
فَإِنَّ ثَوَابَ اللَّهِ لِلطَّالِبِ الْهُدَى جَنَانًا مِنَ الْفِرْدَوْسِ ذَاتَ رَحَارِفِ

فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ:

قال ابن إسحاق: وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن معتيق، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أسعد بن زُرارة خرج بمُضْعَبِ بْنِ عُثَيْرٍ، يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظَفَرٍ، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زُرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظَفَرٍ فجلسا فيه، واجتمع إليهما رجال يَمُنُّونَ أَشْلَمَ، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حُضَيْرٍ يومئذٍ سيِّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشْرِكٌ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، فلما سَمِعَا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حُضَيْرٍ: لَا أَبَا لَكَ، انْطَلِقْ إِلَى هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ قَدْ أَتَيَا دَارَنَا لِيُسْقِيَهُمَا ضِعْفَاءَنَا، فَارْجُوهمَا وَإِنَّهُمَا عَنْ أَنْ يَأْتِيَا دَارَنَا، فَإِنَّهُ لَوْلَا أَنْ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ مَنِّي حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُ كَفَيْتُكَ ذَلِكَ، فهو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً. قال: فَأَخَذَ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ حَزْبَتَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِمَا. فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لِمُضْعَبِ بْنِ عُثَيْرٍ: هَذَا سَيِّدُ قَوْمِهِ فَاصْذُقْ اللَّهَ فِيهِ. قال مضعب: إِنْ يَجْلِسُ أَكْلُهُ. قال: فوقف عليهما مُتَشَتِّمًا، قال: مَا جَاءَ بِكُمَا إِلَيْنَا تُسْقِيَانِ ضِعْفَاءَنَا؟ اغْتَرِلَانَا إِنْ كَانَتْ لَكُمَا بَأْنَفْسِكُمَا حَاجَةٌ فَقَالَ لَهُ مُضْعَبٌ: أَوْ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبْلَتَهُ وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفِّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ؟ فَقَالَ: أَنْصَفْتُ. ثُمَّ رَكَزَ حَزْبَتَهُ وَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، فَكَلَّمَهُ مُضْعَبٌ بِالإِسْلَامِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ. فقالا فيما يَذْكُرُ عَنْهُمَا: وَاللَّهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسْهِيلِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَجْمَلَ! كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدِّينِ؟ قَالَا لَهُ: تَغْتَسِلُ فَتُطَهَّرُ وَتُطَهَّرُ ثَوْبُكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ ثُمَّ تُصَلِّي. فقام فاغتسل

وَطَهَّرَ ثَوْبَيْهِ وَتَشَهَّدَ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ لِهَمَّا: إِنَّ وِرَاقِي رَجُلَانِ إِنْ اتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَسَأُرْسِلُهُ إِلَيْكُمَا الْآنَ: سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، ثُمَّ أَخَذَ حَزْبَتَهُ وَانْصَرَفَ إِلَى سَعْدِ وَقَوْمِهِ، وَهُمْ جُلُوسٌ فِي نَادِيهِمْ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُقْبِلًا قَالَ: أَحْلِفْ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَسِيدٌ بَغِيرَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ.

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى النَّادِي قَالَ لَهُ سَعْدُ: مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: كَلَّمْتُ الرَّجُلَيْنِ فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ بِهِمَا بَأْسًا وَقَدْ نَهَيْتُهُمَا فَقَالَا: نَفْعَلُ مَا أَحْبَبْتَ، وَقَدْ حَدَّثْتُ أَنَّ بَنِي حَارِثَةَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ لِيَقْتُلُوهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ ابْنُ خَالَتِكَ لِيُخْفِرُوكَ. قَالَ: فَقَامَ سَعْدُ مُغْضَبًا مُبَادِرًا تَخَوُّفًا لِلَّذِي ذَكَرَ لَهُ مِنْ أَمْرِ بَنِي حَارِثَةَ. فَأَخَذَ الْحَزْبَةَ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ شَيْعًا. ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَأَاهُمَا مُطْمَئِنِّينِ عَرَفَ سَعْدُ أَنَّ أَسِيدًا إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمَا. فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، ثُمَّ قَالَ لِأَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ: يَا أَبَا أَمَامَةَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ مَا رُمْتُ هَذَا مِنِّي، أَتَغْشَانَا فِي دَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ؟ وَقَدْ قَالَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ لِمُضْعَبِ بْنِ غَمَيْرٍ: أَيُّ مُضْعَبٍ: جَاءَكَ وَاللَّهُ سَيِّدٌ مِّنْ وَرَاءِهِ مِنْ قَوْمِهِ إِنْ يَتَّبِعَكَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ مِنْهُمْ اثْنَانِ. قَالَ: فَقَالَ لَهُ مُضْعَبٌ: أَوْ تَقْعُدُ فَتَسْمَعُ؟ فَإِنْ رَضِيتُ أَمْرًا وَرَغِبْتُ فِيهِ قَبِلْتُهُ، وَإِنْ كَرِهْتُهُ عَزَلْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ. قَالَ سَعْدُ: أَنْصَبْتُ. ثُمَّ رَكَزَ الْحَزْبَةَ وَجَلَسَ، فَغَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ.

قَالَا: فَعَرَفْنَا وَاللَّهِ فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِإِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ، ثُمَّ قَالَ لِهَمَّا: كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَنْتُمْ أَسْلَمْتُمْ وَدَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدِّينِ؟ قَالَا: تَغْتَسِلُ فَتَطَهَّرُ وَتُطَهِّرُ ثَوْبَيْكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ تُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ. ثُمَّ أَخَذَ حَزْبَتَهُ فَأَقْبَلَ عَامِدًا إِلَى نَادِي قَوْمِهِ وَمَعَهُ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَلَمَّا رَأَى قَوْمَهُ مُقْبِلًا قَالُوا: نَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ سَعْدُ بَغِيرَ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ.

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فَيْكُم؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا وَأَمِينُنَا نَقِيبَةً. قَالَ: فَإِنْ كَلَامَ رَجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تَوْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَمْسَى فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا أَوْ مُسْلِمَةً، حَاشَا الْأَصْغَرِمْ وَهُوَ عَمْرُو بْنُ ثَابِتٍ بَنَ وَقَشَ فَإِنَّهُ تَأَخَّرَ إِسْلَامَهُ إِلَى يَوْمِ أُخِذَ فَاسْلَمَ وَاسْتَشْهَدَ وَلَمْ يَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً، وَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَرَجَعَ سَعْدُ وَمُضْعَبُ إِلَى مَنْزِلِ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ، فَأَقَامَا عِنْدَهُ يَدْعَوَانِ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ وَمُسْلِمَاتٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ دَارِ بَنِي أُمِيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَخَطْمَةَ وَوَائِلَ وَوَأَقَفَ، وَتِلْكَ أَوْسُ اللَّهِ وَهُمْ مِنَ الْأَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ أَبُو

قيس بن الأسلت واسمه صَيْفِي. وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأُخذ والخندق.

قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي^(١): كان أبو قيس هذا قد تَرَهَّب في الجاهلية وَلَيْسَ المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة، وتَطَهَّر من الحائض من النساء، وهَمَّ بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخل عليه فيه حائض ولا جُنُب، وقال: أَعْبُدُ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ حين فارق الأوثان وَكَرِهَهَا حتى قدم رسول الله ﷺ فأسلم وَحَسُنَ إسلامه وهو شيخ كبير، وكان قَوَّالاً بالحق مُعَظِّماً لله في الجاهلية وله في ذلك أشعار حَسَنان.

بيان غريب ما سبق

«الحائط»: البستان.

«لا أبالك»: هذا أكثر ما يُسْتَعْمَل في المدح أي؛ لا كافي لك غير نفسك، وقد يُذَكَّر في مَعْرِض الدَّمِّ كما يقال: لا أُمُّ لك، وقد يُذَكَّر في مَعْرِض التَّعَجُّب ودفعاً للعين كقولهم: لِلَّهِ دَرُوكَ، وقد تكون بمعنى «جَدَّ في أَمْرِكَ وَشَمَّرَ»، لأنَّ من له أَب اتَّكَلَّ عليه في بعض شأنه، وقد تُحَذَف اللام فيقال: «لا أباك».

«دَارَيْنَا»: هو ثنية دار، والدار هي القبيلة والعشيرة المُجْتَمِعَة في المَحَلَّة فَتُسَمَّى المَحَلَّة داراً.

«الثَّادِي»: مُتَحَدِّث القوم.

«لِيُخْفِرُوكَ»^(٢): بضم أوله وكسر الفاء رُبَاعِيّاً أي لينقضوا عَهْدَكَ، يقال: أَخْفَرْتُ الرجل إذا نقضت عَهْدَهُ وَذِمَّتَاهُ. «الْقَطَارِف»^(٣): جمع غِطْرِيف بكسر الغين المعجمة: السَّيِّد.

«مُتَشَتِّمًا»: من الشُّتْم وهو السَّبُّ.

(١) سعيد بن يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص، أبو عثمان الأموي. سمع أباه، وعمه عبد الله بن سعيد، وعبد الله بن المبارك، وعيسى بن يونس، وأبا القاسم بن أبي الزناد، وأبا بكر بن عياش، وعبد الرحيم بن سليمان، ومروان بن معاوية، وشجاع بن الوليد مات في سنة تسع وأربعين ومائتين. انظر تاريخ بغداد ٩/٩٠.

(٢) انظر لسان العرب ١٢٠٩/٢.

(٣) انظر لسان العرب ٣٢٧٠/٥.

الباب الثامن

في بيعة العقبة الثالثة

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ لَيْتَ عَشْرَ سَنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ مَتَجَنَّةً وَغَمَّكَاطٍ وَفِي الْمَوَاسِمِ بَيْنِي يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ وَمَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبْلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ»، فَلَا يَجِدُ أَبَدًا أَحَدًا يُؤْوِيهِ وَلَا يَنْصُرُهُ، حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لِيَرْحَلَ مِنْ مُضَرَ أَوْ الْيَمَنِ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ وَذَوُو رَحِمِهِ فَيَقُولُونَ: اخْذْ فَنِي قَرِيشَ لَا يَفْتِنُكَ يَمْضِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ، وَهُمْ يَشِيرُونَ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِهِمْ، حَتَّى بَعَثْنَا اللَّهَ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ مَنَا فِيؤْمِنُ بِهِ وَيُثَرِّثُهُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُشْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَائِرَةٌ مِنْ دُورِ يَثْرِبَ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظَاهِرُونَ الْإِسْلَامَ. ثُمَّ بَعَثْنَا اللَّهَ تَعَالَى فَاتَمَرْنَا وَاجْتَمَعْنَا فَقُلْنَا: مَتَى نَذَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟ فَرَحَلْ إِلَيْهِ مَنَا سَبْعُونَ رَجُلًا حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْحَوْسِمِ، فَوَاعَدَنَاهُ شِغْبَ الْعُقْبَةِ، فَاجْتَمَعْنَا فِيهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْتَنَا عِنْدَهُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَامٌ نَبَايُغُكَ؟ قَالَ: «تَبَايَعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النِّفْقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ، لَا تَأْخُذْكُمْ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ يَثْرِبَ، تَمْتَنُّونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمْ الْجَنَّةُ».

«فَقَمْنَا نَبَايَعَهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ رَجُلًا إِلَّا أَنَا فَقَالَ: رُؤِيدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ. فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمُطَيِّبِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةٌ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَغْضَبَكُمْ السِّيُوفُ، فَلَمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَضْمُرُونَ عَلَى غَضِّ السِّيُوفِ إِذَا مَشَيْتُمْ وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ وَعَلَى مَفَارَقَةِ الْعَرَبِ كَافَّةً، فَخَذُوهُ، وَأَجْرَكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً، فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ».

فَقُلْنَا: ابْسِطْ يَدَكَ يَا أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، فَوَاللَّهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا. فَقَمْنَا إِلَيْهِ نَبَايَعَهُ رَجُلًا رَجُلًا، يَأْخُذُ عَلَيْنَا شَرْطَهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ، رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ أَبِي هَاشِمٍ.

وروى ابن إسحاق عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «أَخْرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقَّهْنَا، وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُنَا وَكَبِيرُنَا - زَادَ الْحَاكِمُ - وَكُنَا خَمْسِمِائَةً، حَتَّى إِذَا كُنَا بظَاهِرِ الْبَيْدَاءِ قَالَ: يَا هَؤُلَاءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَتَوَافَقُونَنِي عَلَيْهِ أَمْ لَا. فَقُلْنَا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُ أَلَّا أَدْعَ هَذِهِ الْبَيْعَةَ مِنِّي بِظَهْرِ - يَعْنِي الْكَعْبَةَ - وَأَنْ أَصَلِّيَ إِلَيْهَا. قَالَ: فَقُلْنَا: وَاللَّهِ مَا بَلَّغْنَا أَنْ نَبِيَّنَا ﷺ يَصَلِّي إِلَّا إِلَى الشَّامِ، وَمَا نَرِيدُ أَنْ نَخَالِفَهُ، فَقَالَ: إِنِّي لِمُصَلِّلٌ إِلَيْهَا. فَقُلْنَا لَهُ: لَكُنَّا لَا نَفْعَلُ. قَالَ فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا

إلى الشام وصَلَّى هو إلى الكعبة حتى قدمنا مكة وقد كُنَّا عِنَّا عليه ما صنع وأَبَى إِلَّا الإقامة على ذلك فلما قدمنا مكة قال لي: يا ابْنَ أَخِي، انطلق بنا إلى رسول الله - ﷺ - حتى أسأله عما صنعت. في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء لِمَا رَأَيْتُ من خلافكم إِيَّاي فيه. قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ، وكنا لا نعرفه لم نَرَهُ قبل ذلك فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا. قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عَمَّهُ؟ قلنا: نعم. وقد كنا نعرف العباس كان لا يزال يُقَدِّم علينا تاجراً. قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه. فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟» قال: نعم، هذا البراء بن معمر سَيِّد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: «الشاعر؟» قال: نعم. فقال البراء بن معمر: يا نَبِيَّ الله، إني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله تعالى للإسلام فرأيتُ أَلَّا أَجْعَلَ هذه النَّبِيَّةَ مِنِّي بظَهْرٍ فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كُنْتُ على قِبْلَةٍ لو صَبَرْتُ عَلَيْهَا». قال: فرجع البراء إلى قِبْلَةِ رسول الله ﷺ، وصَلَّى معنا إلى الشام. قال: وأهله يزعمون أَنَّهُ صَلَّى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا، نحن أعلم به منهم.

قال ابن هشام: وقال عَوْن بن أيوب الأنصاري:

وَمِنَّا الْمُصَلِّي أَوَّلَ النَّاسِ مُقْبِلًا عَلَى كَعْبَةِ الرَّحْمَنِ بَيْنَ الشَّمَايِرِ^(١)

يعني البراء بن معمر^(٢). قال كعب: ثم خرجنا إلى الْحَجِّ وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق - زاد ابن سعد - «ليلة النَّقَرِ الْأَوَّلِ [إذا هدأت الرِّجْلُ] أَنْ يوافوه في الشَّعْبِ الْأَيْمَنِ إذا انحدروا من مِنًى بِأَسْفَلِ الْعُقْبَةِ حيث المسجد الحرام اليوم، وأَمَرَهُمْ أَلَّا يُبْجَهُوا نَائِمًا وَلَا يَنْتَظِرُوا غَائِبًا». [قال]: فلما فرغنا من الْحَجِّ وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ - لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حَرَامٍ أَبُو جَابِرٍ، سَيِّدٌ من ساداتنا وشريف من أشرافنا أَخَذَنَاهُ معنا، وكنا نَكْتُمُ من معنا من قومنا من المشركين أَمَرْنَا فَكَلَفْنَاهُ وقلنا له: يا أبا جابر إنك سَيِّدٌ من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عَمَّا أَنْتَ فيه أَنْ تكونَ حَظَبًا لِلنَّارِ غَدًا، ثم

(١) البيت في الروض الأنف ١٨٩/٢.

(٢) البراء بن معمر بن صخر بن سابق بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن لُيْث بن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي السلمي... أبو بشر قال موسى بن عقبة عن الزهري: كان من النفر الذين باعوا البيعة الأولى بالعقبة وهو أول من بايع في قول ابن إسحاق وأول من استقبل القبلة وأول من أوصى بثلث ماله وهو أحد النقباء. الإصابة ١٤٩/١.

دعوانه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة. قال: فأسلم وشهد معنا العقبة [وكان نقيباً].

[قال]: فيمئنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ تَسْلُلُ تَسْلُلُ الْقَطَا مُسْتَحْفِينَ حتى اجتمعنا في الشَّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نِسائنا: نسيبة^(١) بنت كعب، أم عُمارة، إحدى نساء بني مازن بن النَجَّار، وأسماء بنت عُمرو^(٢) بن عَدِيّ [بن نَابِي، إحدى نساء بني سَلِمة وهي أم منيع]. فاجتمعنا في الشَّعْب ننتظر رسول الله ﷺ. وذكر ابن سعد وأبو مَعْشَر أنَّ رسول الله ﷺ سبقهم وانتظرهم - حتى جاءنا معه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أَحَبَّ أَنْ يحضر أمر ابن أخيه وَيَتَوَقَّعَ له.

فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: «يا مَعْشَر الخزرج، - قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحيَّ من الأنصار الخزرج خزرجه وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عِزٍّ من قومه وَمَنْعَةٍ في بلده، وإنه قد أتى إلا الانحياز إليكم واللاحق بكم، فإن كنتم تَرَوْنَ أنكم وأقْوَمُ له بما دعوتموه إليه وما ينهيه عن مخالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوهُ وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عِزٍّ وَمَنْعَةٍ من قومه وتلكه. وروى الإمام أحمد عن الشَّعْبِيِّ عن أبي مسعود البدري^(٣) رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ ومعه عُثْمُ العباس إلى السبعين من الأنصار عند الْعَقْبَةِ تحت الشجرة فقال: «ليتكلم متكلمكم ولا يُبْطِلُ الْخُطْبَةَ فإن عليكم من المشركين عَيْنًا، وإن يَغْلَبُوا بكم يفضحوكم». فقلنا «قد سمعنا ما قلت فَتَكَلَّمْ يا رسول الله وَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ ما أَحْبَبْتَ».

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فَتَلَا الْقُرْآنَ ودعا إلى الله وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ، ثم قال: «أَتُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». قال: فأخذ الْبَرَاءُ بن معرور

(١) نسيبة بفتح النون أيضاً بنت كعب بن عمرو بن عوف بن عمرو بن مبدول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار الأنصارية أم عمارة مشهورة بكنيتها واسمها معاً. الإصابة ١٩٨/٨.

(٢) أسماء بنت عمرو بن عدي بن ياسر بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصارية السلمية أم معاذ بن جبل وكنيتها أم منيع.. ذكر ابن إسحاق بسند صحيح عن كعب بن مالك أنها كانت مع من شهد العقبة مع السبعين هي نسيبة بنت كعب وقال في التجريد وقيل: هي أسماء بنت عدي بن عمرو. الإصابة ٨/٨.

(٣) عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة: - بفتح الهمزة وكسر المهملة - ابن عطية بن مجدارة بهيم - ابن عوف بن الخزرج الأنصاري البدري أبو مسعود. عده فيمن شهد بدرأ البخاري تبعاً لابن شهاب والحكم بن عتيبة وابن إسحاق. وقال سعيد بن إبراهيم: لم يشهدها. له مائة وحديثان، اتفقا على تسعة، وانفرد (خ) بحديث، و (م) بسبعة. وعنه ابن بشير وأبو وائل وقيس بن أبي حازم. قال الهيثم: مات سنة أربعين. وقيل: بعد سنة ثلاثين بسنة أو سنتين.

بيده، ثم قال: «نعم فوالله الذي بعثك بالحق لَنَمْنَعَنَّكَ مما نمنع منه أُرْزْنَا، فَبَايَعْنَا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهلُ الخلقة وَرَثَتُهَا كَابِرًا عن كابرٍ». قال: فاعترض القَوْلُ، والبراءُ يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال جبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عَسَيْتَ إِنْ نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أَنْ ترجع إلى قومك وَتَدْعَنَا؟» قال: فَتَبَسَّمَ رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ والهدم الهدم» أي دمتي دمتكم وخزمتي خزمتكم - «أنا منكم وأنتم مِنِّي أحارب من حاربتهم وأسلم من سالمهم». قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس:

فمن الخزرج: أبو أُمَامَةَ أسعد بن زُرَّارة نقيب بني النُّجَّار. ورافع بن مالك بن العَجْلان نقيب بني زُرَّاق، وسعد بن الزُّبَيْع، بفتح الزاء، وعبد الله بن رواحة نقيب بني الحارث بن الخزرج وسعد بن عُبَادَةَ والمنذر بن عمرو نقيب بني ساعدة والبراء بن معرور - بالعين المهملة وعبد الله بن عمرو بن حرام وعبادة بن الصامت. ومن الأوس: أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ - بالحاء المهملة والضاد المعجمة - نقيب بني عبد الأشهل ورفاعة بن عبد المنذر وسعد بن خَيْثَمَةَ نقيباً بني عمرو بن عرف.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال للنُّقَبَاءِ: «أنتم على قومكم بما فيهم كُفَلَاءُ ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيلٌ على قومي» - يعني المسلمين. قالوا: نعم. قال ابن هشام: وأهل العلم يَتَّبِعُونَ فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولا يعدون رفاعة.

وروى البيهقي عن الإمام مالك رضي الله عنه قال: حدثني شيخ من الأنصار أن جبريل عليه السلام كان يشير إلى رسول الله ﷺ إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة. قال مالك: وكنت أعجب كيف جاء هذا؟ رجلاً من قبيلة ورجل من أخرى، حتى حَدَّثْتُ بهذا الحديث: أن جبريل هو الذي ولَّاهم وأنه أشار إلى النبي ﷺ. وروى أبو نعيم عن ابن عمر قال: «لما أخذ رسول الله ﷺ النقباء قال: لا يَجِدُ امرؤ في نفسه شيئاً إنما أُخِذَ من أشار إليه جبريل» وروى أنه ﷺ نَقِبَ على النقباء أسعد بن زُرَّارة فلما توفي أسعد والمسجد بيني اجتمع بنو النجار إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يجعل منهم شخصاً نقيباً عليهم، فقال لهم: «أنتم أخوالي وأنا نَقِيبُكُمْ»^(١) وَكَرِهَ رسول الله ﷺ أَنْ يَخُصَّ بها بَعْضُهُمْ دون بعض قال السهيلي: «ولما

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٢٢٩/٣.

جعلهم النبي ﷺ اثني عشر نقيباً اقتداءً بقول الله تعالى في قوم موسى ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢].

وقال كعب بن مالك يذكرهم فيما رواه ابن هشام عن أبي زيد [الأنصاري]:
 فَأَبْلَغُ أَبَيْيَا أَنَّهُ قَالَ^(١) رَأَيْتُهُ وَحَانَ غَدَاةَ الشَّعْبِ وَالْحَيْنُ وَقَعُ
 أَبَى اللَّهِ مَا مَنَّكَ نَفْسُكَ إِنَّهُ بِمِرْصَادِ أَمْرِ النَّاسِ رَأَى وَسَامِعُ
 وَأَبْلَغُ أَبَا سُفْيَانَ أَنْ قَدْ بَدَأَ لَنَا بِأَحْمَدَ ثَوْرٍ مِنْ هُدَى اللَّهِ سَاطِعُ
 فَلَا تُزْعِينَ فِي حَشْدٍ أَمْرٍ تُرِيدُهُ وَالْبُ وَجَمْعُ كُلِّ مَا أَنْتَ جَامِعُ
 وَدُونَكَ فَاعْلَمْ أَنَّ نَقَضَ عُهودِنَا أَبَاهُ الْبِرَاءِ وَابْنَ عَمْرٍو كِلَاهُمَا
 وَسَعْدُ أَبَاهُ السَّاعِدِيُّ وَمُنْذِرُ وَسَعْدُ أَبَاهُ السَّاعِدِيُّ وَمُنْذِرُ
 وَمَا ابْنُ رَبِيعٍ إِنْ تَنَاوَلْتَ عَهْدَهُ وَمَا ابْنُ رَبِيعٍ إِنْ تَنَاوَلْتَ عَهْدَهُ
 وَأَيْضاً فَلَا يُعْطِيكَهُ ابْنُ رَوَاحَةَ وَأَيْضاً فَلَا يُعْطِيكَهُ ابْنُ رَوَاحَةَ
 وَقَاءُ بِهِ وَالْقَوْقَلِيُّ ابْنُ صَامِتٍ وَقَاءُ بِهِ وَالْقَوْقَلِيُّ ابْنُ صَامِتٍ
 أَبُو هَيْثَمٍ أَيْضاً وَفِي بَيْتِهَا أَبُو هَيْثَمٍ أَيْضاً وَفِي بَيْتِهَا
 وَمَا ابْنُ حُضَيْرٍ إِنْ أَرَدْتَ بِمَطْمَعٍ فَهَلْ أَنْتَ عَنْ أُخْمُوقَةَ الْغَيِّ نَارِغُ
 وَسَعْدُ أَخُو عَمْرٍو بِنِ عَوْفٍ فَإِنَّهُ ضَرُوحٌ لِمَا حَاوَلْتَ مِلَامِيرَ مَايُغُ
 أَوْلَاكَ لُجُومٌ لَا يُغْلِبُكَ مِنْهُمْ عَلَيْكَ بِنَحْسٍ فِي دُجَى اللَّيْلِ طَالِغُ

فذكر كعب فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولم يذكر رفاعه. قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عُمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عُتبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف: «يا معشر الخزرج، هل تذكرون غلامً تبايعون هذا الرجل؟» قالوا: نعم. قال: «إنكم تبايعونه على حزب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم تريدون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبةً وأشرافكم قتلٌ أسلمتموه فمن الآن فهو والله إن فعلتم خيرٌي الدنيا والآخرة وإن كنتم تريدون أنكم وأقرب له بما عاهدتموه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خيرٌ الدنيا والآخرة». قالوا: «فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله؟» قال: «الجنة». قالوا: ابسط يدك. فبسط يده، فبايعوه. فأما عاصم بن عُمر بن قتادة فقال: «والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقدة لرسول الله ﷺ»

(١) قال رأيته: فيلاً، وفيولاً: أخطأ وضعف. انظر المعجم الوسيط ٧١٥/٢.

(٢) انظر الروض الأنف ١٩٠/٢، ١٩١.

في أعناقهم». وأما عبد الله بن أبي بكر فقال: «ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبي بن سلول فيكون أقوى لأمر القوم»، فإله أعلم أي ذلك كان، قال ابن إسحاق: «وبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أشعد بن زُرارة كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ وبنو عبد الأشهل يقولون: «بل أبو الهيثم بن التيهان».

وفي حديث كعب بن مالك قال: «كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ، البراء بن معرور، ثم بايع بعد القوم، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنقد صوت سميته قط: يا أهل الجبايح: هل لكم في مذم والصباء معه قد اجتمعوا على خربكم؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «هذا أرب العقبة، هذا ابن أريب، استمع أي عدو الله، أما والله لأفزعن لك». ثم قال رسول الله ﷺ: ارفضوا إلى رحالكم». فقال له العباس بن عبادة ابن نضلة: «والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميرن على أهل منى غداً بأسيافا» فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها [حتى أصبحنا]. وذكر سليمان بن طرخان التيمي في كتاب السير له أن إبليس لعنه الله، لما أسلم من الأنصار صاح بينه وبين الحجاج: «إن كان لكم بمحمد حاجة فأتوه بمكان كذا وكذا فقد خالفه الذين يسكنون يثرب». قال: «ونزل جبريل فلم يبيصره من القوم أحد، واجتمع الملائكة من قريش عند صرخة إبليس، فعظم الأمر بين المشركين والأنصار حتى كاد أن يكون بينهم قتال: ثم إن أبا جهل كره القتال في تلك الأيام فقال: يا معشر الأوس والخزرج أنتم إخواننا وقد أتيتم أمراً عظيماً، تريدون أن تغلبونا على صاحبنا، فقال له حارثة بن النعمان: نعم وأنفك راغم، والله لو نعلم أنه من أمر رسول الله ﷺ أن نخرجك أيضاً لأخرجناك. فقال أبو جهل: نعرض عليكم أن نلحق بكم من أصحاب محمد من شاء بعد ثلاثة أشهر، ونعطيك ميثاقاً ترضون به أنتم ومحمد لا نحبس بعد ذلك. فقالت الأنصار: «نعم إذا رضي رسول الله ﷺ»، فذكر الحديث.

وقال كعب في حديثه: فقالوا: «يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم». قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يخلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه. وقد صدقوا لم يغلوه. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض. قال: ثم قام القوم وفيهم الحرث بن هشام بن المغيرة المخزومي - وأسلم بعد ذلك - وعليه نعلان جديدان. قال: فقلت له كلمة كأنني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلني هذا الفتى من قريش؟ قال: فسميها

الحرث فخلعهما من رجليه، ثم رمى بهما إليّ، فقال: والله لَتَنْتَعِلَهُمَا. قال: يقول أبو جابر: [مَهْ] أَحْفَظْتُ وَالله الفتى فَارْدُدْ عَلَيْهِ نَعْلَيْهِ. قال: قلت: لا والله لا أردهما، قَالَ وَالله صالح، لكن صَدَقَ الْفَأَلْ لَأَسْلُبَهُ. قال ابن إسحاق: «وحدثني عبد الله بن أبي بكر: أنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول فقالوا له مثل ما ذكر كعب من القول، فقال لهم: والله إن هذا لأَمْرٌ جسيم ما كان قومي لِيَتَتَفَوْهُا عَلَيَّ بمثل هذا وما عَلِمْتُه. قال: فانصرفوا عنه. قال: ونَفَرَ الناس من مِنى، فَتَنَطَّسَ الْقَوْمُ الْخَبَرَ، فوجدوه قد كان. وخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عُبادة بأَذَاخِرِ، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً. فأما الْمُنْذِرُ فَأَعْجَزَ الْقَوْمَ، وأما سعد فأَحْذَوْهُ فربطوا يَدَيْهِ إِلَى عُتْقِهِ بِشِشِ رَحْلِهِ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يُضْرِبُونَهُ بِجُجَّتَيْهِ وكان ذا جُمَّةٍ وشعر كثير. قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إِذْ طَلَعَ عَلَيَّ نَفَرٌ من قريش فيهم رجلٌ وضيءٌ أبيض شَعَشَاعٌ حُلُوٌّ من الرجال.

قال: قلتُ في نفسي: إِنْ يَكُ عند أَخِي من القوم خَيْرٌ فعند هذا. قال: فلما دنا مِنِّي رفع يَدَهُ فَلَطَمَنِي لطمَةً شديدة - قال ابن هشام: هو شَهْلُ بن عمرو، قلت: وأسلم بعد ذلك - قال: فقلتُ في نفسي: لا والله ما عندهم بعد هذا خَيْر. قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إِذَا أَوَى إِلَى رجل ممن كان معهم - قال ابن هشام: هو أَبُو الْبَحْتَرِيِّ بن هشام، قلت: ومات كافراً. فقال: وَيَحْكَ: أَمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحَدٍ من قريش جوار ولا عَهْد؟ قال: قلت: بلى والله ولقد كنت أُجِيرُ لَجَبِيرَ بن مُطْعِمٍ بن عَدِيٍّ تِجَارَةً، وأمنعهم ممن أَرَادَ ظَلَمَهُمْ بِلَادِي، وللحرث بن خَرْبِ بن أُمِيَّة. قال: وَيَحْكَ، فَاهْتَفَ بِاسْمِ الرَّجُلَيْنِ، واذكر ما بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمَا. قال: ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدتهما في المسجد عند الكعبة فقال لهما: إِنْ رَجُلًا من الخزرج الآن يُضْرَبُ بِالْأَبْطَحِ لِيَهْتِفَ بِكَمَا وَيَذْكُرُ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمْ جواراً. قال: سعد بن عُبَادَةَ. قال: صَدَقَ وَالله إِنْ كَانَ لِيُجِيرَ لَنَا تِجَارَتَنَا وَيَمْنَعَهُمْ أَنْ يُظْلَمُوا بِلَدِهِ. قال: فجاء فَخَلَّصَا سعداً من أيديهم، فانطلق.

قال ابن إسحاق: وكان أول شِعْرٍ قِيلَ فِي الْهَجْرَةِ بَيْتَيْنِ قَالَهُمَا ضَرَارُ بن الْخَطَّابِ بن مِرْدَاسِ أَخُو بَنِي مُحَارِبِ بن فِهْر - قلت: وأسلم بعد ذلك.

تَذَارَكْتُ سَعْدًا عَثْوَةً فَأَخَذْتُهُ وَكَانَ شِفَاءً لَوْ تَذَارَكْتُ مُنْذِرًا
وَلَوْ نِلْتُهُ طُلْتُ هُنَاكَ جِرَاحَهُ وَكَانَ حَرْبِيَّاً أَنْ يُهَانَ وَيُهَذَرَ^(١)

قال ابن هشام: وَيُرْوَى: «وكان حقيقاً أَنْ يُهَانَ وَيُهَذَرَ»، قال ابن إسحاق: فأجابه حَسَنُ بن ثَابِتٍ فِيهِمَا فَقَالَ:

(١) انظر ديوان حسان ١١٦.

فلست إلى عمرو ولا المزة مُنذر
أَتَفَحَرُوا بِالْكُثَّانِ لَمَّا لَيْسَتْهُ
فَلَوْلَا أَبُو وَهَبٍ لَمَرَّتْ قَصَائِدُ
فَلَأَتُكَ كَالْوَسْنَانِ يَحْلُمُ أَنَّهُ
وَلَأَتُكَ كَالثُّكْلَى وَكَأَنَّتَ يَمْعَزِلُ
وَلَأَتُكَ كَالشَّاةِ الَّتِي كَانَ حَتْفُهَا
وَلَأَتُكَ كَالْعَاوِي فَأَقْبَلَ نَحْرَهُ
فِيْنَا وَمَنْ يَهْدِي الْقَصَائِدَ نَحْوَنَا
كُمُسْتَبْضِعَ تَغْرَأُ إِلَى أَهْلِ خَيْرٍ^(١)

تنبيهات

الأول: لم يأمر النبي ﷺ البراء بن معمر بإعادة الصلاة التي صلاها إلى الكعبة حيث كان الفرض عليهم إلى بيت المقدس لأن البراء أسلم لما شاهد النبي ﷺ، فلم يأمره بإعادة تلك الصلاة من أجل ذلك كذا قيل، والذي يقتضيه سياق القصة أن البراء كان مسلماً قبل هجرته إلى النبي ﷺ، ويُحتمل أن تكون صلاة البراء إلى الكعبة أتباعاً لما علم به من علماء اليهود أن هذا النبي المبعوث في عصرهم هو على دين إبراهيم ودينهم وقبلته الكعبة مُسْتَضِجِباً لأصل الحكم في ذلك، ورَّجحه على ما وجد فيه من التردد وضده في ثبوته والاختلاف في صحته، وهو وجه من وجوه الترجيح. وقال السهلي: إنما لم يأمره ﷺ بإعادة ما قد صَلَّى لأنه كان مُتَأَوِّلاً.

الثاني: في بيان غريب ما سبق:

«مَجْنَّة»: بميم فجيم مفتوحين، وكسر بعضهم الميم، شَوَيْقُ بِأَسْفَلِ مَكَّةَ عَلَى بَرِيدِ مِنْهَا.

«عُكَاطُ»: بالضم: سوق بقرب مكة وراء قَوْنِ الْمَنَازِلِ.

«مُضَرَّ»: بضم الميم وفتح الضاد المعجمة.

«يُؤْوِينِي»: يَضْمُنُنِي إِلَيْهِ وَيَحْوَطُنِي.

«فَقِهْنَا»: بكسر القاف: فهمنا.

«وَأَعَدَّنَا»: رسول الله ﷺ، يجوز بسكون الدال، فيكون رسول الله ﷺ منصوباً على

أنه مفعول، ويجوز فتح الدال، فرسول مرفوع فاعل.

«اتَّسَمَرْنَا»: شاور بعضنا بعضاً في ذلك وعَزَمَ عليه.

«نَذَرُ»: نَشْرُكُ.

«الشَّعْبُ» بكسر الشين المعجمة: انفراج بين جبَلَيْنِ.

«الْقَطَا»: ^(١) بالقَصْرِ وفتح القاف: نوع من الحمام [واحدتها قَطَاة].

«توافينا»: من توافى القَوْمُ: تَنَافَوا.

«النشاط»: طَيْبُ النفس.

«الكسل» كالتعب: الفتور، فَيَتَخَلَّفُ العبد عن أسباب الخير والفلاح، وإن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

«نضرب أكباد الإِبل»: أي نركب ونسير.

«اللَّؤْمُ»: عَذْلُ الإنسان بنسبته إلى ما فيه لَوْم.

«المُطَيِّ» جمع مَطِيَّةٍ فَعِيلَةٌ بمعنى مفعولة: البعير سمي بذلك لأنه يُزَكَّبُ مَطَاهُ أي ظَهْرُهُ.

«مَشَّكُكُمْ»: أي أَصَابَتْكُمْ.

«تعضكم السيوف»: أي تَجْرَحُكُمْ.

«فَذَرُوهُ»: فَاتْرَكَوْهُ.

«أَمِطْ» ^(٢) نَحَّ وَأَبْعِد.

«البيداء»: المفازة.

«أَدْعَ»: أَثْرَكَ.

«الْبَيْيَّةُ»: بفتح النون وكسر النون وتشديد المنة التحتية المفتوحة ثم تاء تأنيث، وهي الكعبة.

«الرَّحَالُ» بالحاء المهملة: جمع رَحْل وهو في الأصل مأوى الشخص في الحَضَر ثم أُطْلِقَ على أمتعة المسافرين لأنها هناك مأواه.

«مَنْعَةً» ^(٣) بفتح النون باختلاف المعنى وتقدم بيان ذلك.

«الانحياز إليكم»: الاختلاط بكم.

«أُزْرْنَا» [جمع إزار] قال أبو ذر: يعني نساءنا والمرأة قد يكنى عنها بالإزار.

(١) انظر المصباح المنير ٥١٠.

(٢) انظر اللسان ٤٣٠٨/٦، ٤٣٠٩.

(٣) انظر اللسان ٤٢٧٦/٦.

«الحَلْقَة» بسكون [اللام]: السلاح.

«كأبرأ عن كابر»: أي كبيراً عن كبير في العز والشرف.

«جبالاً»: بكسر الحاء المهملة وبالموحدة جمع حبل وهو العهد والميثاق.

«عَسَيْتُ»: بكسر السين وفتحها لغتان.

«الدم الدم الهدم الهدم»: قال في النهاية: يُؤَوَّى الهَذْمُ بسكون الدال وفتحها فالهَذْمُ بالتحريك القَبْرُ يَعْنِي: أَنِّي أَقْبَرُ حَيْثُ تُقْبَرُونَ، وقيل: هو المَنْزِلُ أَي مَنَزَلُكُمْ مَنْزِلِي، كحديثه الآخر: المَخِيَا مَخِيَاكُمْ والمَمَات مَمَاتُكُمْ أَي لَا أَفَارِقُكُمْ، والهَذْمُ بالسكون وبالفتح أيضاً هو إِهْدَارُ دَمِ الْقَتِيلِ، يقال: دِمَاؤُهُمْ بَيْنَهُمْ هَذْمٌ أَي مُهَذَّرَةٌ والمعنى أَنَّ مَنْ طَلَبَ دَمَكُمْ فَقَدْ طَلَبَ دَمِي وَأَنَّ مَنْ أَهْدَرَ دَمَكُمْ فَقَدْ أَهْدَرَ دَمِي، لاستحكام الألفَةِ بَيْنَنَا، وهو قول معروف للعرب يقولونه عند المعاهدة والتَّضَرُّة وفي تهذيب الأزهري أَنَّ ابن الأعرابي رواه بالفتح: دَمِي دَمُكَ وَهَذَمِي هَذَمُكَ.

«النقيب»: (١) قال في التقریب: يُقَالُ: نَقَبَ الرَّجُلُ وَنَقَّبَ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ اسْتَخْرَاجَ الْأَسْرَارِ وَالنَّقِيبُ الْأَمِينُ وَالْكَفِيلُ وَالْعَرِيفُ أَوْ هُوَ فَوْقَ الْعَرِيفِ، وشاهدُ الْقَوْمِ نَقَّبَ عَلَيْهِمْ كَقَتْلَ يَقَابَةَ بِالْكَسْرِ فَعَلَ ذَلِكَ. وَنَقَّبَ بِالضَّمِّ نَقَابَةً بِالْفَتْحِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فَصَارَ نَقِيباً، وَنَقَبَاءُ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا لِأَخْذِ الْبَيْعَةِ لِنَصْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ سَمَوْا بِذَلِكَ لَضَمَانِهِمْ إِسْلَامَ قَوْمِهِمْ.

شرح أبيات كعب بن مالك [الأنصاري]

«قَالَ رَأَيْتُهُ» بفاء ولام: أَي بَطُلَ.

«فلا تُوعَيْنَ»، بضم المثلثة الفوقية وسكون الراء وكسر العين المهملة وفتح المثناة التحتية ونون التوكيد: أَي لَا تُثَبِّتِينَ. يقال: مَا أَرَعَى عَلَيْهِ أَي مَا أَبْقَى عَلَيْهِ.

«أَلْبَ» وَجَجَعَ بِمعنى «جَادِع» (٢) بِالْجِيمِ أَي قَاطَعَ.

«إِخْفَاؤُهُ» بِالْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ: نَقَضَ عَهْدَهُ.

«ناقع» بالقاف: ثَابِتٌ.

«الْقَوْقَلِي» بِقاف مفتوحة فواو ساكنة فقاف مفتوحة ولام. [نسبة لأبي بطن] من الخزرج: قَوْقَلٌ، وَهُوَ غَنَمٌ بَنَ عَوْفٌ بَنَ عَمْرُو بَنَ عَوْفٌ بَنَ الْخَزْرَجِ، كَذَا لَابْنُ الْكَلْبِيِّ، وَقَالَ ابْنُ

(١) انظر المصباح المنير ٦٢٠.

(٢) انظر المعجم الوسيط ١١٠/١.

إسحاق: قيل لهم القوافل لأنهم كانوا إذا أجاروا أحداً أعطوه سهماً وقالوا له: قَوْلٌ به حيث شئت، أي سِرٌّ به حيث أَرَدْتَ.

«بَعْنُدُوْحَة»^(١) أي يَحْتَسِع.

«يَافِع» بالمشناة التحتية والفاء المكسورة: أي موضع مرتفع فالتَّيْفَاع ما ارتفع من الأرض ومن رواه باقٍ بالباء المُؤَحَّدة والقاف فمعناه بعيد وهو مأخوذ من بَقَعَ الأرض.

«خَانِيع»^(٢) بالخاء المعجمة والنون: أي مُقَرَّرٌ مُتَدَلِّل.

«الْأَحْمُوْقَة» أَفْعُولَةٌ من الْحُمُق وحقيقته وضع الشيء في غير موضعه مع العلم بِقُبْحِهِ.

«نَازِع» بالزاي والعين المهملة: أي ذاهب.

«ضَبْرُوح»^(٣) بفتح الضاد المعجمة وضَمِّ الراء وبالحاء المهملة أي مَانِعٌ ودَافِعٌ عن نفسه من قولهم: ضَبَرَحَتِ الدَّائِيَةُ بِرِجْلِهَا ضَرَبَتْ بِهَا.

«أُولَاك» بترك الهمزة أي أُولَئِكَ.

«يُعْبَلُكُ» بضم المشناة التحتية وكسر الغين المعجمة وتشديد الباء الموحدة من أَعْبَبَ الْقَوْمَ إذا جاءهم يوماً وتركهم يوماً.

«دُجَى اللَّيْلِ» بضم الدال المهملة: أي ظلمة الليل.

شرح ما جاء في بيعة العقبة

«كُفْلَاء» جمع كفيل: وهو الضَّيِّين.

«عَلَامَ»: ما استفهامية اتصلت بعلى.

«الْأَحْمَر»: الْعَجَم «وَالْأَسْوَد»: الْعَرَب.

«نُهِكْتُ» بضم النون وكسر الهاء وفتح الكاف فتاء تَأْنِيث: نَقَصْتُ.

«أَنْقَذَ صَوْتَ» بالذال المعجمة: أَبْعَدَ.

«الْجَبَّاجِب» بجيمين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبعد كل جيم مُؤَحَّدة، قال في القاموس: جبال بمكة أو أسواقها أو منحَرٍ مِنِّي كان يُلْقَى به الكروش.

«الْمُدَّام» بزال معجمة: المدموم جداً، وأرادت قریش عكس اسم النبي ﷺ فكانوا

(١) انظر لسان العرب ٤٣٨١/٦.

(٢) اللسان ١٢٧٩/٣.

(٣) انظر اللسان ٢٥٧٢/٤.

يقولون عِيَّضَ محمد: مُدَّمَ بوزنه وعكس معناه، وَكَذَّبُوا بل محمد من كثرة خصاله المحموده وكذلك كان النبي ﷺ وهو اسم صادق على مُسَمَّاه.

«الصُّبَّاء»^(١) بضم الصاد المهملة والباء المُشَدَّدَة جمع صابئ: وهو الخارج من دين إلى دين.

«إِزْب» بهمزة مكسورة فراي ساكنة فباء مُوَحَّدَة. وفيما ذكر ابن هشام بفتح الهمزة وسكون الزاي وفتح الياء [أَزْب].

«أَرْقُضُوا»^(٢): تَفَرَّقُوا.

«أَحْقَظْتُ» الفتى بالحاء المهله والفاء والطاء المعجمة: أَي أَغْضَبْتُهُ والحفيظة الغَضَب.

«أَمَرُ جسيم»: عظيم.

«لِيَتَفَرَّقُوا عَلَيَّ»، من الْقَوْتُ، يُقال: تَفَرَّقْتُ فلان على فلان في كذا وافتات عليه إذا انفرد برأيه دونه في التصرف ولما ضُبِّنَ معنى التغلب غُذِّيَ بعلی.

«تَنَطَّس» بمثناة فوقية فنون فطاء فسين مهملتين، قال ابن هشام: المُبالغة في التفتيش.

«أَذَاخِر» بذال وخاء مكسورة معجمتين: اسم موضع.

«يَنْشِعَ رَحْلُهُ»^(٣): بنون مكسورة فسين فعين مهملتين: السير المضفور من الأديم على هيئة أَعِنَّة البغال..

«الجُمَّة»: بالضَّم: الشَّعْر إلى شَحْمَة الأُذُن.

«وَضِي»: جميل.

«لَكَمَّة»: ضربه بجَمْع كَفَّه.

«أَوَى»: أَي أَشْفَقَ وَرَجِم.

«شَعَشَاع»^(٤): طويل.

«مَجَوَّار»: بضَم الجيم وكسرها: العهد والأمان.

«تَجَار»: بكسر التاء يُخَفَّف وَيُشَدَّد: جمع تاجر.

«فَاهَيْف»: صيغ واذُع.

(١) انظر اللسان ٢٣٨٥/٤،

(٢) يَرْقُض: تفرق وتبدد وزال وسال وترش وارفض بمعنى ترفض. الوسيط ٣٦٠/١.

(٣) النسخ: سير يضفر على هيئة أَعِنَّة النعال تشد به الرِّحال: والجمع أنساع ونسوع ونسع والقطعة فيه نسعة قال عبد يغوث:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة

اللسان ٤٤١٠/٦.

(٤) انظر لسان العرب ٢٢٧٩/٣.

شرح أبيات ضرار بن الخطاب وحسان بن ثابت

«عَنُوة»^(١): بفتح العين: أي قهراً.

«طُلْتُ» بضم الطاء المهملة وتشديد اللام المفتوحة ثم تاء التأنيث: أي أهدرت.

«خَرَّيْتُ»: بفتح الحاء المهملة وكسر الراء وتشديد المثناة التحتية: أي حقيقاً وجديراً.

«ضُبَّرَا»: بضم الضاد المعجمة: جمع ضامر.

«شَرَفَ»: المكان العالي يُشرف على ما حوله.

«تَدَارَكْتُ وَأَخَذْتُ»: كلاهما بقاء الخطاب.

«الْبَرَقَاء»^(٢): كل موضع فيه حجارة مختلفة الألوان.

«الْكُتَّان»: بفتح الكاف.

«الْأَبَاط»: قوم من العجم.

«الرَّيْط»^(٣): الملاحف البيض واحدتها رَيْطَة.

«مُقْصَّرَا»: بهميم مضمومة قفاف مفتوحة فصاد مهملة مُشَدَّدة: أي قُصِّرَتْ بالمَقْصَرَة
كَمِكنَسَة خشبة القَصَّار.

«حُسْرَا»: مُغْيِيَة.

«الْوَسْتَان»^(٤): النائم.

الثَّكَلَى: المرأة الفاقدة ولدها.

«حَتَفَهَا»: هلاكها.

«مَخْفَرًا» بفتح الفاء: مصدر «وَمَخَفِرًا» بكسر الفاء: مكان.

الثالث: في معرفة أسماء الذين بايعوا لَيْلَة العقبة الثالثة:

وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين. قال في العيون: هذا هو العدد المعروف، وإن زاد في التفصيل فليس ذلك بزيادة في الجملة وإنما هو لِمَحَلِّ الخلاف فيمن شهد. فبعض الرِّوَاة يثبتونه وبعضهم يثبت غَيْرَهُ بدله. قلت: ورَّئِبُ ابن إسحاق أسماءهم على القبائل والبطون ورَّئِبُهُم على حروف المعجم ليسهل الكشف عنهم. واعلم أن كل اسم يأتي فيهم بلفظ: «عبد

(١) انظر المصباح المنير ٤٣٤.

(٢) البرقاء: أرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين مختلطة وجمعها (براقى) الوسيط ٥١/١.

(٣) الرَيْطَة: الملاعة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفتين وقيل: الرَيْطَة كل ملاعة غير ذات لفتين كلها نسيج واحد وقيل: هو كل ثوب لين رقيق، والجمع رَيْط ورِيَاط. اللسان ١٧٩٢/٣.

(٤) الوسن الناس قال ابن القطاع: والاستيقاظ. ورجل وسنان وامرأة وسنى. المصباح المنير ص ٦٦٠.

الأشهل» فإنه بشين معجمة، أو بلفظ «بُهِتَه» فإنه بضم الباء المُوحَّدة وسكون الهاء وبالثاء المثلثة، أو بلفظ «يزيد» فإنه بالمشناة التحتية إلا «تزيد بن جُشَم» فإنه بالمشناة الفوقية والزاي بعدها تحتية. أو بلفظ «جُشَم» فإنه بجيم مضمومة فشين معجمة مفتوحة، وهو غير منصرف للعلمية والعدل من جاشم، أو بلفظ «حارثة» فإنه بالحاء المهملة والمثلثة، أو بلفظ «حَرَام» فإنه بالحاء والراء المهملتين، أو بلفظ «خُنُسَاء» فإنه بخاء معجمة فنون فسين فألف تأنيث. أو بلفظ «زُرَيْق» فإنه بزاي مضمومة فراء مفتوحة فمُثَنَّاة تحتية ساكنة فقفاف. أو بلفظ «زَعوراء» فإنه بزاي مفتوحة فعين مهملة مضمومة فواو ساكنة فراء فهمزة مدودة، أو بلفظ «سَارِدَة» بكسر الراء فإنه بمُثَمَلَات، أو بلفظ «سَرَح» بسكون الراء فإنه بمهملات، أو بلفظ «سَلِمَة» بكسر اللام، أو بلفظ «السَلَم» فإنه بفتحتين. أو بلفظ «سينان» فإنه بسين مكسورة ونونين بينهما ألف أو بلفظ «سَوَاد» فإنه بفتح السين المهملة وتخفيف الواو وآخره دال مهملة. أو بلفظ «عَنَم» فإنه بغين معجمة فنون ساكنة أو بلفظ «لَوْدَان» فإنه بفتح اللام والذال المعجمة. أو بلفظ «مَبْدُول» فإنه بالموحدة والمعجمة بلفظ اسم المفعول. أو بلفظ «نَابِي» فإنه بالنون والباء الموحدة. أو بلفظ «النَّجَار» أو «النَّجَّارِي» فإنه بالنون والجيم.

باب الهمزة: أُبَيّ - بضم الهمزة وفتح الموحدة وتشديد التحتية - ابن كعب بن قيس بن عُثَيْد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النُّجَّار، وهو تيم الله بن ثعلبة بن عَمْرُو بن الخزرج بن عمرو بن خبيب - بفتح المهملة وكسر الموحدة - ابن حارثة بن غضب بفتح الغين وسكون الضاد المعجمتين. أسعد بن زُرَّارة - بضم الزاي - ابن عُدَس بن عُثَيْد بن ثعلبة بن عَنَم بن مالك بن النُّجَّار الخزرجي النُّجَّاري أبو أُمَامَة. أُسَيْد - بضم أوله وسكون التحتية - ابن حَضْبَر - بحاء مهملة مضمومة فضاد معجمة مفتوحة فراء - ابن سِمَاك - بكسر السين المهملة وآخره كاف - ابن عَتِيك - ككريم - ابن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأشهلي يُكْنَى أبا يحيى وقيل كنيته أبو عتيك. أوس بن ثابت - بالمثلثة - ابن المنذر بن حَرَام بن عمرو بن زَيْد مَنَاء - بفتح الميم - ابن عَدِيّ بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج أخو حُشَّان بن ثابت رضي الله عنه. أوس بن زيد بن أصرم، ذكره ابن عُقْبَة فيهم.

الباء المُوحَّدة: البَرَاء - بفتح الموحدة فالراء ممدوداً مَحْفُفًا - ابن مَغْرُور - بميم مفتوحة فعين مهملة ساكنة فراء مضمومة فواو فراء أخرى - ابن صَخْر - بصاد مهملة مفتوحة فحاء معجمة - ابن خنساء بن سنان بن عُثَيْد بن عَدِيّ بن عَنَم بن كعب بن سَلِمَة بن سعد بن علي بن أَسَد بن ساردة بن يزيد بن جُشَم بن الخزرج، وهو أول من بايع ليلثلي في قول ابن

إسحاق، وأول من أوصى بثلاث ماله. يَشْرُ بن البراء بن معرور. بِشِير - بفتح أوله وكسر المعجمة بعدها مثناة - ابن سعد بن ثعلبة بن جُلَّاس - بضم الجيم مخففاً وضبطه الدارقطني بفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام - ابن زيد بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج. بُهَيْز - بضم أوله وفتح الهاء وسكون التحتية، قال في النور: وآخره زاي، وضبطه الحافظ في الإصابة بالراء: وقيل: أوله نون بدل المؤخدة - ابن الهيثم بن عامر، وقيل ابن نابي بن مَجْدَعَة - بفتح الميم وسكون الجيم، وبالعين المهملة - ابن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأوسي الحارثي.

الثاء المثلثة: ثابت بن الجذع - واسم الجذع ثعلبة، والجذع بكسر الجيم وبالذال المعجمة كذا قال في النور، وفي نسخة صحيحة من العيون بضم الجيم وفتح الذال وفي نسخة صحيحة من سيرة ابن هشام بفتحها - ابن زيد بن الحارث بن حرام بن كعب بن سَلِمة بن سعد بن علي بن أسد بن سارِدة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي السلمي. ثعلبة بن عُبيد بن عَدِيّ: قال الذهبي في التجريد: «ذكره ابن الجوزي في التلقيح». قال الحافظ: «أخشى أن يكون وقع في اسم أبيه تصحيف وهو ثعلبة بن عَنَمَة - بعين مهملة ونون فميم مفتوحات - ابن عدي بن نابي بن عمرو بن سَوَاد بن عَنَم بن كعب بن سَلِمة السلمي الخزرجي».

الجيم: جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن عَنَم بن كعب ابن سَلِمة بن سعد بن علي بن أسد بن سارِدة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي السلمي. جَبَّار - بجيم مفتوحة فباء مؤخدة مشددة فراء - ابن صَخْر بن أمية بن خنساء - ويقال ثَعْنِيس - ابن سنان بن عُبيد بن عَدِيّ بن عَنَم بن كعب بن سَلِمة الخزرجي ثم السلمي أبو عبد الله.

الحاء المهملة: الحارث بن قيس بن خَلْدَة - بفتح الخاء المعجمة واللام ويقال خالد - ابن مُخَلَّد - بضم الميم فحاء معجمة فلام مُشَدَّدة مفتوحتين - ابن عامر بن زُرَيْق [بن عامر بن زُرَيْق] بن عبد حارثة بن مالك بن عَضْب - بغين مفتوحة فضاء ساكنة معجمتين - ابن جُشَم ابن الخزرج الخزرجي ثم الزرقعي، أبو خالد.

الخاء المعجمة: خارجة بن زيد بن أبي زُهَيْر بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأغر ابن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث الخزرجي. خالد بن زيد بن كَلَيْب - بضم الكاف - ابن ثعلبة بن عبد عوف بن عَنَم بن مالك بن التَّجَار [واسمه] تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج [الأكبر] أبو أيوب الخزرجي التجاري. خالد بن عمرو بن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن عدي بن عَنَم بن كعب بن سَلِمة [الخزرجي] السلمي. خالد بن قيس بن مالك بن

العجلان بن مالك بن عامر بن بياضة [ابن عامر بن زُرَيْق بن عبد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخزرج الأكبر الخزرجي البياضي. خديج بن سلامة - وقيل بن سالم بن أوس بن عمرو بن القُرَاقِر - بقافين وراءين مُهَمَّلَتَيْن - ابن الصُّنْحِيَّان البلوي نَسَباً الأنصاري جلفاً، حليف لبني حرام بن كعب بن غُثَم بن كعب بن سَلِمْة من الأنصار. خَلَاد - بفتح أوله وتشديد اللام وآخره دال مهملة - ابن سُؤَيْد بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأكبر الأنصاري الخزرجي الحارثي [من بلحارث بن الخزرج].

الذال المعجمة: ذُكْوَان بن عبد قَيْس بن خَلْدَة - أخو الحارث السابق - ابن مُخَلَّد بن عامر بن زُرَيْق أبو السبع - بسين مهملة فباء موحدة، كان خرج إلى رسول الله ﷺ بمكة فهو مهاجري أنصاري.

الراء: رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زُرَيْق بن عامر بن عبد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي الزرقى. رفاعه - بكسر الراء وتخفيف الفاء وفتح العين المهملة - ابن رافع بن مالك بن العجلان الخزرجي الزرقى. رفاعه بن عبد المنذر بن زَنْتَر - بزاي مفتوحة فنون ساكنة فمُوحَّدة مفتوحة - ابن زيد بن أمية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس أبو لُبَابَة الأُوسِي. رفاعه بن عمرو بن زيد - وقيل ابن نوفل وقيل ابن عمرو وقيل ابن قيس - ابن ثعلبة بن جُشَم بن مالك بن سالم بن غُثَم بن عوف بن الخزرج الخزرجي أبو الوليد.

الزاي: زياد بن لَبِيد - بفتح اللام وكسر الموحدة وسكون التحتية وآخره دال مهملة - ابن ثعلبة بن سنان بن عامر بن عَدِيَّ بن أمية بن بياضة - بالمعجمة - ابن عامر بن زُرَيْق بن عبد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي البياضي. زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النُّجَاج الخزرجي النُّجَاجِي أَبُو طَلْحَة [وهو مشهور بكنيته وهو زوج أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك.

السين المهملة: سعد بن خيشمة - بخاء مفتوحة فمشناة تحتية فمثلثة فميم فهاء تأنيث - ابن الحارث بن مالك بن كعب بن النُّحَاط - بنون فحاء وطاء مهملتين بينهما ألف - ابن كعب بن حارثة بن غُثَم بن السُّلَم - بسين مهملة مشددة فلام ساكنة - ابن امرئ القيس بن مالك بن الأوس الأوسِي أَبُو خيشمة. سعد بن الربيع - بفتح الراء - ابن عمرو بن أَبِي زُهَيْر بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج. سعد بن زيد بن مالك بن عبد بن كعب بن عبد الأشهل الأوسِي الأشهلِي. سعد بن عُبادَة - بعين مهملة

مضمومة فباء موحدة مُحَقَّفة - ابن دُلَيْم - بدال مهمل مضمومة فلام مفتوحة فمثناة تحتية ساكنة - ابن حارثة بن أبي حَزِيمَة - بحاء مهمل مفتوحة فزاي مكسورة فمثناة تحتية، قال في الإملاء: هذا هو الصواب وكذا قَيَّده الدارقطني ويروى بخاء مضمومة وزاي مفتوحة - ابن ثعلبة بن طَرِيف - بالطاء المهمل المفتوحة وبالفاء - ابن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج، يُكْنَى أبا ثابت [وقيل] أبا قيس، سيد الخزرج. سَلَمَة - بفتح أوله وثانيه - ابن سلامة بن وَقْش - بفتح الواو وإسكان القاف وتُفْتَح - ابن زُغْبَة - بزاي مضمومة فغين معجمة ساكنة، فمُوحَّدة مفتوحة فتاء تأنيث - ابن زَعُوراء بن عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن مالك بن الأوس الأوسي الأشهلي. سليم بن عمرو - أو عامر - ابن حديدة - بفتح الحاء المهمل - ابن عمرو بن عَنَم بن سواد بن عَنَم بن كعب بن سَلَمَة، السَلَمِي. سِنَان بن صيفي بن صَخْر بن خنساء بن سنان بن عُثَيْد بن عَدِي بن عَنَم بن كَعْب بن سَلَمَة الخزرجي السلمي. سهل بن عَتِيك - ككريم - ابن النعمان بن عمرو بن عَتِيك بن عمرو بن مبدول - بالذال المعجمة اسم مفعول - وهو عامر بن مالك بن النُّجَار الخزرجي.

الشين المعجمة: شمر بن سعد بن ثعلبة، كذا في التلقيح ولم أره في غيره.

الصاد المهمل: صيفي بن سواد بن عُبَاد بن عمرو بن عَنَم بن سواد بن عَنَم بن كعب بن سَلَمَة السلمي.

الضاد المعجمة: الضُّحَاك بن زيد بن الطفيل، كذا في التلقيح ولم أره في غيره. الضُّحَاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بن عُثَيْد بن عَدِي بن عَنَم بن كعب بن سَلَمَة الخزرجي ثم السَلَمِي.

الطاء المهمل: الطفيل بن مالك بن خنساء بن سنان بن عُثَيْد بن عَدِي بن عَنَم بن كعب السلمي.

الظاء المعجمة: ظُهَيْر - بالتصغير - ابن رافع بن عَدِي بن زيد بن جُشَم بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو - وهو النبيت - ابن مالك بن الأوس الأوسي.

العين المهمل: عامر بن نابي - بالنون وبالموحدة - ابن زيد بن حرام. عُبَادَة - بضم أوله وتخفيف المُوَحَّدة - ابن الصاميت - بكسر الميم - ابن قيس بن أَصْرَم بن فُهْر بن ثعلبة بن عَنَم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الخزرجي أبو الوليد. عُبَاد - بفتح أوله وتشديد الموحدة - ابن قيس - بالمثناة التحتية - ابن عامر بن خالد بن مُكَلَّد - كمحمد - ابن عامر بن زُرَيْق الزرقي. العباس بن عُبَادَة بن نضلة - بنون مفتوحة فضاد معجمة ساكنة - ابن مالك بن العجلان الخزرجي. عبد الله بن أَنَيْس - بضم أوله مُصَغَّرًا - ابن أسعد بن حرام بن حُبَيْب بن

مالك بن عَنَم بن كعب بن ناشر - بالنون والشين المعجمة والزاي - ابن يَزْبُوع - بمشناة مفتوحة فراء ساكنة فمَوْحَدَة مضمومة فعين مهملة - ابن البُرْك - بموحدة مضمومة فراء ساكنة فكاف - ابن وَبَرَة - بفتح الواو فالموحدة والراء، وعند ابن عَمَر: تيم بن ثَفَاة - بنون مضمومة ففاء ومثلثة - ابن إِيَّاس بن يربوع، دَخَلَ البُرْك في جهينة حليفاً لهم. عبد الله بن جُبَيْر - بضم الجيم وفتح الموحدة - ابن النعمان بن أمية بن امرئ القيس - وهو البُرْك - بضم الموحدة وفتح الراء وبالكاف - ابن ثعلبة بن عَمْرُو [بن عوف بن مالك بن الأوس الأوسي] ثم من بني ثعلبة بن عَمْرُو. عبد الله بن الربيع بن قيس بن عمرو بن عَبَّاد بن الأَبَجَر - بفتح الهمزة فموحدة ساكنة فجيم مفتوحة فراء، والأَبَجَر هو خُذْرَة - بضم الخاء المعجمة وإسكان الدال المهملة - ابن عوف بن الحارث بن الخزرج الخزرجي. عبد الله بن رَوَاحَة - بالفتح ومهملة مُخَفَّفَاً - ابن ثعلبة بن امرئ القيس بن عَمْرُو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأَعَزَّ بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الخزرجي. عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه بن زيد من بني جُشَم بن الحارث بن الخزرج، الخزرجي الحارثي ويُكْنَى أبا محمد وهو الذي أَرَى الأَذَان في النوم. عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن عَنَم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي السلمي، يكنى أبا جابر والد جابر بن عبد الله. عَبَس - بفتح أوله وسكون الباء وبالسین المهملة - ابن عامر بن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن تميم بن كعب بن سَلِمة السَلَمِي. عُتَيْد - بضم أوله بغير إضافة - ابن التَّيْهَان، أخو أبي الهيثم. عُقْبَة - بضم أوله - ابن عَمْرُو بن ثعلبة بن أُسَيْرَة - بضم الهمزة وفتح المهملة - ابن عُسَيْرَة، واختلفوا في تقييد عسيرة فمنهم من يفتح العين ويكسر السين المهملتين ومنهم من يضم العين ويفتح السين - ابن عطية بن خُذْرَة - بالخاء المعجمة المضمومة، وبعضهم يقول بهجيم مضمومة ومكسورة - ابن عوف بن الحارث بن الخزرج أبو مسعود البدري. عُقْبَة بن وَهَب بن كَلْدَة - بفتح الكاف واللام والدال المهملة - ابن الجَعْد - بفتح الجيم وسكون العين وبالدال المهملتين - ابن هلال بن الحارث بن عَمْرُو بن عدي بن جُشَم بن عوف - بالفاء - ابن بُهْثَة بن عبد الله بن عَطْفَان - بفتح الغين المعجمة والطاء المهملة والفاء - ابن قيس بن عَيْلَان العَطْفَانِي، حليف لبني سالم بن عَنَم بن عَوْف بن الخزرج. قال ابن إسحاق: «كان أول من أسلم من الأنصار ولحق برسول الله ﷺ بمكة فلم يزل معه حتى هاجر فكان يقال له مهاجري أنصاري». عُمَارَة - بضم أوله والتخفيف - ابن خَزَم بن زيد بن لَوْذَان بن عَمْرُو بن عَبْد بن عوف بن عَنَم بن مالك بن التَّجَار، الخزرجي التَّجَارِي. عَمْرُو بن الجَمُوح - بفتح الجيم وضم الميم وبالحاء المهملة - ابن زيد بن حرام بن كعب بن عَنَم بن سَلِمة السَلَمِي من بني جُشَم بن الخزرج.

عَمْرُو بن الحارث بن كِنْدَةَ بن عَمْرُو بن ثعلبة من القواقل شهد العقبة الثانية قاله ابن إسحاق. عَمْرُو بن عَنَمَة - بمهملة فنون فميم مفتوحات - ابن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن غَنَم بن كعب بن سَلِمة السلمى. عَمْرُو بن غَزِيَّة - بغين معجمة مفتوحة فزاي مكسورة فمشاة تحتية مُشَدَّدَة - ابن عمرو بن ثعلبة بن خنساء بن مبدول بن عَمْرُو بن غَنَم بن مازن - بالزاي - ابن النُّجَّار الخزرجي ثم المازني، يقال إنه شهد العقبة، وقال ابن هشام: عَمْرُو بن غزية بن عَمْرُو بن ثعلبة وهو عطية بن خنساء. غَمَيْر - وقيل عَمْرُو - ابن الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن حرام بن كعب ابن غَنَم بن كعب بن سَلِمة بن سعد الخزرجي كذا نسبته ابن إسحاق وزاد موسى بن عُقْبَة بَيِّن الحارث وثلعة: لَيْثَة - بكسر اللام وإسكان الموحدة وبالمهملة. غَمَيْر بن عامر بن نابي بن يزيد بن حرام الخزرجي، قال ابن الكلبي: شهد المشاهد كلها، وأَقْرَهُ الرشاطي والحافظ، وقال الحافظ الدمياطي: لم أَر من ذكره في الصحابة غيره. عوف بن الحارث بن رِفاعة - بكسر الراء - ابن الحارث بن سواد [بن مالك بن غَنَم بن مالك بن النُّجَّار الخزرجي] النُّجَّاري يُغْرَف بأمه غُفراء، ويقال بحذف الحارث الثاني. غَوْنَم - بضم أوله وفتح الواو وسكون التحتية بعدها ميم وليس بعدها راء - ابن ساعدة بن غَاش - بمثناة تحتية فشين معجمة - ابن قيس بن النعمان بن زيد بن أُمَيَّة بن مالك بن عوف بن عَمْرُو بن عوف بن مالك بن الأوس الأوسي.

الفاء: فَرْوَة - بفتح الفاء وسكون الراء - ابن عَمْرُو بن وَذفة - بفتح الواو وإسكان الدال، قال ابن إسحاق: وهي معجمة وقال ابن هشام: مهملة وَرَجَّحَهُ السهيلي وَفْشَرَة بالروضة - ابن عُثَيْد بن عامر بن بياضة البياضي.

القاف: قَتَادَة بن النعمان بن زيد بن عامر بن سواد بن ظَفَر بن الخزرج [بن عمرو بن مالك بن الأوس] الأوسي ثم الظَفَرِي، ذكره فيهم إلا ابن إسحاق. قُطْبَة - بضم أوله وسكون الطاء المهملة - ابن عامر بن حَلِيدَة بن عمرو بن سواد بن غَنَم بن كعب بن سَلِمة الخزرجي الشَّلَمي يُكْنَى أبا زيد. قيس بن أبي صعصعة - واسم أبي صعصعة عَمْرُو - ابن زيد بن عوف بن مبدول بن عَمْرُو بن غَنَم بن مازن بن النُّجَّار الخزرجي المازني.

الكاف: كَعْب بن عَمْرُو بن عَبَّاد - بفتح العين المهملة وتشديد الباء المُوَحَّدَة - ابن عَمْرُو بن سواد بن غَنَم [بن كعب بن سَلِمة بن سعد بن علي بن أسد بن سَارِدَة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج] الخزرجي الشَّلَمي أبو اليَسَر - بفتح المثناة التحتية والمهملة. كعب بن مالك بن أبي كعب عَمْرُو بن القَيْن - بفتح القاف وسكون المثناة التحتية - ابن كعب بن سواد بن غَنَم بن كعب بن سَلِمة بن سعد بن غُلَي - بضم العين المهملة وفتح اللام - ابن أسد بن سارِدَة أبو عبد الله الخزرجي الشَّلَمي - بفتحَيْن ويقال أبو بشير، ويقال أبو عبد الرحمن.

الميم: مالك بن النِّيهان - بمشناة فوقية مفتوحة فمشناة تحتية مكسورة مُشَدَّدة ويجوز تخفيفها فألف فنون - ابن مالك بن عُبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زعوراء بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو وهو النِّيبِت - بفتح النون وكسر الباء الموحدة فمشناة تحتية ساكنة فمشناة فوقية - ابن مالك بن الأوس، أبو الهيثم الأوسي. مالك بن الدُّخْشَم - بدال مهملة مضمومة فحاء ساكنة فشين مضمومة معجمتين فميم ويقال بالنون بدل الميم ويقال كذلك بالتصغير. - ابن مالك بن عَنَم بن عوف بن عمرو بن عوف، وقيل في نسبه غير هذا. قال أبو عمر: لا يصح منه التَّفَاق فقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه بذلك. مالك بن رفاعة بن عمرو بن زيد، ذكره الأموي، كذا في العيون ولم أره في التلقيح لاهن الجوزي ولا في العُجالة للبرهان النووي ولا في الإصابة للحافظ. مسعود بن يزيد بن شُبَيْح بن خنساء - ويقال سنان - ابن عُبيد بن عدي بن كعب بن عَنَم بن كعب بن سَلِمة السَّلَمِيّ.. مُعَاذ - بضم أوله وبالذال المعجمة - ابن جَبَل - بفتح الجيم والموحدة - ابن عمرو بن أوس بن عايد - بالمشناة التحتية والذال المعجمة - ابن عدي بن كعب بن عمرو بن أدِيّ - بضم الهمزة وفتح الدال المهملة وتشديد المشناة التحتية - ابن سعد بن عَلِيّ - بضم العين المهملة وفتح اللام - ابن أَسَد بن ساردة بن يزيد بن جُشَم بن الخزرج، أبو عبد الرحمن الخزرجي الجُشَمِيّ، الإمام المُقَدِّم في علم الحلال والحرام رضي الله تعالى عنه. مُعَاذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن عَنَم بن مالك بن النُّجَّار الخزرجي، يُعْرَف بأُمِّه عَفراء. معاذ بن عمرو بن الجُمُوح - بجيم مفتوحة فميم فواو - ابن زيد بن حرام بن كعب بن عَنَم بن كعب بن سَلِمة الخزرجي السَّلَمِيّ. مُعْقِل - بميم مفتوحة فعين ساكنة مهملة فقاف مكسورة فلام - ابن المُثَلِّير بن سَرَح - بسين فراء فحاء مهملات - ابن حُتَّاس بن سَيَّان بن عبيد بن عدي بن عَنَم السلمي، معن بن عدي بن الجَدّ - بفتح الجيم وتشديد الدال المهملة - ابن العَجَلان بن ضُبَيْقة - بضم الضاد وفتح الموحدة وسكون التحتية وبالعين - ابن حارثة بن ضُبَيْقة بن حَرَام بن جُفَل - بضم الجيم وسكون العين المهملة - ابن عمرو بن جشم بن رَدَم بن دُبَيَّان بن هُمَيْم - بضم الهاء مُصَغَّرًا - ابن دُفَل - بضم الدال المعجمة - ابن هَيْب بن يَلِيّ البلوي، حليف بني عمرو بن عوف. مُعَوِّذ - بالذال المعجمة بلفظ اسم الفاعل - ابن الحارث بن رفاعة، ويُعْرَف بأُمِّه عَفراء. المُثَلِّير بن عمرو بن حُنَيْس بن حارثة بن لَوْذَان بن عبدود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الخزرجي الساعدي.

النون: النعمان بن عمرو بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن عَنَم بن مالك بن النُّجَّار. نهير بن بهير - بالموحدة، وهو نهير بن الهيثم - من بني نابي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأوسي.

الهاء: هانيء - بهمة آخره - ابن نيار - بكسر النون وتخفيف المشناة التحتية وآخره راء - ابن عمرو بن عُبيد بن كلاب بن دُهَمَان - بدال مهملة مضمومة فهاء ساكنة - بن عَنَم بن دُبَيَّان - بدال معجمة مكسورة ويجوز ضمها فموحدة ساكنة فمشناة تَحْتِيَّة وآخره نون - ابن هُمَيْم - بهاء مضمومة فميم مفتوحة فَمُثْنَاة تحتية فميم أخرى - ابن كاهل - بكسر الهاء - ابن دُهل - بضم الدال المعجمة وسكون الهاء - ابن هَنِيٍّ - بفتح الهاء وكسر النون وتشديد التحتية - ابن بَلِيٍّ - بالموحدة واللام وزان عَلِيٍّ - ابن عمرو بن الحاف - بالحاء المهملة والفاء ومنهم من يكسر همزته ويقطعها ومنهم من يجعل الألف واللام فيه للتعريف منزلة اسم الفاعل من خَفِيٍّ يَخْفَى - ابن قُصَاعَة - بضم القاف وبالضاد المعجمة حليف لبني حارثة من الأنصار.

المُثْنَاة التحتية: يزيد بن ثعلبة بن خَزَمَة - بفتح المعجمتين قاله الدارقطني، وقال ابن إسحاق وابن الكلبي بسكون الزاي - ابن أَصْرَم بن عمرو بن عَمَّارة - بفتح أوله والتشديد - ابن مالك البلوي أبو عبد الرحمن حليف بني سالم بن عوف بن الخزرج. يزيد بن خِدَام - بخاء مكسورة وذال معجمتين، ويقال حرام بالحاء والراء المهملتين - ابن شَيْع - بموحدة مُصَغَّرًا - ابن خنساء بن سنان بن عُبيد بن عَدِيٍّ بن عَنَم بن كعب بن سَلَمَة الخزرجي السلمي. يزيد بن عامر بن حديدة - بالحاء المهملة - ابن عَنَم بن سواد بن عَنَم بن كعب بن سلمة أبو المؤنذر الخزرجي السلمي. يزيد بن المنذر بن سَرْح - بمهملات - ابن خُنَّاس بن سنان بن عُبيد بن عدي بن كعب بن سلمة الخزرجي السلمي.

الكُتَي: أبو سنان بن صيفي بن صخر بن خنساء بن سنان بن عُبيد بن عدي بن عَنَم بن كعب بن سَلَمَة.

النساء: أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي بن سواد بن عَنَم بن كعب بن سلمة، أم منيع السلمية. نسيبة بفتح النون وكسر السين المهملة - بنت كعب بن عمرو بن عوف بن عمرو بن مبدول بن عمرو بن عَنَم بن مازن، أم عمارة.

الباب التاسع

في إسلام عمرو بن الجموح

بفتح الجيم وبالحاء المهملة رضي الله تعالى عنه

قال ابن إسحاق وغيره: لما قديم النّقر الذين بايعوا رسول الله ﷺ، أظهروا الإسلام بالمدينة، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشّرك، منهم عمرو بن الجموح [بن زَيْد بن حِزَام بن كَعْب بن عَنَم بن كَعْب بن سَلِمة السّلميّ من بني مُجَشَّم بن الخزرج]، وكان أبوه مُعَاذ بن عمرو شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها. وكان عمرو [بن الجموح] سيّداً من سادات بني سَلِمة [وشريفاً من أشرافهم]، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يُعَظّمه يقال له: مناة [كما كانت الأشراف يصنعون تتخذ إلهاً تُعَظّمه وتُظهِره].

فلما أسلم فُتيان بني سَلِمة: مُعَاذ بن جَبَل ومُعَاذ بن عمرو في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، وكانوا يُدَلّجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه ويطرحونه في بعض حُفَر بني سَلِمة وفيها عذير الناس، مُنَكِّساً على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: وَيَحْكُمُ! من عَدَا على آلِهتنا هذه الليلة؟ قال: ثم يَغْدُو يلتمسه حتى إذا وجده غَسَله وطَهَّره وطَيَّبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فَعَلَ بك هذا لأُخْرِيتُه. فإذا أَمسى ونام عَدُوٌّ عليه ففعلوا به مثل ذلك، [فَيَغْدُوا فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فَيَغْسِلُه وَيُطَهِّرُه وَيُطَيِّبُه ثم يَغْدُون عليه إذا أَمسى فيفعلون به مثل ذلك] فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث أَلْقَوْه يوماً فغَسَله وطَهَّره وطَيَّبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له: إني والله ما أَغْلَمُ من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك. فلما أَمسى ونام عمرو عَدُوٌّ عليه فأخذوا السيف من عُقْبته ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرئوه به بحبل ثم أَلْقَوْه في بئر من آبار بني سَلِمة فيها عذير من عذير الناس. وعَدَا عمرو بن الجموح يلتمسه فلم يجده في مكانه، فخرج يَتَبَتَّه حتى وجده في تلك البئر مُنَكِّساً مقروناً بكلب مَيِّت. فلما رآه أَبْصَرَ شَأْنَهُ، وكَلَّمَهُ مَنْ أَسْلَمَ من قومه، فأسلم رحمه الله وحسن إسلامه. فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف [وهو يذكر صَنَمَهُ ذلك وما أَبْصَرَ من أمره ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العَمَى والضلالة]:

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهًا لَمْ تَكُنْ أَنْتَ وَكَلْبٌ وَشَطَطٌ يَمُرُّ فِي قَرْنٍ
أَفْ لِمَلَقَاكَ إِلَهًا مُسْتَدَنٌ الْآنَ فَتَشْتَاكَ عَنْ سُوءِ الْعَبْنِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ذِي الْمِنَّةِ الْوَاهِبِ الرُّزَاقِ دَيَّانِ الدِّينِ
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ أَكُونَ فِي ظُلْمَةٍ قَبْرِ مُرْتَهَنٍ
بِأَحْمَدَ الْمَهْدِيِّ النَّبِيِّ الْمُؤْتَمَنِ^(١)

تَنْبِيْهَان

الأول: في الزهر قول عمرو: «لو كُنْتُ إِلَهًا لَمْ تَكُنْ» فيه عيب يسمى: سِنَاد الإِشْبَاع وهو تغيير حركة الدخيل فالضمة مع الكسرة غير معيب والفتحة مع واحد منهما معيب والمذكور في الرَّجَز معيب بغير شك لأنه جمع بين الفتح والضم في قوله: في قَرَنٍ.

الثاني: في بيان غريب ما سبق:

«مَنَاة»^(١) وَرَزْنُهُ فَعْلَةٌ مِنْ مَنِيَتْ الدَّمِ وَغَيْرِهِ إِذَا صَبَبْتَهُ لِأَنَّ الدَّمَاءَ كَانَتْ تُمْتَنَى عِنْدَهُ أَي تُصَبَّبُ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ.

«الْعَذِيرُ» بفتح العين المهملة وكسر الدال المعجمة: جمع عَذِيرَةِ الخروء.

«الْقَرَنُ»^(٢) بفتحتين: الحبل.

«مُسْتَعْدَنٌ» بفتح المثناة فوقية والدال المهملة معناه: ذليل مُسْتَعْبَدٌ ذكره في الإِملاء قال في الروض: هو من السَّدَانَةِ وهي خدمة البيت وتعظيمه.

«الْعَبْنُ»^(٣) بفتح الغين المعجمة والباء الموحدة يُقَالُ: عَبَنَ رَأْيُهُ كَمَا يُقَالُ سَفِهَ نَفْسَهُ، فَتَصْبِرُ لِأَنَّ الْمَعْنَى خَسِرَ نَفْسَهُ وَأَوْبَقَهَا وَأَفْسَدَ رَأْيَهُ وَنَحْوَ هَذَا.

«الدَّيْنُ». بكسر الدال المهملة: جَمْعُ دَيْنَةٍ وهي العادة ويُقَالُ لَهَا دَيْنٌ أَيْضًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالْدَّيْنِ الْأَدْيَانَ أَيْ هُوَ دَيَّانٌ أَهْلُ الْأَدْيَانِ، وَلَكِنْ جَمَعَهَا عَلَى الدَّيْنِ لِأَنَّهَا مِلَّةٌ وَيَحْتَلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ.

(١) اللسان ٤٢٨٥/٦.

(٢) انظر المصباح المنير ٥٠١.

(٣) انظر المعجم الوسيط ٦٤٤/٢.

جماع أبواب الهجرة إلى المدينة الشريفة

الباب الأول

في إذن النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين في الهجرة إلى المدينة

روى ابن سعد عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف وعن عروة عن عائشة رضي الله عنهما قال: لما صَدَرَ السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه وقد جعل الله له مَنَعَةً وَقَوْمًا أَهْلَ حَرْبٍ [وَعُدَّةً] وَنَجْدَةً، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج فضَيَّقُوا على أصحابه وَتَعَبُّوا بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشُّمِّ والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فقال: «قد أُرِيتُ دارَ هجرتكم، أُرِيتُ سَبْحَةَ ذاتِ نُحْلٍ بينَ لَابَتَيْنِ» - وهما الحُرَّتَانِ - «ولو كانت السَّراةُ أَرْضَ نُحْلٍ وَسَبَاخَ لَقُلْتُ هِيَ هِيَ». ثم مكث أياماً ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أُخْبِرْتُ بدار هجرتكم وهي يَثْرِبُ، فمن أراد الخروجَ فَلْيَخْرُجْ إِلَيْهَا». فجعل القوم يَتَجَهَّزُونَ ويتراشقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك. فكان أول من قَدِمَ المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سَلَمَةَ بن عبد الأسد - بسين ودال مهملتين ^(١) - قال ابن إسحاق: «هاجر إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة. وحبست عنه امرأته أم سَلَمَةَ هِنْدُ بنت أبي أمية بن المغيرة بمكة نحو سنة ثم أذن لها بنو المغيرة الذين حبسوها في اللحاق بزوجها فانطلقت وحدها مهاجرة حتى إذا كانت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة [بن أبي طلحة] أخا بني عبد الدار وكان يومئذ مشركاً وأسلم بعد ذلك، فشَيَّعَهَا حتى إذا أَوْفَى على قرية بني عمرو بن عَوْفٍ بَقْبَاءُ قال لها: هذا زوجك في هذه القرية. ثم انصرف راجعاً إلى مكة، فكانت تقول: ما رأيتُ صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة، كان إذا بلغ المنزل أنَاخَ بي ثم استأخَر عَنِّي حتى إذا نزلت عنه استأخَر بعبيري فَحَطَّ عنه ثم قَيَّده في الشجرة، ثم أتى إلى شجرة فاضطجع تحنها، فإذا ذَا الرُّوْحِ قام إلى بعبيري فَقَدَّمَهُ فَرَحَلَهُ، ثم استأخَر عَنِّي وقال: ازْكَيْي. فإذا رَكِبْتُ واستَوَيْتُ على بعبيري أتى فأخذ بِخَطَامِي فَقَادَنِي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أَقْدَمَنِي المدينة».

(١) أخرجه البخاري ١٢٨/٣ وابن سعد في الطبقات ١٥٢/١ وابن خزيمة في صحيحه (٢٦٥) والبيهقي في

وقيل: أول المهاجرين مُصْعَب بن عُثَيْر. روى البخاري في صحيحه، والحاكم في الإكليل عن البراء بن عازب قال: «أَوَّلُ من قَدِمَ علينا المدينة من المهاجرين مصعب بن عُثَيْر». وروى ابن إسحاق وابن سعد: «ثم كان أول من قَدِمَها من المهاجرين بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة [حليف بني عدي بن كعب]، معه امرأته ليلى بنت أبي حنثة^(١)». - بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الاء المثناة - قالوا: «وهي أول ظليعة قدمت المدينة».

قال ابن إسحاق: «ثم عبد الله بن جحش احتَمَلَ بأهله وبأخيه أبي أحمد عَبد بن جحش - بإضافة عَبد إلى ابن جحش - وكان أبو أحمد رجلاً ضريراً البَصَر، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعراً، وكانت عنده الفارعة ابنة أبي شفيان بن حرب، وهاجر جميع بني جحش بنسائهم فعَدَا أبو سفيان على دارهم فتَمَلَّكُها، قال بعضهم: إنه باعها من عمرو بن علقمة أخي بني عامر بن لؤي، فذَكَرَ ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أَلَا تَرْضَى يا عبد الله أَنْ يُعْطِيكَ اللهَ بها داراً في الجنة خيراً منها؟» قال: بلى. قال: «فذلك لك». ولما افتتح رسول الله ﷺ مكة كَلَّمَهُ أبو أحمد في دارهم، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ. فقال الناس لأبي أحمد: يا أبا أحمد إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء أُصِيب منكم في الله. فأمسك الكلام عن رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: وكان بنو عُثَم بن دُودان أَهَلَ إِسلام، قد أَوْعَبُوا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ هِجْرَةَ رِجَالُهُمْ ونسائهم: [عبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد بن جحش، وعكاشة بن مَخْصَن وشجاع وعُقْبَةُ ابنا وَهْب وأربد بن حُثَيْر].

وروى ابن السمان في «الموافقة» عن علي رضي الله عنه قال: ما عَلِمْتُ أَنْ أَحَدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عُمَر بن الخطاب، فإنه لما هَمَّ بالهجرة تَقَلَّدَ سَيْفَهُ وَتَنَكَّبَ قَوْسَهُ وانتضى في يده أشهُماً واختَصَرَ عَنَزَتَهُ، ومضى قِبَلَ الكعبة، والتأَمَّ من قريش بِفَنَائِها فطاف بالبيت سَبْعاً [متمكناً]، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وَقَفَ على الخَلْقِ واحدةً واحدةً وقال لهم: شَاهَبَتِ الوجوه، لَا يُرْغَمُ اللهَ إِلَّا هذه المعاطس، من أراد أَنْ يُنْكِلَ اللهُ أَوْ يُؤْزِمَ وَلَدَهُ أَوْ يُؤْمَلَ زَوْجَتَهُ فَلْيَلْقِنِي وراء هذا الوادي. قال علي رضي الله عنه: فلم يتبعه أَحَدٌ إِلَّا نَوْم من المُسْتَضْعَفِينَ عَلمهم ما أَرشدهم إليه ثم مضى لوجهه. وروى ابن إسحاق: حدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

(١) ليلى بنت أبي حشمة بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن كعب بن لؤي القرشية العدوية أخت سليمان وكانت زوج عامر بن ربيعة العنبري فولدت له عبيد الله... وقال ابن سعد: أسلمت قديماً وبايعت كانت من المهاجرات الأول هاجرت الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى المدينة يقال: إنها أول ظليعة دخلت المدينة في الهجرة ويقال أم سلمة. انظر الإصابة ١٨٠/٨.

أَتَعَدْتُ لِمَا أَرَدْنَا الْهَجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَا وَعِيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَهَشَامُ بْنُ الْعَاصِ [بن وائل] السَّهْجِيُّ التَّنَاضُبُ مِنْ أَصَاةِ بَنِي غِفَارٍ فَوْقَ سَرِفٍ، وَقُلْنَا: أَتَيْنَا لَمْ يُصْبِحْ عِنْدَهَا فَقَدْ حُجِسَ فَلَيْمُضِ صَاحِبَاهُ. قَالَ: فَأَصْبَحْتُ أَنَا وَعِيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عِنْدَ التَّنَاضُبِ وَفَطِينٌ لِهَشَامٍ قَوْمُهُ فَحَبَسُوهُ عَنِ الْهَجْرَةِ وَفَتِنَ فَاغْتَنَنَ. ثُمَّ إِنَّ أَبَا جَهْلَ وَالْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ - وَأَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ - خَرَجَا حَتَّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَقَالَا لِعِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَكَانَ ابْنُ عَمِّهِمَا وَأَخَاهُمَا لِأُمِّهِمَا: إِنَّ أُمَّكَ قَدْ نَذَرَتْ أَلَّا يَحْسُ رَأْسُهَا مُشْطَ حَتَّى تَرَكَ وَلَا تَسْتَظِلَّ مِنْ شَمْسٍ حَتَّى تَرَكَ، فَزُقْ لَهَا. فَقُلْتُ لَهُ: يَا عِيَّاشُ إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنْ يَرِيدُكَ الْقَوْمُ إِلَّا لِيَفْتِنُوكَ عَنْ دِينِكَ فَأَخَذَرُهُمْ، فَوَاللَّهِ لَوْ قَدْ آذَى أُمَّكَ الْقَمَلُ لَا مَتَشَطَّتْ، وَلَوْ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرُّ مَكَّةَ لَا سَتَظَلَّتْ. فَقَالَ: أَبْرُو قَسَمَ أُمِّي وَلِي هِنَالِكَ مَالٌ فَأَخَذَهُ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي لِمَنْ أَكْثَرَ قَرِيشاً مَالاً فَكَلَّكَ نَصْفَ مَالِي وَلَا تَذْهَبْ مَعَهُمَا. فَأَبَى عَلَيَّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمَا. فَلَمَّا أَبَى إِلَّا ذَلِكَ قُلْتُ: أَمَا إِذَا قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتُ فَخُذْ نَاقَتِي هَذِهِ فَإِنَّهَا نَاقَةٌ نَجِيَّةٌ ذُلُولٌ فَالْزَمْ ظَهْرَهَا، فَإِنْ رَابَكَ مِنَ الْقَوْمِ رُئْبٌ فَانْجُ عَلَيْهَا، فَخَرَجَ عَلَيْهَا مَعَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٌ: وَاللَّهِ يَا أَخِي لَقَدْ اسْتَغْلَطَتْ بِعِيرِي هَذَا، أَفَلَا تُغَيِّبُنِي عَلَى نَاقَتِكَ هَذِهِ؟ قَالَ: بَلَى.

قَالَ: فَأَنَاخَ وَأَنَاخَا لِيَتَحَوَّلَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَوْا بِالْأَرْضِ عَدَا عَلَيْهِ فَأَوْتَقَاهُ رِبَاطاً وَفَتَنَاهُ فَافْتَنَ وَدَخَلَ بِهِ مَكَّةَ نَهَاراً مُتَوَقِّعاً، ثُمَّ قَالَ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ هَكَذَا فَاغْلَبُوا بِسَفْهَائِكُمْ كَمَا فَعَلْنَا بِسَفِينِنَا هَذَا. قَالَ عُمَرُ: فَكُنَّا نَقُولُ: مَا اللَّهُ تَعَالَى بِقَابِلٍ يُمْنُ افْتَنَ صَرْفاً وَلَا عَدْلَ وَلَا تَوْبَةَ، قَوْمٌ عَرَفُوا اللَّهَ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ لِبَلَاءِ أَصَابِهِمْ. قَالَ: وَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ. فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ وَفِي قَوْلِنَا وَقَوْلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وَأَيُّبُوا إِلَيَّ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿[الزمر: ٥٣، ٥٤، ٥٥].

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَكَتَبْتُهَا بِيَدِي فِي صَحِيفَةٍ وَبَعَثْتُ بِهَا إِلَى هِشَامِ بْنِ الْعَاصِي. قَالَ: فَقَالَ هِشَامُ: فَلَمَّا أَتَنَنِي جَعَلْتُ أَقْرُؤُهَا بِذِي طَوًى أَصْعَدُ بِهَا فِيهِ وَأَصَوِّبُ وَلَا أَهْمُهَا حَتَّى قُلْتُ: اللَّهُمَّ فَهَمْنِيهَا قَالَ: فَالْقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِي أَنَّهَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِينَا وَفِيمَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى بَعِيرِي فَجَلَسْتُ عَلَيْهِ فَلَحَقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. هَذَا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي شَأْنِ هِشَامٍ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَحَدَّثَنِي مَنْ أَثَقَ بِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ: «مَنْ لِي بِعِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَهَشَامِ بْنِ الْعَاصِي؟» فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ: أَنَا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِهِمَا.

فخرج إلى مكة فقدمها مُسْتَحْفِيًّا، فلقي امرأةً تحمل طعاماً فقال لها: أَيْنَ تريدان يا أمة الله؟ قالت: أريد هَذَيْنِ المحبوسَيْنِ. تعنيهما، فتبعها حتى عَرَفَ مَوْضِعَهُمَا، وكانا محبوسَيْنِ في بيت لا سقف له، فلما أَمْسَى تَسَوَّرَ عليهما ثم أخذ مَرْوَةَ فوضعها تحت قَيْدَيْهِمَا ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه: ذو المَرْوَةِ، لذلك ثم حملهما على بعيره وساق بهما فَعَثَرَ قَدَمَيْتَ إصبعه فقال:

هَلْ أَنتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَّتٍ؟ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

ثم قَدِمَ بهما على رسول الله ﷺ، ثم تتابع المهاجرون أَرْسَالاً فنزل طَلْحَةُ بن عُبَيْد الله وَصُهَيْب بن سِنَان على خُبَيْب - بضم الخاء المعجمة وفتح الواو - ابن إساف - بكسر الهمزة - بالشُّنَحْ ويقال: بل نزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زُرَّارة.

وروى ابن سعد عن سعيد بن المُسَيَّب أن صُهَيْباً حين أَرَادَ الهجرة قال له كُفَّار قريش: أَتَيْتُنَا صُغُلُوكَ حَقِيراً فَكُثُرَ مَالُكَ عِنْدَنَا وَبَلَغَتْ الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِي أَتُخْلَوْنَ سَبِيلِي؟ قالوا: نعم. قال: فَإِنِّي جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِي. قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «رَبِّحْ صُهَيْبَ رِبْحٍ صُهَيْبٍ»^(١).

قال ابن سعد: لما قَدِمَ أصحاب رسول الله ﷺ أَرْسَالاً فنزلوا في الأنصار في دورهم وَأَوْوَهُمْ ونصروهم وأسوهم، وكان سالم مولى أبي حَذَفَةَ يُؤْتِمُّ المهاجرين بِقُبَاءَ قبل أن يقدّم النبي ﷺ. قال ابن إسحاق وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يُؤَدَّنَ له في الهجرة، ولم يَتَخَلَّفْ معه بمكة أَحَدٌ من المهاجرين إِلَّا من خُبَيْسٍ أَوْ فُتَيْنَ، إِلَّا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قُحَافَةَ رضي الله عنهما. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له: «لَا تَعْجَلْ لعل الله يجعل لك صاحباً». فيطمع أبو بكر أن يكونه.

قال ابن سعد: وكان نَفَرٌ من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ في العقبة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قَدِمَ أول من هاجر إلى قُبَاءَ خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة، حتى قَدِمُوا مع أصحابه في الهجرة، فهم مهاجرون أنصاريون وهم: ذُكْوَان بن عبد قيس [بن خَلْدَةَ الزُرَقِيّ]، وَعُقْبَةُ بن وَهَب بن كَلْدَةَ والعَبَّاس [ابن عُبَادَةَ] بن نَضْلَةَ وزياد بن لبید [بن ثعلبة الخزرجي البياضي].

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٦٢/١/٣ وذكره ابن حجر في المطالب (٤٠٦٣).

تنبيهات

الأول: ذكر ابن إسحاق وابن سعد أن أول من هاجر من أصحاب النبي ﷺ أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد. وروى ابن أبي شيبة والبخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: أول من قديم علينا المدينة من المهاجرين مُضْعَب بن عُمَيْر. قال الحافظ: «فيجتمع بينهما بحمل الأوليّة في أحدها على صفة خاصة. فقد جَزَم ابن عُقْبَةَ بأن أول من قديم من المهاجرين مطلقاً أبو سلمة بن عبد الأسد، وكان رجع من الحبشة إلى مكة، فأوْذِيَ بمكة، فبلغه ما وقع للثاني عشر من الأنصار في العقبة الأولى، فتوجه إلى المدينة في أثناء السنة، فيجتمع بين ذلك وبين ما وقع في حديث البراء بأن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة بل فراراً من المشركين، بخلاف مُضْعَب بن عُمَيْر فكان على نية الإقامة بالمدينة».

الثاني: جزم أبو عُمر بأن ليلى بنت أبي حنمة بن غانم أول ظعينة دخلت المدينة من المهاجرات، وقال موسى بن عُقْبَةَ: بل أم سلمة فالله أعلم.

الثالث: ذكر ابن إسحاق في مهاجرات بني [عُثْم بن] دُوْدَان بن أسد: بنات جَحْش وذكر فيهن أم حبيبة - بالهاء - وقال السهيلي: أم حبيب - بغير هاء - وقال أبو عُمر: هو قول الأكثر، قال الحافظ: كذا قال. قُلْتُ لأن قصتها في الاستحاضة رواها الزُّهري عن عُزْوَةَ عن عائشة رضي الله عنها. وقال عُمر بن الحارث، ومحمد بن إسحاق وابن أبي ذئب كلهم عن الزهري: أم حبيبة بالهاء وقال مَعْمَر عنه: أم حبيب بغير هاء، وقال يحيى بن أبي كثير عن أم سلمة عن أم حبيبة بالهاء. وقال ابن عينة عن الزهري: أم حبيبة أو حبيب على الشك. فظهر من هذا أن أكثر الرواة قالوا: أم حبيبة بالهاء خلافاً لما قاله أبو عُمر. قال في العيون: «وأما ابن عساکر فعنده أم حبيبة واسمها حُمْنَةُ فهما أي بنات جحش ثنتان على هذا». انتهى. قُلْتُ: كان مستند الحافظ ابن عساکر في ذلك ما رواه أبو داود والترمذي عن عمران بن طلحة عن عبيد الله عن أمه حُمْنَةُ بنت جحش قالت: كُنْتُ أُسْتَحَاضُ فذكر الحديث. فلما رأى الحافظ ابن عساکر حديث الاستحاضة تارة يُروى عن حُمْنَةَ بنت جحش وتارة يُروى عن أم حبيبة ظن أن اسم أم حبيبة حُمْنَةُ، وليس كذلك فإن حُمْنَةَ غير أم حبيبة وكل منهما استحيض. وقد ذكر ابن إسحاق وابن سعد وغيرهما بنات جحش وسَمُوهُنَّ وذكرُوا أزواجهن، ولهذا مزيد بيان في كتابي: «عَيْنُ الإصَابَةِ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ»، أعان الله على إكماله.

الرابع: ذكر ابن إسحاق من نساء بني جحش: جُدَامَةُ بنت جندل. قال السهيلي: «وَأَحْسَبُهَا جُدَامَةَ بنت وَهْبٍ وَأَمَّا جُدَامَةُ بنت جندل فلا تُعْرَفُ فِي آل جحش الأسديين ولا في غيرهم ولعله وهم وقع في الكتاب وأنها بنت وَهْبٍ بن مِخْصَنٍ بنت أَخِي عُكَّاشَةَ بن مِخْصَنٍ.

قال في الزهر: وهذا غير لأن محمد بن جرير ذكر جَذَامَةَ في المهاجرات، قال: والمُخَدَّثُونَ قالوا فيها: جَذَامَةُ بنت وَهَب، والمختار أنها بنت جندل الأسدية أخت عُكَّاشَةَ بن مِخْصَن المشهور، وتكون أخته من أمه.

وفي كتاب الصحابة لابن جِبَّان: جَذَامَةُ بنت جندل من بني غَنَم من المهاجرات، وجَذَامَةُ بنت وَهَب من بني هلال. وفي الطبقات لابن سعد: جَذَامَةُ بنت جندل الأسدية أسلمت قديماً وبايعت وهاجرت إلى المدينة. ويزيد ذلك وضوحاً ما ذكره أبو الحسن الخزرجي في كتاب تقريب المدارك في الكلام على مُوْطَأَ مالك: أن جَذَامَةَ بنت وهب أسلمت عام الفتح، ودال جَذَامَةُ زُوي إعجامها وإهمالها وصحح.

الخامس: في بيان غريب ما سبق:

«اللَّحَاق»^(١): بفتح اللام مصدر لَحِقَهُ وَلَحِقَ بِهِ.

«أَرْسَالاً»^(٢): بفتح الهمزة أي: أفواجاً وفِرَقاً.

«التنعيم»: على لفظ المصدر محل بين مكة وسُريَف على مرحلتين من مكة.

«مَنْعَةً»: بفتح الحين أي في قوم يمنعونهم ويحمونهم جمع مانع ككاتب وكَتَبَتْه وتقدم مبسوطاً غير مرة.

«السَّيْحَةُ»: بكسر الموحدة وتُسَكَّن: الأرض المالحة.

«بين لَابَتَيْنِ»: تثنية لابة بالموحدة وهي الحَرَّة وتأتي.

«الحَرَّتَانِ»: تثنية حَرَّة وهي أرض ذات أحجار سود نَخِرَة كأنها أُخْرِقَتْ بالنار.

«السَّراة»: بفتح السين المهملة: أعظم جبال بلاد العرب

«الظعينة»: بفتح الظاء المعجمة المُشَالَة: المرأة وأصله اليهودي الذي تكون فيه المرأة.

«عَدَا»: بالعين المهملة: من العُدَّوان.

«فَأَبْطَأَ»: بهمزة مفتوحة في أوله وأخرى في آخره.

«أُصِيبَ مِنْكُمْ» بالبناء للمفعول.

«أَوْعَبُوا»: قال ابن السُّكَيْت: أَوْعَبَ بنو فلان جلاءً: لم يبقَ بدارهم منهم أحد.

«تَنَكَّبَ قَوْسَهُ»: ألقاها على مُنْكِبِهِ.

(١) انظر المعجم الوسيط ٨١٩/٢.

(٢) انظر اللسان ١٦٤٢/٣.

«انْتَضَى^(١) في يده أَشْهُمًا»: أي سَلَّها من كِنَانته وتركها مُعَدَّة في يده وكذلك انْتَضَى سَيْفَهُ وَنَضَاه سَلَّهُ.

«اختصر العَنَزَة»^(٢) العَنَزَة بالتحريك: أطول من العصا وأقصر من الرُّمَح وفيه زُجْ كَرُج الرُّمَح، واختصرها: حملها مضمومة إلى خاصرتة.

«المعاطس»^(٣) جمع مَقَطَس بَزَنَة مَجْلِس وهو الأنف.

«وإرغامها»: إلصاقها بالرَّغَام وهو التراب كَثَّى بذلك عن الإهانة والدُّلَّ.

«التَّنَاضُبُ»: بمثناة فوقية مفتوحة فنون فألف فضاد معجمة مضمومة: هو اسم موضع ويؤوَّى بكسر الضاد جمع تَنْضُب وهو شجر واحدته تنضبة.

«الأَصَاة»: بفتح الهمزة والضاد المعجمة بوزن حَصَاة وَمَنَاة الغدير يجتمع من ماء المطر يُحَدُّ وَيُقَصِّر.

«غِفَار» بكسر الغين المعجمة وبالفاء وبالراء.

«سَرِف» بفتح السين والراء المهملتين وبالفاء: موضع بين مكة والمدينة.

«تَسْوَر الحائط»: تَسْلُقُه.

«الْمَرْوَة»^(٤): الحجر الصلب.

«فَعَثَر» بفتح المثلثة صَدَمَ رِجْلَهُ شيء.

«ذو طوى»^(٥) بثلاث الطاء: بمكة قال النووي: يُضْرَف ولا يضْرَف.

(١) انظر المعجم الوسيط ٩٢٩/٢.

(٢) انظر اللسان ٣١٢٨/٤.

(٣) المعطس: بزنة المجلس والمعطش بفتح الطاء. الأنف لأن المعطس منه يُخْرَج، قال الأزهرى: المعطس بكسر الطاء لا غير وهذا يدل على أن اللغة الجيدة يعطس بالكسر. اللسان ٢٩٩٥/٤.

(٤) انظر اللسان ٤١٨٨/٦.

(٥) انظر اللسان ٢٧٣٠/٤.

الباب الثاني

في سبب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه الكريمة وكفاية

الله تعالى رسوله مكر المشركين حين أرادوا ما أرادوا

روى ابن إسحاق وعبد الرزاق والإمام أحمد وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن ابن عباس، وعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة، والبيهقي عن ابن إسحاق أن قريشاً لما رأَت أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بَلَدِهِمْ، وَرَأَوْا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عَزَفُوا أَنَّهُمْ قد نزلوا داراً وأصابوا جواراً وَمَنَعَهُ، فحذروا خروج رسول الله ﷺ، وعَزَفُوا أَنَّهُ قد أَجْمَعَ لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قُصَيِّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر النبي ﷺ حين خافوه. فاجتمعوا لذلك واتَّعَدُوا، وكان ذلك اليوم يُسَمَّى يوم الزُحْمَةِ فاعترضهم إبليس لعنه الله في هيئة شيخ جليل عليه بُتُّ له، فوقف على باب الدار، فلما رَأَوْهُ واقفاً على بابها قالوا: مَنْ الشَّيْخُ؟ قال: شيخٌ من أهل نجد سَمِعَ بالذي اتَّعَدْتُمْ له فحَضَرَ معكم ليسمع ما تقولون وعسى ألا تَعْدَمُوا منه رأياً ولا نُصْحاً. قالوا: أَجَلْ فَادْخُلْ، فَدَخَلَ معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش: من بني عبد شمس: عُثْبَةُ بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب - وأسلم بعد ذلك - [ومن بني نوفل بن عبد مناف]: طُعَيْمَةُ بن عَدِيٍّ، وَجُبَيْرُ بن مُطْعِمٍ - وأسلم بعد ذلك - [والحرث بن عامر بن نوفل. ومن بني عبد الدار بن قُصَيِّ]: الثَّظَرُ بن الحرث بن كَلْدَةَ [ومن بني أسد بن عبد العزى]: أَبُو الْبَخْتَرِيِّ بن هشام، وَزَمْعَةُ بن الأسود - وأسلم بعد ذلك - وحكيم بن حزام - وأسلم بعد ذلك، [ومن بني مخزوم]: أَبُو جَهْلُ بن هشام، [ومن بني سَهْمٍ]: ثُبَيْتُهُ وَمُتَّعُهُ ابنا الْحُجَّاجِ، ومن بني جُمَحٍ: أُمَيَّةُ بن خَلَفٍ، ومن كان معهم، وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَا يَعْدُ من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً. قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم - نقل السهيلي عن ابن سلام أنه أبو الْبَخْتَرِيِّ بن هشام - احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تَرَبَّصُوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زُهَيْراً والناطقة وَمَنْ مضى منهم من هذا الموت حتى يُصِيبَهُ ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي - لعنه الله -: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه كما تقولون لَيَخْرُجَنَّ أَمْرُهُ من وراء الباب الذي أغلقتُم دونه إلى أصحابه، فلا وشكوا أن يَبْثُوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يَكَاثِرُوكُمْ به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره. فتشاوروا ثم قال قائل منهم - ذكر السهيلي أنه أبو الأسود ربيعة بن عَمْرٍو أحد^(١) بني

(١) في: آخر.

في سبب هجرة النبي ﷺ بنفسه الكريمة وكفاية الله تعالى رسوله مكر المشركين

عامر بن لؤي - نُخْرِجْهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرْنَا فَنَنْفِيهِ مِنْ بِلَادِنَا، فَإِذَا خَرَجَ عَنَا فَوَاللَّهِ مَا تُبْئَالِي أَيْنَ ذَهَبَ وَلَا حَيْثُ وَقَعَ، إِذَا غَابَ عَنَا وَفَرَّغْنَا مِنْهُ فَأَصْلَحْنَا أَمْرَنَا وَأَلْفَقْنَا [كَمَا كَانَتْ] فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: لَا وَاللَّهِ، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيٍ، أَلَمْ تَرَوْا حُسْنَ حَدِيثِهِ وَحِلَاوَةَ مَنْطِقِهِ وَغَلَبَتَهُ قُلُوبُ الرِّجَالِ بِمَا يَأْتِي بِهِ؟ وَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ مَا أَمِئْتُمْ أَنْ يَخْلُ عَلَى حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ فَيَغْلِبَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ وَحَدِيثِهِ حَتَّى يَتَابِعُوهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَسِيرُ بِهِمْ إِلَيْكُمْ حَتَّى يَطْأَكُم بِهِمْ فِي بِلَادِكُمْ، فَيَأْخُذَ أَمْرَكُمْ مِنْ أَيْدِيكُمْ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِكُمْ مَا أَرَادَ، ذَبُّوا فِيهِ رَأْيًا غَيْرَ هَذَا. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ: وَاللَّهِ إِنْ لِي فِيهِ لِرَأْيًا مَا أَرَاكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَيْهِ بَعْدَ.

قالوا: وما هو يا أبا الحَكَم؟ قال: أَرَى أَنْ تَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ قَتَى شَاتِبًا جَلْدًا نَسِيبًا وَسِيطًا، ثُمَّ نَعْطِي كُلَّ قَتَى مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَعْمُدُوا إِلَيْهِ بِأَجْمَعِهِمْ فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَقْتُلُوهُ فَنَسْتَرِيحُ مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ جَمِيعًا، فَلَمْ يَقْدِرْ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى حَرْبِ قَوْمِهِمْ جَمِيعًا، فَضَرَبُوا مَنَا بِالْعَقْلِ فَعَقَلْنَاهُ لَهُمْ. فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ أَخْبَرَهُ اللَّهُ: الْقَوْلُ مَا قَالَ الرَّجُلُ، هَذَا الرَّأْيُ لَا أَرَى غَيْرَهُ.

وذكر ابن الكلبي أن إبليس لما حمد رأي أبي جهل لعنه الله قال:

الرَّأْيُ رَأْيَانِ: رَأْيٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ هَادٍ وَرَأْيٌ كَنَصْلِ الشَّيْفِ مَعْرُوفٌ
يَكُونُ أَوَّلُهُ عِزٌّ وَمَكْرُمَةٌ يَوْمًا وَآخِرُهُ جِدٌّ وَتَشْشِيرُفٌ

وتَفَرَّقَ الْقَوْمُ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ. فَأَتَى جَبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَا تَبْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى فِرَاشِكَ الَّذِي كُنْتَ تَبْتَ عَلَيْهِ، وَأَخْبَرَهُ بِمَكْرِ الْقَوْمِ وَإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِالْخُرُوجِ. فَلَمَّا كَانَتِ الْقَتْمَةُ مِنَ اللَّيْلِ اجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ يَوَضُّدُونَهُ مَتَى يَنَامُ فَيُشُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَانَهُمْ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: «نَمْ عَلَى فِرَاشِي وَتَسْجُدْ بِرُؤُوسِي هَذَا الْحَضَرَمِيِّ الْأَخْضَرِ فَنَمَ فِيهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ»، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنَامُ فِي بَرْدِهِ ذَلِكَ إِذَا نَامَ.

فلما اجتمعوا قال أبو جهل بن هشام: إِنْ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّكُمْ إِنْ تَابَعْتُمُوهُ عَلَى أَمْرِهِ كُنْتُمْ مَلُوكُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ثُمَّ يُعِثُّكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ، فَجَعَلَتْ لَكُمْ جَنَانٌ كَجَنَانِ الْأُرْدُنِّ وَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ فِيكُمْ ذُبْحٌ، ثُمَّ يُعِثُّكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ فَيُجْعَلَتْ لَكُمْ نَارُ تُحْرَقُونَ فِيهَا. فخرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تَرَابٍ فِي يَدِهِ ثُمَّ قَالَ: «نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ وَأَنْتَ أَخَذْهُمْ». وَأَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَبْصَارِهِمْ عَنْهُ فَلَا يَرَوْنَ فَجَعَلَ يَذْرِي ذَلِكَ التَّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿يَس وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ - ٩]. فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَأْسِهِ تُرَابًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ.

فَأَتَاهُمْ آتٍ يُمْرُّ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ فَقَالَ: «مَا تَنْتَظِرُونَ ههنا؟» قَالُوا: «مُحَمَّدًا». قَالَ: «خَيِّبْكُمْ اللَّهُ، قَدْ وَدَّ اللَّهُ خُرُوجَ عَلَيْكُمْ مُحَمَّدٌ ثُمَّ مَا تَرَكَ مِنْكُمْ رَجُلًا إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تَرَابًا وَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، أَفَمَا تَرَوْنَ مَا بِكُمْ؟» قَالَ: «فَوَضَعَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ فَإِذَا عَلَيْهِ تَرَابٌ»، ثُمَّ جَعَلُوا يَتَطَلَّعُونَ فَيَرَوْنَ عَلِيًّا عَلَى الْفِرَاشِ مُتَسَجِّيًا بِبَرْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ إِنْ هَذَا لِمُحَمَّدٍ نَائِمًا عَلَيْهِ بُرْدُهُ. فَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ حَتَّى أَصْبَحُوا. فَقَامَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْفِرَاشِ. فَقَالُوا: «وَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقْنَا الَّذِي كَانَ حَدَّثَنَا». وَذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ.

وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «شَرَى عَلِيٌّ نَفْسَهُ وَلَيْسَ ثَوْبُ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ نَامَ مَكَانَهُ». وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرْجُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلُوا يَرْمُونَ عَلِيًّا وَيَرَوْنَهُ النَّبِيَّ ﷺ، وَجَعَلَ عَلِيٌّ يَتَوَضَّأُ إِذَا هُوَ عَلِيٌّ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لِلَّيْمِ، إِنَّكَ لَتَتَضَوَّرُ^(١) وَكَانَ صَاحِبُكَ لَا يَتَضَوَّرُ وَقَدْ اسْتَكْرَنَاهُ مِنْكَ.

وروى الحاكم عن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال: إِنْ أَوَّلَ مَنْ شَرَى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلِيٌّ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا:

وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْخَصَى وَمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَيْقِي وَبِالْحَجَرِ
رَسُولٌ إِلَيْهِ خَافَ أَنْ يَمْكُرُوا بِهِ فَتَجَاهُ ذُو الطُّوْلِ الْإِلَهَ مِنَ السَّكْرِ
وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْغَارِ آمِنًا مُوقِفٌ وَفِي حِفْظِ الْإِلَهِ وَفِي سَتْرِ
وَبِتْ أَرْعَاهُمْ وَمَا يَشْهَرُونَني وَقَدْ وَطِئْتُ نَفْسِي عَلَى الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ

قال ابن إسحاق: وَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَمَا كَانُوا أَجْمَعُوا لَهُ: ﴿وَإِذْ يَسْمُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ بِالْوَثَاقِ وَالْحَبْسِ وَالْإِثْخَانِ بِالْجُرْحِ (أَوْ يَقْتُلُوكَ) بِسُيُوفِهِمْ (أَوْ يُخْرِجُوكَ) - مِنْ مَكَّةَ - (وَيَمْكُرُونَ) - يَحْتَالُونَ فِي أَمْرِكَ - (وَيَمْكُرُ اللَّهُ) - يَجَازِيهِمْ جَزَاءَ مَكْرِهِمْ فَسَمَّى الْجَزَاءَ مَكْرًا لِأَنَّهُ فِي مَقَابِلَتِهِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ احْتَالُوا فِي إِبْطَالِ أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَاللَّهُ تَعَالَى مَنَعَهُ مِنْهُمْ وَأَظْهَرَهُ وَقَوَّاهُ وَنَصَرَهُ فَضَاعَ فَعْلُهُمْ وَظَهَرَ فِعْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] - لِأَنَّ مَكْرَهُ حَقٌّ، وَإِتْيَانُ هَذَا مِمَّا يَخْشَنُ لِلْمَزَاوِجَةِ وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُهُ ابْتِدَاءً لِمَا فِيهِ مِنْ إِيْهَامِ الدَّمِّ، وَهَذِهِ السُّورَةُ مَدْنِيَّةٌ، وَهَذِهِ الْوَاقِعَةُ كَانَتْ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَغْمِثُهُ عَلَيْهِ.

قال ابن إسحاق: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ﴿فَذَكِّرْ﴾ - أَيِ ذُمِّ عَلَى تَذْكِيرِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَرْجِعْ عَنْهُمْ لِقَوْلِهِمْ لَكَ كَاهِنٌ مَجْنُونٌ ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ - جَزْمًا - ﴿وَلَا مَعْجُونٍ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ - ﴿أَمْ﴾ - بَلْ - ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتْرُكُ بِهِ زَيْبَ الْمَثُونِ﴾ - أَيِ حَوَادِثِ

(١) قال ابن الأثير: أَيِ تَتَلَوَّى وَتَضَعُ وَتَقْلُبُ ظَهْرًا لِيَتَنَظَّرَ. انظر النهاية ١٠٥/٣.

في سبب هجرة النبي ﷺ بنفسه الكريمة وكفاية الله تعالى رسوله مكر المشركين

الدَّهْرَ فِيهِلِكَ كَغَيْرِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ - ﴿قُلْ﴾ - لَهُمْ - ﴿تَزَبُّوْا﴾ - هَلَاكِي - ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَزَبِّينَ﴾ [الطور: ٢٩، ٣١] - لَهْلَاكِكُمْ، فَغُذِّبُوا بِالسَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَالتَّرْبُصُ الْإِنْتِظَارُ.

تنبيهات

الأول: روى ابن جرير وابن المنذر عن عُثَيْدِ بْنِ عُثَيْرٍ، وابن جرير من طريق آخر عن المطلب بن أبيي وداعة قال: لما ائتمروا بالنبي ﷺ لِيُثْبِتُوهُ أَوْ يَقْتُلُوهُ أَوْ يُخْرِجُوهُ قال عمه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يُخْرِجُونِي. قال: مَنْ حَدَّثَكَ بِهَذَا؟ قال: رَبِّي. قال: نعم الرب ربك إلى آخره. قال في البداية: ذَكَرَ أَبِي طَالِبٌ فِيهِ غَرِيبٌ هَلْ مُتَكَرَّرٌ لِأَنَّ الْقِصَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي طَالِبٍ بِثَلَاثِ سَنِينَ.

الثاني: قال السهيلي: إنما قال لهم إبليس إنه من أهل نجد لأنهم قالوا: لَا يَدْخُلَنَّ مَعَكُمْ فِي الْمَشَاوِرَةِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةٍ لِأَنَّ هَوَاهِمَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلِذَلِكَ تَمَثَّلَ لَهُمْ فِي صُورَةِ شَيْخِ نَجْدِي وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي بَنِيَانِ قَرِيشِ الْكَعْبَةِ أَنَّهُ تَمَثَّلَ فِي صُورَةِ شَيْخِ نَجْدِي حِينَ حَكَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَمْرِ الرِّكْنِ مَنْ يَرْفَعُهُ، فَصَاحَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ، أَقَدْ رَضِيتُمْ أَنْ يَلِيَهُ هَذَا الْعَلَامُ دُونَ أَشْرَافِكُمْ وَذَوِي أَسْنَانِكُمْ، فَإِنْ صَبَحَ هَذَا الْخَبَرُ فَلَمَعْنِي آخِرُ تَمَثُّلِ نَجْدِيٍّ وَذَلِكَ أَنَّ نَجْدِيًّا يَطْلُعُ مِنْهَا قَرْنُ الشَّيْطَانِ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قِيلَ لَهُ: وَفِي نَجْدِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُنَالِكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ وَمِنْهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ.

الثالث: المانع لهم من التَّقَرُّحِ تِلْكَ اللَّيْلَةُ عَلَى عَلِيٍّ وَهُمْ يَظُنُّونَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا قِيَامًا حَتَّى أَصْبَحُوا أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السَّيْرِ ذَكَرُوا السَّبَبَ الْمَانِعَ مِنْ ذَلِكَ مَعَ قِصْرِ الْجِدَارِ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا جَاؤُوا لِقَاتِلِهِ، فَذَكَرَ فِي الْحَبَرِ أَنَّهُمْ هَمُّوا بِالْوُلُوجِ عَلَيْهِ فَصَاحَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الدَّارِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: وَاللَّهِ إِنَّهَا لِلشُّبَّةِ فِي الْقَرْبِ أَنْ يُتَحَدَّثَ عَنَّا أَنَّا تَسَوَّرْنَا الْحَيْطَانَ عَلَى بَنَاتِ الْعَمِّ وَهَتَكُنَا بَيْتَهُنَّ حُرْمَتَنَا [فهذا هو الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه ثم طمست أبصارهم عنه حين خرج] وقال بعضهم: «الحكمة في كون الموضوع على رأسهم تراباً دون غيره الإشارة لهم بأنهم الأَرْدَلُونَ الْأَصْغَرُونَ الَّذِينَ أُرْغِمُوا وَالصِّقُوا بِالرَّغَامِ وَهُوَ التَّرَابُ، وَأَنَّهُ سِيلُصِقُهُمُ بِالتَّرَابِ بَعْدَ هَذَا».

الرابع: روى ابن مننَّه وغيره عن مارية خادمة النبي ﷺ أَنَّهَا طَاطَأَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَبِعَ حَائِطًا لَيْلَةً قَرَأَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا سَبَقَ فِي الْقِصَّةِ مِنْ أَنَّهُ طَلَعَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْبَابِ أَقْوَى سَنَدًا مِنْهُ، وَحَدِيثُ مَارِيَةَ فِيهِ مُجَاهِلٌ.

الخامس: في قراءته ﷺ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ يَسٍ مِنَ الْفَقْهِ التَّذَكُّرَةُ بِقِرَاءَةِ الْخَائِفِينَ لَهَا اقْتِدَاءً بِهِ ﷺ، وَوَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ: مَا قَرَأَهَا خَائِفٌ إِلَّا آمِنَ.

السادس: في بيان غريب ما سبق:

«مَنْعَةٌ»: سبق بيانها.

«شيخ جليل»: يقال جَلَّ الرجل وجَلَّت المرأة إذا أَسَنَّا.
 «عليه بَتٌ»: البَت بفتح الموحدة وتشديد المثناة الفوقية: الكساء الغليظ المُرْتَع وقيل الطيلسان من خَزَّ.

«أَجَلٌ»: بفتح الهمزة والجيم وإسكان اللام مُخَفَّفَةٌ بمعنى نَعَم.
 «أَجِمُّوا فيه رأياً»: بفتح الهمزة وكسر الميم: يقال أَجَمَعَت الأُمُرُوعلى الأمر إذا عَزَمَت عليه.
 «أَوْشَكُوا»^(١): بفتح الهمزة والشين المعجمة: أي أسرعوا.
 «أَظْهَرُونَا»: بِيَّئْنَا.

«أَلْفَتْنَا» بضم الهمزة.
 «أَن يَحُلَّ»: بفتح أوله وَضَمَّ الحاء المهملة أي يَنْزِل.
 «جَلِيداً»: بفتح الجيم وكسر اللام: أي قوياً.
 «وَسِطاً»: بفتح الواو وكسر السين والطاء المهملتين: أي حسيباً في قومه.
 «صارماً»: قاطعاً.

«نَعْمِد» بكسر الميم في المستقبل وفتحها في الماضي.
 «العَقْل» كعَقْل الإنسان: الدِّية.
 «عَتَمَةُ اللَّيْلِ»: بفتح العين والمثناة الفوقية وقت صلاة العِشَاء، وقيل ثلث الليل الأول من الليل بعد غيوبَةِ الشَّفَق، وَعَتَمَةُ الليل ظلامه.
 «الْحَضْرَمِي»: منسوب إلى حَضْرَمَوْت.
 «تَابَعْتُمُوهُ»: بمثناة فوقية وموحدة من الْمُتَابَعَةِ.
 «يُعِثْتُمْ» بالبناء للمفعول.
 «الْعِجَان» جمع جِئَّة: البُشْتَان.
 «الأَرْدُن»: بهمزة مضمومة فراء ساكنة فดาล مهملة فنون مُشَدَّدَةٌ: الكورة المعروفة من أرض الشام بقرب بيت المقدس.

«حَفْنَةٌ»^(٢): بفتح الحاء المهملة وسكون الفاء هي ملء الكف والشيء المحصول حَفْنَةً بالضم ويجوز الفتح، والمَرَّة بالفتح ليس غير.
 «صَدَقْنَا»: بفتح الدال المُخَفَّفَةُ: أي حَدَّثْنَا حديث صدق.

(١) وشك بضم الشين يوشك وشكاً وشكاً وشكاً أسرع وأوشك هو بمعنى وشك ويستعمل فعل مقاربة ويكون بمعنى: يقرب ويدنو أيضاً. الوسيط ١٠٣٥/٢.

(٢) الحفن بفتح الحاء: أجزلوا الشيء براحة كفك والأصابع مضمومة وفي حديث الشفاعة: إنما نجد حفنة من حفنات الله. اللسان ٩٣٤/٢.

الباب الثالث في قدر إقامة النبي صَلَّى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة ورؤياه الأرض التي يهاجر إليها

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، والرواية عن ابن عباس في ذلك مختلفة، وسيأتي تحريرها في الوفاة النبوية إن شاء الله تعالى وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرَ فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ»، رواه الشيخان^(١) وعن ضَهَبِ رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: أَرَيْتُ دَارَ هَجْرَتِكُمْ سَبْخَةً بَيْنَ ظَهْرَيْنِ فَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ هَجْرًا أَوْ يَثْرِبَ»، رواه الترمذي والحاكم والطبراني^(٢).

وروى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عدي بن الحمراء^(٣) رضي الله عنه، والإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة، قال الحافظ: وذكره وهم وإنما هو عبد الله بن عدي، والحاكم وابن جميع عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وَقَفَ عَلَى الْحَزْوَرَةِ فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضٍ إِلَيَّ وَلَوْلَا أَنْ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتَ مِنْكَ»^(٤).

تنبيهات

الأول: قال ابن التين: أَرَى النَّبِيَّ ﷺ أَوَّلًا دَارَ هَجْرَتِهِ بِصِفَةِ تَجْمَعُ الْمَدِينَةَ وَغَيْرَهَا، ثُمَّ أَرَى الصِّفَةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْمَدِينَةِ فَتَعَيَّنَتْ.

الثاني: حديث أبي هريرة مرفوعاً: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي مِنْ أَحَبِّ الْبِقَاعِ إِلَيَّ فَأَسْكِنْنِي فِي أَحَبِّ الْبِقَاعِ إِلَيْكَ»^(٥)، رواه الحاكم، وقال الذهبي: إنه موضوع، وقال ابن عبد البر: لا

(١) أخرجه البخاري ٢٤٧/٤ ومسلم في كتاب الرؤيا (٢٠) وابن ماجه (٣٩٢١).

(٢) أخرجه الحاكم ٤٠٠/٣ والطبراني في الكبير ٣٧/٨ والبيهقي في الدلائل ٥٢٢/٢.

(٣) عبد الله بن عدي بن الحمراء القرشي الزُّهري ويُقال إنه عقبى خالف بني زُهرة. قال البخاري: لهُ صُحْبَةٌ يَكْنَى أَبَا عَمْرٍ وَأَبَا عَمْرٍو وَكَانَ يَنْزِلُ قَدِيدًا وَهُوَ مِنْ مُسَلِّمَةِ الْفَتْحِ رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَكَّةَ رَوَى عَنْهُ أَبُو سَلَمَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ جَبْرِ بْنِ مُطْعَمٍ وَقَالَ الْبُغَوِيُّ: سَكَنَ الْمَدِينَةَ. الإصابة ١٠٥/٤.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨) والحاكم ٧/٣ وأحمد في المسند ٣٠٥/٤ والدارمي ٢٣٩/٢ وابن عبد البر في التمهيد ٢٨٨/٢.

(٥) ذكره المعجلوني في كشف الخفا ٢١٣/١ وعزاه للحاكم في المستدرک وابن سعد في شرف المصطفى عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: قال الحاكم: ومُسْنَدُهُ مَدِينُونَ فِي بَيْتِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُقْبَرِيِّ انْتَهَى، وَفِي سَنَدِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْمُقْبَرِيِّ ضَعِيفٌ جَدًّا، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: لَا يَخْتَلِفُ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي نَكَارَتِهِ وَوَضْعِهِ، وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ: هُوَ حَدِيثٌ لَا يَسْتَدُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُرْسَلٌ مِنْ جِهَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ زُبَالَةَ وَهُوَ هَالِكٌ.

يختلف أهل العلم أنه مُتَكَرَّر موضوع.

الثالث: في بيان غريب ما سبق:

«وَهَلِي»: بفتح أوله وثانيه: أي ظَنِّي، يقال: وَهَلَ يَهْلُ وَهَلًا بالسكون إذا ظَنُّ شَيْئًا فَتَبَيَّنَ الأمر خلافه.

«الْيَمَامَة»: مدينة على يومين من الطائف وأربعة من مكة.

«هَجَرَ»: بفتح أوله وثانيه وهي هنا مدينة باليمن، وهي قاعدة البحرين وهي من مساكن عبد القيس، وقد سبقوا غيرهم من القرى إلى الإسلام، يُذَكَّر ويُؤْتَّى، قال الجوهري: مُذَكَّر مصروف.

«أَرْضٌ سَبِيخَة»: بفتح السين المهملة وكسر الموحدة وتُسَكَّن وتُفْتَح، أي مالحة.

«ظَهَرَائِي حَزْرَتَيْنِ»: أي بينهما والحَزْرَتَانِ: ثنية حرة وهي أرض ذات حجارة سود.

«الحَزْرَوْرَة»: بحاء مفتوحة فزاي ساكنة فواو فراء، سوق كانت بمكة أُذِنِحِلَتْ في

المسجد.

الباب الرابع

في هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء ٨٠]. روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم والضياء وصحّحوه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأمر بالهجرة من مكة وأنزل عليه ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء ٨٠] الهجرة إلى المدينة ﴿وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾: كتاب الله عز وجل، وفرائضه وحدوده. وروى الحاكم وصحّحه عن قتادة في الآية قال: ﴿أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني مكة. وروى الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم في الآية قال: جعل الله تعالى مُدْخَلَ صِدْقٍ المدينة ومُخْرَجَ صِدْقٍ مكة، وسلطاناً نصيراً الأنصار.

قال ابن سعد: «إن رسول الله ﷺ لما خرج من بيته أتى بيت أبي بكر بمكة فكان فيه إلى الليل، ثم خرج هو وأبو بكر فمضيا إلى غار ثور فدخلاه». وروى موسى بن عُقبة وابن إسحاق والإمام أحمد والبحاري وابن حبان عن عائشة رضي الله عنها، وابن إسحاق والطبراني عن أختها أسماء رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه استأذن رسول الله ﷺ في الخروج قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي». فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي وأمي أنت؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبته وَعَلَفَ راحلتين كانتا عنده وَزَقَ الشَّعْرَ^(١)، وهو الخَبِطُ^(٢) أربعة أشهر.

[قال ابن شهاب: أخبرني غزوة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت:] «لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طَرْفِيْ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً». قالت: «فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة^(٣) قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنَّعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها». فقال أبو بكر: «فدأء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر». قالت: «فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل، فتأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ». فقال أبو بكر: «يا رسول الله ما جاء بك إلا أمرٌ حدث». فقال رسول الله ﷺ

(١) الشَّعْرُ: هو ضرب من شجر الطلح الواحدة شجرة، انتظر النهاية لابن الأثير ٣٩٩/٢.

(٢) الخَبِطُ، ضرب الشجر بالصم ليتناثر ورقها، واسم الورق الساقط تحيط بالتحريك، فعل بمعنى مفعول، وهو من علف الإبل. انتظر النهاية لابن الأثير ٧/٢.

(٣) نحر الظهيرة: هو حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع، كأنها وصلت إلى النحر، وهو أعلى الصدر. انتظر النهاية لابن الأثير ٢٧/٥.

لأبي بكر: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ». فقال أبو بكر: لا عَيْنَ عَلَيْكَ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، وفي لفظ: أَهْلُكَ. قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهَجْرَةِ». فقال أبو بكر: «الصَّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ». قال: «نعم». قالت عائشة: «فوالله ما أن أحداً يبيكي من الفَرْحِ حَتَّى رَأَيْتَ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ».

قال أبو بكر: «يا رسول الله خُذْ إِحْدَى رَاجِلَتَيَّ هَاتَيْنِ». فقال رسول الله ﷺ: «بِالْثَّمَنِ، لَا أَرْكَبُ بَعِيرًا لَيْسَ هُوَ لِي». قال: فهو لك. قال: «لَا وَلَكِنْ بِالثَّمَنِ الَّذِي ابْتِغَتْهَا بِهِ». قال «أَخَذْتُهَا بِكَذَا وَكَذَا». قال «أَخَذْتُهَا بِذَلِكَ». قال: هي لك. وعند البخاري في غزوة الرجيع أنها الجُدْعَاءُ، وأفاد الواقدي أن الثمن ثمانمائة. واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدَّيْلِ وهو من بني عَبْدِ بْنِ عَبْدِ هَادِيٍّ خَزِيمَتَا - وَالْخَزِيمَتِ الْمَاهِرِ بِالْهَدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ جِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السُّهْمِيِّ وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قَرِيشٍ - وَأَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ - فَأَمِنَاهُ فَدَفَعْنَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صَبَحَ ثَلَاثَ.

قالت عائشة: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَخَذْتُ الْجِهَازَ وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةَ فِي جِرَابٍ. وأفاد الواقدي أنه كان في السفرة شاة مطبوخة. قالت عائشة: فَشَقَّتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا - وَفِي لَفْظٍ قَطَعَتْ نِطَاقَهَا قِطْعَتَيْنِ فَأَوْرَثَتْ بِقِطْعَةٍ مِنْهُ الْجِرَابَ وَشَدَّتْ فَمِ الْقِرْبَةِ بِالْبَاقِي فَسُمِّيَتْ ذَاتُ النِّطَاقِ وَفِي لَفْظِ النُّطَاقَيْنِ. وعند البلاذري أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لَهَا نِطَاقَيْنِ فِي الْجَنَّةِ»^(١) فَسُمِّيَتْ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ.

قال ابن إسحاق: وَأَعْلَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا بِخُرُوجِهِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَخَلَّفَ بَعْدَهُ بِمَكَّةَ حَتَّى يُوَدِّيَ عَنْهُ الْوَدَائِعَ الَّتِي كَانَتْ عَنْدهُ لِلنَّاسِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ بِمَكَّةَ أَحَدٌ عَنْدهُ شَيْءٌ يَخْشَى عَلَيْهِ إِلَّا وَضَعَهُ عَنْدهُ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ صَدَقَةٍ وَأَمَانَتِهِ. قالت عائشة: «وَلَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ». وفي حديث عُثْمَرِ عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ أَنَّهُمَا خَرَجَا لَيْلًا. وذكر ابن إسحاق والواقدي أَنَّهُمَا خَرَجَا مِنْ خَوْخَةٍ فِي ظَهْرِ بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ. وروى أبو نُعَيْمٍ عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ قُدَامَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَقَدْ خَرَجْتَ مِنَ الْخَوْخَةِ مُتَنَكِّراً فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لَقِينِي أَبُو جَهْلٍ فَأَغَمَى اللَّهُ عِزَّ وَجْهِ بَصَرَهُ عَنِّي وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَضَيْتَا». قالت أسماء: «وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ بِمَالِهِ خَمْسَةَ آلَافٍ دِرْهَمًا». قال البلاذري: «وَكَانَ مَالُ أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ أُسْلِمَ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَخَرَجَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِلْهَجْرَةِ وَمَالُهُ خَمْسَةُ آلَافٍ أَوْ أَرْبَعَةٌ، فَبِعْتَ ابْنَتَهُ عَبْدَ اللَّهِ فَحَمَلَهَا إِلَى الْغَارِ». قالت: «فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةٍ وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ». قالت: «قُلْتُ: كَلَّا يَا أَبَتِ إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا». قالت: «فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةٍ فِي الْبَيْتِ، كَانَ أَبِي يَضَعُ مَالَهُ فِيهَا، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْبًا، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ

فقلت: يا أبت ضَع يَدَكَ على هذا المال. قالت: فوضع يَدَهُ عليه. فقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك».

وفي حديث عند البيهقي أن أبا بكر رضي الله عنه لما خرج هو ورسول الله ﷺ إلى الغار، جعل أبو بكر يمشي مَرَّةً أمام النبي ﷺ، ومَرَّةً خَلْفَهُ ومَرَّةً عن يمينه ومَرَّةً عن شِمَالِهِ، فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «يا رسول الله أَذْكَرُ الرِّصْدَ فَأَكُونُ أَمَامَكَ وَأَذْكَرُ الطَّلَبَ فَأَكُونُ خَلْفَكَ، ومَرَّةً عن يمينك ومَرَّةً عن يسارك لآمن عليك، فلما انتهينا إلى فم الغار قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا تَدْخُلُهُ حتى أَدْخِلَهُ قبلك، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك». فدخله فجعل يلمس بيده، فجعل كلما دَخَلَ جُحْراً قام إلى ثوبه فشَقَّهُ ثم أَلْقَمَهُ الجُحْرَ حتى فعل ذلك بثوبه أجمع: فبقي جُحْرٌ فوضع عَقَبِيَّه عليه، ثم دَخَلَ رسول الله ﷺ فَمَجَعَلَتْ الْحَيَّاتُ يَلْسَعْنَ أبا بكر رضي الله عنه وجعلت دموعه تنحدر.

وروى ابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي بكر أنهما لما انتهيا إلى الغار إذا جُحْرٌ فَأَلْقَمَهُ أبو بكر رجله. قال: «يا رسول الله إن كان لَدَغَةٌ أو لسعة كانت بي». وروى ابن مَرْزُوقٍ عن جُحْدَبِ بْنِ شَفِيَّانٍ قال: «لما انطلق أبو بكر مع رسول الله ﷺ إلى الغار قال أبو بكر: يا رسول الله لا تدخل الغار حتى أَسْتَبْرِئَهُ. فدخل أبو بكر الغار فأصاب يَدَهُ شيء فجعل يمسح الدم عن إصبعه ويقول

هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِضْبَعُ دَمِيَّتٍ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَّتِ

وفي حديث أنس عند أبي نعيم أن رسول الله ﷺ لما أصبح قال لأبي بكر «أَيْنَ تَوُتُّكَ؟ فأخبره بالذي صنع فرفع رسول الله ﷺ يَدَيْهِ فقال: «اللهم اجْعَلْ أبا بكر معي في دَرَجَتِي في الجنة». فأوحى الله إليه: «قد استجاب الله تعالى لك»^(١). وروى ابن سعد وأبو نُعَيْمٍ والبيهقي وابن عساكر عن أبي مُضْعَبِ المكي قال: «أدركت أنس بن مالك، وزيد بن أَرْقَمَ، والمُغِيرَةَ بن شُعْبَةَ يتحدثون أن النبي ﷺ ليلة الغار أَمَرَ شَجَرَةً. وفي رواية عند قاسم بن ثابت: أنبت الله شجرة الزَّاءِ، فنبتت في وجه رسول الله ﷺ، فسترته، وبعث الله العنكبوت فتَسَجَّتْ ما بينهما فستر وجه رسول الله ﷺ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا في قِمِ الغار، وأقبل فتيان قريش من كل بطن يَعْصِيهِمْ وهراويهم وسيوفهم، حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على أربعين ذراعاً، جعل بعضهم ينظر في الغار فلم يَرِ إِلَّا حمامتين وحشيتين بَقِمِ الغار، فرجع إلى أصحابه، فقالوا له: ما لك؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣٣/١ وذكره السيوطي في الجامع الكبير (٩٣٣٨).

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات ٢٤١

أحد، فسمع النبي ﷺ ما قال، فعرف أن الله قد درأ عنه بهما فبارك عليهما النبي ﷺ وفرض جزاءهن وانحدرتا في الحزم فَأَفْرَحَ ذلك الزوج كل شيء في الحزم. وروى الإمام أحمد بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن المشركين قَصُّوا أثر رسول الله ﷺ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فَمَرُّوا بالغار فَرَأَوْا على بابه نسيج العنكبوت، فمكث فيه ثلاثة أيام.

وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن سعيد^(١) القاضي شيخ النسائي في مسند الصديق عن الحسن البصري قال: «جاءت قريش يطلبون النبي ﷺ، وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسيج العنكبوت قالوا: لم يدخله أحد. وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبو بكر يرتقب. فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أبكي ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره. فقال له النبي ﷺ: «لا تخف إن الله معنا» وروى الإمام أحمد والشيخان عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نَظَرَ إلى قدمه لأبصرنا تحت قدميه» فقال: «ما ظنُّك بآئتين الله ثالثهما»^(٢). وروى أبو نعيم في الحلية عن عطاء بن ميسرة قال: «نَسَجَتِ العنكبوت مَرَّتَيْنِ مرة على داود حين كان طالوت يطلبه ومرة على النبي ﷺ في الغار».

وذكر البلاذري في تاريخه وأبو سعيد في الشرف أن المشركين استأجروا رجلاً يقال له غَلْقَمَةُ بن كُرْز بن هلال الخزاعي - وأسلم عام الفتح - فقفا لهم الأثر حتى انتهى إلى غار ثور^(٣) وهو بأسفل مكة فقال: ههنا انقطع أثره ولا أدري أخذ يمينا أم شمالاً أم صعد الجبل. فلما انتهوا إلى فيم الغار قال أمية بن خلف: ما أَرَبُكُمْ في الغار؟ إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد. ثم جاء فبال.

وروى البيهقي عن عروة أن المشركين لما فقدوا رسول الله ﷺ رَكِبُوا في كل وجه يطلبونه وبعثوا إلى أهل المياه يأمرؤنهم به ويجعلون لهم الجغل العظيم وآتوا على ثور الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبي ﷺ حتى طلَعُوا فوقه، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر وبكى وأقبل عليه الهَمَّ والحزن والخوف، فعند ذلك يقول رسول الله ﷺ «لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» [التوبة - ٤٠] ودعا رسول الله ﷺ فنزلت السكينة من الله

(١) أحمد بن سعد بن الحكم بن محمد بن سالم الجمحي أبو جعفر بن أبي مريم المصري الحافظ عن أبيه وأبي اليمان وحبيب كاتب مالك وسأل ابن معين عن الرجال. وعنه وقال: لا بأس به. قال ابن يونس: توفي يوم عرفة سنة ثلاث وخمسين ومائتين. الخلاصة ١٤/١.

(٢) أخرجه البخاري ٤/٥ ومسلم في فضائل الصحابة (١) وأحمد في المسند ٤/١.

(٣) أنظر. مرابيد الاطلاع ٣٠٢/١.

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

تعالى. وروى ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، قال: على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم تنزل السكينة معه^(١) [التوبة - ٤٠].

وروى أبو نعيم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن أبا بكر رأى رجلاً مواجهاً الغار فقال: «يا رسول الله إنه يرانا». «قال: كلا إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها». فلم ينشب أن قعد يبول مستقبلنا، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر لو كان يراك ما فعل هذا».

ويرحم الله الشرف البوصيري حيث قال:

وَبَحَّ قَوْمٌ جَفَوْا نَبِيًّا بِأَرْضٍ أَلْفَتْهُ ضِبَائِبُهَا وَالظُّبَاءُ
وَسَلَّوْهُ وَحَسُّ جَذَعٍ إِلَيْهِ وَقَلَّوْهُ وَرَدُّهُ الْغُرَبَاءُ
أَخْرَجُوهُ مِنْهَا وَأَوَّاهُ غَارًا وَحَمَلَتْهُ حَمَامَةٌ وَزَقَاءُ
وَكَفَفَتْهُ يَنْشِجُهَا عَنْكَبُوتٌ مَا كَفَفَتْهُ الْحَمَامَةُ الْحَصْدَاءُ

وحيث قال:

أَفْسَسْتُ بِالْقَمَرِ الْمُتَشَقُّ أَنْ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةٌ مَبْرُورَةٌ الْقَسَمِ
وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ وَكُلُّ طَرَفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عِمِ
فَالصُّدُقُ فِي الْغَارِ وَالصُّدُوقُ لَمْ يَرِدَا وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمِ
ظَلُّوا الْحَمَامَ وَظَلُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ تَنْسِجْ وَلَمْ تُحْمِ
وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأُطْمِ

لطيفة: سئل بعضهم عن الحكمة في اختفائه ﷺ في غار ثور دون غيره فأجيب بأنه ﷺ كان يحب الفأل الحسن، وقد قيل إن الأرض مستقرة على قرن الثور فناسب استقراره ﷺ في غار ثور تفاؤلاً بالطمأنينة والاستقرار فيما يقصده هو ورفيقه.

وروى ابن عدي وابن عساكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «هل قلت في أبي بكر شيئاً؟ قال: نعم. قال: «قُلْ وَأَنَا أَسْمَعُ»، فقال:

وَالثَّانِي أَتَيْنِ فِي الْغَارِ الْمُتَنِيْفِ وَقَدْ طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعِدَ الْجَبَلَا
وَكَانَ حَبِّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا مِنَ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَغْدِلْ بِهِ رَجَلَا

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: «صَدَقْتَ يَا حَسَّانَ هُوَ كَمَا

قلت^(٢)».

(١) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٤٦٢٨١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٧٧/٣ وابن سعد في الطبقات ١٢٣/١/٣ والطبراني ١٥٦/٨.

قالت عائشة رضي الله عنها: «فَكَمْنَا فِي الْغَارِ ثَلَاثَ لَيَالٍ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ يبيت عندهما، وهو غلام ثَقِفٌ^(١) لَقِينٌ، فيُذَلِّجُ من عندهما بِسَخَرٍ فيصبح مع قريش [بمكة كِبَائِتْ]، فلا يَسْمَعُ بِأَمْرِ يُكَادَانِ بِهِ إِلَّا وعاه حتى يَأْتِيَهُمَا بِخَيْرِ ذَلِكَ حين يَخْتَلِطُ الظَّلام. وعند ابنِ إِسْحَاقَ أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ تَأْتِيَهُمَا إِذَا أَمَسَتْ بِمَا يُضِلُّهُمَا مِنَ الطَّعَام. وكان عامر بن فُهَيْرَةَ يَزْعَى عَنَّمَا لِأَبِي بَكْرٍ فِي رُغَيَّانِ أَهْلِ مَكَّةَ فَإِذَا أَمْسَى يُرِيخُهُمَا عَلَيْهِمَا حين تذهب ساعة من العِشاء، فَيَبْتَئَانِ فِي رِشْلِ وَهُوَ لَبَنٌ مِنْخَتُهُمَا وَرَضِيْفُهُمَا^(٢) [حتى يَنْتَقِ بِهَا عامر بن فُهَيْرَةَ يَغْلَسُ]، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

فلما مضت الثلاث وسَكَنَ عنهما الناس أَتَاهُمَا صَاحِبُهُمَا الَّذِي اسْتَأْجَرَاهُ فَزَكَبَا وانطلق معهما عامر بن فُهَيْرَةَ والدليل الدِّيلِي. وأردف أبو بكر عامر بن فُهَيْرَةَ مولاه ليخدمهما في الطريق - وعند البخاري في غزوة الرِّجِيع كان عامر بن فُهَيْرَةَ غلاماً لعبد الله بن الطُّفَيْل بن سَخْبَرَةَ أَخُو عَائِشَةَ لَأُمِّهَا - وأخذ بهما الدليل طريق الساحل أسفل من عُسْفَانَ^(٣) ثم أجاز بهما حتى عادا من الطريق على أَمَج.

وروى أبو نُعَيْمٍ من طريق إبراهيم بن سعد عن محمد بن إِسْحَاقَ قال: «بلغني أَنَّ رسول الله ﷺ لما خَرَجَ مُهَاجِراً قال: «الحمد لله الذي خلَقني ولم أَكُ شَيْعاً، اللهم أَعِنِّي عَلَى هَؤُلَ الدُّنْيَا وَبَوَائِقِ الدَّهْرِ وَمَصَائِبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، اللهم اصْحَبْنِي فِي سَفَرِي وَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي، وَلَكَ فَدَلِّلْنِي، وَعَلَى صَالِحِ خَلْقِي فَقَوِّمْنِي، وَإِلَى رَبِّي فَحَبِّبْنِي، وَإِلَى النَّاسِ فَلَا تُكَلِّبْنِي، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فَكَشَفَتْ بِهِ الظُّلُمَاتِ وَصَلَّحَ عَلَيْهِ أَمْرَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، أَنْ يَحِلَّ بِي غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَاقِبَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ، لَكَ الْعُتْبَى خَيْرَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(٤).

وروى الإمام أحمد والشيخان ويعقوب بن سفيان عن البراء بن عازب رضي الله عنه أَنَّ أَبَاهُ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ صَبَّغْتُمَا لَيْلَةَ سَرِيَّةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: خَرَجْنَا

(١) ثقف: أي ذو فطنة وذكاء. ورجل ثَقِفٌ، وَثَقَّفَ، وَثَقَّفَ والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه. انظر النهاية ٢١٦/١.

(٢) الرضيف: اللبن المرضوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحممة ليذهب وخمه. انظر النهاية ٢٣١/٢.

(٣) عسفان بضم أوله، وسكون ثانيه، ثم فاء، وآخره نون. قيل: منهلة من مناهل الطريق. بين الجحفة ومكة. وقيل: عسفان بين المسجدين، وهي من مكة على مرحلتين. وقيل: هو قرية جامعة على ستة وثلاثين ميلاً من مكة، وهي حد تهامة. وبين عسفان إلى ملل موضع يقال له الساحل. مراصد الاطلاع ٩٤٠/٢.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٤) وذكره المتقي الهندي في الكنز (١٧٦١٥) وابن كثير في البداية والنهاية ١٧٨/٣.

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

فَأَذَلَّجْنَا فَأَحْيَيْنَا يَوْمَنَا وَلَيْلَتَنَا حَتَّى أَظْهَرْنَا وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ فَضْرِبْتُ بَبْصَرِي هَلْ أَرَى ظِلًّا نَأْوِي إِلَيْهِ فَإِذَا أَنَا بِصَخْرَةٍ فَأَهْوَيْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا بَقِيَّةُ ظِلِّهَا فَسَوَّيْتُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَرَشْتُ لَهُ فُرُوزَةً ثُمَّ قُلْتُ: اضْطَجِعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ، ثُمَّ خَرَجْتُ هَلْ أَرَى أَحَدًا مِنَ الطُّلُبِ فَإِذَا بِرَاعٍ مُقْبِلٍ بَغْنَمِهِ يَرِيدُ مِنَ الصَّخْرَةِ مَا أَرَدْنَا: فَلَقِيْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غَلَامُ؟ فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَسَمَّاهُ فَعَرَفْتُهُ فَقُلْتُ: هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: هَلْ أَنْتَ حَالِيبٌ لِي؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَمَرْتُهُ فَاعْتَقَلَ شَاةً مِنْهَا. فَقُلْتُ: انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ التَّرَابِ وَالْقَدَى، فَحَلَبْ لِي فِي قَعْبٍ مَعَهُ كُتْبَةٌ مِنْ لَبَنٍ وَمَعَهُ إِدَاوَةٌ أَرْتَوِي فِيهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَشْرَبُ مِنْهَا وَيَتَوَضَّأُ، عَلَى فَمِهَا خِرْزُفَةٌ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَكِرِهْتُ أَنْ أَوْقِظَهُ مِنْ نَوْمِهِ، فَوَقَفْتُ حَتَّى اسْتَيْقِظَ، فَصَبَّيْتُ عَلَى اللَّبَنِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى بَرَدَ أَشْفَلَهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْرَبْ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ. فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيْتُ. ثُمَّ قَالَ: «أَلَمْ يَأْنِ الرَّحِيلُ؟» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا زَالَتِ الشَّمْسُ (١).

قِصَّةُ أُمِّ مَعْبُدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

رَوَى الطَّبْرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَأَبُو نُعَيْمٍ وَأَبُو بَكْرِ الشَّافِعِيُّ عَنْ حُبَيْشِ بْنِ خَالِدٍ الْأَشْعَرِ الْخُزَاعِيِّ الْقُدَيْدِيِّ (٢)، أَخِي أُمِّ مَعْبُدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَبُو بَكْرِ الشَّافِعِيُّ عَنْ أَبِي سَلَيْطٍ - بَفَتْحِ السِّينِ الْمَهْمَلَةِ وَكَسْرِ اللَّامِ فَمُثْنَاةٌ تَحْتِيةً فِطَاءً مَهْمَلَةً - وَاسْمُهُ أُسَيْزَةُ - بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَفَتْحِ ثَانِيهِ وَسُكُونِ الْمُثْنَاةِ التَّحْتِيَةِ - ابْنُ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَابْنُ سَعْدٍ وَابْنُ أَبِي مَعْبُدٍ، وَابْنُ السَّكَنِ عَنْ أُمِّ مَعْبُدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَابْنُ زُبَيْرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ هُوَ أَبُو بَكْرٍ، وَمَوْلَى أَبِي بَكْرٍ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَدَلِيلُهُمُ اللَّيْثِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَرْيَاقِطِ، مَرُّوا عَلَى خَيْمَةِ أُمِّ مَعْبُدٍ الْخُزَاعِيَّةِ، وَهِيَ لَا تَعْرِفُهُ، وَكَانَتْ بَرَزَةً جَلْدَةً تَحْتَبِي بِفَنَاءِ الْقُبَّةِ ثُمَّ تَشَقَّقِي وَتُطْلِعِي فَسَأَلُوها لَحْمًا وَتَمْرًا لِيَشْتَرَوْهُ مِنْهَا، فَلَمْ يُصِيبُوا عِنْدَهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَإِذَا الْقَوْمُ مُزْمِلُونَ مُشْتَبِهُونَ. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عِنْدَنَا شَيْءٌ مَا أَعُوزْنَاكُمْ. فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهَا شَاةً فِي كِسْرِ الْحَيْمَةِ - وَفِي لَفْظٍ فِي كِفَاءِ الْبَيْتِ - فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبُدٍ؟» قَالَتْ: شَاةٌ خَلَقَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ. قَالَ: «هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟» قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «أَتَأْذِنِينَ لِي أَنْ أَخْلُبَهَا؟» قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي نَعَمْ إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلَبًا فَأَخْلُبْهَا فَوَاللَّهِ مَا ضَرَبَهَا فَحَلَّ قَطْرَ

(١) أخرجه البخاري ٢٤٥/٤ ومسلم في كتاب الزهد (٧٥).

(٢) حبش بن خالد بن منقل بن ربيعة بن أصرم بن حبش بن حزام بن حبشية بن كعب بن عمرو: وقيل: حبش بن خالد بن حليف بن منقل بن ربيعة. وقيل: حبش بن خالد بن ربيعة لا يذكرون منقلاً، الخزازي الكعبي، أبو صخر، وأبوه خالد يقال له: الأشعر. وقال ابن الكلبي: حبش هو الأشعر، وزاد في نسبه، فقال: حبش بن خالد بن حليف بن منقل بن أصرم، ووافق ابن مأكولا إلا أنه جعل الأشعر نخالداً. وقال إبراهيم بن سعد، عن ابن إسحاق: غنيس، بالخاء المعجمة والنون، والأول أصح، يكنى أبا صخر، وهو أخو أم معبد، وصاحب حديثها. أسد الغابة ٤٥١/١.

فشأنك بها. فَدَعَا بها رسول الله ﷺ فَمَسَحَ بيده ضَرْعَهَا وَظَهَّرَهَا وَسَمَّى الله عز وجل ودعا لها في شاتها فَتَفَاجَّحَتْ عليه وَدَوَّرَتْ وَاجْتَرَّتْ، ودعا بِإِنَاءٍ يُزْبِضُ الرَّهْطَ^(١) فحلب فيه ثَجًّا حتى غَلَاه البهاء. وفي لفظ الثَّمَال - ثم سقاها حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رَوَّاء، ثم شَرِبَ ﷺ آخرهم، وقال: «ساقِي الْقَوْمَ آخِرَهُمْ شُرْبًا»^(٢). ثم حَلَبَ فيه ثانية بعد بدء حتى مَلَأَ الْإِنَاءَ ثم غادره عندها. فبايعها وارتحلوا عنها.

وروى ابن سعد وأبو نعيم عن أم معبد قالت: «بقيت الشاة التي لمس رسول الله ﷺ ضرعها عندنا حتى كان زمان الرمادة وهي سنة ثمانى عشرة من الهجرة زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكنا نحلبها صَبُوحاً وَعَشِيًّا، وما في الأرض قليل ولا كثير». وقال هشام بن حُبَيْش: «أنا رأيت الشاة وإنما لتَأْدُمُ أُمُّ مَعْبِدَ وَجَمِيعَ صِرْمَتَيْهَا»، أي أهل ذلك الماء. فَقُلَّ مَا لَبِثَتْ أَنْ جَاءَ زَوْجُهَا أَبُو مَعْبِدَ يَسُوقُ أَغْزْرًا حَيْثَالًا^(٣) عِجَافًا يَتَسَاوَرُكُنْ هَذَا لَمْ يَخْهِنَ قَلِيلًا.

فلما رأى اللبن عَجِبَ فقال: من أين لَكَ هذا اللبن يا أم معبد والشاة عازب ولا حلوب في البيت؟ قالت: «لا والله إِلَّا أَنَّهُ مَرُّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا». قال: «صِفِيهِ لِي يَا أُمُّ مَعْبِدَ». قالت: «رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ أَهْلَجَ الْوَجْهَ حَسَنَ الْخُلُقِ، لَمْ تَعْبُهُ لُجْلَةٌ وَلَمْ تُزِرْ بِهِ صَغْلَةٌ، وَبَسِيمٌ قَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ وَفِي أَشْفَارِهِ وَطْفٌ وَفِي صَوْتِهِ صَحْلٌ - أَوْ قَالَتْ صَهْلٌ - وَفِي عُنْقِهِ سَطْعٌ، وَفِي لَحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَرْجٌ أَقْرَنُ، إِنْ صَمِتَ فَعَلِيهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلَاةُ الْبَهَاءِ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاءُ مِنْ بَعِيدٍ وَأَحْسَنُهُ وَأَحْلَاهُ مِنْ قَرِيبٍ، خُلُوَ الْمَنْطِقَ فَضْلًا لَا تَزُرْ وَلَا هَذُرْ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَزَزَاتٍ نَظْمٌ يَتَحَدَّرُونَ، رُبْعَةٌ لَا تَشْنُوهُ مِنْ طَوْلٍ، وَلَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، غُضْنٌ بَيْنَ غُضْنَيْنِ، فَهُوَ أَضْطَرُّ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُقَقَاءُ يَحْفُونَ بِهِ، إِذَا قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَوْلِهِ وَإِذَا أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ، مَحْفُودٌ^(٤) مَحْشُودٌ لَا عَابِسَ وَلَا مُفْنَدٌ». فقال أبو معبد: «هذا والله صاحب قريش الذي ذُكِرَ لَنَا مِنْ أَمْرِهِ بِمَكَّةَ مَا ذُكِرَ وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ وَلَا أَفْعَلَنَّ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا».

قالت أسماء رضي الله عنها: «لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نَقَرٌ مِنْ قَرِيشٍ

(١) يربض الرهط: أي يربهم وينقلهم حتى يناموا ويمتدوا على الأرض. من ربض في المكان يربض إذا لصق به وأقام ملازمًا له. انظر النهاية ١٨٤/٢.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٢٥) والترمذي (١٨٩٤) وابن ماجه (٣٤٣٤) وأحمد في المسند ٣٥٤/٤ والدارمي ١٢٢/٢ والبيهقي في السنن ٢٨/٧.

(٣) قال ابن الأثير: أي غير حوامل، حالت تحول حَيْثَالًا وهي شاء حَيْثَالٍ، وإبل حَيْثَالٍ. والواحدة حائل، وجمعها حول أَيْضًا بالضم. انظر النهاية ٤٦٣/١.

(٤) المحفود: الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته. انظر النهاية ٤٠٦/١.

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

فيهم أبو جهل بن هشام فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقلت «والله لا أدري أين أبي». فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم تجدي لطمَةً خرج منها قرطي، ثم انصرفوا، فمكثنا ثلاثة أيام ما ندري أين توجه رسول الله ﷺ حتى أتى رجل من الجح من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب وتبعه الناس يسمعون صوته وما يروونه حتى خرج من أعلا مكة وهو يقول:

جَزَى اللَّهُ رَبَّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ رَفِيقَيْنِ قَالَا خَيَّمَتْنِي أُمُّ مَعْبِدٍ
هُمَا نَزَلَا بِالنَّبَرِ وَازْتَحَلَا بِهِ فَأَقْلَحَ مِنْ أَمْسَى رَفِيقُ مُحَمَّدٍ
فَيَا لِقَصِي مَا رَوَى اللَّهُ عَنْكُمْ بِهِ مِنْ فَعَالٍ لَا تُجَارَى وَشَوْدِدٍ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَقَامَ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصِدٍ
سَلُّوا أُخْتُكُمْ عَنْ شَاتِيهَا وَإِنَائِيهَا فَإِنَّكُمْ إِنْ تَشَاءُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاها بِشَاةِ حَائِلٍ فَتَحَلَبَتْ لَهُ بِصَرِيحِ ضَرَّةِ الشَّاةِ مُزِيدٍ
فَعَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا لِخَالِبٍ يُرَدُّهَا فِي مَضْدِرٍ ثُمَّ مَوْرِدٍ^(١)

فلما سمع ذلك حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال يجابو الهاتف:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ غَابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ وَقُدْسٌ مَنْ يَشْرِي إِلَيْهِ وَيَغْتَدِي
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِئُورٌ مُجْدِدٍ
هَذَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رُبُّهُمْ وَأَرْشَدُهُمْ مَنْ يَتَّبِعِ الْحَقَّ يُرْشِدِ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالٌ قَوْمٌ تَسْقُوهَا عَمَى وَهَذَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ رِكَابٌ هَدَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعِدِ
نَبِيٍّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَثْلُو كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةٌ غَائِبٍ فَتَضِدُّهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضَحَى الْعَدِ
لِيَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةٌ جَدُّهُ بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدِ اللَّهُ يَسْعِدِ^(٢)

وروى البيهقي بسنيد حسنه والحافظ ابن كثير عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة، فانتبهنا إلى حيي من أحياء العرب فنظر رسول الله ﷺ إلى بيت مُنْتَحِيًّا فقصده إليه، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة فقالت: يا عبدي الله إنما أنا امرأة وليس معي أحد فعليكما بعظيم الحيي إن أردتم القزى. قال: فلم نُجِبْها، وذلك عند المساء، فجاء ابن لها بأعْثَرٍ له يسوقها. فقالت له: يا بني انطلق بهذه العنزة والشفرة إلى هذين الرجلين

(١) الأبيات في الروض الأنف ٢٣٤/٢ ودنوان حسان ص ٥٩.

(٢) القصيدة في الروض الأنف ٢٣٥/٢ وانظر دنوان حسان ص ٥٩، ٦٠.

فقل لهما: تقول لكم أمي: اذبحا هذه وأطعمانا. فلما جاء قال له النبي ﷺ: «انطلق بالشفرة وجثني بالقدح». قال: إنها عازب وليس لها لبن. قال: «انطلق». فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها ثم حلب مِلء القدح ثم قال: انطلق به إلى أمك. فشربت ثم رويت ثم جاء به. فقال: انطلق بهذه وجثني بأخرى ففعل بها كذلك. ثم سقى أبا بكر، ثم جاء بأخرى ففعل بها كذلك ثم شرب النبي ﷺ.

«فلبئنا ليلتين ثم انطلقنا، وكانت تسميه المبارك، وكثرت غنمها حتى جَلَبَتْ حَلْباً إلى المدينة فمر أبو بكر رضي الله عنه فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه إن هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: وما تدرين؟ قالت: لا. قال: هو نبي الله ﷺ. قالت: فأذخني عليه. قال: فأدخلها فأطعمها وأعطاه. وفي رواية: فأهدت إليه شيعاً من أقط ومتاع الأعراب، فكساها وأعطاه»، قال - ولا أعلمه إلا قال: «أسلمت»^(١).

قال البيهقي في الدلائل: «وهذه القصة وإن كانت تنقص عما رَوَيْنَا في قصة أم معبد وتزيد في بعضها، فهي قريبة منها ويشبه أن تكونا واحدة، وقد ذكر ابن إسحاق في قصة أم معبد شيئاً يدل على أنها وهذه القصة واحدة. ثم روى البيهقي من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: «فنزّل رسول الله ﷺ بخيمة أم معبد وهي التي تَعَرَّدَ بها الجَنّ بأعلا مكة. واسم أم معبد عاتكة بنت خالد بن خليف بن مُثَقَد بن ربيعة بن أضرَم [الخَزَاعِيَّة]، فأراد القِرَى فقالت: والله ما عندنا طعام ولا لنا منحة ولا لنا شاة إلا حائل، فدعا رسول الله ﷺ ببعض غنمها فمسح ضرعها بيده فدعا الله تعالى فَحَلَبَ في العُسِّ حتى رَغَى، وقال: «اشربي يا أم معبد». قالت: اشرب أنت به أحق. فَرَدَّه عليها فشربت. ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك، فسقى ذليله ثم دعا بحائل ففعل بها مثل ذلك فسقى عامر بن فُهَيْرَة، ثم استراح.

وطلبت قريش رسول الله ﷺ حتى بلغوا أم معبد فسألوها عنه فقالوا: «أَرَأَيْتَ محمداً من جَلِيَّتِهِ كذا وكذا؟» فوصفوه لها، فقالت: «ما أدري ما تقولون فقد صَبَأَنِي حَالِبُ الحائل؟» قالت قريش: «فذلك الذي أردنا». قاله البيهقي: فيحتمل أولاً أنه رأى التي في كِشَر الخيمة، كما رَوَيْنَا في حديث أم معبد، ثم رجع ابنها بأعْثَر كما روينَا ثم لما أتى زوجها وصفته له، والله أعلم.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٢٢/٢ وذكره المتقي الهندي في الكنز (٤٦٢٨٧) وابن كثير في البداية والنهاية

قِصَّةُ سُرَاقَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

روى الإمام أحمد ويعقوب بن سفيان والشيخان عن سُرَاقَةَ بن مالك رضي الله عنه، والإمام أحمد والشيخان ويعقوب عن أبي بكر رضي الله عنه قال سُرَاقَةُ بن جُعْشُم: جاءنا رُشَل كُفَّار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دِيَّةَ كُلِّ واحدٍ مِنْهُمَا مائة ناقة من الإبل لمن قَتَلَهُ أو أَسْرَهُ، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُذَلِجَ أقبل رجل منهم حتى قام علينا [ونحن جلوس] فقال: يا سُرَاقَةُ إني قد رأيت أنفاً أَسْوَدَ بالساحل - وفي لفظ: رَكْبَةٌ ثلاثة - أَرَاهَا محمداً وأصحابه. قال سُرَاقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هم، فأومأت إليه بعيني أن اشكُتْ، فسكُتْ، ثم قلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيتَ فلاناً وفلاناً انطلقوا يبتغون ضالَّةً لهم. ثم لَبِثْتُ في المجلس ثم قُمْتُ فَدَخَلْتُ بَيْتِي فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بفرسي وهي من وراء أَكْمَةِ فَتَحْبِسْهَا عَلَيَّ، وأخذت رُمُحِي فخرجتُ به من ظَهِرِ الْبَيْتِ فَحَطَطْتُ بِرُجْجِهِ الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا، فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى رَأَيْتُ أَسْوَدَتْهُمَا، فلما دَنَوْتُ مِنْهُمَا عَثَرْتُ بِي فَرَسِي فَخَرَزْتُ عَنْهَا فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ بِيَدِي إِلَى كِنَانَتِي فاستخرجتُ منها الْأَزْلَامَ فاستقسمتُ بها أَضْرَهُمْ، أم لا أَضْرَهُمْ، فخرج الذي أكره: أَنِّي لَا أَضْرُهُمْ، وكنت أرجو أَنَّ أَرُدَّهُ فَأَخَذَ الْمَائَةَ نَاقَةً، فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَبْتُ الْأَزْلَامَ فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الْإِلْتِفَاتِ سَاحَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتْ الرُّكْبَتَيْنِ فَخَرَزْتُ عَنْهَا، ثُمَّ رَجَوْتُهَا فَتَهَضَّتْ فَلَمْ تَكُذْ تُخْرِجْ يَدَيْهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرٍ يَدَيْهَا عَثَانَ سَاطِعٍ فِي السَّمَاءِ مِثْلَ الدُّخَانِ فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ الَّذِي أكره - أَلَا أَضْرُهُمْ - قال: فَعَرَفْتُ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ مَنَعَ مِنِّي وَأَنَّهُ ظَاهِرٌ، فناديتهم بالأمان وقلت: أَنْظِرُونِي فوالله لَا آذِيكُمْ وَلَا يَأْتِيكُمْ مِنِّي شَيْءٌ تَكْرَهُونَهُ. قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «قُلْ لَهُ وَمَا تَبْتَغِي مِنَّا؟» فقلت: إِنْ قَوْمُكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَمَا الدِّيَّةَ وَأَخْبَرْتَهُمَا أَخْبَارَ مَا يَرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ فَلَمْ يَزَالَانِي شَيْعاً وَلَمْ يَسْأَلَانِي إِلَّا أَنْ قَالَ: «أَخْفِ عَنَّا» فسألته أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ مَوَادَعَةِ آمَنَ بِهِ، قَالَ: «اكَتُبْ لَهُ يَا أَبَا بَكْرٍ» - وفي رواية: فَأَمَرَ عَامِرُ بْنُ قُهَيْزَةَ فَكَتَبَ فِي رَقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

[ثم رجعت] فسكُتُ فلم أذكر شيئاً مما كان حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وَفَرَّغَ مِنْ حُدُنِ الطَّائِفِ خَرَجْتُ لِأَلْقَائِهِ وَمَعِيَ الْكِتَابُ الَّذِي كَتَبَ لِي [فَلَقِيْتُهُ بِالْجِعْرَانَةِ]. قَالَ: «فَبَيْنَا أَنَا عَامِدٌ لَهُ دَخَلَتْ بَيْنَ ظَهْرِي كَتِيبَةٌ مِنْ كِتَابِ الْأَنْصَارِ، فَطَفِقُوا يَقْرَعُونَنِي بِالرَّاحِ وَيَقُولُونَ: إِلَيْكَ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا دَنَوْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ،

والله لكأنني أنظر إلى ساقه في غَزْزِهِ^(١) كأنها جُمَّارَةٌ^(٢). قال: فرفعت يدي بالكتاب. ثم قلت: يا رسول الله هذا كتابك لي وأنا سُرَاقَةٌ بن مالك قال: فقال رسول الله ﷺ: «يَوْمَ وفاءٍ وبرٍّ أدُّنُهُ»، فدنوت منه فأسلمت، ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أنني قلت: يا رسول الله الضَّالَّةُ من الإبل تَغْشَى حياضِي وقد ملأَتْهَا لِإِبْلِي هل لي من أجر [في أن أسقيها]؟ قال: «نعم في كل ذات كَبِدٍ حَرَّى أجر» قال: ثم رجعت إلى قومي فسُقْتُ إلى رسول الله ﷺ صدقتي^(٣).

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «وَتَبَعْنَا سُرَاقَةَ بن مالك ونحن في جُلْدٍ من الأرض فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لَحِقْنَا. قال: «لا تحزن إن الله معنا». فلما دَنَا مِنَّا وكان بيننا وبينه قَدْرُ رُمَحٍ أو رُمَحَيْنِ أو ثلاثة قلت: هذا الطلب قد لَحِقْنَا وبكيت. [قال ﷺ: «ما يبكيك»؟] قلت: «أما والله ما على نفسي أبكي ولكني أبكي عليك». فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اكفناه بما شئت». قال: فسأحت به فَرَسُهُ في الأرض إلى بطنها فوثب عنها، ثم قال: يا محمد قد عَلِمْتُ أَنَّ هذا عَمَلُكَ فاذْعُ الله أَنَّ يُنَجِّينِي مما أنا فيه، فَوَالله لأَعْمِينَ على مَنْ ورائي من الطلب وهذه كنائتي فَخُذْ منها سهماً فإنك سَتَمُرُّ على إِبْلِي وغنمي بمكان كذا وكذا فَخُذْ منها حاجَتَكَ، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إِبْلِكَ وغنمك»، ودعا له رسول الله ﷺ. فانطلق راجعاً إلى أصحابه لا يَلْقَى أحداً إلا قال: قد كُفِيتُمْ ما ههنا، ولا يَلْقَى أحداً إلا رَدَّه، وَوَفَّى لنا.

وعند ابن سعد أن سُرَاقَةَ لما رجع قال لقريش: قد عرفتم بصري بالطريق وقد استبرأت لكم فلم أَرِ شيئاً، فرجعوا. وقال ابن سعد والبلاذري: عارضهم سُرَاقَةُ بِقَدِيدٍ يوم الثلاثاء.

وروى ابن عساكر عن ابن إسحاق قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - فيما يذكرون والله أعلم في دخوله الغار مع رسول الله ﷺ، وفي مسيرهم وفي طلب سُرَاقَةَ إياهم:

قَالَ النَّبِيُّ وَلَمْ يَجْزَعْ يُوقِرُنِي وَنَحْنُ فِي شِدَّةٍ مِنْ ظُلْمَةِ الْعَارِ
لَا تَخْشَ شَيْئاً فَإِنَّ اللَّهَ ثَالِثُنَا وَقَدْ تَوَكَّلْ لِي مِنْهُ بِإِظْهَارِ
وَأِنَّمَا كَيْدٌ مَنْ تُخْشَى بَوَادِرُهُ كَيْدُ الشَّيَاطِينِ كَادَتْهُ لُكْفَارِ
وَاللَّهُ مُهْلِكُهُمْ طَرّاً بِمَا كَسَبُوا وَجَاعِلُ الْمُنتَهَى مِنْهَا إِلَى النَّارِ

(١) الغرز: ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب وقيل: هو الكور مطلقاً، مثل الركاب للسرّج. انظر النهاية ٣/٣٥٩.

(٢) الجمارة: قلب النخلة وشحمتها، شبه ساقه ببياضها. انظر النهاية ١/٢٩٤ (جم).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٥٨/٧ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٣/١٨٥.

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

وَأَنْتَ مُزْتَجِلٌ عَنْهُمْ وَتَارِكُهُمْ
وَهَاجِرٌ رَضَمَهُمْ حَتَّى يَكُونُوا لَنَا
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ وَارْتَنَّا جَوَانِبُهُ
سَارَ الْأَرِيْقُطُ يَهْدِينَا وَأَيْتُقُهُ^(١)
يَغْشِيْنَ غُرُوضَ الثَّنَائِيَا بَعْدَ أَطْوَلِهَا
حَتَّى إِذَا قُلْتُ قَدْ أُنْجِدُنَّ عَارِضَهَا
يُرْدِي بِهِ مُشْرِفَ الْأَقْطَارِ مُعْتَرِمْ
فَقَالَ: كُفُّوا فَقُلْنَا: إِنْ كَرِهْتَنَا
أَنْ يَخْشِفَ الْأَرْضَ بِالْأَخْوَى وَفَارِسُهُ
فَهَيْلٌ لِمَا رَأَى أَرْسَاغَ مُهْرَتِهِ
فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ تُطْلِقُوا فَرَسِي
وَأَضْرِبَ الْحَيَّ عَنْكُمْ أَنْ لَقِيَتْهُمْ
فَادْعُ الَّذِي هُوَ عَنْكُمْ كَفَّ عَوْرَتَنَا
فَقَالَ قَوْلًا رَسُولُ اللَّهِ مُبْتَهَلًا
فَنَجَّاهُ سَالِمًا مِنْ شَرِّ دَعْوَانَا
فَأَظْهَرَ اللَّهُ إِذْ يَدْعُو حَوَافِرَهُ

إِمَّا عُذُّوْا وَإِمَّا مُدْلِجٌ سَارِي
قَوْمٌ عَلَيْهِمْ دُؤُوْ عِزٌّ وَأَنْصَارُ
وَسُدُّ مِنْ دُونِ مَنْ تَخْشَى بِأَسْتَارِ
يَنْعَبْنَ بِالْقَوْمِ نَعْبًا تَحْتَ أَكْوَارِ
وَكُلُّ سَهْبٍ رِقَاقِ الثَّرْبِ مَوَّارِ^(٢)
مِنْ مُدْلِجٍ فَارِسٍ فِي مَنْصِبٍ وَارِي
كَالسَّيِّدِ ذِي اللَّبْدَةِ الْمُشْتَأْسِدِ الضَّارِي
مِنْ دُونِهَا لَكَ نَضْرُ الْخَالِقِ الْبَارِي
فَانْظُرْ إِلَى أَرْبَعٍ فِي الْأَرْضِ غَوَّارِ
قَدْ سِخْنُ فِي الْأَرْضِ لَمْ تُخَفَّرْ بِمُحْقَارِ
وَتَأْخُذُوا مَوْثِقًا فِي نُضْجِ أَسْرَارِ
وَأَنْ أَعْوَزَ مِنْهُمْ عَيْنٌ غَوَّارِ
يُطْلِقُ بَجَوَادِي وَأَنْشُمَ خَيْرُ أَبْرَارِ
يَا رَبِّ إِنْ كَانَ مِنْهُ غَيْرُ إِخْفَارِ
وَمُهْرَةٍ مُطْلَقًا مِنْ كُلِّ آثَارِ
وَفَارَ فَارِسُهُ مِنْ هَوْلِ أَخْطَارِ^(٣)

وَزَوَى الْبَخَارِي عَنْ غُرُوزَةِ وَالْحَاكِمِ عَنْهُ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ الزَّبِيرَ فِي رَكْبٍ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تَجَارَةً قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ فَكَتَسَا الزَّبِيرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثِيَابًا بَيْضًا. وَرَوَى
الْبَيْهَقِيُّ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَقَدْ قَدِمَ طَلْحَةُ بْنُ
عُبَيْدٍ مِنَ الشَّامِ خَرَجَ عَامِدًا إِلَى مَكَّةَ لَمَّا ذُكِرَ لَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، خَرَجَ إِذَا مُتَلَقِيًا
لَهُمَا وَإِمَّا عَامِدًا عُقْمَرَةً بِمَكَّةَ وَمَعَهُ ثِيَابٌ أَهْدَاهَا لِأَبِي بَكْرٍ مِنْ ثِيَابِ الشَّامِ، فَلَمَّا لَقِيَهُ أَعْطَاهُ
الثِّيَابَ، فَلَبَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا وَأَبُو بَكْرٍ.

وَرَوَى أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ... الْأَوْسِيِّ الْأَسْلَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا هَاجَرَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ مَرُّوا بِإِبْرِيلَ لَنَا بِالْجُحْفَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَنْ هَذِهِ الْإِبِلُ؟»

(١) الأبنق: جمع قلة لناقة، وأصله أنوق، فقلب وأبدل واو بهاء. وقيل: هو على حذف العين وزيادة الباء عوضاً عنها، فوزنه
على الأول: أعفل لأنه قدم العين، وعلى الثاني: أبفل؛ لأنه حذف العين. انظر النهاية ١٢٩/٥.

(٢) يقال: مار التراب إذا ثار. ورياح مؤازة: مثيرة للتراب. انظر المعجم الوسيط ٨٩٨/٢.

(٣) انظر الروض الأنف ٢٣٤/٢.

فقالوا: لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فقال: «سلمنا إن شاء الله». فأتاه أبي وحمله على فحلٍ من إبله وبعث معه غلامه مسعود». وروى أبو يعلى والطبراني والحاكم والبيهقي وأبو نعيم عن قيس بن الثعمان قال: «لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر مُسْتَخْفَيْنِ مَرُّوا بِعَبْدٍ يَزْعُمُ غَنَمًا فَاسْتَسْقِيَاهُ اللَّيْلَ فَقَالَ: مَا عِنْدِي شَاةٌ تُحْلَبُ، غَيْرَ أَنَّ هَهُنَا عَنَاقًا حَمَلَتْ أَوَّلَ الشَّتَاءِ وَقَدْ أَخَذَتْ وَمَا بَقِيَ لَهَا مِنْ لَبَنٍ فَقَالَ: «ادْعُ بِهَا»، فَدَعَا بِهَا، فَاعْتَقَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَحَ ضَرْعَهَا حَتَّى أُنْزَلَتْ. وَدَعَا أَبُو بَكْرٍ بِمِجْنٍ، فَحَلَبَ وَسَقَى أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ حَلَبَ فَسَقَى الرَّاعِي، ثُمَّ حَلَبَ فَشَرِبَ، فَقَالَ الرَّاعِي: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَكَ قَط. قَالَ: «أَوْتَرَاكَ تَكْتُمُ عَلَيَّ حَتَّى أُخْبِرَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ». قَالَ: أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ قَرِيشَ أَنَّكَ صَاحِبُهُ؟ قَالَ: «إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ ذَلِكَ». قَالَ: فَأَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيُّ اللَّهِ وَأَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ مَا فَعَلْتَ إِلَّا نَبِيٌّ».

وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر مدخله المدينة: «أَلَيْهِ عُنِّي النَّاسُ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَكْذِبَ». فكان أبو بكر إذا سُئِلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قال: باغ، وإذا قِيلَ: مَنْ الَّذِي مَعَكَ؟ قال: هَازِ يَهْدِينِي». وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: «أَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ مُزْدِفٌ أَبَا بَكْرٍ، وَأَبُو بَكْرٍ شَيْخٌ، وَالنَّبِيُّ ﷺ شَابٌّ لَا يُعْرَفُ، فَيَلْقَى الرَّجُلَ أَبَا بَكْرٍ فَيَقُولُ: مَنْ هَذَا بَيْنَ يَدَيْكَ؟ فَيَقُولُ: هَذَا الَّذِي يَهْدِينِي السَّبِيلَ فَيُخَسِّبُ الْحَاسِبَ إِنَّمَا يَعْنِي الطَّرِيقَ وَإِنَّمَا يَعْنِي سَبِيلَ الْخَيْرِ».

وروى الزبير بن بكار في المُؤَفَّقِيَّاتِ، وأبو نعيم عن طريق شهر بن حوشب عن ابن عباس عن سعد بن عبادَةَ قال: «لَمَّا بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الْعُقَبَةِ، خَرَجْتُ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لِبَعْضِ الْحَاجَةِ فَقَضَيْتُ حَاجَتِي ثُمَّ رَجَعْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِبَعْضِ الْأَرْضِ نَمْتُ فَفَزَعَتْ مِنَ اللَّيْلِ إِذَا بِصَائِحٍ يَقُولُ:

أَبَا عَمْرٍو تَأَوُّبُنِي السُّهُودُ وَرَاحَ التَّوْمُ وَأَنْقَطَعَ الْهُجُودُ

ثم صاح آخر: «يَا خَرُوعِبْ، ذَهَبَ بِكَ اللَّعِبُ، إِنْ أَعْجَبَ الْعَجَبُ بَيْنَ مَكَّةَ وَيَثْرِبَ». قال: وما ذاك يا شاه؟ قال: «نَبِيُّ السَّلَامِ، بُعِثَ بِخَيْرِ الْكَلَامِ، إِلَى جَمِيعِ الْأَنَامِ، فَأُخْرِجُ مِنَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ، إِلَى نَخِيلِ وَأَطَامِ» ثم طلع الفجر فذهبت أتفكر فإذا عظاية^(١) وثعبان ميتان، فما علمت أن النبي ﷺ هاجر إلا بهذا الحديث.

ولما شارف رسول الله ﷺ المدينة لقيه أبو عبد الله بُرَيْدَةُ بْنُ الْحَصْبِيِّ الْأَسْلَمِيُّ فِي

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

سبعين من قومه من بني سَهْم، فقال نبي الله ﷺ: «من أنت؟» قال: بُرَيْدَة، فقال لأبي بكر: «برد أمرنا وصلح». ثم قال: «مَعْنُ؟» قال: من أسلم. فقال لأبي بكر: «سَلِمْنَا». ثم قال: «مِنْ بَنِي مَنْ؟» قال: من بني سهم. قال: «خَرَجَ سَهْمُكَ [يا أبا بكر]». فقال بُرَيْدَة للنبي ﷺ: من أنت؟ قال: «أنا محمد بن عبد الله رسول الله». فقال بُرَيْدَة: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فأسلم بُرَيْدَة وأسلم من كان معه جميعاً. قال بُرَيْدَة: الحمد لله الذي أسلم بنو سَهْم طائعين غير مُكْرَهِينَ، فلما أصبح قال بُرَيْدَة للنبي ﷺ: «يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء». فَحَلَّ عِمَامَتَهُ ثُمَّ شَدَّهَا فِي رُمَحٍ ثُمَّ مَشَى بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى دَخَلُوا الْمَدِينَةَ^(١).

تنبيهات

الأول: قال الحافظ: كان بين ابتداء هجرة الصحابة وبين العقبة الأولى والثانية وبين هجرته ﷺ شهران وبعض شهر علي التحرير.

الثاني: قول عائشة رضي الله عنها: «ما كنت أرى أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي من الفرح». قال في الروض: «قالت ذلك لصِغَرِ سِنِّهَا وَأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ عَلِمَتْ بِذَلِكَ» وقد تطرقت الشعراء لهذا المعنى فأخذته استحساناً له فقال الطائي يصف السحاب:
دُهِمَ إِذَا وَكَفَتْ فِي رَوْضَةٍ طِفِقَتْ عَيْوُنُ أَزْهَارِهَا تَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ
وذكر لأبي الطيب وزاد على هذا المعنى:

فَلَا تُنْكِرُنَّ لَهَا صَرْعَةً فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ مَا يَنْقُشُ

وقال بعض المخدّثين:

وَرَدَ الْكِتَابُ مِنَ الْحَبِيبِ بِأَنَّهُ سَيَزُورُنِي فَاسْتَعْبَرْتُ أَجْفَانِي
غَلَبَ الشُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى أَنَّهُ مِنْ قَرْطٍ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي
يَا عَيْنُ صَبَارِ الدُّمْعِ عِنْدَكَ عَادَةً تَبْكِينَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانٍ

قال في الزهر: «وفيه من عدم التثبت ما ترى، أيجوز أن يُخْتَجَّ على عائشة بقول مُخَدِّثٍ؟ إنما كان يُخْتَجَّ عليها لو كانت العَرَبُ قائلته، أما إذا لم تَقُلْهُ الْعَرَبُ فلا حُجَّةَ عليها والله أعلم. قلت: السهيلي لم يَخْتَجَّ بذلك على عائشة رضي الله عنها، وإنما ذكره استطراداً للفائدة.

الثالث: نُقِلَ في الروض عن بعض شيوخ أهل المغرب أنه سئل عن امتناعه من أخذ الراحلة مع أن أبا بكر أنفق عليه ماله، فقال: أَحَبُّ أَلَا تَكُونَ هَجْرَتُهُ إِلَّا مِنْ مَالٍ نَفْسِهِ.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٢١/٢.

الرابع: كانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من النبوة وذلك يوم الاثنين. روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: «وُلِدَ نَبِيُّكُمْ ﷺ يوم الاثنين وخرج من مكة يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين». قال الحاكم: «تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الاثنين ودخوله المدينة كان يوم الاثنين، إلا أن محمد بن موسى الخوارزمي قال: إنه خرج من مكة يوم الخميس». قال الحافظ «يُجْمَعُ بينهما بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس وخروجه من الغار كان ليلة الاثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليال: هي ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد وخرج في أثناء ليلة الاثنين».

الخامس: ذكر بعض أهل السِّيَر أن أبا بكر لما رأى المشركين وهو في الغار، ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «لو جاؤونا من ههنا خرجنا من ههنا». فنظر أبو بكر إلى الغار وقد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به وسَفِيَّةٌ مشدودة إلى جانبه». قال الحافظ ابن كثير: وهذا ليس بمُنْكَرٍ من حيث القُدْرَةُ العظيمة ولكن لم يرد ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئاً من تَلْقَاءِ أنفسنا ولكن ما صَحَّحَ أو حَسَّنَ قلنا به والله أعلم.

السادس: السُّرُّ في اتخاذ رافضة العجم اللَّبَدَ الْمُقْصَصَةَ على رؤوسهم التعظيم للحَيَّاتِ لِلدَّغْهِنِ أبا بكر ليلة الغار.

السابع: روى الإمام أحمد والحاكم أن النبي ﷺ قال: لقد لَبِثْتُ مع صاحبي - يعني أبا بكر - ليلة الغار بضعة عشر يوماً ما لنا طعام إلا التَّيْرُ قال الحاكم «معناه: مكثنا مُتَحَفِّظِينَ من المشركين في الغار وفي الطريق بضعة عشر يوماً».

قال الحافظ: «لم يقع في رواية أحمد ذِكْرُ الغار، وهي زيادة في الخبر من بعض رواته، ولا يَصِحُّ حملُه على حالة الهجرة لِمَا في الصحيح من أن عامر بن فُهَيْرَةَ كان يَزُوحُ عليهما في الغار باللبن، ولِمَا وقع لهما في الطريق من لقاء الراعي ومن النزول بخيمة أم معبد وغير ذلك، ويظهر أنها قصة أخرى».

الثامن: قال السهيلي: «أَنْتَبَهَ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمَأْمُورُ بِتَدَبُّرِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة ٤٠] الآية، كيف كان معهما بالمعنى وباللفظ؟ أما المعنى: فكان معهما بالنصر والإرفاد، والهداية والإرشاد. وأما اللفظ: فإن اسم الله تبارك وتعالى كان يُذَكَّرُ إذا ذُكِرَ رَسُولُهُ وإذا دُعِيَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ. ثم كان لصاحبه كذلك، يُقَالُ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، وَفَعَلَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ، فكان يُذَكَّرُ معهما بالرسالة والخلافة ثم ارتفع ذلك فلم يكن لأحد من الخلفاء ولا يكون».

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

التاسع: قال المهلب بن أبي صفرة^(١) رحمه الله: «أنا شرب النبي ﷺ من لبن الغنم لأنه حينئذ كان في زمن المكارمة ولا يعارضه: «لا يَحْلَبَنَّ أَحَدٌ شاةً إِلَّا يَأْذَنُهُ»^(٢) لأن ذلك وقع في زمن الثَّشَاخ، أو الثاني محمول على التَّشْوَر، والأول لم يقع فيه ذلك، بل قَدَّمَ أبو بكر سؤال الراعي: هل أنت حالب؟ فقال: نعم، كأنه سأله: هل أذن صاحب الغنم في حلبها لمن يرد عليه؟ فقال: نعم، أو يجرى على العادة المألوفة للعرب في إباحة ذلك والإذن في الحلب للمار وابن السبيل، فكان كُلُّ راعٍ مأذوناً له في ذلك».

وقال الداودي: «إنما شرب من ذلك على أنه ابن سبيل، وله شرب ذلك إذا احتاج ولا سيما النبي ﷺ، وأبعد مَنْ قال: «إنما استجازه لأنه مال حربي لأن القتال لم يكن فُرِضَ بعد ولا أُبِيحت الغنائم» وقال الحافظ: «قولُ أبي بكر: أفني غَنَمِكَ لِن؟ الظاهر أن مراده بهذا الاستفهام: أَمَعَكَ إِذْنٌ فِي الْحَلْبِ لِمَنْ يَمُرُّ بِكَ عَلَى سَبِيلِ الضِّيَافَةِ؟ ويحتمل أن أبا بكر لما عرف مالك الغنم عرف رضاءه بذلك لصداقته له أو إذنيه العام بذلك».

العاشر: ذكر أبو نُعَيْم هنا قصة إسلام ابن مسعود، لما وقع في بعض طرقه، قال: «كنتُ غلاماً يافعاً أرعى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ بِمَكَّةَ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَقَدْ فَرَّأَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَا: «يَا غلام هل معك من لبن؟» فذكر الحديث، ويأتي بتمامه في المعجزات. قال في البداية والفتح: «قوله في هذا السياق: «وقد فَرَّأَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، ليس المراد به وقت الهجرة، وإنما ذلك في بعض الأحوال قبل الهجرة، لأن ابن مسعود كان ممن أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة كما تقدم ذلك، وقصته ثابتة في الصحاح.

الحادي عشر: ذكر في «العيون» قصة سُرَاقَةَ قَبْلَ قِصَّةِ أُمِّ مَعْبُدٍ وَالتَّزَمِ فِي أَوَّلِهَا أَنَّهُ يُرْتَّبُ الْوَقَائِعِ. وَذَكَرَ فِي «الْإِشَارَةِ» قِصَّتَهَا قَبْلَ قِصَّةِ سُرَاقَةَ، وَتَبِعَتْهُ فِي ذَلِكَ وَهُوَ الصَّحِيحُ الَّذِي صَرَّحَ جَمَاعَةٌ.

الثاني عشر: ذكر رَزِينُ أَنَّ قَرِيشاً أَقَامَتْ أَيَّاماً لَا يَدْرُونَ أَيْنَ أَخَذَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَسَمِعُوا صَوْتاً عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ وَهُوَ يَقُولُ:

(١) المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي، أبو سعيد أمير بطاش، جواد، قال فيه عبد الله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق، وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر. وُولِيَ إمارة البصرة لمصعب بن الزبير. وفُتِّت عينه بسمرة قند وانتدب لقتال الأزارقة، وكانوا قد غلبوا على البلاد، وشرط له أن كل بلد يجلبهم عنه يكون له التصرف في خراجه تلك السنة فأقام يحاربهم تسعة عشر عاماً لقي فيها منهم الأحوال. وأخيراً تَمَّ له الظفر بهم، فقتل كثيرين وشرد بقيتهم في البلاد. ثم ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، فقدمها سنة ٧٩هـ ومات فيها سنة ٨٣هـ. كان شعاره في الحرب: «حم لا ينصرون» وهو أول من اتخذ الركب من الحديد، وكانت قبل ذلك تعمل من الخشب. الأعلام ٣١٥/٧.

(٢) أخرجه البخاري ١٦٥/٣ ومسلم في كتاب اللقطة (١٣).

فَإِنْ يُسْلِمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحُ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ الْمُخَالِفِ
 كما سمعوا أيضاً البيتين السابقين في إسلام سعد بن معاذ وسعد بن عباد:
 فَيَا سَعْدَ سَعْدِ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِراً وَيَا سَعْدَ سَعْدِ الْخُزَجِيزِ الْعَطَارِفِ
 أَجِيبَا إِلَى دَاعِيِ الْهُدَى وَتَمَنِّيَا عَلَى اللَّهِ فِي الْفِرْدَوْسِ مُثَيَّةَ عَارِفِ
 قال السيد: والأقرب ما تقدم من إنشاد هذه الأبيات قبل ذلك لأن السعديين كانا قد
 أسلما قبل ذلك.

الثالث عشر: في بيان غريب ما سبق:

«قَبِلَ الْمَدِينَةَ»، بكسر القاف وفتح الموحدة: أي جهتها.
 «عَلَى رِسْلِكَ»^(١) بكسر أوله: أي على مهلك والرسل السير الرقيق.
 «يَأْبِي أَنْتَ»: أنت مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ: يَأْبِي أَي: مُفِيداً يَأْبِي، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَنْتَ تَأْكِيداً
 للفاعل يرجو ويأبى قَسَمَ.
 «حَبَسَ نَفْسَهُ»: مَنَعَهَا مِنَ الْهَجَرَةِ.

«الشُّمْرُ»: بسين مهملة مفتوحة وضم الميم: وهو الْخَبَطُ بفتح المعجمة والموحدة
 وبالطاء المهملة، هذا الْمُدْرَجُ في تفسير الزهري. ويقال: الشُّمْرَةُ اسم شجرة أم غيلان، وقيل
 ورق الطلح، والخَبَطُ ما يُخَبَطُ بالعصا فيسقط من ورق الشجر.
 «نَحَرَ الظَّهْرَةَ»: أي أول الزوال وهو أشد ما يكون من حرارة النهار، والغالب في الْحَرِّ
 القيلولة.

«مُتَقَنِّعاً»^(٢): أي مُتَطَيِّلِساً وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى في أبواب
 لباسه ﷺ.

«فَدَى»: بكسر الفاء والقصر وفي رواية فِدَاءٌ بِالْمَدِّ.

(١) والرسلُ الرُّسُلَةُ: الرفق والتؤدة قال صخر: ويس من أصحابه أن يلحقوا به وأحدق به أعداؤه. وأيقن بالقتل
 فقال:

لو أن حولي من قريم رجلاً لمنعولي نجدة أو رسلاً

اللسان ١٦٤٣/٣.

(٢) القناع والمقنعة: ما تتنقع به المرأة من ثوب تغطي رأسها ومحاسنها وقال الليث: المقنعة ما تتنقع به المرأة رأسها. وفي
 الحديث: أتاه رجل مقنع بالحديد هو المتغطي بالسلاح وقيل: هو الذي على رأسه بيضة وهي الخوذة لأن الرأس
 موضع القناع. انظر اللسان ٣٧٥٥/٥.

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

«الصحابه»: بالنَّضْب أي أريد أو أسألك المصاحبة ويجوز الرفع على أنه تَحَبَّر مبتدأ محذوف.

«أَمِئَّاه»: بكسر الميم.

«أَحَثُّ»: بحاء مهملة فمثلة افعال تفضيل من الحَث وهو الإسراع وفي رواية: أَحَبَّ بالموحدة والأول أَصَحَّ.

«الْجَهَّاز»^(١): بفتح الجيم أفصح من كسرهما، وهو ما يحتاج إليه المسافر.

«ذات النُّطَاق»: وفي رواية: ذات النُّطَاقين - بكسر النون - وهو ما يُشَدُّ به الوسط، وقيل هو ثوب تلبسه المرأة، ثم تشد وسطها بحبل، ثم ترسل الأعلى على الأسفل، والمحفوظ في هذا الحديث أن أسماء شَقَّتْ نِطَاقَها نصفين فَشَدَّتْ بأحدهما الزاد واقتصرت على الآخر، ثم قيل لها: ذات النطاق وذات النطاقين، فالتثنية والإفراد بهذين الاعتبارين. وعند ابن سعد أنها شَقَّتْ نِطَاقَها فَأَوْكَتْ بقطعة منه الحِزَابَ وشَدَّتْ فم القِرْبَة بالباقي فسميت ذات النطاقين.

«الْخَوْخَة»^(٢): بخاءين معجمتين مفتوحتين بينهما واو ساكنة: باب صغير.

«ثور»: بالمثلثة.

«الرَّصْد»: بفتحيتين جمع راصد كخادم وتَحَدَّم.

«استبرأه»: يقال: استبرأْتُ الشيءَ طلبْتُ أخْجَرَه لقطع الشبهة عني.

«أَلْقَمَه الجُحْر»: الجحر بجيم فحاء مهملة: أي أدخله فيه.

«العَقِب»^(٣): بعين مهملة مفتوحة ففاف مكسورة فموحدة: مُؤَخَّر الرُّجُل.

«لَذَعَه»: بالذال المهملة والغين المعجمة: غَضَّه.

«الرَّاءة»: وهي شجرة معروفة قال أبو حنيفة الدينوري: هي من أغلاث الشجر - بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وتُعْجَم - وتكون مثل قامة الإنسان ولها خيطان وزهر أبيض تُحْشَى به المخاد فيكون كالريش. لخفته ولينه لأنه كالقطن. قال في النور: وغالب ظني أن هذه الشجرة التي وصف أبو حنيفة أنها العشر كذا رأيته بأرض بركة الحاج خارج القاهرة وهي تنفتق عن مثل قطن يشبه الريش في الخِفَّة ورأيت من يجعله في اللحف في القاهرة.

(١) يفتح ويكسر قال الليث: وسمعت أهل الحجاز يخطئون الجهاز بالكسر. قال الأزهري: والقراء كلهم على فتح الجيم في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ قال: وجهاز بالكسر لغة رديئة. انظر اللسان ١/٧١٢.

(٢) انظر المعجم الوسيط ١/٢٦٠.

(٣) انظر المصباح المنير ٤١٩.

- «فتيان»: جمع كثرة لفتى وهو الشاب الحَدَث.
- «الهِرَاوَى» بفتح الهاء: جمع هِرَاوَة بكسرهما.
- «ذراً»^(١): بمعجمة فمهملة فهمزة: أي دفع.
- «أثر»: مُخْرَكَة والأثر بقية الشيء أو الخبر، وخَرَجَ في أثره بعده.
- «الأَرْب» بالفتح: الحاجة.
- «يُثَشَّب»: يُلَبَث.
- «خَوّ» بالحاء المهملة والواو: جمع.
- «الغار»: ثَقَبٌ في الجَبَل.
- «الطُرُوف»: بفتح الطاء [المهملة] وسكون الراء.
- «فالصُّدُقُ»: أي ذو الصُّدُق وهو النبي ﷺ.
- «لم يَرِما» بفتح أَوَّلِه وكسر ثانيه: أي لم يَبْرَحَا.
- «من أَرِم»: أي أَحَد.
- «ظَنُّوا»: حَسِبُوا.
- «الحَمَام»: اسم جنس جمعى وَاحِدُهُ حَمَامَة يقع على الذَّكَر والأنثى.
- «البرِّيَّة»: بتخفيف الراء: الخَلْق.
- «النُّشَج»: بالجيم الحياكة.
- «الحَوُم»^(٢): الطُّوَّاف.
- «الوقاية»: بكسر الواو: الحِفْظ.
- «أَعْنَت»: أَجْزَأَتْ.
- «الدروع المُضَاعَفَة»: المنسوجة حلقتين حلقتين تُلبَس للحِفْظ من العدو.
- «الأُطَم» بضميتين: الحصون.
- «المنيّف»: العَالِي.

(١) انظر المعجم الوسيط ٣٠٩/١، ٣١٠.

(٢) من حام حول الشيء وعليه حوماً وحوماناً: أي دار وفي الحديث «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه» المعجم الوسيط ٢١٠/١.

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

«جَبَّ»^(١) رسول الله ﷺ: أي مَحْبُوثُهُ.
تَوَاجَدُهُ»^(٢): بفتح النون وكسر الجيم وضَمَّ الدال المعجمة: جمع ناجذ وهو السِّنُّ من الأضراس ويأتي الكلام على ذلك في باب ضَجِكَه وتَبَشَّيْهِ.
«كَهَنَّا»: بفتح الكاف والميم ويجوز كَسْرُهَا أي اختفيا فيه.
«تَقِفَ»: بشاء مُثَلَّثَةٌ مفتوحة فقف مكسورة ويجوز إِسْكَانُهَا وضَمُّهَا ففاء: أي فُطِنَ يُدْرِك حاجته بسرعة.

«لَقِفَ»^(٣): بفتح اللام وكسر القاف ويجوز سكونها: أي سريع الفهم.
«يَدْلِجُ» بتشديد الدال المهملة بعدها جيم: أي يخرج بسخر.
«يُكَادَانُ»: وفي رواية يُكْتَادَانُ: أي يُطَلَّبُ لهما فيه المكروه وهو الكَيْدُ.
«مِنْخَةٌ»: بكسر الميم وسكون النون فحاء مهملة.
«رِشْلُ» بكسر الراء بعدها مهملة ساكنة: اللَّبَنُ.
«الرَّضِيفُ»: براء فضاد معجمة ففاء وزن رغيف: اللَّبَنُ المَرْضُوفُ الذي رُضِيفَتْ فيه الحجارة الْمُخَمَّاةُ بالشمس أو النار لينعقد وتزول رَخَاوُثُهُ، وهو بالرفع ويجوز الْجَزُّ.
«يُنْعَقُ»: بكسر العين المهملة أي يصيح بَعْتَمَهُ، والتَّنْقُ هو صوت الراعي إذا زَجَرَ الْعَتَمَ، وفي رواية: يَنْعَقُ بهما بالثنية أي يُشِيعُهُمَا صَوْتُهُ إِذَا زَجَرَ عَتَمَهُ.
«الدَّيْلُ»: بكسر الدال المهملة وسكون التحتية.
«الْجِرْثِيَّةُ»: بكسر الخاء المعجمة وتشديد الراء فمثناة تحتية ساكنة فمثناة فوقية، وهو الماهر بهداية الطريق.

«الْعُتْبِيُّ»: بضم العين المهملة الرُّضَا.
«بَوَائِقُ الدُّهْرِ»^(٤): غوائله وشروبه واحداً بائقة وهي الداهية.

(١) الحب: هو الحبيب مثل حزن وحزين. قال ابن بري رحمه الله: الحبيب يهجي تارة بمعنى المحب كقول المخيل: أتَهْجِرُ ليلِي بالفراق حبيبها وما كان نفساً بالفراق تطيب أي محبها، ويهجي تارة بمعنى المحبوب كقول ابن الرهينة: وإن الكئيب الفرد من جانب الحمى إلسي وإن لم أره لحبيب اللسان ٧٤٣/٢.

(٢) وقيل: الناجذ: آخر الأضراس وهو ضرس الحلم لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال الفعل وقيل: الأضراس كلها (تواجه) قال في البارع: وتكون التواجه: للإنسان والحافر وهي من ذوات الخف الأنياب. المصباح المنير ص ٥٩٣.

(٣) لقف الشيء لقفاً ولقفاناً: تناولة بسرعة، وأخذته بقمه فابتلعه، واللقف: يقال: رجل لقف لقف سريع الأخذ لما يرمي إليه باليد وسريع الفهم لما يرجى إليه من كلام باللسان. الوسيط ٨٣٥/٢.

(٤) المفرد بائقة: أي داهية، ويقال: داهية بوق أي شديدة، قال الكسائي: باقتهم الباقية تبوقهم بوقاً أصابتهم. اللسان ٣٨٨/١.

«قَائِمُ الظُّهَيْرَةِ»^(١): أَي نِصْفُ النَّهَارِ، سُمِّيَ قَائِمًا لِأَنَّ الظِّلَّ لَا يَظْهَرُ حِينَئِذٍ فَكَأَنَّهُ وَقَفَ.

«رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ»: أَيِ ظَهَرَتْ.

«الْفَرْوَةُ» معروفة ويقال فيها فَرَوَ بحذف الهاء وهو الأشهر في اللغة ولا يتجه أن يكون المرادُ بها الفَرْوَةُ من الحشيش لقوله: كانت معي.

«وَأَنَا أَنْقَضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ» أَنْقَضُ بفتح الهمزة وسكون النون وضمّ الفاء بعدها ضاد معجمة، أَيِ أَتَحَسَّسُهُ وَأَتَعَرَّفُ مَا فِيهِ مِنْ تَخَافَةٍ - قاله في التقريب وفي النهاية - أَيِ أَحْرَسَكَ وَأَطُوفُ هَلْ أَرَى طَلَبًا.

«لِرَجُلٍ مِنَ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ»: شك في ذلك أحمد بن يزيد، ورواه مسلم من طريق الحسن بن محمد بن أعين عن زهير فقال فيه: «لرجل من أهل المدينة»، ولم يشك. ووقع في رواية ابن جريج: «فسمي رجلاً من أهل مكة»، ولم يشك. قال الحافظ: «والمراد بالمدينة مكة، ولم يرِدْ المدينة النبوية لأنها حينئذ لم تكن تسمى المدينة، وإنما كان يُقال لها يَثْرِبَ. وأيضاً لم تجرِ العادة للرعاة أن يُبعدوا في الرعي هذه المسافة البعيدة. ووقع في رواية إسرائيل فقال: «لرجل من قريش سمّاه فعرفته»، وهذا يؤيد ما قررته لأن قريشاً لم يكونوا يسكنون المدينة النبوية».

«أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟» بفتح اللام والموحدة، وحكى القاضي أن في رواية لَبَنٌ، بضم اللام وتشديد الموحدة جمع «لَابَنٍ»^(٢) أَيِ ذَاتِ لَبَنٍ.

«الْعَنَاقُ»^(٣): بفتح العين المهملة: الأُنثى من المعز: «فَأَخَذْتُ قَدْحًا فَحَلَبْتُ»: وفي رواية: «أَمَرْتُ الرَّاعِيَّ فَحَلَبَ»، ويُجْمَعُ بِأَنَّهُ يَجُوزُ فِي قَوْلِهِ «فَحَلَبْتُ»: مراده أَمَرْتُ بِالْحَلْبِ.

«كُثْبَةٌ»^(٤): بضم الكاف وسكون المثناة وفتح الموحدة: أَيِ قَدْرٍ قَدَحٍ، وقيل: خَلْبَةٌ خفيفة..

«بَرَدَ أَشْفُلُهُ»: يفتح الراء على المشهور وقال الجوهري بضمها.

(١) الوسيط ٥٧٨/٢.

(٢) يقال: شاة لبون ولبنة وملبنة وملبن: صارت ذات لبين وإذا كانت ذات لبين في كل أحابنها فهي لبون وولدها في تلك الحال ابن لبون واللبين جمع اللبون لسان العرب ٣٩٩٠/٥.

(٣) الأُنثى من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول جمعها أعنق وعنق وعنوق. الوسيط ٦٣٢/٢.

(٤) كل قليل مجتمع من طعام أو لبين أو غير ذلك جمعها كُثِبَ. الوسيط ٧٧٧/٢.

شرح قصة أم معبد رضي الله عنها

«الخزاعية»: بضم الخاء المعجمة فزاي فعين مهملة.
 «بَرْزَة»: يقال امرأة بَرْزَة إذا كانت كهلة لا تَحْتَجِبُ احتجاب الشواب وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتُحَدِّثُهُمْ، من البروز وهو الظهور.
 «جِلْدَة»: إما قوية وإما غاسية.
 «الفِئَاء» سبعة أمام البيت، وقيل: ما ائْتَدَّ من جوانبه.
 «تَشْقِي»: تُتَاوَلَهُمُ الشَّقِي ليشربوا منه.
 «مُزْمِلُون»: بضم الميم وسكون الراء، نَفَذَ زَأْهُمُ وَأَصْلَهُ مِنَ الزَّمْلِ كَأَنَّهُمْ لَصِقُوا بِالزَّمْلِ كما قيل للفقير التَّربُّ بفتح التاء وكسر الراء.
 «مُسْنِتُونَ»: بكسر النون والمثناة الفوقية، أَي أَجْدَبُوا أَي أَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ وَهِيَ الْقَحْطُ يقال: أَسْنَتَ فَهُوَ مُسْنِتٌ إِذَا أَجْدَبَ.
 «أَعْوَزْنَاكُمْ»: أَخَوَجْنَاكُمْ.
 «كَسَرَ الْخَيْمَةَ»^(١): بفتح الكاف وكسرها وسكون المهملة، أَي جانبها، ولكل بيت كِسْرَانِ عَنِ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

«كِفَاءُ الْبَيْتِ»: قال في القاموس: الْكِفَاءُ كَكِتَابٍ شِثْرَةٌ مِنْ أَعْلَى الْبَيْتِ إِلَى أَسْفَلِهِ مِنْ مُؤَخَّرِهِ أَوْ الشُّقَّةِ فِي مُؤَخَّرِ الْخِباءِ أَوْ كِسَاءً يُلْقَى عَلَى الْخِباءِ حَتَّى يَبْلُغَ الْأَرْضَ وَقَدْ أَكْفَأَتْ الْبَيْتَ.

«الْجُهْدُ»: بِالْفَتْحِ وَيُضَمُّ: الطَّاقَةُ، وَقِيلَ: بِالْفَتْحِ الْمَشَقَّةُ وَالْبُضْمُ الطَّاقَةُ وَالْمُرَادُ هُنَا الْهُزَالُ.
 «ضَرَبَهَا فَخْلٌ»: أَلْقَاهَا..

«سَأْنُكَ»: مَنْصُوبٌ، أَي أَضْلَيْخَ سَأْنُكَ، أَوْ نَحْوَ هَذَا، فَهُوَ مَفْعُولٌ يَفْعَلُ مُقَدَّرٌ.

«فَقَاجَتْ»: بِالْمَدِّ وَتَشْدِيدِ الْجِيمِ: فَتَحَتْ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهَا لِلْحَلْبِ.

«يُزْرِضُ»: بضم الميم والمثناة التحتيّة فراء ساكنة فَمُؤَخَّذَةٌ مكسورة فضاء معجمة. قال في النهاية: أَي يُزَوِّيهُمْ وَيُنْقِلُهُمْ حَتَّى يَنَامُوا وَيَمْتَدُّوا عَلَى الْأَرْضِ، مِنْ زَرَضَ فِي الْمَكَانِ يَزْرِضُ إِذَا لَصِقَ بِهِ وَأَقَامَ مَلَاظِمًا لَهُ، يُقَالُ: أَرَزَضْتُ الشَّمْسُ إِذَا اشْتَدَّ حَرُّهَا حَتَّى تَرِيضَ الْوَحْشَ فِي كِنَاسِهَا، أَي تَجْعَلَهَا تَرِيضُ فِيهِ وَيُزَوِّى بِمِثْنَةٍ تَحْتِيَةً بَعْدَ الرِّاءِ: يُرِيضُ^(٢) الرُّهُطُ أَي يُزَوِّيهُمْ مِنْ

(١) الكسر بفتح الكاف وكسرها: الشقة السفلى من الخباء، والكسر أسفل الشقة التي تلي الأرض من الخباء، وكسر أكل كل شيء ناحيته حتى يقال لناحيته الصحراء كسرها لسان العرب ٣/٥٨٧٣.

(٢) من أراض الوادي واستراض أي استنقع فيه الماء، وكذلك أراض الحوض. ومنه قولهم: شربوا حتى أراضوا أي رويوا فنقوا بالري اللسان ٣/١٧٧٥.

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات ٢٦١

أَرَاضَ الْحَوْضَ إِذَا صَبَّ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ مَا يُؤَارِي أَرْضَهُ. وَالرَّوْضُ نَحْوُ مِنْ نِصْفِ قَوْتَةٍ.
«الرَّهْطُ»: يَسْكُونُ الْهَاءَ وَفَتْحَهَا: مَا دُونَ الْعَشْرَةِ مِنَ الرِّجَالِ لَيْسَ فِيهِمْ امْرَأَةٌ أَوْ مِنْهَا إِلَى
الْأَرْبَعِينَ.

«تَجَا»: أَيُّ لَبْنًا سَائِلًا كَثِيرًا.

«عَلَاةُ الْبِهَاءِ»: أَيُّ عَلَا الْإِنَاءَ بِهَاءِ اللَّبَنِ وَهُوَ يَرِيقُ رَغْوَتَهُ، وَفِي رَاوِيَةِ: الثَّمَالُ بَضْمُ الْمَثَلَةِ
الرَّغْوَةِ.

«الْعَلَلُ»: بِفَتْحِ الْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَلَا يَمِيزُ الْأَوَّلَى مَفْتُوحَةً: الشَّرْبُ الثَّانِي.

«النَّهْلُ»^(١): بِفَتْحِ النُّونِ وَالْهَاءِ وَتُسَكَّنُ وَبِالْلامِ: الشَّرْبُ الْأَوَّلُ.

«غَادَرَةُ»: بِالْغَيْنِ الْمَعْجَمَةِ: تَرْكُهُ.

«الصَّبُوحُ»: بِفَتْحِ الْمَهْمَلَةِ وَبِالْمَوْحِدَةِ: مَا يُشْرَبُ بِالْغَدَاةِ فَمَا دُونَ الْقَائِلَةِ.

«وَالْغُبُوقُ»: بِفَتْحِ الْغَيْنِ الْمَعْجَمَةِ: الشَّرْبُ بِالْعَشِيِّ.

«الْحِيَالُ»^(٢): يَجْمَعُ حَائِلٌ وَهِيَ الَّتِي لَمْ تَحْمِلْ.

«عِجَافًا»: بِكَسْرِ الْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ: جَمْعُ عَجْفَاءَ وَهِيَ الْمَهْزُولَةُ مِنَ الْعَنَمِ وَغَيْرِهَا.

«الشَّاءُ» جَمْعُ شَاةٍ.

«عَازِبٌ»^(٣): بَعِينَ مَهْمَلَةٌ فَرَايَ فَمَوْحِدَةٍ: أَيُّ بَعِيدَةُ الْمَرْعَى لَا تَأْوِي إِلَى الْمَنْزِلِ فِي

اللَّيْلِ.

«لَا حُلُوبَ فِي الْبَيْتِ»: أَيُّ لَا شَاةَ تُحْلَبُ.

«الْوَضَاءُ»: بِفَتْحِ الْوَاوِ وَبِالضَّادِ الْمَعْجَمَةِ وَالْهَمْزَةِ: الْحُسْنُ وَبِالْهَجَةِ.

«أَبْلَجُ الْوَجْهِ»: بِالْمَوْحِدَةِ وَبِجِيمٍ: أَيُّ مُشْرِقُهُ مُشْفِرُهُ، وَمِنْهُ تَبْلَجُ الصَّبْحُ وَابْتَلَجَ. فَأَمَّا
الْأَبْلَجُ فَهُوَ الَّذِي قَدْ وَضَحَ مَا بَيْنَ حَاجِبِيهِ فَلَمْ يَقْتَرِنَا، وَالْأَسْمُ الْبَلَجُ بِفَتْحِ الْلامِ، وَلَمْ تُرْدِ هَذَا أُمُّ
مَعْبِدَ لِأَنَّهَا قَدْ وَصَفَتْهُ فِي حَدِيثِهَا بِالْقَرْنِ.

«الْأَشْفَارُ»: جَمْعُ شَفَرٍ بَضْمُ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَقَدْ تَفَتَّحَ: وَهُوَ طَرَفُ بَحْفَنِ الْعَيْنِ الَّذِي

يُنْبِتُ عَلَيْهِ الشَّعْرُ، وَالْمَرَادُ هُنَا الشَّعْرُ النَّابِتُ.

(١) الوسيط ٩٥٩/٢.

(٢) من حالت الناقة تحيل حيلاً؛ لم تحمل والواو في ذلك أعرق قال الشاعر:
من سَرَاقَةِ الْهَيْجَانِ ضَلَبَتْهَا الْعُفُفُ ضُ وَرَغِي الْجَمَى وَطُولُ الْخَيْالِ

اللسان ١٠٧٣/٢.

(٣) العازب: البعيد المطلب وألشد.

وعازب نوز في خلابة

اللسان ٢٩٢٣/٤.

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

«الْوُطْفُ»^(١): بفتح الواو والطاء المهملة وبالفاء: الطول، فمعنى الكلام أن في شعر أجفانه طولاً، قال في الإملاء: يُزَوَّى العَطْفُ والعَطْفُ بالغين المعجمة والعين المهملة، فمعناه بالمعجمة مثل معنى الوُطْفُ، وأما بالمهملة فلا معنى لها، وقد فسره بعضهم فقال: هو أن تطول أشفار العين حتى تنعطف.

«الدَّعَجُ»: بفتح الدال والعين المهملتين وبالجيم والدَّعَجَةُ بإسكان العين: السواد في العين يريد - والله أعلم - أن سواد عينه شديد السواد.

«الصَّحْلُ»^(٢): بفتح الصاد والحاء المهملتين وباللام: وهو كالْبُحَّةِ وَلَا يكون حَادَّ الصوت، يقال منه صَحِلَ الرَّجُلُ بالكسر يَصْحَلُ بالفتح صَحْلًا بفتحَيْن إذا صار أَبَحَ فهو صَحِلٌ وَأَصْحَلٌ.

«ولا يَشْتَوُهُ»: بالشين المعجمة والنون وقبل هاء الضمير همزة مضمومة: أي لا يبغضه لِفَرْطِ طوله - وَيُزَوَّى لا يَتَشَنَّى من طول، أبدل الهمزة ياءً، يقال شَنَنَتْهُ أَشْنُوهُ شَنًا وشَنَانًا. «ولا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ من قِصَرٍ»: أي لا تتجاوزته إلى غيره احتقاراً له، وكل شيء ازدُرَيْتَهُ فقد اقْتَحَمْتَهُ.

«لم تَعْبُهُ ثُجْلَةٌ»^(٣): الثُّجْلَةُ: بضم الثاء المثناة ثم جيم ساكنة ثم لام مفتوحة: هي عَظْمُ البطن وسعته، وَيُزَوَّى بالحاء المهملة والنون أي نحولٌ ودِقَّةٌ. «لم تُزِرْ به»: أي لم تُقْصِر.

«صَبْلَةٌ»: بفتح الصاد وإسكان العين المهملتين، والصَّبْلَةُ^(٤) صِغَرُ الرَّأْسِ وهي أيضاً الدَّقَّةُ والنحول في البدن. وفي رواية: لم تُزِرْ صُفْلَةً بالقاف أي دِقَّةً ونحول وقيل: أرادت أنه لم يكن مُنْتَفِخَ الخاصرة جِدًّا ولا نَاحِلًا جِدًّا، وَيُزَوَّى بالسین على الإبدال من الصاد. قال أبو ذَرٍّ الخُشَنِي: الصُّفْلَةُ جِلْدَةُ الخاصرة تريد أنه ناعم الجسم ضامر الخاصرة وهو من الأوصاف الحسنة.

«الهاتف»: الصائح.

«أبو قُبَيْسٍ»: بضم القاف وفتح الموحدة فمشتاة تحتية ساكنة: بجِبَلٍ بمكة معروف سُمِّيَ

(١) كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشعار مع اشتراط طول، وقد يكون ذلك في الأذن، رَجُلٌ أَوْطَفَ بَيْنَ الوطفِ والثرأة وَطَفَاءَ إذا تَكَاثَرَ كَثِيرِي شعر أهداب العين. لسان العرب ٤٨٦٨/٦.

(٢) انظر اللسان ٢٤٠٥/٤.

(٣) من ثَجَل ثَجَلًا عظم بطنه واسترخى فهو أَثَجَلٌ ومي ثَجَلًا جمعها ثُجُلٌ. انظر المعجم الوسيط ٩٤/١.

(٤) الصعل والأصعل: الدقيق الرأس، والعنق، والأنثى صعلاء وصعلاء. انظر اللسان ٢٤٥١/٤.

في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات ٢٦٣

باسم رجل من مذجج حداد لأنه أول من بنى فيه. وكان أبو قُبَيْس الجبل هذا يسمى الأَمِين لأن الركن أي الحجر الأسود كان مستودعاً فيه.

«قَالَ»: من القيلولة وهي نصف النهار.

«الْهَذْيُ»: بفتح الهاء وإسكان الدال المهملة: والْهَذْيُ الطريق، ولا يصح ضمها للوزن، ويعني بالطريق الطريق الموصلة إلى الجنة.

«قُصِّيَ»: بضم القاف وفتح الصاد المهملة وتشديد التحتية: تقدم الكلام عليه في النسب.

«ما زَوَى»^(١): بفتح الزاي والواو: أي جَمَعَ وقَبَضَ.

«من فَعَالَ»: الظاهر أنه بفتح الفاء وتخفيف العين وهو الكَرَم، ويجوز أن يكون بكسر الفاء جمعاً.

«لا يُجَازَى»: بالراء وفي رواية: يُجَازَى بالزاي.

«الشوَدَدُ»: بضم السين وإسكان الواو، يقال سَادَ قَوْمُهُ سيادةً وشوَدَدًا وهو مصدر.

«الصريح»: بالصاد والحاء المهملتين: وهو اللَّبَنُ الخالص الذي لم يُعْمَق.

«الضَّرَّة»^(٢): بفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء والمثناة الفوقية: أصل الضَّرْع.

«مُزِيدٌ»: بضم الميم وإسكان الزاي فموحدة مكسورة فдал مهملة: أي علاه الزُّبْد.

«غادرها»: بالغين المعجمة والدال المهملة: تركها..

«في مُصَدِّرٍ ثم مُزِيدٍ»: أي يحلبها مرة ثم أخرى.

شرح شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه

«قُدُسٌ»: بضم القاف وكسر الدال المهملة المشددة وبالسین المهملة مبني للمفعول أي طُهِرَ.

«يَزِيدُ»: بضم الشين المعجمة وفتحها كَنَصَرٍ يَنْصُرُ وفرح يَفْرَحُ، والمصدر زُشْدًا ورَشْدًا ورشادًا: أي يهتدي.

«يَأْسَعُدُ»: بضم العين، جمع سَعَدَ جمع قَلَّة.

(١) زواه: قبضه قال الأعشى:

يزيد بغض الطرف عندي كأنما زوى بين عينيه على المحاجم

اللسان ١٨٩٤/٣.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٥٣٨/١.

«سَعَادَةٌ»: بالرفع: فاعل يَهْنَأُ، وأبو بكر مفعوله.

«جَدُّه»^(١): بفتح الجيم وهو حظه.

«مَنْ يُسْعِدَ الله يُسْعِدِ»: يجوز أن يكون مبنياً للفاعل وللمفعول أيضاً.

«عَظُمَ الْحَيَّ»: بضم أوله وسكون ثانيه أي أكثره.

«الْقِرَى»: بكسر القاف.

«مُتَنَحِّياً»: مُتَفَرِّداً.

«الشَّفَرَةُ»: بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء وفتح الراء: المُدَيَّة وهي السَّكِين العريض والجمع شَفَار مثل كَلْبَةٍ وكَلَابٍ وشَفَرَات مثل سَجْدَةٍ وسَجَدَات.

«الْجَلَب»^(٢): بفتح الجيم واللام: ما يُجْلَبُ من بلدٍ إلى بلد.

«الْأَقْطُ»: ككَتِفٍ وَيُسَكِّنُ مُثَلَّثُ الهَمْزَةِ: شيءٌ يُتَّخَذُ من اللَّبَنِ الْمَخِيضِ، قال ابن الأعرابي: من ألبان الغنم خاصة.

شرح قصة سراقة بن مالك رضي الله عنه

«مُذْلِجٌ»: بضم الميم.

«أَسْوَدَةٌ»: جمع سَوَادٍ وهو الشخص.

«رَكْبَةٌ»: بفتح الراء والكاف: أَقَلُّ من الرُّكْب وهو عشرة فما فوقها وهم أصحاب الإبل، والأَرْكُوب أكثر من الرُّكْب والرُّكْبَان الجماعة منهم.

«أُرَاهَا»: بضم الهَمْزَةِ: أي أَطَّأَهَا.

«الْأَكْمَةُ»: بفتح الهَمْزَةِ والكاف والميم: الرَّايَةُ.

«فَنَحَطَّطْتُ بِهِ» بالخاء المعجمة وفي رواية: بالخاء المهملة أي أَمْسَكَتُ بِأَعْلَاهُ وجعلتُ أسفله في [الأرض].

«الرُّجُح»^(٣): بضم الزاي بعدها جيم: الحديدية التي في أسفل الرُّمَح.

«حَقَّقْتُ عَلَيْهِ»: أي أَمْسَكُهُ بِيَدِهِ وَجَرَّ رَمَحَهُ لَعَلَّ يَظْهَرُ بِرِيقِهِ لِمَنْ يَتَّعِدُ مِنْهُ، لِأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَتَّبِعَهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَيَشْرِكُهُ فِي الْجَعَالَةِ.

(١) الجذ: البخت والحظوة، والحظ والرزق. اللسان ٥٦٠/١.

(٢) من جلب الشيء جلباً أي اجتمع، وجلب الشيء ساقه من موضع إلى آخر فهو جالب وجلاب وفي المثل: رب أمنية جلبت منية. الوسيط ١٢٨/١.

(٣) زججت الرمح زجاً من باب قتل جعلت له زجاً وزججت الرجل رجلاً طعنته بالزج. المصباح المنير ص ٢٥١.

«دَفَعْتُهَا»: بتخفيف الفاء يقال: دَفَعَ الْفَرَسَ فِي السَّيْرِ إِذَا بَالِغَ وَدَفَعَهُ يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى.
«تَقَرَّبَ بِي»: التقريب السَّيْرِ دُونَ الْعَدُوِّ وَفَوْقَ الْعَادَةِ وَقِيلَ أَنَّ تَرْفَعُ الْفَرَسَ يَدْبِيهَا مَعًا
وَتَضَعُهَا مَعًا.

«أَهْوَيْتُ» بِيَدِي: بَسَطْتُهَا لِلْأَخْذِ.

الِكِنَانَةِ: بكسر الكاف: الخريطة المستطيلة التي يجعل فيها السهام.

الْأَزْلَامُ: واحدها زلم بفتحتين وفتحة فَصْلَةٌ وَهُوَ الْقِدْحُ وَاحِدُ الْقِدَاحِ بكسر القاف وهو عيدان السهام قبل أَنْ تُرَاشَ وَيُرَكَّبَ فِيهَا النَّصَالُ، فَإِذَا فُعِلَ ذَلِكَ فَهِيَ سِهَامٌ. وكان أهل الجاهلية يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا مَكْتُوبَ عَلَيْهِمَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ أَي: إِفْعَلْ: لَا تَفْعَلْ، فَمَا خَرَجَ مِنْهَا عَمِلُوا بِهِ. والاستقسام بها هو الضُّرْبُ بِهَا لِإِخْرَاجِ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ أَمْرٍ وَغَيْرِهِ يَرْغَمُهُمْ. قال الحافظ أَبُو الْعَبَّاسِ تَقِيُّ الدِّينِ الْخَرَّانِيُّ: «إِنَّ الْقُرْعَةَ الَّتِي مَعَ الطَّرِيقَةِ الَّتِي فِيهَا أ ب ج د مِنَ الْأَزْلَامِ، وَنَقَلَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الثَّعَالِيِّ».

«سَاخَتْ»^(١): بسين مهملة فألف فحاء معجمة: أي غاصت.

«ارْتَطَمَتْ بِهِ»: أي سَاخَتْ قَوَائِمُهَا فِي الْأَرْضِ.

«عَثَانَ»: بضم العين المهملة والطاء المثناة المخففة: شبه الدُّخَانَ.

«أَنْ سَيَظْهَرُ»: مرفوع، و «أَنْ» قبله مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَتَقْدِيرُهُ: سَيَظْهَرُ.

«فَلَمْ يَزُزْ أُنِي»: براء فزاي: لَمْ يُثَقِّصْ أُنِي مِمَّا مَعِيَ شَيْعًا.

«أَخْفِ عَنَّا»^(٢): بفتح الهمزة.

«قُدَيْدٌ»: بضم القاف وفتح الدال المهملة ثم مثناة تحتية ساكنة فดาล مهملة أخرى، موضع بين مكة والمدينة.

«بِمِجَنٍّ»^(٣): بكسر الميم وفتح الجيم وتشديد النون: الثُّرُسُ شُمِّي مِجَنًّا لِأَنَّهُ يُوَارِي حَامِلَهُ أَيْ يَسْتُرُهُ.

(١) انظر المصباح المنير ٢٩٤.

(٢) أَخْفِ عَنَّا: أي اسْتُرْ الْخَبَرَ لَعَنَ سَالِكُ عَنَّا. انظر النهاية ٥٧/٢.

(٣) انظر المعجم الوسيط ١٣٧/١، ١٤١.

الباب الخامس

في تلقي أهل المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزوله بقباء وتأسيس مسجد قباء

روى البخاري عن عائشة، وابن سعد عن عبد الرحمن بن عوف بن ساعدة عن جماعة من الصحابة أن المسلمين بالمدينة لما سمعوا يخرج رسول الله ﷺ من مكة وتوَكَّفُوا قُدُومَهُ كانوا يخرجون إذا صَلُّوا الصبح إلى ظاهر الحرة ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، ويؤذيهم حرُّ الظهيرة. فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا، وذلك في أيام حارة حتى كان اليوم الذي قَدِم فيه رسول الله ﷺ حين دخلوا البيوت فَأَوْقَى رجل من اليهود على أطم من أطامهم لأمر ينظر إليه، فَبَصُرَ برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيِّضِينَ، يلوح بهم الشراب، فلم يَمَلِكِ اليهودي نفسه فصرخ بأعلى صوته: «يا بني قَيْلَةَ»، وفي لفظ: «يا مَعْشَرَ العرب، هذا جدُّكم»، وفي لفظ: هذا صاحبكم الذي تنتظرون، «قد جاء». فثار المسلمون إلى السلاح، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بظَهْرِ الحرة وذلك يوم الاثنين لشهر ربيع الأول، فخرجوا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظِلِّ نَخْلَةٍ ومعه أبو بكر في مثل سِنِّهِ. وقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامِتاً، فَطَفِقَ مَنْ جَاء من الأنصارِ يُنَادِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُخَيِّبِي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتْ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بَرْدَانَهُ فَعَرَفَ النَّاسَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ.

وفي رواية: «فلما رَأَوْا أَبَا بَكْرٍ يَنْحَازُ لَهُ عَنِ الظِّلِّ عَرَفُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَدَلَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ غُلُوُّ الْمَدِينَةِ بِقَبَاءَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عَلَى كَلْثُومِ بْنِ الْهَيْثَمِ بِكُسْرِ الْهَاءِ وَسُكُونِ الدَّالِّ الْمَهْمَلَةِ، قِيلَ: «وَكَانَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكاً، وَبِهِ جَزَمَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ زَيْلَةَ»، وقيل: «إِنَّمَا نَزَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ». قَالَ زَيْدُ بْنُ: «وَالأَوَّلُ أَصَحُّ» وَقَالَ الْحَاكِمُ إِنَّهُ الْأَوْجَحُ، [قَالَ]: «وَقَدْ قَالَه ابْنُ شَهَابٍ وَهُوَ أَغْرَفَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ» وَقَالَ الدِّمَاطِيُّ: «إِنَّهُ أَثْبَتٌ». وَقَالَ بَعْضُهُمْ «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ عَلَى كَلْثُومِ بْنِ الْهَيْثَمِ وَكَانَ يَخْرُجُ لِلنَّاسِ مِنْ مَنْزِلِهِ فَيَجْلِسُ لِلنَّاسِ فِي بَيْتِ سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ لِأَنَّهُ كَانَ عَرَباً لَا أَهْلَ لَهُ هُنَاكَ وَكَانَ مَنْزِلُ الْعُرَابِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَمِنْ هُنَاكَ يَقَالُ: نَزَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ. وَنَزَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى خُبَيْبِ بْنِ إِسَافٍ^(١) أَحَدِ بَنِي الْحَارِثِ بِالشُّنَحِ - بِسَيْنِ مَهْمَلَةٍ مَضْمُومَةٍ فَنَوْنَ سَاكِنَةٍ فَهَاءَ مَهْمَلَةٍ. وَيُقَالُ: عَلَى خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَبِي زَهْرٍ أَخِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ».

(١) خبيب بن إساف، وقيل: إساف، ابن عتبة بن عمرو بن خديج بن عامر بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن ثعلبة، الأنصاري الخزرجي، شهد بدرًا وأحداً والخندق، وكان نازلاً بالمدينة وتأخر إسلامه حتى سار النبي ﷺ إلى بدر فلاحق النبي ﷺ في الطريق فأسلم أسد الغابة ١١٨/٢.

وروى الزبير بن بكار عن عبد الله بن حارثة قال: «نزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهذم، فصاح كلثوم بسلام له فقال: يا بُحَيِّح. فقال رسول الله ﷺ: «أَنْجَحْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ» وأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة بعد مخرج رسول الله ﷺ أياماً - قال بعضهم: ثلاثة - حتى أَدَّى لِلنَّاسِ ودائعهم التي كانت عند رسول الله ﷺ وخَلَفَهُ لِيُزِدَّهَا، ثم خرج فَلَحِقَ برسول الله ﷺ بِقَبَاءَ فنزل على كلثوم بن الهذم.

وقال علي بن زبير فيما رواه ابن إسحاق ورزين: «كنتُ نزلت بِقَبَاءَ وكانت امرأة مسلمة لا زوج لها، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه فيعطيه شيئاً معه فتأخذه فاشترئ شئاً، فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كُلَّ ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف، قد عَزَفَ أَنِّي امرأة لا أَحَدَ لي، فإذا أَمْسَى عَدَا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها. فقال: احتطبي بها، فكان علي يَأْتِرُ ذَلِكَ من أمر سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق.

وكان لكلثوم بن الهذم مِرْبَدٌ، والمِرْبَدُ الموضع الذي يُتَسَطُّ فيه الثمر ليَجِفَّ، فأخذه منه رسول الله ﷺ فَأَسَّسَهُ وبناه مَسْجِداً. وفي الصحيح عن عُرْوَةَ: «قَلَبْتُ فِي بني عُمَرُو بن عَوْفٍ وَأَسَّسَ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى». وفي رواية عبد الرزاق عنه قال: «الذين بنى فيهم المسجد الذي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى» هم بنو عُمَرُو بن عَوْفٍ وكذا عند ابن عائد ولفظه: «وَمَكَتُ فِي بني عُمَرُو بن عَوْفٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ وَأَتَّخَذَ مَكَانَهُ مَسْجِداً فَكَانَ يَصَلِّي فِيهِ ثُمَّ بَنَاهُ بَنُو عُمَرُو بن عَوْفٍ فَهُوَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى».

وروى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن المسعودي عن الحَكَمِ بن عُثَيْبَةَ - بضم العين المهملة وفتح الفوقية وسكون التحتية وبالمُوَحَّدَةِ - قال: لما قدم النبي ﷺ فَتَزَلَّ بِقَبَاءَ قال عُمَارُ بن يَاسِرٍ: «ما لرسول الله ﷺ يُدُّ من أن يجعل له مكاناً يَسْتَضِلُّ به إذا استيقظ ويصلي فيه». فجَمَعَ حِجَابَهُ فَبَنَى مَسْجِداً قَبَاءَ فَهُوَ أَوَّلُ من بنى مسجداً - روى الحافظ والسيد - يَغْنِي لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ أَوَّلاً لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وهو في التحقيق أَوَّلُ مَسْجِدٍ صَلَّى فِيهِ بِأَصْحَابِهِ جَمَاعَةً ظَاهِراً، وَإِنْ كَانَ قَدْ بُنِيَ غَيْرُهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ، فَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ لَبِثْنَا بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ سِتَّتَيْنِ نَعْمُرُ الْمَسَاجِدَ وَنَقِيمُ الصَّلَاةَ، وَلِذَا قِيلَ: كَانَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي الْهَجْرَةِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْأَنْصَارِ بِقَبَاءَ قَدْ بَنَوْا مَسْجِداً يُصَلُّونَ فِيهِ، يَعْنِي هَذَا الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَزَادَ قَبَاءَ صَلَّى بِهِمْ فِيهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَلَمْ يُخْدِثْ فِيهِ شَيْئاً أَيْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لِأَنَّ ابْنَ شَيْبَةَ - بالشين المعجمة

في تلقي أهل المدينة رسول الله ﷺ ونزوله بقباء

والمَوْحِدَةُ الْمُشَدَّدَةُ الْمَفْتُوحَتَيْنِ - روى ذلك، ثم روى أن النبي ﷺ بنى مسجد قُبَاءٍ، وَقَدَّمَ الْقِبْلَةَ إِلَى مَوْضِعِهَا الْيَوْمَ وَقَالَ: «جَبْرِيلُ يَوْمَ بِي الْبَيْتِ»^(١).

وروى الطبراني عن جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: لما سَأَلَ أَهْلُ قُبَاءِ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَبْنِي لَهُمْ مَسْجِدًا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لِيَقُومَ بَعْضُكُمْ فِيرْكَبُ النَّاقَةَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَوَرَّكَبَهَا فَحَوَّكَهَا فَلَمْ تَنْبَعِثْ فَجَرَعَ فَقَعَدَ فَقَامَ غَمَرُ رضي الله عنه فَرَكَبَهَا فَلَمْ تَنْبَعِثْ فَجَرَعَ فَقَعَدَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «لِيَقُومَ بَعْضُكُمْ فِيرْكَبُ النَّاقَةَ»، فَقَامَ عَلِيٌّ رضي الله عنه، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي غَزَزِ الرِّكَابِ وَثَبَتْ بِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْخِ زِمَامَهَا وَابْثُثُوا عَلَى مَدَارِهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ». وروى الطبراني بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ عَنْ الشُّمُوسِ - بَفَتْحِ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ - بنت النعمان رضي الله عنها قالت: «نَظَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ وَنَزَلَ وَأَسَّسَ هَذَا الْمَسْجِدَ: مَسْجِدَ قُبَاءٍ، فَرَأَيْتُهُ يَأْخُذُ الْحَجَرَ أَوْ الصُّخْرَةَ حَتَّى يَهْصِرَهُ الْحَجَرُ، وَأَنْظُرُ إِلَى بِيَاضِ التُّرَابِ عَلَى بَطْنِهِ أَوْ شَرَّتِهِ فَيَأْتِي الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي اعْطِنِي أَكْفِكَ، فَيَقُولُ: «لَا تُحْذِ مِنْهُ»، حَتَّى أَسَّسَهُ، وَيَقُولُ: «إِنْ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ يَوْمَ الْكَعْبَةِ» قَالَتْ: فَكَانَ يُقَالُ: إِنَّهُ أَقْوَمُ مَسْجِدٍ قِبْلَةً.

قال السيد: «قَدْ صَحَّ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَسْتَقْبِلُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ حَتَّى تُسَيِّحَ ذَلِكَ وَجَاءَ نِقْبَاؤُهُمْ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ فَأَخْبَرَهُمْ وَكَانَتْ وَجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ، فَيُخْتَمَلُ أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَوْمَ [بِهِ] الْبَيْتِ لِيُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى جِهَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِتَقَابُلِ الْجَهَتَيْنِ وَيُعْلِمَهُ بِمَا يؤولُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ مِنْ اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ. أَوْ أَنَّهُ ﷺ كَانَ مُخَيَّرًا فِي ابْتِدَاءِ الْهَجْرَةِ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْ إِلَى الْكَعْبَةِ، كَمَا قَالَ الرَّبِيعُ، فَأَمَّ بِهِ جَبْرِيلُ الْبَيْتَ لِذَلِكَ، وَاخْتِيَارُهُ الصَّلَاةَ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْ لَا لِاسْتِمَالَةِ الْيَهُودِ أَوْ أَنَّ اسْتِقْبَالَ الْكَعْبَةِ كَانَ مَشْرُوعًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ ثُمَّ تُسَيِّحُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ثُمَّ تُسَيِّحُ بِالْكَعْبَةِ كَمَا قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُ مِنْ أَنَّ الْقِبْلَةَ تُسَيِّحُ مَرَّتَيْنِ، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ تَأْسِيسٌ آخَرَ غَيْرَ التَّأْسِيسِ الْأَوَّلِ. وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا قَدَّمَ مِنْ رَوَايَةِ ابْنِ شَيْبَةَ».

وروى ابن شَيْبَةَ أَيضًا أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ كَانَ يَقُولُ وَهُوَ يَبْنُونَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ: «أَفْلَحَ مَنْ يَغْمُرُ الْمَسَاجِدَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَسَاجِدُ»، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَائِمًا وَقَاعِدًا»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَقَاعِدًا» فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «وَلَا يَبِيتُ اللَّيْلَ عَنْهُ رَاقِدًا»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَاقِدًا».

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٥/٢١.

تنبيهات

الأول: اختلف في قدر إقامته في بني عمرو بن عوف، ففي الصحيح عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير أنه ﷺ لبث فيهم بضع عشرة ليلة. وفيه عن أنس أنه أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وقدمه في الإشارة، وقيل: خمس ليال قاله ابن إسحاق. وقال ابن جبان: أقام بها الثلاثة والأربعاء والخميس، يعني وخرج يوم الجمعة فلم يفتد بيوم الخروج. وقال ابن عباس وابن عوف: ثلاث ليل، فكأنهما لم يفتدا بيومتي الخروج ولا الدخول. وعن قزيم من بني عمرو بن عوف أنه أقام فيهم اثنين وعشرين يوماً.

الثاني: المعتقد أنه ﷺ دخل قباء يوم الاثنين كما في الصحيح، قال ابن عوف: لهلال ربيع الأول أي أول يوم منه، وفي رواية جرير بن حازم عن ابن إسحاق قدمها لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، وفي رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق: قدمها لائتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وعند أبي سعيد في شرف المصطفى من طريق أبي بكر بن حزم قال: قديم المدينة ثلاث عشرة من ربيع الأول، وهذا يجمع بينه وبين الذي قبله بالحمل على الاختلاف في رؤية الهلال.

الثالث: قال الحافظ: الأكثر أنه قدم نهاراً، ووقع في رواية مسلم ليلاً ويجمع بأن القدوم كان آخر الليل فدخل نهاراً.

الرابع: في بيان غريب ما سبق:

«تَوَكَّفُوا»: انتظروا.

«الظهيرة»: بفتح الظاء المعجمة وكسر الهاء بعدها مثناة تحتية: وهي نصف النهار.

«أوفى»: طلع إلى مكان عال.

«الأطم»^(١): بضم أوله وثانيه وهو الحصن، ويقال: بناء من حجارة كالقصر.

«مُبَيِّضِينَ»: أي عليهم الثياب البيض التي كساهم إياها الزبير أو طلحة.

«يزول بهم»: أي يرفعهم ويظهرهم.

«السراب»: الذي يكون نصف النهار لاطئاً بالأرض كأنه ماء.

«قَيْلَة»: بفتح القاف وسكون التحتية: الجدة الكبرى للأنصار.

(١) الأطم: حصن مبني بحجارة، وقيل: هو كل بيت مربع مسطح والجمع القليل أطام قال الأعشى:

فإِذَا أَتَيْتَ أَطَامَ حَجْرٍ وَأَمَلَهُ أَنْيَحَتْ فَالْقَت رَحْلَهَا بِفَنَائِكَ

والكثير أطوم: وهي حصون لأهل المدينة. اللسان ٩٣/١.

في تلقي أهل المدينة رسول الله ﷺ ونزوله بقاء

«جَدُّكُمْ»: بفتح الجيم: أي حَظُّكُمْ وصاحب دولتكم الذي تَتَوَقَّعُونَهُ.

«طَفِقَ»: بكسر الفاء وفتحها: أي جَعَلَ.

«انحاز»، بالحاء المهملة والزاي: مال.

«جَوْفُ اللَّيْلِ»: وَسَطُهُ.

«اشْتَرَبْتُ شَأْنَهُ»: أي شَكَّكْتُ فِيهِ.

«يَأْتِرُ ذَلِكَ»: أي يُحَدِّثُ بِهِ.

«يَهْصِرُهُ»^(١): يُبَيِّلُهُ.

«يُؤَمُّ»: بفتح المثناة التحتيّة بعدها همزة مضمومة: أي يقصد.

«الْعَرَزُ»: بغين معجمة مفتوحة فراء ساكنة فزاي: أي ركاب الإبل.

الباب السادس

في قدومه صلى الله عليه وسلم باطن المدينة وما آلت إليه وفرح أهل المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم

روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي بكر، وسعيد بن منصور عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم والبيهقي عن موسى بن عُقبة، وابن إسحاق عن عويم بن ساعدة، ويحيى بن الحسن عن عُمارة بن خزيمة أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يدخل المدينة أرسل إلى بني النُّجَّار، وكانوا أحواله لأن أم عبد المطلب منهم كما تقدم في باب النَّسَب. فجاءوا متقلدين السيوف، فقالوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه: «ارْكَبُوا آمَنِينَ مُطَاعِينَ». وكان اليوم يوم الجمعة فلما ارتفع النهار دعا رسول الله ﷺ براجلته وحشيد المسلمين وليشوا السلاح، وركب رسول الله ﷺ ناقته القُصْوَاء والناس معه عن يمينه وعن شِمَالِهِ وخلفه منهم الماشي والراكب فاجتمعت بنو عَمْرٍو بن عَوْف فقالوا: يا رسول الله أخرجت ملائلاً لنا أم تريد داراً خيراً من دارنا؟ قال: «إني أُمِرْتُ بِقَرِيَّةٍ تَأْكُلُ الْقَرَى فَخَلُّوها - أي ناقته - فإنها مأمورة»، فخرج رسول الله ﷺ من قُبَاء يريد المدينة فَتَلَقَّاهُ الناس فخرجوا في الطرق وعلى الأباغر وصار الخدم والصبيان يقولون: «الله أكبر، جاءنا رسول الله جاء محمد»، قال أنس فيما رواه البيهقي: «إني لأَسْمَعُ مع الغلمان إذ قالوا: محمد جاء فننطلق فلا نرى شيئاً، حتى أقبل وصاحبه أبو بكر فكمنا في بعض مجْدَرِ المدينة وبعثا رجلاً من أهل البادية لِيُؤْذِنَ بهما الأنصار فاستقبلهما زُهَاءُ خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار: انطلقا آمَنِينَ مُطَاعِينَ. فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتى أن العواتق لَفَزْنَ البيوت يَتَرَاءَيْنَهُ يَقُلْنَ: أَيُّهُمْ هو؟ أَيُّهُمْ هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «لما قَدِمَ رسول الله ﷺ وسلم المدينة لَعِبَتْ الحبشة بحرايها فرحاً بقدومه». وروى البيهقي ورزين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يَقُلْنَ:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ قَبَائِلِ الْوَدَاعِ
وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لَهُ دَاعٍ^(١)

زاد رزين:

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ

في قدومه ﷺ باطن المدينة وما آلت إليه

وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه أنه قال: «ما رأيْتُ أهل المدينة فرِحُوا بشيء فرَحَهُمْ برسول الله ﷺ». وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كُلُّ شيء». وروى ابن أبي خيثمة رضي الله عنه قال: «شَهِدْتُ يوم دخل رسول الله ﷺ المدينة فلم أَرِ يوماً أَحْسَنَ منه ولا أَضوَأَ».

فلم يَمَرَّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار إلا قالوا: «هَلُمَّ يا رسول الله إلى العِزِّ والمَنعة والثروة». فيقول لهم خَيْراً ويدعوا أو يقول: «إِنها مأمورة خَلُّوا سَبِيلَهَا»، فَمَرَّ ببني سالم فقام إليه عِثْبَان - بكسر العين المهملة - ابن مالك، وتَوَقَّلَ بن عبد الله بن مالك بن العَجْلان، وهو أَخِذٌ بِرِمام راحلته، فقال: «يا رسول الله انزِلْ فينا فَإِن فينا العَدَدَ والعشيرة والحَلَقَةَ، ونحن أصحاب الفضاء والحدائق والدَّرَك، يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البُحْرَةَ خائفاً فيلجأ إلينا فنقول له: «قَوِّلْ حيث شئت». فجعل رسول الله ﷺ يَتَبَسَّم ويقول: «خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنها مأمورة»^(١)، فقام إليه عُبادَةُ بن الصامت، وعباس بن عُبادَةَ بن نَصْلَةَ بن مالك بن العَجْلان، فجعلوا يقولون: «يا رسول الله انزِلْ فينا»، فيقول النبي ﷺ: «بَارَكَ الله عليكم إِنها مأمورة».

فلما أتى مسجد بني سالم وهو المسجد الذي في الوادي: وادي رانواء، أدركته الجمعة هناك فَصَلَّاهُ فيه وكانت أول جُمُعَةٍ صَلَّاهُ في المدينة، وقيل إنه كان يُصَلِّي الجُمُعَةَ بمسجد قُبَاء، وعند ابن سعد أنه صلى معه الجمعة مائة نفس، ثم أخذ رسول الله ﷺ عن يمين الطريق [حتى جاء بنو الحُبَلَى]، فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبي [بن سلول]، وهو يومئذ سَيِّد الخزرج في أنفسها فقال: اذْهَبْ إلى الذين دعوك فانزِلْ عليهم. فقال سعد بن عُبادَةَ: «لا تَجِدْ يا رسول الله في نفسك من قوله، فقد قَدِمْتُ علينا والخزرج تريد أن تُمَلِّكَ عليها، فلما رَدَّ الله ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِّقَ بذلك ولكن هذه داري، ذكره موسى بن عُقْبَةَ وَرَزِين. قال السيد: «الذي في الصحيح ذَكَرُ سَعْد بن عُبادَةَ لذلك في قصة عيادته ﷺ له من مَرَض بعد شُكْنَاه بالمدينة». قُلْتُ: وَيُحْتَمَلُ أن سَعْداً قال ذلك مَرَّتَيْنِ، والله أعلم.

فَمَرَّ رسولُ الله ﷺ ببني ساعدة فقال له سعد بن عُبادَةَ، والمُنْذِر بن عَمْرٍو، وأَبُو دُجَانَةَ: «هَلُمَّ يا رسول الله إلى العِزِّ والثروة والقوة والجلَد»، وسَعْد يقول: «يا رسول الله ليس من قومي رَجُلٌ أَكْثَرَ عَدُوًّا ولا فَمٌ بِرٍ مِنِّي مع الثروة والجلَد والعدد فيقول رسول الله ﷺ: «يا أبا ثابت خَلِّ سَبِيلَهَا فَإِنها مأمورة». فمضى واعترضه سَعْد بن الرُّبِيع، وعبد الله بن رَوَاحَةَ، وبَشِير بن سعد، فقالوا: «يا رسول الله لا تُجَاوِزْنَا فَإِنَّا أَهْلُ عَدَدٍ وثروة وحَلَقَةٍ»، قال: «بارك الله

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/١٦٠.

فيكم، خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنِهَا مَأْمُورَةٌ، واعترضه زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو، من بني بياضة، فقالا: «يا رسول الله هَلُمَّ إِلَى الْمَوَاسَاةِ وَالْعِزِّ وَالثَّرْوَةِ وَالْعَدَدِ وَالْقُوَّةِ، نحن أهل الدرك يا رسول الله»، فقال رسول الله: «خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنِهَا مَأْمُورَةٌ». وفي حديث البراء فقال: «إِنِّي أَنْزَلَ عَلَى أَحْوَالِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ أَكْرَمَهُمْ بِذَلِكَ». ثم مرَّ ببني عَدِيٍّ بْنِ التَّجَارِ وَهُمْ أَحْوَالُهُ فَقَامَ أَبُو سَلَيْطٍ وَصِرْمَةُ بْنُ أَبِي أَنَسٍ فِي قَوْمِهِمَا فَقَالَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ نَحْنُ أَحْوَالُكَ هَلُمَّ إِلَى الْعَدَدِ وَالْمَنْعَةِ وَالْقُوَّةِ مَعَ الْقَرَابَةِ، لَا تُجَاوِزْنَا إِلَى غَيْرِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِنَا أَوْلَى بِكَ مِنَّا لِقَرَابَتِنَا بِكَ». فقال رسول الله ﷺ: «خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنِهَا مَأْمُورَةٌ».

فسار حتى إِذَا أَتَتْ دَارَ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ التَّجَارِ قَامَتْ إِلَيْهِ وَجُوهَهُمْ، ثم مضى حتى انتهى إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَتَرَكْتُ رَاحِلَتَهُ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ ﷺ وَذَكَرَ الْأَقْشَهْرِيُّ فِي رَوْضَتِهِ عَنْ ابْنِ نَافِعٍ صَاحِبِ مَالِكٍ فِي أَثْنَاءِ كَلَامٍ نَقَلَهُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ «نَاقَتَهُ ﷺ لَمَّا أَتَتْ مَوْضِعَ مَسْجِدِهِ بَرَكَتْ وَهُوَ عَلَيْهَا وَأَخَذَهُ الَّذِي كَانَ يَأْخُذُهُ عِنْدَ الْوُحْيِ». ثم وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ وَاضِعٌ لَهَا زِمَامَهَا لَا يَشْنِيهَا بِهِ، ثم التفتت خلفها فرجعت إِلَى مَبْرَكِهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فبركت فيه ثم تلحلت وأزْزَمَتْ، ووضعت جِزَانَهَا. وجعل جَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ يَنْخُسُهَا رَجَاءً أَنْ يَقُومَ فتنزل فِي دَارِ بَنِي سَلَمَةَ فَلَمْ تَفْعَلْ. فنزل رسول الله ﷺ عَنْهَا وَقَالَ: «هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون ٢٩] وجاء أبو أيوب فَكَلَّمُوهُ فِي النُّزُولِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ بَيْتٍ أَهَلْنَا أَقْرَبُ؟» فقال أبو أيوب: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هذه داري وهذا بابي وقد حَطَطْنَا رَحْلَكَ فِيهَا. قال: «فَانْطَلِقِي فَهَيِّئِي لَنَا مَقِيلًا»^(١)، فذهب فَهَيَّيَا لَهُمَا مَقِيلًا. وروى الطبراني عن عبد الله بن الزبير أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ عَرِيشٌ يَرْشُوتُهُ وَيَعْمُرُونَهُ وَيَبْتَرِدُونَ فِيهِ حَتَّى نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَاحِلَتِهِ فَأَوَى إِلَى الظِّلِّ فَنَزَلَ فِيهِ فَأَتَاهُ أَبُو أَيُوبَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْزِلِي أَقْرَبَ الْمَنَازِلِ إِلَيْهِ فَاَنْقُلْ رَحْلَكَ. قال: «نعم»، فذهب بِرَحْلِهِ إِلَى الْمَنْزِلِ، فَأَتَاهُ آخِرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْزِلْ عَلَيَّ، فقال رسول الله ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ حَيْثُ كَانَ»، فَتَضَعْتُ مَثَلًا فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَنْزِلِ أَبِي أَيُوبَ وَقَرَّ قَرَارُهُ وَاطْمَأَنَّتْ دَارُهُ وَنَزَلَ مَعَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ^(٢).

وذكر ابن سعد أَنَّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ أَخَذَ بِرِمَامِ الثَّاقَةِ فَكَانَتْ عِنْدَهُ. وعند عائذ وسعيد بن منصور أَنَّ نَاقَتَهُ اسْتَنَاحَتْ بِهِ أَوَّلًا فَجَاءَهُ نَاسٌ فَقَالُوا: الْمَنْزِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فقال: «دَعُوها»، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد ثم تلحلت فنزل عنها فَأَتَاهُ أَبُو أَيُوبَ

(١) أخرجه البخاري ٨٠/٥ والبيهقي في الدلائل ٢٤٩/٢ وأبو نعيم في الدلائل (١١٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١٦٠/١/١.

في قدومه ﷺ باطن المدينة وما آلت إليه

فقال: منزلي أقرب المنازل فائذن لي أن أنقل رَحْلَكَ. قال: «نعم»، فنقل رَحْلَهُ وَأَنَاخ الناقاة في منزله.

وروى الحاكم وأبو سعيد النيسابوري أن رسول الله ﷺ لما نزل على أبي أيوب خرج جوار من بني النَجَارِ يَضْرِبُ بالدُفوف ويُقْلِنُ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَجَارِ يَا حَبِذَا مُحَمَّدًا مِنْ جَارٍ^(١)

فقال رسول الله ﷺ: «أَتُخَيِّبُنِي؟» قُلْنَ: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «وَأَنَا وَاللَّهِ أَجِبُكُمْ»، قالها ثلاثاً. وذكر ابن إسحاق في المُبْتَدَأ وابن هشام في التيجان أن بيت أبي أيوب الذي نزل فيه رسول الله ﷺ مُقَدِّمَةُ المدينة ببناء تُبَّع الأول واسمه تُبَّان - بضم المُثَنَّاة الفوقية وتخفيف المُوَحَّدَة - أسعد، وكان معه أربعمئة حَبرٍ، فتعاقدوا على ألا يخرجوا منها. فسألهم تُبَّع عن سِرِّ ذلك، فقالوا: إنا نجد في كُتُبِنَا أن نَبِيًّا اسْمُهُ مُحَمَّدٌ هذه دار هجرته، فنحن نُقيم لعلنا نلقاه. فأراد تُبَّع الإقامة معهم، ثم بنى لكل واحد من أولئك داراً واشترى له جارية وزَوَّجها منه وأعطاه مالا جزيلاً وكتب كتاباً فيه إسلامه ومنه:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي السَّمِ
فَلَوْ مُدُّ عُمُرِي إِلَى عُمُرِهِ لَكُنْتُ وَزِيْرًا لَهُ وَأَبْنَ عَمِّ
[وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَغْدَاءَهُ وَفَرَجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَمٍّ]

وَوَحَّتَهُ بِالذَّهَبِ وَدَفَعَهُ إِلَى كَبِيرِهِمْ وَسَأَلَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ إِنْ أَدْرَكَهُ وَإِلَّا فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَوْ وَلَدَ وَلَدِهِ، وبنى للنبي ﷺ داراً يُنْزِلُهَا إِذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فتداول الدَّارَ الْمَلَائِكُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِأَبِي أَيُوبَ، وهو من وَلَدَ ذَلِكَ الْعَالِمِ، وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ نَصَرُوهُ كُلُّهُمْ مِنْ أَوْلَادِ أُولَئِكَ الْعُلَمَاءِ. ويقال إن الكتاب الذي فيه الشَّعْرُ كان عبد أبي أيوب حتى دفعه إلى رسول الله ﷺ، وهو غريب. فما نزل رسول الله ﷺ إلا في بيته.

وروى الترمذي وَصَحَّحَهُ، ويحيى بن الحَسَنِ العلوي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَنْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ فَجَعْتُ لِأَنْظَرِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ وَجْهَهُ عَلِمْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ يَتَكَلَّمُ بِهِ أَنْ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ أَفْقُشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(٢). وروى ابنُ إِسْحَاقَ ومسلم عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: «لَمَّا نَزَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي نَزَلَ فِي السُّفْلِ وَأَنَا وَأُمُّ أَيُوبَ فِي الْعِلْوِ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ

(١) انظر البداية والنهاية ٢٠٠/٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٥١/٥ والدارمي ٣٤٠/١ والترمذي ٦٥٢/٤ وابن ماجه ٤٢٣/١ (١٣٣٤).

وأُمِّي، إني لَأَكْرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكُونَ فَوْقَكَ وتكون تحتي، فظهر أَنتَ فُكْرُنَ في الغُلُو، ونَزَلَ نحن فنكون في السُّفْل، فقال: «إِنَّ أَرْفَقَ بنا وَبَحْمَنَ يَغْشَانَا أَنْ نَكُونَ فِي سِفْلِ الْبَيْتِ». قال: فكان رسول الله ﷺ في سُفْلِهِ وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ، فلقد انكسر حُبُّ لَنَا فِيهِ مَاءٌ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا مَا لَنَا لِحَافٍ غَيْرُهَا نُتَشَفُّ بِهَا الْمَاءَ [تَخَوُّفًا أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فِيؤْذِيهِ. وَذَكَرَ أَنَّ أَبَا أَيُوبَ لَمْ يَزَلْ يَتَضَرَّعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى تَحُولَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْغُلُو وَأَبُو أَيُوبَ فِي السُّفْلِ.

قال أَبُو أَيُوبَ: وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ الْعِشَاءَ ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلَهُ تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُوبَ مَوْضِعَ يَدِهِ فَأَكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ، حَتَّى بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بَعَثَانَا وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ فِيهِ بَصَلًا أَوْ ثَوْمًا، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ أَرِ لِيَدِهِ فِيهِ أَثَرًا. قال: فَجِئْتُهُ فِرْعَاءً فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَابِي أَنْتَ وَأُمِّي رَدَدْتَ عِشَاءَكَ، وَلَمْ أَرِ فِيهِ مَوْضِعَ يَدِكَ وَكُنْتُ إِذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُوبَ مَوْضِعَ يَدِكَ نَبْتَغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ. قال: «إِنِّي وَجَدْتُ فِيهِ رِيحَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَأَنَا رَجُلٌ أَتَاجِي، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوهُ». قال: فَأَكَلْنَاهُ وَلَمْ نَضِعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدَ.

وفي كتاب أخبار المدينة ليحيى بن الحسن، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «لما نزل رسول الله ﷺ على أَبِي أَيُوبَ لَمْ يَدْخُلْ مَنْزِلَ رَسُولِ اللَّهِ هَدِيَّةً وَأَوَّلَ هَدِيَّةٍ دَخَلَتْ بِهَا عَلَيْهِ قَصْبَةُ مَثْرُودَةُ خُبْرٌ بُرٌّ وَسَمْنًا وَلَبَنًا، فَأَضْعَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَسَلْتَ بِهِذِهِ الْقَصْبَةَ أُمِّي»، فَقَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا»، وَدَعَا أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا فَلَمْ أَرِمْ الْبَابَ حَتَّى جَاءَتْهُ قَصْبَةُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، عَلَى رَأْسِ غُلَامٍ مَغْطَاةٍ فَأَقْفَ عَلَى بَابِ أَبِي أَيُوبَ فَأَكْشَفَ غِطَاءَهَا لِأَنْظُرَ فَرَأَيْتُ ثَرِيدًا عَلَيْهِ غُرَاقٌ^(١)، فَدَخَلَ بِهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قال زيد: «فلقد كُنَّا فِي بَنِي مَالِكِ بْنِ النُّجَّارِ مَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا عَلَى بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ الثَّلَاثَةُ وَالْأَرْبَعَةُ يَحْمِلُونَ الطَّعَامَ وَيَتَنَاوَبُونَ بَيْنَهُمْ حَتَّى تَحُولَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْتِ أَبِي أَيُوبَ وَكَانَ مُقَامُهُ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَمَا كَانَتْ تَخْطِئُهُ جَفْنَةُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَجَفْنَةُ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ. وفيه أَنَّهُ قِيلَ لِأُمِّ أَيُوبَ: «أَيُّ الطَّعَامِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّكُمْ عَرَفْتُمْ ذَلِكَ لِمُقَامِهِ عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُهُ أَمْرَ بِطْعَامٍ فَصْنِعَ لَهُ بَعِينَهُ، وَلَا رَأْيَانَهُ أُتِيَ بِطْعَامٍ فَعَابَهُ. وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَبُو أَيُوبَ أَنَّهُ تَعَشَّى عِنْدَهُ لَيْلَةً مِنْ قَصْبَةٍ أَرْسَلَ بِهَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ طَفَيْشَلًا. قال أَبُو أَيُوبَ. فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَلُ تِلْكَ الْقِدْرَ مَا لَمْ أَرَهُ يَنْهَلُ غَيْرَهَا، فَكُنَّا نَعْمَلُهَا لَهُ، وَكُنَّا نَعْمَلُ لَهُ الْهَرِيرَ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ. وَكَانَ يَحْضِرُ عِشَاءَهُ خَمْسَةَ إِلَى سِتَّةِ عَشَرَ كَمَا يَكُونُ الطَّعَامُ فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ».

(١) التُّرُق: بالسكون: العظم إذا أخذ عنه مُغَطَّمُ اللَّحْمِ، وَجَمْعُهُ: غُرَاقٌ، وَهُوَ جَمْعُ نَادِرٍ، يُقَالُ: غَرَقْتُ الْعُظْمَ، وَاعْتَرَقْتُهُ، وَتَعَرَّقْتُهُ إِذَا أَخَذْتُ عَنْهُ اللَّحْمَ بِأَشْنَانِكَ. انظر النهاية ٢٢٠/٣.

في قدومه ﷺ باطن المدينة وما آلت إليه

قال ابن إسحاق: «وبعث رسول الله ﷺ زَيْدَ بن حارثة وأبا رافع إلى مكة وأعطاهما بَعِيرَيْن وخمسمائة درهم فَقَدِمَا عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتَيْهِ وسودة بنت زمعة زوجته وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أَيْمَنَ مع ابنتها أُسَامَةَ بن زيد، وخرج عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر فيهم عائشة وأختها أسماء زوج الزبير وأم رومان [أم عائشة] فلما قَدُمُوا المدينة أُنزلوا في بيت حارثة بن النعمان. وذكر رزين أن أبا بكر أرسل عبد الله بن أُرَيْقَطَ مع زيد ليأتيه بأهله.

قال ابن إسحاق: «وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يَبْقَ بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس. ولما اطمأنت برسول الله ﷺ دَارُهُ، وأظهر الله بها دينه، وسره بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته، قال أبو قيس صِرْمَةُ بن أبي أنس، أخو بني عدي بن النجار، يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام وما خصهم به من نزول رسول الله ﷺ عليهم:

تَوَى فِي قُرَيْشٍ بَضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى صَدِيقاً مُوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمُوَاتِيَةِ نَفْسَهُ فَلَمْ يَرِ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرِ ذَا عِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ فَأَصْبَحَ مَسْرُوراً بِطَبِيبَةٍ رَاضِيَا
وَأَلْقَى صَدِيقاً وَاطْمَأَنَّتْ بِهِ النَّوَى وَكَانَ لَنَا عَوْناً مِنَ اللَّهِ بِأَدِيَا
يُقْضَى لَنَا مَا قَالَ نُوحٍ لِقَوْمِهِ وَمَا قَالَ مُوسَى إِذْ أَجَابَ الْمُنَادِيَا
فَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ وَاحِداً قَرِيباً وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ نَائِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ جُلٍّ مَالِنَا وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَعَى وَالنَّاسِيَا
وَنَعَلْنَا أَنَّ اللَّهَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَفْضَلُ هَادِيَا
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ جَمِيعاً وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ الْمُصَافِيَا
أَقُولُ إِذَا أَدْعُوكَ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ تَبَارَكْتَ قَدْ أَكْفَرْتَ لَاسْمِكَ ذَا عِيَا
أَقُولُ إِذَا جَاوَزْتَ أَرْضاً مَخُوفَةً حَتَانِيكَ لَا تُظْهِرْ عَلَيَّ الْأَعَادِيَا
فَطَباً مُعْرِضاً إِنَّ الْحُثُوفَ كَثِيرَةٌ وَإِنَّكَ لَا تُبْقِي لِنَفْسِكَ بَاقِيَا
فَوَاللَّهِ مَا يَذِرِي الْفَتَى كَيْفَ يَتَّقِي إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهَ وَاقِيَا
وَلَا تَحْفِلِ النَّحْلُ الْمُعِيمةُ رَبُّهَا إِذَا أَصْبَحَتْ رِيّاً وَأَصْبَحَ نَاقِيَا^(١)

تنبيه: في بيان غريب ما سبق

«حَشَدَ» المسلمون بالبدال المهملة: اجتمعوا.

(١) انظر البداية والنهاية ٢٠٤/٣.

«مُتَقَلِّدِينَ» السيوف: جعلوا سيورها في أعناقهم إلى جنبهم الأيسر، عادة العرب الآن لا كفعل الأتراك وغيرهم بجعلها في أوساطهم.
«مَلَاكًا»: سامة.

«الدَّار»: هنا القبيلة وكل قبيلة اجتمعت في مَحَلَّة سُمِّيَتْ تلك المَحَلَّة داراً، وسُمِّي ساكنوها بها مجازاً، أي أهل الدار.

«تَأْكُلُ الْقُرَى»: يأتي بياؤه في بيان أسماء المدينة.

«كَمِيئًا»^(١): بفتح الكاف وكسر الميم بعدها نون مُشَدَّدَةٌ، أي استترنا.

«زُهَاءً»: بضم الزاي وبالمَد: أي قَدْر.

«الْعَوَاتِقُ»: جمع عاتق وهي الشابة أول ما تُدْرِك، وقيل: هي التي لم تَبْرِنْ من والدتها ولم تُزَوِّج وقد أذْرَكَتْ وشَبَّتْ.

«الولائد»: جمع وليدة وهي الأنثى، والوليد الطفل جفغفُهُ ولُدان.

«الثَّيِّبَاتُ»: جَمْعُ ثَيْبَةٍ وَثَيْبَةُ الْوَدَاعِ بفتح الواو. قال المجد اللغوي: «هي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة، وقيل: من يريد الشام واختُلف في تسميتها بذلك فقليل لأنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة، وقيل لأن النبي ﷺ ودَّع بعض من خَلَفَهُ بالمدينة في آخر خُرُوجَاتِهِ، وقيل: في بعض سراياه المبعوثه عنه، وقيل: الْوَدَاع اسم واد بمكة، والصحيح أنه اسم جاهلي قديم سُمِّيَ به لتوديع المسافرين، هكذا قال أهل السَّيَر والتاريخ وأصحاب المسالك إنها من جهة مكة، وأهل المدينة [اليوم] يظنونها من جهة الشام، وكأنهم اعتمدوا قول ابن قَيِّم الجوزية في هَدْيِهِ، [فإنه قال]: «من جهة الشام ثَيِّبَاتُ الْوَدَاع ولا يطؤها القادم من مكة البتة». ووجه الجمع أن كلتا الثَّيِّبَتَيْنِ تُسَمَّى بثنية الوداع». انتهى كلام المجد.

قُلْتُ: وقال ياقوت^(٢) في الْمُشْتَرَك: «ثنية الوداع مشهورة قُرْب المدينة وسُمِّيَتْ بذلك لأن الناس كانوا يودعون المسافرين إلى مكة عندها». فاقترضى كلامه أنه يطؤها قاصِدُ مكة، وتَبَعَهُ على ذلك في التقريب وسبقهما إليه القاضي، وأَيَّدَ السَّيِّد كلام صاحب الهَدْي فقال: الروايات متظاهرة على أن هذه الثَّيِّبَةُ هي المعروفة بذلك، اليوم: شَامِيَّة المدينة بين مسجد الزاوية الذي على دُبَاب ومَشْهَد النَّفْس الزُّكِّيَّة، يَمُرُّ فيها المَارَّ بَيْنَ صَدَّيْنِ مرتفعين قُرْب سَلْع،

(١) كُنْ كُنْ: اختفى، وكن له يكن كمنوا وكن: استخفى اللسان ٣٩٣٣/٥.

(٢) ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله، شهاب الدين: مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب. أصله من الروم. أسر من بلاده صغيراً. من كتبه «معجم البلدان» و«إرشاد الأريب» ويعرف بمعجم الأدباء. توفي سنة ٦٢٦ هـ. الأعلام ١٣١/٨.

في قدومه ﷺ باطن المدينة وما آلت إليه

ومن تأمل كلام ابن شبة في المنازل وغيرها لم يرتب في ذلك، ويوضحه ما رواه ابن إسحاق في غزوة الغابة قلت: وسيأتي سياقه فيها.

ثم قال السيد: «وكونها شامي المدينة لا يمنع كون هذه الآيات أُنشِدت عند الهجرة لأنه ﷺ ركب ناقته وأزخى لها زمامها وقال: «دعوها فإنها مأمورة»، ومَرَّ بِدُور الْأَنْصَارِ كما سبق حتى مَرَّ بِبَنِي سَاعِدَةَ، ودارهم شامي المدينة فَوَبَّ ثِيْبَةُ الْوَدَاعِ، فلم يدخل باطن المدينة إلا من تلك الناحية حتى أتى منزله بها. وقد عَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ في رجوعه من بَدْرٍ إِلَى ثِيْبَةِ الْوَدَاعِ، كما ذكره ابن عُقْبَةَ: [أَنَّهُ ﷺ سَلَكَ حِينَ خَرَجَ إِلَى بَدْرٍ حَتَّى ثُقُبَ بَنِي دِينَارٍ، وَرَجَعَ حِينَ رَجَعَ مِنْ ثِيْبَةِ الْوَدَاعِ] قُلْتُ: فَتَحَصَّلَ مِنْ كَلَامِهِ أَنَّ ثِيْبَةَ الْوَدَاعِ لَيْسَتْ مِنْ جِهَةِ مَكَّةَ وَإِنَّمَا هِيَ شَامِي الْمَدِينَةِ، خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِهَتِهَا فِي دُخُولِهِ بِاطْنِ الْمَدِينَةِ، وَلَا حُجَّةَ لِمَنْ قَالَ إِنَّهَا مِنْ جِهَةِ مَكَّةَ إِلَّا مَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِ الْوَلَدِ: «طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثِيْبَاتِ الْوَدَاعِ»، وَقَدْ عَلِمْتُ مَا فِيهِ.

وروى البخاري عن السائب بن يزيد قال: «أَذْكُرُ أَنِّي خَرَجْتُ مَعَ الصَّبِيَّانِ نَتَلَقَّى النَّبِيَّ ﷺ إِلَى ثِيْبَةِ الْوَدَاعِ مَقْدَمَهُ مِنْ ثُبُكٍ». قال الحافظ في فتح الباري: «أنكر الداودي هذا، وتبعه ابن القيم وقال: ثِيْبَةُ الْوَدَاعِ مِنْ جِهَةِ مَكَّةَ لَا مِنْ جِهَةِ ثُبُكٍ بَلْ هِيَ فِي مِقَابِلِهَا كَالْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ يَكُونُ هُنَاكَ ثِيْبَةُ أُخْرَى فِي تِلْكَ الْجِهَةِ». قال ابن حجر: «ولا يمنع كونها من جهة مكة أن يكون الخروج إلى الشام من جهتها. وهذا أوضح كما في دخول مكة من ثيبة والخروج منها من أخرى، وينتهين كلهن إلى طريق واحدة». قلت: وقد راجعت الهذلي في غزوة ثُبُكٍ فرأيت أنه ذكر أن ثيبة الوداع شامي المدينة كما نقله عنه صاحب القاموس والسيد لا كما نقله عنه الحافظ ولم يذكُر في الهذلي في الكلام على الهجرة شيئاً من ذلك.

«أضواء»: أنور.

«المنعة»: بفتح النون يقال: فلان في مَنَعَةٍ أَي في عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ يَرِيدِهِ.

«الثروة»: بفتح الثاء المثناة: كثرة المال.

«البحيرة»: يأتي الكلام عليها في باب أسماء المدينة.

«قَوْلُ»: بقات مفتوحة فواو ساكنة فقات مكسورة: أَي سِرَّ حَيْثُ شِئْتَ فَإِنَّكَ آمِنٌ.

«رانونا»: وهو وادٍ في المدينة صلى فيه النبي الجمعة.

«على فترة من الرُّسُل»: أَي عَلَى انْقِطَاعِ بَعْثِهِمْ وَدُرُوسِ أَعْلَامِ دِينِهِمْ.

«ولو بِشِقِّ تَمَرَةٍ»: بكسر الشين المعجمة: أي نصف تَمَرَةٍ، يريد: لا يستقلون^(١) من الصَّدَقَةِ شيئاً.

«مُزَاجِم»: بضم الميم فزاي وكسر الحاء المهملة: أُطِمَ كان بين ظهراني بني الحُبَلَى.
«بنو الحُبَلَى». الحُبَلَى لقب سالم بن عَنَم بن عَوْف لُقَّبَ به لِعَظَمِ بطنه ومن وَلَدِه بنو الحُبَلَى بَطْنٌ من الأنصار.

«مُحْتَبِياً»: أي جمع ظَهْرَه وساقيه بِثَوْبٍ أو غَيْرِه، وقد يَحْتَبِي بيده والاسم الْحَبْوَةُ بالكسر.

«شَرِقٌ لذلك»: بشين معجمة مفتوحة فراء ففاف، أي ضاق صَدْرُه كمن غَصَّ.
«تَجَلَّجَلْتُ» بجيمين: تَمَرَّكْتُ.
«الأَقْشَهْرِي»: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الأَقْشَهْرِي عمل كتاباً سماه الروضة فيه أسماء من دُفِنَ بالْبَيْقِعِ.
«أَزْرَمْتُ»: براء فزاي: صَوَّرْتُ.

«الْجِرَان»^(٢): بكسر الجيم: مُقَدِّمٌ عُتُقَ البعير من مذبحه إلى مَنْحَرِه، فإذا بَرَكَ البعير ومَدَّ عُتْقَه على الأرض قيل أَلْقَى جِرَانَه بالأرض.
«المَجْهَلُ النَّاسُ»: أَسْرَعُوا.

«الْحُبَّ»: بضم الحاء المهملة: الخابية ويقال لها الزير.
«تَيَمَّنْتُ»: قَصَدْتُ.

«الْقَطِيفَةُ»: دِثَّارٌ لَهُ خَحْلٌ. طَفَيْشَلٌ: بفتح الطاء المهملة وفتح الفاء وسكون المثناة التحتية وفتح الشين المعجمة وباللام: نوع من المَرَقِ.
تَوَى: أَقَامَ.

«البَضْعُ»: بالكسر وَيُفْتَحُ: من الثلاث إلى التسع.

(١) قال ابن الأثير: تَغَلَّلَ الشيء، وَاشْتَقَّلَهُ، وَتَقَالَهُ: إِذَا رَأَاهُ قَلِيلاً. انظر النهاية ١٠٣/٤.

(٢) الجران: باطن العنق، وقيل: مقدم العنق من مذبح البعير إلى منحره وقيل: الجران هي جلدة تضطرب على باطن العنق من ثغرة النحر إلى مُتَنَهَى العنق في الرأس قال الشاعر:

فَسَقَدَ سَرَائِهَا وَالبَرَكُ مِنْهَا فَخَرْتُ لِلْيَدِينِ وَلِلْجِرَانِ

«الحِجَّة»^(١): بالكسر هنا: السَّنة.

«مُواتياً»: موافقاً.

«أَلْفَى»: وَجَدَ.

«التَّوَى»: بلفظ تَوَى الثَّمَر: البُعد.

«بادياً»: ظاهراً.

«نائياً»: بعيداً.

«من مجلِّ مالنا»: مُعْظِمْه.

«الْوَعَى»: بفتح الواو والغين المعجمة: الحرب.

«التَّاسِي»: التعاون.

«البَيْعَةُ»: التَّسْجِد.

«حَنَانِيكَ»^(٢): أَي تَحَنُّناً بعد تَحَنُّنٍ والتَّحَنُّنُ الرَّأْفَةُ والرحمة.

«فطاً مُعْرِضاً»: بضم الميم وسكون العين المهملة وكسر الراء والضاد المعجمة: أَي مُتَّسِعاً.

«الحتوف» جَمْعُ حَتَف وهو الموت، والحتوف هنا أسباب الموت وأنواعه.

«ولا تَحْفُلْ»: بحاء مهملة ففاء: أَي لا تُبْالِي، يُقَالُ حَفَلْتُ بِكَذَا: باليت به.

«النُّخْل» بالخاء المعجمة: اسم جنس جمعى واحده نُخْلَةٌ.

«المعيمَةُ»^(٣) بضم الميم وكسر العين المهملة: أَي العاطشة من الْعَيْمَةِ بِفَتْح العين المهملة وهو الْعَطَش، وأكثر ما يُقَالُ فِي اللَّبَن.

«رَبَّهَا»: صاحبها.

«رَبَّاءً»: أَي مرتوية من الماء.

«ثاويًا»^(٤): بالمثلثة وآخره مُثَنَّاة تحتية، ويُوَوَّى «ثاويًا» بالمشناة الفوقية من التَّوَى وهو الهلاك.

(١). والجمع حجج مثل سورة وسور ص ١٢١.

(٢) انظر اللسان ١٠٣٠/٢.

(٣) انظر اللسان ٣١٩٥/٤.

(٤) تَوَى ثَوَاءً، وَثَوِيًّا: أَقام واستقر. انظر المعجم الوسيط ١٠٣/١.

جماع أبواب بعض فضائل المدينة الشريفة

الباب الأول

في بدء شأنها

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَكَّةُ بَلَدٌ عَظُمَ اللهُ، وَعَظُمَ حُرْمَتُهُ، خَلَقَ مَكَّةَ وَحَفَّهَا بِالْمَلَائِكَةِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئاً مِنَ الْأَرْضِ بِأَلْفِ عَامٍ، وَوَصَّلَهَا بِالْمَدِينَةِ، وَوَصَّلَ الْمَدِينَةَ بَبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، ثُمَّ خَلَقَ الْأَرْضَ كُلَّهَا بَعْدَ أَلْفِ عَامٍ خَلْقاً وَاحِداً». وعن علي رضي الله عنه: قال: «كَانَتِ الْأَرْضُ مَاءً فَبَعَثَ اللهُ رِيحاً فَمَسَحَتِ الْأَرْضَ مَسْحاً فَظَهَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ زَبْدَةٌ فَفَقَسَمَهَا أَرْبَعَ قِطَعٍ، خَلَقَ مِنْ قِطْعَةٍ مَكَّةَ وَالثَّانِيَةَ الْمَدِينَةَ وَالثَّلَاثَةَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ وَالرَّابِعَةَ الْكُوفَةَ». رواهما الحافظ أبو بكر بن أحمد بن محمد الواسطي الخطيب في كتابه فضائل بيت المقدس يستدرك لا بأس به خلافاً لقول السيد إنهما واهيان، فإنني لم أجد في سندهما من تُكَلِّمُ فِيهِ سِوَى ابْنِ لَهْيَعَةَ وَهُوَ صَدُوقٌ اخْتَلَطَ بِأَخْوَازِهِ وَالتَّرْمِذِيُّ يُحَسِّنُ لَهُ.

وروى الطبراني عن ذي مخبر، وهو بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الموحدة وقيل بدلها ميم، وهو ابن أخي النجاشي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل أطلع إلى أهل المدينة وهي بطحاء قبل أن تعمّر، ليس فيها مدبرة ولا وبرّة، فقال: «يَا أَهْلَ يَثْرِبِ إِنِّي مُشْتَرِطٌ عَلَيْكُمْ ثَلَاثًا، وَسَائِقٌ إِلَيْكُمْ مِنْ كُلِّ الثُّمَرَاتِ: لَا تَعْصِي وَلَا تَعْلِي وَلَا تَكْبِرِي، فَإِنْ فَعَلْتِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ تَرَكْتُكَ كَالْجُزُورِ لَا يَمْنَعُ مِنْ أَكْلِهِ»^(١). وقيل: أَوَّلُ مَنْ عَمَّرَ بِهَا الدُّورَ وَالْأَطَامَ، وَزَرَعَ وَغَرَسَ، الْعَمَالِيقُ بَنُو عِمْلَاقَ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ، وَأَخَذُوا مَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ وَالْحِجَازَ إِلَى الشَّامِ وَمِصْرَ، وَمِنْهُمْ الْجَبَابِرَةُ وَالْفِرَاعَنَةُ.

وقال أبو الثؤثير الشُّرْقِيُّ بْنُ الْقِطَامِيِّ: سَمِعْتُ حَدِيثَ تَأْسِيسِ الْمَدِينَةِ مِنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ الْغَسِيلِ، وَسَمِعْتُ أَيْضاً بَعْضَ ذَلِكَ مِنْ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، فَجَمَعْتُ حَدِيثَهُمَا لِكَثْرَةِ اتِّفَاقِهِ وَقِلَّةِ اخْتِلَافِهِ، قَالَا: «بَلَّغْنَا أَنَّهُ لَمَّا حَجَّ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَجَّ مَعَهُ أَنَاثُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا كَانَ فِي انْصِرَافِهِمْ أَتَوْا عَلَى

(١) ذكر الهيثمي في المجمع ٣/٣٠٢ وعزاه للطبراني في الكبير وقال: وفيه سعيد بن سنان والشامي وهو ضعيف وذكره المتقي الهندي في الكنز ١١/٣٤٩.

المدينة فَرَأَوْا مَوْضِعَهَا صِفَةً بَلَدٍ نَبِيٍّ يَجِدُونَ وَصْفَهُ فِي التَّوْرَةِ بِأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فاشتورت طائفة منهم على أَنْ يَتَخَلَّفُوا بِهِ، فَنَزَلُوا فِي مَوْضِعِ سَوَاقِ بَنِي قَيْثَقَاعَ، ثُمَّ تَأَلَّفَتْ إِلَيْهِمْ أَنْاسٌ مِنَ الْعَرَبِ فَرَجَعُوا إِلَى دِينِهِمْ، فَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ سَكَنَ مَوْضِعَ الْمَدِينَةِ. وَيُذَكَّرُ أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْعَمَالِقَةِ سَكَنُوهُ قَبْلَهُمْ.

وروى أَبُو نُعَيْمٍ وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ ظَهْوَرٍ بِخَتْنَصْرٍ عَلَيْهِمْ وَفُرْقَتِهِمْ وَذَلَّتْهُمْ تَفَرُّقُوا، وَكَانُوا يَجِدُونَ مُحَمَّدًا ﷺ مَنُتَوِّتًا فِي كِتَابِهِمْ، وَأَنَّهُ يَظْهَرُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْقُرَى الْعَرَبِيَّةِ فِي قَرْيَةِ ذَاتِ نَحْلٍ، وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ كَانُوا يَعْجُزُونَ كُلَّ قَرْيَةٍ مِنْ تِلْكَ الْقُرَى الْعَرَبِيَّةِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْيَمَنِ يَجِدُونَ نَعْتَهَا نَعْتٌ يَثْرِبُ فَيَنْزِلُ بِهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يَلْقَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَيَتَّبِعُوهُ حَتَّى نَزَلَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي هَارُونَ مِمَّنْ حَمَلَ التَّوْرَةَ إِلَى يَثْرِبَ، فَمَاتَ أُولَئِكَ الْآبَاءُ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَيُحْتَوُونَ أَبْنَاءَهُمْ عَلَى اتِّبَاعِهِ، فَأَدْرَكَهُ مِنْ أَبْنَائِهِمْ، فَكَفَرُوا بِهِ وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ لِحَسَنِهِمُ الْأَنْصَارِ حَيْثُ سَبَقُوهُمُ إِلَيْهِ.

وروى الزبير بن بكار عن عثمان بن عبد الرحمن التيمي وغيره من أهل المدينة قالوا: «كَانَ بِالْمَدِينَةِ فِي سَالِفِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَقَالُ لَهُمْ: صَعْلٌ وَفَالِجٌ، فَغَزَاهُمْ دَاوُدُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَخَذَ مِنْهُمْ مِائَةَ أَلْفِ عَدْرَاءَ، قَالُوا: وَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدُّودَ فِي أَعْنَاقِهِمْ فَهَلِكُوا. وَلَمْ تَزَلِ الْيَهُودُ ظَاهِرِينَ عَلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى كَانَ سَيْلُ الْعَرِمِ. قَالَ الْمُفْسِّرُونَ: كَانَتْ أَرْضُ سَبَأَ الْمُغَنِيَّةِ يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَزَبَّ عَفُورٌ﴾ [سبأ ١٥] أَحْصَبَ بِلَادَ اللَّهِ لَمْ تَكُنْ سَبْخَةً وَقِيلَ: لَمْ يَكُنْ فِيهَا بَعُوضٌ وَلَا ذَبَابٌ وَلَا بَرْعُوثٌ وَلَا عَقْرَبٌ. وَلَا حَيَّةٌ، وَيَمُ الْغَرِيبُ بِوَادِيهِمْ وَفِي ثِيَابِهِ الْقَمَلُ فَيَمُوتُ، وَتَخْرُجُ الْمَرْأَةُ وَعَلَى رَأْسِهَا مِكْتَلُهَا فَتَعْمَلُ بِمِغْزَلِهَا وَتَسِيرُ بَيْنَ ذَلِكَ الشَّجَرِ فَيَمُوتُ مَا يَتَسَاقَطُ مِنَ الثَّمَرِ، وَكَانَ طَوْلُ بِلَادِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ لِلرَّاكِبِ الْمَحْجَدِ وَكَذَلِكَ عَرَضُهَا، وَأَهْلُهَا فِي غَايَةِ الْكَثَرَةِ مَعَ اجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ وَالْقُوَّةِ. وَكَانُوا كَمَا قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ خَبَرِهِمْ يَقُولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ ١٨] أَيْ يُزِي بِغَضَبِهَا مِنْ بَعْضِ لَتَقَارِبِهَا فَكَانُوا آمِنِينَ فِي بِلَادِهِمْ، تَخْرُجُ الْمَرْأَةُ لَا تَتَزَوَّدُ شَيْئًا تَبِيْتُ فِي قَرْيَةٍ وَتَقِيلُ فِي أُخْرَى حَتَّى تَأْتِيَ الشَّامَ. فَبَطَرُوا النِّعْمَةَ ﴿فَقَالُوا زَنَّا بَعِيدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، أَيْ بِمَفَاوِزِ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَ الشَّامِ يَرَكِبُونَ فِيهَا الرِّوَاحِلَ، فَتَعَجَّلَ اللَّهُ لَهُمُ الْإِجَابَةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿فَجَعَلْنَا هُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ ١٩].

«وَكَانُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى مَاءٍ وَادِيهِمْ فَأَمَرَتْ بَلْقِيسُ بِوَادِيهِمْ فَشَدَّ بِالْعَرِمِ وَهُوَ الْمُسْتَأْةُ بِلُغَةِ حِمْيَرٍ، فَسَدَّتْ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ بِالصُّخْرِ وَالْقَارِ، وَجَعَلَتْ لَهُ أَبْوَابًا ثَلَاثَةً بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَبَنَتْ مِنْ

دونه يزكة ضخمه، وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدة أنهار يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغنوا سدوها، فإذا جاء ماء المطر اجتمع إليه ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد، فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه في الزكة، فكانوا يستقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث فلا ينقذ الماء حتى يرجع الماء من السنة المقبلة، فكان السيل يأتيهم من مسيرة عشرة أيام حتى يستقر في واديهم فيجتمع الماء من تلك السيول والجبال في ذلك الوادي. وكان السد فرسخاً في فرسخ بناه لقمان الأكبر العادي وقيل سبأ بن يشجب، ومات قبل إكماله فأكماله ملوك حمير.

«وكان أولاد حمير بن سبأ وأولاد كهلان بن سبأ سادة اليمن في ذلك الزمان وكان كبيرهم عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء، وكانت زوجة عمرو يقال لها طريفة، من حمير وكانت كاهنة، فولدت له ثلاثة عشر ولداً: ثعلبة أبو الأوس والخزرج، وحارثة والد خزاعة، وجفنة والد غسان - وقيل فيهم غير ذلك - وولدت له وداعة وأبا حارثة والحارث وعوفاً وكعباً ومالكاً وعمراً هؤلاء أعقبوا كلهم والثلاثة الباقيون لم يعقبوا. وكان لعمرو مزيقياء من القصور والأموال ما لم يكن لأحد فرأى أخوه عمران وكان كاهناً أن قومه سيَمزقون وتخرَّب بلادهم فذكره لعمرو. ثم أن طريفة الكاهنة سَجعت له بما يدل على ذلك فقال: وما علامته؟ قالت: إذا رأيت جُرذاً يُكَيِّر في السد الحفر، ويُقلب منه بيديه الصخر فاعلم أن قد وَقَعَ الأمر».

«فلما غَضِبَ الله تعالى عليهم وأذن في هلاكهم دخل عمرو بن عامر فرأى جُرذاً ثَقُلَ أولادها من بطن الوادي إلى أعلى الجبل فقال: ما ثَقُلَتْ هذه أولادها من ههنا إلا وقد حَضَرَ أهل هذه البلاد عَذَابٌ فخرقت ذلك العرم فَتَقَبَّتْ نَقْباء، فسأل الماء من ذلك الثقب إلى جنبه فأمر بذلك الثقب فَسُدَّ، فأصبح وقد انفجر بأعظم مما كان، فأمر به أيضاً فَسُدَّ، ثم انفجر بأعظم مما كان فلم يترك فُرْجةً بين حَجَرَيْنِ إلا أمر بربط هِرَّةٍ عندها فما زاد الأمر إلا شِدَّةً، وكان الجُرذ يُقلب بيديه ورجليه الصخرة ما يُقلبها خمسون رجلاً. فلما رأى ذلك دعا ابن أخيه فقال: إذا جَلَسْتُ العشيَّة في نادي قومي فَأَتِينِي فَقُلْ: عَلَامَ تَجْلِس على مالي؟ فَإِنِي سأقول لك: ليس لك عندي مال ولا ترك أبوك شيئاً وإنك كاذب. فإن كَذَّبْتُكَ فَكَذِّبْنِي وازدُدْ عَلَيَّ مِثْلَ ما قُلْتُ لك، فإذا فعلت ذلك فَإِنِي سَأَشْتُمُكَ إذا أنت سَتَمْتَنِي وإن أنا لَطَمْتُكَ فالطمني. قال: ما كنت لأستقبلك بذلك يا عَم. قال: بلى فافعل فَإِنِي أريد بذلك صلاحك وصلاح أهل بيتك. فقال الفتى: نعم، حيث عرف رأي عمرو. فجاء، فقال ما أَمَرَهُ به حتى لَطَمَهُ فتناول الفتى عَمَّهُ فطممه. فقال الشيخ: «يا مَعَشَر بني فلان أَلَطُم فيكم؟ لا سَكَنْتُ في بَلَدٍ لطمني فيه فلان أبداً، من يبتاع مني؟» فلما عرف القوم منه الجِدَّ أَعْطَوْهُ، فنظر إلى أفضلهم عَطِيَّةً فأوجب له البيع،

في بدء شأنها

فدعا بالمال، فَتَقَدَّه. وَتَحَمَّلَ هو وبنوه من ليلته، وفي رواية: أَنَّ التَّمَنَ لَمَّا صَارَ فِي يَدِهِ قَالَ: أَيُّ قَوْمٍ إِنْ الْعَذَابَ قَدْ أَظْلَمَكُمْ، وَزَوَالَ أَفْرَكُكُمْ قَدْ دَنَا فَمِنْ أَرَادَ مِنْكُمْ مَنَزِلًا جَدِيدًا وَجَمَلًا شَدِيدًا وَسَفَرًا بَعِيدًا فَلْيَلْحَقْ بِعُمَانَ، وَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ الْعَجْمَ وَالْحَمِيرَ وَالِدِيَابِجَ وَالْحَرِيرَ، وَالْأَمَرَ وَالنَّامِيرَ فَلْيَلْحَقْ بِبُصْرَى وَسَدِيرٍ وَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ الرِّاسِيخَاتِ فِي الْوَحْلِ الْمُطْبَعَمَاتِ فِي الْمَخْلِ، الْمُقِيمَاتِ فِي الضَّخْلِ فَلْيَلْحَقْ بِبَثْرِبِ ذَاتِ النَّخْلِ، فَخَرَجَ أَهْلُ عُمَانَ إِلَى عُمَانَ، وَخَرَجَتْ عُمَانُ إِلَى بُصْرَى، وَخَرَجَتْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ وَبَنُو كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ يَثْرِبَ، فَلَمَّا كَانُوا بِبَطْنِ مَرْقَالِ بْنِ كَعْبٍ: هَذَا مَكَانٌ صَالِحٌ لَا نَبْغِي بِهِ بَدَلًا، فَلِذَلِكَ سَمَوْا خَزَاعَةَ لِأَنَّهُمْ انْخَزَعُوا عَنْ أَصْحَابِهِمْ، وَأَقْبَلَتْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى نَزَلُوا بِبَثْرِبَ.

«ولما أراد الله ما أراد من تفريق من بقي وخراب بلادهم أقبلت فأرة حمراء إلى هرة من تلك الهرة فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة، فدخلت الفأرة في الفرجة التي كانت عندها فتغلغلت بالسند فحفرت فيه حتى وهنته للسيل وهم لا يدرون، فلما جاء السيل وجد خلأه فدخل فيه حتى قلع السند وفاض من الماء على الأموال فاحتملها، فلم يبق منها إلا ما ذكر الله تعالى».

«ولما قَدِمَتِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ الْمَدِينَةَ تَفَرَّقُوا فِي عَالِيَتِهَا وَسَافَلَتِهَا وَمِنْهُمْ مَنْ نَزَلَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي قُرَاهِمَ وَمِنْهُمْ مَنْ نَزَلَ وَحْدَهُ لَا مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا مَعَ الْعَرَبِ الَّذِينَ تَأَلَّفُوا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَتِ الثَّرْوَةُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَهُمْ قُرَى عَمَرُوا بِهَا الْآطَامَ. فَمَكَثَتِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ سَأَلُوا الْيَهُودَ فِي أَنْ يَعْقِدُوا بَيْنَهُمْ جَوَارًا وَجِلْفًا يَأْمَنُ بِهِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَيَمْتَنِعُونَ بِهِ مِنْ سَوَاهِمَ، فَتَحَالَفُوا وَتَعَاقدُوا وَاشْتَرَكُوا وَتَعَامَلُوا فَلَمْ يَزَالُوا عَلَى ذَلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا، وَأَمَرَتْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، وَصَارَ لَهُمْ مَالٌ وَعَدَدٌ، فَخَافَتْ قَرْيَةُ النَّضِيرِ أَنْ يَغْلِبُوهُمْ عَلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَتَنَمَّرُوا لَهُمْ حَتَّى قَطَعُوا الْجِلْفَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ فَأَقَامَتِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي مَنَازِلِهِمْ خَائِفِينَ أَنْ يُجْلِبِيَهُمُ يَهُودٌ، حَتَّى نَجَمَ مِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ الْعَجْلَانِ، أَخُو بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ وَسُودَةُ الْكَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ».

«وكان ملك اليهود الفطيتون شرط ألا تُهْدَى عروس إلى زوجها حتى تدخل عليه، فلما سكن الأوس والخزرج المدينة أراد أن يسير فيهم بتلك السيرة. فنزوت أخت مالك بن العجلان رجلاً من بني سالم، فأرسل الفطيتون رسولا في ذلك، وكان مالك غائبا، فخرجت أخته في طلبه، فموت به في قوم، فنادته، فقال: لقد جئت بشبة، ثندينني ولا تستحي. فقالت: إن الذي يُراد بي أكبر، فأخبرته. فقال لها: أكفيلك ذلك. فقالت: وكيف؟ فقال: أتزني يزي النساء وأدخل مملك عليه بالسيف، فأقتله. ففعل. ثم خرج حتى قدم الشام على أبي بجيلة،

وكان نزلها حين نزلوا هم بالمدينة فَجَيْشٌ جيشاً عظيماً وأقبل كأنه يريد اليمَن، واختفى معهم مالك بن العجلان، فجاء فنزل بذِي حُرْض، وأرسل إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فَأَتُوا إليه فوصلهم ثم أرسل إلى بني إسرائيل وقال: من أراد الحِجَاء من الملك فليخرج إليه مخافة أن يتحصنوا في الحصون فلا يُقَدِّر عليهم فخرج إليه أَشْرَافُهُمْ، فَأَمَرَ لَهُمْ بطعام حتى اجتمعوا فقتلهم فصار الأوس والخزرج أَعَزُّ أَهْلَ المدينة.

تنبيه: في بيان غريب ما سبق

«حَفَّهَا»: أَحْدَقَ بها.

«الرَّيْبُدَةُ»^(١): بفتحين: الرَّغْوَةُ.

«البَطْحاء»: الأرض المتسعة.

«مَدْرَة»: جَمْعُهَا مَدَرٌ، مثل قَصَبَةٍ وقصب قال الأزهري: المَدَرُ قِطْعُ الطين.

«المِكَتَلُ»^(٢): بكسر الميم وسكون الكاف وفتح المثناة الفوقية: الزُّبَيْل.

«صَغَلٌ»: بصاد فَعَيْنٍ مهملتين فلام.

«فَالِجٌ»: بالجيم.

«المُسْنَاءة»: حائط يبنى في وجه الماء ويسمى السَّدُّ.

«العَرِمُ»: جمع عَرِمَةٍ.

«السُّكْرُ»: بفتح السين المهملة وسكون الكاف: أي السَّدُّ الذي يحبس الماء، قال ابن

الأعرابي: السَّيْلُ الذي لا يُطَاق وقيل العَرِمُ الوادي وأصله من العرامة وهي الشَّدَّة والقوة.

«الطُّبْحُلُ»^(٣): بالضاد المعجمة والحاء المهملة الساكنة: القليل من الماء وقيل الماء

القريب:

«الفِطْيُونُ»: [بكسر الفاء وإسكان الطاء المهملة ثم مثناة تحتية مفتوحة وواو ساكنة فنون.

والفطيون هو الذي تَمَلَّكَ بيثرِب].

(١) انظر المفردات في غريب القرآن ٢١١.

(٢) انظر اللسان ٣٨٢٢/٥.

(٣) انظر اللسان ٢٥٥٩/٤.

الباب الثاني

في أسماء المدينة مرتبة على حروف المعجم

الأول فالأول مستقصاة لأن كثرة الأسماء تدل على شرف المُسَمَّى، فما ذكره، الرُّزْكَشِي في الإعلام، وصاحب القاموس في غيره، والسيد في تاريخه بلغ بها خمسة وتسعين اسماً وهي:

- «أثرب»: بالفتح وإسكان المثلثة وكسر الراء فموحدة، لُعَّةٌ في يَثْرِب، اسم من سكنها أولاً، سُمِّيَتْ به أرض المدينة كلها عند أبي عُبَيْدَةَ أو هي فقط عند ابن عباس أو ناحية منها. وعلى الثالث إطلاقه على المدينة مع ذلك صحيح ثابت إما وَضْعاً لها أو من إطلاق اسم البعض على الكل أو المشتهر من باب عكسه، وورد النُّهْي عن تسميتها بذلك كما سيأتي.

- «أرض الله»: لقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء ٩٧] قال جماعة: المراد المدينة، وفي هذه الإضافة من مزيد التعظيم ما لا يَحْفَى.

«أرض الهجرة»: لحديث فيه [المدينة قبة الإسلام].

- «أكالة البلدان»: لتسلطها على جميع الأمصار وارتفاعها على سائر بلدان الأقطار وافتتاحها منها على أيدي أهلها فغنموها وأكلوها.

- «أكالة القرى»: لحديث «أُمِرْتُ بِقَرِيَّةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى»^(١).

«الإيمان»: لقوله تعالى في الأنصار. ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر ٩] قال عثمان بن عبد الرحمن وعبد الله بن جَعْفَر: «سَمَّى الله تعالى المدينة الدَّارَ وَالْإِيمَانَ»، رواه محمد بن الحسن المخزومي عنهما. وابن شُبَّة عن الثاني. وقال البيضاوي: «سَمَّى الله المدينة بالإيمان لأنها مظهره ومصيره». وعن أَنَس بن مالك [أَن مَلِك] الإيمان قال: «أنا أسكن المدينة»، فقال [مَلِك] الحياء: «وأنا معك»، رواه الدينوري في كتابه الْمُجَالَسَة.

- «البازة»: بتشديد الراء.

- «البزة»: بالتشديد أيضاً لكثرة يَرْبُها لأهلها خصوصاً ولجميع العالم عموماً، لأنها منبع الفيض والبركات.

- «البخرة»: بالفتح وسكون المهملة.

- «البخيرة»: تصغير ما قبله.

(١) أخرجه البخاري (١٨٧١) ومسلم في كتاب الحج (٤٨٨) وأحمد في المسند ٢٣٧/٢ ومالك في الموطأ (٨٨٧).

- «البَحِيرَة»: بالفتح والكسر: نقل الزركشي الثلاثة في الإعلام عن منتخب كُزَاع، ونقل غَيْرُهُ الْأَوَّلَيْنِ عن معجم ياقوت، والاستبحار السعة لأنها بُمُتْسَع من الأرض ولقول سعد بن عُباد: ولقد اصطَلَحَ أَهْلُ هذه الْبَحِيرَة - بالتصغير - على أَنْ يعصبوه بِالْعَصَابَة فلما رَدَّ اللَّهُ ذلك بالحق الذي أَعْطَاكَ شَرِقَ بذلك، ويقال «الْبَحْر» أيضاً بغير تاء، سَاكِن الحاء وَأَصْلُهُ الْقُرَى وكل قرية بَحْرَة.

- «الْبَلَّاطُ»: بفتح الموحدة، نُقِلَ عن [كتاب: لَيْسَ] لابن خالويه وهو لُغَة الحجارة المفروشة [التي تُفَرَش على الأرض، والأرض المفروشة بها، والمستوية الملساء فكأنها] سُمِّيَتْ به لكثرة فيها أو لاشتغالها على موضع تُعْرَف به.

- «الْبَلَدُ»: قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد ١]: قيل: المدينة وقيل: مكة وَرَجَّحه القاضي، لكن السورة مكية والبلد لغة صَدْرُ الْقُرَى. قال الواسطي فيما نقله عن القاضي: «أَيَّ يَخْلِفُ لَكَ رَبُّكَ بهذا الْبَلَدِ الذي شَرَفْتَهُ بمكانك فيه حَيًّا وَبِرَكَتِكَ مَيَّتًا»، يعني المدينة.

- «بلد رسول الله ﷺ»: روى الْبَزَّاز عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيَاطِينَ قَدْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ يُقْبَلُ بِلَدِي»، هذا يعني المدينة وجزيرة العرب، «ولكن في التحريش بينهم»^(١).

- «بيت رسول الله ﷺ»: قال تعالى ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾: أي من المدينة لاختصاصها به اختصاص الْبَيْتِ بساكنه، أو المراد: بَيْتُهُ بها.

- «قَنْدَرْدُ»: بمثناة فوقية فنون وإهمال الدالَّين، كَجَفَرٍ.

- «قَنْدَرُ»: براء بَدَل الدال الأخيرة مما قبله كما سيأتي في «يَنْدَرُ» بالتحية.

- «الجَابِرَة»: ذُكِرَ في حديث للمدينة عَشْرَةُ أَسمَاء، سميت بها لأنها تَجْبُرُ الْكَسِيرَ وَتُغْنِي الْفَقِيرَ على الإِذْعَان لمطالعة بركاتها وشهود آياتها ولأنها جبرت البلاد على الإسلام.

- «جَبَّارٌ» كَحَذَامٍ رواه ابنُ شَيْبَةَ بدل الجابرة في حديثه المذكور.

- «الجَبَّارَة»: نُقِلَ عن التوراة.

- «جزيرة العرب»: لقول بعضهم إنها المرادة من الحديث: «أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٢/٣ وعزاه للبراز وقال: فيه السكن بن هارون الباهلي ولم أجد من ترجمه.

في أسماء المدينة

جزيرة العرب»، وفي حديث ابن عباس: «خرجت مع رسول الله ﷺ من المدينة فالتفت إليها وقال: «إن الله برأ هذه الجزيرة من الشرك»، رواه أبو يعلى والبخاري والطبراني.

- «الجُنة الحصينة»: بضم الجيم وهي الوقاية، أخذاً من قوله ﷺ في غزوة أُحُد: «أنا في جُنَّة حصينة»^(١) - يعني المدينة - «دعوهم يدخلون نقاتلهم».

- «الحبية»: لحبه ﷺ لها ودعائه لها.

- «الحَرَم»: بالفتح [بمعنى الحرام لتحريمها، وفي الحديث: «المدينة حَرَم»]^(٢)، وفي رواية أنها: «حَرَم آمن».

- «حرم رسول الله»: ﷺ لأنه الذي حرَّمها، وفي الحديث: «من أخاف أهلَ حَرَمي أخافه الله»، وفي حديث آخر: حَرَم إبراهيم مكة وحَرَمي المدينة»، رواه الطبراني.

- «حَسَنَة»: بلفظ مقابل السيئة، وقال تعالى: ﴿لَتُبَوَّأَنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل ٤١] أي مَبَاءةٌ حسنة وهي المدينة، وقيل: هو اسمها لاشتغالها على الحسن الحسني والمعنوي، نقله الإمام فخر الدين الرازي.

- «الخَيْرَة»: بالتشديد.

- «الخَيْرَة» بالتخفيف تقول: امرأةٌ خَيْرَة وخَيْرَة بمعنى كثيرة الخير، وإذا أردت التفضيل قلت: فلان خَيْرُ الناس، وفي الحديث: «والمدينة خَيْرُ لهم لو كانوا يعلمون».

- «الدَّار»: لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ على ما سبق في الإيمان سميت به لأمنها والاستقرار بها وجمعها البناء والعَرْصَة.

- «دار الأبرار».

- «دار المختار»: لأنها دار المصطفى المختار والمهاجرين والأنصار، ولأنها تُنْفِي شرارها، ومن أقام بها منهم فليست في الحقيقة له بدار، وربما نُقِلَ منها بعد الإقبار.

«دار الإيمان»: روى الطبراني بسند لا بأس به عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة قُبَّةُ الإسلام ودار الإيمان وأرض الهجرة ومبوء الحلال والحرام»، وروى الشيخان عن أبي هريرة، والبخاري عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الإيمان ليأرُز إلى المدينة كما تأرُز الحَيَّة إلى جُحرها»، تأرُز بفتح أوله وسكون الهمزة وكسر الراء - وقد تُضَم -

(١) ذكره السيوطي في الدر ٩٤/٢ وعُزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩/٣ (١٨٦٧).

بعدها زاي، أي أنها كما تخرج في طلب ما تعيش به فإذا راعها شيء رجعت إلى جحرها كذلك الإيمان انتشر في المدينة، فكل مؤمن، له من نفسه شائق إلى المدينة لمحبه في النبي ﷺ.

— «دار الشئنة».

— «دار السلامة».

— «دار الفتح»: ففي الصحيح قول عبد الرحمن بن عوف لعمر رضي الله عنهما: «حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة» - وفي رواية الكشميهني أحد رواة البخاري - «والسلامة، وقد فتحت منها مكة وسائر الأمصار وإليها هجرة المختار ومنها انتشرت الشئنة في الأقطار».

— «الدُّرْعُ الحَصِينَةُ»: لحديث أحمد برجال الصحيح: «رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعِ حَصِينَةٍ، فَأَوَّلْتُ الدُّرْعَ الحَصِينَةَ المَدِينَةَ».

— «ذات الحُجْر»: بضم الحاء المهملة وفتح الجيم لاشتغالها عليها.

— «ذات الحِجْرَان»: بكسر الحاء وراءين مهملات، جمع حِجْرَة بفتح الحاء وهي الحِجَارَة الشود لكثرتها بها.

— «ذات النَّخْل»: لوصفها بذلك/ ولما قبله في خَيْرِ خُتَايَرٍ مَعَ زَيْتِهِ، وفي سَجْعِ عِمْرَانَ بن عامر: فليحق بيشرب ذات النَّخْل، وفي الحديث: «أَرَيْتَ دَارَ هَجْرَتِي ذَاتَ نَخْلٍ وَحَرَّةٍ».

— «السِّلْقَة»^(١): ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الأَقْشَهْرِي في أسمائها المنقولة عن التوراة، وهو محتمل، والسِّلْقَة بفتح اللام وكسرهما إذ السِّلْقُ بالتحريك القاع الصفصف والسلاق البليغ، وربما قيل للمرأة السِّلْقَة بالكسر، وسَلَقَتِ الْبَيْضَ سَلْقًا أَغْلِيته بالنار. فسميت المدينة به لاتساعها وتباعد جبالها أو لتسلطها على البلاد فَتْحًا أو لِأَوَائِهَا وَشِدَّةِ حَرْهَا وما كان بها من الحُمَى.

— «الشَّافِيَة»: لحديث، «تُرَائِهَا شَفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ»، وَلَمَّا صَحَّ فِي غِبَارِهَا. وذكر ابن مُسَيَّدِي: الاستشفاء من الحُمَى بكتابة أسمائها وتعليقها على المعحوم، وسيأتي أنها تُنْفِي الذنوب فتشفي من دائها.

(١) السِّلْق: الواسع من الطرق والقاع المُطْمَئِن من الأرض المستوي لا نبات فيه والجمع أسلاق وسليقان. انظر المعجم الوسيط ٤٤٧/١.

- «طَابَة»: كشامة، روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى سَمَّى المدينة طابة»^(١).

- «طَيْبَة»: بسكون المثناة التحتية كهَيْبَة وعَيْبَة.

- «طَيْبَة»: بتشديد المثناة التحتية.

- «طَائِب»: ككاتب، وهذه الأربعة مع اسمها الْمُطَيَّبَة أخوات لفظاً ومعنى، مختلفات صِيغَةً وَمَبْنًى. وفي الحديث: «للمدينة عشرة أسماء هي المدينة وطَيْبَة وطابة»، وعن وهب بن مُثَنَّب: «إن اسمها في كتاب الله - يعني التوراة - طَيْبَة وطابة». ونقل عن التوراة أيضاً تسميتها بِالطَّيْبَة وكذلك الْمُطَيَّبَة. وتسميتها بهذه الأسماء إما من الطَّيِّب بتشديد المثناة وهو الطاهر لطهارتها من أدناس الشُّرك، أو لحلول الطَّيِّب بها ﷺ، أو لكونها كالكبير تنفي خَبْثَهَا وَيُضَعِّغُ طَيِّبَهَا. قال الإشبيلي: «لِتُرْوَيْ المدينة نَفْحَةً ليس طَيِّبَهَا كما عُهِد من الطَّيِّب بل هو أعجب من الأعاجيب». قال بعض أهل العلم: «وفي طيب تُزَابِهَا وهوائها دليلٌ شاهد على صِحَّة هذه التسمية، لأن من أقام بها يجد من تُزَابِهَا وحيطانها رائحة طيبة لا تكاد توجد في غيرها».

- «طَبَايا»: ذكره ياقوت وهو بكسر المهملة يعني القطعة المستطيلة من الأرض أو بفتح المعجمة طَبَايا من طَبَّ، وطمبظ إذا حُمَّ لما كان بها من الخُمَّى.

«العاصِمة»: لعصمتها للمهاجرين من المشركين ولأنها الدُّرْع الحصينة، أو هي بمعنى المعصومة فلا يدخلها الدُّجَال ولا الطاعون ومن أرادها بسوء أذابه الله.

- «الْعَذْرَاء»: بالمهملة فالمعجمة، تُقَالُ عن التوراة لصعوبتها وامتناعها على الأعداء حتى تسلمها مالِكها الحقيقي سيد الأنام ﷺ.

- «الْعَرَاء»: بإهمال أوله وثانيه، قال أئمة اللغة: الْعَرَاء الجارية العذراء كأنها شُبِّهَتْ بالناقة العراء التي لا سَنَام لها أو صَغُر سَنَامُهَا كَصَغُر نهد العذراء فيجوز أن تكون تسمية المدينة بذلك لعدم ارتفاع أبينتها في السماء.

- «الْعَرُوض»: بعين مهملة فراء فواو فضاء معجمة كصبور وقيل: هو اسم لها ولما حولها لانخفاض مواضع منها ومسائل أودية فيها، أو لأنها من نجد على خط مستقيم طولاً، والمدينة معترضة عنها ناحية.

- «الغُرَاء»: بالغين المعجمة تَأْنِيثُ الْأَعْرَ ذِي الْغُرَّة والبياض في مُقَدِّم الوجه والغُرَّة أيضاً خيار كل شيء وَغُرَّة الْإِنْسَان وَجْهُهُ وَالْأَعْرَ الْأَبْيَض من كل شيء، والذي أَخَذَت اللَّحْيَة جميع

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج (٤٩١) وأحمد في المسند ٩٤/٥ وابن أبي شيبه في المصنف ١٧٩/١٢.

وجهه إلا القليل، والرجل الكريم، واليوم الشديد الحرّ. والغزاة نبت طيب الرائحة، والسيدة الكبيرة. فسميت المدينة بذلك لأنها سادت على القرى، وطاب ريحها في الورى، وأكرم أهلها وكثر غرسها وانبض نورها وسطع ضياؤها.

— «غلبّة»: محرّكة بمعنى الغلب لظهورها على البلاد، وكانت في الجاهلية تدعى «غلبّة»: نزلت يهود بها على العماليق فغلبتهم عليها، ونزلت الأوس والخزرج على يهود فغلبوهم عليها، ونزل المهاجرون على الأوس والخزرج فغلبوهم عليها، ونزل الأعاجم على المهاجرين فغلبوهم عليها.

— «الفاضحة»: بالفاء وضاد معجمة وحاء مهملة، نُقِلَ عن كُراع: إذ لا يُضْمِرُ بها أحدٌ عقيدةً فاسدةً أو يُعْطِنُ أمراً إلا ظهر عليه واقتضبح به، وهو معنًى كونها تنفي خبثها.

— «القاصمة»: بقاف وصاد مهملة. نُقِلَ عن التوراة لقضيها كُلَّ جَبَّارٍ عنها وكسر كل مُتَمَرِّدٍ أتاها، ومن أرادها بسوء أذابه الله.

— «قُبّة الإسلام»: لحديث «المدينة قُبّة الإسلام».

— «قرية الأنصار»: وتقدّم الكلام على الأنصار.

— «قرية رسول الله ﷺ»: لحديث الطبراني رجال ثقات: «ثم يسير - يعني الدُّجَال - حتى يأتي المدينة ولا يؤذَنُ له فيها فيقول: هذه قرية ذاك الرجل»، يَعْنِي النبي ﷺ.

— «قلب الإيمان»: أورده ابن الجوزي في حديث: «المدينة قُبّة الإسلام».

— «المؤمّنة»: لتصديقها بالله تعالى حقيقةً لِخَلْقِهِ قابلية ذلك فيها كما في تسبيح الخصى، أو مجازاً لاتصاف أهلها بالإيمان وانتشاره منها واشتمالها على أوصاف المؤمن أو لإدخالها أهلها في الأمن من الأعداء والطاعون والدُّجَال. وقد روي في حديث: «والذي نفسي بيده إن تربتها لمؤمنة»، وروى في آخر: «إنها لمكتوبة في التوراة مؤمنة».

— «المباركة»: لأن الله تعالى بارك فيها بدعائه ﷺ وحلوله بها.

— «مبوء الحلال والحرام»: رواه الطبراني في حديث: «المدينة قُبّة الإسلام»^(١)، والتَّبَوُّء التَّمَكُّن والاستقرار، سُمِّيَتْ به لأنها محلّ تمكّن هذين الحكمين واستقرارهما.

— «مُبيّن الحلال والحرام»: رواه ابن الجوزي وغيره بدل الذي قبله في الحديث المتقدم لأنها محل بيانهما.

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣٠١ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: فيه عيسى بن مينا قالون وحديثه حسن وبقة رجاله ثقات وذكره المتقي الهندي في الكنز (٢/٣٤٨).

- «المَجْبُورَة»: ذُكِرَ في الحديث: «للمدينة عشرة أسماء»، وتُقِلُّ عن الكتب المتقدمة، سُمِّيَتْ به لِجَبْرِهَا بِخِلَاصَةِ الوجود حَيًّا وَمَيِّتًا لِحُكْمِهِ عَلَى سَكَنَاهَا، بعد نقل جَمَاهَا وتكرار دعائه لها.

- «المُحِبَّة»: بضم الميم وبالحاء المهملة وتشديد الموحدة، تُقِلُّ عن الكتب المتقدمة.

- «المُحِبَّة»: بزيادة موحدة على ما قبله.

- «المحوبة»: تُقِلُّ عن الكتب المتقدمة أيضاً، وهذه ثلاثة مع ما تقدم من اسمها الحبيبة من مادة واحدة، وحُجِّه عَلَيْهِ السَّلَامُ لها ودعاؤه به معلوم، وحُجِّه تابع لِحُبِّ رَبِّه.

- «المَحْبُورَة»: من الحَبْر وهو السرور أو من الحَبْرَة بمعنى النعمة أو المبالغة فيما وُصِفَ بِجَمِيلٍ، والمَحْبُور من الأرض السريعة الثَّبات الكثيرة الخيرات.

- «المُحَرَّمَة»: لتحريمها.

- «المحروسة»: لحديث: «المدينة مشتبكة بالملائكة على كل نقب منها مَلَكٌ يحرسها»، رواه الجعدي.

- «المَحْفُورَة»: لأنها حُقِّقَتْ بالبركات وملائكة السموات، وفي خَبَرٍ: «تأتي مكة والمدينة محفوفتان بالملائكة»^(١).

- «المَحْفُورَة»: لحفظها من الطاعون والدُّجَال وغيرهما، وفي خبر: «الْقُرَى المحفوظة أربع»، وذكر المدينة منها.

- «المُخْتَارَة»: لأن الله تعالى اختارها للمُخْتَار من خَلْقِهِ في حياته ومماته.

- «مُدْخَل صِدْق»: قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء ٨٠] فَمُدْخَل صِدْق المدينة كما تقدم.

- «المدينة»: لتكرره في القرآن وتُقِلُّ عن التوراة، والمدينة من مَدَنَ بالمكان أقام به، أو من دَانَ إِذَا أَطَاع، إِذ يُطَاع السلطان بالمدينة لسُكْنَاهَا بها، وهي أبيات كثيرة تُجَاوِز حَدَّ الْقُرَى ولم تَبْلُغ حَدَّ الْأَمْصَار، وقيل: يُقَالُ لكل مصر، وتُطْلَقُ على أماكن كثيرة، ومع ذلك فهو عَلَمٌ للمدينة النبوية، بحيث إِذَا أُطْلِقَ لا يَتبادر الفَهْمُ إلى غيرها، ولا يُشْتَعْمَلُ فيها إِلَّا المَعْرِفَةُ، أما

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣١٢ بلفظ «المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة وعزاه لأحمد وقال: رجاله ثقات. والحدث أخرجه أحمد ٤٨٣/٢ والبخاري في التاريخ ١٨٠/٦.

- النَّيْكَرة فاسم لكل مدينة، ونسبوا لكل مَدِينِيٍّ، وللمدينة النبوية مَدِينِيٍّ للفرق.
- «مدينة رسول الله ﷺ»: لقوله في حديث الطبراني: «مَنْ أَحَدَثَ فِي مَدِينَتِي هَذِهِ حَدَثًا أَوْ آوَى مُخِدِّثًا فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا غَدْلًا»^(١)، فَأَضَافَهَا إِلَيْهِ لِسُكْنَاهَا بِهَا، وَلَهُ وَلِخَلْفَائِهِ دَانَتْ الْأُمَمُ.
- «الْمَرْحُومَةُ»: نُقِلَ عَنِ التَّوْرَةِ، سُمِّيَتْ بِهِ لِأَنَّهَا دَارُ الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَبِهَا تَنْزِيلُ الرَّحِمَاتِ.
- «المرزوقة»: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَزَقَهَا أَفْضَلَ الْخَلْقِ فَسَكَنَهَا أَوْ الْمَرْزُوقُ أَهْلُهَا، فَفِي الْحَدِيثِ: «لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْهَا إِلَّا أَبَدَلَهَا اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ».
- «مَسْجِدُ الْأَقْصَى»: نَقَلَهُ ابْنُ الْمَلَقَنِ فِي الْإِشَارَاتِ عَنْ صَاحِبِ الْمَطَالَعِ.
- «المسكنية»: نُقِلَ عَنِ التَّوْرَةِ، وَذُكِرَ فِي حَدِيثٍ: «لِلْمَدِينَةِ عَشْرَةُ أَسْمَاءَ»، وَرَوَى الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ قَالَ: «نَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أُتْرِكَ عَلَى مُوسَى أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِلْمَدِينَةِ: «يَا طَيِّبَةُ يَا طَابَةُ يَا مَسْكِينَةُ لَا تَقْبَلِي الْكَنُوزَ أَرْفَعُ أَجَاجِيرَكَ عَلَى أَجَاجِيرِ الْقُرَى»، وَالْأَجَاجِيرُ السُّطُوحُ، وَالْمَسْكِينَةُ الْخُضُوعُ، وَالْخُشُوعُ خَلَقَهُ اللَّهُ فِيهَا، أَوْ هِيَ مَسْكَنُ الْخَاشِعِينَ وَالْخَاضِعِينَ.
- «المُسْلِمَةُ»: كَالْمُؤْمِنَةِ لَخَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا الْإِنْقِيَادَ وَالْإِنْقِطَاعَ لَهُ أَوْ لَانْقِيَادِ أَهْلِهَا وَفَتْحَ بَلَدِهِم بِالْقُرْآنِ. ١
- «مَضْجَعُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»: كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «الْمَدِينَةُ مَهَاجِرِي وَمَضْجَعِي فِي الْأَرْضِ».
- «الْمُطَيِّبَةُ»: بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَفَتْحِ ثَانِيهِ تَقْدِمُ فِي طَيِّبَةٍ.
- «الْمُقَدَّسَةُ»: لِتَنْزَاهِهَا عَنِ الشُّرُوكِ وَكُونِهَا تَنْفِي الذُّنُوبِ.
- «الْمَقَرَّةُ»: بِالْقَافِ كَالْمَقَرِّ مِنَ الْقَرَارِ، نَقَلَهُ السَّيِّدُ مِنْ بَعْضِ كُتُبِ اللُّغَةِ، وَفِي دَعَائِهِ ﷺ لَهَا قَوْلُهُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا بِهَا قَرَارًا وَرِزْقًا حَسَنًا».
- «الْمَكْتَنَانِ»: قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي السَّرْحِ فِي حِصَارِ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَنْصَارُنَا بِالْمَكْتَنَيْنِ قَلِيلٌ». وَقَالَ نَصْرُ بْنُ حُجَّاجٍ بَعْدَ تَقْيِيهِ مِنَ الْمَدِينَةِ:
- فَأَضْبَحْتُ مَنْفِيًّا عَلَى غَيْرِ رِبْتَةٍ وَقَدْ كَانَ لِي بِالْمَكْتَنَيْنِ مُقَامٌ

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣١٠ عن أبي أمامة بن ثعلبة وقال: له في الصحيح حديث في اليمن غير هذا رواه الطبراني في الأوسط.

قال السيد: «والظاهر أن المُرَاد المدينة لأن قصة عثمان ونصر بن خَجَّاج كانتا بها وأطلق ذلك عليها لانتقال أهل مكة أو غالبهم إليها وانضمامهم إلى أهلها». أو أنه من قبيل التغليب والمراد مكة والمدينة.

- «المَكِينَة»: لِتَمَكُّنِهَا فِي الْمَكَانَةِ وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

- «مهاجر رسول الله»: عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْلِهِ «الْمَدِينَةُ مِهَاجِرِي».

- «المَوْفِيَة»: بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ وَتَخْفِيفِهَا لِتَوْفِيتِهَا الْوَافِدِينَ حِشًّا وَمَعْنَى وَأَهْلُهَا الْمَوْفُونَ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ.

- «النَّاجِيَة»: بِالْجِيمِ لِنَجَاتِهَا مِنَ الْعَثَاةِ وَالطَّاعُونَ وَالذُّجَالُ أَوْ لِإِسْرَاعِهَا فِي الْخَيْرَاتِ فَحَازَتْ أَشْرَفَ الْمَخْلُوقَاتِ وَلَارْتِفَاعِ شَأْنِهَا.

- «تَبْلَاءَ»: نُقِلَ مِنْ كِرَاعٍ، قَالَ السَّيِّدُ: وَأُظْهِرَ بِفَتْحِ النُّونِ وَسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ مَاخُذٌ مِنَ الثُّبُلِ بِالضَّمِّ وَالسُّكُونِ وَهُوَ الْفَضْلُ وَاللِّجَابَةُ.

- «النَّخْرُ»: بِفَتْحِ النُّونِ وَسُكُونِ الْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ، سَمِيَتْ بِهِ إِمَّا لِشِدَّةِ خَرْهَا كَمَا يُقَالُ نَخَرُ الظَّهِيرَةِ وَإِمَّا لِإِطْلَاقِ النَّخْرِ عَلَى الْأَصْلِ وَهُمَا أَسَاسُ بِلَادِ الْإِسْلَامِ.

- «الْهَذْرَاءُ»: ذَكَرَهُ ابْنُ التَّجَارِ بَدَلَ الْعَذْرَاءِ نَقْلًا عَنِ التَّوْرَةِ، رُوي بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ وَذَلِكَ لِشِدَّةِ خَرْهَا، يُقَالُ: يَوْمَ هَازَرَ شَدِيدَ الْخَرْ، أَوْ لِكَثْرَةِ مِيَاهِهَا وَأَصْوَاتِ سَوَانِيهَا، وَيُقَالُ هَذَرَ فِي كَلَامِهِ إِذَا أَكْثَرَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِالْمَهْمَلَةِ مِنْ هَذَرَ الْحَمَامِ إِذَا صَوَّتَ، وَالْمَاءُ انْصَبَ وَانْهَمَرَ وَالْعُشْبُ طَالَ، وَأَرْضٌ هَادِرَةٌ: كَثِيرَةُ النَّبَاتِ.

- «يَغْرُبُ»: لُغَةٌ فِي أَثَرِ بٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِيهِ، وَسَتَأْتِي أَحَادِيثُ النَّهْيِ عَنْ تَسْمِيَّتِهَا بِذَلِكَ.

- «يَنْدَدُ»: بِدَالَيْنِ مَهْمَلَتَيْنِ ذَكَرَهُ كِرَاعٌ وَهُوَ إِمَّا مِنَ النَّدِّ وَهُوَ الطَّيِّبُ الْمَعْرُوفُ أَوْ النَّدِّ الثَّلُّ الْمُؤْتَفِعُ أَوْ مِنَ النَّادِ وَهُوَ الرُّزْقُ.

- «يَنْقَدَرُ»: كَحَيْدَرٍ بَرَاءٍ بَدَلَ الدَّالِ الثَّانِيَةِ مِمَّا قَبْلَهُ، كَذَا فِي حَدِيثٍ: «لِلْمَدِينَةِ عَشْرَةُ أَسْمَاءٍ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ، وَفِي بَعْضِهَا الْآخَرُ بِمِثْنَةِ فَوْقِيَّةٍ وَدَالَيْنِ تَنْدَدُ، وَفِي بَعْضِهَا كَذَلِكَ بِفَوْقِيَّةٍ وَدَالٍ وَرَاءَ تَنْدَرٍ، وَصَوَّبَ الْمَجْدُ اللَّغْوِي «يَنْدَدُ» فَقَطَّ بِالتَّحْتِيَّةِ وَدَالَيْنِ، وَفِيهِ نَظَرٌ. وَالحديث رواه ابن زبالة إلا أنه سردها تسعة، ورواه ابن شبة وسردها ثمانية فحذف منه الدار، ثم روي من طريقه أيضاً عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب تسميتها بالدار والإيمان ثم قال: «[وجاء في الحديث الأول ثمانية أسماء وجاء في هذا الحديث اسمان] فالله أعلم أهما تمام

العشرة أم لا». ورواه ابن زبالة كذلك إلا أنه سرد تسعة فزاد اسم «الدار» وأسقط العاشر، ونقل ابن زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردي قال: بلغني أن للمدينة في التوراة أربعين اسماً، انتهى ما ذكره السيد رحمه الله مع زيادات فيه.

وروى الزبير بن بكار عن القاسم بن محمد قال: بلغني أن للمدينة أربعين اسماً. وروى أيضاً عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «للمدينة عشرة أسماء هي: المدينة وطيبة وطابة ومسكينة وجابرة ومجبورة ويثرب والدار». وزوي أيضاً عن إبراهيم بن الحسن قال: «للمدينة في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة وطيبة وطابة والمسكينة والجابرة والمجبورة والمرحومة والعذراء والمحوبة والقاصمة.

الباب الثالث

في النهي عن تسميتها يثرب

روى الإمام أحمد ومالك والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ بِقَرِيَّةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ يَثْرِبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ حَبَثَ الْحَدِيدِ»^(١). وروى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند يجيد عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمَّى الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ فَلَيْسَتْ غُفْرَ اللَّهِ: هِيَ طَابَةٌ هِيَ طَابَةٌ هِيَ طَابَةٌ»^(٢). وروى ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَدْعُوهَا يَثْرِبَ فَإِنَّهَا طَبِيبَةٌ»^(٣)، يعني المدينة، «وَمَنْ قَالَ يَثْرِبَ فَلَيْسَتْ غُفْرَ اللَّهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، هِيَ طَبِيبَةٌ هِيَ طَبِيبَةٌ هِيَ طَبِيبَةٌ». وقال الإمام عيسى بن دينار^(٤): «أَحَدُ أَثْمَةِ الْمَالِكِيَّةِ: «مَنْ سَمَّى الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ، وَبِذَلِكَ جُزِمَ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ الشَّيْخُ كَمَالُ الدَّمِيرِيِّ»^(٥) فِي مَنْظُومَتِهِ فِي كِتَابِ الْحَجِّ حَيْثُ قَالَ:

وَمَنْ دَعَاهَا يَثْرِبًا يَسْتَغْفِرُ فَقَوْلُهُ خَطِيئَةٌ لِيَنْظُرُ

وسبب الكراهة إما لكون ذلك مأخوذاً من الثُّرْبِ بالتحريك وهو الفساد، أو من التشريب وهو المأخذة بالذُّنْبِ. وكان ﷺ يحب الاسم الحسن، ولهذا أسماها طابة وطيبة كما تقدم. وأما تسميتها في القرآن يثرب فذلك حكاية عن قول المنافقين، وأما قوله ﷺ: «فذهب وهلي إلى اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب»، وقوله في حديث آخر: «لَا أَرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ»، فذلك قبل النهي عن تسميتها بذلك.

(١) أخرجه البخاري ٥٠/٣ (١٨٧١) ومسلم في كتاب الحج (٤٨٨) وأحمد في المسند ٢٣٧/٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٨٥/٤ وذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٣/٣ وعزاه لأحمد وأبي يعلى وقال: رجاله ثقات وذكره السيوطي في الدر ١٨٨/٥ وعزاه لأحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ١٨٨/٥ وعزاه لابن مردويه.

(٤) عيسى بن دينار بن واقد الغافقي، أبو عبد الله: فقيه الأندلس في عصره، وأحد علمائها المشهورين. أصله من طليطلة. سكن قرطبة، وقام برحلة في طلب الحديث. وعاد، فكانت الفتيا تدور عليه بالأندلس لا يتقدمه أحد. وكان ورعاً عابداً. توفي ٢١٢ هـ الأعلام ١٠٢/٥.

(٥) ٩٤/٣ محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين: باحث، أديب، من فقهاء الشافعية. من أهل دميرة (بمصر) ولد ونشأ وتوفي سنة ٨٠٨ هـ بالقاهرة. وكانت له في الأزهر حلقة خاصة، وأقام مدة بمكة والمدينة. من كتبه «حياة الحيوان»، و«حواشي الحسان من حياة الحيوان» و«الدباجة» في شرح كتاب ابن ماجه، في الحديث، و«النجم الوهاج» الأعلام ١١٨/٧.

الباب الرابع

في محبته صلى الله عليه وسلم لها ودعائه لها ولأهلها

ورفع الوباء عنها بدعائه صلى الله عليه وسلم

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا قديم من سفر فنظر إلى جذر المدينة، وفي لفظ: دوحاتها، وفي لفظ: درجاتها طرح رداءه عن منكبيه وقال: «هذه أرواح طيبة»، وأوضع راحلته، وإن كان على دابة حركها من حبه، وفي لفظ: «تباشراً بالمدينة» وقال: «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً»^(١). رواه الشيخان والمحامي ومحمد بن الحسن المخزومي. وروى الإمام أحمد والشيخان وابن إسحاق واللفظ له عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لما قديم رسول الله ﷺ المدينة قديمها وهي أربأ أرض الله من الحمى، وكان واديهما يجري نجلاً - يعني ماءً أجناً - فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه». قالت: «فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال مؤلياً أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم، فأذن، فدخلت إليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوباء، فدنوت من أبي بكر فقلت: يا أبت كيف تتجدد؟ فقال:

كُلْ اَمْرِئٌ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ^(٢)

قالت: فقلت: والله ما يذري أبي ما يقول، ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف

تجدد يا عامر؟ فقال:

لَقَدْ وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبَانَ حَثْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

كُلْ اَمْرِئٌ مُجَاهِدٌ بِطَرَفِهِ كَالثَّوْرِ يَحْمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ^(٣)

قالت: فقلت: والله ما يذري عامر ما يقول. قالت: وكان بلال إذا ألق عنه الحمى

اضطجع بفناء البيت ثم يرفع عقيرته ويقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتُنْ لَيْلَةً يَوَادَ وَحَوْلِي إِذْ حُرِّ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْمًا مِثْلَ مَجْنُونٍ وَهَلْ يَبْدُونُ لِي شَأْنَهُ وَطَفِيلُ^(٤)

قالت: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، وما سمعته منهم. قلت: إنهم ليتهدون وما

(١) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٨١٥٧).

(٢) انظر البداية والنهاية ٢٢١/٣.

(٣) انظر البداية والنهاية ٢٢٢/٣.

(٤) انظر البداية والنهاية ٢٢١/٣.

في محبته ﷺ لها ودعائه لها ولأهلها

يَقُولُونَ مِنْ شِدَّةِ الْحُمَى، فنظر إلى السماء وقال: «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كما حَبِّبْتَ إلينا مكة». - وفي لفظ للجندي ورزين «وَأَشَدَّ»، بالواو بدلاً من «أَوْ» - «وَصَحَّحَهَا وَبَارَكَ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدَّهَا، ثُمَّ انْقَلَ وَبَاءَهَا إِلَى مَهِيعة^(١)» - وهي الجُحْفَة، وإِنَّه لَيَتَقَيَّ شُرْبُ الْمَاءِ مِنْ عَيْنِهَا الَّتِي يُقَالُ لَهَا عَيْنُ حُتْمٍ.

وروى البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه ومحمد بن الحسن المخزومي عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: رَأَيْتُ امْرَأَةً سَوْدَاءَ نَائِرَةَ الرَّأْسِ، خَرَجَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى نَزَلَتْ مَهِيعةً، فَأَوَّلَتْهَا أَنَّ وَبَاءَ الْمَدِينَةَ نُقِلَ إِلَى مَهِيعة. وروى الزبير بن بَكَارٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ مُرْسَلًا قَالَ: «أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَجَاءَ إِنْسَانٌ قَدِيمٌ مِنْ نَاحِيَةِ طَرِيقِ مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ: «هَلْ لَقِيتَ أَحَدًا؟» قَالَ: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا امْرَأَةً سَوْدَاءَ عَرِيَانَةً نَائِرَةَ الشَّعْرِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ الْحُمَى وَلَنْ تَعُودَ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا». وَرَوَى أَيْضًا عَنْ مُوسَى بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَعَكَ أَصْحَابُهُ، وَقَدِمَ رَجُلٌ فَتَزَوَّجَ امْرَأَةً كَانَتْ مَهَاجِرَةً، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» - ثَلَاثًا - «فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يَطْلُبُهَا أَوْ امْرَأَةً يَخْطُبُهَا فَإِنَّمَا هَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٢)، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ انْقُلْ عَنَّا الْوَبَاءَ» - ثَلَاثًا - فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: أَتَيْتُ اللَّيْلَةَ بِالْحُمَى فَإِذَا عَجُوزٌ سَوْدَاءٌ مُثَلَّبَةٌ فِي يَدَيَّ الَّذِي جَاءَ بِهَا فَقَالَ: هَذِهِ الْحُمَى فَمَا تَرَى فِيهَا؟ فَقُلْتُ: «اجْعَلُوهَا بِحُتْمٍ». وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ قَالَ: كَانَ وَبَاءُ الْمَدِينَةِ مَعْرُوفًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ إِذَا كَانَ الْوَادِي وَبِيئًا فَأَشْرَفَ عَلَيْهِ إِنْسَانٌ فَقِيلَ لَهُ: انْهَقْ نَهْيَقَ الْجِمَارِ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

لَعَمْرِي لَيْنَ عَشْرَتٍ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى نَهَيْتُ الْجِمَارَ إِنِّي لَجَزُوعٌ

قال هشام: وكان المولود إذا وُلِدَ بِالْجُحْفَةِ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ حَتَّى تَصْرَعَ الْحُمَى. وقال ابن إسحاق: وذكر ابن شهاب الزهري عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ لما قَدِمَ الْمَدِينَةَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ أَصَابَتْهُمْ حُمَى الْمَدِينَةِ حَتَّى جَهِدُوا مَرَضًا، وَصَرَفَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ حَتَّى مَا كَانُوا يُصَلُّونَ إِلَّا وَهُمْ قُعُودٌ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ يُصَلُّونَ كَذَلِكَ فَقَالَ لَهُمْ: «اعْلَمُوا أَنَّ صَلَاةَ الْقَاعِدِ عَلَى النِّصْفِ مِنْ صَلَاةِ الْقَائِمِ»^(٣)، فَتَجَشَّعَ الْمُسْلِمُونَ الْقِيَامَ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الضَّعْفِ وَالسَّقَمِ التَّمَاسًا لِلْقُضْلِ.

(١) أخرجه البخاري ٣٠٨/٧ (٣٩٢٦).

(٢) أخرجه البخاري ٩/١ (١) ومسلم ١٥١٥/٣ (١٩٠٧-١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري بنحوه ٦٨٠/٢ (١١١٥) وانظر البداية والنهاية ٢٢٤/٣.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفِي ما جعلت بمكة من البركة»^(١)، رواه الشيخان. وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمتُ المدينة ودَعَوْتُ لها في مُدَّها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة» - حديث مُتَّفَقٌ عليه - وعن عبد الله بن الفضل بن العباس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «أَدْعُوكَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَكَّةَ»، قال عبد الله: إنا لنتعرف ذلك، إنا لِيُجْزِيءُ المُدَّ عِنْدَنَا وَالصَّاعَ بِمِثْلِي مَا يُجْزِيءُ بِمَكَّةَ، رواه البخاري في تاريخه. وروى الزبير بن بكار عن إسماعيل بن النعمان قال: «دعا رسول الله ﷺ لِيَغْتَمَّ كَانَتْ تَزْعَى بِالْمَدِينَةِ فَقَالَ: «اللهم اجعل نصف أكراشها مثل ميلها بغيرها من البلاد».

وعن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إن إبراهيم عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ دَعَا لِأَهْلِ مَكَّةَ بِالْبَرَكَةِ وَأَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ وَأَنَا أَدْعُو لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ تُبَارِكَ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَمُدَّهُمْ مِثْلَمَا بَارَكْتَ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَاجْعَلْ مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ»^(٢)، رواه الترمذي وَصَحَّحَهُ والطبراني برجال الصحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان الناس إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاؤُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ - زَادَ الطَّبْرَانِي: وَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ - قَالَ: «اللهم بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدَّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ وَإِنَّ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ». قَالَ ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ^(٣). رواه مسلم والترمذي والطبراني.

تنبهات

الأول: اقتضى هذا الحديث تكرير الدعاء بتكرير ظهور الثمرة والإتيان بأولها.

الثاني: تكرير دعائه ﷺ بتحبيه المدينة، والظاهر أن الإجابة حصلت بالأول والتكرير لطلب المزيد.

الثالث: الوَبَاءُ عُمُومُ الْأَمْرَاضِ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الطَّاعُونِ، وَلَا يُعَارِضُ قُدُومَهُمُ الْمَدِينَةَ - وَهِيَ وَبِئْسَ - نَهْيُهُ ﷺ عَنِ الْقُدُومِ عَلَى الطَّاعُونِ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ التَّهْيِ، أَوْ أَنَّ النَّهْيَ يَخْتَصُّ بِالطَّاعُونِ وَنَحْوِهِ مِنَ الْمَوْتِ الدَّرِيعِ، لَا الْمَرَضِ وَلَوْ عَمَّ.

الرابع: هذه البركة المذكورة في الحديث في أمر الدين والدنيا، لأنها الثَّغَاءُ وَالزِّيَادَةُ،

(١) أخرجه البخاري ٢٩/٣ (دار الفكر) ومسلم (٩٩٤).

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٨/٣ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٠٠/٢ (٤٧٣-١٣٧٣) وأخرجه الترمذي ٤٧٢/٥ (٣٤٥٤).

في محبته ﷺ لها ودعائه لها ولأهلها

فالبَرَكة حاصلة لها في نفس الكَيْل، بحيث يكفي المَدُّ بها مَنْ لا يكفيه بغيرها، وهذا أمر محسوس لمن سكنها.

الخامس: تحويل الوباء عن المدينة من أعظم المعجزات إذ لا يُقدَّر عليه جميع الأطباء، قال النووي: وهذا عَلِمَ من أعلام بُرُوتِهِ ﷺ، فإنَّ الجُحْفَةَ من يومئذ وبَيْتُهُ ولا يشرب أَحَدٌ من مائها إِلَّا حُمَ، وقال الخطَّابي: كان أهل الجُحْفَةَ إذ ذاك يهوداً.

السادس: في بيان غريب ما سبق:

«الجُدُر»: جمع جِدَار ككِتَاب وكُتُب، والجِدَار الحائط.

«الدَّوْحَات»^(١): بالبدال والحاء المهملتين: جمع دَوْحَة مثل تَمْرَة وتَمَرَات، والدَّوْحَة الشجرة العظيمة.

«الدَّرَجَات»: جمع دَرَجَة وهي هنا الطُّوق.

«الأرواح»: جمع رِيح بمعنى رائحة وهي عَرَضٌ يُدْرِك بحاسة الشَّم.

«أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ»^(٢): أَوْضَعَ بالضاد المعجمة والعين المهملة، أَي حَثَّهَا على السرعة.

«الْقَرَار»: بالقاف: المُسْتَقَرُّ من الأرض.

«بَطِّحَان»: بضم المُوحَّدة فسكون الطاء المهملة وقيل بفتح أُوْلِهِ وكَشَرَ ثَانِيَهُ: واد من أودية المدينة. رَوَى ابْنُ شَيْبَةَ وَالبَزَّازُ عَنْ عائِشَةَ رضي الله عنها مرفوعاً أَنَّ بَطِّحَان على ترعة من ثَرْعِ الجَنَّة.

«نَجْلًا»^(٣): بفتح النون وسكون الجيم أَي أَنَّ وادِهَا كَانَ نَزًّا. قال: النَّجْل: الماء حين يَسِيل، وَفَسَّرَهُ البخاري ماءً أَجْنًا. قال القاضي: «وهو حَطَّاء»، وقال الحافظ: «وليس كما قال فإنَّ عائِشَةَ قالت ذلك في مقام التعليل لكون المدينة كانت وبَيْتُهُ، ولا شك أَنَّ النَّجْلَ إِذَا فُسِّر بكونه الماء الحاصل من النَّزِّ، فهو بصدَد أَن يَتَغَيَّرَ، وَإِذَا تَغَيَّرَ كَانَ استعماله مما يُحْدِثُ الْوَبَاءَ في العادة».

«وَعَلَّكَ»: الوَعْلُ بفتح الواو وسكون العين المهملة الحُمَّى.

(١) الدَّوْح: البيت الضخم الكبير من الشجر، والدوْحَة: الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة من شجرها الوسيط ٣٠٢/١.

(٢) أَوْضَعَ بين القوم: أَمْسَد، وَأَوْضَعَ في الشَّرْأِ سَرَعَ فِيهِ، وَأَوْضَعَ الرَّاكِبُ الدَّابَّةَ: حَمَلَهَا على السَّير السَّريع. الوسيط ١٠٣٩/٢.

(٣) النجل: الماء السائل، والنجل: الماء استنقع والولد والنز والجمع الكثير من الناس والمحجة الواضحة، ويقال: استنجل الموضوع: أَي كثر به النجل وهو الماء يظهر من الأرض. انظر اللسان ٤٣٥٦/٦.

«كيف تَجِدُكَ»: أي تَجِدُ نَفْسَكَ أَوْ جَسَدَكَ «مُصْبِحًا»: بميم مضمومة وصاد مهملة فمَوْخِذَةً، وزن مُجَحَّد، أي مصاب بالموت صباحاً، وقيل: المراد يُقال صَبَّحَكَ اللَّهُ بالخير، وقد يَفْجَأُ الموت في بقية النهار وهو مُقِيمٌ بأهله، وَيُزَوِّي بالخاء المعجمة وهو أيضاً مكان بمكة.

«شِرَاكُ الثُّغْل»: بكسر الشين المعجمة وتخفيف الراء: السير الذي يكون في وجه الثُّغْل، والمعنى أَنَّ الموت أَقْرَبُ إِلَى الشخص من شِرَاك نعله بِرِجْلِهِ.

«بَطْرُوقَه»^(١): الطُّوقُ هنا الطاقة والغُدَّة.

«الرَّوْقُ» بالراء والقاف: القُرُون.

«عَقِيرَتَه»: أي صوته، قال الأصمعي: إِنْ رَجُلًا غُفِرَتْ رِجْلُهُ فَرَفَعَهَا عَلَى الأُخْرَى وَجَعَلَ يَصْبِيحُ فَصَارَ كُلُّ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ يُقَالُ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ وَإِنْ لَمْ يَرْفَعْ رِجْلَهُ، قَالَ ثَعْلَبُ: وَهَذَا مِنَ الأَسْمَاءِ الَّتِي اسْتُعْمِلَتْ عَلَى غَيْرِ أَصْلِهَا.

«بَوَادٍ»: أي بوادي مكة.

«الإِذْخِر»^(٢): بكسر الهمزة والخاء المعجمة بينهما ذال معجمة: ثَبَّتْ طَيْبَ الرَّائِحَةِ.

«جَلِيلٌ»: بالحيم واللام: والثَّمَامُ بضم الثاء المثناة: ثَبَّتْ ضَعِيفٌ لَهُ خَوْصٌ أَوْ مَا يَشْبِهُهُ.

«مَجْنَّةٌ»: بكسر الميم وفتحها: سَوَّاقٌ بِأَسْفَلِ مَكَّةَ.

«يَتَدَوَّنُ»: أي يَظْهَرُنْ.

«شَامَةٌ»: بالشين المعجمة «وَطْفِيلٌ» بطاء مهملة مفتوحة وفاء مكسورة فمثناة تحتية:

جَبَلَان. قَالَ الْبَكْرِيُّ: جَبَلَانُ مُشْرِفَانِ عَلَى مَجْنَّةٍ عَلَى بَرِيدٍ مِنْ مَكَّةَ.

«يَهْدُونُ»: بالذال المعجمة: يَخْلِطُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ بِهَا لَا يَنْبَغِي.

«مَهْيِيَّةٌ»^(٣): بفتح الميم وسكون الهاء وفتح المُنْثَنَاءِ التحتية والعين المهملة.

«الْجُحْفَةُ»: بجيم مضمومة فحاء مهملة ساكنة ففاء مفتوحة: قَرْيَةٌ جَامِعَةٌ لِأَنَّ السَّيُولَ

اجْتَمَعَتْهَا.

(١) يقال: هو في طوقي أي في وسعي قال الليث: الطوق مصدر من الطاقة وأنشد

كل امرئ مجاهد بطوقه

والنور يحمي أنه بوقه

اللسان ٢٧٢٥/٤.

(٢) انظر اللسان ١٤٩٠/٢.

(٣) انظر الوسيط ١٠٠٣/٢.

في محبته ﷺ لها ودعائه لها ولأهلها

«ثائرة الرأس»: بالمثلثة: مُتَشِيرَة شعر الرأس.

«مُلَبَّيَّة»^(١): بضم الميم وفتح اللام والموحدة الأولى المشددة وتخفيف الثانية، يقال: لَبَّيْتُهُ بالتشديد إذا جمعت ثيابه عند تحريره ثم جَزَزْتَهُ.
«خُمٌ»: بخاء معجمة مضمومة فميم مُشَدَّدة: غَدِيرٌ على ثلاثة أميال من الجُحفة يَسْرَةُ عن الطريق.

«مُجْهِدُوا»: بالضم مبني للمفعول: أي حصل لهم الجُهد وهو بالفتح المَشَقَّة فَتَجَسَّسَمَ المسلمون القيام أي تَكَلَّفُوهُ.
«التماس الفضل»: أي طلبه.

«الأكراش»^(٢): جمع كِرَاش بكسر الكاف يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ وهو لذي الخُفِّ والظِّلْفِ كالمعدة للإنسان.

(١) انظر اللسان ٣٩٨٢/٥.

(٢) انظر المصباح المنير ٥٣٠، ٥٣١.

الباب الخامس

في عصمتها من الدجال والطاعون ببركته صلى الله عليه وسلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة يَحْرُسُونَهَا، لا يدخلها الطاعون ولا الدُّجَال»^(١) رواه الشيخان. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدُّجَال إلا مكة والمدينة، ليس من نقب من أنقابها إلا عليه ملائكة صافِّين يحرسونها فينزل السبخة، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومنافق»^(٢)، حديث مُتَّفَق عليه. وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان»^(٣)، رواه البخاري.

وعن تميم الداري رضي الله عنه في حديثه الطويل في رؤية الدُّجَال في اليقظة أن الدُّجَال قال: يوشك أن يؤذَن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدْعُ قرية إلا هَبَطْتُهَا في أربعين ليلة غير مكة وطيبة، هما مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ، كلما أردتُ أن أدخل واحدةً منهما استقبلني مَلَكٌ بيده السيف صَلَتًا، يصدني عنها، وأن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها»، قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته في المنبر: «هذه طَيِّبَةٌ، هذه طَيِّبَةٌ»^(٤)، رواه مسلم. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «المدينة يأتيها الدُّجَال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى»، قوله: إن شاء الله تعالى للتبرك وللحزم به في بقية الأحاديث. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «يأتي الدُّجَال وهو مُحَرَّمٌ عليه أن يدخل أنقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رَجُلٌ هو خَيْرُ النَّاسِ أو من خَيْرِ النَّاسِ فيقول: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدُّجَالُ الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدُّجَال: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ هَلْ تُشْكُون فِي الْأَمْرِ؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول: والله ما كنْتُ فيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ، فيريد الدُّجَالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِ»^(٥)، رواه البخاري.

تنبيهات

الأول: صَحَّحَ فِي أَحَادِيث كَثِيرَةٍ أَنَّ الطاعون شهادة. قيل: وإذا كان كذلك فكيف قُرِنَ

(١) أخرجه البخاري ٥٣/٣ (١٨٨٠-٧١٣٣) ومسلم في كتاب الحج (٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري ٢٨/٣ ومسلم في كتاب الفتن (١٢٣).

(٣) أخرجه البخاري ٥٣/٣ (١٨٧٩).

(٤) تقدم.

(٥) أخرجه البخاري ١٠٩/١٣ (٧١٣٢).

بالدجال، وكيف مُدِحت المدينة الشريفة بأنه لا يدخلها؟ والجواب أنه كونه شهادةً ورحمةً ليس المراد بوصف ذلك ذاته، وإنما المراد أن ذلك يَتَرَتَّبُ عليه وينشأ عنه، وأنه سببه، فإذا تَقَرَّرَ ذلك واستُخْصِرَ ما ورد في الأحاديث من أن طعن الجِنِّ (٢) ظهر به مدح المدينة بأنه لا يدخلها إشارة إلى أن كُفَّار الجِنِّ وشياطينهم ممنوعون من دخول المدينة الشريفة، ومن اتفق دخوله إليها منهم لا يتمكن من آحاد أهلها بالطعن بحماية من الله تعالى لهم منهم. فإن قيل: طعن الجِنِّ لا يختص بوقوعه من كُفَّارهم في مؤمني الإنس، بل يقع من مؤمني الجِنِّ في كُفَّار الإنس، فإذا سلم منع الجِنِّ الكُفار من المدينة لم يُمنع من آمن منهم من دخولها فالجواب: إن دخول كفار الإنس المدينة غير مُباح، فإنه إذا لم يسكن المدينة إلا من أظهر الإسلام، جَرَتْ عليه أحكام المسلمين، وصار من لم يكن خالص الإسلام تَبَعاً للخالص، فحصل الأمن من دخول الجِنِّ إليهم، فلذلك لا يدخلها الطاعون أصلاً. قال الحافظ في بَدَل الطاعون في أخبار المدينة: وهذا الجواب أحسن من جواب القرطبي في المُفْهِم حيث قال: «المعنى لا يدخلها من الطاعون مثل الذي في غيرها كطاعون عِمَؤاس (١) والجارف». وهو جواب صالح على تقدير التَّنْزِيل أن لو وقع شيء من ذلك بها. وقال غيره: سبب الرحمة لم ينحصر في الطاعون وقد قال ﷺ: «غير أن عافيتك أوسع لي»، فإن ذلك من خصائص المدينة الشريفة، ولوازم دعاء النبي ﷺ لها بالصحة. وأجاب المنبجي بأجوبة منها أنها صغيرة، فلو وقع بها الطاعون أفنى أهلها، ومنها أنه عَوُضُهم عن الطاعون بالحُمى لأن الطاعون يأتي بعد مدة والحُمى تتكرر في كل مدة فتعادلا. قال الحافظ: «ويظهر لي جواب أخص من هذه الأجوبة بعد استحضار حديث أبي عسيب أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل بالحُمى والطاعون فأمسكت الحُمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام»، الحديث، وهو أن الحكمة في ذلك أنه ﷺ لما دخل المدينة كان في قلة من أصحابه عَدَدًا وَمَدَدًا من زادٍ وغيره، وكانت المدينة وبيئة كما سبق، فناسب الحال الدعاء بتصحیح المدينة لتصبح أجساد المقيمين بها لِيَتَقَوَّوا على جهاد الكفار، وخيَّر النبي ﷺ في أمرين، يحصل لمن أصاب كلاً منهما عظيم الثواب، وهما الحُمى والطاعون، فاختر الحُمى بالمدينة لأن أمرها أخف من أمر الطاعون لسرعة الموت به غالباً.

فلما أُذِن له في القتال كانت قضية استمرار الحُمى ضعف الأجساد التي تحتاج إلى القوة في الجهاد، فدعا حينئذ بنقل الحمى إلى الجُحْفَةِ فأَجِيبَ دعاؤه، وصارت المدينة من أَصَحِّ بلاد الله، فإذا شاء الله موت أحدٍ منهم، حصل له التي كانت من الطاعون بالقتل في

(١) عِمَؤاس رواه الزمخشري بكسر أوله، وكسر ثانيه. وغيره بفتح أوله وثانيه وسين مهملة آخره: كورة من فلسطين قرب بيت المقدس وكانت عَمَؤاس قصبته قديماً، وهي مَبْنَعَةٌ جلييلة على ستة أميال من بيت المقدس منها كان ابتداء الطاعون المنسوب إليها في زمن عمر، قيل مات فيه خمسة وعشرون ألفاً. من مرامد الاطلاع ٩٦٢/٢، ٩٦٣.

سبيل الله الذي هو أعلى درجة، ومن فاته ذلك منهم مات بالحمى التي هي حظ المؤمن من النار، كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا يُكْفَرُ سَنَةً.

واستمر ذلك بالمدينة بَعْدَهُ ﷺ تحقيقاً لإجابة دُعائه ﷺ. نَعَمْ شاركتها في ذلك مكة المُشْرِفة فلم يدخلها الطاعون فيما مضى من الزمان كما يرويه ابن قتيبة في المعارف، ونقله جماعة من العلماء عنه وأقروه إلى زمان الإمام النووي رحمه الله. ذكر ذلك في كتاب الأذكار وغيره، لكن قد قيل إنه دَخَلَهَا بعد ذلك في الطاعون العام الذي وقع في سنة تسع وسبعين وسبعمئة، صَرَّح بذلك عَزُّو واحد من أهل ذلك الزمان.

الثاني: مَنْعُ الطاعون عن المدينة معجزة عظيمة لأن الأطباء من أولهم إلى آخرهم عجزوا أن يدفعوا الطاعون عن بلد من البلاد بل عن قرية من القرى وقد امتنع الطاعون، عن المدينة بدعائه ﷺ هذه المدة الطويلة.

الثالث: ظاهر الأحاديث أن الدُّجَالَ يدخل جميع البلاد، وبذلك قال الجمهور، وشَدُّ ابن حزم فقال: «المراد أن يدخله بَعَثَةٌ هو وجنوده. وكأنه استبعد إمكان دخول الدجال جميع البلاد لِقَصْرِ مُدَّتِهِ، وَعَقْلٌ عَمَّا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ بَعْضَ أَيَّامِهِ يَكُونُ قَدْرُ السَّنَةِ.

الرابع: في بيان غريب ما سبق:

«الأنقاب»: بالْقَاف جمع نَقَب بفتح النون والقاف بعدها موحدة، والأنقاب بالكسْرِ جمع نَقَب بالسكون وهما بمعنى والمراد الطريق في الجبل وغيره.

«السَّبْخَة»: بفتح السين المهملة والباء الموحدة والخاء المعجمة: موضع بالمدينة بين موضع الخندق وبين جبل سَلْع.

«ترجف المدينة»: أي يحصل بها زلزلة بعد أخرى ثم ثالثة حتى يخرج منها من ليس مخلصاً في إيمانه، ويبقى بها الدين الخالص فلا يُسَلِّطُ عليها الدُّجَال، ولا يُعَارِضُ هذا ما في حديث أبي بكر: «لا يدخل المدينة رُغْبُ الدُّجَال» لأن المراد بالرُّغْب ما يحدث من الفَرْج من ذِكْرِهِ، والخوف من عُنُوهِ، لا الرُّجْفَةُ التي تقع بالزلزلة لإخراج مَنْ لَيْسَ بِمُخْلِصٍ.

«صَلَّتَا»: أي مُجْرَدَا من غِلْمِهِ.

«المِخْصَرَة»: بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الصاد المهملة، وهي العصا أو

نحوها، يأخذها الرجل بيده.

«يُوشِكُ»: أي يَقْرُب.

الباب السادس

في الحث على الإقامة والموت بها والصبر على لأوائها ونفيها الخبث والذنوب واتخاذ الأصول بها والنهي عن هدم بنيانها

عن الصُّمَيْيَّةَ - بصاد مهملة فميم مفتوحة فَمُثَنَّاة تحتية ساكنة فَمُثَنَّاة فوقية مفتوحة فهاء تأنيث - اللَّيْثِيَّةَ رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع منكم ألا يموت إلا بالمدينة فَلْيَمُتْ بها، فَإِنْ مَن يَمِتْ بها يُشْفَعْ أَوْ يُشْهَدَ له»^(١). رواه ابن حبان والبيهقي.

وعن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فَلْيَمُتْ بها فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَن يَمُوتُ بها»^(٢). رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه ابن حبان. وعن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُفْتَحُ الْيَمَنُ فيخرج قَوْمٌ من المدينة بأهلهم ومن أطاعهم يَبْشُرُونَ، والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يعلمون، ويُفْتَحُ الْعِرَاقُ، فيخرج قوم بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يعلمون»^(٣). رواه الشيخان.

وروى الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن جابر بن عبد الله، ومسلم عن أبي هريرة، والطبراني برجال ثقات عن أبي أيوب وزيد بن ثابت، والطبراني برجال ثقات عن أبي أسيد الساعدي^(٤) رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «سيأتي على الناس زمان يُفْتَحُ فيه فتحات الأرض فيخرج إليها دُجَالٌ - وفي لفظ: فيخرج الناس إلى الأرياف يلتمسون الرِّخَاءَ، فيجدون رخاء، وفي لفظ: مَطْعَمًا وملبسًا ومركبًا، فيقال لهم: هلم إلينا فإنكم بأرض حجاز جدوبة والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وفي لفظ: فيكتبون إلى أهلهم هلموا إلينا، فإنكم بأرض حجاز جدوبة، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وفي لفظ: فيمرون على إخوانهم حُجَّاجًا أو عُمَّارًا، فيقولون: ما يقيمكم في لأواء العيش وشدة الجوع؟ قال رسول الله ﷺ: فذاهب وقاعد، حتى قالها مرارًا والمدينة خير لهم، لا يثبت فيها أحد فيثبت لأوائها وشدتها حتى يموت إلا كُنْتُ له يوم القيامة شهيدًا أو شفيعًا، والذي نفسي بيده لا يخرج أحدٌ رغبةً

(١) أخرجه الترمذي (٣٩١٧) وابن حبان (١٠٣١) وابن حجر في المطالب (١٢٤٧).

(٢) ذكره العراقي في تحريجه على الإحياء ٢٤٤/١ وعزاه للترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٧/٤ (١٨٧٥) ومسلم ١٠٠٩/٢ (٤٩٧) (١٣٨٨).

(٤) مالك بن ربيعة بن النَّدَن، بفتح الموحدة والمهملة بعدها نون، أبو أسيد الساعدي، مشهور بكنيته، شهد بدرًا، وغيرها، ومات سنة ثلاثين، وقيل: بعد ذلك، حتى قال المدائني: مات سنة ستين، قال: هو آخر من مات من البدرين. التقريب ٢٢٥/٢.

عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألا إن المدينة كالكبير تُخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شِرَارَها كما ينفي الكبير خبث الحديد»^(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصبر على لأواء المدينة وشِدَّتْها أحدٌ من أمتي إلا كنتُ له شفيعاً يوم القيامة»، رواه مسلم^(٢). وعن عُمر رضي الله عنه أنه قال: «اللهم ارزقني قتالاً في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك»، رواه البخاري^(٣).

وعن يحيى بن سعيد مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض بقعة أحب إليَّ أن يكون قبري بها منها»، ثلاث مرات، يعني المدينة، رواه الإمام مالك في الموطأ. وعن أبي سعيد مولى المهري - بالراء - أنه جاء إلى أبي سعيد الخدري ليالي الحرّة فاستشاره في الجلاء عن المدينة وشكا إليه أشعارها وكثرة عياله، وأخبره ألا صبر له على جهد المدينة ولأوائها. فقال له: وَيَحْكُ لا أَمُوكَ بذلك، الزم المدينة فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصبر أحدٌ على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة إذا كان مسلماً»^(٤). وفي حديث أخرجه مسلم: «لا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص أو ذوب الملح في الماء»^(٥). وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صبر على لأوائها وشدتها كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة»^(٦). رواه مسلم. وعن أبي هريرة بنحوه، رواه الترمذي.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به، ومن لم يكن له بها أصل فليجعل له بها أصلاً، فليأتين على الناس زمان يكون الذي ليس له بها أصل كالأخارج منها المجتاز إلى غيرها»^(٧)، وفي رواية: «فليجعل له بها أصلاً ولو قصرة»، رواه الطبراني وابن شبة بسند لا بأس به. وروى ابن شبة عن الزُّهري مرسلاً: «لا تتخذوا الأموال بمكة واتخذوها بدار هجرتكم، فإن المرء مع ماله». وعن أبي هريرة رضي الله

(١) أخرجه مسلم ١٠٠٥/٢ (٤٨٧-١٣٨١).

(٢) أخرجه مسلم ١٠٠٤/٢ (٤٨١-١٣٧٧).

(٣) أخرجه البخاري ٥٧/٣ (١٨٩٠).

(٤) انظر تخريجه بأسانيد مختلفة في صحيح مسلم ١٠٠٤/٢ كتاب الحج باب الترغيب في سكن المدينة.

(٥) أخرجه مسلم ٩٩٢/٢ (٤٦٠-١٣٦٣).

(٦) تقدم انظر مسلم الموضع السابق.

(٧) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٤/٣ وعواه للطبراني في الكبير وقال: رجاله ذكرهم ابن أبي حاتم ولم يذكر فيهم

في الحث على الإقامة والموت بها والصبر على لأوائها

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ يَثْرِبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن أعرابياً بايع رسول الله ﷺ، فأصاب الأعرابي وَغْلًا فسأل النبي ﷺ فقال: يا محمد أَلْقَنِي بِيَعْتِي. فَأَبَى. ثم جاءه فقال: أَلْقَنِي بِيَعْتِي. فَأَبَى. فخرج الأعرابي. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طَبِئُهَا»^(١) رواه الشيخان. وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا طَبِئَةُ - يَعْنِي الْمَدِينَةُ - وَإِنَّمَا تَنْفِي الْخَبَثِ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْفِطْصَةِ»^(٢)، رواه مسلم. والمراد هنا الإقالة من الإسلام وقيل من الهجرة [كأنه كان قد بايع على هجرة الإقامة]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن أطام المدينة أن تُهْدَمَ. وروى البزار بسند حسن عن عمر رضي الله عنه قال: غلا السعر بالمدينة فاشتد الجُهدُ، فقال رسول الله ﷺ: «اصبروا وأبشروا فإنني قد باركتُ على صاعكم ومُدِّكم، وكلوا ولا تتفرقوا فإن طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة وطعام الأربعة يكفي الخمسة والستة، وإن البركة في الجماعة، فمن صَبَرَ على لأوائها وشَدَّتْهَا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً أَوْ شَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَرَجَ رَغْبَةً عَنْهَا أَبْدَلَ اللَّهُ بِهِ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْهَا فِيهَا، وَمَنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ أَذَاهُ اللَّهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»^(٣). وروى البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا أَيْ الْمَدِينَةُ طَبِئَةُ تَنْفِي الذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْفِطْصَةِ»^(٤).

تنبيهات

الأول: قال القاضي رحمه الله. «سئلت قديماً عن معنى قوله ﷺ: «كنت شهيداً أو شافعياً»، ولم يَخَصْ ساكن المدينة بالشفاعة هنا مع عموم شفاعته وأدَّخَرَهُ إِيَّاهَا لِأَمْتِهِ؟ وَأُجِيبُ بِأَنَّ «أَوْ» لَيْسَتْ هُنَا لِلشَّكِّ، خِلَافاً لِمَنْ ذَهَبَ إِلَيْهِ، إِذْ قَدْ رَوَاهُ جَابِرٌ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَأَبُو سَعِيدٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ، وَابْنُ عُتَمَرَ، وَصَفِيَّةُ بِنْتُ أَبِي عُبَيْدٍ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عُثْمَانَ رضي الله عنهم بهذا اللفظ، ويبعد اتفاق الكل واتفاق رواياتهم على الشك، ووقوعه بصيغة واحدة، بل الظاهر أَنَّهُ ﷺ قَالَ كَذَلِكَ هَكَذَا، فَإِذَا كَانَ يَكُونُ هُوَ أَعْلَمُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ هَكَذَا، وَإِذَا كَانَ يَكُونُ «أَوْ» لِلتَّقْسِيمِ، وَيَكُونُ النَّبِيُّ ﷺ شَفِيعاً لِبَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَشَهِيداً لِبَعْضِهِمُ الْآخَرِ، إِذَا شَهِدُوا

(١) أخرجه البخاري ٩٨/٩ ومسلم في كتاب الحج (٤٨٩) والترمذي (٣٩٢٠) والنسائي ١٥١/٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج (٤٩٠).

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٨/٣ وعزاه للبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٨١٢٣).

(٤) أخرجه البخاري ٩٣/٦ (٤٥٨٩).

للباطنين وشفيعاً للعاصين، أو شهيداً لمن مات في حياته، شفيعاً لمن مات بعده، أو غير ذلك مما الله أعلم به، وهذه خصوصية زائدة على الشفاعة لكافة المذنبين، وعلى الشهادة لكافة الأمة، وقد قال ﷺ في شهداء أُخذ: «أنا شهيد على هؤلاء»، فيكون في تخصيصهم زيادة منزلة، وقد تكون «أو» بمعنى الواو، فيكون لأهل المدينة شهيداً وشفيعاً بالشفاعة العامة. وإن جعلنا «أو» للشك كما ذهب إليه بعضهم، فإن كانت اللفظة الصحيحة فلا إشكال، إذ هي زائدة على الشفاعة المذخرة، وإن كانت الصحيحة شفيعاً فاختصاص أهل المدينة بهذا مع ما جاء في عمومها وادخاره لجميع الأمة أن هذه شفاعة أخرى غير العامة التي هي لإخراج أمته من النار وإخراج بعضهم منها بشفاعته ﷺ يوم القيامة، وتكون هذه الشفاعة لأهل المدينة زيادة في الدرجات أو تخفيف الحساب بما شاء الله من إكرامهم يوم القيامة بأنواع من الكرامة.

الثاني: قوله ﷺ: «تَنفِي الناس»، وفي لفظ «الرجال»، قال القاضي: «كان هذا يختص برمته لأنه لم يكن يصبر على الهجرة والمقام معه بها إلا من ثبت إيمانه». وقال النووي: «ليس هذا بظاهر لأن عند مسلم لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شِرَارَها كما ينفي الكير خَبَث الحديد، وهذا والله أعلم زمن الدُّجَال». قال الحافظ: «ويحتمل أن يكون المراد كلاً من الزمانين، وكان الأمر في حياته ﷺ السبب المذكور، ويُؤَيِّدُه قِصَّةُ الأعرابي الذي استقاله فإنه ﷺ ذكر هذا الحديث مُعَلِّلاً به خروج الأعرابي وسؤاله الإقالة من البيعة، ثم يكون ذلك أيضاً آخر الزمان، عندما ينزل الدُّجَال فترجف الأرض بأهلها فلا يبقى منافق ولا كافر إلا خرج إليه».

وقال السيد^(٢): «وقد أبعد الله عنها أرباب الخَبَث الكامل وهم الكُفَّار، وأما غيرهم فقد يكون إبعاده إن مات بها بنقل الملائكة له كما أشار إليه الأَقْشَهْرِي أو المراد إبعاد أهل الخَبَث الكامل فقط وهم أهل الشقاء والكفر لا أهل السعادة والإسلام لأن القسم الأول ليس قابلاً للشفاعة ولا للتغفرة، أو المراد، فيما عدا قِصَّةِ الأعرابي والدُّجَال أنها تُخَلِّص النفوس من شِرِّها وظلمات ذنوبها، بما فيها من اللأواء والمشقات ومضاعفة المثوبات وتوالي الرحمات، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود ١١٤]، ويُحْتَمَلُ أن يكون بمعنى أنه لا يخفى حال من انطوى فيها على خَبَث بل تظهر طويته كما هو مُشَاهَدٌ بها، ولم أر إلى الآن مَنْ نَصَّ على هذا الاحتمال وهو في حظي قديماً ويؤيده ما في غزوة أُحُد في الصحيح من أنه ﷺ لما خرج إلى أحد رَجَعَ ناسٌ من أصحابه أي وهم المنافقون فقال ﷺ: «المدينة كالكبير» (الحديث)، والذي ظهر لي من مجموع الأحاديث واستقراء أحوال هذه البلدة الشريفة أنها تنفي خَبَثَها بالمعاني الأربعة».

في الحث على الإقامة والموت بها والصبر على لأوائها

وقوله ﷺ: «لو كانوا يعلمون» أي بفضلها من الصلاة في المسجد النبوي أو ثواب الإقامة فيها وغير ذلك. ويحتمل أن «لو» بمعنى «لَيْتَ» ولا يحتاج إلى تقدير، وعلى الوجهين ففيه تجهيل لمن فارقها وآثر غَيْرَهَا. قالوا: والمراد به الخارجون من المدينة رَغْبَةً عنها كارهين لها. وأما من خَرَجَ لحاجة أو تجارة أو جهاد أو نحو ذلك فليس بداخل في معنى الحديث.

قال الطيب: «الذي يقتضيه هذا المقام أن ينزل أولئك الذين «لا يعلمون» منزلة اللازم لتنتفي عنهم المعرفة بالكلية، ولو ذهبوا مع ذلك التَّمَنِّي لكان أبلغ لأن التمني طلب ما لا يمكن حصوله، أي لَيَتَنَّهُمْ كانوا من أهل العلم تغليظاً وتشديداً». قال البيضاوي: «المعنى أنه يفتح اليمن، فيغيب قوماً بلادها، وعيش أهلها، فيحملهم ذلك على المهاجرة إليها بأنفسهم وأهلهم حتى يخرجوا من المدينة، والحال أن الإقامة في المدينة خير لهم لأنها حرمُ النبي ﷺ وجوارهُ ومهبط الوحي ومنزل البركات لو كانوا يعلمون ما في الإقامة بها من الفوائد الأخروية التي يُستَحَقَّرُ دونها ما يجدونه من الحظوظ الفانية العاجلة بسبب الإقامة فيها». وقوّاه الطيبي لتكثير قومه ووصفهم بِكُؤُوبِهِمْ يُبْسُون، ثم توكيده بقوله: لو كانوا يعلمون، لأنه يشعر بأنهم ممن رَكَنَ إلى الحظوظ البهيمية والحطام الفاني، وأغرض عن الإقامة في جِوَارِ النبي ﷺ، ولذلك كَوَّرَ قوماً» ووَصَفَهُمْ في كل مرتبة بقوله يُبْسُون بسبب اتخاذهم لتلك الهيئة القبيحة.

الثالث: في بيان غريب ما سبق:

«يُبْسُون»^(١): بمشناة تحتية فموحدة مضمومة وتُكْسَر، قال أبو عُبَيْدَةَ: معناه يسوقون دوابَّهُمْ والبس سوق الإبل بقول يس يس عند الشوق وإرادة السرعة.

«الأرياف»: جمع ريف بكسر الراء، موضع الخضب - بكسر الخاء المعجمة - والسعة في المطعم.

«اللأواء»: بالفتح والمد: الشدة وضيق المعيشة.

«تَنَفِّي الحَبَث»: أي بإظهاره وإخراجه.

«الكبير»: بكسر الكاف وسكون التحتية وهو المعروف بين الناس أنه الرِّقّ الذي يُنْفَخ فيه، لكن أكثر أهل اللغة على أن المراد بالكبير كانون الحُدَادِ والصائغ، وقيل: الكبير هو الرِّقّ والكانون هو الكور.

«خبث الحديد»: بضم الخاء المعجمة والموحدة فمثلة: وَسَخُهُ الذي تُخْرِجُهُ النار، والمراد هنا: لا يُتْرَكُ فيها مَنْ فِي قَلْبِهِ دَغَلٌ وَغِشٌّ ونفاقٌ يُمَيِّزُهُ عن القلوب الصادقة ويُخْرِجُهُ منها كما يميز الخَدَّاد رَدَى الحديد من جَيِّدِهِ، ويُنسَبُ التمييز للكبير لكونه السبب الأكيد في اشتعال النار التي يقع التمييز بها.

«تَنْصَعُ»: بمثناة فوقية فنون ساكنة فصاد فعين مهملتين: من النصوع وهو الخلوص، والمعنى أنها إِذَا نَفَتْ الْخَبْثَ تَمَيَّزَ الطَّيِّبُ، واستقر بها طَيِّبُهَا. رواه الأكثر بالنصب على المفعولية أي تَنْصَعُ طَيِّبُهَا وذكر بعضُ رواة الصحيح يَنْصَعُ طَيِّبُهَا على الفاعلية.

«الآطام»: بالمَدِّ جمع أَطْمَ بضمين وهي الحصون التي تُبْنَى بالحجارة، وقيل: هو كل بيت مربع مُسَطَّح.

الباب السابع

في وعيد من أحدث بها حدثاً أو آوى محدثاً

أو أرادها وأهلها بسوء أو أخافهم والوصية بهم

روى الطبراني برجال الصحيح عن أبي أمامة، وعن عليّ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أحدث في مدينتي هذه حدثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صَرفاً ولا عَدَلاً». وعن السائب بن خلاد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ظُلْماً أَخَافَهُ اللهُ عِزَّ وَجَلَّ، وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرفاً وَلَا عَدَلاً»^(١)، رواه الإمام أحمد. وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَهَا - يعني المدينة - بسوء أذابه الله كما يذوب المِلْحُ في الماء»^(٢)، رواه الإمام أحمد والشيخان.

وعن مَعْقِل بن يسار^(٣) رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة مهاجري وفيها مَضْجَعِي ومنها مَبْعَثِي، حَقِيقٌ عَلَى أُمَّتِي حِفْظُ جِيرَانِي مَا اجْتَنَبُوا الْكِبَائِرَ، وَمَنْ حَفَظَهُمْ كُنْتُ لَهُ شَهِيداً وَشَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْهُمْ شُقِي مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ»، قيل لَمَعْقِل: وما طينة الخبال؟ قال: غُصَّارَةُ أَهْلِ النَّارِ^(٤)، رواه أبو عمرو بن السُّمَّك، وابن الجوزي في «مثير الغرام السَّاكِن».

وروى الجندي أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا جَبَّارٍ أَرَادَ الْمَدِينَةَ بِسُوءٍ أَذَاهُ اللهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»^(٥). وروى البزار بسندٍ حَسَنٍ عن سعد بن أبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اكْفِهِمْ مِنْ دَهْمِهِمْ بِبَاسٍ - يعني المدينة - وَلَا يَرِيدَهَا أَحَدٌ بِسُوءٍ إِلَّا أَذَاهُ اللهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»^(٦). وروى محمد بن الحسن المخزومي عن سعيد بن المُسَيَّبِ مُرْسِلاً أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ مَنْ أَرَادَنِي وَأَهْلَ بَلَدِي بِسُوءٍ فَتَعَجَّلْ بِهَلَاكِهِ». وروى الإمام أحمد برجال الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَخَافَهُ اللهُ»^(٧)، رواه ابن حبان. وعن عُثْبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥٥/٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٨٤/١ - ٣٣١/٢. والبخاري ١١٢/٤ (١٨٧٧) ومسلم ٩٩٣/٢ (٤٦٠ - ١٣٦٣).

(٣) معقل بن يسار الخزاعي أبو علي بايع تحت الشجرة. له أربعة وثلاثون حديثاً، اتفقاً على حديث وانفرد (خ) بآخر، و (م) بحدثين. وعنه عمران بن حصين. مات في خلافة معاوية. الخلاصة ٤٥/٣.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٣١٣/٣ وعزاه للطبراني في الكبير وقال: وفيه عبد السلام بن أبي الحبوب وهو متروك.

(٥) أخرجه الحميدي في المسند (١١٦٧).

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٣١٠/٣ وعزاه للبخاري بإسناد حسن وقال: وفي الصحيح طرف من آخره.

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٣٩٣/٣ والطبراني في الكبير ١٦٩/٧ وابن حبان (١٠٣٩) والبخاري في التاريخ ١١٧/١ وأبو نعيم في الحلية ٣٧٢/١.

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفه، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عدلاً»^(١)، رواه الطبراني بإسناد حسن.

وفي المدارك للقاضي قال محمد بن مسلمة: سمعت مالكا يقول: دخلت على المهدي فقال: أوصيني، فقلت: أوصيك بتقوى الله وخذ العطف على أهل بلد رسول الله ﷺ وجيرانه، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «المدينة مهاجري ومنها مبثي وبها قبري وأهلها جيرياني، وحقيق على أمتي حفظ جيرياني، فمن حفظهم في كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة، ومن لم يحفظ وصييتي في جيرياني سقاه الله من طينة الخبال».

وقال مضعب: «لما قديم المهدي المدينة استقبله مالك وغيره من أشرفها على أميال، فلما بصر بمالك انحرف المهدي إليه فعانقه وسلم عليه وسأله فالتفت إليه مالك فقال: يا أمير المؤمنين إنك تدخل الآن المدينة، فتمر بقوم عن يمينك ويسارك، وهم أولاد المهاجرين والأنصار، فسلم عليهم، فإن ما على وجه الأرض قوم خيّر من أهل المدينة، ولا خيّر من المدينة قال: ومن أين قلت ذلك يا أبا عبد الله؟ فقال: لأنه لا يعرف قبر نبي اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ، ومن كان قبر محمد ﷺ عندهم فينبغي أن يعرف فضلهم على غيرهم. ففعل المهدي ما أمره به، وفيه إشارة إلى التفضيل بمجاورة قبر رسول الله ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»، ولم يخص جارا دون جار.

ومن تأمل هذا الفضل لم يزل في تفضيل سكنى المدينة على مكة، مع التسليم بمزيد المضاعفة لمكة، [إذ جهة الفضل غير منحصرة في ذلك] فتلك لها مزيد العدد، وهذه تضاعف البركة والمدة وتلك جوار بيت الله، ولهذه جوار حبيب الله وأكرم الخلق على الله.

تنبيهات

الأول: قوله ﷺ: «لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه». قال القاضي: اختلفوا فيه فقيل: هو مختص بمدة حياته ﷺ، وقال آخرون: هو عام أبداً، وهذا أصح. وقال المحب الطبري: إنه أظهر لقوله ﷺ في الحديث الآخر: «سيأتي على الناس زمان يفتح فيه فتحات الأرض فيخرج الناس إلى الأرياف يلتمسون الرخاء... إلى آخر ما تقدم.

الثاني: قوله ﷺ في حديث: «ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار...» إلى آخر الحديث، قال القاضي عياض: قوله: «في النار» يدفع إشكال الأحاديث التي

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣٠٩ وعزاه للطبراني في الأوسط والكبير وقال: ورجاله رجال الصحيح.

في وعيد من أحدث بها حدثاً أو آوى محدثاً

لم تُذكر فيها هذه الزيادة، ويبين أن هذا حُكْمُهُ في الآخرة. وقال: قد يكون المراد به أن من أرادها في حياته ﷺ، كُفِيَ المسلمون شرّه واضمحَلَّ كَيْدُهُ كما يضمحل الرصاص في النار، قال: «ويحتمل أن يكون المراد مَنْ كادها اغتيالاً وطلباً لِعَوْنِهَا فلا يتم له أمر بخلاف من أتى ذلك جهاراً». قال: «وقد يكون في اللفظ تقديم وتأخير أي أذابه الله كذوب الرصاص في النار ويكون ذلك لمن أرادها في الدنيا فلا يُمَهِّلُهُ الله ولا يُمَكِّنْ لَهُ سلطاناً، بل يهلكه عن قُرب، كما انقضى شأن من حاربها أيام بني أمية مثل مسلم بن عُقْبَةَ فَأُهْلِكَ في منصرفه عنها، ثم هلك يزيد بن معاوية الذي أرسله على أثر ذلك وغيرهما ممن صنع صنيعهما.

الثالث: في بيان غريب ما سبق:

«الحَدَّث» بالتحريك: الأمر الحادث المُتَكَرِّر الذي ليس بمعروف في الشئ.

«المُخَدِّث»: بكسر الدال اسم فاعل: أي من نَصَرَ جانياً وأواه وأجاره من خَصْمِهِ وحال بينه وبين أن يُقْتَصَّ منه، وافتحها الأمر المُتَبَدِّع نفسه، ويكون معنى الإيواء الرضا، فإنه إذا رَضِيَ به وأَقَرَّ فاعِلُهُ من غير إنكار فقد آواه. والمراد بلعنة الملائكة والناس المبالغة في الإبعاد من رحمة الله تعالى، والمراد باللقن هنا العذاب الذي يستحقه على ذنبه في أول الأمر، وليس هو كَلْعَن الكافر.

«الصَّرْف والْعَدْل»: بفتح أولهما: اختُلف في تفسيرهما فَيُعَدُّ الجمهور الصَّرْف الفريضة، والعدل النافلة. وعن الأصمعي الصَّرْف: التوبة، والعدل: الغدية، وقيل غير ذلك. «انماع»^(١): ذاب وسال.

الباب الثامن

في تفضيلها على البلاد لحلوله صلى الله عليه وسلم فيها

نقل أبو الوليد الباجي والقاضي عياض وغيرهما الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة حتى على الكعبة كما قاله أبو اليمن بن عساكر في تحفته، وجزم بذلك أبو محمد عبد الله بن أبي غمر البشكري^(١) - بموحدة مكسورة وقيل بفتحها وسين مهملة ساكنة فكاف مفتوحة وكسرهما فراء، - رحمه الله.

حَزَمَ الْجَمِيعُ بِأَنَّ خَيْرَ الْأَرْضِ مَا قَدْ حَاطَ ذَاتَ الْمُصْطَفَى وَحَوَاهَا
وَنَعَمَ لَقَدْ صَدَقُوا بِسَاكِنِهَا عِلَتْ كَالنَّفْسِ حِينَ زَكَتْ زَكَاةً مَأْوَاهَا

بل نقل القاضي تاج الدين السبكي^(٢) عن ابن عقيل^(٣) الحنبلي أنها أفضل من العرش، وجزم بذلك أبو عبد الله محمد بن رزين البحيري الشافعي أحد السادة العلماء الأولياء فقال في قصيدته في الوفاة النبوية:

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقَبْرَ أَشْرَفُ مَوْضِعٍ مِنَ الْأَرْضِ وَالسَّبْعِ السَّمَوَاتِ طُرَّةٌ
وَأَشْرَفُ مِنْ عَرْشِ الْمَلِكِ وَلَيْسَ فِي مَقَالِي خِلَافٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ

وضروح التاج الفاكهي بتفضيلها على السموات، قال: بل الظاهر المُنْتَقَيْنِ تفضيل جميع الأرض على السماء لحلوله ﷺ بها، وحكاها الشيخ تاج الدين إمام الفاضلية عن الأكثرين

(١) البشكري: بكسر الباء المنقولة بواحدة وسكون السين المهملة وفي آخرها الراء، هذه النسبة إلى بسكرة، وهي بلدة من بلاد المغرب، وقدم علينا فقيه فاضل سنة اثنتين وأربعين وخمسماية من هذه البلدة مرو عندنا وتوفي في هذه السنة وكان يذكر نسبته البشكري. الأنساب ٣٥٤/١.

(٢) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام، العلامة قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر بن الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي الحسن، الأنصاري، الخرجي، السبكي. مولده بالقاهرة سنة سبع - بتقديم السين - وعشرين وسبعماية، وقيل: سنة ثمان، وقرأ على الحافظ المزني، ولازم الذهبي وتخرج به، وطلب بنفسه، ودأب. قال الحافظ شهاب الدين بن حجي: أخبرني أن الشيخ شمس الدين بن النقيب أجازه بالإفتاء والتدريس، ولما مات ابن النقيب كان عمر القاضي تاج الدين ثمانين سنة، وأفتى، ودرس وحديث وصنف، وأشغل، وناب عن أبيه بعد وفاة أخيه القاضي الحسين، ثم استقل بالقضاء بسؤال والده في شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين، ثم عزل مدة لطيفة، ثم أعيد، ثم عزل بأخيه بهاء الدين، ومن تصانيفه «شرح مختصر ابن الحاجب» «رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب». توفي شهيداً بالطاعون في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وسبعماية. انظر الطبقات لابن قاضي شهبة ١٠٥/٣، ١٠٦، والبداءة والنهاية ٣١٦/١٤، والدرر الكامنة ٤٢٥/٢، والندجوم الزاهرة ١١/١٠٨، والبدر الطالع ٤١٠/١ وشذرات الذهب ٢٢١/٦، والأعلام ٣٣٥/٤.

(٣) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، أبو الوفاء، ويعرف بابن عقيل: عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته. كان قوي الحجة، اشتغل بمذهب المعتزلة في حديثه. وكان يعظم الحلاج، فأراد الحنابلة قتله، فاستجار باب المراتب عدة سنين. ثم أظهر التوبة حتى تمكن من الظهور. له تصانيف أعظمها «كتاب الفنون» قال الذهبي في تاريخه: كتاب الفنون لم يصنف في الدنيا أكبر منه. وله «الواضح في الأصول» و«الفرق» و«الفصول» في فقه الحنابلة، عشرة مجلدات، الأعلام ٣١٣/٤.

في تفضيلها على البلاد لحلوله ﷺ فيها

لِيَخْلُقِ الْأَنْبِيَاءَ مِنْهَا وَدَفَنَهُمْ بِهَا. وقال النووي: «المختار الذي عليه الجمهور أن السموات أفضل من الأرض، أي ما عدا ما ضَمَّ الأعضاء الشريفة. وأجمعوا بعد على تفضيل مكة والمدينة على سائر البلاد، واختلفوا فيهما، فذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعض الصحابة وأكثر المدنيين، كما قال القاضي إلى تفضيل المدينة، وهو مذهب الإمام مالك، وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد، والخلاف في غير الكعبة الشريفة فهي أفضل من بقية المدينة اتفاقاً. وإيراد حجج الفريقين يمتا يطول به الكتاب.

ويدل لما ذكر من أن النفس تُخْلَقُ من تربة الدفن ما رواه الحاكم وصححه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ بقبر، فقال: «قَبْرُ مَنْ هَذَا؟» فقالوا: قَبْرُ فُلَانِ الْحَبَشِيِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سَبِّحْ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ إِلَى الثَّرْتُوبَةِ الَّتِي مِنْهَا خُلِقَ».

وتقدم في أول باب من هذا الكتاب أثر كعب: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خُلِقَ مِنَ الْقَبْضَةِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْ قَبْرِهِ الشَّرِيفِ». وروى يزيد الجري قال: سمعت ابن سيرين يقول: «لَوْ خَلَقْتُ لَخَلَقْتُ صَادِقاً بَاراً غَيْرَ شَاكٍّ وَلَا مُشْتَكٍّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا خَلَقَ نَبِيَّهُ ﷺ وَلَا أَبَا بَكْرٍ وَلَا عُمَرَ إِلَّا مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ رَدَّهُمْ إِلَى تِلْكَ الطِّينَةِ».

وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه، والطبراني والحاكم عن مطر بن عكّام - بضم العين المهملة وتخفيف الكاف وكسر الميم فسين مهملة - والترمذي وصححه عن أبي عزة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ لِعَبْدٍ أَنْ يَمُوتَ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً»^(١). قال الحكيم الترمذي: «إِنَّمَا صَارَ أَجَلُهُ هُنَاكَ لِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ تِلْكَ الْبَقْعَةِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾» [طه ٥٥] قال: فإنما يُعَادِ الْمَوْتُ مِنْ حَيْثُ بَدَأَ مِنْهُ».

وروى ابن الجوزي في الوفا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لَمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَلِمَ اخْتَلَفُوا فِي دَفْنِهِ» فقال علي رضي الله عنه: «إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ بَقْعَةٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ بَقْعَةٍ قُبِضَ فِيهَا نَفْسُ نَبِيِّهِ ﷺ». وروى أبو يعلى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يُقْبَضُ النَّبِيُّ إِلَّا فِي أَحَبِّ الْأَمْكَانَةِ إِلَيْهِ»»^(٢).

قال السيد: «وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ أَحَبُّهَا إِلَى رَبِّهِ لِأَنَّ حُبَّهُ تَابِعَ لِحُبِّ رَبِّهِ. وَمَا كَانَ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَيْفَ لَا يَكُونُ أَفْضَلَ؟» قال: ولهذا سلكت هذا المسلك في تفضيل المدينة فقد صَحَّ

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٦) وذكره العجلوني في كشف الخفا ٩٧/١ وزاد نسبه لعبد الله بن الإمام أحمد.

(٢) انظر البداية والنهاية ٢٦٦/٥.

قوله ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كحُبِّنا مكة أو أشدَّ، أي «بل أشدَّ» أو «وأشدَّ»، كما روي به. وأجيبَ دعوته حتى كان يُحرِّك دابَّته إذا رآها من حُبِّها».

تنبيه: قال سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام: «معنى التفضيل بين مكة والمدينة أن ثواب العمل في إحداها أكثر من ثواب العمل في الأخرى، فيشكِّل قول القاضي: «أجمعت الأمة على أن موضع القبر الشريف أفضل»، إذ لا يمكن لأحد أن يعبد الله فيه. وأجاب غيره بأن التفضيل في ذلك للمجاورة ولذا حُرِّم على المُحدِّث من جلد المصحف لا لكثرة الثواب وإلا فلا يكون جلد المصحف بل ولا المصحف أفضل من غيره لِعَذر العمل فيه. وقال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي: قد يكون التفضيل بكثرة الثواب وقد يكون لأمرٍ آخر، وإن لم يكن عملاً، فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة وله عند الله من المحبة ولساكنه ما تقصر العقول عن إدراكه وليس ذلك لمكان غيره فكيف لا يكون أفضل الأماكن؟ وليس محلَّ عملٍ لنا فهذا معنى غير تضعيف الأعمال فيه، وأيضاً باعتبار ما قيل: إن كل أحد يُدْفَن في الموضع الذي خلق منه، [وأيضاً فقد تكون الأعمال مُضَاعَفَةً فيها باعتبار أن النبي ﷺ حيٌّ وأن أعماله مضاعفة] أكثر من كل أحد فلا يَخْتَصُّ التضعيف بأعمالنا نحن.

قال السيد: «وهذا من الثَّقَاتَةِ بمكان على أني أقول» [الرحمات والبركات النازلة بذلك المحلَّ يَغْتَمُّ فَيُضْطَبِّحُهَا الأُمة وهي غير متناهية لدوام ترقياته ﷺ] وما تناله الأُمة بسبب نبينا هو الغاية في الفضل ولذا كانت خير أمة بسبب كون نبينا خير الأنبياء، فكيف لا يكون القبر الشريف أفضل البقاع مع كونه [منبع فيض الخيرات،] ألا ترى أن الكعبة علي رأي من [منع الصلاة فيها ليست محل عملنا أقيقول عاقل بتفضيل المسجد حولها عليها، لأنه محل العمل مع أن الكعبة هي السبب في إنالة تلك الخيرات؟... وسيأتي أن المجيء المذكور في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [النساء ٦٤] الآية، حاصِلٌ بالمجيء إلى قبره الشريف، وكذا زيارته ﷺ وسؤال الشفاعة منه والتوسُّل به إلى الله والمجاورة عنده من أفضل القربات، وعنده تُجَاب الدعوات أيضاً، فكيف لا تكون أفضل وهو السبب في هذه الخيرات؟ وأيضاً فهو روضة من رياض الجنة بل أفضل رياضها، وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم [في الجنة] خير من الدنيا وما فيها».

الباب التاسع

في تحريمها

عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: «إني حرمت المدينة ما بين لابتيها لا يقطع عضاها ولا يقتل صيدها»^(١)، رواه مسلم. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني حرمت ما بين لابتي المدينة، وفي رواية: ما بين مأزميها، ألا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح ولا يخطب فيها شجر إلا لعلف»^(٢) وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في المدينة: «لا يخطب فيها سلاح ولا ينفر صيدها ولا تل لقطتها إلا لمن أشادها ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ولا يصلح أن يقطع منها شجر إلا أن يعلف رجل بعيره»^(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود. وعن علي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة حرام ما بين عير إلى ثور»^(٤)، رواه الخمسة. وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإنني أحرّم ما بين لابتيها»^(٥)، يعني المدينة، رواه الشيخان.

تنبيهات

الأول: قوله ﷺ: «إني حرمت المدينة»، حجة في أنها حرم، وبه قال الجمهور، ونقله عن النبي ﷺ أكثر من عشرة من الصحابة خلافاً لمن قال بخلاف ذلك. وذكر دليل ورودها مما يطول به الباب.

الثاني: في بيان غريب ما سبق:

«لابتي المدينة»^(٦): تشية لآبة وهي الحرة: أرض ذات حجارة سود، وللمدينة لابتان شرقية وغربية وهي بينهما، ويُقال: لابة ولوبة ونوبة بالنون ثلاث لغات، وجمع اللابة في القلة لابات وفي الكثرة لآب ولوب.

(١) أخرجه مسلم ١٠٠١/٢ (٤٧٥-١٣٧٤) وقد تقدم.

(٢) انظر مسلم الموضع السابق.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٣٥) وأحمد في المسند ٢٥٣/١ وعبد الرزاق في المصنف (٩١٩٣).

(٤) أخرجه البخاري ٩٧/٤ (١٨٧٠) والترمذي (٢١٢٧) وأبو داود (٢٠٣٤) والبيهقي في السنن ١٩٦/٥.

(٥) أخرجه البخاري ٢٢٩/٥ (٤٠٨٣) ومسلم ١٠١١/٢ (٥٠٤-١٣٩٣).

(٦) اللابة واللوبة: الحرة: والجمع لآب ولوب، ولابات، وهو الحرار، فأما سيبويه فجعل اللوب جمع لابة، كقارة وقور وقد فسر ابن منظور اللابية في الحديث بأنها حرتان تكتفانها قال الأصمعي: هي الأرض التي قد ألبستها حجارة سود، وجمعها لابات ما بين الثلاث إلى العشر فإذا كثر فهي اللاب واللوب اللسان ٤٠٩٢/٥.

«العِصَاهُ»: بالقَصْر وكَشْر العين المهملة وتخفيف الضاد المعجمة: كُلُّ شَجَرٍ فِيهِ شَوْكٌ، واجِدَتْهَا عِصَاهَةٌ وَعِصِيَّةٌ.

«المَازِمَانُ»: بهمزة بعد الميم وبكسر الزاي تشنية مَأْزِمٍ: الطريق بين جَبَلَيْنِ، أي حَرَمٌ ما بين جَبَلَيْنِ المدينة.

«يُهْرَاقُ»: يُصَبِّبُ.

«يُخَبِّطُ»: يُضْرِبُ.

«العَلْفُ» بسكون اللام مصدر عَلَفْتُ وأما العَلْفُ بالفتح فهو اسم للحشيش والتَّبْنُ ونحوهما.

«يُخْتَلَى»: يُجَزَّزُ وَيُقْطَعُ.

«الْحَلَا»: بالقصر: الرُّطْبُ من الحشيش الواحدة خلالة.

«لَا يُتَقَرُّ»: بمثناة تحتية فنون فقاء: أي لَا يُزَجَرُ وَيُتَمَتَّعُ مِنَ الرَّغِي.

«أَشَادُ»: بشين معجمة ودال مهملة: أي أَشَاعَهَا والإِشَادَةُ رفع الصوت والمراد به تعريف اللَّقْطَةِ. وإنشادها.

«غَيْرُ»^(١): بفتح العين المهملة وسكون المثناة التحتية وبالراء: الجِمار، ويقال غَيْرُ جَبَلٍ يسمى باسمه، ويمين الأول بالوارد والثاني بالصادر.

«تَوْرُ»: بالمثناة: مرادف فحل البقر، جبل صغير خَلَفَ أُحُدَ، قال المَطَرِيُّ بعد أن رَدَّ على من أنكر كون ثور بالمدينة وقال إنه خَلَفَ أُحُدَ من شماليِّه مُدَوَّرٌ صغير يعرفه أهلُ المدينة خَلَفَ عن سَلَفٍ. وقال القطب الحلبي: «حكى لنا شيخنا الإمام أبو محمد عبد السلام بن مزروع البصري أنه خرج رسولا إلى العراق فلما رجع إلى المدينة كان معه دليل أي من عرب المدينة، فكان يذكر له الأماكن والجبال». قال: «فلما وصلنا إلى أُحُدَ إذا بِقُرْبِهِ جَبَلٌ صغير، فسألته عنه فقال: هذا يُسَمَّى تَوْرًا، فَعَلِمْتُ صِحَّةَ الرواية». وقال المحب الطبري: «أخبرني الثقة العالم أبو محمد عبد السلام البصري أن جَدَاءَ أُحُدَ، عن يَسَارِهِ، جانحا إلى ورائه جَبَلًا صغيراً يُقَالُ له تَوْرُ، وأخبرني أنه تكرر عنه سؤاله لطوائف من الأعراب العارفين بتلك الأرض وما فيها من الجبال، فكلُّ أَخْبَر أن ذلك الجبل اسمه تَوْرُ، وتواردوا على ذلك»، «فعلمنا أن ذِكْرَ ثور في الحديث صحيح وأن عدم علم أكابر العلماء به [هو] لعدم شهرته وعدم بحثهم عنه»، قال: «وهذه فائدة جليلة».

(١) انظر اللسان ٣١٨٩/٤.

الباب العاشر

في ذكر بعض خصائصها

وهي تزيد على المائة فقد امتازت بتحريمها على لسان أشرف الأنبياء بدعوته ﷺ. وكون المُتَعَرِّض لصيدها وشجرها يُشَلَب كقتيل الكفار، وهو أبلغ في الزجر مما في مكة، وعلى القول بعدمه هو أدل على عظيم حرمتها حيث لم يُشرع له جزاء. ويجوز نقل ترابها للتداوي، واشتمالها على أشرف البقاع وهو محل القبر الشريف، ودَفْن أفضل الحلق بها وأفضل هذه الأمة وكذا أكثر الصحابة والسلف الذين هم خير القرون، وخلقهم من تربتها، وبعث أشراف هذه الأمة يوم القيامة منها على ما نقله [عياض] في المدارك عن الإمام مالك، قال: «وهو لا يقول من عند نفسه».

وكونها محفوفة بالشهداء كما قاله الإمام مالك أيضاً، وبها أفضل الشهداء الذين بذلوا أنفسهم في ذات الله بين يدي نبيهم ﷺ، فكان شهيداً عليهم، واختيار الله تعالى إياها لأفضل خلقه وأحبهم إليه، واختيار أهلها للنصرة والإيواء، وافتتاحها بالقرآن وسائر البلاد بالسيف والسنان، وافتتاح سائر بلاد الإسلام منها، وجعلها مظهر الدين، وجوب الهجرة إليها قبل فتح مكة والسكنى بها لنصرته ﷺ ومواساته بالأنفس على ما قاله القاضي عياض أنه مُتَّفَق عليه، قال: «ومن هاجر قبل الفتح فالجمهور على منعه من الإقامة [بمكة] بعد الفتح، ورخص له ثلاثة أيام بعد قضاء نسكه، والحث على سكنتى المدينة وعلى اتخاذ الأصل بها وعلى الموت بها، والوعد على ذلك بالشفاعة أو الشهادة أو همتاً، واستحباب الدعاء بالموت بها، وتخريضه ﷺ على الموت بها وشفاعته أو شهادته لمن صبر على لأوائها وشِدَّتْها، وطلبه لزيادة البركة بها على مكة ودعاؤه بحبها وأن يجعل الله لديها قراراً ورزقاً حسناً، وطرح الرداء عن منكبيه إذا قاربها، وتسميته لها طيبة» وغيرها مما سبق. «وطيب ريحها، ولليطير بها رائحة لا توجد في غيرها» قاله ياقوت.

وطيب العيش بها وكثرة أسمائها، وكتابتها في التوراة مؤمنة وتسميتها فيها بالمحبة والمرحومة وإضافتها إلى الله تعالى في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء ٩٧]، وإلى النبي بلفظ البيت في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال ٥] وإقسام الله تعالى في قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد ١] والبداءة بها في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء ٨٠]، مع أن المخرج مُقَدَّم على المدخل. ودعاؤه ﷺ لها خصوصاً بالبركة، ولشمارها ومكيلها وأسواقها وأهلها.

ولقوله إنها تنفي الذنوب وتنفي خبيثها، وأنه لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها خيراً منه ومن أرادها وأهلها بسوء أذابه الله، الحديث، فرتب الوعيد فيها على الإرادة، كما قال

تعالى في حرم مكة. «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» [الحج ٢٥]
والوعيد الشديد لمن أحدث فيها حدثاً أو آوى مُخْدِئاً. والحدث يشمل الصغيرة فهي بها
كبيرة، أي يَغْطُم جزاؤها لدلالاتها على جرأة مرتكبها يحرم سيّد المرسلين وحضرته الشريفة.
والوعيد الشديد لمن ظلم أهلها أو أخافهم، ووعيد من لم يُكْرِم أهلها وأن إكرامهم وتعظيمهم
حقٌّ على الأمة، وأنه ﷺ شفيعٌ أو شهيدٌ لمن حفظهم فيه، وقوله: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ
فَقَدْ أَخَافَ مَا بَيْنَ جَنْبَيْيْ».

واختصاصها بِمَلِكِ الإيمان والحياء، ويكون الإيمان يَأْرُزُ إليها، واشتباها بالملائكة
وحراستهم لها، وإنها دار الإسلام أبداً لحديث: «إِنَّ الشَّيَاطِينَ قَدْ أَيْسَسَتْ أَنْ تُعْبَدَ بِبَلَدِي
هَذَا»^(١)، وأنها «آخِرُ قَرْيَةِ الْإِسْلَامِ خَرَاباً»، رواه الترمذي، وحسنه، ويأتي بشطه في المعجزات
إن شاء الله تعالى، وعصمتها، من الدجال وخروج الرجل الذي هو خير الناس أو من خير الناس
منها للدجال ليُكَذِّبَهُ، ونقل وبائها وخمائها والاستشفاء بترابها وبتمرها كما سيأتي في
الخصائص.

وقوله في حديث للطبراني: «وَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَأْتِيَهَا»، وسماحه ﷺ لمن صَلَّى
عليه بها عند قبره الشريف، ووجوب شفاعته لمن زاره بها، وغير ذلك مما سيأتي في باب فضل
زيارتها. وَكَوْنُهَا أَوَّلَ مَسْجِدٍ اتَّخَذَهُ بِهَا لِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وتأسيس مسجدها على
يده ﷺ، وعمل فيه بنفسه، ومعه خَيْرُ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْزَلَ فِي شَأْنِهِ ﴿لَمَسْجِدٌ
أُسِّسَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة ١٠٨] وكونه آخر مساجد الأنبياء،
والمساجد التي تُشَدُّ إليها الرِّحال، وكونه أَحَقُّ الْمَسَاجِدِ أَنْ يُزَارَ وما يُدْخِرُ لزاره من الثواب
المُضَاعَفِ كما سيأتي وَأَنَّ مَنْ صَلَّى فِيهِ أَرْبَعِينَ صَلَاةً كَتَبَ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَبَرَاءَةٌ مِنَ
العذاب، وَأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ النِّفَاقِ، وَأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى طَهْرٍ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ حِجَّةٍ،
وما ثبت من أَنَّ إِيَّانَ مَسْجِدِ قُبَاءَ وَالصَّلَاةَ فِيهِ تَغْدِلُ غُمْرَةٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا ثَبَتَ فِي فَضْلِهَا.

وَأَنَّ بَيْنَ بَيْتِهِ وَقَبْرِهِ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، مع ذهاب بعضهم إلى أَنَّ ذَلِكَ يَغْتَمُّ مَسْجِدَهُ
ﷺ، وَأَنَّهُ الْمَسْجِدُ الَّذِي لَا تُعْرَفُ بُقْعَةٌ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجَنَّةِ غَيْرُهُ، وَأَنَّهُ عَلَى حَوْضِهِ ﷺ،
وما جاء في أَنَّ «مَا بَيْنَ مَنْبَرِهِ الشَّرِيفِ وَالْمُصَلَّى رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»^(٢) وسيأتي ما يقتضي
أَنَّ الْمُرَادَ مُصَلَّى الْعِيدِ وَهُوَ جَانِبٌ كَبِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْبَلَدَةِ.

وقوله في أُحُدٍ [هَذَا جَبَلٌ] يُحِبُّنَّا وَتُحِبُّهُ، وَأَنَّهُ عَلَى ثُرُوعَةٍ مِنْ ثُرُعِ الْجَبَّةِ. وفي وادي.

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣٠٢ وعزاه للبخاري وقال: فيه السكن بن هارون الباهلي ولم أجده من ترجمه.

(٢) أخرجه مسلم ١٠١٠/٢ (٥٠٠. ١٣٩٠).

بَطْحَانُ أَنَّهُ عَلَى تَرْعِيَةٍ مِنْ تَرْعِ الْجَنَّةِ. وَوَصَفُهُ لَوَادِيهَا الْعَقِيقُ بِالْوَادِي الْمُبَارَكِ، وَأَنَّهُ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ. وَقَوْلُهُ فِي ثِمَارِهَا: «إِنَّ الْعَجْوَةَ مِنَ الْجَنَّةِ». وَسَيَأْتِي فِي بَرِّ غَزَسٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ رَأَى أَنَّهُ أَصْبَحَ عَلَى بَرِّ مِنْ آبَارِ الْجَنَّةِ فَأَصْبَحَ عَلَيْهَا. وَرَوَى الْأَنْبِيَاءُ حَقًّا.

واختصاص مسجدنا بمزيد الأدب. وَيُكْتَبُ لِمَنْ صَلَّى بِمَسْجِدِهَا صَلَاةٌ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَبَرَاءَةٌ مِنَ الْعَذَابِ وَأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ النِّفَاقِ، رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ بِرِجَالٍ ثِقَاتٍ. وَخَفِضَ الصُّوْرُ فِي تَأْكِيدِ التَّعْلُمِ وَالتَّعْلِيمِ بِهِ. وَالحديث: أَنَّهُ «لَا يَسْمَعُ النَّدَاءَ فِي مَسْجِدِي، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا لِحَاجَةٍ ثُمَّ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ إِلَّا مُتَأَفِّقًا»^(١) واختصاصه عند بعضهم بِمَنْعِ أَكْلِ الثُّومِ مِنْ دُخُولِهِ لِاخْتِصَاصِهِ بِمَلَائِكَةِ الْوَحْيِ وَالْوَعْدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ خَلَفَ يَمِينًا فَاجِرَةً عِنْدَ مِنْبَرِهَا وَمُضَاعَفَةُ سَائِرِ الْأَعْمَالِ بِهَا كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ. وَأَنَّ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ بِهَا كَأَلْفِ جُمُعَةٍ فِيمَا سِوَاهَا إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَأَنَّ صِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ بِهَا كَصِيَامِ أَلْفِ شَهْرٍ فِي غَيْرِهَا، كَمَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ عَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ، وَابْنِ الْجَوْزِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَكَوْنُ أَهْلِهَا أَوَّلَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَاختصاصهم بمزيد الشفاعة والإكرام. وَجَاءَ بَعَثُ الْمَيِّتِ بِهَا مِنَ الْأَمْنِ، وَأَنَّهُ يُنْقَضُ مِنْ بَقِيْعِهَا سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَتُوكَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِمَقْبَرَةِ بَقِيْعِهَا كُلَّمَا امْتَلَأَتْ أَخَذُوا بِأَطْرَافِهَا فَكَفَفُوْهَا بِالْجَنَّةِ وَبَعَثَهُ ﷺ مِنْهَا وَبَعَثَ أَهْلَهَا مِنْ قُبُورِهِمْ قَبْلَ سَائِرِ النَّاسِ وَاسْتِحْبَابُ الدُّعَاءِ بِهَا فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي دُعِيَ بِهَا ﷺ وَسَيَأْتِي بَيَانُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَيَقَالُ إِنَّهُ يُسْتَجَابُ بِهَا عِنْدَ الْأُسْطُوَانَةِ الْمُخَلَّقَةِ، وَعِنْدَ الْمَنْبَرِ وَفِي زَاوِيَةِ دَارِ عَقِيلِ بِالْبَقِيْعِ وَمَسْجِدِ الْفَتْحِ.

[وَاختصاصها] بِكَثْرَةِ الْمَسَاجِدِ وَالْمَشَاهِدِ بِهَا، وَاسْتِخْبَاطِ مَنْ غَابَ تَرْبَتُهَا، وَأَفْتَى الْإِمَامُ مَالِكٌ أَنَّهُ مَنْ قَالَ: تَرَبَّتْهَا رَدِيْعَةٌ أَنْ يُضْرَبَ ثَلَاثُونَ دِرَّةً، وَأَمْرٌ بِحَبْسِهِ وَكَانَ لَهُ قَدْرٌ، وَقَالَ: مَا أَحْوَجُهُ إِلَى ضَرْبِ عُنُقِهِ، تَرْبَةٌ دُفِنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزْعَمُ أَنَّهَا غَيْرُ طَيِّبَةٍ.

وَاسْتِحْبَابُ الدُّخُولِ لَهَا مِنْ طَرِيقٍ وَالرَّجُوعِ مِنْ أُخْرَى، وَالِاغْتِسَالُ لِدُخُولِهَا، وَاختصاص أهلها بِأَبْعَدِ الْمَوَاقِيتِ، وَذَهَبَ بَعْضُ السَّلَفِ إِلَى تَفْضِيلِ الْبَدَاءَةِ بِهَا قَبْلَ مَكَّةَ، وَأَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا يَبْدَأُونَ بِالْمَدِينَةِ إِذَا حَاجُّوا وَيَقُولُونَ: نَبْدَأُ مِنْ حَيْثُ أَحْرَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَعَنْ عَلْقَمَةَ، وَالْأَسْوَدِ، وَعَمْرُو بْنِ مَيْمُونٍ أَنَّهُمْ بَدَأُوا بِالْمَدِينَةِ وَعَنْ الْعَبْدِيِّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّ الْمَشْيَ لَزِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ. وَسَيَأْتِي أَنَّ مَنْ نَذَرَ زِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَزِمَهُ الْوَفَاءُ قَوْلًا وَاحِدًا. وَفِي وَجُوبِ الْوَفَاءِ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ غَيْرِهِ وَجِهَانِ [قَالَ ابْنُ كَيْجَ]

(١) ذكره المنذري في الترهيب ١/١٨٩.

وأقره عليه الرافعي والنووي وغيرهما] والاكتفاء بزيارة قبر رسول الله ﷺ لمن نذر إتيان مسجد المدينة كما قال الشيخ أبو علي تفرّيعاً على القول بلزوم إتيانه كما قاله الشافعي واليويني، على أنه لا بد من [ضم] قُزْبَةٍ إِلَى الإتيان كما هو الأصح [تفرّيعاً على اللزوم وعَلَّله الشيخ أبو علي بأن زيارته ﷺ من أعظم القُرْبَات، وتوقف في ذلك الإمام من جهة أنها لا تتعلق بالمسجد وتعظيمه، قال: وقياسه أنه لو تَصَدَّقَ في المسجد أو صام يوماً كفاه، وفيه نَظَر، على أن الصحيح ما نُصَّ عليه في الْمُخْتَصَر من] عدم لزوم الإتيان.

وجاء في شوقها أن الجالب إليه كالمجاهد في سبيل الله، وأن الْمُخْتَكِرَ كالمُجِدِّ في كتاب الله تعالى. واختُصَّتْ بظهور نار الحجاز المُنْدَر بها من أرضها ومن انطفائها عند حرّهما كما سيأتي في المعجزات، لما تَصَوَّته حديث الحاكم وغيره. [وفي حديث النسائي والبخاري والحاكم واللفظ له:] «يُوشِكُ النَّاسُ أَنْ يَضْرِبُوا أَكْبَادَ الْإِيلِ فَلَا يَجِدُونَ عَالِماً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ». وكان سفيان بن عُيَيْنَةَ يقول: نرى هذا العالم مالك بن أنس. وقيل غير ذلك. وما نُقِلَ عن مالك من أن إجماع أهلها يُقَدِّم على خَيْرِ الْوَاحِدِ، لَشُكْنَاهُمْ مَهَيْطِ الْوَحْيِ ومعرفتهم بالناسخ والمنسوخ.

واختصاص أهلها في قيام رمضان بست وثلاثين ركعة على المشهور عند الشافعية. قال الإمام الشافعي: رأيت أهل المدينة يقومون بتسع وثلاثين ركعة منها ثلاث للوتر. ونقل الروياني / وغيره عن الشافعي أن سببه إرادة أهل المدينة مساواة أهل مكة فيما كانوا يأتون به من الطواف وَرَكْعَتَيْنِ بَيْنَ التَّروِيحَاتِ فجعلوا مكان كل أسبوع^(١) تروية. قال الإمام الشافعي: «لا يجوز لغير أهل المدينة أن يباروا أهل مكة ولا ينافسوهم لأن الله فَضَّلَهُمْ على سائر العباد».

وشاركتها مكة في تحريم قطع الرطب من شجرها وحشيشها وصيدها واصطياده وتنفيذه، وحمل السلاح للقتال بها، ولا تحل لِقَطْعُهَا إِلَّا لِمَنْ أَشَادَ بِهَا، ونقل ترابها ونحوه منها أو إليها، ونبس الكافر إذا دُفِنَ بها. وأن كلاً من مسجد الرسول والمسجد الحرام يقوم مقام المسجد الأقصى لمن نذر الصلاة أو الاعتكاف فيه، ولو نذرهما بمسجد المدينة لم يُجْزَهِ الْأَقْصَى وأجزاه المسجد الحرام بناء على زيادة المضاعفة، وإذا نذر المشي إلى بيت المقدس يُخَيَّرُ بَيْنَ الْمَشْيِ إِلَيْهِ أَوْ إِلَى أَحَدِهِمَا، والذي رَجَّحُوهُ ما اقتضاه كلام البغوي من عدم لزوم المشي في غير المسجد الحرام.

وإذا نذر تطيب مسجد المدينة والأقصى ففيه تردد لإمام الحرمين، واقتضى كلام الغزالي اختصاصه بالمسجدين لأننا إن نظرنا إلى التعظيم ألحقناهما بالكعبة أو إلى امتياز الكعبة

(١) التَّنَطُّعُ: هو كل تَعَمُّقٍ قَوْلًا وَفِعْلًا. انظر النهاية ٧٤/٥.

بالفضل فلا. قال السيد: فينبغي الجزم في نذر تطيب القبر الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والسلام. ورحم الله الإمام مالك أبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي المالكي الأعمى حيث قال:

هَنا وَكَمْ يَا أَهْلَ طَيْبَةٍ قَدْ خَفَى
فَلَا يَتَحَرَّكُ سَاكِنٌ ثَوَى بِرُبُوعِهَا
فَكَمْ مَلِكٍ زَامَ الْوُضُوءَ لِمِثْلِ مَا
فَبُشِّرَاكُمْ بِلُثْمٍ عِنَايَةٍ رُبُّكُمْ
تَرْوَنَ رَسُولَ اللَّهِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
مَتَى جِئْتُمْ لَا يُغْلَقُ الْبَابُ دُونَكُمْ
فَيَسْمَعُ شَكْوَاكُمْ وَيَكْشِفُ ضُرُوكُمْ
بِطَيْبَةٍ مَشُورَاكُمْ وَأَكْرَمَ مُرْسِلِ
وَكَمْ يَغْمَةِ إِلَيْهِ فِيهَا عَلَيْكُمْ
أَمِنْتُمْ مِنَ الدُّجَالِ فِيهَا فَحَوَّلَهَا
كَذَلِكَ مِنَ الطَّاعُونَ أَنْتُمْ بِمَأْمِنِ
فَلَا تَنْظُرُوا إِلَّا لِيُوجِهَ حَبِيبُكُمْ
حَيَاةً وَمَوْتاً تَحْتَ رُحْمَاهُ أَنْتُمْ
فَيَا رَاحِلًا عَنْهَا لِدُنْيَا تُرِيدُهَا
أَتُخْرِجُ عَنْ حَوْزِ النَّبِيِّ وَحِزِّهِ
لَيْنَ سِرِّتٍ مِنْ فَيْضِ الْمَكَارِمِ عِنْدَهُ
هُوَ الرِّزْقُ مَفْسُومٌ فَلَيْسَ بِزَائِدِ
فَكَمْ قَاعِدٍ قَدْ وَسَّعَ اللَّهُ رِزْقَهُ
فَعِشْ فِي جَمَى خَيْرِ الْأَنْامِ وَمُتْ بِهِ
إِذَا قُضِيَتْ فِيمَا بَيْنَ قَبْرِ وَمَنْبَرِ
لَقَدْ أَشْعَدَ الرَّحْمَنُ جَارَ مُحَمَّدٍ

فَيَا الْقُرْبَ مِنْ خَيْرِ الْوَرَى خِرْتُمْ السَّبْقَا
إِلَى سِوَاهَا وَإِنْ جَارَ الزُّمَانِ وَلَوْ شَقَا
وَصَلْتُمْ فَلَمْ يَقْدِرْ وَلَوْ مَلَكَ الْخَلْقَا
فَهَا أَنْتُمْ فِي بَحْرِ عِنَايَتِهِ غَرْقَى
وَمَنْ بَرَهُ فَهُوَ السَّعِيدُ بِهِ حَقًّا
وَبَابُ ذَوِي الْإِحْسَانِ لَا يَقْبَلُ الْعَلَقَا
وَلَا يَمْنَعُ الْإِحْسَانَ ضَرًّا وَلَا رَقَا
يَلْجِظُكُمْ فَالْدَّهْرُ يَخْرِى لَكُمْ وَفَقَا
فَشُكْرًا وَنِعْمَ اللَّهُ بِالشُّكْرِ تُسْتَبْقَى
مَلَائِكَةٌ يَحْمُونَ مِنْ دُونِهَا الطُّرُقَا
فَوَجْهُ الثَّلَاثِي لَا يَزَالُ لَكُمْ طَلَقَا
وَإِنْ خَادَتِ الدُّنْيَا وَمَرَّتْ فَلَا فَرْقَا
وَخَشِرًا فَيَسِّرُ الْجَاهِ فَوْقَكُمْ مُلْقَى
أَتَطْلُبُ مَا يَفْنَى وَتَتْرُكُ مَا يَبْقَى؟
إِلَى غَيْرِهِ تَسْفِيهِ غَيْرِكَ قَدْ حُقَّا
فَأَكْرَمُ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مَا تُلْقَى
وَلَوْ سِرَّتْ حَتَّى يَكْدَتْ تَخْتَرِقُ الْأَفْقَا
وَمُرْتَحِلٍ قَدْ صَاقَ بَيْنَ الْوَرَى رِزْقَا
إِذَا كُنْتَ فِي الدَّارَيْنِ تَطْلُبُ أَنْ تَرْقَى
بِطَيْبَةٍ فَاعْرِفْ أَبْنِ خَيْرَ لَكَ الْأَرْقَى
وَمَنْ حَالَ فِي تَرْحَالِهِ فَهُوَ الْأَشْقَى

ومن أعظم ما نلّظم في ذلك وأعجبه قصيدة الإمام الولي العارف بالله أبي محمد عبد الله بن أبي عمر الإشكري. قال العلامة بدر الدين فَوْحُونَ أحد أصحاب ناظمها: إن بعض الصالحين رأى النبي ﷺ في المنام، قال البدر: «وأشك هل كان الشيخ أو غيره؟» وأنشد هذه القصيدة، فلما بلغ آخرها قال رسول الله ﷺ: رَضِينَاهَا رَضِينَاهَا. وختمتها الإمام أبو عبد الله التونسي رحمه الله. وقد رأيت لإيراد ذلك هنا:

أَعْلَامٌ طَيِّبَةٌ لَا تَهْمُ بِسِوَاهَا فَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثَوَاهَا
وَأَعْمُرُ فَوَادِكَ دَائِمًا بِهَوَاهَا دَارُ الْحَبِيبِ أَحَقُّ أَنْ تَهْوَاهَا
وَتَحْنُ مِنْ طَرَبٍ إِلَى ذِكْرَاهَا
لَا تُخْلِ خَدُّ ثَرَابِهَا مِنْ قُبْلَةٍ وَيَكُلُّ عَامٍ قُمْ إِلَيْهِ بِرَحْلَةٍ
لَا تَقْتَنِعَنَّ مِنَ الْمَزَارِ بِمَرَّةٍ وَعَلَى الْجُفُونِ مَتَى هَمَمْتَ بِزُورَةٍ
يَا بَنَ الْكَرَامِ عَلَيْكَ أَنْ تَغْشَاهَا
اقْطَعْ زَمَانِكَ إِنْ سَعَدْتَ بِبَلَدَةٍ حَوَتْ الرُّشُولَ فَتِلْكَ أَطْيَبُ ثُرُوبَةٍ
جَاوِزُهُ تَأْمَنُ أَنْ تُصَابَ بِشِدَّةٍ فَلَأَنْتَ أَنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِطَيِّبَةٍ
وَوَلَلْتَ تَزَوَّغَ فِي ظِلَالِ رُبَاهَا
هِيَ جُنَّتِي بِمَا أَخَافُ وَجُنَّتِي وَبِحَاوٍ مِنْ فِيهَا تُخَلِّصُ مِنْهُجَتِي
وَإِذَا نَظَرْتُ لَهَا فَذَلِكَ بُغْيَتِي مَعْنَى الْجَمَالِ مَتَى الْخَوَاطِرِ وَاللَّيْلِ
سَلَبْتُ عُقُولَ الْعَاشِقِينَ حُلَاهَا
تِلْكَ الْمَنَازِلُ لَا نَعِيمَ كَثُرِيهَا تِلْكَ الْمَيَاهُ لَنَا الشِّفَاءُ بِشُرُوبِهَا
يَا طَيِّبَ نَفْسِيهَا وَحُسْنِ مَهَبِّهَا لَا تَحْسَبِ الْمِسْكَ الذِّكْيَ كَثُرِيهَا
هَيْهَاتَ أَتَى الْمِسْكَ مِنْ رُبَاهَا
لِمَ لَا تَطِيبُ لَنَا وَتَكْرُمُ مِنِّي وَأَلْمُصْطَفَى حَيًّا حَوْثُهُ وَمَيَّتًا
فَنَسِيْمُهَا يَخْبِي الْعَبِيرَ إِذَا أَتَى طَابَتْ فَإِنْ تَبَغَّ الطُّطِيبُ يَا فَتَى
فَأَيْدٍ عَلَى السَّنَاعَاتِ لَثَمَ ثَرَاهَا
لَوْ لَمْ تَكُنْ أَرْكَى الْبِلَادِ وَأَطْهَرَا مَا اخْتَارَهَا لِرَسُولِهِ لَمَّا سَرَى
فَبِطِيبِهَا أَيْقَنَ وَخَلَّ مِنْ افْتَرَى وَابْشُرْ فَنِي الْخَبَرِ الصَّحِيحِ مُقَرَّرَا
أَنَّ الْإِلَهَ بِطَائِبَةٍ سَمَاهَا
دَارُ الْحَبِيبِ لَنَا فَلَذِ بِرَحِيْبِهَا فَالْنَفْسُ مُوَلَّعَةٌ بِدَارِ حَبِيبِهَا
اللَّهُ شَرَفُهَا بِهِ لِنَصِيبِهَا وَاخْتَصَّهَا بِالطُّبَّيْنِ لِطِيبِهَا
وَاخْتَارَهَا وَدَعَا إِلَى سُكْنَاهَا
مَدَّتْ بِهَا رُحْمَى الْإِلَهِ ظِلَالُهَا مِنْ أَجْلِ مَنْ مَنَعَ النُّفُوسَ ضَلَالُهَا
جَلَّ فِي الْبِلَادِ فَلَنْ تُصِيبَ مِثَالُهَا لَا كَالْمَدِينَةِ مَنْزِلٌ وَكَفَى لَهَا
شَرَفًا حُلُولُ مُحَمَّدٍ بِفِنَاهَا

مَنْ لِي بِأَنْ أَلْقَى الْحَبِيبَ وَأَطْفَرَا وَأَشْمَ مِنْ مَشْوَاهِ مِسْكَاً أَذْفَرَا
 وَأَرَى الَّتِي شَغَفَتْ بِهَا مُهْجُ الْوَرَى خُصِّتْ بِهَجْرَةِ خَيْرٍ مِنْ وَطَىءِ الْغُرَى
 وَأَجْلَسَهُمْ قَدْراً فَكَيْفَ تَرَاهَا؟
 كَلَفِي بِهَا طَبْعٌ يَغْيِرُ تَكْلَفِ صَفَتْ الْقُلُوبُ لَهَا لِأَجْلِ مَنْ اضْطَفِي
 وَجَلَّالُ تِلْكَ الْأَرْضِ مَا هُوَ بِالْخَفِي كُلُّ الْبِلَادِ إِذَا ذَكَرْتَ كَأَحْرَفِ
 فِي اسْمِ الْمَدِينَةِ لَا خَلَا مَعْنَاهَا
 هِيَ لِلْقُلُوبِ الصَّافِيَّاتِ حَبِيبَةٌ وَلِأَهْلِهَا وَالنَّازِلِينَ رَحِيبَةٌ
 فَاقَتْ جَمِيعَ الْأَرْضِ فَهِيَ غَرِيبَةٌ حَاشَا مُسَمًّى الْقُدْسِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ
 مِنْهَا وَمَكَّةُ إِلَهَا إِلَاهَا
 فَاجْعَلْ مَزَارَكَ لِلثَّلَاثِ وَطِيفَةً وَأَمِنْ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ خِيفَةً
 فَكِلَاهُمَا تَدْعُ الْقُلُوبَ نَظِيفَةً لَا فَرْقَ إِلَّا أَنَّ ثَمَّ لَطِيفَةً
 مِنْهُمَا بَدَتْ يَجْلُو الظُّلَامَ سَنَاهَا
 فَافْهَمْ وَأَرْجُو أَنْ تُفِيَقَ وَتَفْهَمَا أَمْرَ الَّذِي هُوَ قَدْ سَمَا فَوْقَ السَّمَاءِ
 إِنَّ الْقَضِيلَةَ حَيْثُ أَصْبَحَ مِنْهُمَا جَزَمَ الْجَمِيعُ بِأَنْ خَيْرَ الْأَرْضِ مَا
 قَدْ خَاطَ ذَاتَ الْمُضْطَفَى وَخَوَاهَا
 فَمِنْ الْعَجَائِبِ مُهْجَتِي عَنْهَا سَلَتْ وَهِيَ الَّتِي بِضَرْبِ أَحْمَدَ فَضَلَتْ
 مِثْلَ الْعُقُودِ بِقَدْرِ جَوْهَرِهَا غَلَتْ وَنَعَمْ لَقَدْ صَدَّقُوا بِسَاكِنِهَا غَلَتْ
 كَمَا لِنَفْسٍ حِينَ زَكَتْ زَكَا مَأْوَاهَا
 إِلَيَّ أَقُولُ فَلَا تُكُنْ ذَا غَيْبَةٍ يَفِ عِنْدَ حُجْرَتِهِ بِمَوْقِفِ هَيْبَةٍ
 فَاسْأَلْ فَإِنَّكَ لَنْ تَرَى ذَا خَيْبَةٍ وَبِهَيْدِهِ ظَهَرَتْ مَرْئِيَّةُ طَيْبَةٍ
 فَغَدَتْ وَكُلُّ الْفَضْلِ فِي مَعْنَاهَا
 مِنْهَا بَدَا لِلْخَلْقِ وَاضِحُ سُئَةٍ فَعَلَى الْبِلَادِ لَهَا عَظِيمَةُ مِئَةٍ
 وَلَهَا خَصَائِصُ فَضْلِهَا دُوْ مُكْنَةٍ حَتَّى لَقَدْ خُصِّتْ بِرَوْضَةِ جَنَّةِ
 اللَّهُ شَرَفَهَا بِهَا وَحَبَاهَا
 هِيَ غَيْرُ خَافِيَةٍ لِقَلْبٍ مُبْصِرٍ فَاعْيِلْ مِنَ الْأَهْوَاءِ قَلْبَكَ وَانْظُرِ
 وَابْشُرْ هُنَاكَ الْخَدَّ مِنْكَ وَعَقْرِ مَا بَيْنَ قَبْرِ لِسْنَبِي وَمِنْبَرِ
 حَيَا الْإِلَهِ رُسُولُهُ وَسَقَاهَا

مَحْرُوسَةٌ مِنْ كُلِّ رَجَزٍ طَارِقٍ وَدُخُولِ دَجَالٍ وَطَغْيٍ لَا حَقِ
قَالَمَرُهُ فِيهَا دُورُ فُؤَادٍ وَائِيقٍ هَذِي مَحَاسِنُهَا فَهَلْ مِنْ عَاشِقٍ

كَلِيفٍ شَجِيحٍ بَاخِلٍ يَنْوَاهَا
رَبِّي أَدْمِنِي فِي حِمَايَةِ صَوْنِهَا وَمَتَى هَمَمْتُ بِغَيْبَةٍ عَنْ عَيْنِهَا
فَأَجْعَلْ تَمَازِييَ قَبْلَ سَاعَةِ كَوْنِهَا إِنِّي لِأَوْهَبُ مِنْ تَوَقُّعِ بَيْنِهَا
فَيَظْلُ قَلْبِي مُوجِعاً أَوَْاهَا

يَا خَيْرَ مَسْئُولٍ وَأَكْرَمَ مَنْ دُعِيَ لَا تُفْصِ عَنْهَا رِخْلَتِي وَتَوَدُّعِي
فَمِنْ الْخَسَارِ فِرَاقُ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ وَلَقَلَّمَا أَبْصَرْتُ حَالَ مُوَدِّعِ

إِلَّا زَيْتُ نَفْسِي لَهُ وَشَجَاهَا
لَا تَجْعَلُوا عَنْهَا الرُّجِيلَ صِنَاعَةً إِنِّي أَرَى ذَلِكَ الرُّجِيلَ إِضَاعَةً
وَإِذَا أَقَمْتُمْ كَانَ ذَلِكَ طَاعَةً فَلَكُمْ أَرَاكُمُ قَافِلِينَ بِجَمَاعَةٍ

فِي إِثْرِ أُخْرَى طَالِبِينَ لَوَاهَا
فِيمَ التَّرَحُّلِ فِي الْمَدِينَةِ صَوْنُكُمْ وَبِحَاوِ خَيْرِ الْخَلْقِ يَخْضَلُ عَوْنُكُمْ
قَالَخَيْرُ مَكْتُكُمُ هُنَاكَ وَكَوْنُكُمْ قَسْماً لَقَدْ أَذْكَى فُؤَادِي بَيْنُكُمْ

جَزَعاً وَقَجَرٌ مُثْلَتِي مَبَاهَا
ضَيَعْتُمْ وَاللَّهِ كُلَّ جَمِيلَةٍ عَوِدُوا فَمَا خَيْرَائِهَا بِقَلِيلَةٍ
مَا لِي إِذَا لَمْ يَقْبَلُوا مِنْ جِيلَةٍ إِنْ كَانَ يُزْعِجُكُمْ طَلَابُ قُضِيلَةٍ

فَالْخَيْرُ أَجْمَعُهُ لَدَى مَنْوَاهَا
أَوْ كَانَ يَدْعُوكُمْ إِلَى أَنْ تَرْحَلُوا جَاهُ يُنَالُ فَجَاهُ أَحْمَدُ أَكْمَلُ
أَوْ نَالَكُمْ ظَمَأَ فَهَذَا الْمَنْهَلُ أَوْ حِفْتُكُمْ ضُرّاً بِهَا فَتَأْمَلُوا

بَرَكَاتٍ بُلَغَتْ بِهَا أَرْكَاهَا
فَإِذَا امْرُؤٌ لَمْ يَرْحَلْ مِنْ شِدَّةٍ فِيهَا وَعَاشَ بِهَا بِأَسْرِ بُلَغَةٍ
فَافْتَحْ هُنَاكَ وَلَوْ بِأَذْنَى لُفْمَةٍ أَفْ لِمَنْ يَبْغِي الْكَثِيرَ لِشَهْوَةٍ

لِرَفَاهَةٍ لَمْ يَذِرْ مَا غُفِّبَاهَا
لَا تُرَحِّلَنَّ لِشَهْوَةٍ وَتَلْدُذِ وَانْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الْحِمَى وَتَلْدُذِ
وَبِمَا يُقِيمُ النَّفْسَ فَافْتَحْ وَاعْتَدِ فَالْعَيْشُ مَا يَكْفِي وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي

يُطْغِي النَّفْسَ وَلَا تَخْسِيسُ مَنَاهَا

إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَكْتَرِثْ بِمَجَاعَةٍ فِيهَا وَعَاشَ بِهَا مُلَازِمَ طَاعَةٍ
 وَرَأَى الْمَقَامَ بِهَا سِينَ كَسَاعَةٍ يَا رَبِّ أَسْأَلُ مِنْكَ فَضْلَ قَنَاعَةٍ
 بِسِيرَتِهَا وَتَحْصُنَا بِحِمَاها
 هِيَ نِعْمَةٌ فَأَفِضْ عَلَيَّ نِعِمَّتِهَا وَتَوَلَّ زَائِرَهَا وَأَرْضَ مُقِيمِهَا
 وَأَنَا السَّعِيدُ إِذَا رَزَقْتُ قُدُومَهَا وَرِضَاكَ عَنِّي دَائِمًا وَلَزُومَهَا
 حَتَّى تُوَافِيَ مُهْجَتِي أَخْرَافَهَا
 سَهَّلْتَ يَا رَبِّي وَضَوَّلَهَا وَحَنَنْتَ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ دُخُولَهَا
 وَالنَّفْسُ تَسْأَلُ يَا كَرِيمُ قَبُولَهَا فَأَنَا الَّذِي أُعْطِيتُ نَفْسِي سُؤْلَهَا
 وَقَبِلْتَ دَعْوَتَهَا فَيَا بُشْرَاهَا
 إِنْ كُنْتَ ذَا صِدْقٍ وَصَاحِبَ هِمَّةٍ فَاحْدِثْ حِمَاهُ فَلَيْسَ ضَائِعَ خِدْمَةٍ
 وَأَقِمْ فَإِنَّكَ لَا تَزَالُ بِنِعْمَةٍ بِجَوَارِ أَوْلَى الْعَالَمِينَ بِذِمَّةٍ
 وَأَعَزُّ مَنْ بِالْقُرْبِ مِنْهُ يُبَاهَى
 مَعَ كُلِّ رَحْبٍ أَمْ طَيِّبَةٌ فَانْفُذِ وَبِمِلْءِ كَفِّ إِنْ تَيْسَّرَ فَاغْنِذِ
 وَبِكُلِّ عَامٍ فِي زِيَارَتِهِ تُخِذِ مَنْ جَاءَ بِالْآيَاتِ وَالنُّورِ الَّذِي
 دَاوَى الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى فَشَقَّاهَا
 وَلَهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ أَشْرَفُ رُتَبَةٍ وَهُوَ الشَّفِيعُ لَنَا الْكَرِيمُ الْمُثَنَّى
 وَهُوَ الْمُكْرَمُ بِاخْتِصَاصِ الرُّؤْيَا أَوْلَى الْأَنَامِ بِخُطَّةِ الشَّرَفِ الَّتِي
 تُدْعَى الْوَسِيلَةَ خَيْرُ مَنْ يُعْطَاهَا
 كُلُّ الْمَكَارِمِ هُنَّ طَيِّبُ بُرُودِهِ وَلَقَدْ أَضَاءَ الْكَوْنُ عِنْدَ وُجُودِهِ
 وَالْبَحْرُ يَقْضِرُ عَنْ مَوَاهِبِ جُودِهِ إِنْسَانُ عَيْنِ الْكَوْنِ سِرُّ وَجُودِهِ
 يَاسِينَ إِكْسِيرُ الْحَيَاةِ طَاهَا
 كَانَتْ حِمَامُ الْغَارِ بَعْضَ حِمَايَةِ وَالذُّئْبُ فِي الْبَيْدَاءِ بَعْضَ دُعَايِهِ
 مَاذَا أُعِدُّ مِنْ جَلَالَةِ ذَاتِهِ حَسْبِي فَلَسْتُ أَفِي بِبَعْضِ صِفَاتِهِ
 وَلَوْ أَنَّ لِي عَدَدَ الْحَصَى أَفْرَافَهَا
 حَكَمَ الشُّفَاعَةِ فِي يَدَيْهِ وَأَمَرَهَا وَغَزَالَ نَادَتْهُ أَذْهَبْ ضُرُّهَا
 وَالرُّوحُ حِينَ أَتَتْهُ شَرُوفُ قَدَرِهَا كَثُرَتْ مَحَاسِنُهُ فَأَعْجَزَ حَضَرَهَا
 فَغَدَتْ وَمَا نَلَقَى لَهَا أَشْبَاهَهَا

اللَّهُ أَرْسَلَهُ بِكُلِّ هِدَايَةٍ وَحَبَاهُ فِي الدَّارَيْنِ كُلَّ عِنَايَةٍ
 فَلَقَدْ حَوَى فِي الْمَجِيدِ أَبْعَدَ غَايَةٍ إِنِّي اهْتَدَيْتُ مِنَ الْكِتَابِ بِآيَةٍ
 فَعَلِمْتُ أَنَّ غُلَاهُ لَيْسَ يُضَاهَى
 فَشَهِدْتُ أَنَّ اللَّهَ خَصَّ مُحَمَّدًا فَقَدَا بِأَمْلَاكِ السَّمَاءِ مُؤَيَّدًا
 وَعَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ مُمَجَّدًا وَرَأَيْتُ فَضْلَ الْعَالَمِينَ مُحَدَّدًا
 وَفَضَائِلَ الْمُخْتَارِ لَا تُتَّقَاهَى
 أَمْدَاحُهُ تَبْقَى عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ كَمْ آيَةٍ فِينَا لَهُ مَذْحُ حَسَنٍ
 أَغْيَتْ مَذَائِحُهُ الْجِسَانَ ذَوِي اللُّسَنِ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى تَقْصِي مَذْحٍ مَنْ
 قَالَ إِلَهُ لَهُ وَحْسُوكَ جَاهَا
 مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ فَخُصَّ وَكُرِّمًا وَيَقُولُ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ لَقَدْ سَمَا
 وَكَفَاهُ مَا قَدْ قَالَهُ رَبُّ السَّمَاءِ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
 فِيَمَا يَقُولُ يُبَايِعُونَ اللَّهَ
 شَهِدْتُ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ بِفَضْلِهِ فَلَأَجَلِ خُلُوعِهِمْ أَتَوْا مِنْ قَبْلِهِ
 وَلَهُ يَوَازُ الْحَمْدُ خُصَّ بِحَمْلِهِ هَذَا الْقَحَارُ فَهَلْ سَمِعْتَ بِمِثْلِهِ
 وَاهَا لِنَشَأَتِهِ الْكَرِيمَةِ وَاهَا
 يَا أُمَّةَ الْهَادِي وَمَنْ كَمِئَالِكُمْ فَجَلَالُ أَحْمَدَ شَاهِدُ بِكَمَالِكُمْ
 هُوَ سِتْرُكُمْ هُوَ دُخْرُكُمْ لِمَالِكُمْ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا فَيَذَلِكُمْ
 تُهْدَى النُّفُوسُ لِرُشْدِهَا وَغَتَاهَا
 مَا فِي عِبَادِ اللَّهِ مِثْلُ مُحَمَّدٍ فَمَقَامُهُ الْمُحْمَرُّ يُعْرَفُ فِي عَدٍ
 وَلِحُزْنِهِ الْمُرُورُ أَكْرَمُ مُورِدٍ صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ غَيْرَ مُقِيدٍ
 وَعَلَيْهِ مِنْ بَرَكَاتِهِ أَلَمَاهَا
 إِنَّ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ تُنْجِينَا عَذَا فَإِذَا هُمُودُ ذَكَرُوا لَذِيكَ مُحَمَّدًا
 غِظَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ أَكْبَادَ الْعِدَا وَعَلَى الْأَكَابِرِ إِلَيْهِ سَرِجُ الْهُدَى
 أَكْرَمَ بِمِثْرَتِهِ وَمَنْ وَالَاهَا
 أَغْرَزَ بِآلِ مُحَمَّدٍ فَلَدِيَهُمْ يُغْطِي الْمُنَى قَالِجُودُ مَلِكُ يَدِيَهُمْ
 وَإِلَيْهِ صَرَفُ ثَنَائِنَا وَإِلَيْهِمْ وَكَذَا السَّلَامُ عَلَيْهِ ثُمَّ عَلَيْهِمْ
 ... وَعَلَى عَصَابَتِهِ الَّتِي زَكَّاهَا

كَانُوا إِذَا التَّمَسَّ السَّمَاحُ سَحَابَهُ وَلَقَدْ أَتَوْا عِنْدَ الْحَوَائِجِ بَابَهُ
مَلَكَوْا مِنَ الْمَجِيدِ الْأَيْبِلِ لِبَابَهُ أَغْنَيْهِ الْكَرَامُ أُولِي الثُّهَى أَصْحَابَهُ

فِئْتَةُ الثَّقَى وَمَنِ اهْتَدَى بِهَدَاهَا
مَذْجِي لِأَحْمَدَ لَا جَمَى كَمَلَاذِهِ فَإِنْ ارْتَضَاهُ وَجَادَ لِي بِتَفَازِهِ
فَلَنِعْمَ مَا أَنَا عَائِدٌ بِمُعَاذِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ وَهَذِهِ
نَجَرَتْ وَظَلَّتْ لِي أَنَّهُ يَرْضَاهَا

زاد مُحَمَّمُهَا الشَّيْخَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ، عَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْتِهِ وَلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ آمِينَ:
مُبِخْتُ قَصِيدُ الْبِشْكَرِيِّ قَبُولاً وَسُئِلْتُ فِي تَخْمِيصِهَا لِتَطْوِلَ
فَارْدْتُ فِي بَابِ الثُّوَابِ دُخُولاً وَأَطَلْتُ فِي نَسْجِ الْكَلَامِ دُيُولاً
قِيلَ الرِّيَاضُ نَمَتْ فَرَادَ شَذَاهَا

عَفَرَ الْإِلَهَ لَهُ وَلِي وَلِمَنْ قَرَا وَأَعَدُّ فِي دَارِ النُّعِيمِ لَنَا الْقِرَى
وَحِبَاهُ أَجَرَ الْمُخْلِصِينَ لَنَا الْقِرَى فَعَلَى قَصِيدَتِهِ سَنَا صِدْقِي يُرَى

وَكَفَّتُهُ رُؤْيَا فِي الْمَنَامِ رَأَاهَا
قَالَ الرَّشُولُ لَهُ رَضِيَتْ قِيَا لَهَا بُشْرَى بِبَيْتِهِ الْجَمِيلَةِ نَالَهَا
فَإِنْ ارْتَضَيْتُ بِأَنْ أَتَالَ مِثْلَهَا فَهِيَ السَّعَادَةُ قَدْ مُبِخْتُ نَوَالَهَا

وَهُنَاكَ تَظْفُرُ مُهْجَتِي بِمُنَاهَا
يَا رَبِّ بِالْمُخْتَارِ يَسُرُّ أَمْرَنَا وَأَغْفِرْ خَطَايَانَا وَأَذْهِبْ ضُرْرَنَا
وَأَجْزِلْ عَطَايَانَا وَأَجْمِلْ سَثْرَنَا وَأَجْعَلْ بِطَيْبَةِ فِي جِمَاهِ مَقْرَنَا

وَأَجِبْ سُؤَالَ نَفْسِنَا وَدُعَاهَا
يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَالْآلِ وَالصُّحْبِ الْكَرَامِ الْمَخْتَرِ
الْقَائِمِينَ الرَّائِضِينَ الشُّجْعَانِ بِحِمَاةِ دِينِكَ بِاللُّسَانِ وَبِالْيَدِ

وَالْمَالِ حُبًّا لِلرُّشُولِ وَجَاهَا

تنبيه: سيأتي في المعجزات وفي الخصائص أشياء تتعلق بالمدينة الشريفة الكريمة إن شاء الله تعالى.

جماع أبواب بعض حوادث من السنة الأولى والثانية من الهجرة

الباب الأول

في صلاته صلى الله عليه وسلم الجمعة ببني سالم بن عوف

وهي أول جمعة صلاتها وأول خطبة في الإسلام كما جزم به [أبو سلمة بن عبد الرحمن] في العيون [نقل عن] ابن إسحاق، والبيهقي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: «كان أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: [أما بعد]: أيها الناس فقدّموا لأنفسكم تغلّبوا والله [ليضعقن] أخذكم ثم ليدعن غنمكم ليس لها راع، ثم ليقولن له ربّه، وليس له تزجّمان ولا حاجب يحجبّه دونه؛ ألّم يأتك رسولك فبلغك وأتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدّمت لنفسك؟ فليظننّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ليظننّ قدّامه فلا يرى غير جهنّم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرّة فليفعّل، ومن لم يجد فيكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنّة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته».

ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلّح من زبّنه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أجبوا من أحبّه الله، أجبوا الله من كل قلوبكم ولا تمّلوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويضطفي قد سمّاه الله خيرته من الأعمال ومضطفاً من العباد والصالحين الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتّقوا حقّ ثقّاته واضدّقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتخابوا بزوج الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وروى ابن جرير عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاتها بالمدينة في بني سالم بن عوف: «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له،

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ، وَالنُّورِ وَالْمَوْعِظَةِ، عَلَىٰ قَثْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَقَلِيلَةٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَضَلَالَةٍ مِنَ النَّاسِ، [وانقطاع من الزمان]، وَدُثُوٍّ مِنَ السَّاعَةِ، وَقُرْبٍ مِنَ الْأَجَلِ، مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعْصِيهِمَا فَقَدْ غَوَىٰ وَقُرُوطٌ وَضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا. أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ مَا أُوصَىٰ بِهِ الْمُسْلِمُ الْمُسْلِمُ أَنْ يَحْضُرَهُ عَلَى الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَأْمُرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمُ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرًا، وَإِنْ تَقْوَى اللَّهِ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ عَلَى وَجَلٍ وَمَخَافَةٍ مِنْ رَبِّهِ عَوْنٌ صِدْقٍ عَلَى مَا تَبْتَغُونَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ يُصْلِحِ [الذي] بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ [أمره في] السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ لَا يَتَوَيَّ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ يَكُنْ لَهُ ذِكْرًا فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ [وَذِكْرًا] فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، حِينَ يَفْتَقِرُ الْمَرْءُ إِلَى مَا قَدَّمَ، وَمَا كَانَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ يَتَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْتَهُ وَبَيْتَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] هُوَ الَّذِي صَدَقَ قَوْلُهُ، وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ، لَا خُلْفَ لَذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَا يَنْتَدِلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق ٢٩] فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وَآجِلِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهُ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق ٥] وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا. وَإِنْ تَقْوَى اللَّهِ تُؤَقِّي مَقْتَهُ وَتُؤَقِّي عِقَابَهُ وَتُؤَقِّي سَخَطَهُ وَإِنْ تَقْوَى اللَّهِ تُبَيِّضُ الْوُجُوهَ، وَتُرْضِي الرُّبَّ، وَتَرْفَعُ الدَّرَجَةَ. فَحَذَرُوا بِحُظِّكُمْ وَلَا تُفَرِّطُوا فِي جَنْبِ اللَّهِ، فَقَدْ عَلَّمَكُمْ كِتَابَهُ، وَنَهَجَ لَكُمْ سَبِيلَهُ، لِيَعْلَمَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَيَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ. فَأَحْسِنُوا كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ، وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَسَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال ٤٢] وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَاعْمَلُوا لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُصْلِحْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَكْفِهِ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يَقْضِي عَلَى النَّاسِ وَلَا يَقْضُونَ عَلَيْهِ، وَيَمْلِكُ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ. اللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ^(١).

تنبيهات

الأول: قال في الرُّوض: قَوْلُهُ ﷺ: «أَجِبُوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكُمْ»، يريد أن تستغرقَ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى جَمِيعَ أَجْزَاءِ الْقَلْبِ، فَيَكُونُ ذِكْرُهُ وَعَمَلُهُ خَارِجًا مِنْ قَلْبِهِ خَالصًا لِلَّهِ. وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَحَبَّتِهِ لِعَبْدِهِ، وَمَحَبَّةَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ فِي اسْمِهِ ﷺ: «حبيب الله».

وقوله ﷺ: «وَلَا تَمَلُّوا كَلَامَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ. فَإِنَّهُ مَنْ كُلَّ مَا يَخْلُقُ اللَّهُ يَخْتَارُ وَيَضْطَرُّ فِي» قال السهيلي: الهاء في قوله: (فإنَّه) لا يجوز أن تكون عائدة على كلام الله تعالى، ولكنها

(١) أخرجه ابن جرير في التاريخ ٢/٢٥٥.

ضمير الأمر والحديث، فكأنه قال: إن الحديث من كل ما يخلق الله يختار، فالأعمال إذا كُتِلها من خلق الله، قد اختار منها ما شاء، قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

وقوله: «قد سمَّاه الله خَيْرَتَهُ من الأعمال»، يعني الذكر وتلاوة القرآن [لقوله سبحانه: «ويختار» فقد اختاره من الأعمال]. وقوله: «والمُصْطَفَى من عبادته»: أي سَمَّى المصطفى من عبادته بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج ٧٥] ويجوز أن يكون معناه المصطفى من عبادته أي العَمَل الذي اصطفاه منهم واختاره من أعمالهم، فلا تكون «من» على هذا للتبعض، إنما تكون لا ابتداء الغاية، لأنه عمل استخرجه منهم لتوفيقه إياهم، والتأويل الأول أقرب مأخذاً. والله أعلم بما أراد رسوله.

وقوله في أول الخطبة: «إن الحمد لله أحمده»، هكذا برفع الدال [من قوله: الحمد لله] (٤) وَجَدْتُهُ مُقْبِداً مُصَحِّحاً عليه، وإعراجه ليس على الحكاية، ولكن على إضمار الأمر، كأنه قال: «إن الأمر الذي أذكره»، حَذَفَ الهاء العائدة على الأمر كي لا يُقَدِّم شيئاً في اللفظ من الأسماء على قوله: «الحمد لله». وليس تقديم «إن» في اللفظ من باب تقديم الأسماء لأنها حُرِفَتْ مُؤَكِّدًا لِمَا بَعْدَهُ مع ما في اللفظ من التَّخَرُّي للفظ القرآن والتَّيَمُّن به والله أعلم.

الثاني: اِحتُلِفَ في تسمية اليوم بذلك، مع أنه كان اتفاقاً يُسَمَّى في الجاهلية: «العزوبة» - بفتح المهملة وضَمِّ الراء والمُؤَخَّدة - قلت: قال أبو جعفر النحاس في كتابه: «صناعة الكتابة»: لا يعرفه أهل اللغة إلا بالألف واللام إلا شاذاً، ومعناه اليوم المُبَيِّن المُعْظَم من أَغْرَبَ إذا بَيَّنَّ. فقيل: سُمِّيَ بذلك لأن الخلائق جمعت فيه، ذكره أبو حذيفة البخاري في المبتدا عن ابن عباس، وإسناده ضعيف. وقيل: لأن خَلَقَ آدم جمع فيه.

وروى الإمام أحمد والنسائي وابن خزيمة وابن أبي حاتم عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرِي ما يوم الجمعة؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قالها ثلاث مرَّات. قال في الثالثة: «هو اليوم الذي جمع فيه أبوكم آدم». الحديث، وله شاهد عن أبي هريرة رضي الله عنه، رواه ابن أبي حاتم بإسناد قوي، والإمام أحمد مرفوعاً بإسناد ضعيف. قال الحافظ: «وهذا أَصَحُّ. ويليه ما رواه عبد الرزاق عن ابن سيرين بسند صحيح إليه، في قصة تجميع الأنصار، مع أسعد بن زُرَّارة. وكانوا يسمون يوم الجمعة يوم العزوبة، صَلَّى بهم فيه وَذَكَّرَهُمْ فَسَمَّوْهُ يوم الجمعة حين اجتمعوا إليه». وقيل: «سُمِّيَ بذلك لاجتماع الناس للصلاة فيه». وبهذا جَزَمَ ابنُ حَزْمٍ فقال: إنه اسم إسلامي لم يكن في الجاهلية وإنما كان يُسَمَّى العزوبة. وفيه نَظَرٌ، فقد قال أهل اللغة: إن العزوبة اسم قديم كان للجاهلية، وقالوا: الجمعة هو يوم العزوبة. والظاهر أنهم غَيَّرُوا الأيام السبعة بعد أن كانت: أوَّلُ وأَوهَوْنَ ومُجَبَّارٌ ودُبَّارٌ ومُؤَنِّسٌ وعَزُوبَةٌ وشِيَارٌ.

في صلاته ﷺ الجمعة ببني سالم بن عوف

وقال الجوهري: وكانت العرب تسمي يوم الاثنين «أَهْوَن» في أسمائهم القديمة. فهذا يُشعرُ بأن لها أسماء وهي هذه المُتعارفة إلى آخرها الآن. وقيل: إن أول من سَمَّى العزوبة «الجمعة» كعب بن لؤي، فيحتاج من قال إنهم غَيروها إلى الجمعة، فأَبْقَوْها على تسمية العزوبة إلى نقل خاص.

الثالث: تَقَدَّمَ أن صلاة الجمعة صَلَّتها الصُحابة بالمدينة قبل قدوم النبي ﷺ المدينة، فقليل ذلك بإذن من النبي ﷺ لِمَا رواه الدارقطني عن ابن عباس، قال: أَذِنَ رسول الله ﷺ بالجمعة قبل أن يهاجر، ولم يستطع رسول الله ﷺ أن يجمع بمكة ولا [بيدي] لهم، فكتب إلى مُضْعَب بن عُمَيْر رضي الله عنه: «أما بعد فانظر اليوم الذي تَجْهَر فيه اليهود بالزبور لَسَبِّهِمْ، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فَتَقَرَّبُوا إلى الله تعالى بركعتين». قال: فَأَوَّلُ من جَمَعَ مُضْعَب بن عُمَيْر حتى قَدِم رسول الله ﷺ المدينة، فَجَمَعَ عند الزوال من الظهر، وأظهر ذلك. وفي سنده أحمد بن محمد بن غالب الباهلي، وهو متهم بالوضع. قال في الزهر: «والمعروف في هذا المتن الإرسال، زَوَيْنَاهُ في كتاب الأوائل لأبي عروبة الخزازي» قال: «حَدَّثَنَا هاشم بن القاسم حدثنا ابن وَهْب حدثنا ابن جُرَيْج عن سليمان بن موسى أن النبي ﷺ كتب إلى مصعب به». وقيل باجتهاد الصُحابة، روى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال: جَمَعَ أهل المدينة قبل أن يَقْدَمَهَا رسول الله ﷺ، وقبل أن تنزل الجُمُعة، فقالت الأنصار: إن لليهود يوماً يُجْمَعُونَ فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك فَهَلُّمُوا فلنجعل يوماً تُجْمَعُ فيه فنذكر الله ونصلي ونشكر. فجمعوه يوم العزوبة، واجتمعوا إلى أسعد بن زُرارة، فَصَلَّى بهم يومئذ، وأَنزل الله تعالى بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة ٩] قال الحافظ: وهذا وإن كان مُوسَلًّا فله شاهد بإسناد حسن، رواه أبو داود وابن ماجه، وَصَحَّحَهُ ابنُ خُزَيْمَةَ وغير واحد من حديث كعب بن مالك قال: «كان أول مَنْ صَلَّى بنا الجُمُعة قبل مَقْدَم النبي ﷺ المدينة أسعد بن زُرارة»، الحديث وقد تَقَدَّمَ، فمُرَّسَل ابن سيرين يدل على أن أولئك الصُحابة اختاروا يوم الجمعة باجتهاد، ولا يمنع ذلك أن يكون النبي ﷺ عَلِمَهُ بِالْوَحْيِ وهو بمكة، فلم يتمكن من إقامتها كما في حديث ابن عباس والمُرَّسَل بعده، ولذلك جَمَعَ بهم أول ما قَدِمَ المدينة كما حكاه ابن إسحاق وغيره، وعلى هذا فقد حصلت الهداية للجمعة بِخَيْرِ نَبِيِّ البَيان والتوفيق. وقيل: الحكمة في اختيارهم الجمعة وقوع خَلْقِ آدَمَ فيه، والإنسان إنما خُلِقَ للعبادة، فناسب أن يشتغل بالعبادة فيه، وكان الله تعالى أكمل فيه الموجودات وأوجد فيه الإنسان الذي يَنْتَفِعُ بها، فناسب أن يشكر الله على ذلك بالعبادة فيه، ولهذا تَبِعَهُ تَأْتِي فِي الخصائص إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني

في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات

تَقَدَّمَ أَنْ نَاقَتَهُ ﷺ بَرَكَتٌ عِنْدَ بَابِ مَسْجِدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، ثُمَّ أَخَذَ فِي النُّزُولِ، فَقَالَ: «رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزِلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» [المؤمنون ٢٩]. وَكَانَ مِرْبَدًا لِيَتِيَمَيْنِ هُمَا: سَهْلٌ وَشَهْلٌ، قَالَ يَحْيَى بْنُ الْحَسَنِ، وَالْبَلَاذُرِيُّ وَغَيْرُهُمَا: «ابْنُ رَافِعٍ بْنُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ عَائِذٍ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَنَمٍ بْنُ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، وَبِذَلِكَ صَرَّحَ ابْنُ حَزْمٍ، وَأَبُو عَمْرٍو وَرَجَّحَهُ، وَكَانَا فِي جَبْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَّارَةَ كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عِنْدَ أَكْثَرِ رَوَاتِهِ. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَ إِلَى بَنِي النَّجَّارِ بِسَبَبِ مَوْضِعِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: «يَا بَنِي النَّجَّارِ، تَأْمِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا»^(١)، فَقَالُوا: «وَاللَّهِ لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا مِنْ اللَّهِ». وَفِي رِوَايَةٍ: فَدَعَا بِالْغُلَامَيْنِ وَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا. فَقَالَا: بَلْ نَهَبَهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا. وَكَانَ أَسْعَدُ بَنَى الْمِرْبَدَ مَسْجِدًا قَبْلَ أَنْ يَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ.

وَرَوَى يَحْيَى بْنُ الْحَسَنِ عَنِ الثَّوَارِ بِنْتِ مَالِكِ أُمِّ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّهَا رَأَتْ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ قَبْلَ أَنْ يَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ، يُصَلِّي بِالنَّاسِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَيُجْمَعُ بِهِمْ فِي مَسْجِدِ بَنَاهُ فِي مِرْبَدٍ سَهْلٍ وَشَهْلٍ، ابْنُ رَافِعٍ بْنُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ عَائِذٍ قَالَتْ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - لَمَّا قَدِمَ صَلَّى بِهِمْ فِي ذَلِكَ الْمَسْجِدِ، وَبَنَاهُ فَهُوَ مَسْجِدُهُ»، وَذَكَرَ الْبَلَاذُرِيُّ نَحْوَهُ.

وَرَوَى الشَّيْخَانُ وَابِیْهَقِي عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ الْمَسْجِدُ جِدَارًا لَيْسَ لَهُ سَقْفٌ، وَقَبْلَتُهُ إِلَى الْقُدْسِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِالنُّخْلِ بِالْعَرَقَدِ أَنْ يُقَطَّعَ، وَكَانَ فِيهِ قُبُورُ جَاهِلِيَّةٍ، فَأَمَرَ بِهَا فُتِّشَتْ وَأَمَرَ بِالْعِظَامِ أَنْ تُغَيَّبَ، وَكَانَ فِي الْمِرْبَدِ مَاءٌ فَسَيَّرَهُ حَتَّى ذَهَبَ، وَكَانَ فِيهِ خَرِبٌ فَأَمَرَ بِهَا فَسَوِّتَ، فَصَفَّقُوا النُّخْلَ قِبَلَهُ، أَيْ جَعَلَتْ سَوَارِي لَهُ فِي جِهَةِ الْقِبْلَةِ فَسَقَّفَ عَلَيْهَا وَجَعَلُوا عِبَادَتِيهِ حِجَابًا.

وَرَوَى ابْنُ عَائِذٍ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - صَلَّى فِيهِ وَهُوَ عَرِيشُ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا ثُمَّ سَقَّفَ، وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمَخْزُومِيُّ، وَيَحْيَى بْنُ الْحَسَنِ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: «لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ يَبْنِيَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «ابْنُوا لِي عَرِيشًا كَعَرِيشِ مُوسَى ثُمَامَاتٍ وَخَشَبَاتٍ وَظُلَّةَ كَظُلَّةِ مُوسَى وَالْأَمْرُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ». قِيلَ: وَمَا ظُلَّةُ مُوسَى؟ قَالَ: «كَانَ إِذَا قَامَ أَصَابَ رَأْسَهُ

(١) أخرجه البخاري ١١٧/١ ومسلم في كتاب المساجد (٩) وأبو داود (٤٥٣) وابن ماجه (٨٦).

في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات

السَّقْفُ. وعَمِلَ رسول الله ﷺ مع الصحابة في بناء المسجد، بنفسه الكريمة، كما في الصحيح أنه طَفِقَ ينقل معهم اللَّيْلَ ترغيباً لهم في العمل» ويقول:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجَرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ^(١)

ويُذَكِّرُ أَنَّ هذا البيت لعبد الله بن رَوَاحَةَ، وعن الزهري أَنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: اللهم لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ فارحم المهاجرين والأنصار. وكان لا يقيم الشُّغْرَ.

وروى محمد بن الحسن المخزومي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: «بنى رسول الله ﷺ مسجده فَقَرَّبَ اللَّيْلَ وما يحتاجون إليه، فقام رسول الله ﷺ فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون والأنصار أَلْقَوْا أَرْدِيَتَهُمْ وَأَكْسِيَتَهُمْ وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون:

لَمِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ذَاكَ إِذَا لَلْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ^(٢)

وروى البيهقي عن الحسن قال: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد أعانته أصحابه وهو معهم يتناول اللَّيْلَ حتى اغْبَرَّ صَدْرُهُ. وكان عثمان بن مظعون رجلاً مُتَتَّعِعاً وكان يَحْمِلُ اللَّيْلَةَ فيجأني بها ثَوْبَهُ، فإذا وَضَعَهَا نَقَضَ كُمَّهُ ونظر إلى ثَوْبِهِ، فإن أصابه شيء من التراب نَقَضَهُ، فنظر إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأنشد يقول:

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَغْمُرُ الْمَسَاجِدَا يَذَابُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدَا

وَمَنْ يُرَى عَنِ الْغُبَارِ حَائِدَا

فَسَمِعَهَا عمار بن ياسر، فجعل يَرْتَجِزُ بها وهو لَا يَذَرِي مَنْ يَغْنِي بها. فَمَرَّ بعثمان فقال: يا بن سُمَيَّةَ، ما أَعْرِفُنِي بمن تُعَرِّضُ، ومعه جريدة، فقال: لَتَكُفَّنَّ أَوْ لَأَعْتَرِضَنَّ بها وَجْهَكَ. فَسَمِعَهُ رسول الله - ﷺ -، فَغَضِبَ ثم قال: «إِنَّ عَمَّارَ بن ياسر جِلْدَةٌ ما بين عَيْنَيَّ وَأَنْفِي فإذا بُلِغَ ذلك من المرء فقد أبلغ». ووضع يَدَهُ بين عَيْنَيْهِ. فَكَفَّ النَّاسُ عن عَمَّارٍ، ثم قالوا لعَمَّار: إِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قد غَضِبَ فيكَ، ونخاف أن يَنْزِلَ فينا قرآن. فقال: أَنَا أَرْضِيهِ كما غَضِبَ. فقال: يا رسول الله ما لي ولأصحابك؟ قال: «مَا لَكَ وَلَهُمْ؟» قال: يريدون قَتْلِي، يَحْمِلُونَ لَبَنَةً لَبَنَةً وَيَحْمِلُونَ عَلَيَّ لَبَنَتَيْنِ لَبَنَتَيْنِ. فَأَخَذَ بيده وطاف به في المسجد، وجعل يَمْسَحُ وَفَرَّتْه بيديه من التراب ويقول: «يَا بَنَ سُمَيَّةَ، ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَكَ إِلَى النَّارِ»، ويقول عَمَّار: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ.

(١) انظر البداية والنهاية ٢١٥/٣.

(٢) انظر البداية والنهاية ٢١٦/٣.

في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات . ٣٣٧

وروى عبد الرزاق بسند على شرط الشيخين عن أم سلمة، والبخاري والبيهقي^(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد، جعل أصحاب رسول الله ﷺ يحمل كل رجل منهم لبنة لبنة، وعمار يحمل لبنتين: لبنة عنه ولبنة عن رسول الله - ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ ظهره وقال: «يَا بَنَ سُمَّيَةَ لِلنَّاسِ أَجْرٌ وَلَكَ أَجْرَانِ، وَآخِرُ زَادِكَ شَرْبَةٌ مِنْ لَبَنٍ، وَتَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَكَ إِلَى النَّارِ»، وعمار يقول: «أعوذ بالله من الفتن».

وروى أبو يعلى برجال الصحيح إلا أن التابعي لم يسمع عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لَمَّا أَسَّسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ جَاءَ بِحَجَرٍ فَوَضَعَهُ، وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِحَجَرٍ فَوَضَعَهُ، وَجَاءَ عُمَرُ بِحَجَرٍ فَوَضَعَهُ، وَجَاءَ عِثْمَانُ بِحَجَرٍ فَوَضَعَهُ، قَالَتْ: فَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «هَذَا أَمْرُ الْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِي»^(٢).

وروى البيهقي بسند قوي جَيِّدٌ عَنْ سَفِينَةَ^(٣) رضي الله عنه نحوه، وفيه قال: «هؤلاء وُلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي». وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا يحملون اللبن إلى بناء المسجد ورسول الله ﷺ، قال: «فَاسْتَقْبَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ عَارِضٌ لِبْنَةٍ عَلَى بَطْنِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّهَا سَقَّتْ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْوِيلُهَا». فَقَالَ: «خُذْ غَيْرَهَا، لَا غَيْشَ إِلَّا غَيْشُ الْآخِرَةِ». وهذا كان في بنائه المرة الثانية، لأن أبا هريرة لم يُسَلِّمْ فِي الْأُولَى. وروى يحيى بن الحسن عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن أبيه، قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَهُ حَجَرٌ، فَلَقِيَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطِنِيهِ. فَقَالَ: «أَذْهَبَ فَاحْتَمِلْ غَيْرَهُ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِأَفْقَرٍ إِلَى اللَّهِ مِنِّي»^(٤).

وروى الإمام أحمد ويحيى بن الحسن عن طلق بن علي رضي الله عنه قال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ يَبْنِي الْمَسْجِدَ، وَالْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ فِيهِ مَعَهُ، وَكُنْتُ صَاحِبَ عِلَاجٍ وَخَلْطِ طِينٍ، فَأَخَذْتُ الْمِسْحَاةَ أَخْلِطُ الطِّينَ وَالنَّبِيَّ - ﷺ - يَنْظُرُ إِلَيَّ وَيَقُولُ: «إِنْ هَذَا الْحَنْفِيُّ لَصَاحِبُ طِينٍ». وَكَانَ يَقُولُ: «قَرُّبُوا الْيَمَامِيَّ مِنَ الطِّينِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُكُمْ لَهُ مَسْكًا وَأَشَدُّكُمْ مُنْكِبًا»^(٥).

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٦٩/٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في المسند ٢٩٥/٨ (٤٨٨٤) وذكره الهيثمي في المجمع ١٧٦/٥ وعزه لأبي يعلى وقال: ورجاله رجال الصحيح، غير التابعي فإنه لم يسم، وذكره ابن حجر في المطالب (٣٨٤١).

(٣) سفينة مولى رسول الله ﷺ... قيل: كان اسمه مهران وقيل: طهمان وقيل: مروان وقيل: لجران وقيل: رومان وقيل: ذكوان وقيل: كيسان وقيل: سليمان وقيل غير ذلك الإصابة ١٠٩/٣.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣٨١/٢.

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٤٠٢/٥.

في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات

وروى يحيى بن الحسن من طريق عبد العزيز بن عمر، عن يزيد بن السائب، عن خارجة بن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: «بنى رسول الله ﷺ، مسجده سبعين في ستين ذراعاً أو يزيد، ولَبِنَ لَبْنَةً من بقيق الخبضة وجعله جداراً وجعل سواريه خشباً شُقَّة شُقَّة، وجعل وَسَطَهُ رحبة، وبنى بيتين لزوجتيه».

وروى يحيى أيضاً عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان بناء مسجد رسول الله ﷺ - بالسميط لبنة على لبنة، ثم بالسعيد لبنة ونصف أخرى، ثم كَثُرَ الناس فقالوا: «يا رسول الله لو زيدَ فيه» ففعل، فبنى بالذَّكْر والأُنْثَى وهي لَبِنَتَانِ مختلفتان، وكانوا رفعوا أساسه قريباً من ثلاثة أذْوَاعٍ بالحجارة، وجعلوا طُولَهُ مما يلي القِبْلَةَ إلى مُؤَخَّرِهِ مائة ذراع، وكذا في العَرُوض، وكان مُرَبَّعاً. وفي رواية جعفر: ولم يُسَطَّحْ فَشَكَّوْا الحَرَّ، فجعلوا خَشَبَتَهُ وسواريه جذوعاً وظَلَّلُوهُ بالجريد ثم بالخَصَف، فلما وَكَّفَ عليهم طَيِّبُوهُ بالطين، وجعلوا وَسَطَهُ رَحْبَةً، وكان جِدَارُهُ قبل أن يُسَقَّفَ قامةً وشيئاً.

وروى يحيى عن [أسامة بن] زيد بن حارثة عن أبيه رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ - جعل قِبْلَتَهُ إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب في مُؤَخَّرِهِ: باب أبي بكر وهو في جهة القبلة اليوم، وباب عاتكة الذي يُدْعَى باب عاتكة ويقال له باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل منه رسول الله ﷺ، وهو باب آل عثمان اليوم، وهذان البابان لم يُعَيَّرَا بعد أن صُرِفَتِ القِبْلَةُ، ولما صُرِفَتِ القِبْلَةُ سَدَّ النَّبِيُّ ﷺ الباب الذي كان خَلْفَهُ، وَفَتَحَ هذا الباب، وحذاه هذا الباب أي ومحاذيه هذا الباب الذي سَدَّ.

وروى ابن زبالة عن جعفر بن محمد أن النبي ﷺ - بنى مسجده مرتين: بناء حين قَدِمَ أَقْل من مائة في مائة، فلما فتح الله عليه خَجِيزَ بناء وزاد عليه مثله في الدور. وروى الزبير بن بَكَّار عن أنس رضي الله عنه أنه قال: بنى رسول الله ﷺ - مسجده أول ما بناه بالجريد، وإنما بناه باللَّبْن بعد الهجرة بأربع سنين.

وروى الطبراني عن أبي المليح أنه قال: «قال رسول الله ﷺ - لصاحب البُقْعة التي زيدت في مسجد المدينة، وكان صاحبها من الأنصار، فقال النبي ﷺ -: «لَكَ بها بَيْتٌ في الْجَنَّةِ». قال: فجاء عثمان، فقال له: لَكَ بها عشرة آلاف دِرْهَم، فاشترها منه، ثم جاء عثمان إلى النبي ﷺ - فقال: يا رسول الله اشتر مني البُقْعة التي اشتريتها من الأنصاري، فاشترها منه ببیت في الجنَّة. فقال عثمان: إني اشتريتها بعشرة آلاف درهم، فوضع رسول الله ﷺ - لَبْنَةً، ثم دعا أبَا بكر فوضع لَبْنَةً، ثم دعا عُثْمَرَ فوضع لَبْنَةً، ثم دعا

عثمان فوضع لَبَنَةً، ثم قال للناس: «ضعوا»، فوضعوا^(١).

وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه في حديث قِصَّةِ إشراف عثمان يوم الدار، عن ثمامة بن حَزَن القَشِيرِي، والإمام أحمد والدارقطني عن الأحنف بن قيس، أن عثمان رضي الله عنه، أشرف على الناس فقال: «أَهْهْنَا عَلَيَّ؟» قالوا: نعم. قال: «أَهْهْنَا طَلْحَةَ؟» قالوا: نعم. قال: «أَتَشْكُم بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «مَنْ يَتَنَاقَشُ بَنِي فُلَانٍ فَلْيَزِيدْهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ؟» وفي رواية: «غفر الله له». فاشتريتها من صُلْبِ مَالِي بَعَثَرِينَ أَلْفًا فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - فَقُلْتُ: قَدْ ابْتَعْتُهَا. فقال: «اجعلها في مسجدنا ولك أجرها». قالوا: «اللهم نعم»^(٢).

وروى الزبير بن بَكَّار عن نافع بن جببر، وداود بن قيس، وابن شهاب وإسماعيل بن عبد الله الأزدي عن رجل من الأنصار، والطبراني بِسَنَدٍ رجاله ثقات، عن الشُّثُوس بنت النعمان رضي الله عنها، ويحيى بن الحُسن عن الخليل بن عبد الله الأسدي عن رجل من الأنصار، عن ابن عجلان والغرافي - بالغين المعجمة والفاء في ذيله - عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن ابن عُمر أن رسول الله - ﷺ - أقام رهطاً على زوايا المسجد لِيَعْدِلَ الْقِبْلَةَ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ، فقال: «يا رسول الله ضَعِ الْقِبْلَةَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَى الْكَعْبَةِ»، ثم قال بيده هكذا فَانْمَاطَ كُلَّ جَبَلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا فَوَضَعَ تَرْبِيعَ الْمَسْجِدِ، وهو ينظر إلى الكعبة لا يَحُولُ دُونَ نَظَرِهِ شَيْءٌ. فلما فرغ قال جبريل بيده فأَعَادَ الْجِبَالَ وَالشَّجَرَ وَالْأَشْيَاءَ عَلَى حَالِهَا وَصَارَتْ قِبْلَتُهُ إِلَى الْمِيزَابِ، فقال رسول الله ﷺ: «ما وضعت قِبْلَةَ مَسْجِدِي هَذَا حَتَّى رُفِعَتْ لِي الْكَعْبَةُ فَوَضَعْتُهَا أَمَامَهَا»^(٣).

وقال الإمام مالك رحمه الله كما في الْعُثْبِيَّة: «سَمِعْتُ أَنَّ جَبْرِيلَ هُوَ الَّذِي أَقَامَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قِبْلَةَ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ». وروى البخاري وأبو داود عن نافع، وأبو داود عن طريق ابن عطية، كلاهما عن ابن عُمر رضي الله عنهما أن مسجد رسول الله - ﷺ - كانت سُوَارِيهِ تَدْسِي عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ جَذْوَعِ النَّخْلِ وَأَعْلَاهُ مُظَلَّلٌ بِجَرِيدِ النَّخْلِ، ثُمَّ أَنَّهَا نَخَرَتْ مِثْلَ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ فَبَنَاهُ بِجَذْوَعِ النَّخْلِ وَبِجَرِيدِ النَّخْلِ، وَلَمْ يَزِدْ فِيهِ، وَزَادَ فِيهِ عُمرُ، وَبَنَاهُ عَلَى بَنَائِهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِاللَّيْلِ وَالْجَرِيدِ وَأَعَادَ عَمْدَهُ خَشَبًا، ثُمَّ أَنَّهَا نَخَرَتْ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ، فَزَادَ فِيهِ زِيَادَةٌ كَبِيرَةٌ، وَبَنَى جِدَارَهُ بِالْحِجَارَةِ الْمَنْقُوشَةِ وَالْقَصَّةِ، وَجَعَلَ عَمْدَهُ مِنْ حِجَارَةٍ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٦٣/١ وذكره الهيثمي في المجمع ٧٦/٩.

(٢) أخرجه النسائي ٢٣٤/٦.

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٨٣٤).

في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات

منقوشة وسَقَفَه بالسَّاج. زاد في العيون: وَنَقَلَ إِلَيْهِ الْحَضَبَاءُ مِنَ الْعَقِيقِ.

وأول من اتخذ فيه المقصورة مروان بن الحَكَم بناها بحجارة منقوشة [وجعل لها كَوَى]، ثم لم يُعْخِث فيه شيئاً إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أبيه، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه، وبعث إليه بمال وَتُسَيِّفَسَاءَ ورخام وثمانين صائغاً من الروم والقبط من أهل الشام ومصر، فبناه وزاد فيه، وولى القيام بأمره والنفقة عليه صالح بن كيسان وذلك في سنة سبع وثمانين ويقال: من سنة ثمان وثمانين.

ولم يُعْخِث فيه أَحَدٌ من الخلفاء شيئاً حتى اسْتُخْلِفَ المهدي. قال محمد بن عُثَر: بَعَثَ المهدي عبد الملك بن شبيب الْعَشَائِيَّ ورجلاً من وَلَدِ عمر بن عبد العزيز إلى المدينة لبناء مسجدها والزيادة فيه، وعليها يومئذ جعفر بن سليمان بن علي، فمكثا في عمله سنة، وزاد في مَوْسَرِهِ مائة ذراع فصار طوله ثلاثمائة ذراع وعَرْضُهُ مائتي ذراع. وقال علي بن محمد المدائني: «وَلَّى المهدي جعفر بن سليمان مكة والمدينة واليامة فزاد في مكة ومسجد المدينة، وَتَمَّ بناء مسجد المدينة في سنة اثنتين وستين ومائة. وكان المهدي أتى إلى المدينة في سنة ستين ومائة قبل الحج فأمر بقلع المقصورة وتسويتها مع المسجد، ويقال إن المأمون عمره أيضاً وزاد فيه. والله أعلم.

ثم لم يزد فيه شيئاً أحد من الخلفاء بعد المأمون، ولم يُعَمَّرُوا إِلَّا مواضع يسيرة، إلى أن حصل الحريق [في المسجد النبوي] في أول شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة أول الليل لدخول أبي بكر بن أُوحد الْفَرَّاش الْحَاصِلُ الذي في الزاوية الغربية لاستخراج قناديل لمناثر المسجد. وترك الضوء الذي كان في يده على قفص من أقفاص القناديل وفيه مشاق فاشتعلت النار فيه وأعجزه إطفائها وَعَلِقَتْ بِشُطُوطِهَا وغيرها مما في الحاصل وتزايد الالتهاب حتى اتصلت بالسقف بسرعة [ثم دَبَّتْ فِي السَّقُوفِ] أَخَذَتْ قِبَلَهُ فَأَعْجَلَتِ النَّاسَ عَنْ إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة واجتمع معه غالب أهلها، فلم يَقْدِرُوا على قطعها، وما كان إِلَّا أَقَلُّ من القليل حتى استولى الحريق على جميع سقف المسجد الشريف وما احتوى من المِنْبَرِ النبوي والأبواب والخزائن والمقاصير والصناديق ولم تَبْقَ خَشَبَةٌ واحدة، وكذا الكتب، وكُشُورُ الحجرة الشريفة. قال الْقُطُبُ الْقُسْطَلَانِي: وكان عليها حينئذ إحدى عشرة ستارة، وأزالت النار تلك الزخارف التي لا تُرْضِي، وشوهد من هذه النار صِفَةُ الْقَهْرِ وَالْعَظَمَةِ الإلهية مُسْتَوِلِيَةً على الشريف والمشروف. وكان هذا الحريق عَقِبَ ظُهور نار الحجاز الْمُتَنَذِرِ بها من أرض المدينة، وحماية أهلها منها لما التَجَأُوا إِلَى مسجدها، فانطَفَأَتْ عند وصولها لَحْزِمِهَا. قلتُ: وسيأتي بيان ذلك في المعجزات إن شاء الله تعالى.

وربما خَطَرَ ببال العوام أَن حَبَسَهَا عَنْهُمْ بركة الجِوَار مُوجِبٌ لِحَبْسِهَا عَنْهُمْ فِي الآخِرَةِ،
مع اقتراف الأوزار، فاقْتَضَى الحال البَيَان بلسان الحال الذي هو أَفْصَح من لسان المقال. والنار
مُطَهَّرَةٌ لِأَدْناس الذنوب وقد كان [ذلك] لاستيلاء الروافض حينئذ [على المسجد النبوي
والمدينة] وكان القاضي والخطيب منهم، وأَسَاؤُوا الأَدب كما بسط ذلك ابن جبير في رحلته،
ولذا وَجَدَ عَقِبَ الحريقِ على جدران المسجد:

لَمْ يَحْتَرِقْ حَرَمُ النَّبِيِّ لِرَبِيبَةٍ يُحْشَى عَلَيْهِ وَمَا بِهِ مِنْ عَارٍ
لَكِنَّهَا أَيَّدِي الرُّوَافِضِ لَأَمْسَتْ تِلْكَ الرُّشُومَ فَطُهِرَتْ بِالنَّارِ

وَوُجِدَ أَيْضًا:

قُلْ لِلرُّوَافِضِ بِالْمَدِينَةِ مَا يَكُمُ لِقِيَادِكُمْ لِلدِّمِ كُلِّ سَفِيهِ
مَا أَصْبَحَ الْحَرَمُ الشَّرِيفُ مُحْرَقًا إِلَّا لِسَبِّكُمْ الصَّحَابَةَ فِيهِ

ولم يَسْلَمْ من الحريق سوى القُبَّة التي أحدثها الناصر لدين الله لِحِفْظِ ذخائر الحرم.
قال المؤرخون: وبقيت سوارى المسجد قائمة كأنها جذوع الثُّخُل إِذَا هَبَّتْ الرياح تتمايل،
وذاب الرصاص من بعض الأساطين فسقطت ووقع الشَّقْف الذي كان على أعلى الحجرة
الشريفة على سقف بيت رسول الله ﷺ، فوقها جميعاً في الحجرة الشريفة وعلى القبور
المقدسة.

وفي صبيحة الجمعة عزلوا مَوْضِعاً للصلاة وكتبوا بذلك للخليفة المُسْتَعَصِم بالله [أبي
أحمد عبد الله] بن المُسْتَنْصِر بالله [في شهر رمضان]، فوصلت الآلات صُحْبَةَ الصُّنَّاع مع
رُكْب العراق في الموسم واثْنَيْدَى بِالْعِمَارَةِ أول سنة خمس وخمسين وستمائة، وقصدوا إِزَالَةَ ما
وقع من السقوف على القبور الشريفة، فلم يجسروا على ذلك. واتفق رأي [صاحب المدينة
يَوْمئذ وهو] الأمير منيف بن شَيْحِه [بن هاشم بن قاسم بن مَهْنِيء الحسيني] مع رأي أَكابر
الحرم الشريف أَن يُطَالَعَ الإِمَامُ المُسْتَعَصِم بالله بذلك فيفعل ما يصل إِلَيْهِ أمره. فَأَرْسَلُوا بذلك
فلم يصل جوابه لاشتغاله وأهل دولته بِإِزْعَاجِ التتار لهم واستيلائهم على أعمال بغداد في تلك
السنة. فتركوا الرُّدْم على حاله ولم يَنْزِلْ أَحَدٌ هناك. زاد المجد اللغوي: ولم يَجْشُرْ أَحَدٌ على
التَّعَرُّضِ لهذه العظيمة التي دون مرآها تَرْلُ الأقدام ولا يتأتى من كل أحد بادئ بدئه الدخول
فيه والإقدام. ووصلت الآلات من صاحب اليمن [يَوْمئذ وهو الملك] المُظَفَّر شمس الدين
يوسف بن المنصور عُمر بن رسول. ثم عُزِلَ صاحب مصر، وتولى مكانه مملوك أبيه المظفر
سيف الدين قُطْزُ المُعَزَّي واسمه الحقيقي محمود بن ممدود، وأُخت السلطان جلال الدين
خوارزم شاه، وأبوه ابن عمه، أُسِرَ عند غَلْبَةِ التتار، فبيعَ بدمشق، ثم [انتقل بالبيع إلى] مصر،

في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات

وَتَمَلَّكَ فِي ثَامِنِ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ [وخمسين وستمائة]. وفي شهر رمضان من سنة ثمان أعزَّ الله تعالى الإسلام على يده بوقعه عين جالوت. ثم قُتِلَ بعد الموقعة بشهر وهو داخل إلى القاهرة.

وكان العمل بالمسجد الشريف في تلك السنة من باب السَّلام إلى باب الرحمة [المعروف قديماً بباب عاتكة] ومن باب جبريل إلى باب النساء. وتولى مصر آخر تلك السنة الملك الظاهر ركن الدين بيَّز الصالحى البندقدارى، فحصل منه اهتمام بأمر المسجد فَجَهَّز الأخشاب والحديد والرصاص، ومن الصُّنَّاع ثلاثة وخمسين صانعاً، وما يَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَأَنْفَقَ عَلَيْهِمْ قبل سفرهم وأرسل معهم الأمير جمال الدين مُخَيَّن الصالحى وغيره، ثم صار يُكَيِّدُهُمْ بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات. فَعْمِلَ في أيامه باقى سقف المسجد كما كان قبل الحريق سقفاً فوق سقف إلا السقف الشمالى فإنه جعل سقفاً واحداً.

ولم يزل المسجد على ذلك حتى جُدِّدَ السَّقْفُ الشرقى والسَّقْفُ الغربى اللذان عن يمين صحن المسجد وشماله وذلك في سنتي خمس وست وسبعمئة في أوائل دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى، فَجُعِلَا سَقَفاً واحداً شبه السقف الشمالى [أي سقف الدكاك]. ثم في سنة تسع وعشرين وسبعمئة أمر الملك الناصر محمد المذكور بزيادة رواقين [في المُسَقَّفِ القِبْلَى] متصلين بِمُؤَخَّرِهِ فاتسع مُسَقَّفُهُ بهما وعَمَّ نَفْعُهُمَا. ثم حصل في هذين الرواقين خَلَلٌ فَجُدِّدَهُمَا الملك الأشرف بُرْسَبَاي سنة إحدى وثلاثين وثمانمئة من مال جوالى قبرص. وجُدِّدَ الأشرف أيضاً شيئاً من السقف الشامى [مما يلي المنارة السنجارية].

ثم حصل خَلَلٌ في سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقف المسجد في دولة الظاهر جقمق، فَجُدِّدَ ذلك في سنة ثلاث وخمسين وثمانمئة. ثم جُدِّدَ السلطان الملك الأشرف قايتباي كثيراً من سقف المسجد، ثم احترق المسجد النبوى ثانياً في الثالث الأخير من ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان، سنة ست وثمانين وثمانمئة، وذلك أن رئيس المؤذنين وصُدِّرَ المدرسين شمس الدين محمد بن الخطيب قام يُهَلِّلُ حينئذ بالمنارة الشرقية اليمانية المعروفة بالرئيسية، وصَعِدَ المؤذنون بِقِيَّةِ المنائر وقد تراكم الغَيمُ وحصل رَعْدٌ قاصف، فسقطت صاعقة أصاب بعضُها هلال المنارة المذكورة فسقط شرقي المسجد لَهَبٌ كالنار وَأَنْشَقَّ رَأْسُ المِئْدَنَةِ، وتوفي الرِّئِيسُ لَحِينِهِ صَعَقاً. وَأَصَابَ ما نزل من الصاعقة سَقْفَ المسجد الأعلى بين المنارة الرئيسة وقبة الحجرة النبوية فنقبه ثقباً كالثُّوس فَعَلِقَتْ النار فيه وفي السقف الْأَسْفَلَ، فَفُتِحَتْ أبواب المسجد ونودي بأن الحريق في المسجد.

فاجتمع أمير المدينة قَسْطَلُ بن زُهَيْر الجَمَّازى وأهلها بالمسجد الشريف، وصعد أهل

النَّجْدَةِ منهم بالمياه لإطفاء النار وقد التهمت سريعاً في السَّقْفَيْنِ، وأخذت في جهة الشمال والغرب، فعجزوا عن إطفائها وكادت أن تدركهم فهربوا. وسقط بعضهم فهلك، ونجا بعضهم مع من حالت النار بينه وبين الأبواب إلى صحن المسجد. وجملة من مات بسبب ذلك بضع عشرة نفساً. وعظمت النار جداً حتى صارت كبحر لُجِّيٍّ من نار، ولها زفير وشهيق وألشن تصعد في الجو، وصارت ترمي بشرر كالقَصْرِ وَيَشْقُطُ بالبيوت المجاورة ومع ذلك فلا تؤثر فيها. وحمل بعض خزائن الكتب والريعات والمصاحف غير ما بادروا بإخراجها، وذلك كله في نحو عشرة أدراج فأصابها الشرر فأحرقها. وأخبر أمير المدينة قَسْطَلُ الجَمَازِي أن شخصاً من العرب الصادقين رأى في المنام قبل ذلك بِكَلِيلَةٍ أن السماء فيها جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ثم أعقبته نار عظيمة، فأخذ النبي - ﷺ - النار وقال: «أمسكها عن أمتي».

قال السيد: وأخبرني جماعة أنهم شاهدوا أشكال طيور بيض تحوم حول النار كالذي يَكْفُها عن بيوت الجيران، مع هرب كثير منهم لما رأوا تساقط الشرر. وخرج بعضهم من باب المدينة لِعَظَم ما شاهدوه من الهول وظنوا أنهم قد أحيط بهم، ثم خمدت النار ثاني يوم وأرسلوا للسلطان قايتباي يُعَلِّمونه بذلك فاهتم بذلك رحمه الله تعالى الذي أهله لهذا الأمر وعمر المسجد الشريف والحجرة الشريفة العمارة المُحَكَّمَة الموجودة في زماننا.

تنبيهات

الأول: اِخْتَلَفَ في اسم أبي الِيتِيمَيْنِ اللذين كان المسجد لهما فقال [موسى بن عقبة: هما ابنا رافع بن عمرو بن أبي عمرو]، وقال الزهري وابن إسحاق هما ابنا عمرو. قال في العيون: إنه الأشهر. وحاول السهيلي التوفيق بين القولين فقال: «هما ابنا رافع بن عمرو»، فعلى هذا نُسِبَا إلى جدِّهما. قال الحافظ: «والأرجح هو قول الزهري وابن إسحاق».

الثاني: ذكر ابن إسحاق أنهما كانا في جِجْرٍ مُعَاذِ بْنِ عَفْرَاءَ، وقال أبو دَرِّ الهَزَوِيَّ أحد رواة الصحيح: أسعد بن زرارة بإثبات الألف في أسعد. قال الحافظ والسيد: «وهو الوجه». وقال ابن زَبَّالَةَ ويحيى إنهما كانا في جِجْرٍ أَبِي أَيُّوبَ وقد يُجْمَعُ باشتراك مَنْ ذُكِرَ في كونهما في حُجُورهم، وبانتقال ذلك بعد أسعد بن زُرَّارَةَ إلى مَنْ ذُكِرَ واحداً بعد واحد، سيما وقد روى محمد بن الحسن المخزومي عن ابن أبي قُدَيْكٍ قال: «سَمِعْتُ بعض أهل العلم يقولون إن أسعد توفي قبل أن يني رسول الله المسجد، فباعه رسول الله من سهل وسهيل».

الثالث: في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - أرسل إلى مَلَأِ بْنِ النُّجَّارِ بسبب موضع المسجد، فقال: «يا بني النُّجَّارِ ثَامِثُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا»، فقالوا: «والله لا نطلب ثمنه إلا من الله». وفي رواية: «فدعا بالغلّامين فساومهما بالمِرْبَدِ يتخذهُ مسجداً». ووقع في رواية ابن

في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات

عُقْبَةُ: «فَكَلَّمْ عَمَّهُمَا، أَيِ الَّذِي كَانَا فِي جِجْرِهِ، أَنْ يَبْتَاعَهُ مِنْهُمَا»، فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُ بِهِ؟» فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَصُدِّقَهُمَا، فَأَخْبَرَهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرَادَهُ، فَقَالَا: «نَحْنُ نَعْطِيهِ»، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَنَاهُ. أَخْرَجَهُ الْجَنْدِيُّ.

وَذَكَرَ ابْنُ زَبَّالَةَ، وَيَحْيَى، أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أُزْضِيهِمَا. وَذَكَرَ ابْنُ عُقْبَةَ أَنَّ أَسْعَدَ عَوْضَهُمَا عَنْهُ نَحْلًا، قَالَ: وَقِيلَ: ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَ ذَلِكَ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْحَافِظُ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: «لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا مِنْ اللَّهِ» سَأَلَ عَمَّنْ يَخْتَصُّ بِمُلْكِهِ مِنْهُمْ، فَعَيَّنُوا الْغُلَامَيْنِ، فَابْتَاعَهُ مِنْهُمَا أَوْ مِنْ وَلِيِّهِمَا إِنْ كَانَا غَيْرَ بِالْعَيْنِ، وَحِينَئِذٍ فَيُخْتَمَلُ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا: «لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا مِنْ اللَّهِ تَحْمِلُوا عَنْهُ لِلْغُلَامَيْنِ بِالثَمَنِ. فَقَدْ نَقَلَ ابْنُ عُقْبَةَ أَنَّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ عَوْضَ الْغُلَامَيْنِ عَنْهُ نَحْلًا لَهُ فِي بِيَاضَةٍ. وَتَقَدَّمَ أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ قَالَ: أَنَا أُزْضِيهِمَا، فَأَرْضَاهُمَا، وَكَذَلِكَ مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ، فَيَكُونُ بَعْدَ الشَّرَاءِ. وَيُخْتَمَلُ أَنَّ كُلًّا مِنْ أَسْعَدَ، وَأَبِي أَيُّوبَ وَابْنِ عَفْرَاءَ أَرْضَى الْيَتِيمَيْنِ بِشَيْءٍ فَتُسَبِّحَ ذَلِكَ لِكُلِّ مِنْهُمَا.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْيَتِيمَيْنِ امْتَنَعَا مِنْ قَبُولِ عَوْضٍ، فَيُخْتَمَلُ ذَلِكَ عَلَى بَدْءِ الْأَمْرِ، وَلَكِنْ قَالَ الْوَاقِدِيُّ: إِنَّهُ ﷺ اشْتَرَاهُ مِنْ بَنِي عَفْرَاءَ بِعَشْرَةِ دنانير ذهباً دفعها أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَعَلَّهُ رَغِبَ فِي الْخَيْرِ، فَدَفَعَ الْعَشْرَةَ مَعَ أَوْلَئِكَ، أَوْ أَنَّهُ ﷺ أَخَذَ أَوَّلًا بَعْضَ الْمِزْبَدِ فِي بَنَائِهِ الْأَوَّلِ سَنَةَ قَدُومِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بَعْضًا آخَرَ لَمَّا سَبَقَ أَنَّهُ بَنَاهُ مَرَّتَيْنِ وَزَادَ فِيهِ فَكَانَ الثَّمَنُ مِنْ مَالِ أَبِي بَكْرٍ فِي إِحْدَاهُمَا وَمِنَ الْآخَرِينَ فِي الْآخَرَى.

الرَّابِعُ: ذَكَرَ السَّيِّدُ أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لَعَمَّارٍ: «تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ». كَانَ فِي الْبَنَاءِ الثَّانِي؛ لِأَنَّ الْبَيْهَقِيَّ رَوَى فِي الدَّلَائِلِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ يَقُولُ لِأَبِيهِ عَمْرٍو: «قَدْ قَتَلْنَا هَذَا الرَّجُلَ»، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ مَا قَالَ. قَالَ: «أَيُّ رَجُلٍ؟» قَالَ: «عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، أَمَّا تَذْكُرُ يَوْمَ بَنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، وَكُنَّا نَحْمِلُ لَبَنَةً لَبَنَةً، وَعَمَّارٌ يَحْمِلُ لَبَنَتَيْنِ لَبَنَتَيْنِ؟» فَمَرَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «تَحْمِلُ لَبَنَتَيْنِ لَبَنَتَيْنِ وَأَنْتَ تُزْخَضُ؟ أَمَّا إِنَّكَ سَتَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ، وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَدَخَلَ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ عَلَى مُعَاوِيَةَ: فَقَالَ: «قَتَلْنَا هَذَا الرَّجُلَ»، وَقَدْ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: «اسْكُتْ فَوَاللَّهِ مَا تَزَالُ تَذْخَضُ^(١) فِي بَوْلِكَ، أَنْتَ خُنْتُ قَتَلْنَاهُ؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ عَلَيٌّ وَأَصْحَابُهُ جَاؤُوا بِهِ حَتَّى أَلْقَوْهُ بَيْنَنَا. قَالَ السَّهْمُودِيُّ: «وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَعَمَّارٍ كَانَ فِي الْبَنَاءِ الثَّانِي لِلْمَسْجِدِ؛ لِأَنَّ إِسْلَامَ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ كَانَ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْهِجْرَةِ».

(١) تَذْخَضُ: أَيِ تَزَلُّقٍ. وَيُرْوَى بِالْمَادِ: أَيِ تَبَحُّثٍ فِيهَا بِرَجْلِكَ. انظر النهاية ١٠٥/٢.

الخامس: في بيان غريب ما سبق:

«المِرْبَد»^(١) - بكسر الميم -: الموضع الذي يُجْعَل فيه التَّمْر.
«المَلَأ» - بفتح الميم واللام -: أشراف الناس ورؤسائهم ومُقدِّموهم الذين يُزَجَّع إلى قولهم.

«النَّجَار»: بالنون والجيم.

«ثَامُونِي»: أي بايعوني وقاولوني.

«الحائِط»: هنا: البستان، وتَقَدَّم أنه كان مِرْبَدًا فلعله كان أولًا حائِطًا ثم خَرِبَ فصار مِرْبَدًا، ويؤيده قوله: لِيُتَّخَذَ مسجدًا.

«النُّوَار»: بفتح النون وتشديد الواو بعد الألف راء.

«عايد»: بالمشناة التحتية والذال المعجمة.

«الجِدَار» ككِتَاب: الحائط.

«العَرَقْد»^(٢) بالغين المعجمة والراء والقاف والذال المهملة: ضَرْبٌ من شَجَرِ الْعِضَاه، واحده عَرَقْدَةٌ.

«خِرْب» بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء وبالمُوحَّدة [تجمع خِرْبَة وهي الموضع الخراب]، وفي لفظ بالحاء المهملة وسكون الراء والمثلثة: [خِرْبٌ].

«العَرِيش»: الشَّقْف وما يُسْتَقَلُّ به، وهو المراد هنا.

«ثامات»^(٣): جمع ثَمَام بضم المثلثة: نَبْتُ ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص، وربما خَشِىَ به أو سُدَّ به خِصَاص^(٤) البيوت الواحدة ثَامَةٌ.

«العِضَادَاتان»: تثنية عِضَادَة - بكسر العين المهملة والضاد المعجمة وبعد الألف دال مهملة -: جانب الباب.

«طَلِيقٌ»: جعل.

«الجَمَال»: بكسر الحاء المهملة من الحفل، والذي يُحْمَل من خَيْر: التَّمْر. أي أَنَّ هذا

(١) انظر اللسان ١٥٥٦/٣.

(٢) انظر اللسان ٣٢٤٦/٥.

(٣) انظر الوسيط ١٠١/١.

(٤) الخِصَص: نَبْتُ يُقَمَل من الخشب والقَصَب، وجمعه خِصَصَص، وأَخْصَصَص، سمي به لما فيه من الخِصَصَص وهي الفَرْج والأنقاب. انظر النهاية ٣٧/٢.

في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات

في الآخرة أَفْضَلُ من ذاك وَأَحْمَدُ عَاقِبَةً، كأنه جمع جَمَلٍ أو حَمَلٍ ويجوز أن يكون مصدر حَمَلَ أو حَامَلَ.

«خَبِيرٌ»: يأتي الكلام عليها في غَزَوَاتِهَا.

«أَرْدَبْتَهُمْ»: جمع رداء.

«مُتَنَطِّلًا»^(١) - بميم مضمومة فمثناة فوقية فنون مفتوحتين فطاء مهملة مكسورة فعين مهملة: مِنْ تَنْطَعُ إِذَا تَعَمَّقُ وَتَغَالَى وَتَأْتَقُ.

«الْوُفْرَةُ»: بواو مفتوحة ففاء فراء: الشَّعْرُ الْمُجْتَمِعُ عَلَى الرَّأْسِ، أو ما مال على الأذنين منه أو ما جاوز شَحْمَةَ الأذنين ثم الْجُمَّة ثم اللَّمَّة.

«وَيْحٌ»: كلمة تَرْحُمُ وَتَوَجُّعُ، يقال لمن وقع في هَلَكَةٍ لَا يَسْتَحِقُّهَا، وقد يقال بمعنى المَدْح والتَّعَجُّب، وهي منصوبة على المصدر.

«الحَبْحَبَةُ»^(٢): بحاءين مهملتين بعد كل مُوَحَّدَةٍ وهي في الأصل جُزَي الماء قليلاً قليلاً كالحَبْحَبِ والحَبْحَبَةُ الضعف وسُوق الإبل ومن الثَّارِ اتقَاذُهَا والبَطِيخُ الشامي الذي يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْعِرَاقِ الرَّقِّيَّ وَالْفُرسُ تُسَمِّيهِ الْهِنْدِي.

«بِالسَّمِيطِ»: أي على لَبَنَةٍ واحدة، وَالسَّمِيطُ من الثُّغْل: الطَّاقُ الواحد لا رَفْعَةٍ فيها.

«السُّوَارِي»: جمع سَارِيَةٍ وهي الاسطوانة.

«السَّغْدُ»: ثَلُثُ اللَّبَنَةِ وَالسَّغْدُ كَزُبَيْرٍ رُبُّهَا.

«وَكَفَّ»: سال ماؤهُ.

«الْخُصْفُ» بخاء معجمة فصاد مهملة مفتوحتين: المنسوج من الخُوص.

«الشُّشُوسُ» - بفتح الشين المعجمة وضم الميم وبالواو والسين: [بنت الثُّغَمَانِ بن عامر بن مجمع] من الأنصار.

«الرَّحْبَةُ» - بالراء والحاء المهملة والموحدة المفتوحات، قال في الصحاح: رَحْبَةُ المسجد بالتحريك ساحتُه والجمع رَحَبٌ وَرَحَبَاتٌ وَرَحَابٌ.

«الزوايا» جمع زاوية: الناحية.

(١) التنطع في الكلام: التعمق فيه مأخوذ منه وفي الحديث «هلك المتنطعون» وتنطع في الكلام وتنطس إذا تألق فيه وتعمق وتنطح في شهراته: تألق. اللسان ٤٤٦١/٦.

(٢) الحجابة: الضعف، والحجاب: الصغير الجسم المتداخل العظام. اللسان ٧٤٧/٢.

«انْمَاطٌ»^(١): بالنون والميم والطاء المهملة بعد الألف: أَيْ تَنْحَى.
 «نَخِرَتْ»^(٢): بالنون المفتوحة والخاء المعجمة المكسورة والراء: يَسْتِ وَتَفْتَشُ.
 «الْمَنْقُوشَةُ» - بميم مفتوحة فنون ففاف فواو فشين معجمة: الْمَلُونَةُ بِلُونَيْنِ أَوْ أَلْوَانِ.
 «السَّاج» - بسين مهملة وجيم مُخَفَّفَةٌ: نوع من الشجر.
 «الْقَصْبَةُ» - بفتح القاف وتشديد الصاد المهملة المفتوحة فتاء تأنيث: [الحجارة من
 الجِصَص].

«الْفُسَيْفِيسَاءُ»^(٣) قال في النور: بضم الفاء الأولى وفتح السين المهملة فتحية ساكنة ففاء
 مكسورة ثم سين مهملة أخرى ممدودة، هكذا سُمِعَ الناس ينطقون به وكذا رأيتُه مُحَرَّرًا بخط
 كمال الدين بن العديم في تاريخه في غير موضع، وكذا رأيتُه مضبوطاً بالقلم في مطالع ابن
 فرفود، وهو فصوص صغار من ألوان الزجاج تُلصَقُ بالحائط وتُطَلَّى بماء الذهب، وهي كثيرة
 بجامع دمشق وبيت المقدس [وهي غاية] في الحُسن والبهجة.

(١) من ماط ميطاً: من باب تباعد ويتعدى بالهمزة والحرف فيقال أماطه غيره إمطة ومنه: إمطة الأذى عن الطريق وهي
 التنحية لأنها إمطاء. المصباح المنير ص ٥٨٧.
 (٢) انظر المفردات للراغب ٤٨٦.
 (٣) انظر اللسان ٣٤١٣/٥.

الباب الثالث

في بنائه صلى الله عليه وسلم حجر نسائه رضي الله عنهن

قال في الروض: «كانت بيوته ﷺ تسعة: بعضها من جريد. مُطَيَّنٌ بالطين وسَقْفُها من جريد، وبعضها من حجارة مَرْضُومَة بعضها فوق بعض، وسَقْفُها من جريد أيضاً». قال الحافظ الذهبي في «لُبْلُبِ الروض»: «لم يبلغنا أنه ﷺ بُنِيَ له تسعة أبيات حتى بنى المسجد ولا أَحْسَبُهُ فَعَلَ ذلك، إنما كان يريد بيتاً واحداً لِسَوْدَة أم المؤمنين رضي الله عنها. ولم يَخْتِجْ إلى بيت آخر حتى بَنَى لعائشة رضي الله عنها في شَوال سنة اثنتين، وكان ﷺ بناها في أوقات مختلفة». انتهى.

وتقدم في الباب الثاني أنه ﷺ بنى لِزَوْجَتِهِ: سَوْدَة وعائشة رضي الله عنهما، على نَفْتِ بناء المسجد؛ لأن عائشة كانت زَوْجَةً حِينَهُ، وَإِنْ تَأَخَّرَ الدخول بها، ثم بنى بَقِيَّةَ الْحُجَرِ عند الحاجة إليها.

قال محمد بن عُمر الأسلمي: «كانت لحارثة بن النعمان رضي الله عنه منازل قُرْبَ المسجد وَحَوْلَهُ، وكلما أحدث رسول الله ﷺ أهلاً نزل له حارثة عن منزل، أي مَحَلُّ حُجْرَةٍ حتى صارت منازل كلهما لرسول الله ﷺ وأزواجه». قال محمد بن عُمر: «حَدَّثَنَا عبد الله بن يزيد الهذلي قال: رَأَيْتُ بيوت أزواج النبي ﷺ حين هَدَمَهَا عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك، كانت بيوتاً من اللَّيْنِ، ولها حُجَرٌ من جريد مَطْرُوزَة بالطَّيْنِ، عَدَدَتْ تسعة أبيات بِحُجَرِها، وهي ما بين بيت عائشة إلى الباب الذي يلي باب النبي ﷺ إلى منزل أسماء بنت حَسَنَ اليوم. قال: ورَأَيْتُ بيت أم سَلَمَة زوج النبي ﷺ وحجرتها من اللَّيْنِ، فسألت ابن ابنها فقال: لما غزا رسول الله ﷺ دُومَةَ الْجَنْدَلِ بَنَتْ أم سَلَمَة حجرتها بلَين. فلما قَدِمَ النبي ﷺ نَفَلَ إلى اللَّيْنِ ودَخَلَ عليها أول نساؤه فقال: «ما هذا البناء؟» فقالت: «أردتُ يا رسول الله أَنْ أَكُفَّ أَبْصَارَ النَّاسِ». فقال: «يا أم سَلَمَة إِنْ شَرَّ ما ذهب فيه مالُ المسلم البنيان»^(١).

قال محمد بن عُمر: فَحَدَّثْتُ بهذا الحديث مُعَاذُ بن محمد الأنصاري فقال: «سَمِعْتُ عَطَاءَ الْخُرَّاسَانِي في مجلس فيه عمران بن أبي أنس يقول وهو فيما بين القبر الشريف والمنبر المنيف: أَذَرَكْتُ حُجَرَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ [من جريد على أبوابها المسوح من شَعَرِ أَسْوَد، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقْرَأ، يأمرنا بِهَدْمِ حُجَرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ]، فما رَأَيْتُ يوماً كان أَكْثَرُ باكِياً من ذلك اليوم. قال عطاء: «فَسَمِعْتُ سعيد بن المُسَيَّب يقول يومئذ:

(١) ذكره المنقي الهندي في الكنز (٤١٥٢١).

«والله لَوَدِدْتُ أَنَّهُمْ تركوها على حالها، ينشأ ناشيء من أهل المدينة وَيَقْدَمُ القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يُزْهِدُ الناس في التفاخر والتكاثر» قال معاذ: «فلما فرغ عطاء الخراساني من حديثه قال عمران بن أبي أنس: كان فيها أربعة أبيات يَلْن، لها حُجَر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مُطَيَّنة لا حُجَر لها، على أبوابها مسوح الشَّعْر، دَرَعَتْ الساتر فوجدته ثلاثة أذرع في ذراع وعظم الذراع أو أدنى من العظم. فأما ما ذُكِر من البُكَاء يومئذ فلقد رَأَيْتُني في المسجد وفيه نَفَر من أبناء أصحاب النبي ﷺ منهم أبو سَلَمَةَ بن عبد الرحمن بن عوف، وأبو أَمَامَةَ بن سهل بن حنيف، وخارجة بن زيد بن ثابت^(١)، وإنهم لَيَبْكُون حتى أخضلوا لحاهم من الدمع. وقال يومئذ أبو أَمَامَةَ: «لَيْتَهَا تُرِكَت فلم تُهْدَم حتى يَقْضَلَ الناس عن البناء وَيَزُوا ما رَضِيَ اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده» وروى ابن سعد، والبخاري في الأدب، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشَّعْب عن الحسن البصري قال: «كنت وأنا مُراهِق أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدي» وروى البخاري في الأدب، وابن أبي الدنيا، والبيهقي عن داود بن قيس قال: «رَأَيْتُ الحُجَر من جريد النخل تُعْشَى من خارج بمسوح من الشعر، وأظنَّ عَرَضَ البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من سِتٍّ أو سَبْعِ أذرع، وأُخْرِزُ البيت من الداخل عَشْرَ أذرع، وأظنَّ شِعْكَهُ بين الثَّمَانِ والسَّبْعِ».

وروى محمد بن الحسن المخزومي عن محمد بن هلال قال: «أَذْرَكْتُ بيوت أزواج النبي ﷺ، كانت من جريد مستورة بمسوح الشَّعْر، مستطيرة في القِبْلَةَ وفي المشرق وفي الشام، ليس في غربي المسجد منها شيء، وكان باب عائشة يُوَاكِهُ الشَّام وكان بمصرع واحد من عرعر أو ساج». وروى ابن مَنْدَه عن بشر بن صُخَّار العبدي قال: «كنتُ أدخلُ بيوت أزواج النبي ﷺ فأَنالُ سقفها». وروى ابن سعد عن عمرو بن دينار، وعُبَيْدُ اللهِ بن أبي مرثد قالاً: «لم يكن على عهد النبي ﷺ على بيته من حائط، فكان أول من بنى عليه جداراً عمر بن الخطاب رضي الله عنه». قال عبيد الله: «كان جداره قصيراً ثم بناه عبد الله بن الزبير».

تنبيهان

الأول: روى البخاري في تاريخه وفي الأدب عن أنس رضي الله عنه، والبيهقي في المدخل عن المغيرة بن شعبة قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرعون بابَه بالأظافر تأدباً

(١) خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري أبو زُهْد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ثقة. عن أبيه وأسماء بن زيد وأمِّ النَّعْلَاء. وعنه الزُّهري وأبو الزُّنَاد. قال ابن المديني: مات سنة مائة، وقيل: قبلها بسنة، قاله القَلَّاس، ولما بلغ عمر بن عبد العزيز موته قال: ثُلُمَةُ والله في الإسلام. الخلاصة ١/٢٧٣.

ولجلالاً، وقيل إن بابه لم يكن له خلق يُطَرَّق بها. قال السهيلي: الأول أولى.

الثاني: في غريب ما سبق:

«الرَّضْمُ»^(١) - بفتح الراء والضاد المعجمة وتُسَكَّن -: حجارة مجتمعة بعضها فوق بعض، الواحدة رَضْمَةٌ.

«بَنَى» بفلانة: دَخَلَ عليها، وقال ابن السكيت زُفَّت إليه، وأصله أن الرجل إذا تزوج بنى للعروس بيتاً وجهزه بما يحتاج إليه، أو بُنِيَ له تكريماً، ثم كَثُرَ حتى كُفِيَ به عن الجِماع. «المُخَجَّر»: غُرِف البيوت.

«المُشْرَح»: جمع مِشْح وهو البلاس.

«مستطيرة» في القِبلة: أي مُنْتَشِرة.

«المِضْرَاع» من الباب: الشطر، وهما مِضْرَاعَان.

«الْقَرْعَر» بفتح العينين وبالزائين المهملتين - قال في الصحاح: شجرُ الشزو.

«السَّاج» بالسین المهملة والجيم: ضَرْبٌ من الخشب، عَظِيمٌ من الشَّجر، يُجَلَّب من الهند، وجمعُها ساجات. قال الزمخشري: الساج خَشَبٌ أسود رزين يُجَلَّب من الهند ولا تكاد الأرض تُثْبِلِيه، والجمع سيجان مثل نار ونيران.

«مطرورة»^(٢) بالطين - بالطاء المهملة المُشَالَة -: أي مُطَيَّنة به.

«دُومَةُ الْجُنْدَل» دُومَة - بضم الدال المهملة، والجندَل بالجيم والنون والدال المهملة [جِصْنٌ وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طَيْيٍّ على سبع مراحل من دمشق].

«الأفُق» بِضَمَّتَيْنِ: الناحية.

«يُنْشَأُ»: يحدث وَيَتَجَدَّد.

«أَخْضَل» لِخَيْتِهِ، بخاء فضاء معجمتين: بَلَّها.

«مُزَاهِق»: مقارب الاحتلام.

«أَنَالَ»: أدرك وأبْلَغ.

«المُعْشَى»: المغطى المستور.

(١) انظر اللسان ١٦٦٣/٣.

(٢) انظر اللسان ٢٦٥٤/٤.

الباب الرابع

في بدء الأذان وبعض ما وقع فيه من الآيات

روى الشيخان والترمذي والنسائي عن ابن عمر، وابن إسحاق، وإسحاق بن راهويه، وأبو داود بسند صحيح صححه النووي عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، عن أبيه، وأبو داود بسند صحيح عن ابن عمر عن أنس بن مالك عن عمومة له من الأنصار رضي الله عنهم، وإسحاق بن راهويه عن الشعبي مرسلاً بسند حسن، وعبد الرزاق وأبو داود عن عبيد ابن عمير أحد كبار التابعين، وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن خزيمة، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، والطحاوي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «حدثنا أصحابنا - ولفظ ابن أبي شيبة وابن خزيمة والطحاوي والبيهقي: حدثنا، أصحاب رسول الله ﷺ - حين قدم المدينة إنما كان يجمع للصلاة حين مواقيتها بغير دعوة، فلما كثرت الناس اهتتم النبي ﷺ كيف يجمع الناس للصلاة؟ فاستشار الناس، فقليل له: انصب راية عند حضور الصلاة إذا رأوها أغلّم بعضهم بعضاً، وذكر له القنع^(١) يعني شُبُور^(٢) اليهود، وفي لفظ: البوق، وفي لفظ: القرن الذي يدعون به لصلاتهم، فلم يعجبه ذلك وقال: «هو من أمر اليهود»، فذكر له الناقوس فقال: «هو من أمر النصارى»، فقالوا: لو رفعنا ناراً، فقال: «ذلك للمجوس»^(٣).

وفي حديث عمر عند الشيخين وغيرهما: فقال عمر: «أولاً تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟» فقال رسول الله ﷺ: «يا بلال قم فتاد بالصلاة». فانصرف عبد الله بن زيد، وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ، فأرعى الأذان في منامه. قال: طاف بي وأنا نائم رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ قلت: بلى. فقال:

(١) قال ابن الأثير في النهاية في حديث الأذان «أنه اهتم للصلاة، كيف يجمع لها الناس، فذكر له القنع فلم يعجبه ذلك» فسر في الحديث أنه الشبور، وهو البوق هذه اللفظة قد اختلفت في ضبطها، فرويت بالباء والتاء، والثاء والنون، وأشهرها وأكثرها النون. قال الخطابي: سألت عنه غير واحد من أهل اللغة فلم يشبهوه لي على شيء واحد، فإن كانت الرواية بالنون صحيحة فلا أراه سمي إلا لانواع الصوت به، وهو رفعه. يقال: أفتع الرجل صوته ورأسه إذا رفعه. ومن يريد أن ينفخ في البوق يرفع رأسه وصوته. قال الرمخشري: «أو لأن أطرافه أفتعت إلى داخله: أي عطفت» وقال الخطابي: وأما «القنع» بالباء المفتوحة فلا أحسبه سمي به إلا لأنه يقنع فم صاحبه: أي يستره، أو من قبعت الجوارق والجرباب: إذا ثبيت أطرافه إلى داخل. قال الهروي: وحكاها بعض أهل العلم عن أبي عمر الزاهد: «الفتح» بالياء قال: وهو البوق فعرضته على الأزهرى فقال: هذا باطل. وقال الخطابي: سمعت أبا عمر الزاهد يقول بالياء المثلثة، ولم أسمع من غيره. ويجوز أن يكون من: فتح في الأرض فتوحاً إذا ذهب، فسمي به لذهاب الصوت منه. قال الخطابي: وقد روى «القنع» بناءً بنقطتين من فرق، وهو دود يكون في الخشب الواحدة: قنعة. قال: مداد هذا الحرف على هيثم، وكان كثير اللحن والتخريف، على جلاله محلة في الحديث. النهاية ١١٥/٤، ١١٦.

(٢) الشُبُور: هو البوق. وقال ابن الأثير: اللفظة عبرانية. انظر النهاية ٤٤٠/٢.

(٣) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٢٣١٥٣).

وفي حديث أبي عُمَيْرٍ بن أَنَسٍ أَنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان رآه فَكَتَمَهُ عشرين يوماً. وفي حديث عُثَيْبٍ بن عُمَيْرٍ: «فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خَشَبَتَيْنِ للناقوس إذ رأى في المنام: «لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا»، فذهب عُثَيْرٌ ليخبر النبي ﷺ بالذي رأى، وقد جاء الوُحْيُ فما راع عُثَيْرٌ إِلَّا يَلَلٌ يُؤَدِّنُ. قال عبد الله بن زيد: فقال رسول الله ﷺ لِعُمَرَ: «ما مَنَعَكَ أَنْ تخبرني؟» فقال: سبقني عبد الله بن زيد فاستَحْيَيْتُ. فقال رسول الله ﷺ: «فإِنَّهُ الحمد فذلك ثَبِتَ»^(٣). قال الزهري، ونافع بن جُبَيْرٍ، وابن المُسَيَّبِ: وبقي

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٨) وذكره المتقي الهندي في الكنز (٢٣١٤٥).

ينادي في الناس: «الصلاة جامعة». للأمر يحدث فيحضررون له يُخْبِرُونَ به وإن كان في غير وقت صلاة. وروى ابن ماجة عن شيخه أبي عبيد محمد بن عبيد، بن ميمون المدني قال: أخبرني أبو بكر الحكمي أن عبد الله بن زيد قال في ذلك شِعْراً

أَحْمَدُ اللّٰهَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ حَمْدًا عَلَى الْأَذَانِ كَثِيرًا
إِذَا أَتَانِي بِهِ الْبَشِيرُ مِنَ اللَّهِ فَأَكْرِمُ بِهِ لَدَيَّ بَشِيرًا
فِي لَيْلٍ وَالْيَوْمِ ثَلَاثٌ كُلَّمَا جَاءَ زَادَنِي تَوْقِيرًا

قال الحافظ ابن كثير: «وهذا الشعر غريب، وهو يقتضي أنه رأى ذلك ثلاث ليلٍ حتى أخبر به رسول الله ﷺ. قلتُ: سنَدُهُ منقطع وأبو بكر الحكمي مجهول. وروى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رجل من اليهود تاجراً إذا سمع المنادي ينادي بالأذان قال: «أحرق الله الكاذب». فبينما هو كذلك إذ دخلت جارية بشعلة من نار فطارت شرارة منها في البيت فأحرقتة. وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الشَّذِّي قال: «كان رجل من النصارى إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله قال: أحرق الله الكاذب: فدخلت خادمة ذات ليلة من الليالي بنارٍ وهو نائم وأهله نيام فأحرقت البيت واحترق هو وأهله».

وروى مسلم عن سهيل بن أبي صالح قال: أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعني غلام لنا [أو صاحب لنا] فناداه مُنَادٍ من حائط باسمه، فأشرف [الذي معي] على الحائط، فلم يرَ شيئاً، فذكرت ذلك لأبي، فقال: «لو سَعَرْتُ أَنْكَ تَلْقَى هَذَا لَمْ أَرْسِلْكَ وَلَكِنْ» إِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا مُنَادٍ بِالصَّلَاةِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا تُودِيَ بِالصَّلَاةِ وَلَّى وَلَهُ خُصَاصٌ»^(١). وروى البيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إِذَا تَغَوَّلْتُ لِأَحَدِكُمُ الْغِيلَانَ فَلْيُؤَدِّنْ فَإِنْ ذَلِكَ لَا يَصُورُهُ». وروى البيهقي عن الحسن أن عُمرَ بَعَثَ رجلاً إلى سعد بن أبي وقاص، فلما كان ببعض الطريق عَرَضَتْ لَهُ الْغُولُ، فَأَخْبَرَ سَعْدًا فَقَالَ: «إِنَّا كُنَّا نُوَمِّرُ إِذَا تَغَوَّلْتُ لَنَا الْغُولُ أَنْ نَنَادِيَ بِالْأَذَانِ». فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى عُمرَ عَرَضَ لَهُ أَنْ يَسِيرَ مَعَهُ، فَنَادَى بِالْأَذَانِ، فَذَهَبَ عَنْهُ، فَإِذَا سَكَتَ عَرَضَ لَهُ، فَإِذَا أَدَّنَ ذَهَبَ عَنْهُ.

تنبيهات

الأول: الأذان لُغَةً: الإعلام، قال الله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة ٣].

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة (١٦) وأحمد في المسند ٤٨٣/٢ والبيهقي في الدلائل ١٠٣/٧ والحاكم ١١٩/٤ وابن خزيمة (٣٩٣).

في بدء الأذان وبعض ما وقع فيه من الآيات

واشتقاقه من الأَذَن يَفْتَحَتَيْن وهو الاستماع، وشرعاً: الإعلام بوقت الصلاة المفروضة بألفاظ مخصوصة.

الثاني: في بعض أسرار الأذان وبدائعه، قال القاضي: «الأذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان مشتملة على نَوْعِيَّهِ من العقلية والسمعية، فَأَوَّلُهُ إثبات الذات، وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أضدادها، وذلك بقوله: «الله أكبر»، وهذه اللفظة مع اختصارها دالة على ما ذكرناه، ثم صَرَّح بإثبات الوحدانية ونَفَى ضدها من الشركة المستحيلة في حقه سبحانه وتعالى، وهذه عُمْدَةُ الإيمان والتوحيد الْمُقَدِّمَةُ على كل وظائف الدين ثم صَرَّح بإثبات النبوة والشهادة بالرسالة لنبيه ﷺ، وهي قاعدة عظيمة بعد الشهادة بالوحدانية، وموضعها بعد التوحيد لانها من باب الأفعال الجائزة الوقوع، وتلك المقدمات من باب الواجبات. وبعد هذه القواعد كُمِّلَت العقائد العقلية فيما يجب ويستحيل ويجوز في حقه سبحانه وتعالى. ثم دعاهم إلى ما دعاهم الله إليه من العبادات، فدعاهم إلى الصلاة، وعَقَّبَهَا بعد إثبات النبوة لَأَن معرفة وجوبها من جهة النبي ﷺ لا من جهة العقل. ثم دعا إلى الفلاح، وهو الفوز والبقاء في النعيم المُقِيم، وفيه إشعار بأمور الآخرة من البعث والجزاء، وهي آخر تراجم عقائد الإسلام. ثم كَثُرَ ذلك بإقامة الصلاة للإعلام بالشروع فيها، وهو مُتَضَمِّن لتأكيد الإيمان، وتكرار ذكره عند الشروع في العبادة بالقلب واللسان، ولِيَدْخُلَ الْمُصَلِّي فيها على بَيِّنَةٍ من أمره وَبَصِيرَةٍ بإيمانه، ويستشعر عظيم ما دخل فيه وعَظَمَةُ حق من يعبده وجزيل ثوابه». انتهى كلام القاضي. قال النووي: «وهو من النفائس الجليلة» وبالله التوفيق.

قلت: قد ألَّف الإمام الحافظ برهان الدين البقاعي^(١) رحمه الله جزءاً لطيفاً في أسرار الأذان سماه «الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان»، وأنا مُؤَرِّدٌ هنا ما ذكره في الأذان لِيُشْتَقَّدَ فَإِنَّهُ نفيس جداً.

قال رحمه الله بعد أن أورد أحاديث بعض الأذان والتشهد: «مقصوده - أي الأذان - الإعلام بأوقات الصلاة تنبيهاً على أن الدين قد ظَهَرَ، وانتشر عِلْمٌ لوائه في الخافقين واشتهر، وسار في الآفاق على الرؤوس قَبْهَرٌ، وأَذَلَّ الجبابرة وَقَهَرٌ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لما كان الدين المحمدي دين الإسلام الذي لا يَقْبَلُ الله من أحد ديناً غَيْرُهُ، قد عَلَا على كل دين، فَظَهَرَ كُلُّ مُخَالِفٍ،

(١) إبراهيم بن عمر بن حسن الزنات بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين: مؤرخ أديب. أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، وتوفي بدمشق. له «عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، و «عنوان العنوان» مختصر عنوان الزمان، و «أسواق الأشواق» اختصر به مصارع العشاق، و «الباحة في علمي الحساب والمساحة» و «أنوار الجلال في فتح البلاد» و «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» و «بذل النصيح والشفقة للتعريف بصحبة ورقة» وله ديوان شعر سماه «إشعار الواعي بأشعار البقاعي». توفي ٨٨٥ هـ. الأعلام ٥٦/١.

وخفقت راياته بعد أن كانت خفيفة، وانتشرت أعلام ألويته بعد أن كانت ملوية، وبغتاة أهل الأباطيل مطوية. وقد كان الشوك منذ أزمان في غاية الظهور، والباطل هو المعمول به والمشهور، فتأسب أن يصروح بأذنيه، ويُسدى به على غاية إعلانه، ولما كانوا يشركون به سبحانه، ويتعبدون بسواه، كان نسب الأمور البدائية بالتنبيه على تفريده بالكبرياء، وتوحيده بالعلاء، فقال بادئاً بالاسم الأعظم، الدال على الذات، المشتجع لجميع الكمالات: «الله» أي المليك الذي لا كُفء له ولا سمي، ولا ضيد ولا نظير، وأتى بالخبر نكرة ليبدل على إسناده إليه على الإطلاق، وأنه لا خفاء في انفراده بذلك، فقال: «أكبر»، ولم يذكُر متعلّقاً، ذهاباً بالتعميم إلى أعلى الغايات وأتته النهايات ولما كان قد طال ما قور الشوك في الأذهان، وصال به أهل الطغيان، اقتضى الحال تأكيد ذلك، ولأجل هذا ثنى التكبير في الإقامة مع أنها فزادى.

«ولما كان المراد من جميع كلمات الأذان مجرّدة الإعلام بالوقت وبهذه المقاصد المُرَاد بها نشخ ما عدها، قال مؤكداً من غير عطف لشيء من الجمل: «الله أكبر». ولما كان الحال من جميع الأكوان شديد الاقتضاء، لم يذكُر التأكيد لتطاول أزمان الشوك قال مُلْدِداً لأسماع الموجودات، ومزويّاً لعطاش أكباد الكائنات: «الله أكبر». ولما تمّ تقرير ذلك في الأذهان، وعُلم علماً تاماً أن التوحيد قد علّأ، وقهر جميع الأديان، ارتقب كل سامع ما يُقال بعده، فقال مبتدئاً دوراً جديداً من هذا الإعلام لمزيد التقرير عند جميع الأنام: «الله أكبر».

«فلما عُلم أن ذلك إلى غير نهاية، ولا حدّ تَقَفُ عنده كل غاية، قال متّوجّهاً لما أُنْتَجِه، مُلْقِناً لكل سامع ما وجب عليه من الجواب، مُسيراً بذلك بعض الأسرار، إعلماً بما كان من حال هذا الدّين في أول الأمر، بُرهاناً على لحسن هذا التأكيد: «أشهد» أي أغلّم علماً قطعياً أنني في مُريد بصري كالناظر إلى محسوس هو في غاية الجلاء: «ألا إله إلا الله». ولما كان المَقَام كما مضى شديد الاقتضاء للتأكيد قال ثانياً: «أشهد ألا إله إلا الله».

«فلما أخذ المَقَام حَظَّهُ من التأكيد، ولم يَحْتَج إلى مزيد، فتلقّى ذلك بالقبول العبيد، فتَبَيَّنَتْ رسالة الذي أتى بهذا الدّين، وجاهد به الجاحدين، حتى قَهَرَهُمْ وَخَذَهُ صَاحِرِينَ أَجْمَعِينَ، قال على طريق النتائج المُسَلِّمة: «أشهد أن مُحَمّداً» - ذاكراً أَشْهَرَ أَسْمَاءه وَأَطْيَبَهَا وَأَظْهَرَهَا - «رسول الله»، مُخَصَّصاً وَصَفَ الرِّسَالَةِ الذي هو بين الحقّ والخلق، لأن المَقَام دَاعٍ إِلَيْهِ، وَمَقْصُودٌ عَلَيْهِ، ثم أَتْبَعَ ذلك بما اقتضاه الحال من تأكيد في تَعْظِيمِهِ وَتَمْجِيدِهِ فقال: «أشهد أن محمداً رسول الله». فلما أخذ المَقَام حَظَّهُ من التأكيد للإعلام، بما كان فيه للإسلام من الشدائد والآلام، أَتْبَعَهُ ما اقتضاه الحال، من رَفْعِ الصَّوْتِ بهذا المقال مُشِيراً مع ذلك إلى أن باطن الدّين وظَاهِرُهُ سواء. ليس فيه حقيقة تُخَالِفُ شريعة، وخاصة أن المُتَشَرِّعَ به يجب

في بدء الأذان وبعض ما وقع فيه من الآيات

عليه أن يكون مثل الشَّرْع، ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ سَوَاءٌ، لَا نِفَاقَ فِيهِ بَوَاجِهُ أَصْلًا، فَقَالَ: «أَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

«فلما استقرَّ في الأذهان سِرُّ هذا الإعلان، أثْبَتَهُ ما اقتضى الحال من الشهادة للآتي بهذا الدِّين من صِدْقِ المَقَال، في دَعْوَى الإِرْسَال، فقال: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»، ثُمَّ أَكَّدَهُ كما مضى فقال: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ». ولما ثَبَّتَ ذلك، وَانْجَلَّتْ دَيَاجِيرُ تلك الأمور الحَوَالِك، فَتَبَيَّنَ السُّلُوكُ لكل سَالِك، في أَشْرَفِ المسالك، قال ذَاكِرًا لما أَثَرَتْه الرسالة من الخلاص من أَشْرَكَ الضَّلَالَةِ، والرَّدَّ على طُرُقِهَا المَيَّالَةِ، وَأَوْدِيَتْهَا المُنْعَتَالَةَ: «حَيَّ عَلَى - أَيِّ هَلُمُّوا أَقْبِلُوا بَجَهَارًا غَيْرَ خَائِفِينَ مِنْ أَحَدٍ - إِلَى «الصَّلَاةِ»، بادئًا بما هو نِهَائَةُ الدِّين، الجَامِع لِسَمِيهِ، المُمَيِّزُ لِأَهْلِهِ.

«ولما كان الناظر لذلك الحال، يستدعي عَجَبًا من الوصول إلى هذا المآل، قال مُؤَكِّدًا: «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ». فلما تَقَرَّرَ ذلك كان كأنه قيل: هل من عَمَلٍ غيرِها؟ فقال: «حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ»، فكان ذلك، مع أَنه دَعَاءٌ إِلَى كل عمل يوجب الفوز والطُّفَرُ بكل مُرَادٍ مُؤَكِّدًا لِلدُّعَاءِ إِلَى الصَّلَاةِ على أَبْلَغِ وَجْهِه.

«ولا شَكُّ أَنَّهُ أَحْسَنُ مما ورد في بعض الآثار الموقوفة في المَوْطَأِ، رواية محمد بن الحسن، وجاء مع عبد الرزَّاق عن ابن عُمر رضي الله عنهما، وَصَّرَحَ الحُفَظُ بِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُثْ عن النبي ﷺ قَوْلُهُ: «حَيَّ عَلَى خَيْرِ العَمَلِ»، لِأَنَّهُ مع كونه لم يثبت عن النبي ﷺ فقد صار شعار الرِّوَاظِ لا يشمل جميع الأعمال الصالحة، وكان الوارد في الصحيح أَبْلَغُ من وجهين: من جهة أَنَّهُ شاملٌ لكل خير، ومن جهة التعبير عن ذلك باللازم الذي هو الغاية المترتبة على العمل تحبيباً فيه، وتشويقاً إليه، مع أَنه كان يقوله بعد: حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ».

«ولما كان تطاول الصُّوْلَةُ بالإِذْلال والقَهْر، مُوجِبًا لاستبعاد الإِقْبَالِ على كل عمل من أَعْمَالِ الشَّرْعِ على سبيل القَهْر، أَكَّدَ هذا الكلام الدَّاعِي إِلَى كل خير لهذا وللإِشارة إِلَى أَنَّهُ لِحُسْنِيهِ جَدِيدٌ «بالتأكيد، وَأَهْلٌ لِأَن يُعْرَفَ بمقدار لجلالة آثاره، فقال: «حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ»، وفيه إِشارة إِلَى أَن الأمر خطير، والطريق صَعْبٌ، فلا بُدَّ مِنَ التَّأَهُّبِ لَهُ بِأَعْظَمِ الرِّزَادِ، لتحصيل الراحة في المآل والعَقَاد.

«ولما كان الدُّعْوُوق قد يكون نائماً، وكان النوم قد يكون خيراً، إما بِأَن يكون القَصْدُ به رَاحَةً البَدَنِ لِلتَّقْوَى على الطاعة، أَوْ أَن يكون لِلتَّخَلُّي عن المعصية، وكان أَكْثَرُ ما يكون ذلك في آخر الليل، كان التَّوْبِيبُ خاصًّا بِأَذَانِ الصَّبْحِ، فقال فيه: «الصَّلَاةِ» - التي هي أَعْظَمُ الفَلَاحِ، ومن أَعْظَمِ مقاصد هذا الأذان الإِعْلَامُ بِوقتها والدُّعَاءُ إِلَيْهَا - «حَيَّ مِنَ النُّومِ». ولما كان مَنْ يَغْلِبُهُ

النوم محتاجاً إلى الإزعاج، أكد ذلك بالتكرير، فقال: «الصلاة خير من النوم». ولما كان للصبح أذانان كان التثويب ربما كان في الأول، فكان دُعَاءٌ إلى قيام الليل الذي شُرِعَ له ذلك الأذان، كما بيّن سيرّه في بعض الروايات في قوله: «لِيَرْجِعَ قَائِمُكُمْ وَيُنَبِّئَ نَائِمُكُمْ». وربما كان في الثاني، فكان دُعَاءٌ إلى فَرَضِ الصبح، وهو بالأول أنسب، لأن الفَرَضَ له خاتٌ يَحُثُّ عليه، وداعٌ مبلِّغٌ يدعوه إليه، وهو الوجوب الذي مَنْ أَخْلَ به عُوقِبَ، وَمَنْ جاوز حَدَّهُ لِيَمَّ وَعُذِبَ.

«ولما تَمَّ الدُّيْنُ بِجَمَلَتِهِ، وَكَمُلَ أَصْلًا وَفِرْعًا، قَوْلًا وَنِيَّةً وَعَمَلًا، بِرُمِيَّتِهِ، عَلَّلَ الدُّعَاءَ إِلَيْهِ مُرَغَّبًا مُرْهِبًا، بقوله، مُذَكِّرًا بِمَا بَدَأَ الْأَمْرَ بِهِ، لاستحضار عظمتها التي أظهر بها الدين، وأدّل بها المعتدين، بعد أن كانوا على ثقة من أنه لا غالب لهم، «الله أكبر»، ثم أكد بمسيس الحاجة إلى ذلك في الترغيب والترهيب، فقال: «الله أكبر». فلما تَمَّ الأمر، وَجَلَّ التشويق والزُّجْر، لم تَدْعُ حَاجَةً إلى تريبع التكبير هنا كما كان في الأول، فَحَتَمَ بما بدأ به من التوحيد إعلاماً بأنه لا يُقْبَلُ شيءٌ من الدُّيْنِ إِلَّا به مُقَارِنًا له من ابتدائه إلى انتهائه، فقال: «لا إله إلا الله».

«ولما كان قد وصل إلى حَدِّ لا مَزِيدَ عليه، لم يَحْتَجْ إلى تأكيد، حتى ولا بلفظ الشهادة إعلاماً بأنه ليس وراء هذا إلا السيف لو تَوَقَّفَ عنه، أو ما عَانَدَ فيه. ولما كان من أَجَلٍ ما يُرَادُ بالأذان - كما مضى - الإعلام بظهور الإسلام على جميع الأديان، وأنه قد أَوْزَقَ عُودَهُ، وزكا وجوده، وَثَبَّتَ عُمُودَهُ، وَعَزَّزَ أَنْصَارَهُ وجنودَهُ، جاء على سبيل التعديد، والتقرير والتأكيد، من غير عاطف ولا لافِتٍ عن هذا المُراد ولا صاريَ تنبيهاً على أن كُلَّ جُمْلَةٍ منه رُكْنٌ برأسه، مُسْتَقِيلٌ بذلك بنفسه، مُغْرِبٌ عما هو المُراد من الإظهار بالتَّعْدَادِ.

«هذا ما شرحه الله تعالى لعباده من الأذان في حال النوم واليقظة، في الليل والنهار، على وفاءٍ لا مزيد عليه، كما صرَّح به في قوله - ﷺ -: «اللهم رب هذه الدعوة التامة، فمن زاد حُرُوفًا فما فوقه فقد أساء وتعدَّى وظلم». ومن الواضح البين أن المعنى في إجابة السامع لألفاظه بها الإيذان باعتقاده، والإذعان لمُزَايَدِهِ، وأنه تخصيص الجواب في الدعاء إلى الصلاة والفلاح، بالحوقة، والمراد بها سؤال المعونة على تلك الأفعال الكرام بالتَّبَيُّرِ من القدرة على شيءٍ بغير تقدير الله، رَدًّا للأمر إلى أهله، وأَخَذًا له من مَغْلِيهِ وَأَصْلِيهِ، والإقامة فرادى، لأنه لما ثَبَّتَ بالأذان أَمْرَ الوحداية والرسالة، وَعَلِمَ المَدْعُو ما نُسِبَ إليه، صار الأمرُ غَيِّثًا عن التأكيد، فلم يَحْتَجْ إِلَى غير الإعلام بالقيام إلى ما قد دُعِيَ إليه، وأُعْلِمَ بوقته، وأكَّدَ التكبير بما ذكر في الأذان نَوْعَ تأكيد لما تَقَدَّمَ من مزيد الاهتمام والإقامة لإسراع مَنْ عنده بَعْضُ غَفْلَةٍ أو تَوَانٍ». انتهى.

الثالث: اِخْتِلَافُ فِي السَّنةِ الَّتِي فِيهَا شُرِعَ [الأذان]. قال الحافظ: «والرَّاجِحُ أَنَّهُ كَانَ فِي السَّنةِ الْأُولَى، وَقِيلَ: بَلْ فِي الثَّانِيَةِ».

الرابع: قول ابن عُثْمَر: فقال عُثْمَر: «أَوْ لَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا مِنْكُمْ يُنَادِي بِالصَّلَاةِ». فقال

في بدء الأذان وبعض ما وقع فيه من الآيات

رسول الله ﷺ: «يا بلال قم فناد بالصلاة». قال النووي: هذا الدعاء دعاء إلى الصلاة غير الأذان وكان قد شُرِع قبل الأذان. قال الحافظ: والظاهر أن إشارة عُمر بإرسال رجل ينادي بالصلاة كان عقيب المشاورة فيما يفعلونه، وأن رؤيا عبد الله بن زيد كانت بعد ذلك. وكان اللفظ الذي يُنادي به بلال هو «الصلاة جامعة»، كما رواه ابن سعد، وسعيد بن منصور عن سعيد بن المسيب مُرسلاً. وقد وقع للقاضي أبي بكر العربي هنا كلام غير مُحَرَّر طَعَنَ فيه في صحة حديث ابن عُمر الثابت في الصحيح» وقد بسط الحافظ الكلام على رَدِّه.

الخامس: روى الطبراني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه رأى الأذان، وسنَّده وإياه، ووقع في الوسيط للغزالي أنه رآه بضعة عشر رجلاً. وعبارة الجيلي في شرح التنبيه: أربعة عشر رجلاً وأنكره ابن الصلاح^(١) [فقال: لم أجد هذا بعد إمعان البحث] ثم النووي [في تنقيحه فقال: هذا ليس بثابت ولا معروف وإنما الثابت خروج عُمر يَجُرُّ رداءه]، ونقل مغلطاي عن بعض كتب الفقهاء أنه رآه سبعة عشر رجلاً من الأنصار. قال الحافظ: «الحق أنه لا يثبت شيء من ذلك إلا لعبد الله بن زيد، وقصة عُمر جاءت في بعض الطرق».

وروى الحافظ ابن أبي أسامة عن كثير بن مرة^(٢) أن رسول الله ﷺ قال: «أَوَّلُ مَنْ أَدَّنَ بالصلاة جبريل في السماء فسمعه عُمر وبلال، فسَبَقَ عُمر بـ«لا»، فأخبر النبي ﷺ، ثم جاء بلال، فقال: «سَبَقَكَ بها عُمر»^(٣). وسنَّده / وإياه جداً، في سنده سعيد بن سنان^(٤)، قال الذهبي في المغني: «متروك مُتَّهِم».

السادس: وردت أحاديث تُدَلِّل على أنَّ الأذان شُرِع بمكة قبل الهجرة، منها للطبراني عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما، قال: «لما أُشْرِفَ برسول الله ﷺ أوحى الله تعالى إليه:

(١) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر، الإمام العلامة مفتي الإسلام، تقي الدين، أبو عمرو بن الإمام البارع صلاح الدين أبي القاسم، النصري - نسبة إلى جده أبي نصر - الكردي، الشهرزوري الأصل، الموصلية المربا، الدمشقي الدار والوفاة. ولد سنة سبع وسبعين وخمسائة بشهرزور، وتفقه على والده، قال ابن خلكان: كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه. وقال ابن الحاجب: إمام ورع، وافر العقل، حسن السمات، متبحر في الأصول والفروع. ويحكى عنه أنه قال: ما فعلت صغيرة في عمري. ومن تصانيفه: مشكل الوسيط في مجلد كبير وكتاب الفتاوى كثير الفائدة، وعلوم الحديث، وكتاب أدب المفتي والمستفتي. توفي بدمشق في حصار الخوارزمية في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وستمائة. الطبقات لابن قاضي شعبة ١١٣/٢، ١١٤، ١١٥، وطلقات الشافعية للسبكي ١٣٧/٥، ووفيات الأعيان ٤٠٨/٢ والطبقات لابن هداية الله ص ٨٤ والبداية والنهاية ١٦٨/١٣.

(٢) كثير بن مرة الخطرزمي أبو القاسم الرقاري ثم الجمصبي تابعي. عن عُمر ومعاذ وعنه خالد بن مغان ويحيى بن أبي حبيب. وثقه العجلي. قال أبو مشهور: مات في خلافة عبد الملك.

(٣) انظر فتح الباري ٧٨/٢.

(٤) سعيد بن سنان البرجي الشَّيْبَانِي أبو سنان الكوفي الأصغر نزيل قزوين. عن طاووس والضحاك. وعنه الثوري. وثقه ابن معين وأبو حاتم. قيل: مات قبل الستين ومائة. الخلاصة ٣١٨/١.

بالأذان، فنزل به، فعَلَّمه بلالاً، وفي سَنَدِهِ، طَلْحَة بْنُ زَيْدِ الرَّقِّي هَالِك. قال الحافظ أبو الفرج بن رجب: هذا حديث موضوع بهذا الإسناد بغير شك، قلت: وبغيره أيضاً. ولابن شاهين عن علي بن أبي طالب: «عَلَّمَ رسول الله - ﷺ - الأذان ليلة أُسْرِي به وفُرِضَتْ عليه الصلاة»، وفي سَنَدِهِ حصين بن مُحَارِق، وهو وَضَّاع. وللدارقطني في الأفراد، وعن أنس رضي الله عنه «أَنَّ جَبْرِيلَ أَمَرَ النَّبِيَّ - ﷺ - بِالْأَذَانِ حِينَ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ»، وسَنَدُهُ ضعيف.

ولابن مَرْذُوبٍ من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي أَذَّنَ جَبْرِيلُ، فَظَنَنْتُ الْمَلَائِكَةَ أَنَّهُ يُصَلِّي بِهِمْ، فَقَدَّمَنِي فَصَلَّيْتُ»، وفي سنده من لا يُعْرَف. وقال الذهبي في مختصر الإمام، أصل الإمام لابن دقيق العيد^(١): «هذا حديث منكر بل موضوع». وللتباز وغيره من حديث قال: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُعَلِّمَ رَسُولَهُ الْأَذَانَ أَتَاهُ جَبْرِيلُ بِدَابَّةٍ يُقَالُ لَهَا الْبُرَاقُ فَرَكِبَهَا [حتى أتى الحجاب الذي يلي الرحمن، فبينما هو كذلك إذ خرج مَلَكٌ من الحجاب، فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: والذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لأَقْرَبُ الْخَلْقِ مَكَاناً وَأَنَّ هَذَا الْمَلَكُ مَا رَأَيْتَهُ مِنْذُ خُلِقْتَ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ فَقَالَ الْمَلَكُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقِيلَ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَابِ: صَدَقَ عَبْدِي، أَنَا أَكْبَرُ، أَنَا أَكْبَرُ]، فذكر بقية الأذان، وفي آخره: «ثم أخذ المَلَكُ بيده فَأَمَرَ أَهْلَ السَّمَاءِ..» وفي إسناده زياد بن المنذر^(٢) وهو متروك أيضاً. وقال ابن معين^(٣): عدو الله كذاب. وقال الذهبي: «هذا من وَضَّعِهِ». وقال ابن كثير: «هذا الحديث الذي زعم السهيلي أَنَّهُ صحيح هو منكر، تَفَرَّدَ بِهِ زياد بن المنذر الذي تُنْسَبُ إِلَيْهِ الْفِرْقَةُ الْجَارُودِيَّةُ مِنَ الرَّافِضَةِ وَهُوَ

(١) محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري، الشيخ الإمام، شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح بن الشيخ القدوة العالم مجد الدين المنفلوطي المصري ابن دقيق العيد. وُلِدَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ وَسِتَّمِائَةٍ. وَكَانَ وَالِدُهُ مَالِكِي الْمَذْهَبِ ثُمَّ تَفَقَّهَ عَلَى الشَّيْخِ عَزَّ الدِّينَ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ، فَحَقَّقَ الْمَذْهَبَيْنِ وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي طَبَقَاتِهِ: أَحَدُ عُلَمَاءِ وَقْتِهِ، بَلْ أَجْلَهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ عُلَمَاءُ وَدِيناً، وَوَرَعاً وَتَقَشُّفاً، وَمَدَامَةً عَلَى الْعِلْمِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، مَعَ كِبَرِ السِّنِّ وَالشَّغْلِ بِالْحُكْمِ. وَلَهُ التَّصَانِيفُ الْمَشْهُورَةُ وَالْعُلُومُ الْمَذْكُورَةُ، بَرَعَ فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ لَا يَبِيبُ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، فَاقَ فِيهِ عَلَى أَقْرَانِهِ، وَبَرَزَ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ، رَحَلَتْ إِلَيْهِ الطَّلِبَةُ مِنَ الْأَفَاقِ وَوَقَعَ عَلَى عِلْمِهِ وَوَرَعِهِ وَهَذِهِ الْإِتِّفَاقُ، وَمِنْ تَصَانِيفِهِ الْإِمَامُ فِي الْحَدِيثِ، وَتَوْفِي وَلَمْ يَبْيُضْهِ، وَكِتَابُ الْإِمَامِ - بِهَمْزَةٍ مَكْسُورَةٍ بَعْدَهَا مِيمٌ - شَرْحُ الْإِمَامِ، الْكِتَابُ الْكَبِيرُ الْعَظِيمُ الشَّانُ. تَوَفِيَ فِي صَفَرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِمِائَةٍ وَدَقِيقِ الْعِيدِ لَقِبَ لَجْدِهِ وَهَبِ. الطَّبَقَاتُ لِابْنِ قَاضِي شَهْبَةَ ٢/٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، وَالتَّبَقَاتُ لِلْإِسْنَوِيِّ ص ٣٣٦، وَالتَّبَقَاتُ لِلْسَبْكِ ٢/٢٤٤، وَفَوَاتُ الْوُفِيَّاتِ ٢/٢٤٤.

(٢) زياد بن المنذر الهذلي. وقيل: الثقفي. ويقال: النهدي، أبو الجارود الكوفي الأعشى. عن أبي بردة، والחסن. وعنه مروان بن معاوية، ومحمد بن سنان القزويني. وعدة. قال ابن معين: كذاب. وقال النسائي وغيره: متروك. وقال ابن حبان: كان رافضياً يَضَعُ الْحَدِيثَ فِي الْفَضَائِلِ وَالْمَثَالِبِ. وقال الدارقطني: إنما هو منذر بن زياد. متروك. وقال غيره: إليه ينسب الجارودية ويقولون: إن علياً أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ وَتَبَرَّؤُوا مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَغُمِرَ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْإِمَامَةَ مَقْصُورَةٌ عَلَى وَلَدِ فَاطِمَةَ. وَبَعْضُهُمْ يَرَى الرَّجْعَةَ وَيَبِيحُ الْمُنْعَةَ. مِزَانُ الْإِعْتِدَالِ ٢/٩٣.

(٣) يحيى بن معين بن عَوْنِ الْغَطَفَانِيِّ أَبُو زَكَرِيَّا الْبَغْدَادِيُّ الْحَافِظُ الْإِمَامُ الْعَلَمُ. قَالَ أَحْمَدُ: كُلُّ حَدِيثٍ لَا يَعْرِفُهُ يَحْيَى فَلَيْسَ بِحَدِيثٍ. قَالَ ابْنُ أَبِي نَيْشَظَةَ: مَاتَ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَحُمِلَ عَلَى أَعْوَادِ النَّبِيِّ ﷺ وَنُودِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ هَذَا الَّذِي يَذَّبُ الْكَذِبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. الْخُلَاصَةُ ٣/١٦١.

في بدء الأذان وبعض ما وقع فيه من الآيات

من المتهمين، ولو كان النبي - ﷺ - سَمِعَهُ ليلة الإسراء لأمر به بعد الهجرة». ولابن شاهين من طريق زياد المذكور، قال: «قلت لابن الحنفية: كنا نتحدث أن الأذان كان رؤيا، فقال: هذا والله الباطل، لكن رسول الله - ﷺ - لما عُرِجَ بِهِ بُعِثَ إِلَيْهِ مَلَكٌ عَلَّمَهُ الْأَذَانَ». قال [الحافظ ابن حجر]: «هذا باطل ويمكن على تقدير صحته أن يُحْتَمَلَ على تَعَدُّدِ الإسراء، فيكون ذلك وقع بالمدينة، وأما قول القرطبي لا يلزم من كونه سمعه ليلة الإسراء أن يكون مشروعاً في حقه، ففيه نَظَرٌ لقوله في أوله: «لما أراد الله أن يُعَلِّمَ رَسُولَهُ الْأَذَانَ»، وكذا قول المحب الطبري، يُحْتَمَلَ الْأَذَانَ ليلة الإسراء على المعنى اللغوي وهو الإعلام، [وهذا] فيه نَظَرٌ أيضاً لتصريحه بكيفيته المشروعة فيه».

ولابن شاهين من طريق زياد أيضاً عن الباقر عن أبيه عن أبي رافع عن علي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يا عليّ إن الله عَلَّمَنِي الصَّلَاةَ وَالْأَذَانَ، أَتَانِي جَبْرِيلُ بِالْبَرَاءِ»؛ وزياد [زأويه] كَذَّبَ. ولأبي الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزل الأذان على رسول الله ﷺ مع فَرُوضِ الصَّلَاةِ»، وفي سنده عبد العزيز بن مروان^(١)، وهو تالف. قال الحافظ: «والحق أنه لا يَصِحُّ شيء من هذه الأحاديث، وقد جزم ابن المنذر «أنه - ﷺ - كان يُصَلِّي بِغَيْرِ أَذَانٍ، مِنْذُ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ بِمَكَّةَ إِلَى أَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَإِلَى أَنْ وَقَعَ التَّشَاوُرُ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرْ ثَمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ». انتهى كلام ابن المنذر. وقد حاول السهيلي الجمع بينهما فتكلف وتَعَسَّفَ والأخذ بما صَحَّ أَوَّلَى، فقال بانياً على صحته الحكم في مجيء الأذان على لسان الصحابي في المنام فَقَصَّه فوافق ما كان النبي - ﷺ - سَمِعَهُ فقال: «لَهَا لِرُؤْيَا حَقٌّ»، وعلِّم حينئذ أن مراد الله بما أَرَاتِهِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَكُونَ شَيْئاً فِي الْأَرْضِ، وَقَوَّى ذَلِكَ عِنْدَهُ مَوَافَقَتَهُ رُؤْيَا عُمرَ لِلْأَنْصَارِيِّ لِأَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطَلِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ.. انتهى.

ويؤخذ منه عدم الاكتفاء برؤيا عبد الله بن زيد حتى أُضِيفَ إِلَيْهِ عُمرٌ للتقوية التي ذكرها. ولكن قد يقال: فَلِمَ اقْتَصَرَ عَلَى عُمر؟ فيمكن أن يجاب ليصير في معنى الشهادة. وقد جاء في رواية ضعيفة سَبَقَتْ ما ظاهره أن بلائاً أيضاً رأى، لكنها مُؤَوَّلَةٌ، فإن لفظها: «سَبَقَكَ بِهَا عُمر»، يحمل المراد بالسُّبْقِ على مباشرة التأذين برؤيا عبد الله بن زيد.

السابع: قال السهيلي: «اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الأذان على لسان غير النبي

(١) عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الأصم: أمير مصر. ولد في المدينة، وولي مصر لأبيه استقلالاً، سنة ٦٥هـ، فسكن حلوان. وأعجبته، فبنى فيها الدور والمساجد، وغرس بها كرمًا ونخيلًا. وتوفي فيها. وهو والد الخليفة عمر بن العزيز. توفي سنة ٨٥هـ. الأعلام ٢٨/٤.

- من المؤمنين لما فيه من التنويه من الله تعالى بعبده والرفع لذكريه، فلأن يكون ذلك على لسان غيره أنوة به وأفحّم لشأنه، وهذا معنى بين، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سورة الشرح، الآية: ٤]، فمن رَفَع ذِكْرَهُ أن أشار به على لسان غيره. انتهى كلام السهيلي - وهذا حسن بديع.

الثامن: من أغرب ما وقع في بدء الأذان ما رواه أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن مروان - وهو تالف - عن عبد الله بن الزبير قال: «أُحِدَ الأَذَانُ من أذان إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [سورة الحج، الآية: ٢٧] الآية، قال: «فَأَذَّنَ النَّبِيُّ - ﷺ -؛ وما رواه أبو نعيم يستند فيه مجاهيل عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: «أن جبريل نادى بالأذان لآدم عليه السلام حين أُهبط من الجنة».

التاسع: ذكر بعضهم مناسبة اختصاص بلال بالأذان دون غيره، كونه لما عُذِّب ليرجع عن الإسلام كان يقول: أخذ أخذ، فجوزي بولاية الأذان المشتمل على التوحيد من ابتدائه إلى انتهائه.

العاشر: استشكل إثبات محكم الأذان برؤيا عبد الله بن زيد، ورؤيا غير الأنبياء لا ينبغي عليها حكم شرعي. وأجيب باحتمال مقارنة الوحي لذلك بأنه - ﷺ - أمر بمقتضاها لينظر أيقره على ذلك أم لا، ولا سيما لما رأى نظمها يُعَد دخول الوسواس فيه، ويؤيد الأول حديث عُبيد بن غُمَيْر، أحد كبار التابعين: «أن عُمر لما رأى الأذان جاء ليخبر النبي - ﷺ -: فوجد الوحي قد ورد بذلك فما راعه إلا أذان بلال». فقال له النبي ﷺ: «سَبَقَكَ بِذَلِكَ الْوَحْيُ»^(١). وهذا أصح كما حكاه الداودي عن ابن إسحاق «أن جبريل أتى النبي - ﷺ - بالأذان قبل أن يخبره عبد الله بن زيد بثمانية أيام».

الحادي عشر: قيل إن الحكمة في ثنية الأذان وإفراد الإقامة أن الأذان إعلام للغائبين مُتَكَرِّر ليكون أوصل إليهم، بخلاف الإقامة فإنها للحاضرين، ومن ثم استُحِبَّ أن يكون الأذان في مكان عالٍ بخلاف الإقامة، وأن يكون الصوت في الأذان أرفع منه في الإقامة.

الثاني عشر: في بيان غريب ما سبق:

«بَدْءُ» الأذان، بفتح الموحدة وسكون الدال [المهملة] وبالهجرة، أي ابتداءه.

«الْحَيْن»: الزمان قَلَّ أو كثر.

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٨١) حديث (٢٠) وذكره السيوطي في الجامع الكبير من حديث الشعبي مرسلًا وعزاه للضياء في المختارة.

في بدء الأذان وبعض ما وقع فيه من الآيات

«يَسْتَحْيُونَ» الصلاة: أي يطلبون حيتها.

«المواقيت» جمع ميقات: وهو الوقت المضروب للفعل.

«الدَّغْوَةُ»: بالفتح: الأذان.

«القَنَعُ»^(١): بضم القاف وسكون النون هو البوق - بضم الموحدة - شيء مجوف يُنْفَخُ

فيه.

«الشُّبُور»^(٢): بشين معجمة مفتوحة فموحدة مضمومة مُشَدَّدَةٌ وهو البوق.

«النَّاقُوس»: آلة من النحاس يُضْرَبُ فِيضَبُوت.

«حَيَّ» على الصلاة: أَقْبِلُوا.

«الفلاح»: أي الفوز، أي هَلُكُوا إِلَى طريق النجاة والفَوْز.

«أَنْدَى»^(٣) صوتاً منك، أي أَمَدٌ وَأَبْعَدُ وَأَرْفَعُ غَايَةً، وقيل: أَحْسَنُ وَأَعْدَبُ.

«أَلْقِيهِ» عليه: أي عَلَّمْهُ إِيَّاهُ.

فما «رَاعَ» عُمر: أي ما شعر عُمر أي ما أَعْلَمَهُ.

«لَدَيْ» بفتح اللام وتشديد التحتية: أي عندي، وإِلَيَّ بذلك تابع.

«التوقير»: التعظيم.

«المُحْصَص»^(٤) بحاء مضمومة فصادين مهملتين: الضراط، وقيل شدة العدو، ويفعل

ذلك الشيطان لئلا يسمع الأذان فيُضْطَرَّ إِلَى الشهادة يوم القيامة.

«الغيلان»: واحدها غول، والغيلان جنس من الجن كانت العرب تزعم أنها تتراءى

للناس في الفلاة فَتَتَمَثَّلُ فِي صُورِ شَيْءٍ فَتَقُولُ لَهُمْ أَيْ تُضِلُّهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ وَتُهْلِكُهُمْ، فنفاه عَنِ النَّاسِ

بقوله: «لَا غُولَ [وَلَا صَفَرَ]» [وقيل قوله: لا غول]، ليس نَفْيًا [لَعَيْنِ الْغُولِ] ووجوده وإنما فيه

إِبْطَالُ زَعْمِ الْعَرَبِ فِي تَلَوُّنِهِ بِالْأَصْوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ وَاجْتِيَالِهِ، فيكون المعنى بقوله: لا غول أَنَّهَا لَا

تَسْتَطِيعُ أَنْ تُضِلَّ أَحَدًا. ومنه الحديث: «إِذَا تَعَوَّلْتَ الْغِيلَانَ فَبَادِرُوا بِالْأَذَانِ»، أي ادفَعُوا شَرَّهَا

بذكر الله، وهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ يَنْفِيهَا عَنْهَا.

(١) وهو بالكسر: الطبق من عسب النخل يوضع فيه الطعام وقال ابن الأثير: يقال له: القع والقنع بالكسر والضم اللسان ٥/

٣٧٥٦.

(٢) انظر اللسان ٤/٢١٨٤، ٣١٨٥.

(٣) المصباح المنير ص ٥٩٩.

(٤) انظر اللسان ٢/٨٩٨.

الباب الخامس

في مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله عنهم

قال أبو عُمر، وأقره في العيون، والفتح، ونقله في كتاب الصيام عن أصحاب المغازي: «كانت المؤاخاة مَرَّتَيْنِ: الأولى: بين المهاجرين بعضهم بعضاً قبل الهجرة على الحق والمواساة فأخى رسول الله - ﷺ - بين أبي بكر وعُمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة. وروى أبو يَغْلَى برجال الصحيح عن عبد الرحمن بن صالح الأسدي وهو ثقة عن زيد بن حارثة أنه قال: «إن رسول الله - ﷺ - أخى بيني وبين حمزة بن عبد المطلب، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العوّام وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وبلال، وبين مُضْعَب بن عُمَيْر وسعد بن أبي وقاص، وبين عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعد بن أبي زيد [بن عمرو بن نُفَيْل] وطلحة بن عبيد الله، وبين علي بن أبي طالب ونفسه ﷺ. وروى الحاكم والخُلعي عن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: «أخى رسول الله - ﷺ - بين أصحابه، فأخى بين أبي بكر وعُمر، وفلاناً، حتى بقي علي رضي الله عنه تَدَمَّع عيناه، فقال: يا رسول الله أَخَيْتَ بين أصحابك ولم تُؤاخِ بيني وبين أحد، فقال رسول الله - ﷺ: «أما ترضى أن أكون أخاك؟ قال: بلى يا رسول الله رَضِيت. قال: «فأنت أخي في الدنيا والآخرة».

الثانية: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «حالف رسول الله - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار في دارنا» رواه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود. وروى الإمام أحمد، وأبو داود الطيالسي، والبخاري، وأبو داود [السجستاني] وأبو الشيخ، والطبراني عن ابن عباس مُخْتَصَرًا، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق عنه مُطَوَّلًا، وابن سعد والحاكم وصححه عن الزبير بن العوّام، وابن سعد عن الزهري، وإبراهيم التيمي، وضمرة بن سعيد، قالوا: لما قَدِم رسول الله - ﷺ - المدينة أخى بين المهاجرين والأنصار، أخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فأخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فأخى رسول الله - ﷺ - بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد بن الحارث، وبين عمر بن الخطاب وعُثْبَان بن مالك، وبين الزبير بن العوام وسَلَمَة بن سلامة بن وَقْش - ويقال: بينه وبين عبد الله بن مسعود، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وقال لسائر أصحابه: «تَوَاحُوا وهذا أخي» - يعني علي بن أبي طالب.

في مواخاته ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم

قام المسلمون على ذلك حتى نزلت سورة الأنفال، وكان مما شدَّ الله عقدَ نبيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال ٧٢: ٧٤] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال ٧٢: ٧٤]

فأضحكهم الله بهذه الآيات العقد الذي عقد رسول الله - ﷺ - بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، يتوارث الذين آخوا دون من كان مقيماً بمكة من ذوي الأرحام والقربات. فمكث الناس على ذلك العقد ما شاء الله. فلما كان بعد بدر أنزل الله تعالى الآية الأخرى فنسخت ما كان قبلها، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال ٧٥] وانقطعت المواخاة في الميراث ورجع كل إنسان إلى نسبِهِ وَوَرَثَهُ ذُوو رَحِمِهِ.

وروى الخرائطي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال المهاجرون: «يا رسول الله ما رأينا مثلاً قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مَوَاسَاةٍ فِي قَلِيلٍ وَلَا أَحْسَنَ بَدَلًا مِنْ كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَرْنَا الْمُتَوَاتَةَ، وَأَشْرَكْنَا فِي التَّهْنُأِ حَتَّى لَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ». قال: «لا مَا أَتَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ [الله] لَهُمْ»^(١).

وروى مسلم والنسائي والخرائطي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد رأيتنا وما الرجل المسلم بأحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم». قال الزهري، وإبراهيم التيمي، وحمزة بن سعيد، كما رواه ابن سعد عنهم: «كانوا تسعين رجلاً: خمسة وأربعون رجلاً من المهاجرين وخمسة وأربعون من الأنصار». ويقال: «كانوا مائة: خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار». قال ابن إسحاق، وشنيد بن داود، وأبو عمر، وأبو القَرج: «أخى رسول الله - ﷺ - بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبين نفسه - ﷺ -»، قال أبو عمر: «وقال له: «أنت أخي في الدنيا والآخرة».

وروى أبو بكر الشافعي عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قال: «لما أخى رسول الله ﷺ بين الناس أخى بينه وبين علي، وبين حمزة بن عبد المطلب وأُسَيْد - بضم الهمزة وفتح السين - ابن

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٠٠/٣ وابن أبي شيبة ٦٨/٩ وانظر البداية والنهاية ٢٢٨/٣.

حَضِير - بضم الحاء المهملة وفتح الضاد المعجمة -، وبين جعفر بن أبي طالب وهو بأرض الحبشة ومُعَاذ بن جَبَل. واشْتُشِكِلَ ذلك ويأتي جوابه في ثالث التنبيهات إن شاء الله، «وبين أبي بكر وخارجة - بالخاء والجيم المعجمة - ابن زيد، وبين عمر بن الخطاب وَعِثْبَان بن مالك - بعين مهملة مكسورة ففوقية ساكنة فموحدة وقد تُضَمَّ العين - وبين عثمان بن عفَّان وأُس بن ثابت بن المنذر أَخِي حِثَّان بن ثابت، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك»، وذكر أبو الفَرَج بدل كعب بن مالك، أُبَيُّ بن كعب، وقيل أُبَيُّ بن كعب وسعيد بن زيد، وبين الزبير بن العوام وسَلَمَة بن سلامة بن وَقْش - بفتح الواو وسكون القاف وبالشين المعجمة - كما ذكروا في حديث الزبير السابق أَنَّهُ وَآخِي بين سعد بن أَبِي وَقَّاص ومحمد بن مسلمة، وبين سعيد بن زيد وأُبَيُّ بن كعب، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع».

وروى البخاري في أوائل كتاب البيوع بسند وعَلَّقَه في باب: كيف آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، والإمام أحمد والشيخان عن أنس رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ وَآخَى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فَعَرَضَ سَعْدُ عَلَى عبد الرحمن أَن يَنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ. قال سعد: أَنَا أَكْثَرُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مَالاً فَأَقْسِمُ لَكَ نَصْفَ مَالِي وَأَنْظُرَ أَيَّ زَوْجَتِي هَوَيْتَ، نَزَلَتْ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا. فقال عبد الرحمن: بَارَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ذُلُونِي عَلَى السُّوقِ، فَاشْتَرَى وَبَاعَ^(١)، وسيأتي الحديث في المعجزات إن شاء الله تعالى. وَوَآخَى بين أَبِي عُبَيْدَةَ بن الجراح وأبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري النجاري، فهذا أَصَحُّ مما ذكره ابن إسحاق وأبو عُمَرُ إِلَّا أَن يَكُونَ آخِي بين أَبِي عُبَيْدَةَ وسعد بن مُعَاذ. وذكر سُئِيد أَنَّهُ وَآخَى بين سعد بن أَبِي وَقَّاص ومحمد بن مَسْلَمَةَ بن خالد بن عدي الأوسي وبين سعد بن زيد وأُبَيُّ بن كعب، وبين مصعب بن عُمَيْر وأبي أيوب، وبين عُمَار بن ياسر وحَذِيفَةَ بن اليمَّان، وقيل: بين عُمَار وثابت بن قيس بن الشَّامِ لَأَن حَذِيفَةَ إِنَّمَا أَسْلَمَ زَمَانَ أُحُدَ، وبين أَبِي حَذِيفَةَ بن عُثْبَةَ بن ربيعة وَعَبَّاد - بموحدة ودال مهملة - ابن بَشْر - بكسر الموحدة وبالشين المعجمة - ابن وَقْش، وبين أَبِي ذَرَّ الغِفَارِي والمنذر بن عمر الْمُعْنِقِي لِيَمُوتَ.

وَأَنْكَرَ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بن عُمَرُ الْأَسْلَمِي لَأَن أَبَا ذَرَّ إِنَّمَا قَدِيمُ الْمَدِينَةِ بَعْدَ بَدْرٍ وَأُحُدَ، وَعِنْدَهُ طَلَيْبٌ - بالتصغير - ابن عُمَيْرَ والمنذر بن عُمَرُو، وسيأتي الجواب عن ذلك في ثالث التنبيهات إن شاء الله تعالى. وَوَآخَى بين عبد الله بن مسعود وسَهْلَ بن حَنَيْفٍ، وبين سَلْمَانَ الفَارِسِي وأَبِي الدرداء غُوَيْرَ بن ثعلبة كما في صحيح البخاري عن أَبِي جُحَيْفَةَ [وهب بن عبد الله]

رضي الله عنه، وأنكر ذلك محمد بن عُمَرُ لَأَنَّ سَلْمَانَ إِنَّمَا أَسْلَمَ بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ، وَأَوَّلَ مَشَاهِدِهِ الْخَنْدَقِ، وَيَأْتِي الْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ.

[وَوَاحِي] بَيْنَ بِلَالٍ [بَنِ رِبَاعٍ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ] وَأَبِي زُوَيْحَةَ - بَضْمُ الرَّاءِ وَفَتْحُ الْوَاوِ وَبَعْدَهَا تَحْتِيَّةٌ سَاكِنَةٌ فَحَاءٌ مَهْمَلَةٌ - وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَثْعَمِيُّ، وَبَيْنَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ - بِمَوْحِدَةٍ فَلَامٌ سَاكِنَةٌ فَفَوْقِيَّةٌ فَعَيْنٌ مَهْمَلَةٌ - وَعُوْثُ بْنُ بَلْفِظٍ تَصْغِيرُ عَامٍ - ابْنُ سَاعِدَةَ، وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ وَعَاصِمِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الْأَقْلَحِ - بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْقَافِ فَلَامٌ فَحَاءٌ مَهْمَلَةٌ، وَبَيْنَ عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الْمُطَلِّبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَعُمَيْرِ بْنِ الْحَتَّامِ - بَضْمُ الْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ -، وَبَيْنَ الطُّفَيْلِ بْنِ الْحَارِثِ أَخِي عُبَيْدَةَ، وَشُفْيَانَ بْنِ نَسْرٍ - بِفَتْحِ النُّونِ وَسُكُونِ الْمَهْمَلَةِ - كَمَا ضَبَطَهُ الْأَمِيرُ، وَقِيلَ بِالتَّصْغِيرِ - ابْنُ زَيْدِ بْنِ الْحَارِثِ الْخَزْرَجِيُّ، وَبَيْنَ الْحَصِينِ بْنِ الْحَارِثِ أَخِي عُبَيْدَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ - بِلْفِظِ تَصْغِيرِ جَبْرِ - [ابْنِ النُّعْمَانِ الْأَوْسِيِّ]، وَبَيْنَ عَثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ - بِالضَّاءِ الْمَعْجَمَةُ الْمُشَالَةُ - [ابْنِ حَبِيبِ بْنِ وَهْبِ الْقُرَشِيِّ الْجُمَحِيِّ] وَالْعَبَّاسِ بْنِ [عُبَادَةَ بْنِ] نَضْلَةَ - بِالنُّونِ وَالضَّادِ الْمَعْجَمَةُ، وَذَكَرَ سُئِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَبَّاسِ أَبَا الْهَيْثَمِ بْنِ الْثَّيْهَانَ - بِفَتْحِ الْفَوْقِيَّةِ وَكَسْرِ التَّحْتِيَّةِ الْمُشَدَّدَةِ، وَبَيْنَ عُثْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ - بَغِينٌ مَفْتُوحَةٌ فَزَايٌ سَاكِنَةٌ مَعْجَمَتَيْنِ - وَمُعَاذُ بْنُ مَاعِصٍ - بَعَيْنٌ فَصَادٌ مَهْمَلَتَيْنِ وَيُقَالُ فِيهِ نَاعِصٌ - [ابْنِ قَيْسِ بْنِ خَلْدَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ زُرَيْقٍ]، وَبَيْنَ صَفْوَانَ [بَنِ وَهْبِ بْنِ رِبْعَةَ الْقُرَشِيِّ الْفَهْرِيِّ وَهُوَ الْمَعْرُوفُ] بِابْنِ بَيْضَاءٍ وَرَافِعِ بْنِ الْمُعَلَّى - بِلْفِظِ اسْمِ الْمَفْعُولِ مِنَ الْغُلُوِّ بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ - [ابْنِ لَوْذَانَ بْنِ حَارِثَةَ]، وَبَيْنَ الْمُقَدَّادِ بْنِ عَمْرٍو وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَوَاحَةَ، وَبَيْنَ ذِي الشَّامَالِينَ [بَنِ عَبْدِ عَمْرٍو بْنِ نَضْلَةَ بْنِ عُثْمَانَ] وَيَزِيدِ بْنِ الْحَارِثِ وَبَيْنَ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ - بِالْمَهْمَلَةِ - وَشُعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ - بِخَاءٍ مَعْجَمَةٌ فَتَحْتِيَّةٌ فَثَاءٌ مَثْلَةٌ، وَبَيْنَ عَامِرِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَخُبَيْبِ بْنِ بَخَاءٍ مَعْجَمَةٌ مَضْمُومَةٌ فَمَوْحِدَةٌ مَفْتُوحَةٌ - ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَظْعُونٍ وَقُطَيْبَةُ - بِلْفِظِ تَأْنِيثٍ قُطَيْبٍ - ابْنُ عَامِرٍ، وَبَيْنَ شَمَّاسٍ - بِشَيْنٍ مَعْجَمَةٌ مَفْتُوحَةٌ فَمِيمٌ مُشَدَّدَةٌ فَالْفُ فَسَيْنٌ مَهْمَلَةٌ - ابْنُ عَثْمَانَ وَحَنْظَلَةَ بْنِ أَبِي عَامِرٍ^(١)، وَبَيْنَ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ وَطَلْحَةَ بْنِ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ، وَبَيْنَ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ وَمَعْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَبَيْنَ عَمْرٍو بْنِ سُرَّاقَةَ وَشُعْدِ بْنِ زَيْدِ الْأَشْهَلِيِّ، وَبَيْنَ عَاقِلِ

(١) حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ بْنِ صَيْفِيِّ بْنِ مَالِكِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ ضَبِيْعَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَوْفٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْأَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ الْأَنْصَارِيِّ الْأَوْسِيِّ الْمَعْرُوفِ بِغَسِيلِ الْمَلَالِكَةِ. وَكَانَ أَبُوهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُعْرَفُ بِالزَّاهِبِ وَاسْمُهُ عَمْرٍو وَيُقَالُ: عَبْدُ عَمْرٍو وَكَانَ يَذْكُرُ الْبَيْتَ وَدِينِ الْحَنِيفَةِ فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ عَانَدَهُ وَحَسَدَهُ وَخَرَجَ عَنِ الْمَدِينَةِ وَشَهِدَ مَعَ قُرَيْشٍ وَقَعَةَ أُحُدٍ ثُمَّ رَجَعَ مَعَ قُرَيْشٍ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الرُّومِ فَمَاتَ بِهَا سَنَةً تِسْعَ، وَيُقَالُ: سَنَةُ عَشْرٍ، وَأَعْطَى هِرْقُلُ مِيرَالَهُ لِكُنَانَةِ بْنِ عَبْدِ الْبَلِيلِ الثَّقَفِيِّ وَأَسْلَمَ ابْنَهُ حَنْظَلَةَ فَحَسَنَ [إِسْلَامَهُ وَاسْتَشْهَدَ بِأَحَدٍ لَا يَخْتَلِفُ أَصْحَابُ الْمَغَازِي فِي ذَلِكَ. الإِسَابَةُ ٤٤/٢، ٤٥.

- بعين مهملة وبعد الألف قاف - ابن البَكَيْر - بموحدة تصغير بَكْر - ومُبَشَّر بن عبد المُنْذِر، وبين عبد الله بن مَخْرَمَة وفَوْوَة بن عَمْرٍو البياضي، وبين خُنَيْس - بخاء معجمة مضمومة ونون مفتوحة فتحتية ساكنة فسين مهملة - ابن خُذَافَة، والمُنْذِر بن محمد بن عُقْبَة بن أُحَيحَة - بمهملتين - تصغير أحمَة، وبين أبي سَبْرَة - بسين مهملة مفتوحة فموحدة ساكنة - ابن أبي رُهم - وهو بَضَمُ الراء وسكون الهاء، وعُبَادَة بن الخَشَخَاش - بخاءين الأولى مفتوحة وشينين الأولى ساكنة مُعْجَمَات، كما ذكره الأمير، وبين مِشْطَح - بميم مكسورة فسين مهملة فطاء مفتوحة وحاء مهملتين - ابن أُثَاثَة - بالضم ومثلثتين مُخَفَّفَة - وزيد بن المزين - ضبطه الدارقطني والأمير بضم الميم وفتح الزاي وآخره نون مُصَغَّر، وشَدَّد أَبُو عَمْرٍو بِحُطّه التحتية - والله أعلم، وبين أبي مَرْثَد - بفتح الميم وسكون الراء فثاء مثلثة - العَنَوِي - بالغين المعجمة المفتوحة والنون - وعُبَادَة بن الصامت، وبين عَكَّاشَة بعين مهملة مضمومة فكاف تشديدها أفصح من تخفيفها - ابن مِخْصَن - بكسر الميم، - والمُجْذَر - بضم الميم وفتح الجيم وتشديد الذال المعجمة المفتوحة ثم راء - ابن ذِيَاد - بكسر الذال المعجمة وتخفيف التحتية في آخره ذال مهملة، وقيل إنه بفتح أوله وتشديد ثانيه -، وبين عامر بن فُهَيْزَة - بالتصغير - والحارث بن الصُّمَّة - بكسر الصاد المهملة وتشديد الميم، - وبين مِهْجَع - بكسر الميم وسكون الهاء وفتح الجيم - مؤَلَّى عُمَر، وشُرَاقَة بن عَمْرٍو بن عطية.

تنبيهات

الأول: قال في الروض: «أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة لتذهب عنهم وَخْشَة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض، فلما عَزَّ الإسلام واجتمع الشُّعْل وذهبت الْوَخْشَة أنزل الله سبحانه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال ٧٥] أعني في الميراث، ثم جعل المؤمنين كلهم إخواناً يعني في التوادُّ وشمول الدعوة».

الثاني: اُخْتَلِفَ في ابتدائها فقليل بعد الهجرة بخمسة أشهر، وقيل بتسعة، وقيل وهو يبني المسجد، وقيل قبل بنائه، وقيل بسنة، وقيل بثلاثة أشهر وقيل بدر، وتقدم عن أنس بن مالك أن ذلك كان في داره، وذكر أبو سعد النيسابوري في الشرف أن ذلك كان في المسجد. فالله أعلم.

الثالث: أنكر الواقدي مؤاخاة سَلَمَانَ لِأَبِي الدرداء لَأَن سَلَمَانَ إِنَّمَا أَسْلَمَ بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ، وَأَوَّلَ مَشَاهِدِهِ الْخَنْدَق. وَأَجَابَ الْحَافِظُ بِأَنَّ التَّارِيخَ الْمَذْكُورَ [هو] لِلْأُخُوَّةِ الثَّانِيَةِ وَهُوَ ابْتِدَاءُ الْأُخُوَّةِ، وَاسْتَمَرَّ ﷺ يُجَدِّدُهَا بِحَسَبِ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ وَيَحْضُرُ إِلَى الْمَدِينَةِ،

في مؤاخاته ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم

وليس باللازم أن تكون المؤاخاة وقعت وقعة واحدة حتى يرد هذا التعقيب. وبما أجاب به الحافظ يجاب به عن مؤاخاة أبي ذرٍّ والمنذر بن عمرو، وعن مؤاخاة حذيفة وعمار، وعن مؤاخاة جعفر ومعاذ بن جبل، ويقال بأن معاذاً أُرْصِدَ لمؤاخاة جعفر حتى يقدّم.

الرابع: نقل محمد بن عُمَر، عن الزُّهري أنه أنكر كُلَّ مؤاخاة وقعت بعد بدر، ويقول: قَطَعَتْ بِذُرِّ الموارِيث. قال الحافظ رحمه الله تعالى: وهذا لا يدفع المؤاخاة من أصلها، وإنما يدفع المؤاخاة المخصوصة التي كانت عُقِدَتْ بينهم ليتوارثوا بها.

الخامس: أنكر الحافظ أبو العباس بن تيمية المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه. قال: لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ولتتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاته لأحد ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري. قال الحافظ: «وهذا زِدٌ للنَّصِّ بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوة، فوَاخَى بين الأعلى والأدنى ليرتفع الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر حكمة مؤاخاته ﷺ لعلي رضي الله عنه، لأنه هو الذي كان يقوم بعلي من عهد الصُّبَا قبل البعثة واستمرَّ، وكذلك مؤاخاة حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة لأن زيداً مولاها، فقد تَبَيَّنَتْ إخوتهما وهما من المهاجرين، وفي الصحيح في عُمرَةَ القضاء أن زيداً قال: «إن ابنة حمزة ابنة أخي». وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسندٍ حسن عن أبي الشعثاء^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أَخَى النبي ﷺ بين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وهما من المهاجرين، وأخرجه الضياء المقدسي في المختارة، وابن تيمية يُصَرِّح بأن أحاديث المختارة أَصَحُّ وأقوى من أحاديث المستدرك، قلت: يأتي الكلام مبسوطاً على أشوة النبي ﷺ في ترجمة علي رضي الله عنه عند ذكر تراجم العشرة إن شاء الله تعالى.

السادس: روى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جِبَّان عن شُعْبَةَ بن التَّوَّام - بفتح الفوقية والهمزة - أن رسول الله ﷺ قال: «لا حِلْفَ في الإسلام»^(٢)، زاد شعبة بن التَّوَّام: «ولكن تَمَسَّكُوا بحِلْفِ الجاهلية». انتهى. «وأما - وفي لفظ: كل - حِلْفَ كان في

(١) جابر بن زيد الأزدي أبو الشعثاء الجوفي بفتح الجيم البصري الفقيه، أحد الأئمة، عن ابن عباس فأكثر معاوية وابن عمر. وعنه قتادة وعمرو بن دينار وأيوب وخلق. قال ابن عباس: هو من العلماء. قال أحمد: مات سنة ثلاث وتسعين. وقال ابن سعد: سنة ثلاث ومائة. الخلاصة ١/١٥٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ١/١٩٦١. ٢٠٦ - ٢٥٣٠. وأبو داود (٢٩٢٥) وأحمد في المسند ١/ ١٩٠ والبيهقي في السنن ٢/٢٦٢ وعبد الرزاق (١٠٤٣٧) والطبراني في الكبير ١١/٢٨٢ والحاكم ٢/٢٢٠ والدارمي ٢/٢٤٣.

الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا حِدَّةً وشِدَّةً، وما يَسُرُّني أن لي حُمْر التَّعم وأنِّي نقضتُ الحلف الذي كان في دار الندوة.

وروى البخاري في الكفالة وفي الاعتصام، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الفرائض عن عاصم بن سليمان الأحول قال: «قلت لأنس بن مالك: أَبْلَغَكَ أن النبي ﷺ قال: لا حِلْفٌ في الإسلام؟ قال: قد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري»^(١). قال الطبراني: ما استدلَّ به أنس على إثبات الحلف لا يُنَافِي الأحاديث السابقة في نفيه، فإن الإخاء المذكور كان في أول الهجرة، وكانوا يتوارثون به، ثم تُسَيِّخ من ذلك الميراث، وبقي ما لم يُعْطِلْهُ القرآن وهو التعاون على الحق والنصر والأخذ على يد الظالم، كما قال ابن عباس: «إلا النصر والنصيحة»، ويوصي به فقد ذهب الميراث.

وقال الخطَّابي: قال ابن عيينة: حالف بينهم: أي آخى بينهم، يريد أن معنى الحلف في الجاهلية معنى الحلف في الإسلام جار على أحكام الدين وحدوده، وحلف الجاهلية جارٍ على ما كانوا يتواضعونه بينهم، فَتَبَطَّلَ منه ما خَالَفَ حكم الإسلام وَبَقِيَ ما عدا ذلك على حاله.

والحلف - بكسر الحاء المهملة وسكون اللام بعدها فاء، قال في النهاية: أصله المُعَاقَدة والمُعَاهَدة على التعاضد والتساعد والاتفاق، فما كان منه في الجاهلية على الفِتْنِ والقتال بين القبائل والغارات، فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله ﷺ: «لا حِلْفٌ في الإسلام». وما كان منه في الجاهلية على نَصْرِ المظلوم وَصِلَةِ الأرحام كحلف المُطَيِّين وما جرى مُجْرَاهُ فذلك الذي قال فيه ﷺ: «وَأَيُّمَا حِلْفٍ كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شِدَّةً»، يُريد من المُعَاقَدة على الخير ونُصْرَةِ الحق [وبذلك يجتمع الحديثان وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام والممنوع منه ما خالف حُكْمَ الإسلام] والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري ٥١٧/١٠ (٦٠٨٣) ومسلم في الموضع السابق (٢٠٥ - ٢٥٢٨).

الباب السادس

في قصة تحويل القبلة

روى ابن إسحاق وابن سعد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والستة، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والبيهقي عن البراء بن عازب، وابن إسحاق وابن أبي شيبة، وأبو داود والنحاس في ناسخهما، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو داود في ناسخه عن أبي العالية مرسلاً، ويحيى بن الحسن العلوي في أخبار المدينة عن رافع بن خديج رضي الله عنه، والإمام مالك، وعبد بن حميد والشيخان، وأبو داود في ناسخه، والنسائي، ويحيى بن الحسن، عن عثمان بن محمد بن الأحنس، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة، والزبير بن بكار عن عثمان بن عبد الرحمن، وابن سعد عن محمد بن عبد الله بن جحش، وابن جرير عن مجاهد، يزيد بعضهم على بعض: «أن أول ما نُسِخ من القرآن القِبْلَةُ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه». وقال ابن جرير، كما عند ابن جرير: «صلى النبي ﷺ أول من صلى إلى الكعبة ثم صُرف إلى بيت المقدس وهو بمكة فصلى ثلاث حجج ثم هاجر». ولما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود أمره الله سبحانه وتعالى أن يستقبل صخرة بيت المقدس، فعرض اليهود بذلك، وكان رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس. وكان يُعْجبه أن تكون قِبْلَتُهُ قِبْلَ البيت، لأن اليهود قالوا: «خالفنا محمد ويتبع قِبْلَتَنَا».

وقال ﷺ لجبريل: «وَدِدْتُ أَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَرَفَنِي عَنْ قِبْلَةِ يَهُودٍ إِلَى غَيْرِهَا»، فقال جبريل عليه السلام: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِثْلُكَ لَا أَتَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً إِلَّا مَا أَمَرْتُ بِهِ، فَادْعُ اللَّهَ تَعَالَى». فكان رسول الله ﷺ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى وَيُكْثِرُ النَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِراً أُمَّ بَشَرَ بْنِ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، فِي بَنِي سَلِمْةَ - بِكَسْرِ اللَّامِ - فَصَنَعَتْ لَهُ طَعَاماً، وَحَانَتْ صَلَاةَ الظُّهْرِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ فِي مَسْجِدِ هُنَاكَ الظُّهْرَ، فَلَمَّا صَلَّى رَكَعَتَيْنِ نَزَلَ جَبْرِيلُ فَأَشَارَ إِلَيْهِ أَنْ صَلِّ إِلَى الْبَيْتِ، وَصَلَّى جَبْرِيلُ إِلَى الْبَيْتِ فَاسْتَدَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَاسْتَقْبَلَ الْمِيزَابَ. فَتَحَوَّلَ النِّسَاءُ مَكَانَ الرِّجَالِ وَالرِّجَالُ مَكَانَ النِّسَاءِ، فَهِيَ الْقِبْلَةُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة ١٤٤] فَشَهِدَ ذَلِكَ الْمَسْجِدَ مَسْجِدَ الْقِبْلَتَيْنِ. وَكَانَ الظُّهْرُ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعاً: اثْنَتَانِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَاثْنَتَانِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَخَرَجَ عُبَادُ بْنُ بَشَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ بَيْنِي حَارِثَةَ - بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَالثَّاءِ الْمَثْلثة - وَهُمْ رَاكِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَقَالَ: «أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبْلَ الْبَيْتِ». فَاسْتَدَارُوا.

قال رافع بن خديج: «وَأَتَانَا آتٍ وَنَحْنُ نَصْلِي فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَقَالَ: إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ أَنْ يُوْجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَدَارْنَا إِمَامَتَنَا إِلَى الْكَعْبَةِ وَدُزْنَا مَعَهُ». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «وَبَيْنَمَا النَّاسُ بَقِيَاءَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ - قَالَ ابْنُ طَاهِرٍ الْمُقَدَّسِي: هُوَ عَبَادُ بْنُ بَشَرٍ أَيْضًا - فَقَالَ: «إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ قُرْآنٌ، وَقَدْ أَمَرَ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا، وَكَانَتْ وَجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ».

وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان رسول الله ﷺ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَهْلُ الْكِتَابِ فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ. وَقَالَ الْمَنَافِقُونَ: «خَرَّ مُحَمَّدٌ إِلَى أَرْضِهِ». وَقَالَ الْمَشْرِكُونَ: «أَرَادَ مُحَمَّدٌ أَنْ يَجْعَلَنَا قِبْلَةً لَهُ وَوَسِيلَةً، وَعَرَفَ أَنَّ دِينَنَا أَهْدَى مِنْ دِينِهِ، وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ عَلَى دِينِنَا».

وقال اليهود للمؤمنين: ما صرفكم عن قبلة موسى ويعقوب وقبلة الأنبياء؟ والله إن أنتم إلا قوم تفتنون. وقال المؤمنون: لقد ذهب ميثا قوم ماتوا وما ندري أكنّا نحن وهم على قبلة أو لا. وأتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس، وكردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، والربيع وكثانة ابنا الربيع بن أبي الحقيق - بلفظ تصغير حق - فقالوا: «يا محمد ما ولّاك عن قبّلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبّلتك التي كنت عليها نبيّك وتصدّقك». وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه، فأنزل الله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ - الْجُهَالُ وَالْيَهُودُ وَالْمَشْرِكُونَ وَالْمَنَافِقُونَ ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ - أي صرفهم - ﴿عَنْ قِبَلَتِهِمْ﴾ - التي كانوا على استقبالها في الصلاة وهي بيت المقدس، والإتيان بالسين الدالة على الاستقبال من الإخبار بالغيب - ﴿الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ - أي الجهات كلها، فيأمر بالتوجه إلى أية جهة شاء لا اعتراض عليه - ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ - هدايته - ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة ١٤٢] - دين الإسلام، أي ومنهم أنتم، دلّ على هذا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كما هديناكم إليه ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يا أمة محمد ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خياراً عدولاً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يوم القيامة أن رسلهم بلغّتهم ﴿وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أنه بلغّكم ﴿وَمَا جَعَلْنَا صَبْرَنَا﴾ القبلّة التي كنّت عليها أولاً وهي جهة بيت المقدس وكان رسول الله ﷺ يُصَلِّي إليها تالفاً لليهود فصلّى إليها ستة أو سبعة عشر شهراً ثم حوّل ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علم ظهور ﴿مَنْ يَشِيعُ الرُّسُولُ﴾ فيصدّقه ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي يرجع إلى الكفر شكاً في الدين وظناً أن النبي في حيرة من أمره، وقد ارتدّ لذلك جماعة ﴿وَإِنْ﴾ مُحْضَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ واسمها محذوف، أي وإنّها ﴿كَانَتْ﴾ التولية إليها - ﴿لَكَبِيرَةً﴾ شاقّة على الناس ﴿إِلَّا﴾

عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ﴾ أَي صَلَاتُكُمْ إِلَى بَيْتِ
المقدس بل يثيبكم عليها لَأَن سَبَبَ نَزُولِهَا السُّؤَالُ عَمَّن مَاتَ قَبْلَ التَّحْوِيلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ﴾
المؤمنين ﴿لَرْؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة ١٤٣] فِي عَدَمِ إِضَاعَةِ أَعْمَالِهِمْ، وَالرَّأْفَةِ شِدَّةِ الرَّحْمَةِ
وَقَدَّمَ الْأَبْلَغَ لِلْفَاصِلَةِ.

﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿نَرَى ثَقَلَبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أَي تَصَرُّفَ وَجْهِكَ فِي جِهَةِ
السَّمَاءِ تَطَلُّعًا إِلَى الْوَحْيِ، وَتَشَوُّقًا لِلْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ وَكَانَ يَوَدُّ ذَلِكَ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ وَلَأنَّهُ
أَدْعَى إِلَى إِسْلَامِ الْعَرَبِ ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ﴾ نُحُولُكَ ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ تُحِبُّهَا ﴿فَقُولْ وَجْهَكَ شَطْرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ اسْتَقْبَلْ فِي الصَّلَاةِ نَاحِيَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَيِ الْكَعْبَةِ ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾
خُطَابًا لِلأُمَّةِ ﴿فَقُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿شَطْرَةَ﴾ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ﴾
أَنَّهُ أَيُّ التَّوَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ ﴿الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ نَفْتِ النَّبِيِّ ﷺ
مَنْ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ إِلَيْهَا ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة ١٤٤] [قُرِئَتْ] بِالنَّشَاءِ أَيِ أَيُّهَا
المؤمنون مِنْ امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَبِالْيَأَى أَيِ الْيَهُودِ مِنْ إنْكَارِ الْقِبْلَةِ.

﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمَ ﴿أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ عَلَى صِدْقِكَ فِي أَمْرِ الْقِبْلَةِ
﴿مَا تَبِعُوا﴾ أَيِ لَمْ يَتَّبِعُوا ﴿قِبْلَتَكَ﴾ عِنَادًا ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ قَطَعَ لِطَمَعِهِ فِي إِسْلَامِهِمْ
وَلَطَمَعِهِمْ فِي عَزْوِهِ إِلَيْهَا ﴿وَمَا بَغْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَغْضٍ﴾ أَيِ الْيَهُودِ قِبْلَةَ النَّصَارَى وَبِالْعَكْسِ
﴿وَلَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الَّتِي يَدْعُونَكَ إِلَيْهَا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الْوَحْيِ ﴿إِنَّكَ﴾
إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ [البقرة ١٤٥] أَيِ إِنْ اتَّبَعْتَهُمْ فَرَضًا.

تنبيهات

الأول: تصوير ما ذُكِرَ مِنْ تَحْوِيلِ الرِّجَالِ مَكَانَ النِّسَاءِ وَتَحْوِيلِ النِّسَاءِ مَكَانَ الرِّجَالِ
الإمام يتحول مِنْ مَكَانِهِ فِي مُقَدِّمِ الْمَسْجِدِ إِلَى مُؤَخَّرِهِ، لِأَن مِنْ اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ بِالْمَدِينَةِ فَقَدْ
اسْتَدْبَرَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَهُوَ لَوْ دَارَ كَمَا هُوَ مَكَانُهُ لَمْ يَكُنْ خَلْفَهُ مَكَانٌ يَتَسَّعُ الصَّفُوفُ، فَلَمَّا
تَحَوَّلَ الْإِمَامُ تَحَوَّلَتِ الرِّجَالُ حَتَّى صَارُوا خَلْفَهُ، وَتَحَوَّلَتِ النِّسَاءُ حَتَّى صِرْنَ خَلْفَ الرِّجَالِ. وَهَذَا
يَسْتَدْعِي عَمَلًا كَثِيرًا فِي الصَّلَاةِ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْعَمَلِ الْكَثِيرِ، كَمَا كَانَ قَبْلَ
تَحْرِيمِ الْكَلَامِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اغْتَفِيرُ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ لِأَجْلِ الْمَصْلُحَةِ الْمَذْكُورَةِ، أَوْ لَمْ يَتَوَالَ
الْخَطَأُ عِنْدَ التَّحْوِيلِ بَلْ وَقَعَتْ مُتَفَرِّقَةً.

الثاني: اخْتِلَافُ فِي تَارِيخِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، فَقَالَ الْبَزَاءُ بْنُ عَازِبٍ كَمَا عِنْدَ الْبَخَارِيِّ: كَانَ
عَلَى رَأْسِ سِتَّةِ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةِ عَشَرَ شَهْرًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَمَا عِنْدَ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَأَبِي دَاوُدَ فِي
نَاسِخِهِ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا. وَكَذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَفْرِفٍ كَمَا عِنْدَ الْبَزَارِ وَالطَّبْرَانِيِّ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ

أيضاً كما عند ابن أبي شيبه وأبي داود في ناسخه، والطبراني والزهرى كما عند البيهقي، وسعيد بن المسيب كما عند الإمام مالك وأبي داود فيه، وابن جرير وقتادة كما عند عبد بن حميد، وابن المنذر «على رأس ستة عشر شهراً». وقال أنس بن مالك كما عند البزار، وابن جرير تسعة عشر شهراً. قال الحافظ: «فطريق الجمع بين رواية ستة عشر وسبعة عشر شهراً، ورواية الشك في ذلك: أن من جزم بستة عشر لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهراً وألغى الأيام الزائدة، ومن جزم بسبعة عشر عدلها معاً، ومن شك تردد في ذلك، وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف وكان التحويل بعد الزوال في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور، ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس. وقول ابن جبان: سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام مبنية على أن القدوم كان في ثاني ربيع الأول، وأسانيد رواية ثلاثة عشر وثمانية عشر وتسعة عشر شهراً، وعشرة أشهر، ورواية شهرين، ورواية سنتين هي أسانيد ضعيفة، والاعتماد على الثلاثة الأول.

الثالث: اختلّف في أي شهر كان تحويل القبلة. فقال محمد بن حبيب: في نصف شعبان، وهو الذي ذكره النووي في الروضة وأقرّه، مع كونه رجح في شرحه على صحيح مسلم رواية ستة عشر شهراً لكونها مجزوماً بها عند مسلم. ولا يستقيم أن يكون ذلك في شعبان إلا بإلغاء شهرتي القدوم والتحويل. وجزم موسى بن عقيبته بأن التحويل كان في جمادى الآخرة.

الرابع: اختلّف في أي صلاة كان التحويل، ففي الصحيح عن البراء بن عازب أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ هي صلاة العصر، والأكثر على أنها صلاة الظهر. قال الحافظ: والتحقيق أن أول صلاة صلاها في بني سيلم - بكسر اللام - الظهر، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوي العصر، وأما الصبح فهو لأهل قباء.

الخامس: اختلّف في صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس وهو بمكة، فروى ابن ماجه عن طريق أبي بكر بن عياش عن البراء أنه قال: «صلّينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً، وصُرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخول المدينة شهرين». وظاهره أنه كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس مخضاً. وحكى الزهرى خلافاً في أنه جعل الكعبة تحلف ظهره أو أنه جعلها بينه وبين بيت المقدس، وعلى الأول فكان يجعل الميزاب تحلفه، وعلى الثاني كان يصلي بين الركنين اليمانيين. وزعم ناس أنه لم يزل يستقبل الكعبة بمكة، فلما قدم المدينة استقبل بيت المقدس، ثم نسيخ. قال الحافظ: «وهذا ضعيف ويلزم منه دعوى التّشخّ مروتين، والأول أصحّ لأنه يجمع بين القولين. وقد صحّحه الحاكم وغيره. وحمل أبو عمر هذا

القول على الثاني ويؤيده في حمله على ظاهره إمامة جبريل، ففي بعض طُرُقهِ أَنَّ ذلك كان عند البيت. وروى ابن جرير وغيره بسندٍ جيّد قَوِيٍّ عن ابن عباس قال: «لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمره الله تعالى أَن يستقبل بيت المقدس» إلى آخره، وظاهره أَن استقبال بيت المقدس إنما وقع بعد الهجرة إلى المدينة، لكن روى الإمام أحمد من وجه آخر عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يُصَلِّي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يَدَيْهِ»^(١). ورواه ابن سعد أيضاً وسنّده جيّد قَوِيٍّ والجمع بينهما ممكن بأن يكون أمير لما هاجر أَن يستمر على الصلاة إلى بيت المقدس.

وقوله في حديث ابن عباس الأول: «أمره الله» يَزِدُّ قَوْلَ من قال: «إنه ﷺ صَلَّى إلى بيت المقدس باجتهاد»، كما رواه ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. وعن أبي العالية أَنه صَلَّى إلى بيت المقدس يَتَأَلَّفُ بذلك أَهْلَ الكتاب، وهذا لا ينبغي إلا بتوقيف.

السادس: الذين ماتوا قَبْلَ فَرُوض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشر أنفس: بمكة من قريش ١ عبد الله بن شهاب ٢ والمطلب بن أَرَزهر، الزُّهْرِيَّان، ٣ والسكران بن عمرو العامري. وبأرض الحبشة منهم: ٤ حطّاب بن الحارث الجُمَحِيّ - حطّاب بالحاء المهملة - ٥ وعمرو بن أمية الأسدي، ٦ وعبد الله بن الحارث السهمي. ٧ وعُزْوَةُ بن عبد العُزَّى، ٨ وعُدِيّ بن نَضْلَةَ - بالنون والضاد المعجمة - العَدَوِيَّان - ومن الأنصار بالمدينة: ٩ البراء بن معرور - بمهملات، ١٠ وأشد بن زُرارة. فهؤلاء العَشْرَةُ مُتَّفَقٌ عليهم، ومات في المدة أيضاً إياس بن مُعَاد الأشهلي لكنه مختلف في إسلامه.

السابع: وقع في رواية زهير بن معاوية في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في صحيح البخاري وغيره: أَنه مات على القبلة - أي قبلة بيت المقدس من قبل أَن تُحوَّلَ [قَبْلَ البَيْتِ] - رجالٌ قُتِلُوا [فلم نَدِرْ ما نقول فيهم]. قال الحافظ: «ذَكَرُ القتل لم أَزَهِ إلا في رواية الزهري وباقي الروايات إنما فيها ذكر الموت فقط، ولم أَجد في شيء من الأخبار أَن أحداً من المسلمين قُتِلَ قبل تحويل القبلة، لكن لا يلزم من عدم الذكر عدم الوقوع، فإن كانت هذه اللفظة محفوظة فتُحْمَلُ على أَن بعض المسلمين مِمَّنْ لم يشتهر قُتِلَ في تلك المدة في غير الجهاد ولم يُضْبَطَ لقلة الاعتناء بالتاريخ إِذ ذاك». قال: «ثم وجدت في التاريخ ذكر رجل

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٢٥/١ وذكره الهيثمي في المجمع ١٥/٢ وزاد نسبه للطبراني في الكبير والبراز وقال: ورِجَالُهُ رجال الصحيح.

اختُلف في إسلامه وهو سويد بن الصامت^(١) فذكر ما تقدم في بدء إسلام الأنصار. ثم قال الحافظ: «فيحتمل أن يكون هو المراد» قال: وذكر لي بعض الفضلاء أنه يجوز أن يُراد من قُتل بمكة من المُستضعفين كأبوي عَمَّار فقلت: يحتاج إلى ثبوت أن قتلها بعد الإسراء.

الثامن: في بيان غريب ما سبق:

«جَجَج»، بكسر الحاء المهملة وفتح الجيم الأولى وكسر الثانية [أي سنين].

«قَيْل» البيت - بكسر القاف وفتح الموحدة - : أي جهته.

«مَعْرُور»^(٢) بعين مهملة.

«حانت» الصلاة: دنا وقتها.

(١) سويد بن الصامت بن خالد بن عقبة الأوسي. ذكره ابن شاهين وقال: شك في إسلامه وقال أبو عمر: أنا أشك فيه كما فيه غيره. الإصابة ١٨٩/٣.

(٢) انظر اللسان ٢٨٧٦/٤.

جماع أبواب بعض أمور دارت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين اليهود والمنافقين ونزول صدر من سورة البقرة وغيره من القرآن في ذلك

الباب الأول

في أخذ الله سبحانه وتعالى العهد عليهم في كتبهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وإذا جاءهم، واعتراف جماعة منهم بنبوته، ثم كفر كثير منهم بغياً وعناداً

فذكرت أحاديث كثيرة في أول الكتاب وأذكر ما لم أذكر هناك. قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة ٤٠] روى ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه في الآية، قال الله تعالى للأحبار من يهود: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي من بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم به من فرعون وقومه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذي أخذت في أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم ﴿أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ يقول: أرض عنكم وأدخلكم الجنة. وروى ابن جرير عن أبي العالية في الآية قال: يقول: يا معشر أهل الكتاب، آمثوا بما أنزلت على محمد مصدقاً لما معكم لأنهم يجدونه عندهم مكتوباً في التوراة والإنجيل، ولا تكونوا أول كافر به، وبمحمد ﷺ. وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة ٤٢] أي لا تخلطوا الصدق بالكذب ﴿وَتَكْشُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٤٢] أي لا تكتسبوا الحق وأنتم علمتم أن محمداً ﷺ رسول الله. وروى عبد بن حميد عن قتادة قال: «لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله تعالى: ﴿وَتَكْشُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه رسول الله ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف ١٥٧] وروى ابن جرير عن الشدي في قوله ﴿وَتَكْشُمُوا الْحَقَّ﴾ قال: هو محمد ﷺ. وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وصف الله محمداً في التوراة، أكحل العين، زينة، جعد الشعر، حسن الوجه، فلما قديم رسول الله ﷺ حسده أحبار يهود، فغيروا صفة في كتابهم وقالوا: لا نجد نعتة عندنا، وقالوا: نجد النبي الأمي طويلاً أزرق سبط الشعر، وقالوا للسفلة: «ليس هذا نعت النبي الذي يحرم كذا

وكذا» كما كتبوه، وَغَيَّرُوا نَعَتَ هَذَا كَمَا وُصِفَ، فَلَبَّسُوا بِذَلِكَ عَلَى النَّاسِ. وَإِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَحْبَارَ كَانَتْ لَهُمْ مَأْكَلَةٌ يُطْعِمُهُمْ بِهَا السَّقَلَةُ لَقِيَامِهِمْ عَلَى التَّوْرَةِ، فَخَافُوا أَنْ يُؤْمِنَ السَّقَلَةُ فَتَقَطَّعَ تِلْكَ الْمَأْكَلَةُ.

وروى البيهقي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم قالوا: «كَانَتِ الْعَرَبُ تَمْزُجُ بِالْيَهُودِ فَيُؤْذِنُهُمْ، وَكَانُوا يَجِدُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فِي التَّوْرَةِ فَيَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتَعَنَّهُ فَيَقَاتِلُونَ مَعَهُ الْعَرَبَ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ كَفَرُوا بِهِ حِينَ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ». وروى ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو نُعَيْمٍ عَنْهُ مِنْ طَرَفٍ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَابْنُ جُرَيْرٍ، وَأَبُو نُعَيْمٍ عَنْ قَتَادَةَ: أَنَّ يَهُودَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَبْلَ قُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانُوا إِذَا قَاتَلُوا مِنْ يَلِيهِمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنْ أَسَدٍ وَعُظْفَانٍ وَجُهَيْنَةٍ وَعُدْرَةٍ يَسْتَفْتِحُونَ يَدْعُونَ اللَّهَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَنْصِرُ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ إِلَّا نَصَرْتَنَا عَلَيْهِمْ»، فَيُنْصَرُونَ. وَكَانُوا يَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعْتِزُّ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي نَجَدَهُ فِي التَّوْرَةِ الَّذِي وَعَدْتَنَا أَنْكَ بَاعَثْتَهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ». فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا، كَفَرُوا بِهِ حَسَدًا لِلْعَرَبِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ لَهُمْ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَيُشَرُّ بْنُ الْبَرَاءِ أَخُو بَنِي سَلِمْةَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودِ اثَّقُوا اللَّهَ وَأَسْلِمُوا، فَقَدْ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ وَنَحْنُ أَهْلُ شِرْكٍ وَتَخْبِرُونَا أَنَّهُ مَبْعُوثٌ وَتَصِفُونَهُ لَنَا بِصِفَتِهِ.

وروى ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جُرَيْجٍ عَنْ بَعْضِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ: «وَاللَّهِ لَنَحْنُ أَغْرَفُ بِرَسُولِ اللَّهِ مِنْ أَبْنَائِنَا مِنْ أَجْلِ الصِّفَةِ وَالثَّنَةِ الَّذِي لَجَدَهُ فِي كِتَابِنَا، أَمَا أَبْنَاؤُنَا فَلَا نَذَرِي مَا أَخَذَتْ النِّسَاءُ» وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو نُعَيْمٍ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُثَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ أَبِي وَعُمِّي أَبِي يَاسِرٍ أَحَبَّ إِلَيْهِمَا مِنِّي، لَمْ أَلْقُهُمَا قَطُّ مَعَ وَلَدٍ لِهِمَا إِلَّا أَخَذَانِي دُونَهُ. فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - قُبَاءَ قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عَدَا إِلَيْهِ أَبِي، حُثَيْبٍ بْنُ أَخْطَبَ وَعُمِّي أَبُو يَاسِرٍ بْنُ أَخْطَبَ مُغَلَّسَيْنِ، فَوَاللَّهِ مَا جَاءَانَا إِلَّا مَعَ مَغِيبِ الشَّمْسِ، فَجَاءَانَا بِأَمْرِ أَبِي كَبِشَةَ [كَالَيْنِ كَشَلَانَيْنِ] سَاطِقَيْنِ يَشِيَانِ الْهُؤُوتَى فَهَشِشَتْ إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَوَاللَّهِ مَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، فَتَسَمِعْتُ عُمِّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي حُثَيْبٍ: أَلَمْ يَكُنْ أَحَبَّ إِلَيْهِمَا مِنِّْي؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَتَعْرِفُهُ بِغَيْبِهِ وَصِفَتِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَاللَّهِ. قَالَ: فَمَا فِي نَفْسِكَ مِنْهُ؟ قَالَ: عِدَاوَتُهُ وَاللَّهِ مَا بَقِيَتْ».

وذكر ابن عُقْبَةَ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ: «إِنَّ أَبَا يَاسِرٍ بْنَ أَخْطَبَ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - الْمَدِينَةَ ذَهَبَ إِلَيْهِ فَسَمِعَ مِنْهُ وَحَادَثَهُ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ اطِيعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَاءَكُمْ بِالَّذِي تَنْتَظِرُونَهُ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تُخَالَفُوهُ. فَانْطَلَقَ أَخُوهُ حُثَيْبُ بْنُ أَخْطَبَ، وَهُوَ يَوْمَعِدَ سَيِّدٍ

في أخذ الله سبحانه وتعالى العهد عليهم في كتبهم

يهود، وهما من بني النضير، فجلس إلى رسول الله - ﷺ - وسَمِع منه، ثم رجع إلى قومه، وكان فيهم مُطَاعاً. فقال: أَتَيْتُ من عند رجل والله لا أزال له عَدُوًّا. فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابن أُم أَطْعني في هذا الأمر واغصيني فيما شئت بعد لأمهلك. فقال: والله لا أُطِيعُكَ. فاستحوذ عليه الشيطان، وتَبِعَهُ قَوْمُهُ على رأيه.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند عن جابر بن سَمْرَةَ رضي الله عنه، أنه قد جاء بجزءَ مَقَانِي^(١) إلى أصحاب محمد - ﷺ - فقال: أَيْنَ صَاحِبُكُمْ هذا الذي يَزْعُم أنه نَبِيٌّ، لئن سَأَلْتُهُ لأَعْلَمني نَبِيٌّ هو أو غير نبي. ثم قال الجزَمَقَانِي: «هذا والله الذي جاء به موسى»، الجزَمَقَانِي بجميم مفتوحة فراء ساكنة فميم مفتوحة فقف فالف فنون، منسوب إلى الجرامرة. قال في الصحاح: قَوْمٌ بِالْمَوْصِل أصلهم من العَجَم، وقال غيره: وجرامرة الشام أنباطها.

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن خبراً من أحبار اليهود دخل على رسول الله - ﷺ - فواقفه يقرأ سورة يوسف فقال: «يا محمد مَنْ عَلَّمَكَهَا؟» قال: «الله عز وجل عَلَّمَنِيهَا»، فعَجِب الخبر لِمَا سمع منه. فرجع إلى اليهود فقال: «إن محمداً ليقرأ القرآن، كما أنزل في التوراة». فانطلق جماعة منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كَتِفَيْهِ، فجعلوا يستمعون إلى قراءته لسورة يوسف، فتعجبوا منه وأسلموا عند ذلك^(٢).

وذكر محمد بن غَمَر الأسلمي أن النُّعْمَانَ السَّيِّئِيَّ وكان من أحبار يهود اليمن فلما سمعوا برسول الله - ﷺ - قَدِم عليه فسأله عن أشياء، ثم قال له: «إن أبي كان يَحْتُمُّ على سيفر ويقول: «لا تَقْرَأْهُ على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج بهثر، فإذا سَمِعْتَ به فافْتَحْهُ». قال النعمان: «فلما سمعتُ به فَتَحْتُ السِّفْرَ فإذا فيه صِفَتُكَ كما أراك الساعة، وإذا فيه ما تُحِلُّ وما تُحَرِّمُ، وإذا فيه أنك آخر الأنبياء، وأنتك آخر الأمم، واسمك أحمد، وأنتك قُرْبَانُهُمْ دِمَاؤُهُمْ، وأناجيلُهُمْ صُدُورُهُمْ، لا يَحْضُرُونَ قِتَالاً إِلَّا وجبريل معهم، وَيَتَخَنَّنُ اللهُ تعالى عليهم كَتَحَنُّنِ الطَّيْرِ على أفراجه، ثم قال لي: إذا سَمِعْتَ به فاخْرُجْ إليه وَصَدِّقْهُ». وكان رسول الله - ﷺ - يُحِبُّ أن يُشَمِعَ أصحابه حديثه. فأتاه يوماً فقال: «يا نُعْمَانُ حَدِّثْنَا»، فابتدأ الحديث من أوَّله، فرأى رسول الله - ﷺ - يبتسم، ثم قال: «أشهد أني رسول الله». ويقال إن النعمان هذا هو الذي قتله الأسود العنسي الكذاب وقطعه عضواً عضواً، والنعمان يقول: «أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنتك كذاب مُفْتَرٍ على الله عز وجل». ثم حرقه بالنار، والآثار في هذا كثيرة لا تُحْصَى.

(١) ذكرت هذه الكلمة بضم الجيم والميم وهو على خلاف صَبِيح المصنف. انظر اللسان ٦٠٧/١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٢/٤ وعزه للبيهقي في الدلائل.

الباب الثاني

في إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث أبي يوسف

وهو من ذرية سيدنا يوسف الصديق عليه السلام حليف القواقل من الخزرج، الإسرائيلي ثم الأنصاري رضي الله عنه. كان اسمه الحُصَيْنَ فَقَبَّره النبي - ﷺ - وكان عالم أهل الكتاب، وكان إسلامه في اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ دار أبي أيوب أول ما قديم، كما في رواية عبد العزيز بن صهيب عند البيهقي. وروى ابن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «لما قديم رسول الله - ﷺ - نزل بقاء في بني عمرو بن عوف. فأقبل رجل حتى أخبر بقدمه..» الحديث. وفيه: «فخرجت إلى رسول الله ﷺ - فأسلمت ورجعت إلى أهل بيتي. قال الحافظ عماد الدين بن كثير: «فَلَمَّا رآه أول ما رآه بقاء واجتمع به بعد ما صار إلى دار بني النجار والله أعلم».

وروى البخاري والبيهقي عن أنس، وابن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام، والإمام أحمد، ويعقوب بن سفيان عن عبد الله بن سلام، والبيهقي عن موسى بن عُقْبَةَ وعن ابن شهاب، قال: لما سَمِعْتُ برسول الله - ﷺ - وعرفت صفة واسمه يوهيئته وزمانه الذي كنا نَتَوَكَّفُ له^(١)، فكنت مُبِيرًا بذلك صامتاً عليه حتى قديم رسول الله - ﷺ - المدينة، فلما قديم نزل بقاء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدمه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعَمَّتِي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة. فلما سَمِعْتُ الْخَبْرَ بقدم رسول الله - ﷺ - كَبِهْتُ. فقالت عَمَّتِي حين سمعت تكبيري: «لو كُنْتُ سمعت بموسى بن عمران ما زِدْتُ». قلت لها: «أَيَّ عَمَّةٍ وهو، الله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعِثَ بما بُعِثَ به». فقالت له: «يا ابن أخي، أهو النبي الذي كُنَّا نُخْبِرُ أَنَّهُ يُبْعَثُ مع نفس الساعة؟»^(٢) قلت لها: «نعم». قالت: «فذاك إذا». قال: «فخرجت إلى رسول الله - ﷺ - فلما تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عرفت أنه ليس بوجه كَذَّاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «افشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٣).

وعند البيهقي عن أنس قال: سمع عبد الله بن سلام بقدم النبي - ﷺ - فأَتَى

(١) توكف الخبر: إذا انتظر. انظر النهاية ٢٢١/٥.

(٢) بُعِثَ في نفس الساعة: أي بُعِثَ وقد حان قيامها وقرب، إلا أَنَّ الله أَخْرَجَهَا قليلاً، فَبَعَثَ في ذلك النفس، فأُطْلِقَ النفس على القرب. انظر النهاية ٩٤/٥.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٨٦/٤ (١٨٥٤) وقال: حسن صحيح غريب.

النبي فقال: «إني سائلك عن خلال لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرار الساعة، وما أول طعام أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ وما هذا السواد الذي في القمر؟» قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً. قال: «جبريل؟ قال: «نعم». قال «عدو اليهود من الملائكة». ثم قرأ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة ٩٧] قال: «أما أول أشرار الساعة: فتأخر تخرج على الناس من المشرق [تسوقهم] إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد، وأما السواد الذي في القمر: فإنهما كانا شمسيتين. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ حَظِيَ فَصَحَّوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء ١٢] فالسواد الذي رأيته هو المخور». فقال: «أشهد ألا إله إلا الله وأنت رسول الله». ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكتبت إسلامه. ثم خرج إلى رسول الله - ﷺ - فقال: «يا رسول الله، إن اليهود قد علمت أنني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، وأنهم قوم بُهت، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني، وقالوا في ما ليس في، فأحب أن تُدخِلني بعض بيوتك». فأدخله رسول الله بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه فقال: «يا معشر يهود يا ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنني رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا». فقالوا: ما نعلمه. فقال: «أي رجل فيكم الحَصِين بن سلام؟ قالوا: «خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا». فقال: «أرأيتم إن أسلم» قالوا: «أعاده الله من ذلك». فقال: «يا بن سلام اخرج إليهم» فخرج عبد الله فقال: «أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقاً، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقّه وأعرفّه. قالوا: «كَذَّبْتَ أَنْتَ شَرُّنا وابن شَرِّنا»، وانتقصوه. قال: «هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله، أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ بُهت، أَهْلٌ غَدِرٍ وَكَذِبٍ وَفَجور؟ قال: «وَأَظْهَرْتُ إسلامي وإسلام أهل بيتي، وَأَسْلَمْتُ عَمَّتِي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها».

بيان غريب ما سبق:

«نَفَسُ السَّاعَةِ» بفتح النون والفاء، أي بُعِثَتْ وقد حان وقت قيامها وقرب، إلا أن الله أخرها قليلاً، فَبَعَثَنِي في ذلك النَّفَسِ، فأطلق النَّفَسَ على القُرب. وقيل معناه: أنه جعل للسَّاعَةِ

نَفْسًا كَنَفَسَ الْإِنْسَانُ أَرَادَ: إِنِّي بُعِثْتُ فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ مِنْهَا أَحْسُ فِيهِ بِنَفْسِهَا كَمَا يُحْسُ بِنَفْسِ الْإِنْسَانِ إِذَا قَرَّبَ [المرء] مِنْهُ. يَعْنِي بُعِثْتُ فِي وَقْتٍ بَانَتْ أَشْرَاطُهَا فِيهِ وَظَهَرَتْ عَلَامَاتُهَا.

«نَزَعَ»^(١) إِلَى أَبِيهِ فِي الشُّبْهِ: أَيِ ذَهَبَ.

«بُهِتَ»^(٢): جَمَعَ بَهْوتٍ مِنْ بِنَاءِ الْمِبَالِغَةِ فِي الْبُهِتِ مِثْلَ صَبُورٍ وَضُبُرٍ، ثُمَّ شَكَّنَ تَخْفِيفًا، وَالْبُهِتُ^(٣) الْكَذِبُ [وَالِافْتِرَاءُ].

(١) انظر اللسان ٤٣٩٥/٦.

(٢) انظر اللسان ٣٦٨/١.

(٣) قال في القاموس: البهت: الباطل الذي يَتَحَيَّرُ مِنْ بُطْلَانِهِ. انظر الترتيب ٣٣٠/١.

الباب الثالث

في مواعده صلى الله عليه وسلم اليهود، وكتبه بينه وبينهم كتاباً بذلك،
ونصبتهم العداوة له ولأصحابه حسداً وعدواناً، ونقضهم للعهد

قال ابن إسحاق: «وكتب رسول الله - ﷺ - كتاباً بين المهاجرين والأنصار وأدع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم». أي لَمَّا امتنعوا من اتباعه، وذلك قبل الإذن بالقتال وأخذ الجزية مِن أبي الإسلام، وذكر ابن إسحاق نسخة الكتاب وهو نحو ورقتين بغير إسناد، ورواه أبو عبيد في كتاب الأموال^(١) بسند جيّد عن الزُّهري، ولعليّ أذكره في أبواب مكاتباته - ﷺ - .

(١) قال أبو عبيد في الأموال: حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح قالوا: حدثنا الليث بن سعد قال: حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب: «هذا الكتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين قريش وأهل يثرب ومن تبعهم. فلحق بهم، فحل معهم وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة دون الناس. والمهاجرون من قريش - قال ابن بكير: رباعتهم. قال أبو عبيد: والمحفوظ عندنا رباعتهم - يتعاقلون بينهم معاقلمهم الأولى وقال عبد الله بن صالح: رباعتهم، وهو يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين والمسلمين، وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحرث بن الخزرج على رباعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو ساعدة على رباعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو جشم على رباعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النجار على رباعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عمرو بن عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على رباعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على رباعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مغرماً منهم أن يُعِينُوهُ بالمعروف في فداء أو عقل، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى وابتغى منهم دسيعة ظلم أو اثم، أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعه. ولو كان ولد أحدهم. لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر. ولا ينصر كافراً على مؤمن، والمؤمنون بعضهم موالى بعض دون الناس: وأنه من تبعنا من اليهود فإن له المعروف والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، وأن سلم المؤمنين واحد، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضاً، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هذا وأقومه. وأنه لا يجير مشرك ملاً لقريش ولا يعينها على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً فإنه قود، إلا أن يرضي ولي المقتول بالعقل. وأن المؤمنين عليها كافة. وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة أو آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه. فمن نصره أو آواه فإن عليه لمة الله وغيظه إلى يوم القيامة، لا يقبل منه صرف ولا عدل وأنكم ما اختلفتم فيه من شيء فإن حكمه إلى الله تبارك وتعالى وإلى الرسول ﷺ. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يهود بني عوف ومواليهم وأنفسهم أمة من المؤمنين، لليهود دينهم، وللمؤمنين دينهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يرتفع إلا نفسه وأهل بيته، وأن لليهود بني النجار مثل ما لليهود بني عوف، وأن لليهود بني الحرث مثل ما لليهود بني عوف، وأن لليهود بني حشم مثل ما لليهود بني عوف، وأن لليهود بني ساعدة مثل ما لليهود بني عوف، وأن لليهود الأوس مثل ما لليهود بني عوف، إلا من ظلم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأنه لا يخرج أحد منهم إلا باذن محمد ﷺ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصيحة والنصر للمظلوم. وأن المدينة جوفها حرم لأهل هذه الصحيفة، وأنه ما كان =

وروى ابن عائذ عن عُرْوَةَ بن الزبير: أَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - من اليهود أَبُو يَاسِرَ بن أَخْطَبَ أَخُو حُبَيْبٍ بن أَخْطَبَ، فَسَمِعَ مِنْهُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ لِقَوْمِهِ: «أُطِيعُونِي فَإِنَّ هَذَا هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي كُنَّا نَنْتَظِرُهُ» فَعَصَاهُ آخَرَهُ، وَكَانَ مَطَاعاً فِيهِمْ، فَاسْتَحْذَوْا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَطَاعُوهُ.

وروى أَبُو سَعِيدٍ النَّيْسَابُورِيُّ فِي الشَّرَفِ عَنْ سَعِيدِ بن جَبْرِ قَالَ: «جَاءَ مَيْمُونُ بن يَامِينَ، وَكَانَ رَأْسَ يَهُودٍ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْعَثْ إِلَيْهِمْ وَاجْعَلْنِي حَكَمًا بَيْنَهُمْ فَإِنَّهُمْ يَرْجِعُونَ لِي» فَأَدْخَلَهُ دَاخِلًا، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، فَأَتَوْهُ، فَخَاطَبُوهُ، فَقَالَ: «اخْتَارُوا رَجُلًا يَكُونُ حَكَمًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ». قَالُوا: «قَدْ رَضِينَا مَيْمُونُ بن يَامِينَ». فَلَمَّا خَرَجَ إِلَيْهِمْ قَالَ: «أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ». فَأَبْذَوْا أَنْ يُصَدِّقُوهُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «لَوْ آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِنْ أَحْبَابِ يَهُودٍ لَأَمَنَ بِي كُلُّ يَهُودِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ»^(١).

وروى ابن أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو سَعِيدٍ النَّيْسَابُورِيُّ وَزَادَ فِي آخِرِهِ قَالَ: «وَقَالَ كَعْبُ: اثْنِي عَشَرَ»، وَتَصَدِّقُ ذَلِكَ فِي [سُورَةِ الْمَائِدَةِ]: «وَنَعْتَنَّا مِنْهُمْ اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا» [المائدة ١٢] قَالَ الْحَافِظُ: فَعَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ عَشْرَةٌ مَخْتَصَّةٌ، وَإِلَّا فَقَدْ آمَنَ بِهِ ﷺ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرَةٍ، وَقِيلَ

== بين أهل هذه الصحيفة من حدث يخيف فسادهم فإن أمره إلى الله وإلى محمد النبي، وأن بينهم النصر على من دهم يشرب وأنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه، وإن دعونا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب الدين، وعلى كل أناس حصتهم من النفقة. وأن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة، وأن بني الشطيبة بطن من جفنة، وأن البر دون الأثم فلا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره. لا يحول الكتاب دون ظالم ولا أثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم، ولي أولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن.

قال أبو عبيد: قوله «بنو فلان على رباعتهم» الرباعة هي المعازل. وقد يقال: فلان رباعة قومه، إذا كان المتقلد لأمرهم، والوافد على الأبراء فيما ينوبهم. وقوله: «إن المؤمنين لا يتركون مفرحاً في فداء» المفرح: المثل بالدين، يقول: فعليهم أن يعينوه، إن كان أسيراً فك من إيساره، وإن كان جنياً جناية خطأ عقلوا عنه وقوله: «ولا يجير مشرك مالا لقريش» يعني اليهود الذين كان وادعهم، يقول: فليس من موادعتهم أن يجيروا أموال أعدائهم، ولا يعينوهم عليه. وقوله: «ومن اعتبط مؤمناً قتلاً فهو قود» الاعتباط: أن يقتله برياً محرم الدم. وأصل الاعتباط في الإبل: أن تنحر بلا داء يكون بها. وقوله: «إلا أن يرضي أولياء المقتول بالعقل» فقد جعل رسول الله ﷺ الخيار في القود أو الدية إلى أولياء القتيل. وهذا مثل حديثه الآخر «ومن قتل له قتيل فهو بأحد النظرين إن شاء قتل وإن شاء أخذ الدية» وهذا يرد قول من يقول ليس للولي في العمد أن يأخذ الدية إلا يطيب نفس من العاقل ومصالحة منه له عليها. وقوله: «ولا يحل لمؤمن أن ينصر محدثاً أو يؤويه» المحدث: كل من أتى حداً من حدود الله عز وجل، فليس لأحد منعه من إقامة الحد عليه. وهذا شبيه بقوله الآخر: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره» وقوله: «لا يقبل منه صرف ولا عدل». حدثنا هشيم عن رجل قد سماه عن مكحول قال: «الصرف التوبة والعدل: القدية».

قال أبو عبيد: وهذا أحب إلي من قول من يقول الفريضة والتطوع لقول الله تبارك وتعالى. (ولا يؤخذ منها عدل) فكل شيء فدي به شيء فهو عدله وقوله «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» فهذه النفقة في الحرب خاصة، شرط عليهم المعاونة له على عدوه. ونرى أنه أنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرطه عليهم من النفقة. ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم. الأموال ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧. (١) أخرجه أحمد في المسند ٣٤٦/٢ وابن عدي في الكامل ٢٢٢١/٦ وذكره المتقي الهندي في الكنز (١٣٤٧).

في مواعده صلى الله عليه وسلم اليهود، وكتبه بينه وبينهم كتاباً بذلك

المعنى: «لو آمن في الزمان الماضي كالزمن الذي قبل قدوم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة أو حال قدومه». قال الحافظ: «والذي يظهر أنهم وهم الذين كانوا حيث رؤساء في يهود، ومن عداهم كان تبعاً لهم، فلم يُشليم منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام، وكان من المشهورين بالرياسة في يهود بني قينقاع عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم. ومن بني النضير: أبو ياسر - بتحتية وسين فراء مهملتين - ابن أخطب - بخاء معجمة فطاء مهملة فموحدة - وأخوه حنن بن أخطب، وكعب بن الأشرف وأبورافع سلام بن الربيع بن أبي الحقيق - بقافين مُصغَّر. ومن بني قينقاع: سعد بن حنيفة، وفنحاص - بفاء مكسورة فنون ساكنة فحاء مهملة فألف فصاد مهملة - ورفاعة بن زيد [ابن التابوت]. ومن بني قريظة: الزبير - بفتح الزاي - ابن باطى بن وهب، وكعب بن أسد وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب وشمويل بن زيد، فهؤلاء لم يثبت أحد منهم، وكان كل منهم رئيساً في اليهود، لو أسلم لتبعه جماعة، فيحتمل أن يكونوا المراد وروى أبو نعيم في الدلائل من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لو آمن بي الزبير بن باطى وذووه من رؤساء لأسلموا كلهم»^(١). وأغرب السهيلي فقال: لم يُشليم من أحرار اليهود إلا اثنان: عبد الله بن سلام، وعبد الله بن صوري. قال الحافظ: كذا قال، ولم أر لعبد الله بن صوري إسلاماً من طريق صحيحة، فإنما نسبه السهيلي في موضع آخر لتفسير النقاش.

قال ابن إسحاق: «ونصبت بعد ذلك أحرار يهود لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - العداوة بغياً وحسداً وضغناً لما خصَّ الله تعالى به العرب من اصطفاء رسوله منهم. وكانت أحرار يهود، هم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم وَيَتَعَتُّوْهُ وَيَأْتُوْنَهُ بِاللُّبْسِ لِيَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وكان القرآن ينزل فيهم وفيما يسألون عنه، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها».

وذكر ابن إسحاق وغيره أسماء اليهود، ولا حاجة بي هنا إلى ذكرهم، بل من جاء ذكره في كتابي تكلمت عليه، وكانوا ثلاث قبائل: قينقاع - بفتح القاف وتثنية النون وبالعين المهملة، ويجوز صَرْفُهُ على إرادة الحَيِّ وتَرْكُ صَرْفِهِ على إرادة القبيلة أو الطائفة - وهم الوسط من يهود المدينة. وإذا قلت: بنو قينقاع فالوجه الصُّوف، وقُرَيْظَةُ - بقاف مضمومة فطاء معجمة مشالة، وهو أخو النضير والوسط من يهود المدينة، والنضير - بضاد معجمة ساقطة وزن كريمة. وحاربه الثلاثة، ونقضوا العهد الذي بينه وبينهم، فَمُنَّ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قُرَيْظَةَ، وسبى ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قُرَيْظَةَ، وسيأتي بيان ذلك مُفَصَّلاً في المغازي إن شاء الله تعالى.

(١) انظر فتح الباري ٧/٢٧٥.

الباب الرابع

في سؤال اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح

روى الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله - ﷺ - في حِثْر المدينة - وفي لفظ: حِثْر الأنصار وفي لفظ: في نخل - وهو مُتَوَكِّيٌّ على عسيب - وفي لفظ: ومعه جريدة - إذ مرَّ اليهود - وفي لفظ: إذ مرَّ بَنَفَرٍ من اليهود - فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يُشِيعُكم ما تَكْرَهُونَ - وفي لفظ: لا يستقبلُكم بشيء تَكْرَهُونه - فقال بعضهم لبعض: لنسأله، فقام إليه رجل - وفي لفظ: فقاموا إليه فقالوا: «يا محمد» - وفي لفظ: «يا أبا القاسم ما الروح؟» - وفي لفظ: «فأخبرونا عن الروح، كيف تُعَذِّبُ الروح الذي في الجسد؟ وإنما الروح من الله عزَّ وجلَّ» فسكت - وفي لفظ: فما زال مُتَكَيِّمًا على العسيب، فعلمت أنه يُرَخِّى إليه، فتأخرت فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١). [الإسراء: ٨٥] وفي رواية عند ابن جرير بسند رجاله يُثِقَات عن مغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه: فقالوا: «هكذا نجده في كتابنا». فقال بعضهم لبعض: «وقد قلنا لكم: لا تسألوه».

تنبيهات

الأول: دلَّ حديث ابن مسعود على أن نزول هذه الآية كان بالمدينة وروى الإمام أحمد والترمذي وصحَّحه والنسائي وابن جِبَّان عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: اعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قالوا: «أوتينا علماً كثيراً. أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً». فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِذَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف ١٠٩] سند رجاله رجال صحيح مسلم، ورواه ابن إسحاق من وجه آخر نحوه، وسبق في باب امتحان المشركين رسول الله - ﷺ - بأشياء لا يعرفها إلا نبي.

وروى ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فلما هاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا: يا محمد، بلغنا أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَفَعَنَيْتَنَا أَمْ عَنَيْتَ قَوْمَكَ؟ قال: «لا بل

(١) أخرجه البخاري ٢٥٣/٨ (٤٧٢١).

عَنْهُمْ». فقالوا: «إِنَّكَ تَتْلُوْنَا أَوْتِينَا التَّوْرَةَ وَفِيهَا تَبَيَّنَ كُلُّ شَيْءٍ». فقال رسول الله ﷺ -: «هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إنْ عَمِلْتُمْ بِهِ انْتَفَعْتُمْ»، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَغْنُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. [لقمان ٢٧، ٢٨] ودلَّ حديث ابن مسعود، وأثر عطاء أن الآية نزلت بمكة، وجميع بينهما وبين حديث ابن مسعود رضي الله عنه بتعدد النزول، ويُحتمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك إن ساغ ذلك، وإلا فما في الصحيح أصح. وقال الشيخ رحمه الله تعالى في الإتيان: «إذا استوى الإسنادان في الصحة فيرجح أحدهما بكون راويه حاضر القصة أو نحو ذلك من وجوه الترجيحات»، ثم ذكر [مثالاً له] حديث ابن مسعود وحديث ابن عباس المذكورين. ثم قال: «فهذا - أي حديث ابن عباس - يقتضي أن الآية نزلت بمكة، والحديث الأول خلافه». وقد رجح أن ما رواه البخاري أصبح من غيره، وبأن ابن مسعود كان حاضر القصة.

الثاني: قال أبو نعيم: «قيل من علامات نبوة سيدنا محمد ﷺ - في الكتب المنزلة أنه إذا سُئِلَ عن الروح قَوَّضَ العلم بحقيقتها إلى منشئها وبارئها، وأمسك عما خاضت فيه الفلاسفة وأهل المنطق القائلون بالحدس والتخمين، فامتحنه اليهود بالسؤال عنها ليقفوا منه على نعتة المثبت عندهم في كتابهم، فوافق كتابه ما ثبت في كتبهم»

الثالث: قال ابن التين: «اختُلف في الروح المسؤول عنها في هذا الخبر على أقوال: الأول: روح الإنسان، الثاني: روح الحيوان. الثالث: جبريل. الرابع: عيسى. الخامس: القرآن. السادس: الوحي. السابع: ملك يقوم وحده صفاء يوم القيامة. الثامن: ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه منها سبعون ألف لسان لكل لسان منها سبعون ألف لغة يُسَبِّحُ الله تعالى [بتلك اللغات كلها] ويخلق الله سبحانه وتعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة، وقيل: ملك رجلاه في الأرض السفلى ورأسه عند قائمة العرش. التاسع: خَلَقَ كَخَلْقِ بني آدَمَ يأكلون ويشربون، لا يُنْزَلُ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا نَزَلَ مَعَهُ مَلَكٌ مِنْهُمْ. وقيل: هو صِئْفٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يأكلون ويشربون». قال الحافظ: «وهذا إنما يَجْمَعُ من كلام أهل التفسير في معنى لفظ «الروح» الوارد في القرآن لا خصوص هذه الآية، فَمَنْ الذي في القرآن: ١ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء ١٩٣]، ٢ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا - إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى ٥٢]، ٣ ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [غافر: ١٥]، ٤ ﴿وَأَيَّدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة ٢٢]، ٥ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا ٣٨]، ٦ ﴿يُنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل ٢]؟ فالأول: جبريل، والثاني: القرآن، والثالث: الوحي، والرابع: القوة، والخامس والسادس: مُخْتَمِلٌ لجبريل أو غيره، ووقع إطلاق الروح على عيسى.

وروى إسحاق بن راهويه بسند صحيح عن ابن عباس قال: «الروح من الله، وخلق من خلق الله، وصور كبنى آدم، لا ينزل ملك إلا ومعه أحد من الروح». وقال الخطابي: «حكوا في المراد بالروح في الآية أقوالاً، وقال الأكثرون: سألوه عن الروح التي تكون بها الحياة في الجسد. وقال أهل النظر: «سألوه عن مسلك الروح وامتزاجها بالجسد، وهذا هو الذي استأثر الله بعلمه. وقال القرطبي: «الراجح أنهم سألوه عن روح الإنسان؛ لأن اليهود لا تعترف بأن عيسى روح الله، ولا نجهل أن جبريل ملك وأن الملائكة أرواح». وقال الإمام فخر الدين: «المختار أنهم سألوه عن الروح الذي هو سبب الحياة، وأن الجواب وقع على أحسن الوجوه، وبيانه: أن السؤال عن الروح يحتمل أن يكون عن ماهيتها، وهل هي متحيزة أم لا، وهل هي حالة في متحيز أم لا، وهل هي قديمة أو حادثة، وهل تبقى بعد انفصالها من الجسد أو تفتي، وما حقيقة تعذيبها وتنعيمها وغير ذلك من تعلقاتها؟ قال: «وليس في السؤال ما يخص أحد هذه المعاني إلا أن أظهر أنهم سألوه عن الماهية، وهل الروح قديمة أو حادثة؟ والجواب يدل على أنها شيء موجود مغاير للطبائع والأحلاط وتركيبها، فهي جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث، وهو قوله تعالى: «كن فكان». قال: هي موجودة محدثة بأمر الله عز وجل، وتكوينه، ولها تأثير في إفادة الحياة للجسد، ولا يلزم من عدم العلم بكيفيةها المخصوصة نفيتها.

الرابع: تنقطع قوم فتباينت أقوالهم في الروح، فقيل: هي النفس الداخل الخارج، وقيل الحياة، وقيل: جسم لطيف يحل في جميع البدن، وقيل: هي الدم، وقيل: هي عرض، حتى قيل: إن الأقوال بلغت المائة، ونقل ابن مندة عن بعض المتكلمين أن لكل نبي خمس أرواح، وأن لكل مؤمن ثلاثاً، ولكل حيي واحدة.

الخامس: قال القاضي أبو بكر بن العربي: «اختلفوا في الروح والنفس، فقيل متغايران وهو الحق، وقيل: هما شيء واحد، وقد يُعبر بالروح عن النفس وبالعكس، كما يُعبر عن الروح وعن النفس بالقلب وبالعكس، وقد يُعبر عن الروح بالحياة حتى يتعدى ذلك إلى غير العقلاء بل إلى الجُبال مجازاً.

قال تلميذه الشَّهْهَلِي: يعني على مغايرة الروح والنفس قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] فإنه لا يصح جعل أحدهما موضع الآخر، ولولا التغاير لساغ ذلك.

السادس: في قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، قال الإمام فخر الدين الرازي: «يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ هُنَا الْفِعْلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [هود: ٩٧]

في سؤال اليهود رسول الله ﷺ عن الروح

أي فعله فيكون الجواب: الروح من فعل رَّبِّي، إن كان السؤال: هل هي قديمة أو حادثة؟ فيكون الجواب: أنها حادثة.. إلى أن قال: «ولهذا سَكَتَ السلف عن البحث في هذه الأشياء والتعمُّق فيها». وقال الإسماعيلي: «يُحْتَمَلُ أن يكون جواباً وأن الروح من جملة أمر الله وأن يكون المراد: اختص الله عز وجل بعلمه ولا سؤال لأحد عنه».

وقال السهيلي بعد أن حكى ما المراد في الآية: «وقالت طائفة: الروح الذي سألت عنه اليهود هو روح الإنسان. ثم اختلف أصحاب هذا القول، فمنهم من قال: لم يُجِبْهُمْ رسول الله ﷺ على سؤالهم، لأنهم سأَلُوهُ تَعَتُّاً واستهزاءً، فقال الله عز وجل: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، ولم يَأْمُرْهُ أَنْ يُبَيِّنَهُ لَهُمْ. وقالت طائفة: بل أخبرهم وأجابهم بما سأَلُوهُ، لأنه قال لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، وأَمَرَ الرَّبُّ هو الشرع والكتاب الذي جاء به، فمن دخل في الشَّرْع وتَفَقَّه في الكتاب والسُّنَّة عَزَفَ الروح، فكان معنى الكلام: ادخلوا في الدين تعرفوا ما سألتهم عنه، فإنه من أَمَرَ رَبِّي أي من الأَمْرِ الذي جَعَلَ به مُبَلِّغاً عن الرَّبِّ، وذلك أن الروح لا سبيل إلى معرفتها من جهة الطبيعة ولا من جهة الفلسفة ولا من جهة الرأي والمعرفة، وإنما تُعْرَفُ من جهة الشَّرْع. فإذا نظرت إلى ما في الكتاب والسُّنَّة من ذِكْرِها نحو قوله تعالى: ﴿لَكُمْ سَوَاءٌ نُنْفِخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة ٩] أي من روح الحياة، والحياة من صفات الله سبحانه وتعالى، وإلى ما أَخْبَرَ به رسول الله ﷺ بأن «الأرواح جنودٌ مُجَنَّدَةٌ»، وأنها تتعارف وتَتَشَامَمُ في الهواء، وأنها تُقْبَضُ من الأجساد بعد الموت، وأنها تُشَالُ في القبر فتفهم السؤال وتسمع وترى، وتنعم وتُعَذِّب، وتلتذ وتَتَأَلَّم، وهذه كلها من صفات الأجسام، فإنك تعرف أنها أجسام بهذه الدلائل، لكنها ليست كالأجسام في كثافتها وثقلها وإِظلامها، إذ الأجسام خُلِقَتْ من طين وحملاً مسنون، فهو أصلها، والأرواح خُلِقَتْ من ماء كما قال الله سبحانه وتعالى، ويكون النَّفْخُ المتقدم المضاف إلى المَلَك، والملائكة خُلِقَتْ من النور كما جاء في الصحيح وإن كان قد أضاف النَّفْخَ إلى نفسه سبحانه وتعالى وكذلك أضاف قَبْضَ الأرواح إلى نفسه فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر ٤٢]، وأضاف ذلك إلى المَلَك أيضاً فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة ١١]، والفِعْلُ مضاف إلى المَلَك مجازاً وإلى الرَّبِّ حقيقةً.

فالروح إذاً جسم ولكنه من جنس الريح، ولذلك سُمِّيَ روحاً من لفظ الريح، ونَفْخَةٌ المَلَك في معنى الريح، غير أنه ضُمَّ أوله لأنه نوراني، والريح هواءٌ مُتَحَرِّك. وإذا كان الشَّرْع قد عَرَفْنَا من معاني الروح وصفاتها هذا القَدْر، فقد عَرَفَ من جهة أمرها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء ٨٥]، وقوله: «من أمر رَّبِّي»، أيضاً، ولم يقل من

أمر الله، ولا من أمر ربكم، يدل على خصوص، وعلى ما قدّمنا من أنه لا يعلّمه إلا من أخذ معناه من قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ، بعد الإيمان بالله ورسوله واليقين الصادق والفقّه في الدين، فإن كان لم يخبر اليهود حين سألوا عنها، فقد أحالهم على موضع العلم بها.

السابع: قال ابن القيم: ليس المراد بالأمر هنا الطلب اتفاقاً، وإنما المراد به المأمور، والأمر يُطلق على المأمور، كالحلّ على المخلوق، ومنه ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود ١٠١] الآية.

الثامن: قال ابن بطال: «معرفة حقيقة الروح مما استأثر الله عز وجل بعلمه بدليل هذا الخبر»، قال: «والحكمة في إبهامه اختبار الخلق ليعرفهم عجّزهم عن علم ما لا يدركونه حتى يضطرهم إلى ردّ العلم إليه». وقال القرطبي: «الحكمة في ذلك إظهار عجز المرء، لأنه إذا لم يعلم حقيقة نفسه مع القطع بوجوده كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق من باب أولى».

التاسع: ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان لا يفسّر الروح أي لا يُعيّن المراد بها في الآية. ومن رأى الإمساك عن الكلام في الروح أستاذ الطائفة أبو القاسم الجيّد رحمه الله تعالى، كما في عوارف المعارف عنه بعد أن نقل كلام الناس في الروح، وكان الأولى الإمساك عن ذلك، والثأدب بأدب النبي ﷺ. ثم نقل عن الجيّد أنه قال: «الروح شيء استأثر الله عز وجل بعلمه، ولم يُطْلَع عليه أحداً من خلقه فلا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود».

وعلى ذلك جرى ابن عطية وجفّع من أهل التفسير، وأجاب من تخاض في ذلك بأن اليهود سألوا عنها سؤال تعجيز وتغليظ لكونه يُطلق على أشياء، فأضمرُوا بأنه بأي شيء أجاب؟ قالوا: ليس هذا المراد، فردّ الله كيدهم وأجابهم جواباً مُجَمَّلاً مطابقاً لسؤالهم المُجَمَّل.

وقال في العوارف: «ويجوز أن يكون كلامهم في ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المُتَنَزَّلة حيث حُرِّم تفسيره وجُوز تأويله، إذ لا يسوغ التفسير إلا نقلاً، وأما التأويل فتتمدّ العقول إليه بالباع الطويل وهو ذكر ما تتحمل الآية (من المعنى من غير القطع بأنه المراد). وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه رَجَاءٌ ومَحْتَمَل. قال: وظاهر الآية المنع من القول فيها، فختَم الآية بقوله: ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي اجعلوا حكم الروح من الكثير الذي لم تؤتوه فلا تسألوا عنه فإنه من الأسرار.

العاشر: نقل ابن منده في كتاب الروح له عن الإمام الحافظ المصنف على اختلاف الأحكام من عهد الصحابة إلى عهد فقهاء الأمصار محمد بن نصر المَرْزُوقِيّ أنه نقل الإجماع على أن الروح مخلوقة، وإِذَا نُقِلَ القول بقدّمها عن بعض غَلَاةِ الرافضة والمُتَصَوِّفة.

في سؤال اليهود رسول الله ﷺ عن الروح

الحادي عشر: اختلف هل تنفى عند فناء العالم قبل البعث أو تستمر باقية؟ على قولين أوجحهما الثاني عند الجمهور.

الثاني عشر: ذكر بعض المفسرين أن الحكمة في سؤال اليهود عن الروح أن عندهم في التوراة أن روح بني آدم لا يعلمها إلا الله عز وجل، فقالوا: نسأله فإن فسرها فهو نبي، وهو معنى قولهم: لا يجيء بشيء تكرهونه.

الثالث عشر: جنح ابن القيم في كتاب الروح إلى ترجيح أن المراد بالروح المسؤول عنها في الآية ما وقع في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا: ٣٨] وأما أرواح بني آدم فلم يقع تسميتها في القرآن إلا نفساً. قال الحافظ: «كذا قال ولا دلالة في ذلك لما رجحه، بل الراجح الأول: فقد روى ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه القصة أنهم قالوا: أخبرنا عن الروح، وكيف يُعَذَّب الروح الذي في الجسد؟ إلى آخره [ما قالوا وقد] تقدّم بتمامه.

الرابع عشر: قال بعضهم: ليس في الآية دلالة على أن الله سبحانه وتعالى لم يُطلع نبيه على حقيقة الروح، بل يُحتمل أن يكون أطلعهم، ولم يأمره أن يُطلعهم، وقد قال في علم الساعة نحو هذا كما سيأتي مبسوطاً في الخصائص إن شاء الله تعالى.

الخامس عشر: وقع في الصحيح في العلم والاعتصام والتوحيد، وكذا عند مسلم: إذ مرّ بنفّر، عند ابن حجر من وجه آخر: إذ مررنا على يهود، ووقع في التفسير: إذ مرّ اليهود، بالرفع على الفاعلية، ويُحتمل هذا الاختلاف على أن الفريقين تلاقوا فيصدق أن كلا مرّ بالآخر.

السادس عشر: في بيان غريب ما سبق:

«حزب»: بفتح الحاء المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة، ووقع عند البخاري في كتاب العلم حزب^(١) بخاء معجمة مفتوحة فراء مكسورة. «يتوكتأ»: يعتمد.

«عسيب»: بعين فسين مهملتين وآخره موحدة بوزن عظيم وهو جريدة [النخل] التي لا خوص عليها. قال ابن فارس: العسيبان من النخل كالقضببان من غيرها.

«يُهود»: هذا اللفظ معرفة تدخله الألف واللام تارة وتارة يتجرّد، وحذفوا منه ياء التثنية تفرقة بينه وبين مفردة، كما قالوا: زنج وزنجي.

(١) انظر اللسان ١١٢٢/٢.

الباب الخامس

في تحيرهم في مدة مكث هذه الأمة لما سمعوا الحروف المقطعة

في أوائل السور

قال ابن إسحاق - فيما ذكر لي عن عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله بن رثاب - «إن أبا ياسر بن أخطب مّر برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة البقرة ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ١، ٢]، فأتى أخاه حُيَيَّ بن أخطب في رجال من يهود، فقال: تَعَلَّمُوا، والله لقد سمعتُ محمداً يتلو فيما أنزل عليه: ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ فقالوا: أنت سمعته؟ قال: نعم. فمشى حُيَيَّ بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا له: «يا محمد، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى». قالوا: «أجاءك بها جبريل من عند الله؟ قال: «نعم». قالوا: «لقد بعث الله قبلك أنبياء أنبياء ما تعلمه بين لبيبي منهم ما مدّة ملكه وما أجل أُمّيته غيرك». فقام حُيَيَّ بن أخطب، وأقبل على من معه فقال لهم: «الآلف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين [نبيي] إنما مدّة ملكه وأجل أُمّيته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: «نعم» قال: ماذا؟ قال: ﴿المص﴾ [الأعراف ١] قال: هذا أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم». قال: وما ذاك؟ قال: ﴿الر﴾ [يوسف: ١] قال: «هذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة فهل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: «نعم» ﴿المر﴾ [الرعد ١]. قال: «هذه والله أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة». ثم قال: «لقد بُسّ علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أُعْطِيت أم كثيراً». ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه ولمن معه من الأحبار: «ما يدريكم لعله قد جميع هذا كله لمحمد: إحدى وسبعون [وإحدى وستون ومائة]، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون». فقالوا: لقد تشابه علينا أمره. فیزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران ٧].

[قال ابن إسحاق]: «وقد سمعتُ من لا أتتهم من أهل العلم يذكر أن هؤلاء الآيات أنزلت في أهل نجران حين قديموا على رسول الله ﷺ ليسألوه عن عيسى بن مريم. وقد حدثني

محمد بن أبي أُمَامَةَ بن سَهْل بن حَنِيْف أَنَّهُ سَمِعَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِي نَفَرٍ مِنْ يَهُودٍ وَلَمْ يُفَسَّرْ ذَلِكَ لِي، فَاللهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ.

تنبيهات

الأول: روى البخاري في تاريخه وابن جرير من طريق ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله فذكر الحديث السابق، فَبَانَ سَنَدُ ابْنِ إِسْحَاقَ بِذَلِكَ. ورواه يونس بن بُكَيْرٍ عن ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، عن أبي سعيد. ورواه ابن المنذر من وجه آخر عن ابن جرير مُفَصَّلًا.

الثاني: قال الشَّهْهَلِي: «وهذا القول من أخبار يهود، وما تأوَّلوه من معاني هذه الحروف مُخْتَمَلٌ حَتَّى الْآنَ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَعْضِ مَا ذَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْحُرُوفُ الْمُقْطَعَةُ، فَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يُكْذِّبْهُمْ فِيمَا قَالُوا مِنْ ذَلِكَ وَلَا صَدَّقَهُمْ. وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكْذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ»^(١). وَإِذَا كَانَ فِي حَدِّ الْإِحْتِمَالِ وَجَبَ أَيُّ يُفْخَصُ عَنْهُ فِي الشَّرِيعَةِ، هَلْ يُشِيرُ إِلَى كِتَابٍ أَوْ شَيْءٍ؟ فَوَجَدْنَا فِي التَّنْزِيلِ ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج ٤٧] وَوَجَدْنَا فِي حَدِيثِ زَمْلِ الْخَزَاعِيِّ حِينَ قَصَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُؤْيَا قَالَ فِيهَا: «رَأَيْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مِثْرٍ لَهُ سَبْعُ دَرَجَاتٍ، وَإِلَى جَنْبِكَ نَاقَةٌ عَجَفَاءُ كَأَنَّكَ تَبْعُثُهَا». فَفُسِّرَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ النَّاقَةُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ الَّتِي أُنْذِرُ بِهَا، وَقَالَ فِي الْمَنْبَرِ وَدَرَجَاتِهِ: «الدُّنْيَا سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ يُبْعَثُ فِي آخِرِهَا أَلْفًا»^(٢) وَالْحَدِيثُ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ الْإِسْنَادِ فَقَدْ رُويَ مُوقُوفًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طُرُقٍ صِحَّاحٍ أَنَّهُ قَالَ: «الدُّنْيَا سَبْعَةُ أَيَّامٍ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا أَلْفُ سَنَةٍ»^(٣)، وَبُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْهَا، وَقَدْ مَضَتْ [مِنْهُ] سَنُونَ أَوْ قَالَ مِثْرُونَ: [قَالَ السَّهْلِيُّ]: وَلَكِنْ إِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِثَ فِي الْأَلْفِ الْأَخِيرَةِ بَعْدَ مَا مَضَتْ مِنْهُ سَنُونَ، وَنَظَرْنَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ وَجَدْنَاهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ: «أَلَمْ يَسْطِعْ نَصَّ حَقِّ كُرْهِ»، ثُمَّ نَأْخُذُ الْعِدَدَ عَلَى حِسَابِ أَبِي جَادٍ، فَنَجِدُ «ق» مِائَةً وَ «ر» مِائَتَيْنِ وَ «س» ثَلَاثِمِائَةً فَهَذِهِ سِتْمِائَةٌ وَ «ع» سَبْعِينَ، وَ «ص» سِتِينَ، فَهَذِهِ سَبْعِمِائَةٌ وَثَلَاثُونَ، وَ «ن» خَمْسِينَ وَ «ك» عَشْرِينَ، فَهَذِهِ ثَمَانِمِائَةٌ وَ «م» أَرْبَعِينَ وَ «ل» ثَلَاثِينَ، فَهَذِهِ ثَمَانِمِائَةٌ وَسَبْعُونَ، وَ «ي» عَشْرَةَ وَ «ط» تِسْعَةَ وَ «ا» وَاحِدًا، فَهَذِهِ ثَمَانِمِائَةٌ وَتِسْعُونَ، وَ «ح» ثَمَانِيَةٌ وَ «هـ» خَمْسَةٌ، فَهَذِهِ تِسْعِمِائَةٌ وَثَلَاثَةٌ. وَلَمْ يُنَسِّمِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَائِلِ السُّورِ إِلَّا هَذِهِ

(١) أخرجه البخاري ٢٣٧/٣ والبيهقي في السنن ١٦٣/١٠.

(٢) انظر فتح الباري ٣٥١/١١.

(٣) أخرجه الفتنى في تذكرة الموضوعات (٢٢٤).

الحروف، فليس يُتَّعَدُّ أن يكون من بعض مقتضياتها وبعض فوائدها الإشارة إلى هذا العدد من السنين لِمَا قد مناه في حديث الألف السابع الذي بُعث فيه رسول الله ﷺ. غير أن الحساب يُحْتَمَلُ أن يكون من مبعثه أو من وفاته أو من هجرته، وكُلُّ قريبٍ بعضه من بعض، فقد جاءت أشراف الساعة ولكن لا تأتِيكم إلا بَعَثَةٌ. وقد رُوِيَ أن المتوكل العباسي سأل جعفر بن عبد الواحد القاضي، وهو عباسي أيضاً، عَمَّا بَقِيَ من الدنيا فحَدَّثَهُ بحديث رفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «إِن أَحْسَنْتُ أُمْتِي فبقاؤها يَوْمٌ من أيام الآخرة وذلك ألف سنة، وإن أساءت فنصف يَوْمٍ»، ففي هذا الحديث تَثْمِيمٌ للحديث المتقدم وبيانٌ له، إذ قد انقضت الخمسمائة والأمة باقية والحمد لله». هذا آخر كلام السهيلي، وفيه مناقشات من الزهر والفتح مع زيادتها من غيرها.

الأولى: قوله: وجدنا في حديث زمل الخزاعي إلخ صوابه: ابن زمل، وسَمَّاهُ بعضهم: عبد الله، وبعضهم: الضُّحَّاك، وبعضهم: عبد الرحمن، وصَوَّبَ الحافظ في الإصابة الأول، وقوله الخزاعي صوابه الجهني كما ذكره في الزهر.

الثانية: قوله: وإن كان إسناد هذا الحديث ضعيفاً. إلخ، اقتصر على ضَعْفِهِ، قال [ابن حجر] في الفتح: إسنادُه ضعيف جداً، وقال في الإصابة: «تَفَرَّدَ برواية [حديثه] سليمان بن عطاء القرشي الخزائي عن مسلم بن عبد الله الجُهَنِيِّ». انتهى. قُلْتُ: وسليمان بن عطاء. قال الذهبي في المغنى: «هالك أثم بالوضع». وقال الحافظ في التريب: «منكر الحديث». وأورده ابن الجوزي في الأحاديث الواهية، ووصف بعض رجاله بوضع الحديث. وقال ابن الأثير: «الفاظه مصنوعة مُلَفَّفَةٌ».

وروى ابن عدي عن أنس مرفوعاً: «عُمِرَ الدنيا سبعة أيام من أيام الآخرة». وفي سننه «العلاء بن زَيْدَل» وهو المتهم به. ورواه ابن عساكر من طريق أبي علي الحسين بن داود البلخي، قال الخطيب: «ليس بثقة، حديثه موضوع». وقال الحاكم: «روى عن جماعة لا يَحْتَمِلُ سِتُّهُ السَّماعَ منهم، وله عندهم العجائب يُسْتَدَلُّ بها على حاله». وفي سَنَدِهِ أيضاً أبو هاشم الأيلي. ورواه الحاكم، والترمذي الحكيم في نوادره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي سَنَدِهِ صالح ابن محمد، عن يَغْلَى بن هِلَال، عن ليث بن مجاهد.

الثالثة: قوله: «فقد رُوِيَ موقوفاً عن ابن عباس من طُرُقٍ صحاح»، قلت: لم أَقِفْ له إلا من طريق واحد غير صحيح، رواه ابن جرير في مقدمة تاريخه، ومنه أخذ السهيلي من طريق يحيى بن يعقوب وهو أبو طالب القاص الأنصاري، قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: مَحَلُّهُ الصدق. وذكره ابن حِبَّان في الثقات وقال: يُحْطَى.

في تحيرهم في مدة مكث هذه الأمة

الرابعة: ما ذكره في عدد الحروف مبني على طريقة المغاربة: السين بثلاثمائة، والصاد بستين، وعند المشاركة: السين ستون والصاد تسعون. فيكون المقدار عندهم ستمائة وثلاثة وتسعون، وقد مَضَتْ وزيادة عليها فإنه في سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فالجملة على ذلك من هذه الحثيثة باطلة.

الخامسة: ثبت عن ابن عباس الزُّجر عن عدد أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السُّخر. قال الحافظ: «وليس ببعيد فإنه لأضلّ له في الشريعة».

السادسة: قال القاضي أبو بكر بن العربي شيخ السهيلي في قوله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا والساعة كهاتين»، وأشار بالسَّبابة والوسطى. قيل: الوسطى تزيد على السَّبابة بنصف شُبع إضْبَع، وكذلك الباقي من البعثة إلى قيام الساعة. قال «وهذا بعيد، ولا يُعْلَم مقدار الدنيا، فكيف يَتَحَصَّل لنا نصف شُبع أمد مجهول؟ فالصواب الإعراض عن ذلك». وقال القاضي في الإكمال: «حاول بعضهم في تأويله أن نسبة ما بين الإصبعين كنسبة ما بقي من الدنيا إلى ما مضى، وأن جملتها سبعة آلاف سنة، واستند إلى أخبار لا تصحّ، وذكر ما أخرجه أبو داود في تأخر هذه الأمة نصف يوم وقسره بخمسمائة سنة، فيؤخذ من ذلك نصف شُبع، وهو قريب مما يلي السَّبابة، والوسطى في الطول». قال: «وقد ظهر عدم صحة ذلك لوقوع خلافه ومجاوزة هذا المقدار ولو كان ذلك ثابتاً لم يقع خلافه». انتهى.

وقد انضاف إلى ذلك منذ عهد القاضي إلى هذا الحين نحو الأربعمئة سنة. وقال ابن العربي أيضاً في فوائد رحلته: «ومن الباطل علم الحروف المُقَطَّعة في أوائل السُّور، وقد تَحَصَّل لي فيها عشرون قولاً وأزيد، ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم ولا يصل فيها إلى فهم» إلى آخر ما ذكره. وقد ذكرته مع فوائد أخرى في الكلام على هذه الحروف في كتابي. «القول الجامع الوجيز الخادم للقرآن العزيز». لا توجد مجموعة في غيره.

السابعة: قال الحافظ: «وأما عدد الحروف فإنما جاء عن بعض اليهود، وعلى تقدير أن يكون ما دُكر في عدد الحروف فليُحْتَمَل على جميع الحروف الواردة ولا يحذف المُكْرَر فإنه ما من حرف إلا وله سِرٌّ يَخُصُّه، أو يُقْتَصَر على حذف المكرر من أسماء السُّور ولو تكررت الحروف فيها، فإن السور التي ابتدئت بذلك تسع وعشرون سورة، وعدد حروف الجميع ثمان وستون حرفاً وهي: الم: ستة، وح: سبعة، وال: خمسة، وط: اثنان والمص: وكهيعص: وطه: وطس: ويس: وص: وق: ون. فإذا حُذِف ما كُرِّر من السُّور وهي خمس من الم وست من حم، وأربع من الر وواحدة من طسم، بقي أربع عشرة سورة عدد حروفها ثمان وثلاثون حرفاً.

فإذا حسبت عددها بالجُمْل المَعْرَبِي بلغت ألفين وسثمائة وأربعة وعشرين، وأما بالجُمْل المَشْرِقِي فتبلغ ألفاً وسبعمائة وأربعة وخمسين. قال الحافظ: «ولم أذكر لِيُعْتَمَد عليه وإنما لِيُتَبَيَّن أن الذي جنح إليه السهيلي لا ينبغي الاعتماد عليه لشدة التخالف فيه».

الثامنة: في جامع مَعْمَر عن مجاهد وعِكْرِمَة في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج ٤] لا يدري كم مضى ولا كم بقي إلا الله عز وجل.

التاسعة: ما نقله عن جعفر بن عبد الواحد، فهو شيء موضوع لا أصل له، ولا يُعْرَف إلا من جهته، وهو مشهور بوضع الحديث عند الأئمة، مع أنه لم يسبق له سَنَد بذلك، والعجب من السهيلي كيف سكت عليه مع علمه بحاله.

الباب السادس

في سبب نزول سورة الإخلاص

روى أبو الشيخ في العظمة عن أنس بن مالك، وابن أبي حاتم، وابن عدي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس والطبراني في السنة عن الضُّحَّاك، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة، أن زُهْطاً من اليهود منهم كعب بن الأشرف وحَيَّي بن أخطب، جاؤا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «يا محمد، هذا الله خَلَقَ الخَلْقَ فمن خَلَقَ الله؟ فغَضِبَ النبي ﷺ حتى انْتَفَعَ لَوْنُهُ، ثم ساوَرَهُمْ غَضَباً لِرَبِّهِ، فجاء جبريل فسكَّته وقال: «خَفِّضْ عليك يا محمد»، وجاءه من الله عز وجل بجواب ما سأله [عنه] فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١]، أصل أحد هنا واحد، لأنه بمعنى الواحد، قُلِبَتْ الواو هَمْزَةً، وهو دَالٌّ على جميع صفات الجلال، كما دَلَّ الله على جميع صفات الكمال، إذ الواحد الحقيقي ما يكون مُتَزَةً الذات عن اتحاد التركيب والتَّعُدُّد، وما يستلزمه أحدهما كالجسمية والتَّحْيِز (اللَّهُ الصَّمَد): المقصود في الحوائج على الدوام، أو هو الذي قد انتهى في سؤده، فيصمد الناس إليه في حوائجهم، والخلائق يفتقرون إلى رحمته، أو هو مَنْ لا يَخُوفُ له، أو هو الكامل في جميع صفاته، أو الذي لا يطعم ولا يخرج منه شيء، أو الباقي بعد فناء خَلْقِهِ، والله تعالى هو الموصوف بهذا على الإطلاق، فإنه مُشْتَقٌّ عن غيره مطلقاً، وكل ما عداه يحتاج إليه في جميع جهاته، وتعريفه بصمديته بخلاف أحديته. وتكرر الاسم الكريم للإشعار بأنه من لم يتصف به

(١) قال الرازي: في سبب نزولها وفيه وجه: الأول: أنها نزلت بسبب سؤال المشركين، قال الضحاك: إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي ﷺ وقالوا: شققت عصانا وسببت آلهتنا، وخالفت دين آبائنا، فإن كنت قميراً أغنيانا، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن هويت امرأة زوجناكها، فقال عليه الصلاة والسلام: «لست بفقيير، ولا مجنون، ولا هويت امرأة، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته»، فأرسلوه ثانية وقالوا: قل له بين لنا جنس معبدك، أمن ذهب أو فضة، فأنزل الله هذه السورة، فقالوا له: ثلثمائة وستون صنماً لا تقوم بحوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق؟ فنزلت: ﴿وَالصَّافَاتُ﴾ [الصافات: ١] إلى قول: ﴿إِنْ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤] فأرسلوه أخرى، وقالوا بين لنا أفعاله فنزل: ﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [يونس: ٣]. الثاني: أنها نزلت بسبب سؤال اليهود؛ روى عكرمة عن ابن عباس أن اليهود جاؤا إلى رسول الله ﷺ ومعه كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب لبي الله عليه السلام فنزل جبريل فسكَّته، وقال: اخفض جناحك يا محمد، فنزل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما تلاه عليهم قالوا: صف لنا ربك كيف عضده، وكيف ذراعه؟ فغضب أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]. الثالث أنها نزلت بسبب سؤال النصارى، روى عطاء عن ابن عباس، قال: قدم وفد نجران، فقالوا: صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت، أو ذهب، أو فضة؟ فقال: إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قالوا: هو واحد، وأنت واحد، فقال: ليس كمثله شيء، قالوا: زدنا من الصفة، فقال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فقالوا: وما الصمد؟ فقال: الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج، فقالوا: زدنا فنزل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما ولدت مريم ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كما ولد عيسى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يريد نظيراً من خلقه. تفسير الرازي ١٦١/٣٢.

لم يستحق الألوهية، وإخلاء الجملة من العاطف؛ لأنها كالنتيجة للأولى أو الدليل عليها.

(لم يُلِدْ): المفعول محذوف أي لم يلد أحداً، والأصل يُولَد، تحذفت الواو لوقوعها بين ياء مفتوحة ولام مكسورة فصار مثل «يَعِد». (وَلَمْ يُولَدْ): النائب عن الفاعل محذوف أي لم يُلِدْه أحد، وثبتت الواو في يُولَدْ لأنها لم تقع بين ياء مفتوحة وكسرة. ولما كان الرَّبَّ سبحانه وتعالى واجب الوجود لذاته قديماً، موجوداً قبل وجود الأشياء، وكان كل مولود مُخَدَّثاً انتفت عنه الوالدية، ولما كان لا يشبهه أحد من خَلْقِهِ ولا يجانسه حتى يكون له من جنسه صاحبة فيتولد، انتفت عنه الوالدية، ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام ١٠١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾: أي لم يكن له أحد يكافئه أي يماثله من صاحبة وغيرها «وله» متعلق بـ «كُفُوًا» وقُدِّم عليه لأنه مَحْطُّ القصد، وأُخِّر «أحد» وهو اسم «يَكُنْ» عن خبرها رعاية للفاصلة. ولاشتمال هذه السورة مع قصصها على جميع المعارف الإلهية والردّة على من أخذ فيها، جاء في الحديث أنها تُغْدِل ثُلُثَ القرآن فإن مقاصده محصورة في بيان الأحكام والقصص، ومن عدلها اعتبر المقصود بالذات^(١). قال ابن إسحاق: «فلما تلاها عليهم، قالوا: «فَصِفْ لَنَا يَا مُحَمَّدُ رَبَّكَ كَيْفَ خَلَقَهُ، كَيْفَ ذَرَعَهُ، كَيْفَ عَصُدُهُ؟ فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِهِ الْأَوَّلِ، وَسَاوَرَهُمْ غَضَبًا لِرَبِّهِ. فَأَنَاهُ جَبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ مَقَالَتِهِ وَجَاءَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِجَوَابٍ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ. ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر ٦٧]، أي ما عرفوه حق معرفته وما عَظَّمُوهُ حق عَظَمَتِهِ حِينَ أَشْرَكُوا بِهِ وَشَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ. ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا﴾، جميعاً: حال، أي السَّبْع، ﴿قَبْضَتُهُ﴾ أي مقبوضة له أي في يَمِينِهِ وَتَصَرَّفَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾ أي مجموعات، «بِيَمِينِهِ» أي بقدرته سبحانه وتعالى عما يُشْرِكُونَ معه.

تنبيه: كذا ذكر ابن إسحاق سبب نزول هذه الآية. وروى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه في سبب نزولها غير ذلك والله أعلم.

(١) قال الرازي: اشتهر في الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن، ولعل الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات، فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن، وأما سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] فهي معادلة لربع القرآن، لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك وكل واحد منهما فهو إما في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح فالأقسام أربعة، وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ لبيان ما ينهي تركه من أفعال القلوب، فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعني ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في بعض الأسماء فهما المقشقشتان والمبرتان، من حيث إن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله تعالى، إلا أن ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله أو من حيث إن ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تفيد براءة المعبود عن كل ما يليق به. اهـ تفسير الرازي ١٩٢/٣٢.

الباب السابع

في إرادة شأس بن قيس إيقاع الفتنة بين الأوس والخزرج

لما رأى كلمتهم مجتمعة

روى ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن زيد بن أسلم مَطْبُولاً، والفريابي وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس مُخْتَصِراً، وابن المنذر عن عِكْرِمَةَ، وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشَّذِيِّ كذلك واللفظ للأول، قال: كان شأس بن قيس شيخاً قد عَسَا، عظيم الكُفْرِ، شديد الضُّغْنِ على المسلمين، شديد الحَسَدِ لهم، فَمَرَّ على نَفَرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جَمَعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فيه، فغَاظَهُ ما رَأَى من أَلْفِيهِمْ وجماعتهم وصَلَحَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فلما أُنْجِزَ الإسلام اصطَلَحُوا وأَلْفَ الله بين قلوبهم. فقال: «لقد اجتمع ملأُ بني قَيْلَةٍ بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأُهمُ بها من قرار». فَأَمَرَ فَتَى شاباً من يهود كان معه فقال: «اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعِثَ وما كان قَبْلَهُ وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ ما كانوا تَقَاوَلُوا فيه من الأشعار. ففعل، فَأَنْشَدَهُمْ بعض ما قاله أحدُ الْحَيِّينَ في حَزْبِهِمْ، فكانَهم دَخَلَهُمْ من ذلك [شيء] فقال الْحَيُّ الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا [فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا. فَتَكَلَّمَ القومُ عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، حتى تَوَاتَبَ رجلان من الْحَيِّينَ: أَوْس بن قَيْظِي [أحد بني حارثة بن الحارث] من الأوس، وَجُبَّار بن صَخْر [أحد بني سَلِيمَةَ] من الخزرج، فَتَقَاوَلَا، ثم قال أَحَدُهُمَا لصاحبه: «ان شِئْتُمْ رَدَدْنَاهَا الْآنَ بَجَذَةٍ». فَغَضِبَ الفريقان جميعاً، وقالوا: «قد فعلنا، مَوَعِدُكم الظاهرة - والظاهرة الحرة - السِّلَاحُ السِّلَاحُ». فخرجوا إِلَيْهَا. فَأَنْضَبَتْ الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية».

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين: الله الله، أَيْدَعُوْى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أَمْرَ الجاهلية، واستنقذكم به من الكُفْرِ، وأَلْفَ به بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كُفَّاراً؟^(١) فَعَرَفَ القومُ أَنَّهَا نَزْعَةٌ من الشيطان، وَكَيْدٌ من عَدُوِّهم، فَأَلْقَوْا السِّلَاحَ من أيديهم وَبَكَوْا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مُطِيعِينَ، قد أَطْفَأَ الله عنهم كَيْدَ عَدُوِّهم: عَدُوُّ الله شَأْسُ بن

(١) ذكره السيوطي في الدر ٥٧/٢ وعراه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

قَيْس، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَاللَّهُ بِمَا فَعَلْتُمْ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران ٩٨، ٩٩].

وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَوْسِ بْنِ قَيْظِي، وَجَبَّارِ بْنِ صَخْرٍ، وَمَن كَانَ مَعَهُمَا مِنْ قَوْمِهِمَا الَّذِينَ صَنَعُوا مَا صَنَعُوا مَا أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ شَأْسُ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُثَلَّىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَلَكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران ١٠٠، ١٠١].

تنبيه: في بيان غريب ما سبق:

«شَأْسُ»^(١): بشين معجمة فهمزة ساكنة فسين مهملة.

«عَسْنَا» بعين فسين مهملتين: أي كَبُرَ وَأَسَنَّ.

«الضُّغْنُ» بكسر الضاد المعجمة: الحِقْدُ.

«قَيْلَةٌ» - بفتح القاف وسكون التحتية: أُمُ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ.

«بُعَاثٌ» بعين مهملة ومثلثة - وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا مَبْسُوطًا فِي أَبْوَابِ بَدْءِ إِسْلَامِ الْأَنْصَارِ.

«جَبَّارٌ»: بِالْجِيمِ وَتَشْدِيدِ الْمُوَحَّدَةِ.

«جَذَعَةٌ» بفتح الجيم والذال المعجمة: أَيِ أَحَدِنَا الْحَرْبِ.

«الْحَرَّةُ» بفتح الحاء المهملة والراء المُشَدَّدَةُ: [وَهِيَ الْأَرْضُ ذَاتُ الْحَجَارَةِ السُّودِ].

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ...﴾

الباب الثامن

في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران ١٨١] وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام ٩١]

روى ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وابن جرير عن
الشَّدي، وابن جرير عن عكرمة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل بيت المدراس بعد نزول
قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة ٢٤٥] فوجد يهود قد اجتمعوا
إلى رجل منهم يقال له فنحاص [بن غارزراء] وكان من علمائهم وأخبارهم. فقال أبو بكر:
وَيْلَكَ يَا فَنَحَاصُ: «اتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَسْلِمْ، فوالله إنك لتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قد جاءكم
بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة». فقال فنحاص لعنه الله: «والله يا أبا بكر ما
بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لَفَقِيرٌ، وما تَتَضَرَّعُ إليه كما يَتَضَرَّعُ إلينا، وإنا عنه لأَغْنِيَاءُ [وما هو
عَنَّا بِغَنِيٍّ] ولو كان عَنَّا غَنِيًّا ما استقرض منا أموالنا كما يَرْغُمُ صَاحِبُكُمْ، ينهاكم عن الربا
ويُعْطِيَانَهُ ولو كان عَنَّا غَنِيًّا ما أَعْطَانَا الرِّبَا». فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ فَضَرَبَ وَجْهَ فَنَحَاصٍ ضَرْبَةً شَدِيدَةً
وقال: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لولا الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ لَضَرَبْتُ عُثْقَكَ أَيَّ عَدُوِّ اللَّهِ».

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما فعل بي صاحبك. فقال
رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله [إن عدو
الله] قال قولاً عظيماً إنه زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَقِيرٌ وَأَنَّهُمْ عَنْهُ أَغْنِيَاءُ، فلما قال ذلك غَضِبْتُ اللَّهَ
بِمَا قَالَ فَضَرَبْتُ وَجْهَهُ. فَجَحَدَ ذَلِكَ فَنَحَاصُ، وقال: مَا قُلْتُ ذَلِكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا قَالَ
فَنَحَاصُ [رَدًّا عَلَيْهِ] وَتَصَدِيقاً لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ
فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكُشِبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾
[آل عمران ١٨١] ونزل في أبي بكر الصديق، وما بَلَغَهُ فِي ذَلِكَ فِي الْعَصَبِ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ
مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران ١٨٦] (١).

وروى ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الشَّدي في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ [الأنعام ٩١]. قال فنحاص
اليهودي: ما أنزل الله على محمد من شيء. قال الشَّدي: والمشهور أنها نزلت في مالك بن

(١) ذكره السيوطي في الدر ١٠٥/٢ وعزه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

الضَّيْف. وروى ابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة في الآية قال: نزلت في مالك بن الضَّيْف. وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبَّير، وابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الضَّيْف، ومعه جماعة فخاصم النبي ﷺ. وفي رواية: فقالوا: يا أبا القاسم، ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً. فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ [النساء ١٥٣]. فقال له النبي ﷺ: «أَنْشُدْكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى أَمَا تَجِدُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ اللَّهَ يَنْقُضُ الْخَبَرَ السَّمِينِ؟» وكان خبراً سميئاً. فعُضِبَ وقال: والله ما أنزل الله على بشرٍ من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: وَيْحَكَ! ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشرٍ من شيء فأنزل الله عز وجل [نقضاً لقولهم ورداً عليهم]: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدِّلُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام ٩١].

الباب التاسع

في سؤالهم عن أشياء لا يعرفها إلا نبي وجوابه لهم وتصديقهم إياه بأنه أصاب وتمردهم عن الإيمان به

روى ابن إسحاق والطيالسي والقزويني والإمام أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، وأبو نعيم عن غيرهم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبحاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق آخر عنه مختصراً، قال: «حَضَرَتْ عَصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَدِّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهَا لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا نَبِيٌّ. قَالَ: «سَلُونِي غَمًّا شَقِيقًا وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى نَبِيِّهِ لَعْنُ حَدَّثَكُمْ شَيْعًا لَكُنَّا بَيْنَهُنَّ». قَالُوا: فَذَلِكَ لَكَ. قَالُوا: أَرَبَعَ خِلَالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهَا: أَخْبِرْنَا أَيَّ طَعَامٍ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ مَاءُ الرَّجُلِ مِنْ مَاءِ الْمَرْأَةِ، وَكَيْفَ الْأُنْثَى مِنْهُ وَالذَّكَرُ؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ هَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ فِي النَّوْمِ وَمَنْ يَلِيهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ وَأَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّغْدُ؟ فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ: «لَنْ أَخْبِرَكُمْ لَتَبَايَعْتَنِي». فَأَعْطَوْهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ. قَالَ: فَأَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرَضَ مَرَضًا طَالَ سَقَمُهُ فَنَذَرَ لَعْنُ عَافَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيُخْرِجَ مَنْ أَحَبَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الْإِبِلِ وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا»، وفي رواية: كَانَ يَسْكُنُ الْبَادِيَةَ فَاشْتَكَى عِزْقُ النِّسَاءِ، فَلَمْ يَجِدْ شَيْعًا يَدَاوِيهِ إِلَّا لَحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانُهَا. فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ. وَقَالَ: «أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضُ غَلِيظٌ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ، فَأَيُّهُمَا غَلَا كَانَ الْوَلَدُ وَالشَّبَّهَ يَأْذِنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنْ غَلَا مَاءُ الرَّجُلِ كَانَ ذَكَرًا يَأْذِنُ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنْ غَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ كَانَ أُنْثَى يَأْذِنُ اللَّهُ تَعَالَى». قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ. قَالَ: «فَأَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنُهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ. قَالُوا: أَنْتَ الْآنَ حَدِّثْنَا مَنْ وَلِيُّكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَعِنْدَهَا نَجَامِعُكَ أَوْ تُفَارِقُكَ قَالَ: «وَلِيِّي جِبْرِيلُ، وَلَمْ يَعْثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ». قَالُوا: فَعِنْدَهَا تُفَارِقُكَ، لَوْ كَانَ وَلِيُّكَ سِوَاهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَاتَّبَعْتَنَاكَ وَصَدَّقْتَنَا. قَالَ: «فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُصَدِّقُونِي؟ قَالُوا: هَذَا عَدُوُّنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة ٩٧]. وَنَزَلَتْ: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾^(١) [البقرة ٩٠]. وَفِي رِوَايَةٍ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ. وَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ. وَزَادَ: قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ هَذَا الرَّغْدِ. قَالَ:

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٧٨/١.

«مَلَكٌ من ملائكة الله عز وجل، مُوَكَّلٌ بالسحاب، بيده - أو قال: في يده - مِخْرَاقٌ^(١) من نار يُزَجِّرُ به السحاب فيسوقه حيث أمره الله». قالوا: فما هذا الصوت؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت.

وروى الإمام أحمد، والبخاري، والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه أن يهودياً قال: يا محمد مِمَّ يُخْلَقُ الإنسان؟ قال: «يا يهودي، يُخْلَقُ من كُلِّ من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، أما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدَّم»^(٢). فقال اليهودي: هكذا كان يقول من كان قبلك.

وروى الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، والبيهقي، وأبو نعيم عن صفوان بن عسال - بعين فسين مشددة مفتوحتين مهملتين - قال: «قال يهودي لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبي فنسأله. فقال له صاحبه: لا تَقُلْ نبي فإنه لو سمعك تقول نبي كان له أربعة أعين، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ فسألاه عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء ١٠١] فقال: «لا تُشْرِكُوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تشركوا ولا تشحزوا ولا تمشوا يبريء إلى ذي سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقدفوا مُحَصَّنَةً ولا تَقْرَبُوا من الرِّخْفِ وعليكم يا معشر اليهود خاصة ألا تعدوا في السبت». فقَبَلَا يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ وقالوا: «نشهد أنك نبي». قال: «فما يمنعكما أن تُسَلِّمَا؟» فقالا: «إن داود دعا الله ألا يزال في ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وإننا نخاف أن أسلمنا أن تقتلنا يهود»^(٣).

وروى مسلم عن ثوبان رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء خبَرٌ من اليهود فقال: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «في ظلمة دون الجسر». قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين». فقال: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد نون». قال: «فما غذاؤهم على أثره؟» قال: «يُنْحَرُ لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شربهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً». قال: صدقت.

قال: وجئت أسأل عن شيء لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان،

(١) انظر النهاية ٢/٢٦٦.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ٢٤٤/٨ وعزاه لأحمد والطبراني والبخاري بإسنادين وقال: وفي أحد إسناده عامر بن مدرك وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقي رجاله ثقات. وفي إسناد الجماعة عطاء بن السائب وقد اختلط.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢٤٠/٤ والطبراني في الكبير ٤٣/٧ والحاكم في المستدرک ٣٥١/٤ وأبو نعيم في الحلية ٩٨/٥ والبيهقي في الدلائل ٢٦٨/٦.

في سؤالهم عن أشياء لا يعرفها إلا نبي وجوابه لهم

جَعَتْ أَسْأَلَ عَنْ الْوَلَدِ. قَالَ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيَّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ فَذَكَرَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا عَلَا مَنِيَّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ فَأَنَّثَى بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». قَالَ الْيَهُودِيُّ: صَدَقْتَ وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ. ثُمَّ انصرفت. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ سَأَلَنِي عَنْ هَذَا الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا أَعْلَمُ شَيْئاً مِنْهُ حَتَّى أَنْبَأَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وروى ابن أبي شيبة، وأحمد بن منيع، وعبد بن حميد، والنسائي في الكبرى، والطبراني بسند صحيح عن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قال: جاء رجل من اليهود يقال له ثعلبة بن الحارث فقال: يا أبا القاسم أترغم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ وقال اليهودي لأصحابه: إِنْ أَقْرَبَهَا خَصِصْتُهُ. فقال رسول الله ﷺ: «تُؤْمِنُ بِشَجَرِ الْمِشْكِ؟» قال: نعم. قال: «وَتَجِدُهَا فِي كِتَابِكُمْ؟» قال: نعم. قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةُ مِائَةِ رَجُلٍ إِلَى الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْجَمَاعِ». فقال اليهودي: الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة. فقال رسول الله ﷺ: «حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلَ رِيحِ الْمِشْكِ، فَتَنْضَمُرُ بُطُونُهُمْ».

وروى سعيد بن منصور وأبو يَغْلَى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبخاري، والبيهقي، وابن جرير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أتى النبي ﷺ يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن النجوم التي رآها يوسف عليه السلام ساجدة له ما أسماؤها؟ فلم يُجِبْهُ بشيء. فنزل عليه جبريل فأخبره [بأسمائها]. فبعث إلى اليهودي وقال له: «أَتَبْسِلِمُ إِنْ أَخْبَرْتُكَ بِأَسْمَائِهَا؟» قال: نعم فقال: «[هي]: حُرْثَانٌ وَطَارِقٌ وَالذُّيَالُ وَذُو الْكِنْفَاتِ وَذُو الْقُرُغِ وَوُثَابٌ وَعُمُودَانُ وَقَائِسٌ وَالضُّرُوجُ وَالْمُصْبِحُ وَالْفَلِيقُ وَالضِّيَاءُ وَالنُّورُ. رَأَاهَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أُنْفُ السَّمَاءِ سَاجِدَةً لَهُ». فقال اليهودي: هذه والله أسماؤها. قال الْحَكَمُ بْنُ ظَهَيْرٍ^(٢) أحد رواة: الضِّيَاءُ هُوَ الشَّمْسُ وَهُوَ أَبُوهُ، وَالنُّورُ هُوَ الْقَمَرُ وَهُوَ أُمُّهُ. قال الحافظ في حاشية كتبها على مجمع الزوائد: رأيت في نُسخة مُصَحَّحة أنه من ضعفاء القائلين.

بيان غريب ما سبق:

«حُرْثَانٌ» بمهملة مفتوحة ثم مثناة.

«الذُّيَالُ»: بمعجمة ثم تحتية ثقيلة.

(١) أخرجه مسلم ٢٥٢/١ (٣١٤-٣١٥) والبيهقي ١٦٩/١ والطبراني في الكبير ٨٨/٥ وأبو نعيم ٣٥١/١.

(٢) الحكم بن ظهير الفزاري الكوفي. وكان أبو إسحاق الفزاري إذا روى عنه قال: الحكم بن أبي ليلى. روى عن عاصم بن بهدلة، والسدي. وعنه جماعة آخروهم عبد بن يعقوب الأسدي، والحسن بن عرفة. قال ابن معين: ليس بثقة. وقال مرة: ليس بشيء. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال مرة: تركوه. عاش إلى سنة ثمانين ومائة. ميزان الاعتدال ٥٧١/١.

- «الكنفات» بنون ففاء وآخره مُثَنَّة.
- «الْفَرْغ» [بفاء وراء ثم غين معجمة].
- «عَمُودَان» [يلفظ تشنية عمود].
- «قَابِس»: بقاف ومُوَحَّدة ثم مهملة.
- «الضُّرُوج»: بفتح الضاد المعجمة وآخره جيم.
- «المُصْبِح»: بضَمِّ الميم ثم فتح المهملة ثم مُوَحَّدة مُثَقَّلة ثم مهملة.
- «الْقَلِيْق»: [بalfاء واللام والمثناة التحتية فقفاف]^(١).

(١) قال السيوطي في الدر: وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي في الضعفاء، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي معاً، في الدلائل عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «جاء بستانى اليهودي إلى النبي - ﷺ -، فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف - عليه السلام - ساجدة له، ما أسماؤها، فسكت النبي - ﷺ -، فلم يجبه بشيء، فنزل جبريل - عليه السلام - فأخبره بأسمائها، فبعث رسول الله - ﷺ - إلى البستاني اليهودي، فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم. قال: حرثان، والطارق، والذئال، وذو الكفتان، وقابس، ودنان، وهودان، والقليق، والمصبيح، والضروح، والفريخ، والضياء، والنور، رآها في أفق السماء ساجدة له، فلما قص يوسف على يعقوب، قال: هذا أمر مشئت يجمعه الله من بعده، فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤها الاسرائيليات ص ٣٠٦.

الباب العاشر

في رجوعهم إليه صلى الله عليه وسلم في عقوبة الزاني وما ظهر في ذلك من كتمانهم ما أنزل الله عز وجل في التوراة من حكمه وصفة نبيه صلى الله عليه وسلم

روى ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الشئ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل من وجه آخر عنه، وأحمد، ومسلم، وأبو داود، والنجاشي في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب، والشيخان عن ابن عمر، وابن جرير، والطبراني عن ابن عباس، وعبد بن حميد في مشنيد، وأبو داود، وابن ماجه وابن المنذر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

أن أحبار يهود اجتمعوا في بيت المذراس حين قديم رسول الله ﷺ، وقد رزى رجل بعد إحصان بامرأة من يهود قد أحصنت - قال جابر: من أهل فدك، كتب أهلها إلى أناس من يهود المدينة «أن سلوا محمداً عن ذلك، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه». انتهى. قال أبو هريرة: فلما اجتمعوا في بيت المذراس قال: ابعثوا بهذا الرجل وبهذه المرأة إلى محمد، وفي لفظ: اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه يبعث بتخفيف، فإن أفتانا بفئتاً دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله وقلنا فئتاً نبي من أنبيائك. وفي رواية: فقالوا: ولوه الحكم فيهما فإن عمل فيهما بعملكم من التجبية - وهي الجلد يحبل من ليف مطلي بقار ثم تسود وجوههما، ثم يخمّلان على جمارين وتجعل وجوههما من قبل أديار الحمامين - فأتبعوه فإنما هو ملك سيد قوم، وإن هو حكم فيهما بالرجم فإنه نبي فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكتموه.

فأتوا رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: «يا أبا القاسم هذا رجل قد رزى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت فاحكم فيهما فقد وليتاك الحكم فيهما». فقال رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة؟» قالوا: نفضحهما ويجلدان. وفي رواية قالوا: دعنا من التوراة وقل ما عندك. فأفتاهم بالرجم، فأنكروه. فلم يكلمهم رسول الله ﷺ، حتى أتى بيت مذرسيهم، فقام على الباب فقال: «يا معشر يهود أخرجوا إلي علماءكم». فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا وأبا ياسر بن أخطب، وذهب بن يهودا، فقالوا: إن هؤلاء علماءنا.

فقال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة

على من زنى بعد إحصان؟ قالوا: يُحْجَبُ ويُجَبِّب. فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها آية الرجم. فأتوه بالتوراة فنشروها فوضع [أحدهم] يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يَدَكَ. فرفعها فإذا آية الرجم تلوح. قال: صدق محمد. وفي رواية: أن رسول الله ﷺ لما أقسم عليهم بالله عز وجل سكت شاب منهم فلما رآه رسول الله ﷺ سكت أَلْظُ به المسألة، فقال: إذ نشدتنا فإننا نجد في التوراة الرجم. فقال النبي ﷺ: «فما أَوَّلُ ما رخصتم أمر الله عز وجل؟» قال: زنى رجل ذو قرابة من مَلِكٍ من ملوكنا فأخبر عنه الرجم. ثم زنى رَجُلٌ في أُسْرَةٍ من الناس فأرادوا رَجْمَهُ فحال قَوْمُهُ دونه وقالوا: والله لا يُرْجَم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فتزججه، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم. وفي رواية أن الزنى كثر في أشرافنا، فكُنَّا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تَعَالَوْا حتى نجعل شيئا وثقيمته على الشريف والوضيع. فأجمعنا على التحميم والجلد، أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون إنك نبي مُرْسَلٌ ولكنهم يخشونك.

فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أَوَّلُ من أختا أَمْرَكَ إذ أَمَاتوه قديماً بالشهوة»^(١). فجاءوا بأربعة شهود فشهدوا بأنهم رأوا ذكره في فَرْجِهَا مِثْلَ المِيلِ في المَكْحَلَةِ، فأمر رسول الله ﷺ بهما فَرَجِمَا عند باب مسجده، وفي رواية: بالبلاط. قال ابن عُثْمَر: فرأيت الرجل يُجْنَى على المرأة لِيَقْيِيهَا الحجارة، وفي لفظ: فكنت فيمن رَجَمَهُمَا فلقد رأيته يَقْيِيهَا الحجارة بنفسه.

تنبيه: في بيان غريب ما سبق:

«بيت المِذْرَاس»^(٢): بكسر الميم وهو البيت الذي يقرأ فيه أهل الكتاب كُتُبَهُمْ.

«التَّجْبِيهِ»^(٣): بفتح الفوقية وسكون الجيم وكسر الموحدة بعدها تحتية ساكنة ثم هاء، فُسِّرَ الحديث بالجلد والتحميم والمخالفة في الركوب قال ثابت بن قاسم: وقد يكون معناه التعبير والإغلاظ من جَهْثُ الرجل أن قابلته بما يكره، وضبطها بعضهم بمشناة في آخره وقبلها حركة، وأصله البروك وهو بعيد هنا.

«صورياً»: بصاد مهملة مضمومة وآخره ياء وألف.

«ياسر»: بتحتية وسين مهملة.

(١) أخرجه مسلم (١٣٢٧) وأبو داود (٤٤٤٦) وابن ماجه (٢٥٥٥ - ٢٥٥٨) وأحمد في المسند ٢٨٦/٤ والطبراني في الكبير ١٥٠/٦.

(٢) انظر اللسان ١٣٦٠/٢.

(٣) انظر اللسان ٥٤٢/١.

«أخطب»: بوزن أفعّل التفضيل من الخطبة.
 «أنشدكم بالله»: أذكركم أو سألتكم به مُقسماً عليكم.
 «تلوح»: تبدو.
 «ألظ»: به: لازمه.
 «النشدة»: بكسر النون من المناشدة.
 «الأُسرة»^(١): القوة.
 «البلاط»^(٢) - بفتح الموحدة: الحجارة المفروشة، وموضع بالمدينة وهو المراد هنا.
 «يُجنىء عليها»: يَكِبُّ ويميل عليها.

(١) انظر اللسان ٧٨/١.

(٢) انظر اللسان ٣٤٤/١.

الباب الحادي عشر

في سؤاله لهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين

في دعاوى ادعواها

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٩٤] روى ابن جرير عن أبي العالية أنه قال: «قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه». فأنزل الله تعالى الآية الأولى فلم يفعلوا. وروى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية الأولى لما نزلت قال لهم رسول الله ﷺ: «إن كنتم في مقاتلكم صادقين قولوا اللهم أميتنا فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غصّ بريقه فمات مكانه»، فأتوا أن يفعلوا وكرهوا ما قال لهم، فنزل: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٩٥] يعني عملته أيديهم. فقال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية: «والله لن يتمنوه أبداً». وروى ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق آخر عنه، قال: «لو تمنى اليهود الموت لشرق أحدهم بريقه». وروى الإمام أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن مَرْدَوَيْه، وأبو نُعَيْم، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت، لماتوا ولزأوا مقاعدهم من النار».

الباب الثاني عشر

في سحرهم إياه صلى الله عليه وسلم

روى الشيخان والإسماعيلي، وابن مَرْذويه، والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها، والإمام أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي عن زيد بن أَرْقَم، وابن مَرْذويه عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه، وابن سعد، والبيهقي، وابن مَرْذويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن سعد عن عُمَر بن الحكم مُرْسِلاً، قال عُمَر بن الحكم: لما رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَّة في ذي الحجة ودخل المُحَرَّم سنة سِتِّع جاءت رؤساء يهود [الذين بَقُوا في المدينة يَمُنُّ بِظَهَر الإسلام وهو منافق] إلى لَبِيد بن الأَعْصَم، وكان حليفاً في بني زُرَيْق وكان ساحراً [قد علمت ذلك يهود أنه أعلمهم بالسَّحَر وبالسُّموم] فقالوا له: يا أبا الأَعْصَم أنت أَشَحَرْنَا، وقد سَحَرْنَا محمداً فلم نصنع شيئاً وأنت ترى أثره فينا، وخِلافه دِينُنَا، ومن قتل منا وأَجَلَى ونحن نجعل لك على ذلك مُجْعَلاً على أن تسحره لنا سِحْراً يَنْكُرُهُ فجعلوا له ثلاثة دنانير على أن يسحر رسول الله ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها في رواية عبد الله بن عُثَيْر: سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زُرَيْق. وفي رواية ابن عُيَيْنَةَ: رجل من بني زُرَيْق حليف يهود وكان منافقاً^(١). وفي حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك عند ابن سعد: إنما سَحَرَهُ بنات أَعْصَم أَخوات لَبِيد وَكُنَّ أَشَحَر من لَبِيد وَأَخْبَث وكان لَبِيد هو الذي ذهب به فأدخله تحت رَاغُوفَةِ البئر^(٢)، فلما عَقَدُوا تلك العُقْد أنكر رسول الله ﷺ تلك الساعة بَصَرَهُ، ودَسَّ بنات أَعْصَم إحداهن فدخلت على عائشة رضي الله عنها [فَحَبَّرَتَهَا عائشة أو سمعت عائشة تذكر ما أنكر رسول الله ﷺ من بَصَرِهِ] ثم خرجت إلى أَخواتها [والى لَبِيد] فأخبرتهم بذلك. فقالت إحداهن: «إِنْ يَكُنْ نَبِيّاً فَسَيُخْبَرُ وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَسَوْفَ يُدَلِّلُهُ هَذَا السَّحَرُ حَتَّى يَذْهَبَ عقله».

وفي رواية في الصحيح [عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ سُحِرَ حَتَّى كَانَ يرى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ»^(٣). قال سفيان: وهذا شَرٌّ مَا يَكُونُ إِذَا كَانَ كَذَا.

وفي مُرْسَلٍ يَحْيَى بن يعمر عن عبد الرُّزَّاق: حَتَّى أَنْكَرَ بَصَرَهُ، فدخل عليه أصحابه

(١) أخرجه البخاري ٢٣٢٢/١٠ (٥٧٦٣).

(٢) راعوفة البئر: هي صَخْرَةٌ تُتْرَكُ فِي أَشْفَلِ البئر إِذَا حُبِرَتْ تكون ناهية هناك، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المُتَّقِي عليها. وقيل: هي حَجَرٌ يَكُونُ عَلَى رَأْسِ البئر يقوم المُسْتَقِي عليه. ويُروى بالناء المثناة. انظر النهاية ٢/٢٣٥.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤٣/١٠ (٥٧٦٥).

يعودونه فخرجوا من عنده وهم يرون أنه لما به [مطبوب]. وفي رواية عمرة عن عائشة عند البيهقي: فكان يذوب وما يدري ما وجَّعه فاشتكى لذلك أياماً. وفي رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي: مكث أربعين ليلة. وفي رواية وهيب عند الإمام أحمد: ستة أشهر، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله عز وجل ثم دعا ثم قال: «يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟» قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «أتاني رجلان^(١)». وفي حديث ابن عباس: جبريل وميكائيل - فقعد أحدهما عند رأسي - قال الدمياطي: هو جبريل - والآخر عند رجلي. ثم قال أحدهما لصاحبه - وفي حديث ابن عباس: فقال ميكائيل: يا جبريل إن صاحبك شاك. قال: أجل. قال: وما وجَّع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي. قال: فبماذا؟ قال: «في مُشْطٍ ومُشَاطَةٍ - وفي لفظ: مُشْطٍ ومُشَاقة وجُفٍّ طُلِعَ نخلة ذَكَر».

وفي حديث عائشة من طريق ابن عينة، «فقال الذين عند رأسي». قال الحافظ: «وكأنها أصوب». وفي حديث ابن عباس عند البيهقي قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان - وفي لفظ: بئر ذُرْوَان - وفي حديث ابن عباس عند ابن مَزْدَوِيَه: وهو بئر ميمون في كُدَيْة^(٢) تحت صخرة في الماء. قال: فما دواء ذلك؟ قال: تُنْزَحُ البئر ثم تُقَلَّبُ الصخرة فتؤخذ الكدية فيها مثال إحدى عشرة عُقْدَةً فتُحْرَقُ فإنه يَبْرَأُ بإذن الله تعالى. فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً. وفي حديث آخر: ذهب رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها، وعليها نخل، فدخل رجل فاستخرج جُفٍّ طُلْعَةً [ذكر] من تحت الراعوفة، فإذا فيها مُشْط رسول الله ﷺ، وإذا وَترٌ معقود فيه إحدى عشرة عُقْدَةً مُغرزة بالإبر، فنزل جبريل عليه السلام بالمعوذتين: سورة الفلق وسورة الناس [وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقْدَةِ وأمر أن يُتَقَوَّدَ بهما] فجعل كلما قرأ آية انحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وكلما نَزَعَ إبرة وجد لها أَلْماً ويجد بعدها راحة. فقام رسول الله ﷺ كأنما أنْشِطَ من عِقَال. قالت عائشة: فلما رجع قال: «لَكأنَّ ماءها نُفَاعَةٌ الجِنَّاءِ وكأنَّ رؤوس نخلها الذي يشرب ماءها قد التوى سَعَفُهُ كأنَّه رؤوس الشياطين». قلت: يا رسول الله أَفَلَا استخرجته؟ قال: «لا». وفي رواية من حديث عائشة في الصحيح وغيره: فقلت يا رسول الله: أَفَلَا - قال سفيان: أَيْ تَنْشُرَتْ - فقال: «أما والله» - وفي رواية: «أَلَا أنا فقد عافاني الله وشفاني، وَخَشِيتُ أَنْ أَتَوَّرَ - وفي رواية أُثِيرَ - على الناس منه شراً». وأمر بها فذُقَّتْ. فقيل: يا رسول الله لو قتلته فقال: «ما وراءه من عذاب أشدَّ». وفي رواية: فأخذه رسول الله ﷺ فاعترف فعفا عنه ولم يقتله.

(١) أخرجه البخاري ١٧٧/٧ (دار الفكر) وابن ماجه (٢٦١).

(٢) الكدية: قطعة غليظة صلبة لا تعمل فيها القأس. وأكثدى الحافر: إذا بَلَّغها. انظر النهاية ١٥٦/٤.

تنبيهات

الأول: السَّحَر يُطْلَق ويراد به الآلة التي يُسحر بها، ويطلق ويراد به فعل الساحر، وتكون الآلة تارةً معنى من المعاني فقط كالرُّقَى والثَّقَث في العُقَد، وتارةً تكون بالمحسوسات. وتارةً تجمع الأمرين الحسي والمعنوي وهو أبلغ.

الثاني: اختلف في السحر، فقليل: هو تخيل فقط ولا حقيقة له، وهو اختيار أبي جعفر الأستراباذي من الشافعية، وأبي بكر الدارمي من الحنفية، وابن حزم الظاهري وطائفة. قال النووي: «والصحيح أن للسحر حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة» انتهى. ولكن محل النزاع: هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا؟ فمن قال إنه تخيل فقط، منع. وقيل إن له حقيقة. واختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يُغَيِّر المزاج فيكون نوعاً من الأمراض، وينتهي إلى حالة بحيث يصير الجماد حيواناً مثلاً وعكسه؟ فالذي عليه الجمهور، الأول. وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني.

فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمُسَلَّم به، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف، فإن كثيراً من يدعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه. وذكرنا قوماً أنكروا السحر مطلقاً وكأنهم عنوا القائلين بأنه تخيل وإلا فهذه مكابرة. قال المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة، ونفى بعضهم حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة، وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لا ينكر أن الله تعالى قد يخرق العادة عند نُطْق الساحر بكلام مُلْفَق أو تركيب أجسام أو بمزج بين قوَى على ترتيب مخصوص، ونظير ذلك ما يقع من حُذَاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى ينقلب الضَّارُّ منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعاً. وقيل: لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿يَقْرَأُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾^(١) [سورة البقرة، آية ١٠٢] لَكُونُ المَقَامَ مَقَامَ تَهْوِيل، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره. قال المازري: «والصحيح من جهة العقل أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك، والآية ليست نصاً في منع الزيادة ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك». ثم ذكر الفرق بين السَّحَر والمُعْجزة والكرامة، وقد ذكرته في أبواب المعجزات.

الثالث: قال النووي: «عمل السحر حرام وهو من الكبائر بإجماع، وقد عَدَّه النبي ﷺ من السبع الموبقات، ومنه ما يكون كُفْراً، ومنه ما لا يكون كُفْراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكُفْر فهو كفر كالْتَعْبُد للشياطين أو الكواكب. وأما تَغْلِيْمُهُ وتَعْلَمُهُ فحرام، فإن كان فيه ما يقتضي الكفر استُثْبِت منه [متعاطيه] ولا يُقْتَل. فإن تاب قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكُفْر غُزِر. وعن الإمام مالك: السَّاحِر كافر يُقْتَل ولا يُسْتَتَاب. بَلْ يَتَحَكَّم

قَتْلُهُ كَالزُّنْدِيقِ. قال القاضي: «ويَقُولُ مالك قال أحمد، وجماعة من الصحابة والتابعين». انتهى.
والى ذلك جنح البخاري.

الرابع: قال الحافظ: «أجاز بعض العلماء تَعَلَّمَ السَّحْرَ لأحد أمرين: إما لِتَمَيُّزٍ ما فيه من كُفْرٍ من غَيْرِهِ، وإما لِإِزَالَتِهِ عَمَّنْ وقع/ فيه. فأما الأول فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد، فإذا سَلِمَ الاعتقاد فمعرفة الشيء معرفة مجردة لا تستلزم مَنَعاً، كمن يعرف عبادة أهل الأوثان؛ لأن كيفية ما يعرفه السَّاحِرُ إنما هي حكاية قَوْلٍ وفِعْلٍ، بخلاف تعاطيه والعَمَلِ به. وأما الثاني فإن كان لا يَتَيَّمُ كما زَعَمَ بعضُهم إلا بنوع من أنواع الكُفْرِ أو الفُسْخِ فلا يحل أصلاً، وإلا جاز للمعنى المذكور، ولهذا مزيد بَشَطٍ يأتي إن شاء الله في أبواب عصمته ﷺ.

الخامس: لَبِيد - بفتح اللام وكسر الموحدة بعدها تحية ساكنة ثم مهملة - ابن الأعصم بوزن أحمر بمهملتين - وُصِفَ في رواية بأنه من يهود بني زُرَيْقٍ. وفي رواية [أخرى] بأنه رجل من بني زُرَيْقٍ حليف يهود، وكان منافقاً. وَيُجْمَعُ بينهما بأن من أطلق أنه يهودي نظر إلى ما في نفس الأمر، ومن أطلق عليه منافقاً نظر إلى ظاهر أمره. قال أبو الفرج: وهذا يدل على أنه أسلم نفاقاً وهو واضح.

السادس: في مدة مُكِنِّهِ ﷺ مَشْخُوراً: وقع في رواية أبي صَمْرَةَ عند الإسماعيلي في صحيحه أنه ﷺ مَكَّتْ أربعين ليلة. وفي رواية وَهَيْب عن هشام عند الإمام أحمد ستة أشهر. ويمكن الجمع بينهما بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تَغْيِيرِ مِزَاجِهِ والأربعين يوماً من استحكامه. قال السهيلي: لم أَقِفْ على شيء من الأحاديث المشهورة على قَدْرِ المدة التي مَكَّتْ ﷺ فيها من السحر، حتى ظَفِرْتُ به في جامع مَعْمَرٍ [بن راشد] عَنِ الزُّهْرِيِّ قال: «سَحَّرَ رسول الله ﷺ سَنَةً يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الْفِعْلَ وَلَا يَفْعَلُهُ». وقد وجدناه مَوْضُوعاً بِإِسْنَادٍ صحيح فهو المعتمد.

السابع: قوله: «فَدَعَا الله عز وجل ثم دعا الله عز وجل»: قال الإمام النووي: «فيه استحباب الدعاء عند حصول الأمور المكروهات وتكريره وتحسين الالتجاء إلى الله تعالى في رفع ذلك». قال الحافظ: «سَلَّكَ النبي ﷺ في هذه القضية مَشْلَكَيْنِ التفويض وتعاطي الأسباب، ففي أول الأمر قَوْضٌ وسَلَمٌ لأمر ربِّه، واحتسب الأجر في صبره على بلائه. ثم لما تمادى ذلك ونَحَشَى من تماديه أن يَضْعُفَ عن عبادته جنح إلى التداوي ثم إلى الدعاء. وكل من المَقَامَيْنِ غايةً «في الكمال».

الثامن: وقع في حديث ابن عباس عند ابن سعد: أن رسول الله ﷺ أرسل علياً وعماراً لاستخراج السحر. وفي رواية عائشة في الصحيح: أنه ﷺ تَوَجَّهَ إلى البئر مع جماعة. وعند

ابن سعد عن عُمر بن الحَكَم مُرْسَلًا: «فَدَعَا جُبَيْرُ بْنُ إِيَّاسِ الزُّرْقِيَّ فَدَلَّهُ عَلَى مَوْضِعِهِ فِي بئر دَرَوَانَ تَحْتَ أَرْعُوفَةِ البئر فَخَرَجَ جُبَيْرٌ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ. قَالَ ابْنُ سَعْدٍ: وَيُقَالُ: إِنَّ الَّذِي اسْتَخْرَجَ السَّحَرَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَيْسُ بْنُ مِحْصَنٍ الزُّرْقِيَّ. وَيُجْمَعُ بِأَنَّهُ أَعَانَ جُبَيْرًا عَلَى ذَلِكَ وَبَاشَرَهُ بِنَفْسِهِ فَتَسَبَّبَ إِلَيْهِ

التاسع: في بيان غريب ما سَبَقَ:

«الْحَدِيثِيَّةُ»: يَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي غَزَوَاتِهَا.

«الحليف»^(١): الْمُعَاهِد.

«بَنُو زُرَيْقٍ» بِتَقْدِيمِ الزَّايِ تَصْغِيرَ أَزْرَقٍ.

«أَسْعَوْتُ؟»: أَعْلِمْتِ؟.

«مَطْبُوبٌ»: مَسْحُورٌ. يُقَالُ: طُبَّ الرَّجُلُ - بِالضَّمِّ - إِذَا سُحِرَ وَكَتَبُوا بِالطَّبِّ عَنِ السَّحَرِ تَفَاؤُلًا بِالْبُرْءِ كَمَا كَتَبُوا بِالسَّلِيمِ عَنِ اللَّيْغِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْمُفْهِمِ: «إِنَّمَا قَالُوا لِلْسَّحَرِ طِبٌّ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الطَّبِّ الْجَذْقُ بِالشَّيْءِ وَالتَّقْطُنُ لَهُ، فَلَمَّا كَانَ كُلُّ مَنْ عَالَجَ الْمَرَضَ وَالسَّحَرَ إِنَّمَا يَأْتِي عَنْ فِطْنَةٍ وَجَذْقٍ، أُطْلِقَ عَلَى كُلِّ مَنِهَا هَذَا الْاسْمُ.

«مُشْطٌ»: مَعْرُوفٌ وَتَقْدَمُ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي شَرْحِ غَرِيبِ قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ.

«مُشَاطَةٌ»: مَا مُشِطَ مِنَ الرَّأْسِ.

«مُشَاقَّةٌ» قِيلَ: مُشَاقَّةُ الْكَثَّانِ. وَقِيلَ الْمُشَاقَّةُ هِيَ الْمُشَاطَةُ بَعَيْنِهَا، وَالْقَافُ تُبْدَلُ مِنَ الطَّاءِ لِقُرْبِ الْمَخْرَجِ وَهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

«جُفٌّ»: بِالْجِيمِ وَالْفَاءِ وَهُوَ الْغِشَاءُ الَّذِي يَكُونُ عَلَى الطَّلْعِ.

«الطَّلْعُ»^(٢): يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، فَلِهَذَا قَيَّدَهُ بِالذَّكَرِ، وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحِ بِنُتْوِينَ طَلْعَةً ذَكَرٍ فَهُوَ صِفَةُ الْحَقِّ إِلَى ذَكَرٍ.

«بئر دَرَوَانَ»: بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ وَزَنْ مَرَوَانَ. وَفِي رِوَايَةٍ «ذِي أَرَوَانَ» وَهِيَ الْأَصْلُ فَسُهِلَتْ الْهَمْزَةُ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ فَصَارَتْ دَرَوَانَ. وَفِي رِوَايَةِ السَّهْلِيِّ: ذِي رَوَانَ بِإِسْقَاطِ هَمْزَتِهِ [وَهُوَ] غَلَطٌ.

«الرَّاعُوفَةُ»: كَذَا لِأَكْثَرِ رِوَاةِ الصَّحِيحِ بِزِيَادَةِ أَلْفٍ خِلَافًا لِابْنِ التَّيْنِ حَيْثُ زَعَمَ أَنَّ رَعُوفَةَ

(١) انظر اللسان ٢/٩٦٤.

(٢) انظر اللسان ٤/٢٦٩١.

للأصيلي فقط وهو المشهور في اللغة. وفي لغة أَرَعُوفَة. وفي رواية عند أحمد «رَعُوثَة»، بقاء مثلثة بدل الفاء وهي لغة أخرى معروفة. وفيها لغة أخرى «زَعُوبَة» بالزاي والموحدة، وهما بمعنى واحد. والراعوفة^(١) حَجَرٌ يُوضَع عند رأس البئر لا يَسْتَطَاعُ قَلْعُهُ، يقوم عليه المُشْتَقِي، وقد يكون في أسفل البئر إذا اخْتَفِرَتْ، يجلس عليها الذي يُنْظَفُ البئر، وهو حجر يُوجد صلباً لا يستطاع قَلْعُهُ.

«أفتاني فيما استفتيته فيه»: أَجَابَنِي فيما دَعَوْتُهُ، فأطلق على الدعاء استفتاء لأن الداعي طالب، والمُجِيب مُسْتَفْتًى، والمعنى: أجابني عما سألته عنه؛ لأن دعاءه كان الله أعلمه على حقيقة ما هو فيه لما اشتد عليه الأمر.

«أُنْشِطَ من عِقَالٍ»^(٢): بضم الهمزة. وفي رواية إسقاط الألف، أي حُلَّ كما قال في النهاية، وكثيراً ما يجيء في الرواية «كأنما نَشِطَ من عِقَالٍ» وليس بصحيح، يقال: نَشِطْتُ العُقْدَةَ إذا عَقَدْتَهَا، وَأَنْشِطْتُهَا وانتشطتها إذا حَلَلْتُهَا. انتهى. قال في البارع تقول العرب: «كأنما أُنْشِطَ من عِقَالٍ»، بضم الهمزة. ويقال في المَثَل للمريض: يُشْرِعُ بُزُوهُ، والمَغْشِيُّ عليه تُشْرِعُ إِفَاقَتُهُ في أمرٍ شَرَعَ فيه عَزِيمَتُهُ: «كأنما أُنْشِطَ من عِقَالٍ»، ويقال نشط، انتهى. فأثبت ما في الرواية لغةً، وهو أعرف باللغة من صاحب النهاية.

«تَنَشَّرَتْ»: ظاهر صحيح البخاري أنه من التَّنَشَّرَةِ، ويحتمل أنه من التَّنَشَّرِ بمعنى الإخراج فيوافق رواية من رواه بلفظ «أَفْأَخْرَجَتْهُ؟» ورواية «أَفْلا» وحذف المفعول للعلم به ويكون المراد بالمُخْرَج ما حواه الجُفَّ لا الجُفَّ نفسه، ليتأكد الجمع المتقدم ذكروه. والتَّنَشَّرَةُ ضَرْبٌ من العلاج يُعَالَجُ به من يُظَنُّ أَنْ به سِحْرٌ أَوْ مَسٌّأ. قيل للتَّنَشَّرَةُ ذلك لأنه يُكْشَفُ بها عنه ما خالطه من الداء. والله أعلم.

(١) انظر اللسان ١٦٧٣/٣.

(٢) انظر اللسان ٤٤٢٨/٦.

الباب الثالث عشر

في معرفة بعض طغاة المنافقين الذين انضافوا إلى اليهود وبعض أمور
دارت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم

سرد ابن إسحاق وجماعة أسماء المنافقين، وأنا ذاكِرُ هنا بعض من نزل القرآن الكريم
بكشف حاله، وأقدم قبل ذلك معنى النفاق. النفاق: اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى
المخصوص به، وهو فعل المنافق الذي ينشُرُ كُفْرَهُ ويُظهِرُ إِيْمَانَهُ كما يَتَسَتَّرُ الرجل بالنَّفَقِ الذي
هو الشَّرِب^(١)، فقليل هو اشتقاقه من هذا. وقيل من قولهم نافع اليربوع إذا دخل في قاصعائه
وخرج من نفاقائه وبالعكس. وذلك أن اليربوع له جِخْرَةٌ أربعة: النافقاء والقاصعاء والواهِطَاء
والدَّائِماءُ، فهو يُرْفِقُ أَقْصَى النافقاء ويكتمها ويظهر غيرها. فإذا قصد من غيرها من الجُحْرِ ضرب
النافقاء برأسه فانتفق منها أي خرج. وقيل: إنها نافذة بعضها إلى بعض، فمن أيها قصد خرج من
الأخرى. فكَذَلِكَ المنافق يدخل في الإيمان من جهة ويخرج من جهة أخرى فاشتقاقه من فعل
اليربوع. وقيل: اشتقاقه من صورة النافقاء لا من فعل اليربوع، وذلك أن النافقاء ظاهره مدخل
وباطنه مخرج ومَهْرَب، فكذا المنافق ظاهره إيمان وباطنه كُفْرٌ، ومحل النفاق القلب.

ولما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينةَ أَسْلَمَ بَشِيرٌ كَثِيرٌ مِنْ أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هِدَايَتَهُ.
وانضاف إلى اليهود أناس من الأوس والخزرج ممن كان عَسَا في الجاهلية، فكانوا أهل نِفَاقٍ
على دين آبائهم من الشُّرْكِ والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره، واجتماع قومهم
عليه، فتنظَّهروا بالإسلام واتخذوه مَجْنَّةً من القتل ونافقوا في الشَّرِّ، وكان هواهم مع يهود
لتكذيبهم برسول الله ﷺ وجحودهم الإسلام.

وقد ذكر الله أخبارهم في سورة براءة وغيرها. فمن المنافقين: الجُلَاسُ - بجيم مضمومة
فلام مُخَفَّفَةٌ فَأَلْفٌ فسین مهملة - ابن سُوَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ. قال ابن إسحاق: وكان يُؤْمِنُ تَخَلُّفَ عَنْ
رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. وروى ابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك، وابن
أبي حاتم عن ابن عباس، وعبد الرزاق، وابن سعد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ
عن عُزْوَةَ قَالُوا: لما نزل القرآن فيه ذِكْرُ الْمُنَافِقِينَ قَالَ الْجُلَاسُ: «والله لئن كان هذا الرجل
صَادِقًا [على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا] لنحن شرُّ من الحمير». فسمعها عُتَيْرُ بْنُ سَعْدٍ
رضي الله عنه، وكان في حجر جُلَاسٍ خَلَفَ عَلَى أُمِّهِ بَعْدَ أَبِيهِ. فقال له عُتَيْرُ: «والله يا جُلَاسُ
إنك لأحبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَأَحْسَنُهُ عِنْدِي يَدًا وَأَعَزُّهُ عَلَيَّ أَنْ يُصِيبَهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَقَدْ قُلْتُ مَقَالَةً

(١) الشَّرِب: المشكك في شُغْفِهِ. انظر النهاية ٣٥٦/٢.

لئن رَفَعْتُهَا عَلَيْكَ - لَأَفْضَحَنَّكَ وَلئن صَمَتَ لَيَهْلِكَنَّ دِينِي وَإِلْحِدَاهُمَا أَيْسَرُ عَلَيَّ مِنَ الْآخَرَى». فَمَشَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ مَا قَالَ لَهُ جُلَاسٌ. فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ فَحَلَفَ جُلَاسٌ بِاللَّهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ عُثَيْرٌ وَمَا قُلْتُ مَا قَالَ عُثَيْرُ. فَقَالَ عُثَيْرُ: «بَلِ وَاللَّهِ قُلْتُهُ فَتُبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ أَنَّ يَنْزِلَ قُرْآنٌ فَيَجْعَلُنِي مَعَكَ مَا قُلْتُهُ». فَجَاءَ الْوَحْيُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَكَتُوا لَا يَتَحَرَّكَ أَحَدٌ. وَكَذَلِكَ كَانُوا يَفْعَلُونَ لَا يَتَحَرَّكُونَ إِذَا نَزَلَ الْوَحْيُ، فَرُفِعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْوَ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَكْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» [التوبة ٧٤] فقال [جُلَاسٌ]: «قَدْ قُلْتُهُ وَقَدْ عَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ التَّوْبَةَ فَأَنَا أَتُوبُ». فَقِيلَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَكَانَ هُمْ أَنْ يَلْحَقَ بِالْمُشْرِكِينَ. [وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِأُذُنِ عُثَيْرٍ وَقَالَ]: «يَا غُلَامَ وَفَتْ أَذُنُكَ وَصَدَّقَكَ - رَبُّكَ».

تنبيهات

الأول: ذُكِرَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ شَيْءٌ آخَرُ: وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ فِي غَزْوَةِ الْمُزَيْنَةِ: «وَاللَّهِ مَا مَثَلْنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَاتِلُ: سَمَنْ كَلَبْتُكَ يَا كَلْبُكَ. وَاللَّهِ لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ». فَسَعَى بِهَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَأَرْسَلَ خَلْفَ ابْنِ أُبَيٍّ فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا قَالَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَةَ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ. وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ الْمُزَيْنَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الثاني: رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، أَنَّ الْجُلَاسَ تَابَ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ، وَلَمْ يَنْزِعْ عَنْ خَيْرٍ كَانَ يَصْنَعُهُ إِلَى عُثَيْرٍ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا عُرِفَتْ بِهِ تَوْبَتُهُ.

وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ: نُبَيْلٌ - بَنُونَ مَفْتُوحَةٌ فَمَوْحِدَةٌ سَاكِنَةٌ ففوقية مَفْتُوحَةٌ فلام - ابْنُ الْحَارِثِ، وَكَانَ رَجُلًا جَسِيمًا، أَذْلَمَ، ثَائِرَ شَعْرِ الرَّأْسِ أَحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ، أَشْفَعَ الْخَدَّيْنِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نُبَيْلِ بْنِ الْحَارِثِ».

وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بَعْضِ بَنِي الْعَجْلَانِ أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّهُ يَجْلِسُ إِلَيْكَ رَجُلٌ أَذْلَمَ ثَائِرَ شَعْرِ الرَّأْسِ أَشْفَعَ الْخَدَّيْنِ أَحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ كَأَنَّهُمَا قِدْرَانِ مِنْ صُفْرِ، كَبِدُهُ أَغْلَظُ مِنْ كَبِدِ الْحِمَارِ، يَنْقُلُ حَدِيثَكَ إِلَى الْمُنَافِقِينَ فَاخْذَرْهُ». وَكَانَتْ تِلْكَ صِفَةُ نُبَيْلِ بْنِ الْحَارِثِ يَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيَسْمَعُ مِنْهُ ثُمَّ يَنْقُلُ حَدِيثَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ. وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُمْ: «إِنَّمَا مُحَمَّدٌ أَذُنٌ، مَنْ حَدَّثَهُ بِشَيْءٍ صَدَّقَهُ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ

وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [التوبة ٦١].

تنبيه: في بيان غريب ما سَبَقَ:

«الأذلم»^(١): بدال مهمل: الأسود الطويل.

«ثائر شعر الرأس»: منتشر الشعر.

«أشفع الحذّين»^(٢): الشفعة - بالضم: سَوَادٌ مُشْرَبٌ بِحُمْرَةِ أَوْ زُرْقَةٍ.

«الصفّر» بضم الصاد المهمل والمهمل: الثّغاس.

ومنهم: مزبج - بميم مكسورة فراء ساكنة فموحدة مفتوحة فعين مهمل - ابن قَيْطِيٍّ - بقاف فتحية فطاء معجمة مُشَالَّةٌ - وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه، ورسول الله ﷺ عائدٌ إلى أُحُد: «لَا أُحِلُّ لَكَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا أَنْ تُمَرُّ فِي حَائِطِي». وأخذ في يده حفنة من تراب ثم قال: «والله لو أعلم أنني لا أصيب بهذا التراب غَيْرَكَ لَرَمَيْتُكَ بِهِ». فابتدروا القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوهُ فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ أَعْمَى الْبَصَرِ»^(٣).

ومنهم عبد الله بن أُبَيٍّ بن سُلُولٍ، وسُلُولٌ هي أم أُبَيٍّ وهو أُبَيٌّ بن مالك العُزْفِيُّ أحد بني الحُبَيْلَى. وكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون، وهو الذي قال: «لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ» في غزوة بني الْمُصْطَلِق. وفي قوله ذلك نزلت سورة المنافقين بأسرها. وقَدِمَ النبي ﷺ المدينة وعبد الله بن أُبَيٍّ سيد أهلها لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، لم يجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غَيْرِهِ حتى جاء الإسلام. وكان قومه قد نظموا له الخَزَرَ لِيَتَوَجَّوهُ ثُمَّ يُمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ، فجاءهم الله عز وجل برسوله ﷺ وهم على ذلك فلما انصرف قَوْمُهُ عَنْهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ضَبِغْنَ، ورَأَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ اسْتَلَبَهُ مُلْكًا. فلما رَأَى قَوْمَهُ قَدْ أَبْوَا إِلَّا الْإِسْلَامَ دَخَلَ فِيهِ كَارِهًا مُصْبِرًا عَلَى نِفَاقٍ وَضِغْنٍ.

وروى ابن إسحاق، والإمام أحمد، والشيخان عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما. قال: رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ فَوْقَهُ قَطِيفَةٌ فَذَكِيَّةٌ مُخْتَطِمَةٌ بِحَبَلٍ مِنْ لَيْفٍ. قال: وأردفني رسول الله ﷺ خَلْفَهُ يَعُودُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ،

(١) انظر اللسان ١٤١٥/٢.

(٢) انظر اللسان ٢٠٢٧/٣.

(٣) انظر البداية والنهاية ٢٣٩/٣.

فمر بعبد الله بن أبيّ وذلك قبل أن يُسَلِّم وهو في ظلِّ أُطُمٍ وفي مجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود في مجلس عبد الله بن رواحة. فلما غَشِيَتِ المجلس عجاجة الذَّابَّة خَمَّرَ عبدُ الله بن أبيّ أنْفَه بردائه وقال: لا تُعَبِّرُوا علينا. فسَلَّمَ رسولُ الله ﷺ ووقف فنزل فدعاهم إلى الله فقرأ عليهم القرآن وحذَّر وبشَّر وأنذر فقال له عبد الله بن أبيّ: «يا أيها المرء إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقًّا فلا تؤذونا به في مجلسنا، وارجع إلى رَحِيلِكَ فمن جاءك فاقصص عليه». قال: فقال ابن رواحة: «بلى يا رسول الله فَاغْشَيْنَا به في مجالسنا فهو والله مما نُحِبُّ». فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون. فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا. فركب رسول الله ﷺ دابته حتى دخل إلى سعد بن عُبادَةَ، فقال له: «أي سعد أَلَمْ تسمع ما قال أبو حُباب؟ يريد عبد الله بن أبيّ. فقال سعد: «يا رسول الله اغفُ عنه واضفَعْ فلقد أعطاك الله ما أعطاك، ولقد اجتمع أهل البَحِيرَةِ على أن يُتَوَجَّهوه فيعصبوه، فلما رُدُّ ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِيق، فذلك الذي فعل به ما رأيته»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قلت: يا نبيَّ الله لو أتيت عبد الله بن أبيّ؟ فانطلق إليه النبي ﷺ، فركب جِمَاراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سَبِيخَةٍ. فلما أتاه رسول الله ﷺ، قال: إِلَيْكَ عَنِّي فوالله لقد أذاني نَتْنُ جِمَارِكَ. فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أَطْيَبُ ريحاً منك.

فغَضِبَ لعبد الله رجل من قومه فشتمه، وغَضِبَ لَكُلِّ واحدٍ منهما أصحابه، فكان بينهم ضَرْبٌ بِالْحَرِيدِ - وفي لفظ بالحديد - والأيدي والثُّعَال، فبلغنا أنه أُنْزِلَ فيهم ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات ٩]. رواه الشيخان.

قال ابن إسحاق: وقال عبد الله بن أبيّ حين رأى من خلاف قومه ما رأى: مَتَى مَا يَكُنْ مَوْلَاكَ خَضَمَكَ لَا تَزَلْ تَذِلُّ وَيَضْرَعُكَ الَّذِينَ تُصَارِعُ وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحِهِ وَإِنْ لَجُدَّ يَوْمًا رِيشُهُ فَهُوَ وَاقِعٌ ومنهم أبو عامر الفاسق واسمه: عبد عمرو بن صيفي بن النعمان الأوسي أخذ بني ضُبَيْعَةَ بن زيد، وهو أبو حَنْظَلَةَ غَسِيل الملائكة. وكان أبو عامر قد تَرَهَّبَ في الجاهلية وَلَيْسَ المسوح، فكان يقال له الراهب. وكان شريفاً مُطَاعاً في قَوْمِهِ فشقى بشرفه وضره. ولما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة أتاه أبو عامر قبل أن يخرج إلى مكة فقال: يا محمد ما

(١) أخرجه البخاري ١٥٤/٧ ومسلم في كتاب الجهاد (١١٦) وأحمد في المسند ٢٠٣/٥ وعبد الرزاق (٩٧٨٤) والطبراني في الكبير ٦٧/٦.

هذا الدين الذي جئت به؟ فقال رسول الله ﷺ: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم». قال: فإنني عليها. فقال رسول الله ﷺ: «لست عليها [لأنك أَدْخَلْتَ فيها ما ليس منها]». قال: بل أَدْخَلْتُ يا محمد في الحنيفية ما ليس منها. قال: «ما فعلت بل جئت بها بيضاء نقيّة». فقال أبو عامر: أَمَاتَ اللهُ الكاذِبَ [منا] طريداً وحيداً. وإنما قال ذلك يُعَرِّضُ برسول الله ﷺ حيث خرج من مكة. فقال رسول الله ﷺ: «نعم أَمَاتَ اللهُ الكاذِبَ منا كذلك». فكان ذلك هو عَدُوَّ اللهِ فخرج إلى مكة. فلما فتح رسول الله ﷺ مكة، خرج إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريداً غريباً وحيداً^(١).

(١) أخرجه أبو نعيم في الدلائل ١٩/١ وذكره القرطبي في التفسير ٣٢٠/٧.

فهرس الجزء الثالث
من
سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد

جماع أبواب معراجہ صلى الله عليه وسلم

- الباب الأول: في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى...﴾ ٤
- الباب الثاني: في تفسير أول سورة النجم ٢٢
- الباب الثالث: في اختلاف العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج ٥٥
- الباب الرابع: في أي زمان ومكان وقع الإسراء ٦٤
- الباب الخامس: في كيفية الإسراء برسول الله ﷺ وهل تكرر أم لا ٦٧
- الباب السادس: في دفع شبهة أهل الزيغ في استحالة المعراج ٧٤
- الباب السابع: في أسماء الصحابة الذين رووا القصة عن النبي ﷺ ٧٦
- الباب الثامن: في سياق القصة ٧٩
- الباب التاسع: في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج ٩٦
- الباب العاشر: في صلاة جبريل بالنبي ﷺ ليلة الإسراء وكيف فرضت الصلاة ١٧٧

جماع أبواب بدء إسلام الأنصار

- الباب الأول: في نسبهم ١٨١
- الباب الثاني: في فضلهم وحبهم والوصية بهم والتجاوز عن مسيئتهم والنهي عن بغضهم ١٨٣
- الباب الثالث: في بدء إسلامهم رضي الله عنهم ١٨٩
- الباب الرابع: في ذكر يوم بعث ١٩٢
- الباب الخامس: في بيعة العقبة الأولى ١٩٤
- الباب السادس: في بيعة العقبة الثانية ١٩٧
- الباب السابع: في إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ١٩٨
- الباب الثامن: في بيعة العقبة الثالثة ٢٠١
- الباب التاسع: في إسلام عمر بن الجموع ٢٢٢

جماع أبواب الهجرة إلى المدينة الشريفة

- الباب الأول: في إذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ٢٢٤
- الباب الثاني: في سبب هجرة النبي ﷺ بنفسه الكريمة وكفاية الله تعالى رسوله مكر المشركين حين أرادوا ما أرادوا ٢٣١

الباب الثالث: في قدر إقامة النبي ﷺ بمكة بعد البعثة ورؤياه الأرض التي يهاجر

إليها ٢٣٦

الباب الرابع: في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات ٢٣٨

الباب الخامس: في تلقي أهل المدينة رسول الله ﷺ ونزوله بقاء وتأسيس مسجد

قبا ٢٦٦

الباب السادس: في قدومه ﷺ باطن المدينة وما آلت إليه ٢٧١

جماع أبواب بعض فضائل المدينة الشريفة

الباب الأول: في بدء شأنها ٢٨١

الباب الثاني: في أسماء المدينة مرتبة على حروف المعجم ٢٨٦

الباب الثالث: في النهي عن تسميتها يثرب ٢٩٦

الباب الرابع: في محبته ﷺ لها ودعائه لها ولأهلها ٢٩٧

الباب الخامس: في عصمتها من الدجال والطاعون ببركته ٣٠٣

الباب السادس: في الحث على الإقامة والموت بها والصبر على لأوائها ونفيها الخبث

والذنوب واتخاذ الأصول بها والنهي عن هدم بنيانها ٣٠٦

الباب السابع: في وعيد من أحدث بها حدثاً أو آوى محدثاً ٣١٢

الباب الثامن: في تفضيلها على البلاد لحلوله ﷺ فيها ٣١٥

الباب التاسع: في تحريمها ٣١٨

الباب العاشر: في ذكر بعض خصائصها ٣٢٠

جماع أبواب بعض حوادث من السنة الأولى

والثانية من الهجرة

الباب الأول: في صلاته ﷺ الجمعة ببني سالم بن عوف ٣٣١

الباب الثاني: في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات ٣٣٥

الباب الثالث: في بنائه ﷺ حجر نسائه رضي الله عنهن ٣٤٨

الباب الرابع: في بدء الأذان وبعض ما وقع في ذلك من الآيات ٣٥١

الباب الخامس: في مؤاخاته ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم ٣٦٣

الباب السادس: في قصة تحويل القبلة ٣٧٠

جماع أبواب بعض أمور دارت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبين اليهود والمنافقين

- الباب الأول: في أخذ سبحانه وتعالى العهد عليهم في كتبهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ
 إذا جاءهم واعتراف جماعة منهم بنبوته ثم كفر كثير منهم بغياً وعناداً ٣٧٦
- الباب الثاني: في إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث بن أبي يوسف ٣٧٩
- الباب الثالث: في موادعته ﷺ اليهود وكتبه بينه وبينهم كتاباً بذلك ٣٨٢
- الباب الرابع: في سؤال اليهود رسول الله ﷺ عن الروح ٣٨٥
- الباب الخامس: في تخييرهم في مدة مكث هذه الأمة لما سمعوا الحروف المقطعة في
 أوائل السور ٣٩١
- الباب السادس: في سبب نزول سورة الإخلاص ٣٩٦
- الباب السابع: في إرادة شأس بن قيس إيقاع الفتنة بين الأوس والخزرج ٣٩٨
- الباب الثامن: في سبب نزول قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ
 وَنَحْنُ أَغْنَاءُ﴾ ٤٠٠
- الباب التاسع: في سؤالهم عن أشياء لا يعرفها إلا نبي وجوابه لهم ٤٠٢
- الباب العاشر: في رجوعهم إليه ﷺ في عقوبة الزاني ٤٠٦
- الباب الحادي عشر: في سؤالهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين ٤٠٩
- الباب الثاني عشر: في سحرهم إياه ﷺ ٤١٠
- الباب الثالث عشر: في معرفة بعض طغاة المنافقين ٤١٦

